



المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

الدراسات العليا

قسم الأدب والبلاغة والنقد

الاستنباط عند محمود شاكر

(مصادر المعرفة وطرق الاستنباط)

بحث علمي مقدم لنيل درجة الدكتوراه في تخصص البلاغة والنقد من الطالب:

علي بن عوض عبد الله الزهراني

الرقم الجامعي : ٤٣٧٧٠٢٤٢

إشراف الأستاذ الدكتور:

هاني فراج أبو بكر

٢٠١٨/٤٤٠ م

مقدمة الدراسة

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، ثم أما بعد :

فلا يزال الاستنباط منهجاً قائماً بين أهل العلم والمعرفة ، وهو من مواريث علماء التراث العربي الذين أداروا عليه كثيراً من مؤلفاتهم ، فالمتأمل في كتب التراث العربي يقف على استنباطات علماء أجلاء ، فيرى اختلافاً في طرائقها وأنواعها وأساليبها ، والمتابع لها يلاحظ إسهامها الفاعل في اكتمال نمو علوم العربية حتى تامها ، ولقد عني علماء عصرنا الحديث بكتب التراث العربي ، فهبو لإخراجها لطلبة العلم تحقيقاً ونشرأ ، كما قاموا باستنباط بعض ما فيها من وداع علمية ونفائس معرفية ، فكان تأثرهم بعلماء التراث العربي على مستوى المنهاج والمعالجة ، وكان من أبرز هؤلاء العلماء في عصرنا الحديث (الأستاذ : محمود محمد شاكر) ، الذي أولى التراث العربي اهتماماً ومزيد عنابة ، فقرأ وعلق على عدد من المخطوطات العلمية العربية الهامة ، والتي اشتملت حواشيه على العديد من الاستنباطات والجهود النقدية والأدبية ، شأنها في ذلك شأن مؤلفاته الخاصة به والتي كان له فيها نهج استنباطي يسترعى الانتباه ، فبحثت في المكتبة العربية لأرى من كتب في الاستنباط عند محمود شاكر ، فلم أجد - في حدود بحثي واطلاعي - دراسة خاصة اختصت بالاستنباط عند محمود شاكر ، فعزمت بعد مشيئة الله وقدرته أن أخصص دراستي هذه عن الاستنباط عند محمود شاكر ، وقد عنونتها بعنوان (الاستنباط عند محمود شاكر مصادر المعرفة وطرق الاستنباط).

وتكمّن أهمية هذه الدراسة في محاولة كشفها القناع عن منهجة الاستنباط عند محمود شاكر ، من خلال قراءاته وتعليقاته على كتب التراث العربي ومن خلال مؤلفاته ، كما تكمّن أهميتها في أنها ستوضح ذلك المنهاج الذي سماه محمود شاكر بالتذوقى ، والذي عالج به قضيّاً الأدبية ومشاريعه النقدية ، وجعله سبيلاً لفهم كلام العرب وسياقاتهم الشعرية والثرية على حد سواء .

وتحصر مشكلة هذه الدراسة في خصوصية الاستنباط وأداته والمصادر المعرفية عند محمود شاكر في مؤلفاته ، وقيمة تلك الاستنباطات والتعليقات والجهود والاستدراكات النقدية في حواشى قراءاته وتعليقاته على كتب التراث ، وإخضاع كل ذلك لميزان النقد والتأويل .

وكانت هذه المشكلة سبباً في طرح بعض التساؤلات التي حاولت هذه الدراسة الإجابة عنها ومنها : ما مفاهيم الاستنباط بالنظر إليه مابين الأصوليين والبلغيين ؟ ما المصادر المعرفية عند محمود شاكر ؟ وما طرائقه الاستنباطية وما أصولها الثقافية ؟ وكيف سيطر التذوق على الاستنباط عنده ؟ وهل استدراكاته قائمة على أساس علمي ؟ وما هي المعايير والأدوات التي استخدمها في ذلك ؟ وما أنماط الاستنباط عنده ؟ وما أنواع البنية الاستنباطية عنده ؟ وكيف تنوّعت المواقف الاستنباطية عنده ؟ وما سبب ذلك التنوّع ؟

وتهدف هذه الدراسة إلى تمييز مفاهيم الاستنباط ما بين الدرسرين الأصولي والبلاغي ، والكشف عن المصادر المعرفية عند محمود شاكر من خلال نتاجه العلمي ومسيرته ، وتحدّف أيضاً إلى الكشف عن طرائق الاستدلال وأنماطها عنده ، وإخضاعها لميزان النقد والمراجعة ، ومن أهم أهداف هذه الدراسة أيضاً تتبعها لطرائق الاستدلال واستقراء المواقف الاستنباطية عند محمود شاكر .

وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع أن مصادر المعرفة عند محمود شاكر مما يستحق الدراسة والعناية ، إذ إنها السبب الرئيس الذي جعلته يتميّز عن غيره من علماء عصره ، كما أن هذه الدراسة ستحاول التوقف عند هذه المصادر المعرفية وبيان أثرها عليه ، وما دفعني أيضاً لاختيار هذا الموضوع أن صور الاستنباطات والاستدلالات عند محمود شاكر تختلف من موضع لآخر ، ومن سياق لآخر ، وهي تحتاج إلى من يكشف عن دلالتها ويبين حقيقتها ، وذلك أن القضايا التي تناولها محمود شاكر في مؤلفاته وقراءاته وتعليقاته على كتب التراث العربي تختلف في سياقاتها بحسب المتغيرات الأدبية ، ونظرة النقاد والأدباء والبلغيين لها ، كقضية الاتصال ، وترتيب القصيدة ، ووحدة القصيدة الجاهلية ، وقدم وحداثة الشعر ، والدلالة الوظيفية للصورة الشعرية والنغم ، وما دفعني أيضاً لاختيار هذا الموضوع شهرة محمود شاكر العلمية في الدراسات الأدبية الحديثة والمشهد الثقافي المعاصر ، وأن مؤلفاته وتحقيقاته قد امتازت بجهود علمية تستحق الوقوف عندها والبحث فيها ومساءلتها .

وبعد هذه الدوافع نظرت فيما أستعين فيه - بعد الله - من المصادر والمراجع ، فكان نتاج محمود شاكر العلمي هو مصدر الدراسة وركلها الأساس ، لما تضمنه من جهود استباطية تكشف معلم الاستباط عنده ، سواء كانت تلك الجهود مؤلفات أهمها :

١ - أباطيل وأسمار .

٢ - جمارة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان .

٣ - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا .

٤ - قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام .

٥ - المتنبي .

٦ - مداخل إعجاز القرآن .

٧ - نمط صعب ونمط حنيف .

أو كانت قراءات وتعليقات على كتب التراث العربي أهمها :

١ - أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني .

٢ - تفسير الطبرى (جامع البيان) .

٣ - جمارة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار .

٤ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني .

٥ - طبقات فحول الشعراء لحمد بن سلام الجمحى .

٦ - كتاب الوحشيات لأبي تمام .

أما الدراسات السابقة فلم أجد دراسة اختصت بجانب الاستبطاط عند محمود شاكر ، وأخص منها تلك الدراسات الأكاديمية المنظمة والتي أنجزت في رصد شخصية محمود شاكر ومسيرته العلمية ومنهجه النقدي ، ومن ثم تبين لي جدوى الوقوف على استنباطات محمود شاكر وبيان ما أنجز في مساقها البحثي من دراسات تقاطع أو تقارب مع هذه الدراسة ، وأهمها في حدود بحثي واطلاعي :

١ - شيخ العربية وحامل لوائها أبو فهر محمود شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق ، وهي رسالة علمية للأستاذ محمود الرضوانى صدرت عن مكتبة الخانجي بمصر عام ٢٠٠٧ م ، وقد اشتملت على خمسة فصول :

الفصل الأول : منهج التذوق عند محمود شاكر وقد قام فيه بتحليل مصطلح التذوق عند محمود شاكر ، وتتبع تاريخه ومراحله ، وربطه بإعجاز القرآن .

الفصل الثاني : السيرة الفنية لمحمد شاكر وتحدث فيها عن كتابه المتنبي وعن مسيرته العقلية.

الفصل الثالث : النص الشعري عند محمود شاكر والأدوات التي واجهها به .

الفصل الرابع : القضايا الأدبية التي أثارها الأستاذ (المتنبي – المعري – المجاز – دلالة اللفظ – النغم).

الفصل الخامس : منهج الأستاذ في تحقيق التراث العربي ، والآثار التي خلفتها ثقافته على منهجه في التحقيق .

٢ - محمود محمد شاكر دراسة في حياته وشعره للباحثة : أمانى حاتم مجدى بسيسو، الناشر: روافد ، عدد الأجزاء: ١ . الطبعة: الأولى رجب ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.

وهي دراسة علمية تقع في أربع وثمانين صفحة بعد المائة ، ركزت فيها الباحثة على حياة محمود شاكر وقصائده التي لم يتعرض لها النقاد ، وقد تكونت هذه الدراسة من خمسة فصول :

الفصل الأول : : تناول حياة محمود شاكر وتتبع مراحله العمرية والعلمية ، وسماته الشخصية.

الفصل الثاني : ركزت الباحثة فيه الحديث عن منهج التذوق عند محمود شاكر ، حيث أبانت فيه عن مفهوم المنهج التذوقي عنده ، وأصوله المنهجية ، وعرضت فيه لأنماذج التذوق وهما : المتنبي ، ونط
صعب ونمط مخيف.

الفصل الثالث : تحدثت فيه عن رؤية محمود شاكر للشعر العربي ، وتعريفه له وأركانه لديه ، ومدى توافق رؤيته الشعرية مع المدرسة الديوانية.

الفصل الرابع : ركزت فيه الباحثة على قراءة ثلاثة نصوص شعرية لمحود شاكر : (القوس العذراء ، ألسنتِ؟ ، اعصفي ياري أح)

الفصل الخامس : وازنت فيه الباحثة بين شعر محمود شاكر ، وشعر سيد قطب ، من حيث الظواهر الموضوعية والظواهر الفنية.

- ٣ - محمود محمد شاكر ، الرجل والمنهج، وهي رسالة علمية للباحث عمر حسن القيام ، وقد طبعت في سلسلة أعلام المسلمين في العصر الحديث التي تصدرها دار البشير بالأردن ومؤسسة الرسالة بيروت للعام ٢٠١٠ م.

وهي رسالة علمية تكونت من خمسة فصول وهي :

الفصل الأول : تحدث فيه باستفاضة عن معلم شخصية محمود شاكر ومسيرته الشخصية والعلمية.

الفصل الثاني: تحدث فيه عن مفهوم المنهج عند محمود شاكر (منهج التذوق) وأصوله النظرية.

الفصل الثالث : تناول الحديث فيه عن تطبيق الأصول (قضية صحة نسبة الشعر الجاهلي، قضية اختلال ترتيب القصيدة الجاهلية ، مواجهة النص ودراسته) .

الفصل الرابع : تحدث فيه عن مداخل النص عند محمود شاكر ، وب Haoa بلغة النص ، ثم موسيقى النص ، وكذلك الصورة الشعرية ، وختم الحديث في هذا الفصل عن بعض من جوانب المداخل الأخلاقية للنص عند محمود شاكر .

٤ - محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النبدي ، وهي رسالة علمية للباحث: إبراهيم الكوفحي ،
ط١ ، عام ١٩٩٨ م ، مكتبة الماجستير بالقاهرة .

وقد تكونت من تمهيد وبابين، اشتمل كلّ باب على فصلين أما التمهيد، فقد قصر الحديث فيه عن حياة
محمود محمد شاكر وثقافته .

أما الباب الأول: فقد اشتمل على فصلين تحدث في الأول منهما عن شعر محمود محمد شاكر، الذي كان قليلاً
بالنظر إلى إنتاجه الغزير في الميادين الأخرى.

وقد تحدث في الفصل الثاني عن أدب المقالة عند محمود محمد شاكر، وأن هذا المجال من الكتابة هو الذي
استوعب أعظم أعماله، كـ "أباطيل وأسمار" وـ "نط صعب ونط مخيف" ، وختم هذا الفصل بحديث عن
أسلوب شاكر ، وسماته المميزة القائمة على الأصالة والوضوح ، وما يقتضيه الاستطراد والتكرار، وما يتخلل
ذلك من الحدة، والإدراك الدقيق لأسرار البيان العربي، ودلالة ذلك كله على شخصية شاكر.

أما الباب الثاني، فقد تبلور حول بعد النقدى لشخصية شاكر ، وانضم على فصلين، تحدث في الأول منهما
عن الآفاق النظرية لمفهوم النهج كما تبلور على يد شاكر ، أما الفصل الثاني ، فقد توقف فيه الباحث عند
الجهود التطبيقية التي تبلورت على يد شاكر، حيث تم اختبار فاعلية الجهاز النظري في المسارات التاريخية
والأدبية والتي كشفت عن مقدرة بالغة في المواءمة بين المنظومة النقدية النظرية و مجالاتها التطبيقية، فتوقف عند
كتاب المتنبي و "أباطيل وأسمار" وـ "نط صعب ونط مخيف" ، كما تناول فيه علم معاني أصوات الحروف .

٥ - دراسة لغوية بعنوان (آراء محمود شاكر وجهوده اللغوية) وهي رسالة علمية نالت بمحاجتها الطالبة:
محسن قربان الماجستير في قسم اللغة والنحو بجامعة أم القرى ، وهذه الدراسة قيمة جداً في بيان جهود محمود
شاكر اللغوية وتعامله الفريد مع معطيات معاجم اللغة واستدراكاته على علماء اللغة ، وكل ذلك بلا شك
سيؤثر تأثيراً كبيراً على الجانب الاستنباطي عنده ، وقد تكونت هذه الدراسة من ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تحدثت فيه عن موقف الأستاذ محمود شاكر من اللغة العربية ، وموقفه من التجديد واللهجة
العامية ، وموقفه من إلغاء الإعراب وكتابة حروف العربية بالحروف اللاتينية ، ونظرة الأستاذ إلى اللغة العربية.

الفصل الثاني : تحدثت فيه الباحثة عن جهود الأستاذ محمود شاكر في تفسير الألفاظ واستدراكاته على معاجم اللغة العربية ، ومنهجه في تصويب اللفظة العربية .

الفصل الثالث : تحدثت فيه الباحثة عن جهود الأستاذ محمود شاكر اللغوية ، واهتمامه بمسائل النحو العربي ، واهتمامه بمعاني أصوات الحروف ، واهتمامه بإحياء اللغة العربية ، واستعماله للغة العربية العالية.

ويلاحظ في هذه الدراسات العلمية عدم اختصاص أحداً بجانب الاستنباط عند محمود شاكر ومصادره المعرفية وطريقه ، كما يلحظ أيضاً عدم اختصاص فصل أو مبحث منها عن ذلك ، ولكن ذلك لا يعني خلوها من الحديث عن الاستنباط عند محمود شاكر في سياق الحديث عن منهجه العلمي ، إلا أنها لم تتناوله وهي في معرض ذلك بما تطمح له هذه الدراسة من تناول ، كما أنها تناولت منهجه التذوق عند محمود شاكر بشكله العام ، وهذه الدراسة سوف تتناوله في حدود منهجه الاستنباطي ، والحق بأن هذه الدراسات قد أثبتت لي عن كثير من مسيرة محمود شاكر وحياته ، والتي كان لها تأثير مباشر على مصادره المعرفية وطريقها ، وكانت ذات صلة وطيدة بمنهجه الاستنباطي وإجرائه التذوقي ، هذا وقد سرت في البحث وفق مخطط مكون من تمهيد وأربعة فصول :

أما التمهيد : فقد تناولت فيه مفاهيم الاستنباط بين الأصوليين والبالغين ، وإجراءات المنهج الاستنباطي

 وضوابطه .

وأما الفصل الأول: فقد خصصته لمصادر المعرفة عند محمود شاكر ، وقسمته إلى ثلاثة مباحث : (الذوق والدرية – اللغة والاستعداد الذائي – الثقافة والتجربة).

وأما الفصل الثاني فقد جعلته لطرق الاستنباط عند محمود شاكر وضمانته مباحثين : (المنطق وأدلة الظاهرة – المفهوم وأدلة الظاهرة) .

أما الفصل الثالث : فقد خصصته بأنماط الاستنباط وأدلة عند محمود شاكر وضمانته ثلاثة مباحث : (الاستنباط بين الإفراد والتركيب – الاستنباط بين الظهور والخلفاء – أدلة الاستنباط) .

أما الفصل الرابع : فقد خصصته للموقف الاستنباطي وضمنته ثلاثة مباحث : (القبول – الاعتراض – النقض) .

ثم ختمت البحث ببيان أهم ما وصلت له من نتائج وما أشرت له من اقتراحات ، ثم أثبتت المراجع والمصادر بحسب ترتيبها المجرى ، وختمت البحث بثبات لفهرس محتوياته.

أما منهج هذه الدراسة فإنها ستعالج في حدود المنهج الاستنباطي ، الذي ينطلق من القاعدة أو الحكم إلى الجزء الخاص ، إذ يتدرج مع الظواهر الكلية حتى يصل إلى أحكام خاصة ويقوم في خطواته الإجرائية على الملاحظة والاستقراء ومقاييس الأحكام ، لبيان الخصوصية والسمات المميزة للقضايا المطروحة ، ونتيجة لوجود بعض من الأعلام في المادة المعروضة ، فقد جنحت لترجمة بعض الأعلام بتصرف اضطرني إليه الاختصار معتمداً في ذلك - بعد الله - على كتب الأعلام والترجم والطبقات، كما أني جنحت أيضاً إلى توضيح معاني بعض المفردات التي بدا لي أنها غامضة في النماذج التحليلية التي اخترتها ، وقد اعتمدت في ذلك على ما توفر لدى من معاجم اللغة ، وقد عانيت في البحث كثيراً من قلة المراجع والصعوبة ذات الصلة الوثيقة بالبحث وصعوبة توفيرها كنسخ ورقية أصلية ، وقد خشيت كثيراً من تلك المراجع بعد جمعها لأن ترجي في خلافات بلاغية ونقدية قديمة وحديثة لا تخدم الجانب الاستنباطي والتذوقى عند محمود شاكر ، ولكنني ابتعدت عن ذلك جاهداً إلا ما له علاقة مباشرة تؤثر على منهجية البحث ، وقد قمت ببيان ذلك في موضعه.

وختاماً أتقدم بالشكر الجزييل لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، والتي نشأت فيها وليداً في المرحلة الجامعية الأولى ، ثم درست على يدي كوكبة لامعة من رموز الأدب والبلاغة والنقد في العالم العربي بقسم الدراسات العليا بنفس الكلية في مرحلتي الماجستير والدكتوراه ، وما قاموا به من جهود مضيئة في توفير الجو العلمي اللائق بهذه المرحلة ، كما أتقدم بشكر خاص وجزييل لسعادة الأستاذ الدكتور هاني فراج أبو بكر المشرف على هذه الرسالة ، والذي غمرني فيها وقبلها بجميل خلقه وكريم فضله وحرصه وتواضعه ومتابعته الدائمة ، فله خاصة ولجميع الأساتذة خالص الدعاء وجميل الثناء اللذان لن يؤديا لهم كل فضلهم علي وعلى زملائي في هذه المرحلة ، والشكر موصول إلى لجنة المناقشة وكل من امتدت أيادييه البيضاء إلى هذه الدراسة ، والشكر لله أولاً وأخراً وهو حسي ونعم الوكيل ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

مهد الدراسة

مفاهيم الاستنباط بين الأصوليين والبلغيين

لقد حرص علماء المسلمين على تعلم العربية وسبر أغوارها ، وقد دفعهم لشرف ذلك التعلم معرفتهم بحق لغتهم العربية ، وما حباه الله به من وداع لا تكاد تكون في غيرها من اللغات ، فتجدهم حتى مع علمهم بلغة أخرى ولسان آخر لا ينبعون بغير حروف لغتهم العربية ، وينفرون الناس من التحدث بها لغير حاجة ، حتى قال في ذلك الإمام ابن تيمية رحمة الله : "أما اعتياد الخطاب بغير اللغة العربية .. حتى يصير ذلك عادة ... فلا ريب أن هذا مكره... واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخلق، والدين تأثيراً قوياً بيّناً، ويؤثر أيضاً في مشابحة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابختهم تزيد العقل والدين والخلق، وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".^(١).

ولم يكن حرص علماء التراث الإسلامي على لغتهم العربية تعصباً وهوى ، بل كان له دافع ديني وحاجة علمية ، فاللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ، والقرآن الكريم هو المدونة الرئيسة للأحكام الشرعية والقيم الجمالية المعجزة للغة العربية ، فعلم العربية عندهم هو السلم الذي يرتقي بهم للاستنباط ، وهو السبيل الذي يسلكونه إلى فهم الخطاب ، ولم تكن اختلافات علماء الفقه الإسلامية وعلماء البلاغة العربية في كثير منها إلا استجابة طبيعية لتوسيعهم في لغة العرب ، وطريقة كل منهم في فهم كلام العرب وربطه بمقاماته ومتضياته ، كل ذلك باعتماد خالص على اللغة العربية ، وطرائق دلالاتها وإعرابها ، فالأصوليون مثلًا تناولوا دلالة اللفظ بحسب الوضع وبحسب الاستعمال متصلين في ذلك ببحثي الحقيقة والمجاز عند البلاغيين ، وتناولوا كذلك دلالات الأمر والنهي بحسب فهمهم للسياق العام والخاص ، واسترسلوا من ذلك إلى دلالة اللفظ بحسب الوضوح والإيهام ووضعوا القواعد الأصولية لاستنباط الأحكام المتضمنة لكل هذه الدلالات اللغوية، بل وتجاوزوا ذلك إلى طرق دلالة الألفاظ على المعاني المتصلة بمنطق النص ومفهومه ، وربطوا كثيراً من الأحكام الفقهية

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لخالفه أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور ناصر العقل ، ط ٧ ، عام ٤١٩ هـ ، دار عالم الكتب بيروت ، ج ١ ، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .

والقواعد الأصولية بدللات التراكيب والإعراب كدلالة التعريف والتنكير ودلالة الحال ودللات التوابع ودللات الشرطيات المتصلة والمنفصلة، كل ذلك يبين الأثر البالغ لعلوم العربية بما فيها البلاغة عند الفقهاء والأصوليين بشكل أخص.

وهذا التأثر هو ما يقارب مفهوم الاستنباط بين متقدمي الأصوليين والبلغيين ؛ فمفهوم الاستنباط عند الفريقيين كان تفسيراً دقيقاً عن الممارسة المنهجية العلمية التي كانوا يزاولونها ، فهو عندهم مضاد للحفظ ؛ لأنَّه طريقة فكرية تعتمد على إعمال العقل تفكيراً بالدرجة الأولى ، والعالم المستبطع عندهم أجل منزلة من العالم الحافظ، يقول الجصاص :

"درجة المستبطين أفضل درجات العلوم، ألا ترى: أن المستبطع أعلى درجة من الحافظ غير المستبطع ، فلم يكن الله ليحرم نبيه - عليه السلام - أفضل درجات العلم التي هي درجة الاستنباط."^(١) ، وهو لا يبعد عندهم في مفهومه من المعنى اللغوي (الاستخراج) المرتبط بنهجهم العلمي ، فهو يعتمد على إدراك واستخراج الأحكام العامة من خلال النصوص القطعية عن طريق الرأي والاجتهاد ، فالاستنباط "ليس إلا استخراج المعنى من المخصوص بالرأي"^(٢) ، ويتعلق مفهوم الاستنباط لديهم بالتوجيه الإلهي الناصل على استخدام الطريقة الاستنباطية في البحث والفهم ، إذ لا بد أن تردد بعضاً من المحوادث الفردية والواقع الخاصة المطلوب بحثها ودراستها إلى مصدر أصيل وصريح يستطيع به التفسير والوصول إلى الحقيقة الشرعية ، يقول تعالى :

﴿وَإِذَا جَاءُهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْحُرْفِ أَدَعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُوا إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلَّهُمْ لَعِلَّهُمُ الدِّينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَأَتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣)

(١) الفصول في الأصول ، لأحمد بن علي الجصاص ، تحقيق الدكتور : عجيل النشمي ، ط٢ ، عام ١٤١٤ هـ ، وزارة

الأوقاف الكويتية ، ج : ٣ ، ص : ٢٤٠ .

(٢) أصول السرخسي ، محمد بن أحمد السرخسي ، حقق أصوله : أبو الوفا الأفغاني ، ط١ ، عام ١٤١٤ هـ ، للجنة إحياء المعارف التعمانية ، ج ٢ ، ص : ١٢٨ .

(٣) سورة النساء الآية الكريمة رقم (٨٣).

ويُستطاع عند تبع تفسير هذه الآية أن نلمس المفهوم المشترك ما بين علماء التراث العربي عموماً للاستنباط^(١)، إذ إنها مفاهيم متقاربة منسجمة مع طبيعة المنهج العلمي التراثي للعلماء العرب ، فهي تتراوح ما بين الفحص والتتبع والتنقير عن الحقائق والأحكام^(٢) ، وهذه المعانى قريبة من مفهوم البلاغيين القدامى أيضاً للاستنباط ، فعبد القاهر الجرجاني يضع الاستنباط إلى جانب المباحثة والاستشارة والتدبیر والتأمل ويجعلها كالمترادفات اللغوية التي تنتظم في المنهجية العلمية^(٣)، وإذا كانت المفاهيم الاستنباطية قريبة من بعضها البعض إلى هذا الحد عند قدامى الأصوليين والبلغيين ، فإن هناك مجموعة من القواسم المنهجية البحثية المشتركة الاستنباطية بين الفريقين غير المفهوم ، الأمر الذي يؤكد التشابه الكبير بين الفريقين في الاستنباط على مستوى المفهوم وعلى مستوى المدونات والمنهجية البحثية والطرائق .

القواسم المنهجية المشتركة بين استنباط الأصوليين والبلغيين : أولاً : البحث في القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي ، فقد "اتفق المسلمون على أن القرآن الكريم حجة يجب العمل بما ورد فيه ولا يجوز العدول عنه إلى غيره من الأدلة ، إلا إذا لم يرد فيه حكم الحادثة التي يبحث عن حكمها"^(٤) ، وهذا ما يبرر حرص الأصوليين على استنباط أحكام القرآن ومعانيه وتشريعاته ، والاستعانة على ذلك بالعلم الواسع بلغة العرب وطراقيهم البيانية ، يقول الإمام الشافعي رحمه الله : " فكل ما أنزل في كتابه جل ثناؤه رحمة وحجة ، علِمه من عَلِمه ، وجهلَه من جهله ، لا يعلم من جهله ، ولا يجهل من علِمه ، والناس في العلم طبقات ، موقعهم من العلم يقدر درجاتهم في العلم به ، فحق على طلبة العلم بلوغ

(١) نبه الدكتور محمد توفيق سعد على تبع مفهوم الاستنباط الاصطلاحى القديم من خلال تبع أقوال المفسرين في الآية الكريمة الثالثة والثمانين من سورة النساء ، في كتابه سبل استنباط المعانى من القرآن والسنة ، ط١، عام ١٤٣٢، مكتبة وهبة بالقاهرة ، ص ٣٣ .

(٢) ذكر كل هذه المعانى ابن جرير الطبّري في تفسيره نقاًلا عن جماعة من المفسرين ، ينظر في ذلك لجامع البيان في تأويل القرآن للطبرى ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد شاكر ، ط١، عام ١٤٢٢ هـ مؤسسة الرسالة ، ج٨، ص ٥٧٨ .

(٣) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، قراءة وتعليق : محمود شاكر ، ط٣، عام ١٤١٣ هـ ، دار المدنى ، ص ٣٣٩ .

(٤) أصول الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي ، ط١ ، عام ١٤٠٦ هـ ، دار الفكر بدمشق ، ج ١ ، ص ٤٣١ .

غاية جهدهم في الاستكثار من علمه ، وإخلاص النية لله في استدرك علمه نصاً واستباطاً ، فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة ، إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل المدى فيها ^(١).

ومن استباط معاني القرآن الكريم تشكل أغلب الفقه الإسلامي وجل أحكام الشريعة الإسلامية ، فالقرآن الكريم هو أول المصادر النقلية وأقواها عند الأصوليين والفقهاء ؛ لأنه قطعي الثبوت ، والأصوليون متفقون جميعاً على أن القرآن المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي ، ولم أجده - في حدود بحثي واطلاعه - أصولياً معتبراً عدّ القرآن الكريم إلا أولاً في التشريع ، وهم مع ذلك الإجماع مختلفون في حجية المصادر فمنهم من جعلها أربعة وهي (القرآن ، والسنّة ، والإجماع ، والقياس) ، ومنهم من توسع وجعلها عشرة مصادر حجية ^(٢) ، إلا أن المتفق عليه بين الجميع أن القرآن الكريم هو المصدر الأول والأقوى ؛ ولذلك اعنى به الأصوليون استباطاً وفهمًا .

وإذا كان الاهتمام الأول عند الأصوليين بالقرآن الكريم لاستخلاص الأحكام الشرعية واستباطها، فإن الاهتمام البلاغي الأول كان البحث في إعجاز القرآن الكريم ونسقه البياني ، وقد شغل علماء البلاغة العربية بالبحث عن إعجاز كتاب الله ، وقد وجها جل همم وهمتهم لخدمة كتاب الله جل وعز ، ففند العديد منهم الإعجاز للقرآن والبيان فيه بطريقة تلتقي مع مصادره الفكرية والمعرفية ، وتلتقي غالباً مع المعتقد المذهبى والديني، والذي كان له أثر لا يستطيع نكرانه في توجيه العديد من الآراء البلاغية ، وتوسعت عند علماء البلاغة مجالات البحث في إعجاز كتاب الله ونسقه البياني ، حتى خصّ بعضهم بالبحث والتأليف؛ كالذى في معاني القرآن "للفراء" (ت ٢٠٧هـ)، و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٨هـ)، و"تأويل مشكل القرآن" لابن قينة (ت ٢٧٦هـ)، و"جامع البيان" للطبرى (ت ٣١٠هـ) وغير ذلك من المؤلفات البلاغية التي عنيت بالقرآن الكريم ، أما المؤلفات التي لم تحمل عناوين ذات دلالة للاهتمام المباشر بالقرآن

(١) الرسالة للإمام المطّبى مُحَمَّد الشافعى ، تحقيق أَحمد شاكر ط ١ ، عام ١٣٩٩هـ ، مطبعة مصطفى الحلبى بمصر. ، ص

. ٢٠ - ١٩

(٢) ينظر في ذلك شرح الكوكب المنير ، لابن النجاش ، تحقيق د . مُحَمَّد الزحيلى ، د. وزيره حماد ط ١ ، عام ١٤١٣هـ ، لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ، ج ٢ ، ص ٥ - ١٠ .

الكريم ، فإن مؤلفيها يجعلونها أيضاً في خدمة كتاب الله عز وجل ، فتتجدد في تصديرات مؤلفاتهم ما يتضمن الهدف من تأليف الكتاب ، ويصرحون فيها بأن الاهتمام بجانب البلاغة العربية واجب ديني وغاية معرفية لا تضاهى ؛ فهي السبيل إلى الكشف عن إعجاز القرآن الكريم ومضمونه الجمالي والبيانية ، يقول أبو هلال العسكري في تقدمة كتابه الصناعتين :

"علم...أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة، الذي يعرف به إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق ، المادي إلى سبيل الرشد ..."^(١).

ثم تضاعفت جهود العلماء بعد ذلك وسارت في نشاط متضاد ، همهم في ذلك التعرف على بلاغة كتاب الله ووجوهه الإعجازية ، ومع محاولاتهم الجادة في كشف النقاب عن ذلك إلا أنهم مُقيرون بصعوبته البالغة ، ولكنها صعوبة لم تمنعهم من محاولة تلمس تلك الجوانب ، بل ورغبات منهم جادة في الكشف عن ذلك ؟ فقاموا بتخصيص مسار بحثي خاص يحمل عنوان إعجاز القرآن ، كالنكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي ابن عيسى الرماني (ت ٣٨٦هـ)، وبيان إعجاز القرآن للخطابي (ت ٣٨٨هـ)، و(كتاب إعجاز القرآن) للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقياني (ت ٤٠٣هـ) ، ولم يأت عبد القاهر الجرجاني إلا وبين يديه من جهود العلماء قبله ما يفيده ويعينه للحديث عن مضان الإعجاز القرآني ، وقد وجد في تلك الكتب الجذور الأولى لفكرة النظم التي جعلها مفتاح البحث في إعجاز القرآن الكريم ، وقد أقر عبد القاهر بجهود سابقيه عليه في فكرة النظم ، إلا أنه لم يرض منهم الطريقة التي وظفوا بها فكرة النظم للكشف عن إعجاز القرآن الكريم ، فشمن لهم اكتشافهم لإعجاز القرآن ، وعاب عليهم وقوفهم عند هذا الاكتشاف ، يقول عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابه دلائل الإعجاز :

"وقد علمت إبطاق العلماء على تعظيم شأن النظم ... وإجماعهم ألا فضل مع عدمه ... وما كان بهذا المخل من الشرف ... كان حرياً بأن توقظ له الهمم ، وكان العاقل جديراً ألا يرضى من نفسه بأن يجد فيه سبيلاً إلى مزية علم وفضل وتلخيص حجة وتحرير دليل ، ثم تجده يعرض عن ذلك صفحأً وتدخل

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق علي البحاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط (بدون) ، عام ١٤٣٤هـ ، المكتبة العصرية بيروت ، ص ٧ .

عليه الأنفة من أن يكون في سبيل المقلد الذي لا يثبت حكماً ولا يقتل الشيء علمًا....^(١).

ولم يقف البحث الإعجازي في القرآن لدى علماء البلاغة عند عبد القاهر الجرجاني ، بل امتد بعده حتى بعد أن قُعِّدت بلاغة الأسرار والدلائل ، فجاء بعده الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) وألف كتابه (نهاية الإعجاز في دراية الإعجاز) ، وابن الزملکانی (ت ٦٥١ هـ) في كتابه (التبیان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن) ، ولا زالت الكثير من دراسات البلاغة اليوم تسعى لخدمة كتاب الله والبحث فيه عن مواطن الجمال والإعجاز ، وفيما يبدو فإن البحث الأصولي القرآني قد تميز بالشموليّة والعمق ، حتى أصبح مرجعاً لأهل البلاغة بل وحتى أهل اللغة أنفسهم في تفسير بعض القضايا اللغوية ، فأهل اللغة أنفسهم يفسرون بعض المفردات القرآنية على وفق تفسير الأصوليين لها ، ولا يجدون حرجاً من تقليدهم ونسبة الرأي لهم ، ولم يتأت ذلك إلا من ثقة أهل اللغة بعمق البحث الأصولي في القرآن الكريم ، و من ذلك أن ابن السيد البطليوسى الذي عقد باباً في كتابه (الإنصاف) سماه (باب في الخلاف العارض من جهة اشتراك الألفاظ واحتمالها للتأويلات الكثيرة) ، وافتتحه بمعنى كلمة (القرء)، وقال فيه :

"ذهب الحجازيون من الفقهاء إلى أنه الطهر ، وذهب العراقيون إلى أنه الحيض ولكل واحد من القولين شاهد من الحديث ومن اللغة"^(٢) ، والذي دفع ابن البطليوسى إلى الاعتماد على آراء الفقهاء اللغوية في توجيهه معنى الكلمة انصراف الذهن إلى أنه مصطلح قرآنى بني عليه حكم شرعى ورد في قوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقُاتُ يَتَرَبَّصُنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةُ قُرُونٍ وَلَا يَحْلُّ هُنَّ أَن يَكُنْمَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعْوَلَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرِدَّهُنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الدِّيْنِ عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلْجَنَاحِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٣) ، فعلم أن الفقهاء لم يقوموا باستخلاص الحكم الشرعي المبني على معنى هذه المفردة إلا بالبحث العميق والنظرية غير العجلة في المقتضيات اللغوية والسياقية المتصلة والمنفصلة ، فجعل رأيهم مرجعاً

(١) دليل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، قراءة وتعليق : محمود شاكر ط ٣ ، عام ١٤١٣ هـ ، لدار المدنى ، ص ٨٠ .

(٢) الإنصاف في التنبية على الأسباب التي أوجبت الاختلاف، لعبد الله بن السيد البطليوسى ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، ط ٢ ، عام ١٤٠٣ هـ ، لدار الفكر بيروت ، ص ٣٧ .

(٣) سورة البقرة ، الآية الكريمة (٢٢٨) .

اختلافهم محل اختيار ، وخلاصة ما يقال في البحث القرآني لدى الأصوليين والبلغيين ما يأتي :

أولاً : اشتراك الفريقين في الاعتماد على مدونة بحث واحدة وهي القرآن الكريم ، باعتباره مصدرًا تشريعياً عند الأصوليين ، ومدونة للكشف عن أسرار الإعجاز والنمط العالي من البيان عند البلاغيين.

ثانياً : تشابه الهدف المعرفي عند الأصوليين والبلغيين في البحث القرآني ، والمتمثل في استخلاص الأحكام.

ثالثاً : ثقة اللغويين في عمق البحث الأصولي في القرآن الكريم حتى أصبح الرأي الأصولي مرجعاً للغويين.

القواسم المنهجية المشتركة بين استنباط الأصوليين والبلغيين : ثانياً : الاعتماد على الجانب اللغوي

بمختلف مستوياته :

اتكأ الأصوليون كثيراً على الجانب اللغوي ، واعتمدوا عليه جل الاعتماد في طرائقهم الاستنباطية ، بل واعتبروه الأداة الرئيسية التي لا بد وأن تتوافر للأصولي والفقهي ؛ وسبب ذلك أن علوم اللغة العربية تمد علم أصول الفقه بالعديد من الروافد ، الأمر الذي أسس اهتمام الأصوليين باللغة العربية ، فلا تكاد تقلب كتب الأصوليين حتى تجد جانباً من ذلك الاهتمام وحشاً وترغيباً على تعلم العربية ، يقول الإمام الشافعي :

" فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العربية ما بلغه جهده ، وما ازداد من العلم باللسان كان خيراً له وإنما بدأت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره ؛ لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سَعَة لسان العرب ، وكثرة وجوهه ، وجماع معانيه وتفرقها ، ومن علمه انتفت عنه الشبهة التي دخلت على من جهل لسانها ".^(١)

فالإمام الشافعي هنا يرى ألا سبيل لإيضاح جمل كتاب الله إلا بالتمكن من لغة العرب والخذق بها ، ومعرفة وجوهها واختلاف واتفاق معانيها وطرائقها التعبيرية، ويرى أن الجهل بالعربية شبهة تدخل على من يريد استنباط الأحكام الشرعية والخوض في المسائل الفقهية ، بل وقد اعتبر بعض الفقهاء أن العجمة والجهل بأساليب العربية سبباً للضلال والزيغ عن الحق ؛ لأنها تفضي إلى فهم النصوص على غير وجهها ، وفي ذلك

(١) الرسالة للشافعي : ص ٤٨ - ٤٩ .

سئل الإمام الحسن البصري عن سبب ضلال بعض الفرق فقال : "إنما أهلكتهم العجمة" ^(١) . والمقصود بالعجمة هنا عدم امتلاك القدرة الكافية على فهم اللسان العربي وطرق إبانته ودلالاته وإعرابه، وفي ذلك أيضا يقول ابن جني في تصديره لباب أسماء (باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية) في كتابه الخصائص :

"اعلم أن هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب ، وأن الانتفاع به ليس إلى غاية ولا وراءه من نهاية ، وذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها وحاد عن الطريقة المثلث إليها فإنما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة ، التي خوطب الكافة بها" ^(٢) .

والناظر في مباحث أصول الفقه يجد أن الأصوليين لم يتحرجو من وسم بعض مباحثهم الأصولية بوسوم لغوية وبلاغية محضة ؛ للترابط الشديد والتماسك العلمي ما بين علوم الفقه الإسلامي واللغة العربية، كالحقيقة، والمجاز، والعموم ، والخصوص ، والإطلاق ، والتقييد ، والحدف ، والإضمار والمنطق ، والمفهوم وغير ذلك.

وهنا أمر لا بد من إيضاحه عند الحديث عن الشراكة اللغوية بين الأصوليين أنفسهم ، فالأصوليون لم يرتكزوا أن يقلدوا أشياخهم الأوائل في مسائل حساسة ذات خطورة بالغة ، فقد كانت لبعضهم آراء خاصة تتعارض مع آراء كبار الفقهاء والأصوليين في مجال اللغة العربية ، ومن ذلك قضية الألفاظ الأعجمية في القرآن الكريم ، ومخالفة بعض تراكيبيه للقواعد و المقاييس اللغوية الأصلية ، فالشافعي يقول بأن كل ما ورد في القرآن الكريم عربي خالص لا يشوبه لفظ أعجمي ، واستدل على ذلك بمنطق القرآن الكريم، يقول الإمام الشافعي رحمه الله في الرسالة :

"وقد تكلم في العلم من لو أمسك .. لكان الإمساك أولى به.... فقال منهم قائل: إن في القرآن عربياً وأعجمياً، والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب فإن قال قائل: ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره؟"

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق مروان العطية ومحسن خراية ووفاء تقى الدين ، ط ، عام ١٤١٥ هـ ، لدار ابن كثير بدمشق ، ص ٣٥٠ .

(٢) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ، ط ٤ ، عام ١٩٨٩ م ، للهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ .

فالمحجة فيه كتاب الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسْانِ قَوْمِهِ﴾^(١) ، على أن الشافعي في هذا الحكم الصارم تطغى عليه صبغة الفقيه أكثر من صبغة اللغوي ؛ حيث قدم الدليل النصي القاطع على كل أمر ، إلا أن بصره بلغة العرب ألمه أن يعترف بوجود ألفاظ أعمجية في لغة العرب عموما ، ولكنه كان حذراً جداً من نسبة ذلك للقرآن الكريم بشكل خاص حيث يقول :

" و لا ننكر إذ كان اللفظ قيل تعليماً أو تُطبق به موضوعا ، أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليلاً من لسان العرب ، كما ياتفاق^(٢) القليل من ألسنة العجم المتباينة في أكثر كلامها ، مع تناهي ديارها ، و اختلاف لسانها"^(٣) ، والشافعي في ذلك لا يبتعد عن رأي بعض غير الأصوليين في عصره ، فقد توافق رأيه مع رأي صاحب مجاز القرآن حيث يقول : "نزل القرآن بلسان عربي مُبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ، ومن زعم أن طه بالنَّبَطِيَّةِ فقد أكابر ، وإن لم يعلم ما هو ، فهو افتتاح كلام وهو اسم للسورة وشعار لها، وقد يوافق اللفظُ اللفظَ ويقاربه ومعناهما واحد وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها"^(٤) ، وقد وافق الشاطي الشافعي في هذا الرأي^(٥) ، إلا أن جلال الدين السيوطي كان له رأي يتدافع مع رأيهما في هذه المسألة المهمة ، ويستدل لرأيه بالنقل المركب ، وبالفهم الخاص لمضامين الخطاب القرآني الكريم ، فقال بعد أن سرد أقوال جملة من أهل العلم في ذلك :

(١) الرسالة للشافعي : ص ٤١ إلى ٤٥.

(٢) ذكر الشيخ أحمد شاكر محقق الرسالة للشافعي كلاماً في الفعل (ياتفاق) الذي لم تدغم فيه تاء الافعال ، بل قلبت حرف لين من جنس الحركة قبلها ، وقال بأنها لغة أهل الحجاز ، ينظر في ذلك حاشية رقم (٥) من ص ٣١ من الرسالة.

(٣) الرسالة للشافعي : ص ٤٥.

(٤) مجاز القرآن صنعة أبي عبيدة عمر بن المثنى ، تحقيق محمد فؤاد سرکین ، ط ١ ، عام ١٩٨٨ م ، مكتبة الخانجي بمصر ، ج ١ ، ص ١٧.

(٥) المواقف لإبراهيم الشاطي ، تحقيق مشهور حسين آل سلمان ، ط ١ ، عام ١٤١٧ هـ ، دار ابن عفان بالقاهرة، ج ٢ ، ص ١٠٣.

"أَقْوَى مَا رَأَيْتُه - وَهُوَ اخْتِيَارِي - مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، فَقَالَ : أَنْبَأْنَا ابْنُ حَمِيدٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبِيرٍ قَالَ : قَالَتْ قَرِيشٌ لَوْلَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا﴾^(١) ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الْقُرْآنَ بِكُلِّ لِسَانٍ ، فِيهِ : ﴿حِجَّارَةٌ مِّنْ سِجِيلٍ﴾^(٢) فَارْسِيَّةً^(٣).

وقد تناول الأصوليون - شأنهم في ذلك شأن البلاطين - اللغة العربية على المستويات الظاهرة والشكل العام للغة اللسان العربي ، وعلى المستويات الباطنة التي تحملها اللغة العربية المتعلقة بالمقام والقرائن الخارجية ؛ لأن استنباط الأحكام الشرعية لا يتحقق إلا بمثل هذا النحو من النظر ، مستندين في ذلك باتساع اللغة وامتدادها ومحاولاتهم الجادة لتلمس جوانب هذا الامتداد فيما يخص الاستنباط ، ومن ذلك قول (العجمي) الأصولي: "فصار إِنْزَالُهُ الْقُرْآنَ بِلِغَةِ الْعَرَبِ كَالْإِخْبَارِ مِنْهُ أَنَّهُ يَعْنِي بِهِ مَا وَضَعُوهُ لَهُ ، وَكَأَلْمَرْ بِمَا يَحْمِلُوهُ بِمَا وَضَعُوهُ لَهُ إِلَّا إِذَا قَرِنَ بِهِ قَرِينَةً ..."^(٤) ، فصار بهم الأمر إلى التوسيع في توظيف اللغة العربية مجتمعة على مستوى اللغة والنحو ، وعلى مستوى علوم البلاغة العربية التي تكتشف القرائن المذكورة في النص السابق ، وفي حقيقة الأمر فالأصوليون في ذلك تتطابق رؤاهم ومنهجيتهم مع شيوخ اللغة والبلاغة والعربية ، فابن فارس مثلاً يرى أن علم اللغة العربية أصولاً وفروعاً ، فالفرع كمعرفة أسماء الذوات والصفات ، وأصولها كمعرفة وضع اللغة وأوليتها ومنشأها ، والبصر برسوم العرب في مخاطباتها وما لها من الجمال والافتنان في صورها البيانية ، وهو يرى أن السبيل الوحيد الموثوق لعلم وفقه الخطاب القرآني والنبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم المعرفة

(١) الآية ٤٤ من سورة فصلت ، وقد وردت عند السيوطي بهذا الشكل المثبت ، و هو مختلف عما بين يدينا من مصاحف الرسم العثماني الشريفة وهو قوله تعالى : {لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا} ، ومقام الآية : {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْآنٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَّى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}.

(٢) سورة الفيل ، الآية الكريمة رقم (٤).

(٣) المذهب فيما وقع من القرآن من المعرب لجلال الدين السيوطي ، تحقيق الدكتور التهامي الراجي الهاشمي ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ ، مطبعة فضالية بالإمارات العربية المتحدة ، ص ٦٠ .

(٤) الكاشف عن الحصول في علم الأصول ، محمد بن محمود العجمي ، تحقيق عادل عبد الجبار وعلي المعرض ، ط ١ ، عام ١٤١٩ هـ ، دار الكتب العلمية بيروت ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ .

النامة بأسفل علم اللغة وفروعها ، ويرى أن المهتمين بأسفل الفقه منقسمين في العلم الأصولي وفروعه إلى واحد من رجلين:

" رجل شغل بالفرع فلا يعرف غيره ، وآخر جمع الأمرين معاً، وهذه هي الرتبة العليا ، لأن بها يعلم خطاب القرآن والسنّة وعليها يعول أهل النظر والفتيا ، وذلك أن طالب العلم العلوي يكتفي من سماء الطويل باسم الطويل ، ولا يضيره أن لا يعرف الأشـق والأمـق^(١) ، وإن كان في علم ذلك زيادة وفضل^(٢) ."

أما البلاغيون فمزجهم بين فروع اللغة وعلومها لما يخدم البلاغة العربية بين لا يخفي ، وهو الحور الذي دارت عليه فكرة النظم عند عبد القاهر الجرجاني والمتأثرين به من بعده ، فالسكاكـي الذي قعد بلاغة عبد القاهر مثلاً يقسم كتابه مفتاح العلوم إلى ثلاثة أقسام : أولها في علم الصرف ، وثانيها في علم النحو ، وثالثها في علمي المعانـي والبيان ، ويعـلـل وجود هذه المزج بين علوم الصرف والنحو والبلاغة عنده في كتابه الاحتـازـ عن الخطأ في كلام العرب ، حيث اعتبر مثارات الخطأ في لغة العرب " إذا تصفحتها ثلاثة :

المفرد والتأليف وكـون المركـب مطابـقاً لما يـجب أن يـتكلـمـ له ، وـهـذـهـ الأـنـوـاعـ بـعـدـ عـلـمـ اللـغـةـ المرـجـوعـ إـلـيـهاـ فيـ كـفـاـيـةـ ذلكـ مـالـمـ يـتـخـطـ إـلـىـ النـظـمـ ، فـعـلـمـاـ الصـرـفـ وـالـنـحـوـ يـرـجـعـ إـلـيـهاـ فيـ المـفـرـدـ وـالـتأـلـيفـ ، وـيرـجـعـ إـلـىـ عـلـمـيـ المـعـانـيـ وـالـبـيـانـ فيـ الـأـخـيـرـ^(٣) .

ونستطيع أن نحمل القول في الاعتماد على الجانب اللغوي عند الأصوليين والبلغيين فيما يأتي :

(١) بين محقق كتاب الصاحبي أن الأشـقـ : من الخيل ما يـشـتـقـ في عدوه يـمـيناـ وـشـمـالـاـ ، أوـ البعـيدـ ماـ بـيـنـ الفـروـجـ ... والأـمـقـ : من المـخـيلـ الطـوـبـيلـ ، يـنـظـرـ لـلـحـاشـيـةـ الثـانـيـةـ وـالـثـالـثـةـ منـ كـتـابـ الصـاحـبـيـ فيـ فـقـهـ اللـغـةـ العـرـبـةـ وـمـسـائـلـهـاـ وـسـنـنـ الـعـربـ فيـ كـلـامـهـ ، لأـحـمدـ بنـ فـارـسـ ، تـحـقـيقـ : أـحـمدـ حـسـنـ بـسـجـ ، طـ ١ـ ، عـامـ ٤١٨ـ هـ ، لـدارـ الـكـتـبـ الـعـلـمـيـةـ بـبـيـرـوـتـ ، صـ ١١ـ .

(٢) السابق نفسه.

(٣) مفتاح العلوم لأبي يعقوب السـكـاكـيـ ، ضـبـطـ وـتـعـلـيقـ نـعـيمـ زـرـزـورـ ، طـ ١ـ ، عـامـ ١٤٠٣ـ هـ ، لـدارـ الـكـتـبـ الـعـلـمـيـةـ بـبـيـرـوـتـ ، صـ ٨ـ .

أولاً : علوم اللغة العربية بجميع فروعها هي القنطرة التي سار عليها الأصوليون في تأصيل القواعد الشرعية واستنباط الأحكام الشرعية .

ثانياً : جاءت تسمية بعض مباحث علم الأصول مطابقة لبعض المصطلحات ومباحث علوم اللغة العربية الصرف بفروعها ؛ وكان ذلك نتيجة طبيعية لاعتماد الأصوليين التام على اللغة العربية وفروعها وتأثيرهم البالغ بها .

ثالثاً : لم يقف الأصوليون على مسافة واحدة عند بعض المسائل اللغوية المهمة ، بل اختلفوا فيما بينهم إذ لم يرتسوا أن يسلموا أنفسهم لتقليد علمائهم المؤسسين لعلم الأصول ، أو حتى تقليد أهل الاختصاص باللغة ، فقد كانت لبعضهم آراء لغوية خاصة تعتمد على الفهم والقراءة والدرية اللغوية والاستنباطية .

القواسم المنهجية المشتركة بين استنباط الأصوليين والبلغيين : ثالثاً : المنهج العلمي :

ليس الاشتغال بالبحث في كتاب الله جل وعز والاعتماد على اللغة ما يقارب مفاهيم الاستنباط الأصولية والبلغية فحسب ، بل إن المنهج العلمي الباحث في القرآن الذي اعتمد عليه الأصوليون هو نفسه أو قريب منه المنهج الذي اعتمد عليه البلاغيون ، فكلا الفريقين كان يعتمد على الاستنباط كونه منهجاً علمياً قادراً على تلبية رغباتهم وأهدافهم العلمية من دراساتهم ، فالأصولي يستنبط من القرآن أحكام التشريع الإسلامي ، والبلاغي يستنبط منه مظان الإعجاز البلاغي وموطن الجمال ، وهناك تداخل ما بين الفريقين حتى على مستويات أدوات البحث الخاصة ، وكون البحث في الدلالة السياقية من اختصاص علماء البلاغة ، إلا أن الأصوليين اعتمدوا كثيراً على هذه الأداة في استنباط أحكامهم الأصولية ، واعتنوا كثيراً بدلاله منطق التراكيب القرآني ومفهومه كل بحسب رؤيته وثقافته اللغوية ودربته الشرعية ، الأمر الذي ساعد وبجلاء على انتشار الخلافات الفقهية وتعدد الآراء الشرعية ، وبالمقابل فقد اضطر البلاغيون للاعتماد على ما يشبه القياس الذي يعتبره الأصوليون مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي ، فوازنوا بين كلام الله عز وجل وكلام العرب ؟ لإثبات النمط العالي من البيان ، وهذه الموازنة في حقيقتها شديدة الشبه بكل قياس أصولي يعتمد على طرفين ؛ هما كلام الله عز وجل ، وكلام العرب ، وعلاقة بين الطرفين متمثلة في جمال كل منهما .

وما تبغي الإشارة إليه في حدود المنهج العلمي المشترك ما بين الفريقين ، اعتماد علماء الأصوليين والبلغيين على عدد من المناهج تزامن مع الاستنباط وهم الاستقراء التام ، والاستدلال ، أما الاستقراء فهو الخطوة الأولى من خطوات البحث الأصولي والبلاغي على حد سواء ، فقد لجأ علماء الأصول والبلاغة كثيراً إلى " تتبع الأمور وجمعها لعرفة خواصها للحكم على الكلي بأمر لوجود هذا الأمر في أكثر جزئياته" ^(١) ، وقد نقل الزركشي إجماع الأصوليين والفقهاء على أن الاستقراء حجة بدون خلاف ^(٢) ، ودعم نقله لذلك الإجماع بأنه قد " احتاج الشافعي بالاستقراء في مواضع كثيرة ، كعادة الحيض بتسعة سنين ، وفي أقله وأكثره ، وجرى عليه الأصحاب" ^(٣) .

ولعل الإجماع الذي نقله الزركشي خاص بالاستقراء التام لا الاستقراء الناقص ، والذي يجب فيه تتبع جميع الجزئيات ، أما الاستقراء الناقص فهو محل نزاع وخلاف بين العلماء ، فمنهم من يرى أن الاستقراء الناقص حجة في الأحكام الشرعية ، ومنهم من يرى عدم حجيته ، ومنهم من يشترط دليلاً آخر ليكون الاستقراء الناقص حجة في الأحكام الشرعية ، واشتهرت بعضهم العلة الصحيحة لحجيته ^(٤) .

أما البلاغيون فإن استقراءهم لكتاب الله وسنة نبيه عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام وكلام العرب شرعاً ونثراً حاضر في تصاعيف مؤلفاتهم ، ولكنه مختلف عن المنهجية الاستقرائية عند الأصوليين ، إذ إن استقراء البلاغي يفرز عدداً من الجزئيات يخضعها في نهاية الأمر لذوقه الشخصي ورؤيته النقدية ، ومن ثم يصدر أحكاماً غير قادرة على أن تكون قطعية كقطيعة وثبتت أحكام الأصوليين بعد استقراءاتهم ، ومن هنا كان

(١) معجم لغة الفقهاء للدكتور: محمد رواس ، ط ١ ، عام ١٤١٦ هـ ، لدار النفائس بيروت ، ص ٤٤ .

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه ، لبدر الدين الزركشي ، تحرير: د. عبد الستار أبو غدة ، ط ٢ ، عام ١٤١٣ هـ ، لدار الصفوة للطباعة والنشر بالغردقة بمصر، ج ٦ ، ص ١٠ .

(٣) نفسه ص ١٠ .

(٤) للتوسيع في ذلك ينظر الاستقراء وأثره في القواعد الأصولية والفقهية دراسة نظرية تطبيقية للطيب السنوسى أحمد ، ط ٣ ، عام ١٤٣٠ هـ ، لدار التدمرية بالرياض ، ص ٢٥٩-٢٦٢ .

اختلاف البلاغيين على العديد من القضايا البلاغية والأدبية ، وأهمها على الإطلاق قضية إعجاز القرآن الكريم التي شغل بها الدرس البلاغي كثيراً ، فمع اشتراك البلاغيين في الاستقراء التام للقرآن الكريم ومعرفتهم الجيدة بالنمط العالي من البيان العربي الذي يربطه بالإعجاز القرآني ، إلا أنهم عجزوا عن وضع حدود صارمة وواضحة ومرجعية علمية لهذه القضية ، واختلفت آراؤهم ورؤاهم نتيجة طبيعية لخضاع الجزئيات المستقرة للذوق الشخصي ولملكة النقدية المتفاوتة ، وقد كان هذا التباين في حدود الجزئيات التي من الممكن أن يتم استقراء جزئياتها استقراء تاماً ، والتباین أكثر والاختلاف أوسع بين البلاغيين وعلماء التراث الأدبي والنقدi في الاستقراء الذي لا يمكن أن يكون تاماً ، ونعني به استقراء جميع الفنون الأدبية عند العرب شرعاً ونثراً ، فعلماء البلاغة والأدب لم يترجعوا مطلقاً من التصريح بصعوبة الاستقراء التام للأدب العربي ، فالاصلميي مثلاً عمد في كتابه طبقات فحول الشعراء إلى تقسيم الشعراء إلى طبقات بحسب استقراره للشعر العربي ، في الفترة التي عاش فيها (١٣٩-٢٣١ هـ) وما تزامن معها وسبقها من شعر أموي وإسلامي وجاهلي ، ولكنه وجد صعوبة بالغة في استقراء الأدب كله خلال تلك الفترة ، فبني طبقاته على الاستقراء الناقص لا التام ، واعتذر عن ذلك للمتلقي بقوله في مهاد كتابه:

" ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفراستها وأشرافها وأيامها ، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ، وكذلك فراسنها وسادتها وأيامها ، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم ، ولا يستغنى عن علمه ناظر في أمر العرب فبدأنا بالشعر ^(١) ، وهذا النص صريح على صعوبة الاستقراء التام لكلام العرب شرعاً ونثراً على الرغم من أنه محصور في فترات زمنية متعاقبة لا تتجاوز القرن والنصف من الزمان ، وعلى الرغم من أن قائل النص عالم موسوعي بلغة العرب وأيامهم وأشعارهم ، وبذلك يُستان فرق آخر بين الاستقراء التام عند الأصوليين والبلغيين ، إذ إن الاستقراء التام عند الأصوليين ممكن لحصر جزئيات تبني عليها أحکام شرعية ، وإنما كان ممكناً لأن مدونته البحثية محسورة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، أما البلاغيون وعلماء التراث الأدبي العربي ، فالاستقراء التام عندهم للقبض على جزئيات مشتركة بين عليها

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحـي ، قراءة وتعليق محمود شاكر ، ط ١ ، عام بدون ، لدار المدى بجدة ، ج

. ٣ ، ص

أحكام بلاغية ونقدية صارمة غير ممكن ؛ لأن مدونة البحث الشفاهية والكتابية غير ممحورة ، ولأن المستقر منها يخضع للذوق والقدرات الشخصية المتفاوتة ، فلا تنشأ بناء على ذلك الاستقراء أحكام صارمة مثل أحكام الأصوليين .

ولا يعني القول بصعوبة تطبيق الاستقراء التام في التراث البلاغي القديم أن البلاغيين القدماء لم يجنحوا إليه مطلقاً ، فبعض الأحكام البلاغية والنقدية القديمة قائمة على ما يشبه الاستقراء التام ، ومن ذلك استقراء الجاحظ للدلائل على المعاني من لفظ وغير لفظ ، حيث حصرها في خمسة أشياء : "لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى النصبة" ^(١) .

ولم يكن الاستقراء التام عندهم في الأحكام العامة فقط ، بل وجدت دراسات قديمة تقوم على ما يشبه الاستقراء التام ، ومن ذلك كتاب الموازنة للأمدي ، فقد التزم في بداية كتابه بعدم إفضاله عن تفضيل أبي تمام أو البحتري، إلا بعد إجرائه موازنة نقدية بين الشاعرين ، حيث تقوم هذه الموازنة على استقراء تام للقصائد عندهما المتفقة في الوزن والقافية والإعراب والمعنى ، ثم يصدر بعد هذا الاستقراء أحكامه النقدية ، يقول الأمدي في فاتحة كتابه الموازنة :

" فأما أنا فلست أ Finch بتفضيل أحدهما على الآخر ولكنني أوازن بين قصيدة وقصيدة ، من شعرهما إذا اتفقا في الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى ، ثم أقول أيهما أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ... ^(٢) "

ويعد الاستدلال من الخطوات الرئيسية التي اشتراك فيها البحثان البلاغي والأصولي ، بل ويمكن عده الدائرة العريضة التي تحيط بمنهجية البحث عند علماء أصول الفقه وعلماء البلاغة العربية تحديداً ، "... ولكن كان الاستدلال مفهوما مشتركا بين في المنظومة المعرفية القديمة بين علوم المنطق والكلام وأصول الفقه والبلاغة

(١) البيان والتبيين لأبي عثمان الجاحظ تحقيق عبدالسلام هارون ، ط ٧ ، عام ١٩٩٨ م ، مكتبة الخانجي ، ج ١ ، ص ٧٦.

(٢) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الحسن الأمدي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط ٤ ، عام ١٩٩٤ م ، دار المعارف ومكتبة الخانجي ، ج ١ ، ص ٦.

فهو أيضاً مشترك في علومنا الحديثة^(١) ، والاستدلال النقلي عند الأصوليين يكاد يأخذ نسقاً واحداً ؛ " لأن الأصوليين اتفقوا على الأدلة الأربع : الكتاب ، والسنّة ، والإجماع ، والقياس ، واتفقوا كذلك على أن هناك دليل خامس ، لكنهم اختلفوا ... في تشخيصه ، فمنهم من ذهب إلى أنه الاستصحاب ، ومنهم من شخصه بأنه الاستحسان ، ومنهم من شخصه بأنه المصالح المرسلة^(٢) .

وأمر آخر يستطيع تفسير النسقية المتشابهة للبنية الاستدلالية عند الأصوليين ، حيث يلاحظ من الأدلة المتفق عليها عندهم اعتمادهم على الجانب النقلي أكثر بكثير من الجانب العقلي ، فالجانب العقلي لا يشغلهم عندهم إلا القياس المنطقي ، والذي هو في حقيقته أيضاً متصل بالدليل النصي القطعي ؛ إذ إن المقاس عليه عند الأصوليين غالباً ما يكون أمر ثابت بالدليل النقلي ، ومعنى ذلك أن جنوح الأصوليين إلى الجانب العقلي المتمثل في القياس له أصول نقلية تعزز القول باعتمادهم على الجانب النقلي بشكل شبه تام ، وفيما يبدو فإن القياس العقلي هو المدخل الذي جعل البعض يتهمون المنطق الأرسطي بالتسلل إلى الفكر الأصولي العربي ، حيث يرى الدكتور علي النشار أن تأثر القياس بالمنطق الأرسطي بدأ بعلم أصول الفقه وتكرر وظهر جلياً في مبحث القياس ، ولاسيما رسالة الشافعى التي ظهرت في أواخر القرن الثاني والتي تعد الملهم الأول للأصوليين وللمقدم الأقدم لحدود علم أصول الفقه ، فبعد أن تناول الكليات والجزئيات الموجبة والسالبية التي بني عليها الأصوليون القياس ، قال علي النشار في الاستدلال بالقياس عند العرب :

"الطريق الاستدلالي الأول : هو القياس : وهو الجزء الجوهرى الهام من منطق أرسطو ، ولم يقف الإسلاميون فيه عند مجرد الفكرة الارسططاليسيّة – بل أضافوا إليها – متباعدة للشرح اليونانيين – مباحثين هامين أو هما : أنهم قسموا القياس إلى .. الحتمية .. والشرطية .. ، ثانيهما : الشكل الرابع الذي أضافه جالينيوس^(٣) ."

(١) الاستدلال البلاغي لشكري مبخوت ط ١، عام ٢٠٠٦م ، لدار الكتاب الجديدة المتحدة بيغاري، ص ١٣ .

(٢) الاستدلال عند الأصوليين للدكتور : أسعد الكفراوي ط ١، عام ١٤٢٣هـ ، لدار السلام بالقاهرة ، ص ٧٤ .

(٣) مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي ، للدكتور علي النشار ط ٣، عام ١٤٠٤هـ ، لدار النهضة العربية بيروت ، ص ٦٨ .

والحق أن الفقه الإسلامي الذي احتاجه المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ ، جعل صحابة رسول الله ﷺ في حاجة للاستدلال والاستنباط فقايسوا واجتهدوا ، بما يؤكد أن بوادر القياس كانت في تلك الفترة ولا يكاد تكون له علاقة تبعية مباشرة بالمنطق اليوناني ، وما قام به الإمام الشافعي في رسالته إنما هو في حقيقة الأمر استكمال وتعزيز لجهود صحابة رسول الله ﷺ بعد موته ، واستقراء لطرق استنباطهم ، ومنهج طرائق الاستدلال الشرعي عندهم ، وما يؤكد القول بعدم تبعية القياس الإسلامي المباشر بالمنطق الأرسطي في بوادره الأولى ، أن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - نص عليه في رسالته التي استوفى فيها شروط القضاء و الموجة إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، فقال في ذلك : " أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدل إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، وآس بين الناس في وجهك وعدلك الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه ، ثم اعرف الأمثال والأشباه ؛ وقس الأمور بنظائرها ، واجعل من ادعى حقاً غائباً أو بينةً أمداً ينتهي إليه.... " ^(١) ، إلا أن بعض الأصوليين المتأخرين تناولوها تناولاً منطقياً متأثرين جداً بالأدلة المنطقية والقواعد الاستدلالية الجافة ، مثل الاستصحاب والسبير والتقسيم ^(٢) .

وينبغي التنبه إلى أمر في غاية الأهمية ، فالإضافة إلى أن أسلوب الأصوليين قد اعتمد على العديد من الأنماط الحجاجية الاستدلالية تعضد الجانب النقلي ، إلا أنهم تنبهوا إلى أن مصدرهم الناطلي الأول (القرآن الكريم)

(١) الأحكام السلطانية لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي ، تحقيق : أحمد مبارك البغدادي ط١، عام ١٤٠٩ هـ ، مكتبة دار ابن قتيبة بالكويت ، ص ٩٥_٩٦.

(٢) الاستصحاب عند الأصوليين : الحكم بثبوت أمر في الزمان الثاني بناء على ثبوته في الزمان الأول لعدم وجود ما يصلح للتغيير ، كاستصحاب اليقين الثابت لمن ينوي الصوم وهو متيقن بعدم طلوع الفجر ثم شك في طلوعه ، فالاليقين هنا لا يزول بالشك ، أما السبير والتقسيم عندهم فهو : حصر الأوصاف التي تحتمل أن يُعَلَّلَ بها حكم الأصل في عدد معين ، ثم إبطال ما لا يصلح بدليل ، فيتيقن أن يكون الباقى علة ، مثل ذلك أن يقول المجتهد: تحريم الربا في البر ثبت لعلة ، والعلة هذه هي إما كونه مكيلاً ، وإما لكونه مطعوماً ، وإما لكونه قوتاً ، وإما لكونه مُدَخراً ، وإما لكونه موزوناً ، وإما لكونه مالاً ، وهذا يسمى التقسيم ، ثم يبدأ بسبير هذه العلل -والسبير هو الاختبار- فيختبرها ويُسقط ما لا يراه صحيحاً ، وما لا يصلح أن يكون علة ، ينظر في ذلك لطرق الاستدلال ومقدماًها عند المناطقة والأصوليين للدكتور : يعقوب بن عبد الوهاب الباحسين : ، ط٢، عام ٢٠٠١ م ، مكتبة الرشد بالرياض ، ص ٥١٥_٥٣٠.

يتميز بأسلوب الحجاج والاستدلال ويشتمل على غالب أنواع الأدلة والبراهين التي تعتمد على العقل المجرد، وهذا ما يفسر اشتغال أساليبهم الاستنباطية على بعض آليات الحجاج الاستدلالي ، وهذا يعني أن تركيزهم على الاستدلال النقلي لم يصادر هويتهم العقلية ؛ إذ إن الأسلوب الحجاجي يعتمد كثيراً على الجانب العقلي، يقول السيوطي في ذلك:

" ... قال العلماء : قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتعزيز
وتحذيرٍ يُنفي مِن كُلِّياتِ المَعْلُوماتِ الْعُقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ إِلَّا وَكِتَابُ اللهِ قد نطق به لكن أورده على عادة العرب
دُونَ دَقَائِقِ طرقِ المتكلمين ... " ^(١) .

أما الاستدلال عند البلاغيين فإن العديد من الأنماط الاستدلالية النقلية مبثوثة في تصاويف كتب التراث البلاغي، من كلام الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ وكلام العرب شعره ونثره ، شأنهم في ذلك شأن الأصوليين ، وقد جأ البلاغيون إلى استخدام الموازنات البلاغية بين القرآن الكريم وكلام العرب لإثبات مزية بيان القرآن الكريم ، كما فعل الرماني في رسالته (النكت في إعجاز القرآن الكريم)^(٢)، وكذلك الموازنات الأدبية بين شاعر وشاعر ، كصنيع الآمدي في موازنته بين الطائيين ، وتأتي هذه الموازنات ككونها نمطاً استدللاً ينتهي به الوصول إلى أحکام نقدية معللة ، ولا يخفى أيضاً اعتمادهم على الجانب الحجاجي كثيراً ، وخاصة المتكلمين منهم لتعضيد استدلالاتهم النقلية والعقلية ، الأمر الذي يقارب بينهم وبين الأصوليين في البنية الاستدلالية ،

(١) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، عام ١٣٩٤ هـ ، للهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج ٤ ، ص ٦٠ .

(٢) ينظر في ذلك لصفحة ٧٧ وما بعدها من : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، ط٣ ، عام ١٣٧٦ هـ ، لدار المعارف المصرية ، وبندور الموازنات بين القرآن الكريم وكلام العرب أقدم من صنيع الرماني في نكته ، ويبدو أنه اطلع وبشكل جيد على جهود من سبقوه في ذلك ، مثل الموازنة الشهيرة التي أكملها الرماني وكانت جذورها عند سابقيه - كابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن - بين قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولَئِكَ بِالْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَعَّلُونَ﴾ (سورة البقرة : ١٧٩) وبين قول العرب: القتل أ NSF للقتل ، ينظر في ذلك لتأويل مشكل القرآن شرح ونشر السيد أحمد صقر ط٢ ، عام ١٣٩٣ هـ ، لدار التراث العربيص ٧ .

وقد تم تناول ذلك في العديد من المؤلفات والبحوث العلمية^(١) ، والأمر الرئيس الذي يميز الاستدلال البلاغي عن الأصولي إنه الأول منهم لم يكتفى بتوظيف الاستدلال كمؤثر خارجي على الاستنباط كما فعله الأصوليون، ولم يرتبط عندهم فقط بالإجراء المنهجي الذي ينتج الأحكام البلاغية والنقدية ويسهم في إثباتها ، بل تجاوز ذلك إلى بحث الاستدلال في الاستخدام اللغوي ، وما يتضمنه الخطاب العربي من علاقات استدلالية تربط بين الأقوال ، ومعنى ذلك أن البلاغيين وظفوا الاستدلال داخل اللغة وخارجها على مستوى التعبير وعلى مستوى التنظير والتأطير .

فالبلاغة عند البلاغيين تنطلق من الاعتبارات المقامية ، وموضوع البلاغة يتعلق بتحليل ما يشتمل عليه القول من تلك الاعتبارات^(٢) ، فاختلاف صياغة المعنى الواحد على أنساق متعددة يكسب كل نسق دلالة ، وهو الأمر الذي اعنى به البلاغيون كثيراً في قضايا مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، حتى جاء عبد القاهر الجرجاني وفصل القول في قضية الاستدلال على المعنى بالمعنى ، وهي قضية وظف فيها بعض الأنماط البينانية توظيفاً استدلاليأً ، فقد جعل للنمط البيني دلالة وضعية مباشرة كموضوع جمالي وبياني ، ودلالة عقلية لا تدرك إلا بانتقال الذهن إلى ما وراء المعانى العامة ، يقول الجرجاني في ذلك : " الكلام على ضربين ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ؛ وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد ، وبالانطلاق عن عمرو فقلت عمرو منطلق وعلى هذا القياس وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يذلك اللفظ على معناه الذي يتضمنه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة

(١) مثل كتاب : البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ ، محمد مشبال ، ط١ ، عام بدون ، لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد الملك السعدي بالمغرب ، وكتاب : التفكير البلاغي عند العرب أنسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري ، لحمادي صمود ، ط١ ، عام ١٩٨١م ، للمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، ص ٤٧٧ وما بعدها ودراسة الاستدلال في منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، للباحثة : خديجة كلامة ، جامعة محمد خيضر بالجزائر ، ودراسة : الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير ، للباحثة نعيمة يعمران، جامعة مولود معمري الجزائرية، ومقالة : الحجاج عند الجاحظ: بحث في المراجعات النصيات والآليات لهيثم سرحان ، مقالة علمية نشرت في المجلة العربية للعلوم الإنسانية بجامعة الكويت ، العدد ١١٥ ، العام ٢٠١١م، ص ٥٥.

(٢) ينظر في ذلك للاستدلال البلاغي لشكري المبخوت : ص ٢٥

ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل^(١) ، وقد أدرك عبد القاهر الجرجاني أن مشروعه البلاغي (معنى المعنى) متصل بدائرة الاستدلال اتصالاً مباشراً ، بل وصرح بذلك صراحة فقال بعد قوله السابق : " أو لا ترى أنك إذا قلت هو كثير رماد القدر أو قلت طويل النجاد أو قلت في المرأة نؤوم الصحا^(٢) فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سهل الاستدلال "^(٣) ، ونصا عبد القاهر الساقيين مثال واحد فقط يبين أثر الاستدلال عند البلاغيين داخل اللغة وخارجها ، وهو ما يجعل ذلك خصيصة تميز علماء البلاغة العربية عن علماء الأصول ، وخلاصة ما يقال في المنهج العلمي عند الأصوليين والبلغيين :

أولاً : اعتماد الفريقين على المنهج الاستباطي بمفهومه القديم المرتبط بالاستخراج والفهم والإدراك والاستنتاج.

ثانياً : الاستقراء التام غالباً هو الخطوة الأولى من خطوات البحث الأصولي والاستقراء الناقص غالباً هو الخطوة الأولى من خطوات البحث البلاغي .

ثالثاً : اعتماد الفريقين على الجانب الاستدلالي ، وتأثير هذا الجانب يبدو جلياً واضحاً في الأسلوب الحجاجي عند بعض العلماء .

رابعاً : تقارب مفاهيم الاستباط بين الأصوليين والبلغيين على مستوى المفهوم والتطبيق العملي.

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص : ٢٦٢.

(٢) ترددت في كتابة ضحا على هذا النحو ، فقد رأيت جمعاً من العلماء والمحققين يتباينون في كتابتها قصراً ومداً ، حتى وجدت في كتابتها خلافاً بين البصريين والковفين هداني له ملتقى أهل اللغة الإلكتروني ، وقد أشار ابن خالويه لذلك الخلاف في (شرح مقصورة ابن دريد) " فقال : وتكلب الدجى بالياء، إذا جعلته جمع دجية، وجائز أن يكون من ذوات الواو، من دجا الليل يدجو، فإذا كان كذلك فأهل البصرة يكتبونه بالألف؛ لأنه من ذوات الواو، وأهل الكوفة يكتبون ذوات الواو إذا انضم أول الاسم أو انكسر بالياء نحو: الضحى، والرضى، والعدى بالياء، وأهل البصرة بالألف على القياس " . ينظر في ذلك لكتاب (ابن خالويه) وجهوده في اللغة مع تحقيق كتابه شرح مقصورة ابن دريد ، دراسة وتحقيق : محمود جاسم محمد ، ط١ ، عام ١٤٠٧ هـ لمؤسسة الرسالة بيروت ، ص ١٥٩ .

(٣) السابق نفسه.

إجراءات المنهج الاستنباطي وضوابطه

المنهج الاستنباطي عند علماء المسلمين كما مر في الشق الأول من هذا المهداد، هو في حقيقته إجراء علمي ومنهج تفكيري ، و هو يتعدّد كثيراً عن المنهج الاستنباطي بمفهومه الحديث في المناهج البحثية المعاصرة ، وسيحاول هذا الشق أن يتلمس إجراءات المنهج الاستنباطي الحديث وضوابطه من خلال تحديد مفهومه وحدوده ، والكشف عن مدى نجاعة المنهج الاستنباطي الحديث في مجالات الدراسات البلاغية .

تعريف المنهج الاستنباطي :

المنهج لغة : أصله **نَهَجَ** ، " طريق نجح : بين واضح ... والمنهج : الطريق الواضح "(١) ، " وَنِي التَّنْزِيلُ الْعَزِيزُ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَاجًا "(٢) وَمِنْهُ منهاج الدراسة ومنهاج التعليم وَخَوْهُمَا .."(٣) .

والمنهج اصطلاحاً : "الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة "(٤) .

أما الاستنباط لغة : فأصله نبط : " والتَّبَطُّ: الماء الذي ينبعُ من قَعْرِ الْبَرِّ إذا حُفِرتْ، وقد نَبَطَ ماؤها يَبِطِّ وَنَبِطَّاً، وقد أَنْبَطْنَا الماء، أي: استنبطناه، يعني: انتهينا إليه " (٥) .

ولعله يكون من الصعب إيجاد تعريف اصطلاحي للاستنباط يجمع بين مفهوم علماء التراث والمعاصرة له ،

(١) لسان العرب لابن منظور ط٨، عام ٢٠١٤ م ، لدار صادر بيروت، ج ١٤، ص ٣٦٥.

(٢) سورة المائدة : الآية الكريمة : ٤٨ .

(٣) المعجم الوسيط للمؤلفين (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار ط١ ، عام (بدون) لدار الدعوة، ج ٢ ، ص ٩٥٧ .

(٤) مناهج البحث العلمي لعبد الرحمن بدوي ط٣ ، عام ١٩٧٧ م، لوكالة المطبوعات الكويتية، ص ٥ .

(٥) العين للخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق : عبد الحميد هنداوي ط ١ ، عام ١٤٢٣ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

وقد مر بنا في الشق الأول من هذا المهداد^(١) أن الاستنباط عند علماء التراث العربي لا يتعد مفهومه الاصطلاحي عن مفهومه اللغوي ، فالاستخراج هو الجامع ما بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي ، "فاستغير لما يستخرجه الرجل بفرط ذهنه من المعاني والتداير فيما يعقل وبهم ، فكان في العدول عن لفظ الاستخراج إلى لفظ الاستنباط إشارة إلى الكلفة في استخراج المعنى من النصوص التي بها عظمت أقدار العلماء وارتفعت درجاتهم ، فإنه ، لو لا المشقة ساد الناس كلهم ، وإلى أن حياة الروح والدين بالعلم والغوص في بحثه كما أن حياة الجسد والأرض بملائمه"^(٢) .

أما المنهج الاستنباطي عند علماء مناهج البحث فهو منهج مستقل شكلياً عند بعضهم ، وأداة من أدوات المنهج الاستدلالي عند البعض الآخر^(٣) ، ومن جعله منهجاً مستقلاً فقد وضعه صورياً بإزاء ما يعرف بالمنهج الاستقرائي التجربى ، الذي يعتمد فيه الباحث على "استقراء الجزئيات ووصفها وتحليلها ووضع الفروض وتأويلها ثم استخراج الكلية الضابطة"^(٤) ، أما من اعتبره أداة من أدوات المنهج الاستدلالي فقد جعله بإزاء الاستدلال المباشر باعتباره الضرب الأول من ضروب الاستدلال غير المباشر وباعتبار الاستقراء الضرب الثاني بهده ، وكثير منهم يلحق منهج الاستنباط بالمنطق الصوري بعمومه والاستدلال منه بشكل خاص ، فهو عندهم إجراء ذهني ينطلق من مقدمة عامة ترتبط ب المسلمات كلية ، ما يعني أنه يتعد عن الواقع ، وينطلق أيضاً من مقدمات عامة وكليات مسلمة هو ما دفعهم لإدارجه تحت الاستدلال ، إذ حدَّ علماء مناهج البحث بأن

(١) ينظر لأول صفحة من مهاد هذا البحث وما يليها .

(٢) كشف الأسرار شرح أصول البذوي عبد العزيز بن أحمد البخاري الحنفي ، (الكتاب غير محقق وليس فيه تحديد لعام النشر) ، الناشر : مطبعة الشركة الصحفية العثمانية ، وأعادت نشره : دار الكتاب العربي بيروت . ج ١ ، ص ٢٠ .

(٣) ينظر في ذلك مناهج البحث العلمي عبد الرحمن بدوي : ص ٢١ وما بعدها ، والمنطق الصوري لعلي النشار وما بعدها ، ط ١ ، عام ٢٠٠٠ م ، لدار المعرفة الجامعية بمصر ، ص ٥٤ ، وكتاب : البحث العلمي ، لإبراهيم محمد تركي ، وما بعدها ، ط ١ ، عام ٢٠١٠ م ، لمطبع شتات بمصر ، ص ١٣٩ .

(٤) سبل استنباط المعانى محمود توفيق : ص ٣٧ .

الاستنباط: " استنتاج نتيجة معينة من مقدمة أو عدة مقدمات ^(١) "، ييد أن العلماء الذين تناولوا الاستنباط باعتباره كلاً مستقلاً حتى على مستوى الشكل ، لم يستطيعوا فصل روحه عن المنهج الاستدلالي ^(٢) ، إذ إن ربطهم الاستنباط بالمقدمات والعمل الذهني والبرهان الغير مباشر يطغى على حديثهم عنه حتى مع محاولات فصله كمنهج مستقل ^(٣) ، مما يسهل القول بأن الاستدلال أعم من الاستنباط بمفهومهما المنطقي عند علماء المناهج البحثية الحديثة .

نّشأة المنهج الاستنباطي الحديث :

يعتمد بعض علماء مناهج البحث ^(٤) عند حديثهم عن المنهج الاستنباطي على جهود الفيلسوف الأستاذ ديكارت ^(٥) ، وذلك أنه بحث عن منهج علمي يعصم التفكير من الخطأ ويجيد بالضلالة جانبًا عن طرائق

(١) البحث العلمي أسسه ومناهجه لإبراهيم محمد : ص ١٣٩ .

(٢) ينظر للمصدر السابق ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٣) دمج عبد الرحمن حبنكة الميداني الاستنباط دمجا في الاستدلال ولم يجعله حتى من ضروب الاستدلال وأقسامه ، وجعله كالم rádف له وإن لم يصرح بذلك ، ينظر في ذلك لضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة صياغة للمنطق وأصول البحث متمسية مع الفكر الإسلامي ، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ط٤ ، ١٤١٤ هـ ، لدار القلم بدمشق ، ص ١٣٢-١٣٣ ، وص ١٤٥ وما بعدها .

(٤) ينظر في ذلك خطوات وضوابط البحث العلمي للدكتور أمين منتظر ، ط١ ، عام ١٤٣١ هـ ، لدار الفكر العربي بمصر ، ص ٣٣٢ وما بعدها ، ومناهج البحث المعاصرة رؤية إسلامية ، لمحمد حسن بخيت ، ط١ ، عام ٢٠١٤ م ، لعلم الكتب الحديث للنشر والتوزيع بالأردن ، ص ١٧٧ وما بعدها ، وكتاب : البحث العلمي أسسه ومناهجه لإبراهيم محمد تركي : ص ١٣٩ وما بعدها .

(٥) ديكارت رينيه : ١٥٩٦ - ١٦٥٠ م فيلسوف ورياضي وعالم فرنسي كثيراً ما يلقب بأبي الفلسفة الحديثة ، ألف ثلاثة مؤلفات رئيسية: رسالة في منهج التصرف العقلي السليم للمرء والبحث عن الحقيقة في العلوم ، وتأملات في الفلسفة الأولى، ومبادئ الفلسفة ، ينظر للموسوعة العربية العالمية ط٢ ، عام ١٤١٩ هـ ، الناشر: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع بالرياض ، ج ١٠ ، ص ٥٧٢ .

المعرفة ، فوازن بين العلوم التي درسها فوجد أن أكثرها يقيناً وأصحها في النتائج الرياضيات لصحة استدلالاتها، فجعل يدرس طائق التفكير الرياضي ويوازن بينها وبين طائق التفكير في العلوم الأخرى ، و"قام بتحليل المنهج الرياضي إلى عناصره العقلية فلم يتيسر عليه أن يشاهد أنه ينحصر في استنباط النتائج استنبطاً عقلياً أي القياس ، ولكن القياس لا يبدأ من غير أن يسبقه عمل عقلي آخر ... يسمى البداهة أو الحدس ^(١) ، وتوصل إلى أن عدم ضبط العلوم الأخرى بقوانين صارمة ونتائج حقيقة ثابتة يرجع إلى المنهج، ذلك المنهج الذي تبع فيه الدارسون المنطق الأرسطي الذي ثبت لديكارت فشل مبادئه وآرائه ، " وما من دليل على فساد مبادئ أرسطو أقوى من أن نقول بأن الناس قد اتبعوها منذ قرون عديدة، دون أن يحرزوا أي تقدم عن طريقها^(٢) ، وحينما تقرر له ذلك أسس منهجاً كاد يسميه الاستنباطي تلميحاً وتصرحاً ، فقد رمز لهذه التسمية في الرسالة التي وجهها لمترجم كتابه مبادئ الفلسفة ، والتي وسم فيها غائية منهجه بقوله: " ذلك هو البحث عن العلل الأولى والمبادئ الحقة التي يستطيع المرء أن يستتبط منها أسباب كل ما في مقدورنا أن نعرفه "^(٣) ، ووسمه بالاستنباط ووصفه بالضروري في كتابه التأملات في الفلسفة الأولى دون أن يضعه اسماً منهجه حيث قال : " ليس أمم الجنس البشري طرق مفتوحة للمعرفة اليقينية سوى طريق الحدس البديهي والاستنباط الضروري "^(٤) ، ويفيد أن فكرة ديكارت وجدت قبولاً عند الدارسين وال فلاسفة منهم بشكل أخص من بعده فتلتفقها الفلاسفة الغربيون والعرب ، فوسموه بالمنهج بالاستنباطي وأعجبوا به أيضاً عجب ، " فاستخدام العالم للرياضيات إلى جانب التجريب المستمر واتخاذهما معاً معايير الصدق يؤكد أن مصدر القوة في العلم الحديث هو اختراع المنهج الاستنباطي وهو المنهج الذي يوضع تفسيراً في صورة فرض رياضي يمكن استنباط الواقع الملاحظة منه "^(٥) .

(١) مناهج البحث المعاصرة لمحمد حسن بخيت : ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) ديكارت مبادئ الفلسفة ترجمة : عثمان أمين ط١، عام ١٩٧٥ م ، لدار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ، ص ٤٨ .

(٣) نفسه ص ٣٤ .

(٤) التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت ، ترجمة عثمان أمين ، ط١ ، عام ١٩٨٠ م ، لدار الأنجلو المصرية ، ص ١٠-١١ .

(٥) نشأة الفلسفة العلمية ، رشنباخ هانز ، ترجمة فؤاد زكريا ط١ ، عام ١٩٦٨ م ، لدار الكتاب العربي بالقاهرة، ص ٩٦ .

كما أن الفلسفه العرب - وكعلماء المناهج البحثية الحديثة - لم يستطيعوا إخفاء إعجابهم بأفكار ديكارت في المنهج الاستنباطي ، وما ذاك إلا لأنه " أحدث ثورة فلسفية نفضت غبار العصور الوسطى وقد كان هذا الغبار نفسه من مخلفات القياس الأرسطي " ^(١) .

ولكن هل يصح أن يقال بأن ديكارت هو من وضع هذا المنهج ؟ الجواب عن ذلك يكمن في التفريق بين مركبات الاستنباط المنطقي عند أرسطو ومرتكزاته عند ديكارت ، إذ إن الاستنباط الديكارتي يعتمد على القضايا الظنية أو الاحتمالية ، في حين يقوم القياس الأرسطاطاليسي على قضايا يقينية بحيث تكون نتائجه متضمنة في مقدماته ، أما نتائج الاستنباط فتولد معرفة جديدة تكتسب بالتأمل العقلي ^(٢) ، إذ إن الاستنباط المنهج كان مضموناً للقياس المنطقي عند أرسطو الذي يعتمد في غالبية إجراءاته على الاستقراء ، ولكن ديكارت أدخل القياس الأرسطي في دائرة الاستقراء وأخرجه من الاستنباط لأن مقدماته يقينية ، وبهذا يعلم كيف أن الاستنباط المرتبط بالمقدمات الاحتمالية قد جاء كردة فعل للقياس الأرسطي الاستنباطي المعتمد على الاستقراء ؛ وعليه فقد تصح نسبة الاستنباط المبني على الاحتمالات الظنية لディكارت إذا لم يقل بتأثير ديكارت بأبي حامد الغزالى ، فالغزالى المتأثر كثيراً بمنطق أرسطو على وجه الخصوص يكاد يكون أول من مرج بين أصول الفقه وعلم المنطق ، وجعله شرطاً في تحصيل العلوم ، وصنف في ذلك كتبه ، "عيار العلم" و "محك النظر" و "مقاصد الفلسفه" ^(٣) ، مما يتوهם في بعده كثيراً عن منهج ديكارت الذي يعتبر في حقيقته ثورة على المنهج الأرسطي ، ولكن الغزالى دعا بشكل صريح ولافت إلى قاعدة الشك التي بني عليها ديكارت منهجه

(١) نحو فلسفة علمية : زكي نجيب محمود ، ط٢ ، عام ١٩٨٠م ، لدار الأنجلو المصرية ، ص ١٦١.

(٢) ينظر في ذلك لمناهج البحث المعاصرة رؤية إسلامية لـ محمد حسن بخيت : ص ١٩٩.

(٣) أبو حامد محمد الغزالى الطوسي النيسابورى الصوفى الشافعى ، (٤٥٠ - ٥٥٠ هـ) ، أصولي وفقىه وفيلسوف ، قال صاحب سير أعلام النبلاء : " والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعه ، والتصانيف العظيمة ، غلا في طريقة التصوف ، وتجدد لنصر مذهبهم ، وصار داعية في ذلك ، وألف فيه تواليفه المشهورة ، أخذ عليه فيها مواضع ، وسأله به ظنون أمة ، والله أعلم بسره ، " ينظر لسير أعلام النبلاء : لشمس الدين النهبي ، تحقيق : مجموعة من الحفظين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، ط٣ : عام ١٤٠٥ هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ج ١٩ ، ص ٣٢٧ .

الاستباطي والتي جعلها أول عتباته ، وهو الأمر الذي يدفع للقول بتأثير ديكارت بأبي حامد الغزالى ، فالغزالى يرى أن الشك في جميع العلوم والمعارف التي يتلقاها الإنسان أمراً ضرورياً ، وهو المرحلة الأهم عنده من مراحل التطور العقلي ، فالشك هو ما يجعل الوصول إلى الحقيقة أمراً ممكناً ، فلا بد عند الغزالى أن تواصل البحث عن الحقيقة بنفسك ولا بد أن تطلب " الحق بطريق النظر، لتكون صاحب مذهب، ولا تكون في صورة أعمى تقلى قائداً يرشدك إلى طريق وحالتك ألف مثل قائدك ينادون عليك..... ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث ، لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً ، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يصر ، ومن لم يصر ، بقي في العمى والضلال. نعوذ بالله من ذلك^(١) أما تأثير المنهج الديكارتى على الثقافة العربية فيكاد يكون أشد وضوحاً في الأدب العربي ، فقد اعتمد عليه طه حسين في مشروعه النبدي حول الشعر الجاهلي ، ذلك المشروع الذي أثار ضجة في الأدب العربي لم يكن لها مثيل في الأدب الحديث ، ولم يتورع طه حسين عن التصريح باعتماده الكلي على منهج ديكارت الاستباطي، تصريح أبدى فيه مزيداً من السرور والابتهاج العلمي بهذا المنهج ، فقد وجد فيه ضالته وغايته العلمية والبحثية التي طالما كان يبحث عنها ، يقول طه حسين في كتابه (في الأدب الجاهلي) :

" ... سأسلك في هذا البحث مسلك المحدثين من أهل العلم والفلسفة ، أريد أن أصنعن في الأدب هذا المنهج الفلسفى الذي استحدثه ديكارت ، للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث ... والناس جميعاً يعلمون أن هذا المنهج ... أخصب المناهج و أقوها وأحسنها أثراً ، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديداً ، قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم ، ... وأنه هو الطابع الذي يتميز به في هذا العصر الحديث^(٢) .

وقد أعقب تطبيق طه حسين لمنهج ديكارت في مشروعه النبدي في الأدب الجاهلي ، حراكاً علمياً كبيراً في الأوساط الأدبية في العالم العربي ، حيث انتهى به تطبيق هذا المنهج إلى القول بأن: " الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلية ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة

(١) ميزان العمل ، لأبي حامد الغزالى ، تحقيق : سليمان دنيا ، ط١ ، عام ١٩٦٤ م ، لدار المعارف بمصر ، ص ٤٠٩ .

(٢) في الأدب الجاهلي : طه حسين ، ط٣ ، عام ١٣٥٢ هـ مطبعة فاروق بالقاهرة ، ص ٦٥-٦٦ .

المسلمين وميولهم وأهواهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين^(١)، الأمر الذي دفع الكثيرين من النقاد والأدباء البارزين في العصر الحديث لنقد مشروع طه حسين ومنهجه ، ما أدى إلى تكون نتاج علمي وأدبي وبختي غزير ووافر على يد أساطين النقد والأدب العرب الحديث .

إلا أن هناك ما يجب التنبه له والتنويه عليه ، إذ إن غالباً الناتج الأدبي المناهض لمشروع طه حسين حينما تناول المنهج الديكارتي الذي اعتمد عليه طه ، حصر هذا المنهج في جانب الشك فقط، حتى شاع بين الدارسين وسم هذا المنهج بمنهج الشك^(٢)، والصحيح أن الشك هو الخطوة الأولى من خطوات المنهج الاستنبطائي عند ديكارت كما سيأتي بيانه في ضوابط المنهج الاستنبطائي ، وعليه فإن تسمية الشك منهجاً تسمية غير دقيقة ، كما أن وصف منهج طه حسين بمنهج الشك وصف غير دقيق أيضاً ؛ لأنه ألزم نفسه بمنهج ديكارت والذي يعتبر الشك أول خطواته وإجراءاته كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

ضوابط المنهج الاستنبطائي عند ديكارت :

حدد ديكارت المنهج الاستنبطائي الخاص به في عدد من القواعد تمثل في حقيقة الأمر عتبات المنهج من الأسفل للأعلى ، واشترط في مقالته عن المنهج مراعاة الترقى البحثي للباحث عن الحقيقة عبر هذه القواعد بشكل دائم عند أبي محمود بختي^(٣) ، وقد وجد في تطبيق تلك القواعد عصمة للعقل البحثي من الخطأ والزيف المعرفي ، وهي السبيل المضمون للأمان العلمي والنتائج الصادقة ، وقد قام ديكارت بتلخيص القواعد فيما يأتي:

القاعدة الأولى : التجدد من الأحكام الثقافية السابقة وعدم التسليم بها كقينيات علمية ، فلا وجود عنده

(١) في الأدب الجاهلي لطه حسين ، ص ٦٣ .

(٢) يقول عفيف عبد الرحمن في تاريخ الأدب الجاهلي : " منهج الشك في الأدب الجاهلي كان نعمة على ذلك الشعر بالرغم من كل ما حدث؛ لأنه أدى إلى البحث عن الحقيقة وعمق صلتنا بهذا التراث" ينظر الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً ، للدكتور عفيف عبد الرحمن ط ١ ، عام ١٩٨٥ م ، لدار الفكر بالأردن ، ص ٤٣ .

(٣) ذكر ديكارت ضوابط المنهج وقواعده في كتاب : مقال عن المنهج ، تأليف رينيه ديكارت ، وترجمة محمود الخضريري ، ط ٢ ، عام ١٩٦٨ م ، لدار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ، ص ٢٠٦-١٠٨ .

ليقينيات يتلقاها الشخص منذ طفولته ، أو يتلقاها بالسند النقلي من دون أن يمعن النظر فيها ويشك في صحتها ، وبذلك فإن الأحكام المبثوثة في تضاعيف الكتب التراثية عند ديكارت لا تؤخذ من الباحث عن المعرفة كيقيينيات يسلم بها أيا كان تخصصها ، بل هي إن " قرئت بتمحیص فإنها تعین على تکوین الحکم "^(١) وليس هي أحكاماً يقينية بعينها ، فعلى كباحث ألا قبل أي شيء على أنه حق مالم أتيقن بنفسي أنه حق يقيني ، لأنني " تعلمت ألا أعتقد اعتقاداً جازماً في شيء بحكم التقليد أو العادة ، وكذلك تخلصت ... من الأوهام ، التي تستطيع أن تخمد فينا النور الفطري ، وتنقص من قدرتنا على التعلق ، ولكن بعد أن أنفقت بعض السنين في الدرس ... فإني عزمت أن أجرب أيضاً في نفسي وأن أصرف قواي العقلية في اختيار الطريق التي يجب أن أسلكها "^(٢) ، ولتطبيق قاعدة التجرد من الأحكام المسبقة فلا بد عند ديكارت من التشكيت ببعض المبادئ الرئيسية التي تخرج الشك من مجرد الشك ، فلا بد أن يكون وضوح الأفكار أو غموضها ولبسها معياراً لصدقها وخطئها على حد سواء ، ولا بد أن يُراعى عدم التهور والتسريع بحيث لا يستعجل الباحث في بلوغ النتائج قبل التيقن من صدق المقدمات ، ولا ينبغي عند تطبيق هذه القاعدة النظر إلى صدق القول أو عدم صدقه بالنظر إلى قائله مهما كانت شخصيته الاعتبارية ، والدائرة العريضة التي تجمع مبادئ هذه القاعدة وحدودها عدم تأثر الباحث عن الحقيقة بأي أفكار سابقة وتطهير العقل من أفكار الآخرين الملاحة عليه ^(٣) .

وهذه القاعدة المتحررة من المسلمات الفكرية وحتى الفطرية الراسخة عند ديكارت لا تستثنى شيئاً حتى اليقينيات الدينية ، فهي وإن تمردت على النظام الثقافي المتراكم بما يؤسس غائية البحث بدون أهواء مسبقة وتوجيه فكري مسبق للباحث ، فإنها أيضاً تتمرد على القيم الدينية الراسخة والتي تجعل منها مدونة بحثية كأي ظاهرة علمية وفكرية ، يجب على من ينشد الحقيقة فيها التحرر من يقينيتها ونزع قدسيتها ، بوصفها حقائق علمية تطبق عليها قواعد الاستنباط الحديث المبتدئة بالشك المنهجي ، " وقد تذرع الكثيرون بهذه القاعدة لنجد الدين لما يعول عليه من أحداث تاريخية تتعلق بنزول الوحي ، وما يتضمن من عقائد تفوق إدراك العقل وقالوا:

(١) مقال عن المنهج ، تأليف رينيه ديكارت : ص ١١٣ .

(٢) السابق : ص ١٢٠ .

(٣) ينظر لمناهج البحث المعاصرة رؤية إسلامية ، محمد حسن بخيت ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

إن هذه القاعدة عبارة عن إعلان حرية الفكر وإسقاط كل سلطة^(١) .

القاعدة الثانية : قاعدة التقسيم والتحليل ، وعبر عنها ديكارت بقوله : "أن أقسم كل واحدة من المضلات التي ساختيرها إلى أجزاء على قدر المستطاع على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على غير الوجوه^(٢)" وهذه القاعدة تعتمد بشكل كلي على رد العناصر العلمية المركبة المعقدة إلى أجزائها البسيطة المفردة الغير معقدة ، وهذه القاعدة لا تعين الباحث على اكتشاف آفاق معرفية جديدة بالفهم والإدراك الكامل فحسب ، بل تضيف لذلك تجسس الطريقة التي كان يفكر بها علماء القضية التي هو في صدد البحث عنها ، إذ إن الوصول إلى طريقة تفكير أحد ما لا تكون إلا برد أفكاره إلى أجزائها البسيطة ومقدماتها الذهنية ، كما أن هذه القاعدة تساعد الباحث على تلمس الأجزاء التي قد تكون غير معلومة لديه بمعرفة العلاقات بين مكونات المعضلة كما يسميها ديكارت .

القاعدة الثالثة : قاعدة التأليف والتركيب^(٣) ، وهي القاعدة التي عبر عنها ديكارت بقوله "أن أُسيّر أفكري بنظام بادئاً ببساط الأمور ، وأسهلها معرفة كي أدرج .. حتى أصل إلى معرفة أكثرها تركيباً ، بل وأن أفرض ترتيباً بين الأمور التي لا يسبق بعضها بعضاً الآخر إلا بالطبع^(٤)" ، وقد ذكر بعض الباحثين^(٥) بأن هذه الطريقة هي ما يكشف بجلاء محاولات ديكارت لتطبيق مناهج بحث الرياضيات على جميع العلوم على المستوى التطبيقي بعد أن نادى بذلك شكلياً ، إذ إن الوصول إلى المعرفة الأكثر تركيباً لا يكون إلا بالدرج الذي يتميز به حل المعادلات الرياضية ، حيث لا يخطئ الرياضيون عادة في حلولهم المتدرجة ، بل ويتفقون على النتيجة

(١) تاريخ الفلسفة الحديث ، يوسف بطرس كرم ، ط١ ، عام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بالقاهرة ، ص .٧٢

(٢) مقال عن المنهج لرينيه ديكارت ص : ١٣١ .

(٣) ينظر للهامش رقم : ١ من السابق : ص : ١٣٢ .

(٤) السابق : ص : ١٣١-١٣٢ .

(٥) ينظر لمناهج البحث المعاصرة لحمد بخيت : ص ٢٠٣ .

ذاتها ، إذ إن هذه القاعدة تعتمد على الإحصاء الرياضي كثيراً ، وقد شبه ديكارت من يستغى عن هذه القاعدة من الباحثين بالأشخاص الذين وجدوا في أسفل بناء وحاولوا بقفزة واحدة أن يصلوا إلى أعلىها ، "وذلك إما لأنهم لم يأخذوا في اعتبارهم درجات السلالم المعد للصعود وإما لأنهم لم يتفطنوا إليها .."^(١) .

ومن المنطقي أن تأتي قاعدة التأليف والتركيب بعد قاعدة التقسيم والتحليل ، فتفكيك العناصر المركبة إلى أجزائها البسيطة يتطلب إعادة تأليف تلك العناصر وفق رؤية الباحث وتفكيره ، وكما هو بين فإنها ترتكز على التدرج البحثي بغية الوصول إلى النتائج الصحيحة ، ولا بد للباحث من افتراض نظام يعيد جمع العناصر المركبة بتدرج منطقي ، يستطيع معه الباحث الوصول إلى نتائج غالباً ما تكون نتائج صحيحة .

القاعدة الرابعة : قاعدة الاستقراء ، وهي القاعدة التي ختم بها ديكارت منهجه الاستنابطي الباحثي الحديث، وهي تختتم على كباحث "أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ، مما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئاً"^(٢) ، ويلاحظ أن هذه القاعدة الختامية والتي تعتمد على الاستقراء التام ، هي الخطوة الأولى التي تعتمد عليها كثير من المناهج البحثية التي يعتمد عليها الباحثون في التراث المعرفي العربي، حيث تأسر الباحث في أن يبدأ من حيث انتهى الآخرون ، مما يجعل نمو المعرفة نمواً تكاملياً تكتمل معه أصول المعرفة وضوابطها العامة ، أما الاستقراء الديكارتي فهو خطوة بحثيةأخيرة يرمي فيها إلى احتواء الباحث لكل مسألة تتصل ببحثه ، وبذلك يستطيع الباحث أن يقارن بين النتائج التي وصل إليها الآخرون وبين النتائج التي توصل إليها بالقواعد الثلاث الأولى ، ويستطيع من خلال تلك المقارنة التتحقق من صحة نتائجه الخاصة ، وبذلك يتبيّن أن المنهج الاستنابطي عند ديكارت متزوج فيه المناهج كأدوات بحثية تتظافر جهودها جميعاً للوصول إلى حقيقة ثابتة ، فالاستقراء والإحصاء مثلاً وللذان يمثلان منهجين مستقلين ليسا هنا إلا أداتين للاستنباط ومرحلتين متعاقبتين من مراحله ، والعجيب في منهج ديكارت أن استطاع أن يوظف الاستقراء لمنهجه الاستنابطي على الرغم من وجود ما يشبه التضاد والتقابل بينهما ، فمعلوم أن الاستقراء يعتمد على

(١) قواعد لتوجيه الفكر لرينيه ديكارت ، ترجمة وتقديم سفيان سعد الله ، ط١ ، عام ٢٠٠١م ، الناشر: مجموعة سراس بتونس ، ص ٤٧-٤٨.

(٢) ينظر للهامش رقم : ٢ من مقال عن المنهج لرينيه ديكارت : ص : ١٣٢ .

"السير من الحقائق الخاصة للاستدلال على القواعد العامة ، فالدراسة تتجه فيها من المستوى الخاص إلى المستوى العام^(١)" بعكس الطريقة الاستنباطية التي " تتجه الدراسة فيها من العام إلى الخاص فتحاول استنباط جزئيات من المبادئ والقواعد العامة^(٢)" ، وأشد من ذلك العجب أنك حينما ت يريد تطبيق قواعد هذا المنهج بحسب ديكارت ، فلا بد وأن تبدأ بأن تعلن برأتك التامة من الأحكام اليقينية المسيرة التي تتشكل في ذهن الباحث باستقراء الظواهر ، ثم ما تلبث أن تتوب عن ذلك وتعود لاستقراء الظواهر في آخر مرحلة من مراحل هذا المنهج ، و الذي يزيل هذا العجب أن ديكارت اقتدح زناً منهجه من تعاطيه مع المسائل الرياضية ذات النتائج الثابتة ، " ومن المعلوم أن القضايا في العلوم الرياضية إنما هي قضايا تحليلية لا يتوقف صدقها على مطابقة الواقع الخارجي ، فالعلوم الرياضية علوم عقلية صرفة تقوم على استنتاج بعض التصورات أو القضايا^(٣)".

مقاربة بين الاستنباط القديم والحديث :

في الشق الأول من هذا المهد تبيّن بعض من ملامح الاستنباط عند علماء التراث العربي ، واتضح فيما بعده معالم المنهج الاستنباطي الحديث المعتمد فيه كثيراً على ديكارت ، والذي ينشد الحقيقة الثابتة في معزل أولى عن القيم الثقافية السابقة المهيمنة على العقل العلمي والبحثي ، وإذا كان ينشد الحقيقة على نحو من ذلك في ينبغي التنويه على أن ديكارت لا يؤسس لقطيعة علمية وثقافية مع السابق الثقافي ، فالقاعدة الأخيرة من قواعد الاستنباط الديكارتي الحديث تعتمد على الاستقراء ، الأمر الذي يجعل من الاستقراء قاسماً مشتركاً بين قديم الاستنباط وحديثه بغض النظر عن أوليته .

و لعل المعنى اللغوي للاستنباط هو رابط آخر يستطيع أن يقارب بين القديم والحديث منه ، فاستخراج الحقائق العلمية هو حجر الزاوية الذي يجمع بين مفاهيم الاستنباط ومنهجيته عند المتقدمين والمتاخرين باختلاف الطرائق والإجراءات .

(١) خطوات وضوابط البحث العلمي لأمين منتصر ، ص : ٣٢٨ .

(٢) السابق : ص ٣٣٢ .

(٣) البحث العلمي ، لإبراهيم محمد تركي ، ص: ١٤١ .

وما يقارب مفاهيم الاستنباط القديمة والحديثة تلك المحاولات الحديثة لضبطه ووضع إطاره بين علماء الفريقين وامتداح من يتلزم بتلك الأطر من الباحثين ، فكما أن ديكارت امتدح منهجه وكاد يلزم الباحث بالترقي على عتباته دون غيرها حتى يصعد للحقيقة ، معتبرا إياها الخلاص الوحيد من الزيف والضلال العلمي و العاصم من النتائج البحثية المتباعدة ، فابن قيم الجوزية - مثلاً - أحد الفقهاء الذين امتدحوا الباحثين الفقهيين المتزمتين بالاستنباط بمفهومه القديم ، معتبرا إياهم أهل العلم وخاصته وكاد يضع للاستنباط الفقهي إطاراً وضوابط لولا أنه تناوله كأدلة من أدوات القياس الأصولي ، يقول ابن قيم الجوزية في ذلك :

" ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعاني والعلل ونسبة بعضها إلى بعض، فيعتبر ما يصح منها بصحة مثله ومشبهه ونظيره، ويلغى ما لا يصح، هذا الذي يعقله الناس من الاستنباط... ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ، فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط ؛ إذ موضوعات الألفاظ لا تتناول بالاستنباط، وإنما تتناول به العلل والمعاني والأشباه والنظائر ومقاصد المتكلّم، والله - سبحانه - ذم من سمع ظاهراً مجرداً فأذاعه وأفشاها، وحمد من استبسط من أول العلم حقيقته ومعناه ^(١)، وهذه المقطوعة من كلام ابن القيم تشير من طرف لاحب أيضاً إلى تقارب المنهجين القديم والحديث حتى في بعض القواعد المؤسسة الممنهجة للاستنباط ، فكما أن ابن قيم الجوزية كاد يحصر الاستنباط في معرفة العلاقات بين العلل المعاني والأشباه والنظائر ، فإن ديكارت جعل قاعدة التقسيم والتحليل القاعدة الثانية من قواعد منهجه، وهي القاعدة التي تساعده الباحث على تلمس الأجزاء التي قد تكون غير معلومة لديه بمعرفة العلاقات بين مكونات المعضلة كما يسميتها، فابن قيم الجوزية وديكارت يلزمان الباحث بتتبع العلاقات بين المكونات العلمية ، معتبرين تتبع تلك العلاقات إجراء استنباطي صرف .

ومن خلال ما سبق يتضح أن ثمة قواسم مشتركة تقارب بين وجهات نظر العلماء تجاه الاستنباط قديمهم وحديثهم و باختلاف مشاربهم العلمية ، وجميع هذه القواسم تقع تحت خط عريض وعنوان كبير ، و هو خدمة العلم وتسهيل طريق تحصيله .

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، لابن قيم الجوزية تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم ، ط: ١، عام ١٤١١هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ج ١، ص ١٧٢.

نجاعة المنهج الاستنباطي في مجالات البحث الأدبي والنقدية :

يرتبط الاستنباط بالتفكير في مفهومه القديم والحديث ، ولا شك أن التفكير وإعمال العقل غاية عليا تسعى المؤسسات البحثية لتنميتهما لدى الباحثين ؛ وذلك أنه يسهم في الجدة والابتكار العلمي، ويسعى بالعقل لتحقيق سبق علمي واقتناص الفرص المتاحة المباحة في مجالات العلم والمعرفة ، ولعل الأمر الذي يفسر اختلاف المنهاج العلمية البحثية عند الباحثين في التخصص الواحد بالإضافة إلى التناسب بين طبيعة الموضوع ومنهجه ، هو تلك القدرات العقلية المتنوعة عند الباحثين ، من باحث حبه الله القدرة على الإدراك ، وآخر استودعه الله القدرة على التذكر والحفظ ، إلى باحث رزقه الله بالقدرة على التخييل والتذوق الجمالي واللغوي ، ومنهم من مكنته الله موهبة الاستنباط والاستنتاج ، والقدرة على التحليل والتركيب والاستقراء ، ولم يقف تأثير ذلك على المنهاج الخاصة بالباحث فقط ، فقد تسرب تأثير اختلاف تلك القدرات إلى تكوين مدراس واتجاهات علمية ، فالمدرستان البصرية و الكوفية النحويتان تأسستا على نحو من ذلك ، مما جعل كثيراً من العلماء يقولون بأن النحوي البصري أضيق في الأخذ، وأنهن في الاستنباط، وأن النحوي الكوفي أوسع في الرواية، وأكثر في النقل ، وقد تنبه العلماء القدماء لمناهج تلك المدرستان وطرائفهما العلمية ووازنوا بينها ، فابن جني لاحظ أن "أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة" ^(١) نتيجة إتقانهم الاستنباط أكثر من الكوفيين .

وإذا كان الاستنباط عند كثير من علماء التراث ذروة سلام العلم ومرتبته العليا ، فإنهم لم يهملوا ما يقابله من المنهاج العلمية بحسب مفاهيمهم الاستنباطية ، فأبو عثمان الجاحظ مثلاً أطلق حكماً منهجياً على إثر مقارنة عجلى بين منهجي الاستنباط والاستقراء بعد أن سمى الأخير حفظاً وجعله مقابللاً للاستنباط ، وطالب الباحث المزج بين المنهجين وعدم الاعتماد الكامل على أحدهما دون الآخر ، ولكن لم يتعدد في تفضيل الحفظ على الاستنباط على الرغم من ذكره لبعض من عيوب الحفظ ، وفيما يبدو فإن تفضيله الحفظ على الاستنباط نابع من اعتماده الشخصي عليه في كثير من مؤلفاته ، فامتداحه للحفظ جانب من جوانب امتداحه منهجه الخاص به واعتزاذه بطريقته العلمية ، يقول الجاحظ: "گرہت الحكماء الرؤساء، ... جودة الحفظ، لمكان

(١) الخصائص لأبي الفتح ابن جني ج ١، ص ٣٨٧.

الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز ، ولأنّ مستعمل الحفظ لا يكون إلّا مقلّداً ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبـه إلى برد اليقين وعزّ الثقة ، ... والحكم المحمود: أنه متى أداـم الحفظ أضرـ ذلك بالاستنباط، ومتى أداـم الاستنباط أضرـ ذلك بالحفظ ، وإنـ كانـ الحفظـ أشرفـ منزلـةـ منه.^(١)

والاستنباط التراثي العربي القديم كان له كبير الأثر في إثراء المكتبة العربية بنفائـس المؤلفـاتـ في مختلفـ العـلومـ ، وأـلـخـصـ منهاـ المؤـلفـاتـ الفـقـهيـةـ والأـصـولـيةـ وـعـلـومـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ وـالـتـيـ لـاـ تـرـازـ تـشـكـلـ مـدـوـنـةـ بـحـثـيـةـ وـمـرـجـعـيـةـ عـلـمـيـةـ ،ـ وـإـلـيـهاـ يـحـكـمـ طـلـابـ الـعـلـمـ وـالـبـاحـثـونـ فـيـ كـلـ مشـكـلـ عـلـمـيـ ؛ـ وـمـنـ ثـمـ فـإـنـ القـوـلـ بـنـجـاعـةـ الـمـذـهـبـ الـاسـتـنـبـاطـيـ الـقـدـيمـ فـيـ حـيـنـهـ وـزـمـانـهـ أـقـرـبـ لـلـحـقـ وـ الصـوـابـ .

أما الاستنباط بمفهومـهـ الحديثـ عندـ دـيكـارتـ فـتـظـلـ نـجـاعـةـ منـهـجـيـتـهـ الـبـحـثـيـةـ مـحـطـ خـلـافـ بـيـنـ الـعـلـمـاءـ ،ـ فـرأـيـ يـذـهـبـ إـلـيـ نـجـاعـةـ الـمـذـهـبـ الـاسـتـنـبـاطـيـ الـحـدـيـثـ ،ـ وـيـبـرـئـ هـذـاـ الرـأـيـ الـاسـتـنـبـاطـ الـحـدـيـثـ مـنـ كـوـنـهـ أـورـيـاـ خـالـصـاـ ،ـ فـالـأـدـبـاءـ الـعـرـبـ الـمـجـدـدـوـنـ كـانـوـاـ يـقـرـأـوـنـ فـيـ الـآـدـابـ الـعـالـمـيـةـ وـالـعـرـبـيـةـ وـبـرـعـواـ فـيـ اـبـتكـارـ نـزـعـةـ عـلـمـيـةـ مـصـرـيـةـ جـرـيـةـ ،ـ جـعـتـ مـاـ بـيـنـ التـيـارـ الـعـرـبـيـ وـالـغـرـبـيـ وـالـقـدـيمـ وـالـحـدـيـثـ ،ـ وـهـذـهـ "ـنـزـعـةـ الـمـجـدـدـوـنـ"ـ لـمـ تـكـنـ هـدـمـاـ لـلـقـدـيمـ ؛ـ وـإـنـماـ كـانـتـ إـحـيـاءـ لـهـ وـبـعـدـاـ وـتـنـمـيـةـ فـيـ صـورـ جـدـيـدةـ ،ـ فـنـحنـ فـيـ تـجـدـيـدـنـاـ لـمـ نـنـقـطـعـ عـنـ الـقـدـيمـ لـاـ فـيـ الـأـدـبـ وـلـاـ فـيـ النـقـدـ ؛ـ بـلـ ظـلـلـنـاـ نـعـتـمـدـ عـلـىـ عـنـصـرـيـنـ مـتـكـافـيـنـ ؛ـ وـهـمـاـ:ـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ إـحـيـاءـ الـقـدـيمـ ،ـ وـالـإـفـادـةـ مـنـ الـآـدـابـ الـغـرـبـيـةـ^(٢)ـ ،ـ وـرأـيـ آخرـ يـرىـ أنـ هـذـاـ الاستـنـبـاطـ بمـفـهـومـهـ الـحـدـيـثـ غـيرـ صـالـحـ لـجـالـاتـ الـبـحـثـ الـعـلـمـيـ فـيـ الـدـرـسـيـنـ الـأـدـبـيـ وـالـبـلـاغـيـ ؛ـ فـهـوـ مـنـهـجـ رـياـضـيـ "ـلاـ يـعـتـمـدـ عـلـىـ اـسـتـقـرـاءـ الـجـزـئـيـاتـ وـتـحـلـيلـهـاـ ،ـ وـلـاـ يـتـبـعـ مـعـرـفـةـ جـدـيـدةـ ...ـ لـأـنـهـ يـعـتـمـدـ عـلـىـ كـلـيـةـ يـعـدـهـاـ مـسـلـمـةـ بـدـهـيـةـ ...ـ فـأـنـتـ مـضـطـرـ إـلـيـ التـسـلـيـمـ بـمـقـدـمـاتـ قـدـ تـكـونـ مـحـلـ شـكـ ،ـ وـكـلـ جـهـدـ تـبـذـلـهـ فـيـ الـنـظـرـ وـالـمـراـجـعـ وـالـاسـتـنـتـاجـ ،ـ فـأـنـتـ مـرـهـونـ بـهـذـهـ الـمـسـلـمـةـ الـتـيـ بـنـيـتـ هـذـاـ الـمـنـهـجـ^(٣)ـ ،ـ وـعـلـىـ إـثـرـ رـفـضـ هـذـاـ الـمـنـهـجـ قـامـتـ الـثـورـةـ عـلـىـ كـتـابـ فـيـ الشـعـرـ الجـاهـلـيـ لـطـهـ حـسـينـ ،ـ فـالـاتـجـاهـ الـفـكـريـ الـمـضـادـ لـمـشـروعـ طـهـ حـسـينـ

(١) رسائل الجاحظ ، الرسائل الأدبية ، لأبي عثمان الجاحظ ، تقديم و تبويه و شرح : علي أبو ملحم ، ط ٢٠٠٢ ، لدار ومكتبة الهلال بيروت ، ص ٢٠٠ .

(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر شوقي ضيف ط ١٣ ، عام : بدون ، لدار المعارف المصرية ، ص ١٩٣ .

(٣) سبل استنباط المعاني لمحمود توفيق : ص ٣٧ .

سلك غاية السبل لإجهاض نجاعة منهج الاستنباط الديكارتي في مجالات الدرس الأدبي ، فقد عد مصطفى صادق الرافعي أن أقرب ما في كتاب طه حسين تصرحه باتباع منهج ديكارت ، وعد ذلك بحداً من الدين وتبرأً منه عند البحث العلمي ، وحكم بعدم نجاعة هذا المنهج - بحسب مفهوم طه حسين له - في مجالات الدرس الأدبي ، وعلل ذلك بوجود فروق "بين البحث عن حقيقة فلسفية عقلية محسنة، وبين البحث عن حقيقة أدبية تاريخية قائمة على النص وقول فلان وفلان" ^(١) ، ورأى آخر يرى أن الاستنباط بمفهومه الحديث لا بد أن يكون مشفوعا بالاستقراء في مجالات الدرس الأدبي بشكل خاص، فإذا أراد باحث أن ينقب عن الخصائص الفنية المميزة لشعراء العراق ، فإن مما يضمن وجود نتائج بحثية أقرب للصواب الاتكاء على منهجي الاستقراء والاستنباط معا ، لأن "المقصود بالاستقراء الإمام بالحقائق الجزئية، أما الاستنباط فهو يقوم على استنتاج الحقائق الكلية من هذه الجزئيات، ولا غنى للباحث الأدبي من الاتكاء على هذين المنهجين من مناهج البحث، ففي الحديث عن الموضع السالف الذكر لا بد من استقراء المعلومات المتعلقة بنصوص الشعراء موضوع الدراسة استقراء شاملًا ثم استنتاج الحقائق المتعلقة في قواعد كلية" ^(٢) .

وقد يكون الرأي الأقرب للصواب في نجاعة المنهج الاستنباطي في مجالات الدرس الأدبي والبلاغي بشكل خاص ، أن الباحث حينما يريد إثبات حقيقة علمية فلا بد من استعانته بالمنهج البحثي المناسب لمادة بحثه ولطريقته العلمية ، ومنهج الاستنباط بمفهومه الحديث وحتى القديم هو واحد من المناهج التي تجعل من البحث قنطرة للوصول إلى الحقائق العلمية ، فلا ضير أن يستخدم الباحث ذلك المنهج وغيره لخدمة العلم وتلمس الحقائق ، دون أن تزل به القدم ويقع به منهج الاستنباط أو غيره من المناهج في محظوظ عقائدي ، فاستخدام المنهج الاستنباطي لخدمة البحث العلمي مع الحفاظ على الثوابت الدينية واحترام كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ سيحقق - بعد توفيق الله - نتائج علمية قد تقلب بعض مواقعات أهل العلم القدماء منهم والحدثين ، فمحمد شاكر وإن سمي منهجه تذوقياً في كثير من مؤلفاته وتحقيقاته العلمية كما سيأتي بيانه في الفصل الأول

(١) تحت راية القرآن ، لمصطفى صادق الرافعي ، ط ١، ١٤٢٣ هـ ، للمكتبة العصرية بيروت ، ص ١١٤ .

(٢) فن التحرير العربي ضوابطه وأنمطه ، لحمد صالح الشنطي ، ط ٥ ، عام ١٤٢٢ هـ ، دار الأندلس للنشر والتوزيع بحائل ، ص ٢٨٥ .

من هذا البحث ، إلا أنه في حقيقة الأمر يقف على مسافة قريبة جداً من المنهج الاستنباطي بمفهومه الحديث ، والقول بنجاعة المذهب الاستنباطي في مجالات الدرس الأدبي والبلاغي لا يبتعد عن الحقيقة ، إذ إن ذلك المنهج قادر على استنتاج حقائق علمية تتسم بالعمق ودقة النظر ، كالنتائج التي وصل إليها محمود شاكر في كتاب (نمط صعب ونمط مخيف) وكتابه (المتنبي) مثلاً ، والتي كانت على قدر عالٍ من الأهمية والنبوغ ، حيث طبق فيما يحدهما محمود شاكر مفاصيل المنهج الاستنباطي كما سيأتي بيانه في الحديث عن مبحث الذوق من الفصل الأول من هذا البحث .

وربما لا يستطيع الحكم بنجاعة المذهب الاستنباطي في مجالات الدرس الأدبي والبلاغي الكثير من أهل الاختصاص ؛ لأنّه مرهون لديهم بالفريدة التي جاء بها طه حسين على أدبنا الجاهلي ، ولكن الرفض القاطع لفكرة مشروعه النصدي ، لا تعطي أحداً الحق في نبذ المنهج الذي أقام عليه هذا المشروع ، إذ إنه منهج قادر على استخراج الحقائق العلمية بعد توفيق الله وفضله كقدرة الاستنباط على استخراج الماء من قاع الأرض .

الفصل الأول : مصادر المعرفة عند محمود شاكر

ت تكون الثقافة في فكر الإنسان نتيجة لعدد من العوامل المؤثرة ، تتطاير مجتمعة لتكون أفقاً يسيطر على طريقة تفكيره وتكوينه العلمي والمعرفي حتى على مستوى حياته العادلة ، يزيد من أثر تلك العوامل ويقلل أيضاً من أثرها عليه المقدرة الذاتية على التجاوب معها أو التبرؤ منها ، ليسططع توجيهها إيجاباً أو سلباً لصالح رأيه وميوله و مجالاته التخصصية في جميع الحالات الإنسانية المختلفة ، وتشكل مصادر المعرفة عند العلماء الأصول التي تنبثق منها أفكارهم ورؤاهم وقضاياهم ، والحديث عنها عند الأستاذ محمود شاكر في هذا البحث حديث لا غنى عنه ، فهي الأساس الذي قام عليه مشروعه العلمي ، وهي المؤثر الكبير والفاعل في توجهاته الفكرية وقضايا الأدب التي شغل بها ، وما يساعد على ضرورة الحديث عن مصادر محمود شاكر المعرفية تعدد النزعات المعرفية في زمانه ، تلك النزعات التي جاست في أدب العرب وبلاغتهم ونقدتهم على وجه الخصوص ، وقد أسهم اختلاف مصادر تلك النزعات في تكوين نتاج أدبي ونقدی وافر ؛ إذ تختضن عنها آراء متباعدة ومعارك وخصومات نقدية وأدبية ، كان محمود شاكر فيها نصيب لا تحظى العين ، والمتبع لحياة محمود شاكر من خلال المؤلفات الكثيرة التي رصدت جوانب حياته الشخصية والأدبية^(١) ، يستطيع رصد شيء من مصادره المعرفية التي كانت نتاجه العلمي ، فنشأته في بيت علمي يرأسه والده محمد شاكر ، إذ كان والده شخصية أزهرية كبيرة ، وكان عالماً كبيراً من علماء الشريعة والإفتاء ، وقد عين أميناً لدار الإفتاء المصرية، ثم قاضياً للقضاء في السودان ، ثم شيخاً لعلماء الإسكندرية ، ثم وكيلًا للجامع الأزهري^(٢)، وأخوه الأكبر أحمد من كبار محققى التراث في العصر الحديث ، فقد حقق العديد من أمهات كتب التراث العربي في مجالات الحديث الشريف والتفسير والتوحيد والأدب ، كمسند الإمام أحمد وتفسير الطبرى وشرح العقيدة الطحاوية

(١) ينظر للفصل الأول من : محمود محمد شاكر دراسة في حياته وشعره ، لأمانى حاتم بسيسو ، ط ١، عام ١٤٣٤هـ ، وزارة الشؤون الإسلامية بالكويت ، وينظر للفصل الأول من الدراسات العلمية : محمود محمد شاكر ، الرجل والمنهج ، لعمر حسن القيام ، ط ١ ، عام ١٤١٧هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، وينظر لمهاد الدراسة العلمية : محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النقدي ، لإبراهيم الكوفحي ، ط ١، عام ١٩٩٨م ، مكتبة المانجي بالقاهرة ، وينظر للباب الأول من كتاب : ظل النديم ، لوجдан العلي ، ط ١، عام ١٤٣٦هـ ، مركز تفكير للبحوث والدراسات.

(٢) ينظر محمود محمد شاكر الرجل والمنهج، لعمر القيام ص : ١٦٩ .

والشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ؛ وعليه فقد كان محمود شاكر محاطاً بأسرة علمية ذات شأن علمي كبير على مستوى مصر كلها ، الأمر الذي يُسهل القول بعظمي الأثر لتلك النشأة في تكوينه المعرفي ونهمه العلمي ، ونما أسهم وبشكل فاعل في تثوير مصادر المعرفة عند محمود شاكر تلك الثورة العلمية التي حُمِّل بها الأدب العربي على يد أساطين الأدب في العصر الحديث ، وقد أدرك محمود شاكر ألا سبيل لاشتراكه بهذه الثورة إلا بعد تكوين معرفي قوي ومنهج علمي خاص ، وقد تكشفت في تلك الفترة تحديداً إيحاءات الحالة الفكرية عنده ، فظن ظناً حسناً في قدراته الفكرية ؛ فطفق يقرأ كتب التراث العربي بعزمٍ باحث وفهم طالب علم ، واضعاً بين عينيه قضيته الأم التي شغلته عن الدنيا والناس ، وهي قضية الشعر الجاهلي التي أضرم النار في جذوتها لديه أستاذه طه حسين ، وإن تتبع هذه المراحل وغيرها من حياة محمود شاكر فهو خير معين على الكشف عن مصادر المعرفة ، وتكميل تقريراً صورة تتبع تلك المصادر شيئاً فشيئاً عند التنقيب عنها في منهجه وطريقته العلمية المختبئة ما بين سطور مقالاته ومؤلفاته وتحقيقاته ، لاسيما ما يختص منها بقضيته الكبرى.

وما يزيد من أهمية الحديث عن المصادر المعرفية التي كون منها محمود شاكر هذا الإرث العلمي ، محاولة اكتشاف الطريقة العلمية التي كان يفكر بها ، والتي استطاع بها أن يكون نتاجه مرحلة علمية تستوعي الانتباه ، و تستحق من طلبة العلم الاهتمام والعناية بها حق الاعتناء ، كما أن محاولة تلميس طريقة التفكير عند محمود شاكر تستطيع القبض على بعض صفاته القيادية العلمية ، ولا شك أن الوصول إلى نتائج صحيحة في رصد ملامح طريقة تفكير العلماء ، تبني الموهب الطبيعية للباحثين ولطلبة العلم ، حيث لا يخفى امتداد تأثير طريقة التفكير على عقل الباحث المحيط بعالم ما ولا سيما عالم كمحمود شاكر .

ويتناول هذا الفصل الحديث عن بعض من مصادر محمود محمد شاكر المعرفية ، وكيف أثرت على طريقة تفكيره وتوجيهه آرائه ، وسوف أجرؤ على استدعاء لبعض الجوانب الحياتية والسيرية الذاتية له كلما دعت الحاجة إليها ، على الرغم من استهلاكها بحثاً ودراسة ، إلا أنه لا غنى عنها عند الحديث عن المصادر المعرفية ، وأخص منها تلك البيئة الداخلية المنظمة لفكرة والمتمثلة في الخبرات العلمية والمعرفية التي ورثها عن والده وعن أخيه أحمد شاكر ، وكذلك البيئة الخارجية المنظمة لفكرة أيضاً والتي تتوقف على العلاقة التي ربطت تفكيره بتفكير الآخرين من أشياخه وأهل زمانه على وجه التوافق أو التضاد ، فقد كان للبيئة المحيطة بمحمود شاكر أثر لا يستطيع

جحدها على مستوى التكوين العلمي ، ساعد على قوة أثر هذا المحيط اهتمامه الشخصي وميله النفسي والفكري للأدب العربي واستعداده الذاتي والفطري ، ويقاد يجعل أكثر المهتمين بالأدب العربي البيئة المحيطة التي نشأ فيها الأديب ، رأس الهرم المعرفي الذي ينشد الوصول إلى مصادره المعرفية والثقافية ، والتعرف على كيفية تشكل جوانب صفاته وسماته العلمية ، وتحديد اتجاهاته باختلاف تخصصات العلم والمعرفة^(١).

ولن يغفل هذا الفصل أيضاً بعضاً من الصفات الشخصية التي من الله بها على لhammad شاكر، والتي أسهمت في تكوينه المعرفي وثرائه الثقافي ، وسيأتي بيان كل موضع منها في حينه والله الموفق.

(١) ينظر لكتاب : مصطفى صادق الرافعي الناقد والمؤلف ، لإبراهيم الكوفجي ، ط١ ، عام ١٤١٨ هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ص ٦٧ .

المبحث الأول : الذوق والدرية.

مصادر المعرفة ومؤهلات الناقد (الذوق) :

الذوق من الصفات الفطرية التي استودعها الله في خلقه، يصدق هذه الموهبة وينميها عند الشخص استعداده الذاتي واستيعابه التام لكيفية توظيف هذه الملكة في مجاله المعرفي ، واطلاعه على طرائق العلماء الأفذاذ الذين استفادوا من هذه الفطرة ووظفوها فيما يخدم تعاطيهم مع العلم ، وعني بالذوق المصدر المعرفي عند شاكر: مراعاته لأدق التفاصيل في المادة الأدبية ، والإلمام بكلفة الجوانب الحبيطة التي تؤثر في هذه المادة واستقرائها استقراء كاملا ، وإعادة النظر مرة تلو المرة تجاه هذه المادة، وملكته الفطرية التي تستهجن وتستقبح ابتداء لتوافق مع استنتاجه المعلل ، وما ساعد على تنمية ملكة الذوق عند محمود شاكر ملكته اللغوية التي كونها لنفسه وهو فتى صغير ، فقد أتم محمود شاكر قراءة الأغاني ولسان العرب قراءة تامة وهو في الرابعة عشر من عمره ، واستظهر ديوان المتنبي كله وهو في تلك السن الصغيرة^(١)، ولقد وظف محمود شاكر هذه الملكة كثيرا عند حديثه عن المتنبي في كتابه الشهير باسم المتنبي ، وكذلك حينما اشتغل بقضية الشعر الجاهلي وهي قضيته الأولى ، والذي أثار في نفسه كوابنه أستاذه طه حسين الذي لم يكدر يسلم من التأثر به في عصره أحد من المهتمين بالأدب العربي إيجاباً أو سلباً ، وطبق يحشد كل ما يستطيع حشده بغية مناصرة قضيته وإبطال دعاوى المشككين فيها ، فتبعد خيوطها وفتشر عن أساريرها في الكل المعرفي التراخي الهائل ، وأخضعها لميزان النقد والتحليل والذوق الشخصي ، والذوق غالباً هو ما دنن عليه شاكر كثيراً في العديد من مؤلفاته ، وجعله مرجعاً موثقاً لاستخلاص النتائج ، ووضع لهذا المنهج أطراً وملامح أفاض في الحديث في سلسة مقالات نشرها في مجلة الثقافة عن المتنبي^(٢)، وسيكون حديثه عن منهجه التذوقي في هذه المقالات وفي رسالته في الطريق إلى

(١) ينظر لالفصل الأول من الدراسة العلمية : محمود محمد شاكر دراسة في حياته وشعره ، لأمانى حاتم بسيسو ، وينظر لالفصل الأول من الدراسات العلمية : محمود محمد شاكر ، الرجل والمنهج ، لعمر حسن القيام ، وينظر لمหายد الدراسة العلمية : محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النقدي ، لإبراهيم الكوفحي ، وينظر للباب الأول من كتاب : ظل النديم ، لوجдан العلي .

(٢) ينظر لجمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر ، جمع وقراءة وتقديم عادل سليمان جمال ، ط١ ، عام ٢٠٠٣ م ، مكتبة الماخنجي بالقاهرة ، ج٢ ، ص ١٦٠ وما بعدها.

ثقافتنا وكتب أباطيل وأسمار مدونة هذا المبحث لتناول الذوق عنده في حدود التنظير وبمقاييسها مع الشق التطبيقي ، وقبل اللوچ إلى الذوق عند شاكر كفطرة استقامت بالدرية ، وكمصدر معرفي ، وكمنهج علمي وبخلي ارتضاه ، فلا بد قبل ذلك كله أن يتم إلقاء الضوء على الدوافع التي كانت وراء مصدرية ومنهجية الذوق عنده ، إذ إن هذه الدوافع تساعده على اكتشاف ملامح منهجه والطائق التي وظفه فيها واعتمد به عليها .

دوافع التذوق عند محمود شاكر :

كان محمود شاكر من بين علماء عصره الذين اهتموا بقضية المنهج الملائم للبحوث والدراسات الأدبية وفق رؤيته النقدية الخاصة ، حيث نشأ في عصره سباق محموم بين علماء الأدب الحديث ؛ بغطيته تحديد منهجه بخلي يتلاءم مع طبيعة الدراسات الأدبية ، ويقدم شيئاً جديداً للثقافة العربية كغيرها من الثقافات التي درست آدابها بمناهج متباينة وأحدثت حراكاً علمياً غير مسبوق ، فالباحث عن جماليات الأدب لم يعد كافياً عند بعض علماء الأدب العربي لدراسته ، والطريقة التراثية القديمة التي كان يتعاطاها العلماء القدامى مع الأدب لم تعد عند البعض الآخر مطمحًا علمياً و لا بغية نقدية ، فلابد عندئذ من ابتكار مناهج بحثية جديدة تضفي الجدة والابتكار على الدرس الأدبي والنقد ، وتخرج الأدب والنقد من ريقه النقد السابق والقديم الذي كاد يحصر نفسه في قواعد البلاغة العربية ، فالدراسات الأدبية والنقدية وحتى اللغوية ما قبل القرن التاسع عشر في نظر المحدثين لم تتصف شيئاً جديداً سوى أنها " قدمت للنقد القديم من الأفكار والأصول ما مكنته من البقاء عبر القرون ، ولما ظهرت الاتجاهات الحديثة في النقد وأراد أصحابها أن يكشفوا عن النقص الذي زعموه في النقد القديم لم يجعلوا من المطاعن ما يدمغونه به إلا أنه نقد لغوي الطابع وإنما جاء هذا الطعن على النقد القديم من جهة أنه لخص عطاءه في قواعد البلاغة العربية حتى لم يعد قادراً على التطور ولا سيما بعد أن تطور النقد في مجالات عدة متكاملة ... " ^(١) .

وبناء على هذه النظرة الجديدة نحو الأدب والنقد العربين وقياسها بالثقافات الأخرى نشأت محاولات تأسيس المدراس الأدبية والاتجاهات النقدية الحديثة عند أدباء ونقاد العرب في العصر الحديث ، بحيث لم يتعدد أديب

(١) اللغة والنقد الأدبي : تمام حسان ، العدد الأول : طبعة عام ١٩٨٣ م ، للهيئة المصرية العامة

للكتاب، ج٤، ص ١١٦.

كبير كطه حسين في الدعوة الصريحة إلى ابتكار منهج جديد لدراسة الأدب ، منطلقه التحلل من الأغالال التي قيدت الأدب كالقومية العربية والدين الإسلامي وكل ما يتصل بهما ، ولا بد لنا — بحسب طه حسين — أن ننسى الدين والقومية العربية حين نؤمم وجهتنا البحثية نحو أدبنا وتاريخه ، وليس من الضرورة أن نَغْلِّ دراساتنا بتلك القيود المضنية التي أهلكت مجالات البحث الأدبي ، بل يجب " ألا نذعن إلا لمناهج البحث العلمي الصحيح ؛ ذلك أننا إذا لم ننس قوميتنا وديتنا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وارتضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين " ^(١) .

نشأ محمود شاكر في هذا السياق المحموم للمنهجية البحثية والعلمية ، فاصطدم بما أفرزته من نتائج ومن حقائق بحثية ، واضطرته معها إلى البحث عن منهج خاص يستطيع به مواجهة تلك المناهج البحثية الجديدة ، بعد أن عكف على كتب التراث العربي ، ليؤثر من استقرارها رأيه في قضيته الأكبر (الشعر الجاهلي) ، فتتبع خيوط هذه القضية بعد أن عاش في كنفها طويلاً ، وضاق بها ذرعاً ، فترك جامعته بسبب من ذلك ، بل وهجر مصر كلها " بعد أن يبس الشري بيته وبين أستاده طه حسين " ^(٢) ، الذي أثار رأيه حفيظة محمود شاكر ، ووقع منه موقعاً كان له الفضل بعد الله في تكوين نتاجه العلمي الذي هو بين يدينا اليوم ، وكان هو الدافع الأكبر لاعتماده على الذوق كمنهج يستطيع بما مجاهدة تلك المناهج الحديثة التي تتناقض نتائجها العلمية جملة وتفصيلاً مع معتقداته الأدبية والنقدية الراسخة.

ويبدو أن ما دفع محمود شاكر إلى تسمية منهجه تذوقاً ^(٣) ووضعه لأطره وحدوده التي سيتناولها هذا الفصل لاحقاً ؛ هو أن الذوق من خلال قراءاته للتراث مصطلح أدبي فضفاض عند علماء الأدب والنقد العربين ، يحمل من الإبهام والشمولية ما يتدافع مع اعتباره منهجاً علمياً موثقاً بصحته مسلماً بحقائقه ، فلجاً بعد أن

(١) في الشعر الجاهلي لطه حسين : ط١، عام ١٩٢٧ م ، لدار المعارف للطباعة والنشر في سوسة بتونس ، ص ٢٤ .

(٢) ظل النديم لوجдан العلي : ص ١٩ .

(٣) ينظر للصفحة : ٨-٩ من رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر ، ط١، عام ١٩٩٧ م ، للهيئة المصرية العامة للكتاب .

سماه تذوقا إلى وضع أطره وحدوده ؛ حتى تتضح ملامحه الخاصة ، وحتى يستانق الفرق بينه وبين الذوق القديم الذي يميل في غالب الأمر إلى الانطباع الذاتي ، ولكي يتبرأ من الذوق الساذج الذي تلوكه ألسنة العامة والمتارجح بين الاستحسان والتقبيح غير المعلم ، وجوز لنفسه تسمية منهجه (تذوق الشعر) ^(١) ، مع ما يجده في نفسه وأفقه الفكرى من كلمة (منهج) ، تلك الكلمة التي أصابها بها أستاذه طه حسين في مقتل ، حينما استدعاى الأخير منهجه ديكارت وطبقه على قراءاته النقدية في الشعر الجاهلي ، حتى تسببت هذه الكلمة بنشوب صراع لم يهدأ بين الأستاذ وطالبه ، ولم يتعدد محمود شاكر في الإقرار بأن مفهوم كلمة المنهج والأدوات التي يمارس منها هو السبب الحقيقي لصراعه الثقافي مع أستاده ^(٢) ، بل ولم يجد حرجاً في ذروة صراعه مع المنهج وأستاده في أن يعترف صراحة بمحضر الشديد من هذه الكلمة وما تتضمنه من مفاهيم وما يتعلق بها من علائق ، فلم يجد لنفسه خلاصا منها إلا أن يرفض " متخففاً حذراً ، شيئاً فشيئاً أكثر المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية ، التي كانت يومئذ تطغى كالسيل الجارف ..." ^(٣).

وهي ذاتها كلمة المنهج التي أذكت الصراع بينه وبين لويس عوض حول شيخ المعرفة أبي العلاء ، حيث استخدم لويس عوض المنهج التاريخي لقراءة رسالة الغفران للمعري ، في سلسلة مقالات نشرتها صحيفة الأهرام المصرية ، جمعها لويس عوض فيما بعد في كتابه المشهور على هامش الغفران ، حيث توصل بهذا المنهج إلى نفي الأصالة العربية الخالصة عن أبي العلاء المعري ، وادعى أنه قد تأثر بالأدب اليوناني وحشد لهذا الادعاء العديد من الأدلة التي لم تقنع محمود شاكر ، فهاجمه محمود شاكر هجوما ثقافياً عنيفاً ^(٤)، ونقد منهجه الذي استخدمه في استخلاص هذا الحكم ، وهكذا أحذثت كلمة المنهج عند محمود شاكر عقدة لم تنفك عنه، فكثيريات معاركه الأدبية كانت تدور حول المنهج الذي أفرز نتائج لم يكن ليترتضيها ، فقرر حينها مدافعة تلك

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحود شاكر : ص ٨.

(٢) أباطيل وأسمار محمود شاكر ط ١ ، عام ١٣٩١ ، مكتبة الحانجى بالقاهرة، ج ١، ص ١٩ .

(٣) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ص ٦.

(٤) ينظر لأباطيل وأسمار ابتداء من ج ١ ، ص ١٧ : وما بعدها.

النتائج بمنهجه الخاص في تذوق الشعر ، والذي يعتمد اعتماداً كبيراً على مواجهة النص ومساءلته واستخلاص الأحكام والنتائج والحقائق من جوفه.

أسس التذوق عند محمود شاكر :

لا شك أن ملكرة الذوق الضرورة الأولى من ضرورات الناقد والأديب ، وقد نشأت كثيرة من الأحكام النقدية والأدبية بناء على تباين ما استودعه الله من هذه الملكرة عند كل ناقد وأديب ، وإن مؤلفات أساطين التراث العربي هي خير شاهد على تباين درجات الذوق المهيمن الأول على توجيه الرأي النقدي ، و يكفي أن يُستلهم في ذلك قضية اللفظ والمعنى التي استطاع الذوق فيها أن يكون مرجعاً ومحكاً ، بل وتجاوز ذلك إلى مرحلة محاكمة الرأي الآخر ومصادرة نتائجه ، فالآيات المشهورة في قضية اللفظ والمعنى والتي مطلعها :

فَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنَّ كُلَّ حَاجَةٍ
وَمَسَحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاضٍ^(١)

شغلت حيزاً كبيراً من أدواق كبار علماء التراث ، فمنهم من يوجهه ذوقه إلى ألفاظ هذه الآيات دون معانيها ، ومنهم من يرى ذوقه أن وراء جمال ألفاظها معانٍ مكنونة تستحق جمالية هذه الألفاظ ، ومنهم من يرى أن جماليتها تظهر جلياً في إطار النظم الذي ينصلح فيه المعنى باللفظ ، وهذا شاهد واحد فحسب على اختلاف الذوق حتى عند العلماء ، وكيف استطاع هذا الاختلاف أن يوجه الرأي النقدي ويتسبيب في إطلاق الأحكام.

(١) أختلف كثيراً في نسبة هذه الآيات ، فالقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني نسبها إلى يزيد بن الطشة في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصوصه ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - علي محمد البحاوي ، ط١، عام ١٩٦٦م ، لدار الحلي ، ص ٣٤-٣٥ ، والشريف المرتضى علي بن الحسين ينسبها للمضربي عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى ، في كتابه : أمالى المرتضى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط١، عام ١٩٥٤م ، لدار الحلي ، ج١ ، ص ٤٥٧-٤٥٨ ، ونسبها عبد الرحيم ابن عبد الرحمن بن أحمد العباسى إلى كثير عزة في كتابه : معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص ، تحقيق : محمد محبي الدين عبد الحميد ، ط٢ ، عام ١٩٤٧م ، مطبعة السعادة بمصر ، ج٢ ، ص ١٣٤ ، بينما ذُكرت دون نسبة لأحد عند كثير من العلماء : كابن قتيبة ، في كتابه الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ط٢ ، عام ١٩٦٦م ، دار المعارف بمصر ، ج١ ، ص ٦٦ ، وعبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة ، ص ٢١ ، وكذلك ابن جني في كتابه الخصائص ج١ ، ص ٢١٨ .

وإذا كان الذوق في أصله يعود إلى كونه واحداً من الحواس الخمس التي استودعها الله في الإنسان السوي ، فإن هذا الأصل قد استطاع ليشمل الذوق في فنون الكلام وبلغ البیان ، فالذوق الأدبي قادر على أن يعالج فنياً الفنون الأدبية ويستظهر ما فيها من جمال^(١) .

ومحمد شاكر هو واحد من النقاد والأدباء الذين شكل الذوق عندهم مصدراً معرفياً ، فالذوق عنده قبل توظيفه له كمنهج خاص بشقيه التنظيري والتطبيقي ، كان له أساس في تكوينه الثقافي كفطرة ربانية اكتشفها في نفسه ورعاها بالاطلاع والثقاف ، ففطرية الذوق عنده لم تكون كافية وحدها لأن يجعلها له منهاجاً علمياً ، فقد تعاضدت تركيبته الفطرية والعملية معاً للنهوض بهذه الملكة وتمكين قدراته العقلية الفطرية والعملية منها إلى جانب استعداده الذاتي ، فقد عكّف على كتب التراث الأدبي والنقد والبلاغي طويلاً ، ورأى أن يوظف هذه الملكة كمنهج يستطيع أن يصل به إلى نتائجه العلمية التي كان يتطلع إليها ، ولم يقصر الذوق على الشعر وحده ، بل جعله أداة أولية يسلطها على كل كلام حتى لو لم يكن شعراً ولا أدباً^(٢) ، وما زاد إصراره على انتهاج الذوق ثقته في النتائج التي وصل إليها عبد القاهر الجرجاني في قضية إعجاز القرآن ، فقد وقع بين يدي محمود شاكر نسخة من الرسالة الشافية للإمام عبد القاهر بعد تصريحه بمنهجه الذوقي ، وعلم حين فرغ من قراءتها أنه مسبوق بهذا المنهج من الإمام ليس في الشعر بحسب ، بل في كل كلام وفي كل مجال من مجالات العلم والمعرفة ، يقول شاكر في ذلك :

" ومع ذلك فقد كنت أتوهم في سنة ١٩٥٣ حين فرغت من إجراء منهجي في تذوق الشعر ، على كل كلام غير الشعر ، أي قد سبّقت إلى ذلك ، حتى كانت سنة ١٩٥٦... حين طُبعت الرسالة الشافية ... فوقفت على فصل نفيس ... هو أوضح ما قرأته فقط في إجراء التذوق على كل كلام في كل علم ، مهما ظننت أنه أبعد علم من إجراء التذوق عليه .."^(٣) ، ومعنى هذا أن شاكر لم يدع أنه من قام بفحص كل الكلام شعره

(١) ينظر : النقد الأدبي الحديث: أصوله واتجاهاته ، لأحمد زكي ط، عام ١٩٩٧ م ، للشركة المصرية العالمية للنشر ، ومكتبة لبنان ، ص ٤١.

(٢) ذكر محمود شاكر ذلك عن نفسه في : رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ص ٨.

(٣) السابق : ص ٩.

وثره بآدأة النوق ، سواء أكان الكلام المفحوص أدبياً أم غير أدبي ، بل وجد - بعد أن طبق ذلك لمدة عشرين سنة من وفاته المسماة لذلك - أن عبد القاهر الجرجاني قام بهذا الإجراء في رسالته الشافية ، حين استشهد الأخير بشواهد من كلام العرب بلغت الغاية في معناها ومتناها ، ليس في الأجناس الأدبية وحدها فقط ، بل حتى في غيرها كالكتب المبتدأة الموضوعة في العلوم المستخرجة ، ومثل له بعد سيبويه للفعل في كتابه (الكتاب)^(١) ، والذي كان جاماً لجميع أجناس المعرفة ومانعاً من دخول غيره إليه بألفاظ مخصوصة لم تتأتى حتى لبعض كبار العلماء ، واعتبر محمود شاكر صنيع عبد القاهر هذا السابقة الوحيدة التي سبقه فيها عبد القاهر دون غيره في إجراء النوق على كل كلام حتى ولو لم يكن جنساً أدبياً ؛ بدليل أنه لم يستحضر غير عبد القاهر ولم يشر إلى جهد عالم غيره ، ولو فطن إلى عالم آخر قام بهذا الإجراء أو أشار إليه ، ولجعله ثيتماً في هذا الموضوع على وجه خاص ، والحق أن عبد القاهر هو أيضاً مسبوق بإجراء النوق على كل كلام ، فالحدود التي وضعها سيبويه في الكتاب كانت مثار إعجاب اللغويين قبل إعجاب البلاطيين ، لما تتضمنه من إيجاز واحتراز وتفريق بين أنواع الإعراب ، فأبو سعيد السيرافي مثلاً لم يستطع أن يكظم إعجابه بقدرة سيبويه الفائقة على انتقاء المفردات في الحدود والمصطلحات النحوية ، ومن ذلك أن سيبويه جعل مجاري أواخر الكلام في اللغة العربية ثنائية^(٢) ، وعلل ذلك أبو سعيد السيرافي بقوله : " اعلم أن سيبويه لقب الحركات والسكنون هذه الألقاب الثمانية وإن كانت في الصورة أربعاً ، ليفرق بين المبني الذي لا يزول ، وبين المعرب الذي يزول ، وإنما أراد بالمخالفة بين تلقيب ما يزول وما لا يزول ، إبانة الفرق بينهما ، لأن في ذلك فائدة جسمية تقريباً وإيجازاً ؛ لأنه متى قال هذا الاسم مرفوع ، أو منصوب ، أو محفوظ ، علم بهذا اللفظ أن عملاً عمل فيه يجوز زواله ، ودخول عامل آخر يحدث خلاف عمله ، فيكتفي بمفهوم ، على أن تقول هذه ضمة تزول ، أو تقول عمل فيه

(١) أسهب محمود شاكر في الحديث عن ذلك بعد النص الآنف ذكره في الصفحة السابقة (٥٤) من هذا البحث ، الموثق في الفقرة رقم (٣) في الحاشية ، وقد أطال الحديث فيه بعد النص المشار إليه في رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ص ٩ - ١٤ ، وحد سيبويه للفعل مذكور في صدر كتابه الكتاب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط ٣، عام ١٤٠٨هـ ، مكتبة الماخنخي بالقاهرة ، ج ١، ص ١٢ .

(٢) شرح السيرافي (مجاري أواخر الكلام عند سيبويه) بأنها حركات أواخر الكلم في لغة العرب ، ينظر لشرح كتاب سيبويه لأبي سعيد السيرافي ، تحقيق : أحمد حسن مهدي ، وعلى سيد علي ط ١، عام ١٤٢٩هـ ، دار الكتب العلمية بيروت ، ج ١، ص ٢٠ .

عامل فرفعه ففي هذا حكمة وإيجاز فاعر^(١) فالسيراي هنا لم يزد على أن تذوق قسمة سيبويه وما أسقط على تلك القسمة من ألفاظ وحدّ ، بل إن مبلغ تذوقه لكلام سيبويه العلمي الصارم ، سوغ له أن يصفه بالإيجاز والحكمة ، تلك الصفتين اللتين تتردد كثيراً أن تسمّ بها بعضاً من الأشعار المحكمة ، وعند معاودة النظر في كلام سيبويه هذا الذي استوقف أبا سعيد السيرافي وسمّه بما وسم ، فإنك لن تجد فيه نطاً عالياً من البيان الجمالي المرتبط بأخيلة الشعراء والأدباء ، ولكنه ذات السبب الذي أثار مكامن الإعجاب عند عبد القاهر في حد سيبويه للفعل ، واستخدام كبار العلماء ومنهم سيبويه في مثل هذين الموضعين ضرباً " من النظم والتأليف أعينا من بعدهم أن يطلبوا مثله ، أو يجيئوا بشبيه له ، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها ، ويؤدوا ألفاظهم فيها على نظامها وهي كما هي "^(٢) .

ومهما يكن من أمر فإن محمود شاكر قد أقر بأنه لم يكن صاحب سبق في الاستناد على الذوق باعتباره منهجاً ، حينما تكشفت له بعض من جهود عبد القاهر في الرسالة الشافية كما أشير إليه سابقاً ، ولكنه أيضاً مع هذا الإقرار الصريح فإنه لم يقل بتطابق رؤيته المنهجية مع جهود عبد القاهر ، بل جعله شبيهاً به ومقارباً له من بعض الوجهات ، إلا أنه لم يكن صريحاً كل الصراحة في الإبانة عن منهج التذوق الخاص به والذي ظن بأنه لم يسبق إليه^(٣) ، ومعنى ذلك أن محمود شاكر يجعل من هذا التذوق خصوصية تميزه عن غيره من العلماء ، ويجعل من توظيفه له في سياق المنهج البحثي طريقاً لم يسلكه أحداً على النحو الذي انتهجه هو ، إذ إنه رأى ألا يسلم نفسه لمناهج بحثية تفرض عليه بعضاً من النتائج النقدية والأدبية الخاطئة ، كتلك المنهاج التي استحكمت على النتائج المسقبة التي توصل لها طه حسين ولويس عوض حينما استدعاها البحث للمنهج وليس العكس ، فرأى محمود شاكر أن يخرج من رقة المنهج وألا يسلم نفسه له ، وأن ينطلق في استخلاص الحقائق العلمية من النصوص عن طريق تذوقها واستخراج خبيئها ، وقد وضع لمنهجه هذا أطراً وحدوداً لا بد وأن يتناولها هذا البحث ؛ لأنها ستكتشف بعضاً من وجوه التقارب بين منهج محمود شاكر ومنهج خصومه .

حدود التذوق عند محمود شاكر :

حينما حاول لويس عوض تطبيق المنهج التاريخي كمنهج بحثي في مشروع نceği أداره حول أبي العلاء المعري ،

(١) شرح كتاب سيبويه للسيرائي : ج ١، ص ٢٠-٢١.

(٢) دلائل الإعجاز ، ملحق الرسالة الشافية : ص ٦٠٤.

(٣) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ص ٩-١٠.

ثار محمود شاكر على استدعاء لويس عوض لهذا المنهج وما توصل له به ، وغص كتابه أباطيل وأسمار بسلسلة مقالات تناولت قراءة لويس عوض لأبي العلاء المعري ، بلغ معها محمود شاكر مبلغًا كبيرًا من الحدة والتوتر ، وقد اضطر اضطراراً للحديث عن المنهج العلمي من رؤيته الخاصة ، ووضع من خلال ذلك الحديث الملامح العامة والأطر العريضة التي توضح منهجه الخاص في تذوق الكلام ، وهنا لابد من إيراد كلام محمود شاكر عن أطر منهجه كاملاً غير متور ، لوازن بينه وبين مناهج خصومه حتى مع اختلاف مسمياتها ومحاولة ادعاء اختلاف اتجاهاتها ، يقول في ذلك محمود شاكر :

" ولفظ المنهج يحتاج مني هنا إلى بعض الإبارة ، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلاح عليه المتكلمون في مثل هذا الشأن ، بل أريد به ما قبل المنهج ، أي الأساس الذي لا يقوم المنهج إلا عليه ، فهذا الذي أسميه منهجا ينقسم إلى شطرين : شطر في تناول المادة ، وشطر في معالجة التطبيق ، فشطر المادة يتطلب قبل كل شيء جمعها من مظانها على وجه الاستيعاب المتيسر ، ثم تصنيف هذا المجموع ، ثم تحخيص مفرداته تحخيصا دقيقا ، وذلك بتحليل أجزائها بدقة متناهية أما شطر التطبيق فيقتضي إعادة تركيب المادة بعد نفي زيفها ، وتحخيص جيدها ، باستيعاب أيضا لكل احتمال للخطأ أو الهوى أو التسرع^(١)"

إذن فتذوق محمود شاكر يتصل بالمادة العلمية نفسها ويتصل بالتطبيق العملي كالتحليل وقراءة النصوص ، أما المادة العلمية فخطوات تذوقها تبدأ من الاستقراء التام وهو ما سماه بالاستيعاب المتيسر ، وقد توحى كلمة المتيسر بأن محمود شاكر يقصد إلى الاستقراء الناقص ، فالمفهوم من وصف الاستيعاب بالمتيسر أن ما تيسر من الاستقراء كاف لأن يحقق نتائجاً ، وقد يفهم أن (المتيسر) هنا وصف للاستيعاب من ناحية الفهم والإدراك وتتوفر المراجع ليكون تمام المعنى : الاستقراء التام بحسب الفهم الذي يسره الله لكل شخص وبحسب توفر المراجع ، ولكن شاكر عاب كثيراً على لويس عدم استقرائه التام للحقائق التاريخية، فاقتصر عليه أولاً وقبل دراسة أبي العلاء أن يكون مطيقاً لقراءة أدبه كاملاً قراءة واعية متعمقة تتفحص هذا الأدب من جميع مظانه ، واستيعاب دراسة اللغة السابقة على لغة أبي العلاء ، واستيعاب دراسة لغة عصره ، واستقراء كافة الظواهر المتعلقة بذلك ؛ لمعرفة التطور الدلالي اللغوي للألفاظ والتراتيب والسمات اللغوية التي يختص بها كل عصر.^(٢)

(١) أباطيل وأسمار : ص ٢٤-٢٥.

(٢) السابق ص : ٢٥-٢٦.

ومطالبته للويس عوض بذلك تتدافع مع تفسير قوله (الاستيعاب المتسير) بالاستقراء الناقص ، ولو قصد إلى الاستقراء الناقص لما عد ذلك مأخذًا على لويس عوض ، فالأقرب أنه قصد بالاستيعاب المتسير الفهم المتسير، وغاية ما يقال هنا أن القاعدة الأولى من قواعد تطبيق المنهج عند محمود شاكر من الناحية التنظيرية هي قاعدة الاستقراء ، تليها قاعدة التقسيم والتحليل ، وذلك بتصنيف المادة وتمحیص مفرادتها وتحليل جزيئاتها بدقة متناهية ، ورأى أن هاتين القاعدتين تتعلقان بإجراءات المادة الجموعة منفصلة عن الشق التطبيقي ، حيث تنطلق القاعدة الثالثة للمنهج من الشق التطبيقي، وهي قاعدة إعادة تأليف المادة المقسمة وتركيبها بعد نفي كل زيف عنها ، ثم اشترط لإعادة تركيب المادة وتأليفها الاستيعاب أيضاً لضمان التخلص من الأخطاء والتسرع في إطلاق الأحكام ، وهذا الاستيعاب يشبه إلى حد بعيد الاستيعاب المتسير الذي افتح به عتبات المنهج في النص السابق ، ومن الممكن عد الاستيعاب الأخير القاعدة الرابعة من قواعد المنهج الذي قصد إليه محمود شاكر ، فهذه العتبات هي التي اعتمدها في منهجه تنظيرًا وأبان عنها بشكل صريح ، ويتبقى أن نتساءل : هل اعتمد محمود شاكر على هذه العتبات في منهجه العلمي؟ وهل هناك فوارق - حتى وإن كانت لاحبة - بين ما جعله تنظيرًا وما ارتضاه تطبيقاً؟ لم يدع محمود شاكر لنا مجالاً كي نتأول في الإجابة عن هذا التساؤل من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، أما من الناحية التنظيرية فقد أقر محمود شاكر بأن العتبة الأولى من عتبات منهجه التذوق هي عتبة عدم التسليم بالأحكام المسبقة والشك في صحتها ، حيث أقر إقراراً بأن ما دفعه لدراسة المتنبي عدم تسليمه للرواية وعدم القطع بصحّة ما أثبتوه حيث يقول في حديثه عن المتنبي في كتاب المتنبي ومقالاته عنه في مجلة المقططف: "وقد كانت كلمتي عن أبي الطيب بدءاً لطريقة انتهجهما في ترجمة الرجل ، لم أتعبد فيها بأقوال الرواية تعبد الوثني بالصنم ... وكان مما ذهبت إليه ما أثبتته هناك من الشك في أن المتنبي كان كما زعم الرواة ابن سقاء ..." ، وهذا النص شديد الصراحة في أن القاعدة الأولى التي بني عليها محمود مشروعه النقدي في قراءة المتنبي كانت قاعدة الشك وعدم التسليم للأحكام المسبقة ومن ذلك أيضًا قوله: "... وبين الحرج والضيق والخيرة والضياع يذهب الشعر هباء .. ولا يعني منه جانبه إلا السامة .. فإن أفرط في حسن الظن بالنقاد والشرح تعود بالإلف سوء البصر ، واحتلاط النظر ، والإفراط في حسن الظن قد أضر بالشعر وبغير الشعر ، ولو طلبت شواهد لوجودها فاشية في كثير مما تقرأ مما كتب القدماء

(١) جمّة مقالات الأستاذ محمود شاكر ، لعادل سليمان جمال ، ج ٢، ص ٩٣٣ .

والمحدثون^(١) ، فهذه النصوص وغيرها صريحة في الإبانة على أن الشك هو أول الخطوات المنهجية لبحث قضية علمية عند محمود شاكر ، ولعل ما أذكرى عنده الشك المنهجي شكه الكبير في كل ما أثير حول قضية الشعر الجاهلي ، وخصوصاً ما أثاره فيه أستاذه طه حسين ، وغاية ما يقال أن ثمة تبايناً بين أطر منهج تذوق الشعر التي وضعها ، وبين شق التطبيق والمعالجة للمنهج ذاته ، فإذا كان تنظيره يجعل الاستقراء التام أولاً ، فإن تطبيقه المنهج من خلال تناوله للقضايا الأدبية والنقدية التي شغل بها يجعل الشك أولاً ، وليس أدل على ذلك من كتابه (نمط صعب ونمط مخيف) كمثال على تبادل تنظيره للمنهج ومعالجته له .

فقد طبق محمود شاكر مفاصيل المنهج الاستباطي الحديث وقواعده في هذا الكتاب دون أن يشير إليه إلا أنه منهج تذوقى خالص ، ففي بداية الكتاب تجرد الباحث من كل قديم في نسبة قصيدة (إن بالشعب الذي دون سلع) لتأبط شرا وشك في نسبة الرواية لها ، وتجرد من ترتيب أبياتها وشك كل الشك في صحة ذلك الترتيب ، كما شك في صحة الاستدلال بهذه القصيدة على افتقار القصيدة العربية للوحدة ، وهذا الإجراء يمثل القاعدة الأولى من قواعد منهج الاستباط الديكارتي^(٢) والمتمثل في التجرد من الأحكام الثقافية السابقة وعدم التسليم بها كقينيات علمية والشك في صحتها ، ثم فكك القصيدة عروضياً وأسلوبياً حتى وصل إلى وزنها المديد الأول ، وأعاد تأليفها ليصل إلى النسبة الحقيقة لقائلها ، وهو ما يمثل القاعدتين الثانية والثالثة من قواعد منهج ديكارت المعتمدة على التقسيم والتحليل ومن ثم التأليف والتركيب ، مستقرئاً في كامل بحثه جهود السابقين له الذين تعاطوا مع هذه القصيدة من العلماء العرب وأعاجم المستشرقين ، ومستقرئاً في ذات الوقت تلك السمات والظواهر الفنية التي تنفي عن الشعر الجاهلي وحدته ، ومستقرئاً أيضاً قضية نسبة الشعر الجاهلي وصحته ، وفي هذا تطبيق للقاعدة الأخيرة من قواعد منهج ديكارت القائمة على الاستقراء ، يقول شاكر في مقدمة الكتاب مبيناً منهجه: " وهكذا وجدتني أسير في طريق طويل أعالج الحديث عن نسبة القصيدة ، وعروضها ... وترتيب أبيات القصيدة كما جاء في روايات الأقدمين ... ثم ما اقترحته أنا من ترتيب وفق منهجي في تذوق الشعر ... ومخالفتي في ذلك عما قاله بعض شراح القصيدة من النقاد الأوائل ، ثم عدوبي عن

(١) نمط صعب ونمط مخيف لـ محمود شاكر ط١، عام ١٤١٦هـ ، مطبعة المدين بجدة، ص : ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) ينظر لقواعد منهج ديكارت في هذا البحث : ص ٣٦ وما بعدها .

شروحهم اللغوية المجردة لبعض ألفاظها ، ورأيت أننا إذا وقفنا عندها دفنا الشعر في تابوت من اللغة^(١) ، وهكذا فعل شاكر أيضا في كتابه المتنبي ، الذي ألفه وهو ابن السادسة والعشرين ، بعد أن كلفه فؤاد صروف رئيس تحرير مجلة المقتطف بأن يكتب دراسة عن المتنبي في حدود الثلاثين صفحة ، فاستحال هذا التأليف إلى كتاب وصل إلى نتائج غير مسبوقة ، قامت مجلة المقتطف بنشره في عددها الأول لست مضمون من شهر شوال ، في عام أربعة وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة النبوية المشرفة^(٢) ، فقد شك فيما أثبته الرواة في نسب المتنبي ، وافتراض أنه علوى النسب للغموض الذي أحاط بمنصب المتنبي لعدم اقتناعه بعلاقة تلك الروايات مع شخصيته التيقرأها من خلال نتاجه الأدبي ، كما شك في صحة ادعائه المتنبي للنبوة ، وشغل نفسه كثيراً بالرد على من ادعى ذلك ، ثم قام بتفكيك المادة الشعرية للمتنبي وأعاد تركيبها وتحليلها فاستنطق النصوص لوصف شخصية ونسب المتنبي وادعائه للنبوة ، مستقرئاً الروايات والأخبار التي اشتغلت على كل ذلك ، ومستخلصاً النتائج من قراءاته التذوقية لديوان المتنبي ، وإذا ما تم وضع هذه الإجراءات المنهجية التطبيقية في هذين الكتابين بإزاء الجانب التنظيري فإن الفرق يبدو واضحاً بين أول الخطوات تأطيراً ومعالجة ، أما باقي الإجراءات فتكاد تكون هي في الجانبين ، وعند الحاجة لاستخلاص منهج علمي لعلم ما فإن أول ما يستطيع الباحث الوثوق به والاطمئنان إليه طريقة ذلك العلم في معالجة القضايا ، فاستيعاب تلك القضية وتتبع تدرجها وسبر أغوارها الفكرية ، تنتج الطريقة والمنهج العلمي والبحثي الذي كان ينتهجه ، مما يدفع بالقول أن الإجراءات المنهجية الحقيقة لمنهج التذوق عند محمود شاكر والمستخلصه من خلال معالجته لبعض القضايا تبدأ بالشك المنهجي ، ثم التقسيم والتحليل ، ثم التركيب والتأليف ، أما الاستقراء التام والاستيعاب المتيسر للتأكد من صحة النتائج فيكاد يكون أداة تتسلل إلى كافة هذه الإجراءات تسبقها تارة وتعقبها تارة أخرى .

وهذه الإجراءات في عمومها تشبه إلى حد كبير المنهج الاستنباطي لديكارت ، الذي اعتمد عليه طه حسين في نقده للشعر الجاهلي ، والذي يتكون من أربع عتبات : وهي الشك و عدم التسليم للأحكام المسبقة ،

(١) نمط صعب ونمط مخيف ، لمحمود محمد شاكر ، ص ٢-١.

(٢) ينظر في ذلك لمحمود محمد شاكر دراسة في حياته وشعره لألماني بسيسو ص ٥٧ وما بعدها ، وينظر لمحمود محمد شاكر قصة قلم لعايدة الشريف ط ١، عام ١٩٩٧م، دار الهلال المصرية ، ص ٢٣١ وما بعدها .

والتقسيم والتحليل ، والتأليف وإعادة التركيب ، والاستقراء^(١) .

وهذا الشبه يبدو أكثر وضوحاً في الشق التطبيقي عند شاكر أكثر من الجانب التئيري ، وذلك أن الشك المنهجي الذي يبني عليه افتراض علمي نجح أدار عليه الأستاذ محمود شاكر أهم مؤلفاته العلمية كما تم ذكره آنفاً .

وما يزيد التقارب بين التذوق والاستنباط أن الأخير قد نشأ تلبية لرغبة ديكارت في منهج علمي يسعى لإيجاد حقائق علمية مشتركة وثابتة وصارمة كنتائج علم الرياضيات ، إذ إن ديكارت أراد من هذا المنهج إبعاد العقل العلمي عن الزيغ والضلal ، ولما بدا له أن منهج الرياضيات الاستباطي هو أقدر المناهج على الوصول إلى الحقائق والنتائج الصحيحة ، دعا إلى تطبيق منهج الاستنباط الرياضي فيسائر العلوم ومختلف الدراسات ، وإذن فالعقلية الرياضية عند ديكارت هي التي أسست لهذا المنهج بمفهومه الحديث .

وعند تتبع سيرة محمود شاكر يلاحظ بأنه كان محبًا لعلم الرياضيات باعترافه الشخصي هو حيث يقول في إجابة على سؤال ضمن لقاء إذاعي بث في إذاعة الكويت يطلب معرفة السبب الذي دفعه لقطع دراسته في مرحلة متقدمة من عمره :

" ... فأنا درست في المدراس الثانوية وطللت أتابع حفظ الشعر وقراءة الكتب ، وقرأت وأنا في السنة الأولى الثانوية لسان العرب حرفاً حرفاً من أوله إلى آخره ، وأنا في داخل الدراسة ، ثم ظللت أنتقل في الدراسة ومتقدما فيها أيضا ، ودخلت القسم العلمي لا القسم الأدبي ، ... فأنا كنت أختار القسم العلمي لأنني كنت متميزاً في الرياضة ، وكانت أحبها حباً جماً ، ولكني كنت أحب الأدب في ذلك الوقت حباً جماً"^(٢) .

فالميل إلى المنهج الرياضي قاسم مشترك بين ديكارت وشاكر على حد سواء ، وإذا كان المنهج الرياضي هو ما أسس لمنهج الاستنباط بمفهومه الحديث عند ديكارت ، فقد يكون المنهج الرياضي ذاته هو ما أثر على محمود

(١) ينظر لكتاب : مقال عن المنهج ، تأليف رينيه ديكارت ، ص ١٠٨-٢٠٦ .

(٢) ينظر لظل النديم لوجдан العلي ص : ١٠٠ ، وقد قام المؤلف بنشر هذا اللقاء الإذاعي كاماً في كتابه ابتداء من ص: ٩٧ حتى ١٢١ .

شاكر في انتهاج منهج التذوق الخاص به والذي لا يبتعد كثيراً عن المنهج الاستباطي الحديث ، وغاية ما يقال في ذلك أن منهجي البحث العلمي عند ديكارت وشاكر تكونا في عقليتين تعيان الرياضيات أهمية بالغة ، تلك الأهمية التي كان لها الدور الأكبر في توجيه الرأي وقبول النتائج المبنية على المنهج الرياضي الذي يحقق عادة نتائج عادلة وصحيحة .

وليست عتبات المنهج المتشابهة وطائق العلاجة المتقاربة والفكر الرياضي ما يدلل على تقارب منهجي التذوق والاستباط عند الرجلين ، بل ثمة أمر يمكن عده الوجه الآخر لكل منهج ، فكلا المنهجين يعتبران نفسهما مخلصين للباحث من الزيف والضلال المعرفي ، فلسنا في حاجة لإعادة القول بأن الدافع الأكبر لديكارت لتأسيس منهجه الخاص هو إيجاد منهج بحثي ومعرفي يتمحض عنه نتائج تتصل بالحقيقة أكبر كاتصال نتائج الرياضيات بالحقائق أكثر من باقي النتائج ، وهو ذات الأمر الذي دفع بمحمود شاكر لتأسيس وتأطير منهجه التذوقي الخاص ، حيث رأى في هذا المنهج وحده دون غيره كفاية للباحث في مجالات الأدب العربي ، فأدوات التذوق وأطروه واستنطاق النصوص ودلائلها الخبيثة التي يعالجها المنهج التذوقي هي المخلص الأول من الزيف الأدبي العربي ، ويعيد محمود شاكر الباحث الذي لا يمتلك هذه الأدوات غير قادر على انتهاج نهج أدبي خاص أو حتى غير أدبي في كل ما يتعلق بعلوم وخصائص اللغة العربية يقول محمود شاكر في الدوافع والغايات التي كانت وراء تأسيسه لمنهج التذوق :

"... أردت أن تقف بالدليل الواضح على أن المنهج الذي استطعت أن أمهده لفكري كان نابعاً من صميم المنهاج الخفيّة التي سرتُ لنا آباءنا وأسلافنا طرقها ، وأن كل جهدي فيه هو معاناة كانت مني لتبين دروبها ومسالكها ، ... معتمدًا على دلالات اللسان العربي ... والذي لا يملك القدرة على استيعاب مثل هذه الدلالات وعلى استشفاف خفاياها غير قادر البتة على أن ينشئ منهاجاً أدبياً لدراسة إرث هذه اللغة ، في أي فرع من فروع هذا الإرث ، إلا أن يكون الأمر كله تبجحاً وغطرسة وزهواً وغورواً وتغريراً ، كما هو الحال في حياتنا الأدبية هذه الفاسدة (١) " .

إذن فعدم القدرة على امتلاك أدوات منهج التذوق يجعل - من وجهة نظر الأستاذ محمود شاكر رحمه الله

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر ص ١٥ .

الباحث غير قادر على إنشاء منهج أدبي صالح لدراسة اللغة في كافة مجالاتها ، وعذّ عدم توظيف أدوات المنهج التذوقي تبجحاً وغطرسة يتمخض عنها حياة أدبية فاسدة ، لا سيل لإزالة فسادها إلا بامتلاك هذه الأدوات والتعاطي مع هذا المنهج .

وقد جعل عدم التمسك بأدوات المنهج وأطره التي وضعها أكبر المزالق التي نقدتها في قراءة لويس عوض لشيخ المعرفة ، وقد نقض شاكر نتائج تلك القراءة ابتداءً من المنهج التاريخي الذي استدعاه لويس دون استدعاء لمنهج تذوق كل كلام الذي طلما دعا إليه شاكر ، بل ولم يتردد في جعله الإطار العام لمنهجه الخاص .

إذن فهذه مجموعة من الروابط النظرية والتطبيقية التي تقارب بين منهجي التذوق والاستبطاط بالنظر إلى الأول منها ككل غير منقسم ، أما عند تجزئة إجراءات المنهج التذوقي والنظر المفرد لكل جزيئاته ، فقد يتحقق لمن طالعها كإجراءات منقسمة أن يقول بأن كلمة المنهج هي وحدها ما يجمع تلك الإجراءات ، وأن تلك الإجراءات بحد ذاتها يمكن عدها مناهجاً بمحية مستقلة عن بعضها البعض ، وبيان ذلك أن المنهج التذوقي عند محمود شاكر يعتمد في كثير من إجراءاته على الإحساس المفعم بجمال اللغة والذي لا يتأنى إلا بـ " إرادة واضحة وإلى تنبه وتبصر .. وتحتاج أيضاً إلى ترديد الكلام وترجيعه وإلى إعادة النظر فيه مرة بعد مرة .."^(١) وهي هي ذات الطريقة التي تأثر بها محمود شاكر من شيخه سيد بن علي المرصفي حينما كان يردد المرصفي ويعيد ترديد الأبيات ويشير حينها بكلنا يديه وتبرق عيناه وبهتز يمنة ويسرة ، " وترى شفتيه والكلمات تخرج من بينهما تراه كأنه يجد للكلمات في فمه من اللذة والنشوة يفوق كل تصوّر .."^(٢) ، وغاية ما يقال في هذا

(١) جهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ص ١١٧٨ .

(٢) وردت العبارة هكذا " كأنه يجد للكلمات في فمه من اللذة والنشوة يفوق كل تصوّر " في المرجع السابق ، والكلام قد لا يستقيم إلا بإضافة (ما) الموصولة قبل الفعل يفوق ، لتصبح العبارة (كأنه يجد للكلمات في فمه من اللذة والنشوة ما يفوق كل تصوّر) ولم أهتمي لنسخة مجلة الثقافة الأصلية والتي أصدرتها دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٧٨ حيث اشتمل العدد الثالث والستين منها على سلسلة مقالات (المتنبي ليتني ما عرفته) ، لأحكّم بأن ما الموصولة قد تكون ساقطة من جهرة المقالات فقط .

(٣) جهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ص ١١٧٩ .

أن الإحساس بجمال اللغة والتعبير الأدبي هو ما يثير في النفس مثل هذه الانفعالات ، وهو ما يدفع نفس الناقد نحو مواجهة النص مواجهة جمالية ، تقوم على الإحساس بجمال الفن وطبيعة الإبداع داخل النسق اللغوي ، ومواجهة النصوص الأدبية على هذا النحو هو ما سماه بعض علماء المناهج الأدبية الحديثة بالمنهج الجمالي ، " وهو منهج يقصد به إلى دراسة القيم الجمالية في العمل الأدبي ، من أجل تقويمه ووضعه في مكانه الصحيح بين الأعمال الأدبية الأخرى التي تمثل التطور الفني لتاريخ الأدب ^(١) ، وهكذا يمكن عد ما يسمى بالمنهج الجمالي أداة من أدوات المنهج التذوقى عند محمود شاكر بالنظر إلى جزئياته ، وكذلك يمكن عد المنهج التاريجي أداة من أدوات المنهج التذوقى عند النظر في إجراءات المذهب التذوقى عند محمود شاكر ، ففقد محمود شاكر لسيد قطب ^(٢) ولويس عوض ^(٣) كان ينقد منهجهما التاريجي ويتخذ ذلك النقد من المنهج التاريجي أداة له تحت عنوان منهج التذوق ، وإذا كان المنهج التاريجي في مجالات الدرس الأدبي يعتمد إلى " تتبع الأدب العربي تتبعاً تاريخياً في رحلته الطويلة عبر التاريخ ...^(٤)" فإن المنهج التذوقى عند محمود شاكر قد عالج بعضاً من القضايا الأدبية بأدوات المنهج التاريجي، بل وجعل لنفسه الحق في تعديل النصوص الشعرية الجاهلية على أساس من الحقائق التاريخية ^(٥) ، وكثيراً ما تشبه القضايا الأدبية التي يعالجها محمود شاكر بأدوات المنهج التاريجي ومنهجه التذوقى الخاص وخصوصاً فيما يتعلق بالرواية بما اصطلاح عليه العلماء بالفيليولوجيا ^(٦) التي تختتم بضبط النصوص وحسن تأويلها ، والتعليق عليها وتفضي إلى الاعتناء بتاريخ الأدب والأخلاق ^(٧).

(١) مناهج البحث الأدبي للدكتور يوسف خليف ، ط١، عام ١٩٩٧م، لدار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة، ص ٥٦.

(٢) ينظر في ذلك لمقال : تاريخ بلا إيمان ، في جمارة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ص ٩٧٩.

(٣) ينظر في ذلك لأباطيل وأسمار محمود شاكر : ج١، ص ١٧ وما بعدها.

(٤) مناهج البحث الأدبي للدكتور يوسف خليف ، ص ٣٩.

(٥) ينظر في ذلك مثلاً لطبقات فحول الشعراة الحاشية الأخيرة ص : ٢٣٨-٢٣٩.

(٦) ينظر في ذلك لظل النديم لوجдан العلي : ص ١٨٣.

(٧) ينظر لدروس في الألسنية العامة لفریدناند دي سوسيير ، تعریف صالح القرمادي ، ومحمد الشاوش ، ط٣، عام ١٩٨٥م للدار العربية للكتاب، ص ١٨.

وعند إنعام النظر في طريقة قراءة محمود شاكر للمتنبي بشكل خاص ، يبدو واضحاً اعتماده على أدوات المنهج النفسي ، ذلك المنهج الذي يعتمد على علم النفس كثيراً والذي يقود الجاحظين إليه إلى " استغلال نظرياته وتطبيق تجاربه على النصوص الأدبية يستخرجون منها دلالاتها النفسية على شخصيات أصحابها ، ويرفعون الحجب عما عليه من رموز وإشارات لما يدور في أعماق النفس الإنسانية ^(١)" ، وبناء على ذلك يمكن عد منهج التذوق عند شاكر خليطاً من المناهج البحثية يحيط بها التذوق ، واستدعاء العديد من المناهج البحثية في بحث واحد بغية الوصول إلى حقيقة أدبية علمية ليس منهجاً تذوقياً فحسب ، فقد لاحظ علماء المناهج البحثية الأدبية الحديثة أن البحث الأدبي أعقد من أن يعتمد على منهج بحثي واحد ، إذ لا يمكن أن يستوعب منهج الواحد الأدب كله ، وقد حكموا بإلزام الباحث في مجالات الأدب وفنونه أن يستفيد من كافة المناهج البحثية ، وأن يطلع على الدراسات التي تحدد تلك المناهج وتستجلify حدودها وأطرها وتبين الفوارق بينها ، وأباحوا للباحث ذلك تحت مسمى (المنهج التكاملـي) ، ويوضح من وسم هذا المنهج بالتكاملـي أنه متكون من عدة مناهج بحثية متكاملـة يبيع لنفسه مالا يبيع لغيره من خلط المناهج ومزجها وصبها مجتمعة في قالب البحث الأدبي ، بل وقد عدّوا المنهج التكاملـي منهجاً بحثياً ملحاً للكشف عن كل ما يتعلق بالأدب والأديب ، فـ " الأديب لا يعيش في بيئة منعزلة ولا في عصر منعزل ، بل يعيش دائماً في بيئة .. وعصر .. يوجان بعلاقات شتى من الظروف المكانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحضارية ، وكلها تستدعي وشائج تربط بين الأديب وبين وسطه المكاني ، وكلها تعكس عليه وعلى أدبه وتأثير فيه بحيث لا تتكامل دراسته ودراسة آثاره بدنوـها ، وإنـا كانت ناقصة مبتورة واضح من كل ما سبق أن الباحث الأدبي الحديث لابد أن يستضيء في عمله بكل المناهج والدراسات السابقة ، إذ لا يكفي منهـج واحد ولا دراسة واحدة لكي ينهض بعمله على الوجه الأكـمل ... ^(٢)" ، وخلاصة القول في المقاربة ما بين منهـج التذوق والاستنباط والمناهج البحثية الحديثة الأخرى ، أن منهـج التذوق عند شاكر يتقطع مع منهـج الاستنباط تأطيراً وتطبيقاً، كما أن منهـج التذوق يضم إلى جنباته العديد من أدوات المناهج البحثية الأخرى وأخص منها المناهج البحثية الأدبية .

(١) مناهج البحث الأدبي ليـوسـف خـلـيف : ص ٤٧.

(٢) البحث الأدبي ، طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادرـه ، لـشـوـقـي ضـيـفـ ، وـصـ ١٤٤ طـ ٧ ، عام ١٩٧٢ م ، لـدارـ المـعـارـفـ المـصـرـيـةـ ، صـ ١٣٩.

مصادر المعرفة ومؤهلات الناقد (الدربة) :

إن امتلاك الذوق الأدبي وحده لا يكفي لإنتاج أحكام نقدية موضوعية معللة ، فربما أسهم وحده في إنتاج أحكام نقدية ساذجة وغير معللة تعتمد على الانطباع الشخصي الغير معلم ، مما يجعل هذه الأحكام المنتجة من الذوق الساذج ضعيفة القبول حتى وإن كانت صائبة ، بل ويجعلها وهي ناقدة عرضة للنقد لخلوها من التعليل والتحليل أو الموازنة والترجيح ، والدربة بعد ملكة الذوق هي ما يكفل للأديب الوصول إلى حقائق ونتائج نقدية تجذب إلى الصواب وتبعد غالباً عن مجانبته ، ولا تزال الدربة الحلقة المفقودة بين الناقد وبين ممارساته العلمية في النتاج الأدبي ، وهي تلك الحلقة التي تجعله مؤهلاً لإصدار أحكام نقدية علمية تتسم بال الموضوعية والإنصاف والتأصيل العلمي ، محمود شاكر هو واحد من النقاد والأدباء الذين استودعهم الله ملكة الذوق الفطرية ، وقد أدرك ذلك في نفسه في سن مبكرة من عمره ، فعمد إلى تعميمها وصقلها والتدريب عليها ، حتى توصل بتلك الدربة إلى جعل الذوق نفسه منهجاً عرف به في الوسط الأدبي ، وكما أن محمود شاكر تحدث عن منهجه التذوقي ووضع أطروه وملامحه كما ذكرناه سابقاً ، فإنه قد تناول الحديث عن الدربة باعتبارها صنواً للذوق وقسيمه ووجهه الآخر ، الواضح من خلال مسيرة محمود شاكر الأدبية التي غصت بها بعض البحوث والدراسات العلمية^(١) أن الذوق فطرة ربانية اكتشفها في نفسه منذ طفولته ، وهي تلك الفطرة التي جعلته يحب الأدب العربي ويغرس إليه ميلاً كبيراً على الرغم من حبه لبعض العلوم الأخرى ، والمستنتاج من ذلك أن الذوق سابق للدربة ، وهذا التتابع بين الذوق كأول والدربة كثان تتابع منطقي غالباً ، إلا أن محمود شاكر وفي حديثه عن الدربة جعل التذوق نتاجاً للدربة وسيباً ناشئاً عنها ، وهذا لا يتصادم مع التتابع المنطقي للذوق ثم للدربة ، فالذوق لا يجذب إليه ولا يوثق به إلا بعد الدربة ، والدربة لا ينشأها إلا من وجده في نفسه

(١) ينظر للفصل الأول من الدراسة العلمية : محمود محمد شاكر دراسة في حياته وشعره ، لأمانى حاتم بسيسو ، وينظر للفصل الأول من الدراسات العلمية : محمود محمد شاكر ، الرجل والمنهج ، لعمر حسن القيام ، وينظر لمهدى الدراسة العلمية : محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النبدي ، لإبراهيم الكوفحي ، وينظر للباب الأول من كتاب : ظل النديم ، لوجдан العلي .

(٢) ينظر لظل النديم لوجدان العلي ص : ١٠٠ ، حيث ذكر محمود شاكر عن نفسه أنه يحب الرياضيات منذ طفولته ، ولكنه أحب الأدب مع ذلك أكثر ، وقد قام المؤلف بنشر هذا اللقاء الإذاعي كاملاً في كتابه ابتداء من ص:

ذوقاً فطرياً يتعيّن صقله وتنميته ورعايته ، ولبيان تأثير الدرية على التذوق عند محمود شاكر فلا بد من اقتصاص أheim ما قاله في الدرية على طوله ، يقول في ذلك بعد أن عرض رفضه لأكثر المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية ، وبعد أن قضى عشر سنوات منغمساً في تكوينه الأدبي والمعرفي منذ ربيعه السابع عشر : " ويومئذ طويت كل نفسي على عزيمة ... ماضية : أن أبدأ وحيداً منفرداً ، رحلة طويلة ببدأ بإعادة قراءة الشعر العربي كله ، أو ما وقع تحت يدي منه يومئذ على الأصح ، قراءة متأنية طويلة ... عند كل لفظ ومعنى ، كأني أقلبهما بعقلي ، وأروزهما ^(١) .. بقلبي ، وأجسّها جسماً ببصري وب بصيرتي ، ... ثم أتدوّقها تذوقاً بعقلي وبقلبي وب بصيرتي كأني أطلب فيها خبيثاً قد أخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته ، وأتدسّس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفواً أو سهوا تحت نظم كلماته دون قصد منه أو تعمد أو إثارة ^(٢) ، إذن فهي عشر سنوات أو تزيد قضتها محمود شاكر في تقليل أوراق ما وقع تحت يديه من الشعر العربي ، تلك الأعوام التباع وتلك القراءة الآنية للشعر العربي نفسه خلال تلك الأعوام كفلت له درية عضدت ذوقه الفطري ، وقد كان طول تلك الأعوام والكثرة الكاثرة مما قرأه من شعر فيها مسوغة لأن يقول " الشعر العربي كله " ، على الرغم من صعوبة ذلك وربما استحالته عليه وعلى غيره من العلماء ، وحينما أوجس في نفسه خيفة من صعوبة انتزاع إقرار من المتلقى بإحاطته بشعر العرب ، استثنى من (كله) ما (وقع تحت يده منه) ^(٣) ، فذوقه الذي رفض أغلب المناهج الأدبية في مقتبل شبابه هو الذي أسس حاجته للاطلاع والتّوسيع في عشرة أعوام خلُون من

(١) فسر محمود شاكر أروزهما بين معكوفين بقوله : (أي أزفهما مختبراً) ، وقد جرت عادته في مؤلفاته على نحو من ذلك عند استخدامه لمفردات يغلب على ظنه حاجتها لتفصيل وبيان .

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ص ٦ .

(٣) تواصلت مع وجдан العلي مؤلف كتاب ظل النديم ، - وهو كتاب ألفه في أوراق وأسماك محمود شاكر ، وساعدته على تأليفه صلته الوطيدة بعائلة محمود شاكر - ، وأفادني بأن رأى مكتبة محمود شاكر بعينه في منزله ، ووصفها بأنها مكتبة ضخمة ، اشتتملت على أغلب كتب التراث العربي في مجالات اللغة العربية وعلم الأصول وعلم الحديث والتفسير والسيرية النبوية وبعض الكتب المترجمة ، وذكر لي أن كل ما يريده الباحث من دواوين الشعراء في العصر الجاهلي والأموي والعباسي يتجده في هذه المكتبة دون عناء ، وأن أغلب الكتب التي وقعت يد وجдан العلي عليها لم تسلم من تعليقات محمود شاكر الخطية وملحوظاته .

عمره، ونفس الحاجة لذلك الاطلاع والاستقراء هي ركيزة ذوقه وعقل موهبته النقدية ، مما جعله يتبع من الذوق منطلقاً أولياً ومرجعاً نهائياً لإصدار أحكامه النقدية وآرائه الأدبية ، وهو من الأمور التي دفعته لأن يسمى منهجه تذوقاً ، وبالنظر إلى المسيرة الأدبية لشاكير التي صقلت فطرته الذوقية ومقاييسها بما أفرزته من نتاج أدبي وحقائق علمية ، يتضح بأن هناك ضوابط أحت عليه في تكوين محيط للدرية ، تلك الضوابط مجتمعة استطاعت تكوين فكره الثقافي وأسسها المعرفية وسناحول فيما يلي تحسس بعض تلك الضوابط وفق ما يأتي :

ضوابط الدرية عند محمود شاكر : أولاً : الضابط الأخلاقي الديني :

الضابط الديني للأفق المعرفي عند محمود شاكر هو الأساس الذي قام عليه فكره وتكوينه العلمي ، وهو بحق الحد اللاحب بين منهجه التذوقي والمناهج الأدبية والبحثية الحديثة ، فإذا كان المنهج الاستنبطاني بمفهومه الحديث أقرب المناهج إليها بمنهج التذوق ، فإن الأول يطلق عنان الباحث للتبرؤ من الدين إذا تسبب الدين في إملاءات على فكر الباحث ؛ ولذلك اضطر طه حسين في كتابه المثير للجدل إعلان ذلك لإثبات تجرده التام ونبذه لكل قيد وشحّ كل انتماء حتى وإن كان بسبب من الدين ؛ فانتماء الباحث - بحسب منهج طه حسين - لأي جهة لا يحقق النتائج البحثية الموثوقة ، وكسر هذا الانتماء حتى وإن كان دينياً هو ما يمكن الباحث من الشك - كعتبة أولى من عتبات المنهج الاستنبطاني الحديث - في كل أمر حتى وإن كان دينياً ، ولم يتردد طه حسين في التصريح بذلك وهو ذات الأمر الذي ألب عليه أغلب علماء مصر في زمانه ومنهم محمود شاكر ، يقول طه حسين :

" يجب حين تستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها ، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به ، وأن ننسى ما يضاد هذا الدين ، يجب ألا نذعن إلا لمناهج البحث العلمي الصحيح ؛ ذلك أننا إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحابة وارتضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين " ^(١) ، فانتماء الباحث هنا لقوميته العرقية وهويته الدينية ليست إلا أغلالاً يجب على الباحث الخلاص منها وكسر قيودها ، وستكون سبباً في تحقيق نتائج علمية تقوم على المحابة والعواطف.

(١) في الشعر الجاهلي لطه حسين : ص ٢٤ .

ولعل التحلل من قيود الانتماء الديني والقومي عند طه حسين هو ما تسبب في جعل الهوية الدينية بل والهوية العربية أهم ضوابط البرية الفكرية عند محمود شاكر ، فكما أن طه بدأ بفك أغلال الدين لتنفيذ مشروعه النبدي ، فإن محمود شاكر بدأ بوضع الدين الإسلامي أصلاً لمشروعه النبدي واتجاهه الأدبي ، فالدين عند محمود شاكر من الأصول البحثية التي لا تنفك عن دربة الباحث ولا بد أن تسرى روح الدين عنده في البحث وشخصية الباحث على حد سواء ، وهي السبيل الأمثل لعصمة العقل من الزيف والضلal ، ولم يتزدد محمود شاكر في بيان تمسكه بالأصل الديني مقابل تنصل طه حسين منه ، بل وجعله بشكل صريح موازياً له ومقابلاً له ، الأمر الذي يثبت الأثر المضاد الذي أحدثه طه في فكر محمود شاكر ودربيته الثقافية والذوقية ، يقول محمود شاكر في معرض ردوده على من يوازن بينه وبين أستاذه طه ويتعلّم بينهما خصومة شخصية :

" ليس الأمر أمر خصومة ولكنه أمر خلاف بعيد الجذور ، يبلغ حد التباين الكامل في الأصول ... يفضي إلى تباين في كامل الآراء التي تنبع من هذه الأصول ..." ^(١) فالخلاف لم ينشأ عن خصومة شخصية ولا خصومة أدبية فرعية على قضية معينة كقضية الشعر الجاهلي مثلاً ، بل الخلاف بين طه ومحمد بحسب الأخير خلاف يعود إلى الأصول التي تكون منها فكر الباحث ومنهجه ، فشاكر يصرح بأنه لم يكتب شيئاً كثيراً في نقد طه حسين بل كتب شيئاً على قلته : " كان يحمل في ثناياه وجوه التباين في الأصول ، وفي طريقة تناول الأدب والتاريخ وفي أسلوب تكوين التفاصيل التي تبني عليها الصورة التي يصورها الكاتب بقلمه وبيانه ، فمن أجل ذلك كان حكمي واضحاً صريحاً على كثير مما كتبه في التاريخ والأدب ككتابه (على هامش السيرة) وكتابه (الفتنة الكبرى) وسائر هذه الفصيلة وأنها بنيت بناء فاسداً كل الفساد بفساد التفاصيل التي أعدتها ونظر فيها واستخرج منها مادته ^(٢) ، فالأصل الديني الذي أقام عليه طه حسين دربيته الثقافية والفكرية وألف به كتاباً مثل كتاب ((على هامش السيرة)) و ((الفتنة الكبرى)) هو نفسه الأصل الذي اعتمد عليه في قضاياه الأدبية والنقدية ، وهو ذاته جوهر الخلاف الذي نشأ بينه وبين محمود شاكر ، وهو أيضاً ذاته الأساس غير القوم الذي التزمه طه بحسب شاكر وحاد عنه محمود شاكر رحمة الله بحسب رؤيته .

(١) جمارة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ج ٢، ص ١١٢٩.

(٢) السابق نفسه.

وقد صرَّح محمود شاكر بأصالة الضابط الديني في حراكه العلمي والفكري ، وسماه (الأصل الأخلاقي) ^(١) ، واعتبر الأساس الذي يبني عليه الهرم الثقافي عند الأمم ولا سيما العلماء ذلك الأصل الأخلاقي الذي تبلور في الدين ، "ورأس كل ثقافة هو الدين بمعناه العام والذي هو فطرة الإنسان ، - أيَّ دين كان - أو ما كان في معنى الدين ، وبقدر شمول هذا الدين لكل جميع ما يكبح جموح النفس الإنسانية ويحجزها عن أن تربع عن الفطرة السوية العادلة " ^(٢)، ويرأى محمود شاكر سلطة العقل من التفرد بالقدرة على تكوين الإنسان لقواعد عقلية يسير عليها ابتداء من نفسه في الثقافة ؛ وذلك أنَّ الأمر في ذلك متعلق بالإنسان ، والإنسان فيه من الطابع والغرائز مقدادير مختلفة لا يمكن ضبطها عند بني جنسه كافة على نسق واحد ، فالضابط لثقافة الإنسان لا ينبغي أن يكون هذا الموج المتلاطم المتصادم من الغرائز والطبع المتباعدة ، ولا تستطيع تلك القواعد العقلية بناء على تباين الغرائز والطبع الإنسانية القيم بالعبء الثقافي وتكون قواعد ضابطة صارمة للمعرفة الإنسانية ، فالقواعد العقلية المجردة لا تكاد تقوم بهذا العبء كله ، بل العقائد وحدها هي صاحبة هذا السلطان على الإنسان ، لأنَّها إما أن تكون مغروزة في فطرته منذ خلق إنساناً ... وإنما أن تكون مكتسبة ولكنها مُنزلة مُنزلة العقائد المغروزة فيه " ^(٣) ، ويستطيع القول بأنَّ هذا الضابط الأخلاقي الديني الصارم الذي ارتضاه محمود شاكر ضابطاً لدربيته ورحلته الثقافية والمعرفية ، كان يقتفي أثره من البيئة التي نشأ فيها وليداً ، فوالده ترقى في مجال عمله بسبب من أثر التدين إلى أن أصبح قاضياً لقضاة السودان ثم شيئاً لعلماء الإسكندرية ومؤسسًا للمعهد الديني بها ، ثم وكيلًا للجامع الأزهر ^(٤) " وكانت داره مورداً كثيراً للرحمان لعلية القوم والعلماء والأدباء ورجال الأزهر " ^(٥) ، ولا يخفى الأثر الذي تحالفه البيئة المكانية على النسيج الثقافي وطرائق التفكير والمصادر المعرفية عند الإنسان ، ولا سيما أنَّ ذلك الأثر لم يجد عنه محمود شاكر ، ولم يتحول عنه إلى غيره.

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ص ٣١.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق ص ٣٢-٣٣.

(٤) محمود محمد شاكر دراسة في حياته وشعره لأماني بسيسو : ص ١٩.

(٥) معلم هادئة على طريق سيرة عطرة للطاهر أحمد مكي ، مجلة الهلال العدد ٧٠ ، عدد فبراير ١٩٩٧ م.

ضوابط الدرية عند محمود شاكر : ثانياً : الضابط العرقي :

يكاد يكون الاحتفاظ بالهوية العربية عند محمود شاكر الإطار الشمولي الذي أدار عليه حركة الثقافى وارتکز فكره قبل ذلك عليه ، فقد نشأت وتردحت الدرية وتذوق الشعر خاصة عند محمود شاكر في مهد العلوم العربية بشتى مجالاتها وأقسامها ، وقد يكون من اللائق بمن يتدرّب على نقد الشعر وتذوقه أن يخصل نفسه بالاطلاع على كتب التراث والمعاصرة التي احتبكت على هذا الفن ، ويحيط بما فيها ولا يخرج من أصولها شيئاً متى ما أراد تمكين دربته ودرايته بالشعر العربي ، ولكن محمود شاكر قد أفضى به القلق المنهجي إلى مصادرية هوية الاطلاع المتخصص ، وارتفقى به إلى الماشقة التذوقية مع كتب التراث العربي في العديد من العلوم والمعارف ، وقد ألزم نفسه بهذا المنطلق الواسع تمكيناً لدربته وبغية منه للوصول إلى أعماق التذوق الشامل ، على اعتبار أن الدرية على تذوق الشعر تفضي بالباحث إلى تذوق كل كلام حتى لو لم يكن شعراً ، وبناء على هذا المنطلق الشمولي دلف محمود شاكر إلى كتب التراث العربي خاصة ، فتدرّب على ما في كتب التفسير وعلوم القرآن ل الكريم والحديث الشريف ومصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل وكتب الفقه وأصوله ، وكتب الملل والنحل وكتب التاريخ ؟ ليتحسس ما فيها من تذوق واستنباط ، ومن هنا تدرجت الدرية عند محمود شاكر حتى استطاعته إلى تشكيل ملامح منهجه بعد قراءة واسعة واطلاع شامل ، بل وأسهمت هذه القراءات في تحقيقه لتفسير الطبرى ، كمجهود علمي يضاف إليه في غير ما اشتهر به في مجالات الأدب والنقد ، وساعدته ذلك على توظيفه هذه العلوم في خدمة هوبيته النقدية والأدبية ، فقد تمكّن من علم الجرح والتعديل تمكناً لا تخطئه العين في قراءته وتعليقاته على طبقات فحول الشعراء مثلاً ، حيث أبطل نسبة كثير من الأبيات الشعرية والأقوال والأحكام إلى من نسبت إليه على أساس من ذلك التوظيف ، وقد أقر محمود شاكر بأثر هذا الاطلاع الواسع الشمولي على دربته وتكوين ملامح منهجه الأدبي ، بل واعتبره ضرورة الحث عليه وناظعتها عليه همه ونفسه حتى تأّلى له مراده ، يقول في ذلك :

" ... فأخذت أهبي لتطبيق هذا التذوق على كل كلام .. فأقدمت ... على قراءة كل ما يقع تحت يدي من كتب أسلافنا : من تفسير لكتاب الله إلى علوم القرآن على اختلافها إلى دواوين الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل إلى كتب ... الفقه إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين ... وكتب الملل والنحل ثم كتب الأدب

وكتب البلاغة وكتب النحو وكتب اللغة وكتب التاريخ وما شئت بعد ذلك من أبواب العلم ... كل إرث آبائي وأجدادي كنت أقرؤه على أنه إبانة منهم عن خيالاً أنفسهم بلغتهم ، على اختلاف أنظارهم وأفكارهم ومناهجهم ، وشيئاً فشيئاً افتح لي الباب على مصراعيه فرأيت عجباً من العجب " ^(١) .

وقد أَلْفَ محمود شاكر رسالته في الطريق إلى ثقافتنا على أساس من ضابط النزعة العرقية ، فهو لم يستطع أن يكتم في هذا المؤلَّف تحديداً تعصبه لهوية ثقافته العربية التي نشأ فيها فكره وتدرجت فيها دريته ، فقد حاول هذا الكتاب أن يرصد ملامح محاولات مصادرة الهوية الثقافية العربية ، مشدداً على أن الثقافة بمفهومها العام لابد وأن يتحقق فيها الإيمان بها أولاً عقلاً وقلباً ، ثم العمل بها ثم الانتماء إليها ^(٢) ، وقد عمد إلى هذه الشروط ليقوى ربط القارئ بالثقافة العربية كما هي قوية عنده ، وليخرج بذلك محاولات من يسميهم دائماً في هذا الكتاب بالأعاجم المستشرقين من أصلالة الهوية العربية ؛ لينفي عنهم تمكنهم من العلوم والثقافة العربية ، فهم وإن كانوا يعلمون طرفاً منها فإنهم لا يتعمون لها ؛ فهم لذلك غير مؤهلين لترقي منابر الإفتاء في كل ما يتعلق بثقافتنا العربية الخالصة ، هذه الثقافة التي يرى أنه قد طالتها محاولات باغية هدم أركانها والقبض على مقدارها، حيث يرى أنها تعرضت لمحاولات إفساد متكررة على يد الأوروبيين الذين لم يدخلوا جهداً في ذلك ، حتى انتهوا بها إلى ما يقارب الفساد والكساد، يقول محمود شاكر في ذلك مبيناً سبب فساد الثقافة العربية :

" وذلك لأن الفساد لم يدخل على ثقافتنا دخولاً يوشك أن يطمس معالمها ويطفئ أنوارها إلا بعد التصادم المخيف الذي حدث بيننا وبين الثقافة الأوروبية الحاضرة " ^(٣) الأمر الذي جعله يصف الحياة الأدبية بالحياة الأدبية الفاسدة في مواضع متفرقة من هذه الرسالة ^(٤) .

لقد سعى شاكر في هذه الرسالة سعيًّا حثيثاً لمحاولة إقناع القارئ بأن ثقافته العربية ثقافة أصلية يجب عليه و علينا

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحود شاكر : ص ٨-٧.

(٢) السابق ص : ٢٨.

(٣) السابق ص : ٣٤.

(٤) ينظر في ذلك للمرجع السابق ص : ٦ و ٣٤ .

التمسك بها والاهداء إليها ، والقارئ يستطيع أن يلحظ في هذه الرسالة بكل سهولة غيرة شاكر على ثقافته العربية الخالصة التي تكفي وحدها لأن تمثل الهرم الفكري والبناء المعرفي لكل عربي ، وأن الثقافة الأوروبية حاولت هدم هذه الثقافة وتقويض بنائها ، وقد حدا به ذلك إلى ربط الاستعمار والاستشراق والتبشير برابط واحد وغاية محددة وهي النيل من الثقافة العربية ومحاوله اجتنابها ، فإذا كان من يقول بأن لكل واحد من هذه الثلاثة غاية فإن محمود شاكر يرى أن غايتها هي السيطرة الثقافية على ثقافة المسلمين وعلومهم العربية ، يقول شاكر معللاً سبب اهتمامه بالاستشراق في رسالة في الطريق إلى ثقافتنا رغم ارتباطه الوثيق بالاستعمار والتبشير :

" ولكن هي هنا مصروف إلى الاستشراق لعلاقته الحميمة بفساد حياتنا الأدبية والاجتماعية ، ولأن حاجة التبشير والاستعمار حاجة ملحة لا يستغنيان عنه ولا عن نصائحه وإرشاداته وملاحظاته طرفة عين ، ومرة أخرى لا تنس ماحييت أن هذه الثلاثة إخوة أعيان لأب واحد وأم واحدة لا تفرق قط بين أحد منهم .."^(١)

حتى رأى شاكر أن الاستشراق " نجح في تحقيق هدفه كل النجاح واستطاع أن يدرج الإسلام وشرائعه وثقافته وحضارته في مستنقع القرون الوسطى "^(٢) ، وكل ما يمكن قوله أن الاستشراق عند محمود شاكر كان غالبه معول هدم في الثقافة العربية الإسلامية .

والحق أن الاستشراق كان كما عده شاكر وأشد ، فقد عرّفه المفكر إدوارد سعيد بأنه : " المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق ؛ التعامل معه بإصدار تقريرات حوله ، وإجازة الآراء فيه وإقرارها ، وبوصفه ، وتدرسيه ، والاستقرار فيه ، وحكمه ، وليجائز ؛ الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق ، وامتلاك السيادة عليه ، وهو الفرع المنظم تنظيمًا عالميًّا الذي استطاعت الثقافة الغربية من طريقه أن تتدبر الشرق ؟ بل حتى أن تتجه سياسياً ، واجتماعياً ، وعسكرياً ، وعقائدياً ، وعلمياً ، وتخيليًّا ، في مرحلة ما بعد عصر التنوير "^(٣) ولكن محمود

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ص ٤٩ - ٥٠ .

(٢) السابق ص : ٦٠

(٣) تعقيبات على الاستشراق إدوارد سعيد ، ترجمة وتحرير صبحي حديدي ط ١ ، عام ١٩٩٦ م ، للمؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ص ١١٢ - ١١٣ .

شاكر في هذه الرسالة وغيرها تغاضى كثيراً عن الجهود التي قدمها المستشرقون في خدمة الثقافة العربية خصوصاً والإسلامية بشكل عام ، فمما لا يخفى أن الاستشراق قد أسهم بفاعلية في إذكاء روح البحث والتنظيم المنهجي في الثقافة العربية مع ما عليه من مآخذ ونوايا سيئة ، فقد ساعد الاستشراك على تنظيم التدريس الجامعي في البلاد العربية فيما يخص تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، كما قام بجمع المخطوطات حتى قام بعضهم بفهرستها في عشر مجلدات في مكتبة برلين للمخطوطات ، حيث بلغت المخطوطات المفهرسة أكثر من عشرة آلاف مخطوطة ، بل تجاوزت جهودهم حفظ المخطوطات إلى تحقيقها ونشرها ؛ فقد نشر المستشرقون العديد من المخطوطات العربية مثل سيرة ابن هشام والإتقان للسيوطى وكتاب سيبويه والاشتقاق ومعجم الأدباء والكامل للمبرد والجمهرة وغيرها ، أما الترجمة فقد ترجم المستشرقون العديد من الكتب العربية كتاريخ الطبرى وإحياء علوم الدين للإمام الغزالى ، كما كانت لهم مشاريع علمية كبيرة وهامة جداً لا زالت معيناً للباحثين حتى اليوم ، كتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، ودائرة المعارف الإسلامية والمعجم المفهرس للألفاظ الحديث الشريف ^(١)، وفي مجال اللغة العربية والأدب العربي تحديداً سطعت أسماء بعض المستشرقين وأسهمت في إثراء المكتبة العربية ، كنشر مرجليوث لكتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، ورسائل أبي العلاء المعرى ومقالته الشهيرة في الاتصال ، والعالم المستشرق الشهير فرياتاج الذى اهتم بالشعر العربى وبخاصة المعلقات وحقق ونشر بعض الشعر الإسلامي ، وشارك في نشر كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي ، وكذلك المستشرق هيلموت ريتز الذى حقق أسرر البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ^(٢)، وغيرهم من ليس هذا البحث في صدد حضره ، ولكن ماتم استدعاوه من الأسماء يكفل بأن يذكر لهم محمود شاكر في هذه الرسالة بعضاً من المزايا والإيجابيات التي سكبتها جهودهم على الثقافة العربية والإسلامية ، إلا أن التعصب للثقافة العربية ولهويتها المصادرية هو في حقيقة الأمر ما منعه من الإدلاء بشهادة واضحة ذات حيز تحفظ شيئاً من حق هؤلاء المستشرقين ، وإذا فعل شيئاً من ذلك فعله على عجل وعلى تخصيص لا تعميم ، فإذا أعجب بفكرة لعام أوربي

(١) ينظر لالفصل الأول من : كتاب الإسلام والاستشراق ل Hammond H. Zafarوق ، ط١ ، عام ١٤٠٤ هـ مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) ينظر في جهود المستشرقين للمبحث الأول كاماً من كتاب : الاستشراق في الأدبيات العربية لعلي النملة ، ط١ ، عام ١٤١٤ هـ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض ، وفيه نبذة عن حياة كل من ذكرتهم هنا.

أو لمستشرق قام بتسجيل إعجابه به مربوطاً فقط بما استدعاه له ذلك الإعجاب فقط مبتوراً عن جهوده الأخرى ، وليس أدل على ذلك من شهادته للعالم (جوته) في كتابه نمط صعب ونمط مخيف ، ويكفي أن يذكر في ذلك أنه أورد ذكره في هذا الكتاب أكثر من ثلاثين مرة ، كان فيها جوته : " شاعر عظيم في لسان قومه ولغته الألمانية في الذروة من الحسن والجمال ^(١) ، إلا أن جوته نفسه الشاعر العظيم المتمكن في لسان قومه والذي ترجم قصيدة إن بالشعب الذي دون سلع التي دار عليها كتاب نمط صعب هو صاحب " ترجمة هابطة من قلة الأحكام إلى حضيض التفكير .. ^(٢) هذه القصيدة ؛ لا لشي إلا لأنه التزم التزاماً شديداً بألفاظ اللغة العربية التزماً برأس من التعاطي مع اللغة الشعرية في هذه القصيدة ، وحينما تتبه جوته إلى (تشعيث الأزمنة ^(٣)) في هذه القصيدة فإنه عند شاكر قد " نفذ بتوره وتوقده إلى عمق لا يأس به من الإحساس بشيء لا عهد له بمثله وحسبه هذا من الفضيلة ... ^(٤) ، إلا أن النفوذ والتقدّم الذي أوصل جوته إلى هذا التشعيث الذي هو حسبه من الفضيلة والنبوغ كونه أعجمياً هو ذاته (خطب عشواء ^(٥)) ، وجوته نفسه صاحب هذا التقدّم والنفوذ وصاحب خطب عشواء التشعيث الزمني ، غريب منه أن هدم فضيلة قبضه على التشعيث التي حسبها له محمود وكفاه بها فضلاً ؛ وذلك أنه قام بإعادة ترتيب القصيدة على الرغم من أنه جعل هذا التشعيث سر روعة القصيدة ، فقد " انزلق إلى التناقض حين اقترح لها ترتيباً ينسف هذا التشعيث الذي فرح به نسفاً ... وهذا غريب جداً من مثله ... ^(٦) إذن هي مجموعة من الأحكام المقابلة المتعلقة بشخصية واحدة ، رابطها الوحيد

(١) نمط صعب ونمط مخيف لمحمود شاكر ص : ٣٥.

(٢) السابق ص : ٢٣٤.

(٣) فسر محمود شاكر تشعيث الأزمنة في القصيدة بقوله : " أعني تشعيث أزمنة الأحداث ، ثم تشعيث أزمنة التغني بالتقديم والتأخير والتفريق والجمع " نمط صعب ص : ٢٤٠ ، والمراد : أن شاكر أراد تبرئة الشاعر من إرادته فصل قصة في هذه القصيدة ، لأن القصة ترتبط بالأحداث الزمنية المتسلسلة ، والقصيدة فيها تشعيث زمني أي ليست متسلسلة زمنياً بما يتواهم مع طبيعة فن القصة.

(٤) نمط صعب ونمط مخيف ص : ٢٤٠.

(٥) السابق ص : ٢٤١.

(٦) السابق ص : ٢٤١.

أنها صادرة عن محمود شاكر الذي لا يرى جوته إلا أعمجياً ، ولا يراه محسناً إلا في نطاق ضيق إلى بعد الحد حينما يتعلق الأمر بالثقافة العربية التي هو دخيل عليها ، أما إذا تعلق الأمر بثقافة جوته العرقية فهو شاعر عظيم في بني قومه ، وينبغي بحسب محمود شاكر ألا ننزعه أمراً يختص بلسان قومه وشعره كما أنه لا ينبغي أن ينزعنا في لساننا وشعرنا ثقافتنا العربية الخالصة ؛ ولذلك يرى شاكر أن الباحث العربي مطالب ألا يسلم عقله للمستشرقين حينما يتناولون الثقافة العربية خصوصاً حتى ولو تناولوها بشكل جيد ومنظم وألا يشقولوا في قدراتهم العلمية من جهة عجمتهم ، وذلك أن الباحثين العرب " أدرى بأساليب هؤلاء الأعاجم الذين اخذوا العربية عملاً من أعمالهم من أن خالفهم في الجيد من مذاهبهم ، فتحرير النص ومراجعته على كل النسخ ... عمل ضروري لكل باحث ، ولكن هؤلاء الأعاجم تعقد بهم سلائقهم عن معرفة أسرار العربية "(١) .

ومع هذه الدعوة الصارخة بعدم الثقة في الناتج العلمي الجيد المنظم من المستشرقين إلا بعد المراجعة والتمحيص ، يشهد محمود شاكر لهم بالأمانة العلمية المشكورة حينما تعقد بالمستشرقين ألسنتهم عن أسرار العربية ، فهم حينما يصلون إلى تلك العقدة ويختلط عليهم الأمر ويعجزون عن بيان اللغة العربية ، " كان من أماناتهم أن يتوقفوا فلا يقطعون برأي في صواب أو خطأ ، وهي أمانة مشكورة لهم "(٢) "

على أن القول بأن ضابط النزعة العرقية يلح إلحاحاً شديداً على شخصية محمود شاكر ، وعلى أن القول بأن رسالته في الطريق إلى ثقافتنا بشكل خاص قد أظهر فيها حنقاً ، وضاق فيها ذرعاً فيها بألاغيب المستشرقين في ثقافته العربية التي تدرب عليها ، فإن ذلك لا يبطل القول بأن شيئاً من دربته قد نالها تأثير من غير الثقافة العربية ، ويتبين ذلك بجلاء في أمرين :

أولهما : تلك العلاقة العلمية بل والاجتماعية الوطيدة التي ربطته بوحد من كبار المستشرقين ، وذلك أن شاكر حينما يبس الشري بينه وبين أستاذيه طه حسين في الجامعة وتقرر للأول منهما ترك الجامعة بل وترك مصر كلها والسفر إلى الحجاز في المملكة العربية السعودية ، زاره بعضُ أساتذته الجامعيين بيريدون منه العدول عن قراره

(١) جمارة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ج ١، ص ١١٩ .

(٢) السابق : ج ١، ص ١١٩ .

المتمثل في ترك الجامعة ، وكان من بينهم أستاذه نلينو^(١) الذي كان حريصاً على أن يواصل محمود شاكر دراسته الجامعية^(٢) ، لا شيء إلا لتلك العلاقة الوطيدة التي كانت تربطهما بعضهما البعض ولا سيما العلاقة العلمية، فقد كان محمود شاكر مهتماً بتدوين محاضرات نلينو التي كان يلقيها في الجامعة عن تاريخ اليمن تحديداً^(٣) ، وبعد أن قام بتلخيص هذه المحاضرات تولى نشرها في مجلة الزهراء^(٤) ، ويرى الدكتور إبراهيم الكوفحي أن سبب توطد العلاقة الاجتماعية بين محمود شاكر وأستاذه المستشرق نلينو كثرة اللقاء ما بينهما بسبب من تمحيص وفحص تلخيصات شاكر لمحاضرات أستاذه نلينو قبل نشرها ، فكان الأخير " حريصاً جداً على تلميذه يدنيه منه ويحوطه برعايته وعنايته حتى إذا ما احتمم الخلاف بينه وبين أستاذه طه حسين كان نلينو في طليعة الساعين للصلح بينهما ومنع محمود من السفر وإقناعه بأن يعود إلى الجامعة ، وإن كانت جهوده ... قد ذهبت أدراج الرياح^(٥) ، وبناء على هذه العلاقة العلمية والاجتماعية يمكن القول بأن شيئاً من درية محمود شاكر العلمية قد صقلت على يد أستاذه نلينو المستشرق الإيطالي ، لا سيما وأن الاتصال العلمي بينهما كان في عنفوان شباب شاكر ، وفي مرحلة دراسته الجامعية التي تُعد بحق المرحلة الأهم في تاريخ محمود شاكر وتنشئته الأدبية ودررته العلمية ، إلا أن هذا الأثر الإيجابي لهذا المستشرق في شخصية محمود شاكر لم يكن قادراً على

(١) مستشرق إيطالي (١٢٨٨ - ١٣٥٧ هـ) غزير العلم بالجغرافية والفلك عند العرب ، كان عارفاً بالإسلام ومذاهبه، كثير التتبع ل بتاريخ اليمن القديم وخطوه ولهجاته ، ودرس العربية في المعهد الشرقي بنايبولي سنة ١٨٩٤ - ١٩٠٢ وذُعي إلى مصر سنة ١٩٠٩ فألقى في جامعتها محاضرات بالعربية جمعت خلاصاتها في كتاب سمى " علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، ودرس " تاريخ اليمن " في كلية الآداب بمصر ، في شتاء أربعة أعوام ١٩٢٧ - ١٩٣١ وكان من أعضاء الجمع العلمي الإيطالي (سنة ١٩٣٢) والمجمع اللغوي بمصر (سنة ١٩٣٣) له كتب وأبحاث كثيرة، بالإيطالية ، ينظر الأعلام خير الدين الزركلي : ط ١٥، عام ٢٠٠٢م، لدار العلم للملايين، ج ٥، ص ٢١٣.

(٢) ينظر لمحمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النبدي لإبراهيم الكوفحي : ص ٥٠.

(٣) نشر محمود شاكر ملخصات نلينو في جزأين : أولها تحت عنوان (رواد اليمن من الأوربيين) مجلة الزهراء ، المجلد ٣: عدد شعبان ، لعام ١٣٤٥ هـ ، ص ٥٠٢-٥٠٩ ، والجزء الثاني بعنوان : المشتغلون بدرس الآثار اليمنية ، مجلة الزهراء ، المجلد ٣: عدد رمضان ، لعام ١٣٤٥ هـ ، ص ٥٦٢-٥٦٨.

(٤) محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النبدي لإبراهيم الكوفحي : ص ٥٢

كبح جماح هجومه على المستشرقين ، ولم يكن شافعاً حتى للبعض منهم من كان لهم الأثر في نفسه شخصياً وفي تكوينه العلمي ، ومع تلك العلاقة الوطيدة التي كانت تربط التلميذ بأستاذه والتي كانت تؤهل أحدهما أن يقترح على الآخر ما يقتربه الصديق الحميم لصديقه ، إلا أن النزعة العرقية وكره المستعمر صفة لازمة في شخصية محمود شاكر لا تنفك عنه ، فقد يكون من المتظر أن يستجيب محمود شاكر لبعض من مطالب أستاذة نلينو واقتراحاته في أوج العلاقة بينهما ، إلا أن شاكر رفض وبصرامة متناهية طلباً لأستاذة وهما في بداية تدوين المحاضرات التي أشرنا لها آنفاً ، فحينما قدم نلينو عرضاً على شاكر بأن يأتي لإيطاليا ليكون أستاذ كرسي الأدب في جامعتها ، وليجد من طلابها وأساتذتها التقدير والاحترام مما لم يجعله في مصر ، حينها نظر إليه التلميذ قائلاً : " أنا لا أدخل بلادكم إلا غازياً^(١)" ، وهذا الرد يعكس الحالة النفسية التي كانت تسسيطر على محمود شاكر تجاه الآخر الغربي ، الذين دخلوا البلاد العربية واستعمروها ثقافياً وعسكرياً ، وهذا ما يفسر لنا بوضوح تلك اللغة العنيفة التي لمح بها بوح رسالته في الطريق إلى ثقافتنا ، وتضمنتها بعض من مؤلفاته الأخرى ، وخلاصة ما يقال في هذا أن دربة محمود شاكر وإن كانت عربية خالصة متغصبة لثقافة لسان قومه وعرقهم وثأرة على المستشرقين ، فإن هذه الدرية لم تخال من التأثير بهم والجنوح إليهم في فترة من الفترات كتأثيره بنلينو ، وأكاد أصل بالشك إلى اليقين أن منهج محمود شاكر الذي كان يعتمد اعتماداً واضحاً على مزيج من المناهج ومن بينها المنهج التاريخي ، كان أساس تنمويته لديه وتدربيه عليه على يد نلينو الذي اهتم شاكر بتدوين ونشر محاضراته عن تاريخ اليمن في أهم مراحل تكوينه العلمي ، ويبدو هذا الأثر واضحاً في أهم كتب محمود شاكر (المتنبي) و (نط صعب ونمط ح EIF) ، فقد كانت المعالجة التاريخية سبيلاً واضحاً فيهما وفجأة قائماً برأسه.

ثانيهما : من أهم المؤثرات على الثقافة عموماً والدرية خصوصاً عند محمود شاكر تمكنه من بعض اللغات الأجنبية ، وإقادمه بناءً على هذا التمكن على ترجمة ما يجيد من هذه اللغات إلى اللغة العربية من جهة ، ومن جهة أخرى كان الإللام عنده بهذه اللغات سبيلاً لإطلاق بعض الأحكام النقدية حينما تطال ألسنة هذه اللغات الثقافة الأدبية العربية ، أما ما يخص الترجمة فقد كان محمود شاكر محباً للغة الإنجليزية منذ صغره ، ومن

(١) ظل النديم لوجдан العلي : ص ٢٠ .

العجب حقاً أن شاكر كان يميل في صغره للغة الإنجليزية وقد فاق اهتمامه بها لغته العربية ، وقد أرجع محمود شاكر نفسه ذلك لنظام التعليم المصري العام الذي كان في عصره ، والذي كان يعتمد إلى إضعاف الطلاب في العربية وتمكنهم من اللغة الإنجليزية ، باعتبارها اللغة العالمية التي تقوم بها الحضارة وتتأسس بها الثقافة العالمية ، ومن الأعجب من ميله للغة الإنجليزية في صغره أن كان ضعيفاً في دراسته الابتدائية في اللغة العربية حتى أخفق بسبب من ذلك في السنة الرابعة ؛ فأعادها فملأ من الدروس المعادة فتوجه بعدها للأزهر ، "فارتد إليه قدر كبير من إحساسه بالعربية وبدأت أنغام الشعر تتردد في جوانحه ولكن التنازع المر بين العربية والإنجليزية ظل قائماً في نفسه ^(١) ، وعلى إثر ذلك وصل إلى المرحلة الثانوية فتمكن من اللغة الإنجليزية تمكننا بلغ حد الإنقاذه قراءة وتحدى وترجمة وكتابة ^(٢) ، فاستطاع بذلك أن يترجم عدداً من الأعمال الأدبية الإنجليزية إلى اللغة العربية ، وقام بنشر تلك الترجمات في مجلة المقتطف ^(٣) ، ومنها :

- قصيدة (صاحب المساحة) لأدونين ماركهام . ^(٤)

- قصيدة (القارئ ينادي شاعره) لريتشارد لاغلين. ^(٥)

- قصيدة (رحمة الله عليها) لأوسكار وايلد. ^(٦)

وقد كانت إجاداته للغة الإنجليزية خصوصاً نقطة تحول هامة لا يمكن إغفالها في الدرية العلمية عنده ، فقد

(١) ينظر في ذلك محمود محمد شاكر الرجل والمنهج لعمر القيام : ص ٣٨-٣٩.

(٢) ذكر ذلك الدكتور إبراهيم الكوفي في نقله عن الدكتور إحسان عباس ، ينظر محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهج النقد لـ إبراهيم الكوفي : ص ٣٤.

(٣) ينظر لـ محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهج النقد لـ إبراهيم الكوفي : ص ٣٤.

(٤) مجلة المقتطف : المجلد ٨٤، عدد إبريل عام ١٩٣٤م، ص ٤٩٤-٤٩٥.

(٥) مجلة المقتطف : المجلد ٨٥، عدد نوفمبر عام ١٩٣٤م، ص ٣٥٥.

(٦) مجلة المقتطف : المجلد ٨٥، عدد ديسمبر عام ١٩٣٤م، ص ٥٠٤.

تمكن منها من الوصول لبعض الحقائق العلمية التي صج بها عصره ، ومن ذلك قضيته الكبرى وهم العظيم (الشعر الجاهلي) وما يتعلق بصحته ، فحينما أثار طه حسين قضية صحة الشعر الجاهلي لم يتعدد محمود شاكر في محاجته واتهامه مباشرة بالسطو المجرد على مقالة مرجليلوث الشهيرة التي شك بها في صحة الشعر الجاهلي^(١) ، بل وصل بمحمود شاكر إتقانه للغة الإنجليزية أن منح نفسه ثقة مقارعة مرجليلوث نفسه أدبيا في الشعر الإنجليزي نفسه وتلعبه بنشأته ، حيث ذكر عبد الرحمن بدوي عن محمود شاكر قوله في مقالة نشرتها مجلة الجمعية الآسيوية الملكية :

" أنا لا شك أعرف من الإنجليزية فوق ما يعرفه هذا الأعجم من العربية أضعافاً مضاعفة ، بل ما فوق ما يمكن أن يعرفه منها إلى أن يبلغ أرذل العمر ، وأستطيع أن أتلعب بنشأة الشعر الإنجليزي منذ سوشر إلى يومنا هذا تلوباً هو أفضل في العقل من كل ما يدخل في طاقته أن يكتبه عن الشعر العربي "^(٢) .

ولم تقتصر معرفة محمود شاكر بمعرفة اللسان الإنجليزي وإتقانه ، بل ذكر محمود شاكر عن نفسه في نمط صعب وغطٍّ مخيف تحديداً أنه كان يعرف اللغة الألمانية عن طريق صديق له سويسري ألماني يدعى روبرت ران ، يقول

(١) ينظر لشيخ العربية وحامل لوائها أبو فهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق لمحمود إبراهيم الرضوانى : ص ١٩ ، وينظر لمحمود محمد شاكر الرجل والمنهج ص ٤٧ ، وينظر محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النقدي لإبراهيم الكوفي : ص ٤٦ ، ويidel احكام محمود شاكر المباشر لأستاذه طه حسين بالسطو على مقالة مرجليلوث وأن كلامه في صحة الشعر الجاهلي لا يعدو إلا أن يكون حاشية لتلك المقالة ، يدل على أن محمود شاكر قد اطلع على هذه المقالة اطلاعا سابقا على الأقل يسبق إدعاء طه حسين ، ومعنى ذلك أن اطلاع شاكر على هذه المقالة قد يكون في مرحلة دراسته الجامعية ، والقول بأن محمود شاكر قد اطلع عليها بعد تركه الجامعة وهجرته للملكة العربية السعودية قول يتنافي مع الواقع الذي أنكر به شاكر على أستاذه ما أنكر ، وقد وجدت في دراسة (محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق لمحمود إبراهيم الرضوانى) مانصه عن محمود شاكر (ص ٢١) : "... وكان يتعدد على دار المطبعة السلفية ، وهناك تعرف بالأستاذ أحمد تيمور شاكر باشا ، وتكررت جلساتهما هناك ، وعن طريقه قرأ مقالة مرجليلوث عن الشعر الجاهلي " .

(٢) ينظر دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي لعبد الرحمن بدوي باب (نشأة الشعر العربي) ، ، ط ٢، عام ١٩٨٦ م ، لدار العلم للملايين ، ص ٨٧ وما بعدها.

محمود شاكر في ذلك :

"وقد كان من سوالف الأقضية ، أن سولت نفسي وأنا في صدر شبابي أن أتعلم الألمانية من صديق سويسري ألماني أعلمه العربية هو الدكتور (روبرت ران) ، فلما مضى دهر أعلمه ويلمني أهداني الديوان الشرقي وزين لي أن نقرأ معاً ، فكان مما قرأناه معاً هذه القصيدة العربية التي ترجمها جوته إلى الألمانية ، وعلمت يومئذ أن جوته لم يزد على أن ترجم ولم يأت فيها بجديد وأنه وقع في أخطاء"^(١) .

وهذا الكلام يعكس مدى الفائدة التي تحققت لمحود شاكر بمعرفة اللغة الألمانية وأثرها الوافر الجم على دربه ومعرفته ، والحق أن العصر الذي عاش فيه محمود شاكر كان ملحاً عليه أن يجيد بعضها من اللغات الأجنبية ، لاسيما تلك التي لامست مشروعه النبدي والعلمي في الشعر الجاهلي ، فقد ضج عصره بالعديد من القضايا التي أثارها علماء الغرب في الأدب العربي ، بل تجاوزت القضايا إلى المناهج العلمية الحديثة التي ينبغي أن يدرس بواسطتها الأدب العربي ، والتي تخوض عنها العديد والعديد من المعارك النقدية والأدبية التي أقامها شاكر مع العديد من رموز الأدب العربي في عصره ، ومن المعقول جداً أن تتسبب عولمة الأدب في الرغبة إلى تعلم اللغات الأخرى سواءً كان ذلك التعلم منهجاً أو ذاتياً بدائياً ، وقد كانت معرفة محمود شاكر باللغتين الإنجليزية والألمانية تحديداً من حسن الطالع والحظ الباسم ، فقد أسهمت معرفته بهما في تكوين رأيه النقدية الخاصة به تجاه القضايا التي أثارها علماء من يتكلمون بتلك اللغات ، فتسبيبت تلك المعرفة بزيادة قدراته الإبداعية النقدية ، وأتاحت له الفرصة لمقابلة بعض المستشرين والاستفادة من خبراتهم كما سبق ذكره آنفاً ، كما أن تلك المعرفة فتحت له آفاقاً جديدة في صناعة منهجه النبدي الخاص به ، وزادت فرصه للظهور بشخصية نقدية ذات طابع مميز وفريد ، ويمكن الاطمئنان إلى القول بأن معرفة محمود شاكر بالترجمة وحبه للرياضيات منذ صغره قد ساعده وبشكل فاعل في تمييز وتكوينه العلمي والمنهجي ، وأنهما العلامتان الفارقتان في تعاطي محمود شاكر مع القضايا النقدية والأدبية التي أثيرة في عصره ، إلا أن هناك ما يجدر التنبيه إليه في مجال سعة علم محمود باللغتين الإنجليزية والألمانية ، وهو أنه مع هذا الإتقان لا نكاد نرى تحبيراً له في كتبه ومؤلفاته بحروف هذه اللغات حتى على مستوى المصطلحات بل وعلى مستوى الأعلام ، فمتى ما أراد منه السياق التصريح باسم

(١) نمط صعب ونمط مخيف لمحود شاكر ص : ٣٥ .

عالم من علماء الغرب تجده يكتب اسمه بالحروف العربية ، ويأتي هذا في إطار التزعة العرقية والتعصب للهوية العربية التي تكاد تكون طابعاً مميزاً لشخصيته ، ولم يقف الأمر على ذلك فحسب بل تجاوزه إلى عدم تحديه باللغات الأخرى اعتزازاً بالعربية ، ومن طريف ذلك أنه سافر إلى بريطانيا ترافقه ابنته زلفى وهو كبير في سنه ، فتحدث إليه طبيب بالإنجليزية وشاكر يتقن أن يتحدث بالإنجليزية كأهلها ، ومع ذلك فقد جعل بينه وبين ذلك الطبيب مترجماً يترجم عن شاكر حديثه بالعربية إلى الطبيب ، فقد استمسك بلسانه العربي مع قدرته وحاجته للتalking مع ذلك الطبيب ، ولم يكن ذلك منه إلا اعتزازاً بلغته العربية ، وتعصباً لهويته الثقافية والعرقية^(١).

ضوابط الدرية عند محمود شاكر : ثالثاً : الضابط المنهجي :

حينما تعرض محمود شاكر لمحنة صحة الشعر الجاهلي ورمي بها من أستاذوه طه حسين في مقتل فكري ، حمل نفسه إلى رحلة ثقافية بعيدة المدى ، منشئها تطبيق منهج التذوق الذي اختطه لنفسه منهجاً ليطبقه على كل كلام ، فوصف نفسه عند تأهبه لهذه الرحلة العلمية بقوله : " فأقدمت ... على قراءة كل ما يقع تحت يدي من كتب أسلافنا : من تفسير لكتاب الله إلى علوم القرآن على اختلافها إلى دواوين الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل إلى كتب ... الفقه إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين ... وكتب الملل والنحل ثم كتب الأدب وكتب البلاغة وكتب النحو وكتب اللغة وكتب التاريخ وما شئت بعد ذلك من أبواب العلم ... كل أثر آبائي وأجدادي كنت أقرؤه على أنه إبانة منهم عن خبايا أنفسهم بلغتهم ، على اختلاف أنظارهم وأفكارهم ومناهجهم ، وشيئاً فشيئاً انفتح لي الباب على مصراعيه فرأيت عجباً من العجب " ^(٢) ، وبهمنا من ذلك تحديداً اطلاعه على دواوين الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل المتعلقة بالحديث النبوى ، فعلماء المسلمين في روایتهم للسنة النبوية قد اصطمعوا لها القوائم وابتکروا السند والإسناد وهي أمور ظهرت أهميتها بين أمم الدنيا كأشياء لها قيمة في تأسيس قواعد المنهج .. ^(٣) ، وعلماً مصطلح الحديث والجرح والتعديل لها

(١) ظل النديم لوجдан العلي ، ص ٢٨.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحود شاكر : ص ٨-٧

(٣) دقة المحدثين في نقل السنة وتدوينها ونشأة علمي مصطلح الحديث والجرح والتعديل ، للدكتور : عمر محمد عبد الرحمن ، ط ١، عام ١٤١٩ هـ ، لدار المعرفة ، ص ٣٦.

علاقة قوية ووسائل لا تخطئها العين مع الأدب العربي تحديداً ، وقد وجد محمود شاكر شيئاً من ضالته المنهجية في هذين العلمين فطبق يطبق مفاصيلها في دراساته وقراءاته وتعليقاته على كتب التراث العربي ، ولاغر أن يكون تأثير هذين العلمين كبيرين على دربة شاكر وثقافته حتى تكوين منهجه الخاص ولعل ذلك يتلخص في ثلاثة أسباب :

أولاً : فساد الحياة الأدبية في نظر محمود شاكر يتعلق عنده كثيراً بالمنهجية العلمية التي تتناسب مع طبيعة الموضوع وطبيعة الجنس العلمي ، فمنشأ فساد الحياة الأدبية في نظره كان ناجماً عن عدم تلاؤم المنهج مع المادة العلمية ؛ ولذلك أصابته عقدة نفسية من الكلمة منهجه لم يترجح من التصريح بها والإبانة عن مردودها النفسي عليه^(١) ، ومن الطبيعي أن يتأثر الإنسان بما يعقب صدمته النفسية بشكل مباشر ، ولم يعقب صدمة محمود شاكر من المنهج الذي قوض معنى الجامعة في نفسه بل والحياة الأدبية كلها ، إلا عزمه على تذوق كل كلام حتى لو لم يكن شعراً ، فألزم نفسه بالاطلاع على كل ما بين يديه من كتب التراث العربي ، ومن بين تلك الكتب ما يختص بمن الدين الجليلين ، فكان تأثره الشديد بهما .

ثانياً : أن القضية التي كانت ترقى محمود شاكر والتي لم تفارقه في مشروعه العلمي قضية صحة الشعر الجاهلي ، التي كانت تتعلق كثيراً بالرواة ما بين النحل والانتحال أو حتى المصنوع من الشعر ، وكان من المنهجية التي ينبغي أن تراعي في بحث هذه القضية التركيز على الراوي والرواية ، وهذا بالضبط ما تنص عليه مفاصيل علوم مصطلح الحديث وعلمي الجرح والتعديل ؛ إذ إن علم مصطلح الحديث ببساطة " علم يعرف به حال الراوي والمرأوي من حيث القبول والرد^(٢) ، أما علم الجرح والتعديل فالجرح في اصطلاح علماء الحديث هو " رد الحافظ المتقن روایة الراوی لعلة قادحة فيه أو في روایته من فسق أو تدليس أو كذب أو شذوذ أو نحوها . " والتعديل هو : " وصف الراوی بما يقتضي قبول روایته^(٣) ، فهما علمان يتعلقان وبشكل مباشر بذات القضية

(١) ينظر في ذلك إلى رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحود شاكر ص: ٦-٨ ، وينظر أباطيل وأسمار لمحود شاكر ص:

.٢٤-١٨

(٢) مصطلح الحديث للشيخ محمد بن صالح العثيمين ط١ ، عام ١٤١٥ ، مكتبة العلم بالقاهرة ، ص: ٥ .

(٣) علم الجرح والتعديل لعبد المنعم السيد نجم ، ط١ ، عام ١٤٠٠ هـ ، للجامعة الإسلامية بالمدينة ، ص ٥٤ و ٥٥ .

التي كانت تشغل محمود شاكر في صحة الشعر الجاهلي من ناحية الرواية والرواية ، وهي ذات القضية التي لا بد وأن يتخد لها ذات المنهج المتعلق بالرواية .

ثالثا : توظيف أدوات هذين العلمين تحديداً يتواهم مع أصول المنهج الذي ارتضاه محمود شاكر لنفسه، فرأس المنهج وأساسه القويم هو ما سماه بـ (الأصل الأخلاقي) ^(١) ، وقد فسر هذا الأصل بالدين "رأس كل ثقافة هو الدين بمعناه العام والذي هو فطرة الإنسان ، - أيَّ دين كان – أو ما كان في معنى الدين ، وبقدر شمول هذا الدين ما يكبح جموح النفس الإنسانية ويجزها عن أن تزيغ عن الفطرة السوية العادلة " ^(٢) ، فطالما كان هذا المنهج مرتضى ومجازاً دينياً ولا يقبح في الأصل الأخلاقي ويفضي إلى المعرفة فهو منهج مباح ومنهج يحتاج إليه الباحث ، كاحتياجه للوصول إلى الحقيقة العلمية ، فالباحث عن الرواية ورد روایتهم وجراهم وتعديلهم لا يعد من باب الغيبة والإساءة لهم ، بل يعمد إلى إزالة اللبس واصطفاء المنهجية الصحيحة التي تؤكد نسبة الرواية وصحتها ، ومحمد شاكر وإن أدخل منهجية هذين العلمين في منهجه الخاص به بطريقة لا تستفهم على من يزيد تلمس مواطنها ، إلا أنه قد أظهر ذلك في جهوده العلمية الكبيرة في تحقيق كتب التراث العربي وقراءاته وتعليقاته عليها ، وأخص منها طبقات فحول الشعراء وجمهرة نسب قريش وأخبارها ، فقد عني محمود شاكر في هذين المؤلفين خصيصاً باضطراب الأخبار والروايات ونسبة الأبيات الشعرية والروايات الأدبية الأخرى .

ولتحقيق ذلك كله كان محمود شاكر يلجأ إلى منهج علماء مصطلح الحديث والجرح والتعديل ، فكان ينظر في سند الخبر ويوازن بين الأخبار ويرجع كثيراً للمصادر التاريخية المختلفة في الخبر الواحد ، وهو في ذلك كله لا يستغني عن العودة إلى دواوين الشعراء كمادة رئيسة ، كما أنه يحيط الرواية بشيء من الجوانب الاجتماعية واللغوية التي تتحقق الصحة أو تنفيها ، ويزيد على ذلك في نظرته للمادة المروية نفسها، فلا يجد بأساس من رد الرواية أو تصحيح كلمة فيها لتفق مع تلك الجوانب الآنف ذكرها ، حتى تكتمل معها منظومة صحة الرواية وقبوها على الوجه اللائق الذي تطمئن إليه نفسه، بحسب معطيات منهجه التذوقى الخاص

(١) ينظر لرسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحود شاكر : ص ٣١ .

(٢) السابق ص: ٣١.

به^(١) ، وبحدر الإشارة هنا إلى أن محمود شاكر عند تطبيقه لهذا المنهج لا يهتم كثيراً لقواعد التحقيق العلمي ، وهو الأمر الذي أثار عليه انتقادات من البعض كعلي جواد الطاهر، ومنير سلطان، والسيد أحمد صقر، مما اضطر محمود شاكر لتأليف (برنامج طبقات فحول الشعراء) ، الذي فند فيه آراء هؤلاء وغيرهم وقام بالرد على دعاوام ، وحينما أحس محمود شاكر بأن منهجه لا ينطابق كثيراً مع قواعد المنهج العلمي للتحقيق تراءى له أن يستبعد الكلمة تحقيق من بعض كتبه التي حققتها واستبدلها بـ (قرأه وعلق عليه) ليخرج من رقة المنهجية العلمية للتحقيق ولبيح لنفسه منهجاً خاصاً في التحقيق ر بما يفضي به إلى الجرأة المطلقة على المتن ، فلا يتعدد في تغيير بعض كلمات النصوص متى ما تراءى له أنها لا تتفق مع المحيط اللغوي أو الاجتماعي أو حتى التاريخي^(٢) ، واضطلاع محمود شاكر على هذا النحو من منهجية العلوم كان له كبير الأثر في دريته وطريقة تعاطيه مع المنهج العلمي الخاص به ، ويكتفي أن يشار إلى تأثر محمود شاكر في كتبه المحققة بعلمي مصطلح

(١) سيأتي تبيان ذلك بمшиئة الله في الفصل الرابع من هذه الدراسة (الموقف الاستنباطي ، القبول الاعتراف النقض) .

(٢) وسيأتي بيان ذلك أيضاً بمшиئة الله في الفصل الرابع من هذه الدراسة (الموقف الاستنباطي ، القبول الاعتراف النقض) ومثال ذلك ما قام به في طبقات فحول الشعراء من تغيير كلمة ابن الزبوري ؛ لأنها لا تلتقي مع بعض المعطيات التاريخية ، وهو قوله في وصف قتلى معركة أحد :

فقتلنا النصف من سادتهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وقد ورد هذا البيت في (شعر عبد الله بن الزبوري) تحقيق الدكتور جي الحبورى ص ٤٢ ، الطبعة الثانية عام ١٩٨١ م مؤسسة الرسالة بيروت ، تبعاً لرواية ابن سلام بـ (قتلنا) وليس بـ (قتلنا) ، أما محمود شاكر فقد بدل الكلمة قتلنا بقتلنا وعلق على ذلك بقوله في طبقات فحول الشعراء ج ١ : ص ٢٣٩ . : "(قتلنا) وأثبت ما في (م) مضبوطة ، وهذا أيضاً بيت تكثّر روايته في سائر الكتب (قتلنا النصف) أو (قتلنا الضعف) وهو خطأ كلّه ، فإن المشركين لم يقتلوا يوم أحد نصف المقاتلة ، فإن من شهد القتال من المسلمين في يوم أحد سبعمائة قتل منهم أربعة وسبعون من الشهداء ، ولا قتلوا ضعف ما قتل المسلمون يوم بدر من المشركين فإن عدّة قتلى بدر من المشركين سبعون وإنما أراد ابن الزبوري أنهم قتلوا من المؤمنين في أحد مثل الذي قتله المسلمين منهم يوم بدر ، فانتصروا منهم أي أخذوا حقهم كاملاً حتى صاروا على النصف سواء ... رواية ابن سلام في الطبقات هي أحق الروايات بالصواب ، وأما الروايات الأخرى فهي خطأ قديم كالخطأ في رواية البيت السابق ..".

ال الحديث والجرح والتعديل أن يشار إلى ما أورده في مقدمة كتاب طبقات فحول الشعراء من حديث يتعلق بإسناد الرواية ، حيث خصص فصلاً بأكمله درس فيه إسناد الكتاب في المخطوطين اللتين اعتمد عليهما في التحقيق ، ثم الفصل الذي عقده أيضاً المأذوذ من نسخة أبي الفرج الأصفهاني من كتاب الطبقات وجُمِعَتْ أسانيد أبي الفرج إلى ابن سالم ومقابلته بينهما من ناحية الرواية وأحوال الرواية والأخبار^(١) ، والعمل على نحو ذلك في أسانيد الرواية والرواية لا ينفي أنه من عمل أهل الحديث في أسانيد متون السنة النبوية المطهرة .

وخلالصة ما يقال في الدرية عند محمود شاكر أنها ركناً أساساً من مصادر المعرفة التي اشترطها كبار أهل العلم لكل ناقد ، فالشعر عند ابن سالم " صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات : منها ما تشققه العين ، ومنها ما تشققه الأذن ، ومنها ما تشققه اليد ، ومنها ما يشققه اللسان^(٢)" فالدرية والممارسة والخبرة هي الصناعة النقدية للشعر العربي والتي لا بد من توافرها في أهله وخاصته ، والدرية هي تلك القدرة غير المحسوسة التي تستكن في عقل النقد وفطرته الذوقية والتي تكتسب بإطالة النظر في المادة المراد نقدها وتتحيصها من كل جانب ، ولا يملك منازعة صاحب الدرية إلا من ملك درية تقارع الأخرى ونطوارحها يقول الآمدي في ذلك : " فمن سبيل من عرف بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له أن يقضى له بالعلم بالشعر والمعرفة بأغراضه ، وأن يسلم له الحكم فيه ، ويقبل منه ما يقوله ، ويعمل على ما يمثله ، ولا ينزع في شيء من ذلك ؛ إذ كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صناعة صناعتهم ، ولا يخاصمهم فيها ، ولا ينزع عنهم إلا من كان مثلهم نظراً في الخبرة وطول الدرية والملابسة...^(٣) ، " فمن هذه الدرية يتكون ذوق الناقد ، ومنها يستدل على ما جرت به العادة^(٤) ، وقد كان محمود شاكر في غالب الأمر من يجمع كثيراً من ذلك .

(١) ينظر في ذلك لمقدمة طبقات فحول الشعراء لـ محمود شاكر : ص ٤٧ وما بعدها.

(٢) طبقات فحول الشعراء لـ ابن سالم الجمحى: ص ٥.

(٣) الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي تحقيق السيد أحمد صقر : ج ١، ص ٤١٤ .

(٤) تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ط٤، عام ١٩٨٢ م ، دار الثقافة بيروت، ص :

المبحث الثاني : اللغة والاستعداد الذاتي

من أهم المصادر المعرفية عند محمود شاكر تمكنه العجيب من اللغة العربية وحبه الشديد لها والتعصب لهويتها التي تمثل هوية العربي المعتر بأساليبه ، وقد تزامن تمكنه منها وتعصبه لها مع تلك الدعوات التي انتشرت في عصره كالدعوة إلى العامية واستهجان اللغة العربية الفصيحة ، والدعوة إلى إلغاء الإعراب جملة وتفصيلا ، والدعوة العجيبة أيضا إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، وكل هذه الدعوات المدama اصطدمت مع تمكن شاكر وحبه للغته العربية ، الأمر الذي دفعه للنهوض بوجه هذه الدعوات من ناحية ، وكذلك تسببت من ناحية أخرى في أن زادت في نفسه حب لغته بعد أن حاول في كشف معلم خصوصيتها وجمالها مما يعلمه هو علم اليقين وما هو مستقر في نفسه ، وما اضطره إليه من الاطلاع والتلوّن في الكشف والإبانة عن ذلك ، فقامت قيمته من أجل ذلك مع المبشرين ولويس عوض وأحمد لطفي السيد وتوفيق الحكيم وجمهور من الكتاب والأدباء الذين أيقضوا همهم لإذكاء هذه الدعوات المضللة ^(١) ، وقد كان للأثر الذي خلفه في نفسه بعض آسائاته سبب في خوضه إلى هذه الدعوات والوقوف ضدها موقفاً قوياً وجاححاً ، وقد لاحظ ذلك شوقي ضيف بينما وضع جهود محمود شاكر إزاء هذه الدعوات موضع المتابعة والاحتذاء وحمل لواء المحافظة والدفاع المستميت عن المثل العربية والإسلامية ^(٢)، شأنه في ذلك شأن شيخيه سيد المرصفي ومصطفى صادق الرافعي، ولإنعام النظر في تنصيب محمود شاكر نفسه حمل لواء المحافظة على العربية ، فإنه ينبغي العلم بأن شاكر لم يكتف بردوده على من أثاروا تلك الدعوات ، بل تجاوز ذلك إلى مراقبة محمومة لما يكتب وما يقال في هذه القضايا سلباً وإيجاباً ، ومن ذلك ثناؤه العاطر على بعض الآراء التي عضدت رأيه ، وحملت معه هم لواء المحافظة والأصالة ، ومن ذلك ثناؤه على كتاب (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر) للدكتورة نفوسية ذكري ، إذ رأه "كتاباً صالحًا لكل مثقف ، يجد فيه مادة صحيحة لتأريخ معركة قاسية ..." ^(٣).

(١) ينظر في ذلك لأباضيل وأسمار لـمحمود شاكر : ص (٢٦٦-٢٦٣) (١٨٨-١٨٤) (١٧٠-١٥٧) (٣٦٧-٣٥٩) وينظر كذلك جمّة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ج ١، ص : ٢٥٨-٢٦٣.

(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور شوقي ضيف : ص ٢٤٤ .

(٣) أباضيل وأسمار لـمحمود شاكر ص : ١٢٥ .

والحق أن التمكّن من اللغة سمة ظاهرة لا تكاد تنفك عن محمود شاكر في مؤلفاته وقراءاته وتعليقاته على كتب التراث ، وقد لاحظ بعض الباحثين تفشي هذه الظاهرة في أعمال شاكر فقاموا بدراساتها وجمع ما تفرق منها في كتبه ، ويمكن أن يميز التمكّن اللغوي عند محمود شاكر داخل ثلاثة دوائر عريضة هي : التمكّن من الدلالة المعجمية وتطبيعها بحسب ما يقتضيه المعنى ، والتمكّن من الدلالة الإعرابية وتوظيفها بما يتلاءم مع السياق ، والاهتمام بالجانب الموسيقي والصوتي .

أولاً : تأويل الدلالة المعجمية عند محمود شاكر:

لعل الاستعداد الذاتي الذي توفر لمحود شاكر منذ صغره كان له كبير الأثر في التمكّن من الدلالة المعجمية ، فمما عرف عن والد محمود شاكر حرصه على التنشئة اللغوية العربية السليمة ليس لأنباءه فحسب ، بل لأنباء معهد الاسكندرية حينما تم تعيينه شيخاً له ، حيث تقرر له أن تكون هدايا الطلبة الناجحين كتب الأدب واللغة ، وهو ما يفسر الاستعداد الذاتي لحب اللغة والتمرس عليها لمحود شاكر منذ مراحل حياته الأولى^(١)؛ وهو أيضاً ما يفسر اهتمام محمود شاكر بالهدية النفيسة التي حصل عليها من أحد أبناء خاله المتمثلة في ديوان المتنبي بشرح الشيخ اليازجي ، إذ كان فيما يقول محمود شاكر عنه مشكولاً جيد الورق ، "فلم أكد أظفر به حتى جعلته وردي في ليلي ونحاري حتى حفظه يومئذ ..." ^(٢) ، ويمكن القول أيضاً بالأثر الكبير الذي خلفه ذلك على تمكّن محمود شاكر اللغوي ، فشرح اليازجي لديوان المتنبي كان يعني بالنسبة اللغوية كبير العناية والاهتمام ، وناصيف اليازجي^(٣) نفسه محسوب على أهلة اللغة كأهل الأدب .

(١) محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النقدي لإبراهيم الكوفحي : ص ٢٣.

(٢) أباطيل وسمار محمود شاكر ص : ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٣) ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط، (١٢١٤ - ١٢٨٧ هـ = ١٨٠٠ - ١٨٧١ م) الشهير باليازجي ، شاعر من كبار الأدباء في عصره ، أصله من حمص (بسورية) ومولده في (كفرشيم) لبنان ، ووفاته بيروت ، استخدمه الأمير بشير الشه أبي في أعماله الكتابية نحو ١٢ سنة، انقطع بعدها للتأليف والتدرис في بعض مدارس بيروت ، وتوفي بها ، له كتب ، منها (جمع البحرين) مقامات و (فصل الخطاب) في قواعد اللغة العربية ، و (الجوهر الفرد) في فن الصرف ، و (نار القرى في شرح جوف الفرا) في النحو ، و (مختارات اللغة) بخطه ، ينظر الأعلام للزركلي : ج ٧، ص ٣٥٠ .

ومن الممكن أن يقال إن التعاطي مع المعجم اللغوي عند محمود شاكر له طريقة خاصة تكاد تميزه عن غيره من النقاد ، فإذا كان الكثير من النقاد يعتبر كتب معاجم اللغة مرجعاً عند استعجمان اللفظ واستبهام دلالته مع السياق ، فإن محمود شاكر يرفض الوثوق بكتب معاجم اللغة والجروح إليها كمحكم رئيس في الدلالة ، ومحاكمة ألفاظ النص على أساس من الدلالة المعجمية فيه وأد للغة الشعرية ومصادرة هويتها الجمالية ، ولم يتعدد محمود شاكر في التصريح بمخالفته كل من تعامل مع النص الشعري على أنه وثيقة لغوية ، حتى وإن اضطرب ذلك إلى الاختلاف مع الشرح القدامي وعلماء التراث ، وقد اختصر محمود شاكر منهجه في التعاطي مع المعجم اللغوي في كتابه نمط صعب ونمط مخيف ، بقوله مبيناً موقفه من الاختلاف مع كبار أهل العلم الذين شرحوا قصيدة (إن بالشعب الذي دون سلع) : " ومخالفتي في ذلك عما قاله بعض شراح القصيدة من النقاد الأوائل ، ثم عدولني عن شروحهم اللغوية المجردة لبعض ألفاظها ، ورأيت أننا إذا وقفنا عندها دفنا الشعر في تابوت من اللغة ^(١)" ، ويلاحظ عند محمود شاكر في تعامله مع معاجم اللغة ملاحظات تستدعى الانتباه :

أوها : أنه يعيّب على معاجم اللغة عدم نصها على بعض معاني المفردات مما استبّطه هو من معاني لتلك المفردات من غير المعجم اللغوية ، وله في ذلك العديد من الأمثلة والنماذج وخاصة في تحقيق تفسير الطبرى، وللمود شاكر في ذلك أمثلة مشرقة فيه تتبع عالي الدقة لمعاني كلمة آية في لغة العرب وتتبع دلالاتها بما يتوااءم مع ما نصت عليه كتب اللغة وما لم تنص عليه ، فجعل من معانيها الرسالة وحكم بأن استعمال الآية بمعنى الرسالة مستفيض في شعر العرب وكلامهم وقد أغفلته كتب اللغة بحسب رأيه ، واستدل بقول الشاعر:

مَنْ مُبْلِغٌ عَمَرَوْ بْنَ هِنْدٍ آيَةً
وَمِنَ النَّصِيحَةِ كَثُرَةُ الْإِنْدَارِ ^(٢)

يقول محمود شاكر : " أي من يبلغه رسالة مني ، في شعر كثير مثله ، ويفسر قدماء شراح الشعر الآية في مثل هذا الشعر بأنها العلامة وهو تفسير لا يليق ..." ^(٣) ، وقد أوردت الباحثة حسان أحمد قربان عدداً من النماذج

(١) نمط صعب ونمط مخيف لـ محمود شاكر ص : ٣-٢.

(٢) البيت للنابغة الذبياني ينظر لديوانه شرح حمدو طقاس ، ط٢ ، عام ١٤٢٦هـ ، دار المعرفة بيروت ، ص ٦٧ .

(٣) مداخل إعجاز القرآن لـ محمود شاكر ، ط١ ، عام ٢٠٠٢م ، دار المدى ، ص ١٣٠ .

المستفادة التي تمثل عدم نص معاجم اللغة على مرادفات لبعض الكلمات عند الأستاذ محمود شاكر^(١).

ثانيها : استخدام محمود شاكر كثيراً للقياس والاجتهاد في تفسير بعض معاني المفردات ، سواء كان ذلك القياس والاجتهاد ناجماً من قدراته اللغوية الذاتية ، أو كان شاكر فيه موافقاً لاجتهادات وقع عليها اطلاعه البعض العلماء والمفسرين والشراح ، أما القياس والاجتهاد الذاتي فأمثلته أكثر من أن تعد ، وقد ألف الأستاذ منذر محمد أبو شعر معجماً خاصاً لمحود شاكر^(٢)، حصر فيه كثيراً من تلك الاجتهادات ، وقد كان هذا النوع لا يعترضه كثيراً إلا حينما يواجه الكلمة المراده في النص ويمارس عليه تفسيره أو نقاده أو تحليله ، ويجهد اجتهاداً كبيراً في إصابة المعنى المراد من السياق مما لم تنص عليه معاجم اللغة العربية ، ومن أمثلة ذلك كلمة (السرار) بكسر السين وفتحها ، وذلك في تفسير ابن جرير الطبرى لقوله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَنْقِرُوا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَاءٍ حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهَنَّدُونَ^(٣) حيث قال ابن جرير^(٤) : " وقال: فأنقذكم منها ، يعني فأنقذكم من الحفرة، فرد الخبر إلى الحفرة ، وقد ابتدأ الخبر عن الشفا ؛ لأن الشفا من الحفرة ، فجاز ذلك ، إذ كان الخبر عن الشفا على السبيل التي ذكرها في هذه الآية خبرا عن الحفرة كما قال جرير بن عطية:

كَمَا أَحَدَ السَّرَّارُ مِنَ الْهِلَالِ^(٥)

رَأَتْ مَرَّ السَّيِّنَ أَحَدْنَ مِيِّ

وقد علق محمود شاكر على بيت ابن جرير الطبرى بقوله : "والسرار (بكسر السين وفتحها) : آخر ليلة من

(١) آراء محمود شاكر وجهوده اللغوية لحسن بنت أحمد قربان رسالة علمية نمت مناقشتها في جامعة أم القرى الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي ١٤٢٩ - ١٤٣٠ هـ تحت إشراف الدكتور عليان بن محمد الحازمي ، ص ٤٦ .

(٢) معجم محمود محمد شاكر إعداد منذر محمد أبو شعر ، ط ٢ ، عام ١٤٢٨ هـ ، للمكتب الإسلامي بعمان .

(٣) سورة آل عمران الآية الكريمة رقم ١٠٣ .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن للطبرى ، ج ٧ ، ص ٨٦

(٥) ديوان جرير ، شرح حمدو طماس ط ٢ ، عام ١٤٢٦ هـ ، لدار المعرفة بيروت ، ص ٣١٢ .

الشهر، ليلة يستسر القمر أي يختفي، وأراد جرير بالسراير في هذا البيت: نقصان القمر حتى يبلغ آخر ما يكون هلالاً، حتى يخفي في آخر ليلة، فهذا النقصان هو الذي يأخذ منه ليلة بعد ليلة، أما "السراير" الذي شرحه أصحاب اللغة، فهو ليلة اختفاء القمر، وذلك لا يتفق في معنى هذا البيت^(١) ، وقد وجدت في معجم الصاحح ما نصه : " والعرب تسمى أول المحقق: الدَّعْجَاء، وهي ليلة ثَمَانٍ وعشرين، والثانية السرار، والثالثة الغلطة ، وهي ليلة الثلَاثِينَ^(٢)" ووجده يقول بعد ذلك : " وسرر الشهر بالتحريك: آخر ليلة منه، وكذلك سرارةُ وسرارهُ . وهو مُشتقٌ من قولهم: استَسَرَ الْقَمَر، أي حَفَيَ ليلة السرار، فِيمَا كَانَ لِيَلَةً وَرِبْما كَانَ لِيَلَتَيْنِ "^(٣)، ويقول ابن منظور في معنى السرار : " وَالْعَرَبُ تُسَمِّي أَوَّلَ الْمَحَاقِ الدَّعْجَاء، وَهِيَ لَيْلَةُ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ، والثانية السرار، والثالثة الغلطة، وهي لَيْلَةُ الثَّلَاثِينَ . وَشَفَّةُ دَعْجَاء، وَلَيْلَةُ دَعْجَاء؛ وَالدَّعْجَاء: لَيْلَةُ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ."^(٤) وفي تاج العروس : " وَبَلَغْنَا دَعْجَاءَ الشَّهْرِ وَهُمَاءُ، الدَّعْجَاءُ (أَوَّلُ الْمَحَاقِ، وَهِيَ لَيْلَةُ ثَمَانِيَّةٍ وَعِشْرِينَ) ، والثانية السرار، والثالثة الغلطة، وهي ليلة الثلَاثِينَ^(٥) "

ومن ذلك يعلم أن بعضًا من كتب معاجم اللغة قد جعل السرار بما أراده محمود شاكر نقصان القمر حتى يبلغ آخر ما يكون هلالاً، حتى يخفي في آخر ليلة، وهو يكون عادة في الثامن والعشرين من كل شهر تام ، وهذا يعني أن بعضًا من معاجم اللغة قد أتى على غایة شاكر ومراده .

ثالثها : أن قناعة محمود شاكر لا تكاد تفارق في أن معاجم اللغة قد أخلت بعض المعاني ، وقد ذكر عبارة (لا تصيب مثلها في معاجم اللغة) مراراً وتكراراً وخصوصا في تحقيقه النفيس لكتاب جامع البيان تفسير الإمام

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبراني ، حاشية رقم ١، ج ٧، ص ٨٦.

(٢) الصاحح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ط٤ ، عام ١٤٠٧هـ، لدار العلم للملايين بيروت ، ج ١، ص ٣١٥.

(٣) السابق ج ٢، ص : ٦٨٢.

(٤) لسان العرب لابن منظور ج ٢، ص ٢٧٢.

(٥) تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الرَّبِيدِي ، لمجموعة من الحفظين ، ط١ ، عام ١٨٨٩ م ، لدار المداية ، ج ٥، ص ٥٦٧.

الطبرى أو نحوً من هذه العبارة^(١)، وقد تسببت هذه القناعة لديه في إطلاقه أحکاماً على معاجم اللغة ليست دقيقة كدقة محمود شاكر في أحکامه النقدية والأدبية واللغوية بشكل عام ، فقد يتسبب إرادته لمعنى مفردة في النص لا تتوافق مع ما نصت عليه معاجم اللغة في اهام تلك المعاجم بأنها لم تستوعب كل المعانى التي قد تعترض مفردات العربية ، ومثال ذلك تفسيره للكمح بأثر كمح الفرس باللجماء أي رده وجذبه باللجماء لكي يقف ، فيترك ذلك أثرا حيث موقع اللجماء من الفرس ، وقد أورد ذلك في قول أعشى بن ثعلبة^(٢) :

وَلَقَدْ أَمْنَحَ مَنْ عَادِيَتْهُ
كُلَّ مَا يَجْسِمُ مِنْ ذَاءِ الْكَشْعَ
وَقَطَعْتُ نَاظِرِيهِ ظَاهِرًا
لَا يَكُونُ مِثْلَ لَطْمٍ وَكَمْحٍ

يقول شاكر في تفسيره للكمح : "وقوله: ظاهراً صفة محنوف، أي كياً ظاهر الأثر، ليس أثره كأثر اللطم أو الكمح ، والكمح (بفتحتين) : هو أثر كمح الفرس باللجماء، أي رده وجذبه باللجماء ليقف، فيترك ذلك أثرا حيث موقع اللجماء، وهو حرف لم تذكره كتب اللغة ، وشرحته من سياق معنى الشعر، يقول: أثر اللطم غير بين فهو يزول ، وأثر كمح اللجماء سهل يأتي متتابعاً فلا يؤذى"^(٣) ومعنى هذا أن محمود شاكر يجعل من معانى الكمح التي يجب أن تصيبها معاجم اللغة العربية معنى الأثر الذي يتسبب به الكمح على موقع اللجماء من الفرس ، وأعتقد بأن ذلك المعنى لا يستتبع إلا من خلال القراءة الجمالية للبيت وليس القراءة اللغوية التي

(١) ينظر في ذلك مثلاً لخاشية جامع البيان للإمام الطبرى تحقيق أحمد ومحمود شاكر ، ج٤ ، ص ٥٥٠ ، وينظر أيضاً نفس الكتاب : ج٥، ص ١٠٢ ، وينظر أيضاً لنفس الكتاب : ج٩، ص ٥٣٢ ، وينظر أيضاً نفس الكتاب : ج ١٠، ص ١٤٧ .

(٢) قال عنه صاحب المؤتلف : "ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ابن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الشاعر المشهور المقدم، وكان أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة الأردي النحوي المعروف بنقطويه أملئ علينا أسماء الأعاشي فذكر ثمانية منهم أعشى بنى قيس بن ثعلبة ، ينظر للمؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم ، للحسن بن بشر الأدمي ، تحقيق: كرنكو ، ط١، ١٤١١ هـ ، لدار الجليل بيروت ، ج١، ص ١٢ .

(٣) هامش جامع البيان للإمام الطبرى تحقيق أحمد ومحمود شاكر : ج٩، ص ٥٤٣ .

التي يطالب محمود شاكر بإضافتها لمعاجم اللغة^(١) ، وذلك لأن كثيراً من معاجم اللغة لا تكاد تبتعد عن أن الكمح "رُدُّ الفَرَسِ بِاللِّجَام"^(٢) ، والكمح الذي هو رد الفرس باللجم يتسبب في إبقاء ذلك الأثر الذي أراده محمود شاكر على خدي الفرس ، ومن هنا ينشأ في الكلمة مجاز مرسل علاقته السببية ؛ إذ إن الأثر الذي يبقى على خدي الفرس سببه ردها باللجم مراراً وتكراراً حتى يتكون ذلك الأثر ، وهذه العلاقة علاقة بلاغية محضة مستخرجة من جمالية البيت وما وراء تراكيبه ، وهي من اهتمامات علم البيان باعتباره فرعاً من فروع علوم البلاغة العربية ، فلا حاجة بهذا الاعتبار البلاغي أن يجعل الأثر من معاني الكمح التي غفل عنها أهل اللغة ، ولو كان الأمر كذلك لفسر أهل اللغة الغيث بالعشب ، وذلك لعلاقة السببية التي تربط بين الغيث والعشب في مثل قول العرب : رعينا الغيث ، وهم يقصدون رعينا العشب الذي تسبب في وجوده الغيث ، وخلاصة القول في ذلك أن قناعة محمود شاكر في عدم استيعاب معاجم اللغة لبعض معاني المفردات تقف وراء بعض أحکامه غير الدقيقة على معاجم اللغة ، ولو كان لكل متتمكن من اللغة العربية أن يفسر ألفاظ العربية بعزل عن تلك المعاجم ؛ لنشأت فوضى لغوية ليس لها ضابط ولا رادع ، فالانطلاق من المعاجم اللغوية لتفسير مفردات اللغة وربطها بالسياق الذي وردت فيه هو الضابط الأهم في عدم نشوء مثل هذه الفوضى ، والخروج عن ضوابط تلك المعاجم وما نصت عليه وإضافة أو إبطال معنى فيها لا يكون إلا بدليل صحيح من يحتاج بكلامه ،

(١) وجدت الباحثة حاسن القربان اعترضت على تفسير محمود شاكر مستندة على سياق الشعر للكمح بأنه الأثر لا الكمح نفسه ، فقالت "إذ لو كان المراد بالكمح أثر كمح الفرس باللجم لا الكمح نفسه سيكون المراد باللطم بناء على ذلك أثر اللطم أيضاً لا اللطم نفسه " ينظر لآراء محمود شاكر وجهوده اللغوية لحسن بنت أحمد قربان ، ص ٥٠ ، وأرى أن قراءة محمود شاكر للكمح بأنه الأثر أقوم لمعنى هذا البيت من غيره ، فالشاعر إنما أراد أن قطع الناظرين الظاهر لمن عاده لا يكون له أثر كأثر اللطم و الكمح .

(٢) العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وقال صاحب الصلاح : "[كمح] الأصمعي: أَكْمَحْتُ الدَّابَّةَ، إِذَا جَذَبَتْ عَنَّاهُ حَتَّى يَتَصَبَّ رَأْسَهُ" الصلاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري : ج ١، ص ٤٠٠ ، وقال ابن منظور : "كمح: الْكَمْحُ: رُدُّ الْفَرَسِ بِاللِّجَامِ. وَالْكَمْحَةُ: الرَّاضَةُ. ابْنُ سِيدَهُ: كَمْحَتُ الدَّابَّةَ بِاللِّجَامِ كَمْحًا إِذَا جَذَبَتْهُ إِلَيْكَ لِيَقِفَ وَلَا يَجُرِي. وَأَكْمَحَهُ إِذَا جَذَبَ عَنَّاهُ حَتَّى يَتَصَبَّ رَأْسَهُ..." لسان العرب لابن منظور : ج ٢، ص ٥٧٥ . وقال مثله مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس : ج ٧، ص ٨٢ .

ولا يعني وجود مثل هذا المأخذ على محمود شاكر تمكنه من اللغة العربية وسبره لأغوارها أو حتى قليل من القبح فيه وفي جليل علمه ومعرفته ، فمن الحق أن نعيق أن يتمكنه من اللغة والأخذ بزمامها ، وأن وراء هذا الشراء اللغوي الهائل الذي امتلكه نشأة منذ الصغر ، استطاع معها أن يقرأ لسان العرب لابن منظور وكتاب الأغانى لأبي فرج الأصفهانى وهو ابن أربع عشرة سنة ^(١) ، فمن الطبيعي أن تكون لديه هذه الثروة اللغوية التي استطاع بها بعض الدارسين تكوين معجم خاص بمحمود شاكر ، وخلاصة القول أن أثر هذا الشراء اللغوي لدى محمود شاكر لا ينحصر على المطاراتات العلمية والاستدراكات اللغوية التي أقامها مع كبار علماء اللغة ورموز الأدب العربي ^(٢) ، بل يتجاوز ذلك اقتراحاته على زيادة معاني معاجم اللغة لبعض المفردات .

ثانياً : التأويل الملائم للدلائل السياق :

من السمات الجلية الواضحة في منهج محمود شاكر تمكنه من علم النحو وتوظيف الدلالة النحوية فيما يخدم السياق ، وقد كان لقراءاته كتب عبد القاهر الجرجاني وتعليقاته عليها باللغة الأثر في ذلك ، فمحمود شاكر يرى أن المكانة العلمية الرفيعة لعبد القاهر الجرجاني في التراث العربي إنما تأتت له من تمكنه من علم النحو أولأ ثم من حسن تذوقه للبيان العربي ^(٣) ، والشيخ عبد القاهر الجرجاني نفسه هو من أكد لمحود شاكر استواء منهجه العلمي التذوقي ، وهو من عزز لديه ثقته في هذا المنهج الذي هو قادر على تذوق الكلام كله شعره ونثره أدبيه وعلميه على حد سواء ، فكما سبق ذكره أن محمود شاكر اختط لنفسه منهج التذوق لكل كلام بعد أن

(١) ظل النديم لوجдан العلي : ص ١٨ .

(٢) عارض محمود شاكر كبار علماء التراث العربي في اللغة بأراء لا تخليو من الدقة والأخذ بناصية اللغة ومنجز دلالتها بالسياق الذي وردت فيه ، وهذه المعارضات مادة جيدة كافية لأن تثبت أثر التمكّن اللغوي في فكره ومنهجه العلمي ، ومن أمثلة ذلك احتجاجه على أبي عبيدة عمر بن المثنى (جامع البيان للطبرى : ج ١، ص ٤٣٩) ، حاشية رقم ٢) ، والجاحظ : (مداخل إعجاز القرآن لمحود شاكر : ص ٥٦-٦٣) ، والمزوقي : (نمط صعب ونمط مخيف لمحود شاكر : ص ٢٥٦، ١٥٧، ١٥٩ ، ص ١٨٢ ، ص ١٥٩) .

(٣) ينظر في ذلك مداخل إعجاز القرآن لمحود شاكر : ص ٨٩ وما بعدها .

أصيب بفاجعة أستاذة طه حسين في الشعر الجاهلي ، فبدأ برحالة طويلة جيدة قلب فيها ما وقع بين يديه من أوراق التراث العربي بمختلف تخصصاته تحت منهاج التذوق لكل كلام ، يقول محمود شاكر في ذلك :

" ومع ذلك فقد كنت أتوهם في سنة ١٩٥٣ حين فرغت من إجراء منهجي في تذوق الشعر ، على كل كلام غير الشعر ، أين قد سبّقت إلى ذلك ، حتى كانت سنة ١٩٥٦... حين طُبعت الرسالة الشافية ... فوقفت على فصل نفيس ... هو أوضح ما قرأته فقط في إجراء التذوق على كل كلام في كل علم ، مهما ظننت أنه أبعد علم من إجراء التذوق عليه .."^(١) .

وهذا الفصل النفيس الذي يقصده شاكر هو تعليق عبد القاهر الجرجاني على حد الفعل عند سيبويه ، ومن هنا ومن علم النحو تحديداً يتجلّى منطلق الثقة والتعزيز الذي لاح في أفق محمود شاكر فيما يتعلق بمنهجه التذوقي على كل كلام ، فلم يخف محمود شاكر إعجابه الشديد بعد القاهر الجرجاني ومشروعه النبدي الذي ربط فيه معانٍ النحو بالنظم لخدمة الإعجاز القرآني ، حتى أقدمه ذلك على تأليف مداخل إعجاز القرآن نتيجة لهذا الامتداد الفكري الذي خلفه فيه عبد القاهر نحوً وبلاعة ، وقد لاقى هذا الامتداد النفسي والمنهجي اطلاعاً واسعاً ونظرة ثاقبة لدلالة الإعراب الوظيفية في فهم النص ، فقد كان محمود شاكر استنباطات نحوية ذات قيمة عالية استظهرها من قراءته الآنية للنص ، ويبدو كتابه نمط صعب ونمط مخيف مثال صالح لتلك الاستنباطات التي استقل فيها محمود شاكر برأي نحوي خاص تحفظ به عن باقي آراء النحويين ، ومن ذلك ردّه القول بأن الباء زائدة في قول ابن أخت تأبّط شراً :

بَرَّيْنِ الدَّهْرُ وَكَانَ عَشُومًا
بِأَبِي جَاءَهُ مَا يُدَلُّ^(٢)

حيث رأى محمود شاكر أن الباء للتعدية قوله كلام نفيس في ذلك يحسن نقله هنا على طوله لاستبانة طريقته

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ص ٩.

(٢) هذا البيت من قصيدة ألف فيها محمود شاكر كتابه نمط صعب ونمط مخيف ، وقد تحدث في أول كتابه عن نسبة هذه القصيدة ورجح فيها أن تكون لخفاف بن نضلة ابن أخت تأبّط شراً ، وقد أثبتت في كتابه آراء العلماء في نسبة هذه القصيدة إلى الشاعر ، ينظر في ذلك نمط صعب ونمط مخيف : ص ٤٦ وما بعدها .

في استنباط الدلالة النحوية من المعنى الشعري يقول في ذلك :

"...هذا الفعل بـٰ قد يتعدى إلى مفعول واحد ، ويراد به عندئذ مجرد الخبر عن وقوع السلب .. فالوقوف عند آخره يتم به الكلام ، ولكن هذا مكر الشاعر الخفي فإنه لم يرد الخبر عن مجرد السلب بل أراد (بـٰ) الذي يتعدى إلى مفعولين فكان حق الكلام أن يقول : بزني الدهر أبياً ، ولكنه لما ذكر الدهر وما لقي من عسفه به وبحاله فطّع به وبخلاقته فكفّ عن إيصال الفعل إلى مفعوله الثاني وتركه مطروحاً كأنه لا يتطلب هذا المفعول..."^(١) . وهذا النص واضح الدلالة في الطريقة الفريدة التي يوظف فيها محمود شاكر المعنى النحوي بقراءاته الخاصة للنص ، والتي تراعي أدق تفاصيل كل حرف في كل كلمة ، بل ويتجاوزه بمنطق الكلمات والمحروف إلى ما يستكّن خلفها من معانٍ وما يحيط بها من أجواء نفسية للشاعر للمبدع ، وحينما استقرت هذه القراءة في نفسه وعالجها بحسن بيانه وأسلوبه ، لم يتعدد في مهاجمة أهل اللغة الذين جعلوا الباء زائدة مراعاة للقواعد النحوية التي جلبوا هذا البيت لخدمتها وإقرار صحتها ، فأهل اللغة "يدعون أحياناً" زيادة هذه الباء وأحياناً يسلكونها وأمثالها في باب التضمين ويقولون : ضمّن (بـٰ) معنى (فتح) ؛ لأن كل من سلب شيئاً فجع به وهو كلام لو كان له عناج^(٢) .. وإنما هو ما أقول لك لأنك لا تستطيع أن تقول في مدرج الكلام على مذهبهم في التضمين بزني الدهر بأخي وأنت تريد فجعني به وإذا قلته فهو .. غث أُسْقط من أن يُعتد به^(٣) ، فتأويله لهذا البيت على هذا النحو هو ما يقف وراء قوله بأن الباء للتعددية وليس زائدة ، ولعله حينما أنكر على أهل اللغة زيادة الباء في هذا الموضوع إنما قصد المرزوقي شارح الحماسة ، حيث يقول المرزوقي في شرحه للبيت ما نصه : " .. وقوله بزني الدهر أي غلبني واستلبني ، وقوله بأبي الباء دخلت للتأكيد زائدة..."^(٤) ولا بد

(١) نمط صعب ونمط مخيف لـ محمود شاكر : ص ١٥٤.

(٢) فسر محمود شاكر عناج في نفس هذا النص بقوله : (جبل يشدّه ويقويه ويمسكه) ، وهو كذلك في المعاجم اللغوية ، فالعناج: حَيْطٌ أو سَيْرٌ يُشَدُّ في أسفل الدّلَوِ ثم يُشَدُّ في عروته فإذا انقطع الجبل أمسك العناج الدّلَوِ من أن تقع في البئر، وكل شيء يُبعَلُ له ذلك فهو عناج " العين للخليل بن أحمد : ج ١، ص ٢٣١ .

(٣) نمط صعب ونمط مخيف لـ محمود شاكر : ص ١٥٥.

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي تحقيق غريب الشيخ ، ط ١، عام ١٤٢٤ هـ لدار الكتب العلمية بيروت، ص ٥٨٨.

من التنبية على أمر في غاية الأهمية هنا ، وهو أن محمود شاكر متبع لا مبتدع في القول بتعديبة الباء في هذا الموطن ، حيث قال بذلك التبريزى شارح الحماسة في معرض شرحه للبيت ، ومنه قوله :

" قوله بأبي : الباء دخلت للتأكيد زائدة كأنه قال : بنى الدهر أياً ، ويجوز أن يكون عدى بنى بالباء لما كان معناه فجعني ويكون من باب ما عدّي بالمعنى دون اللفظ " (١) ومن هنا يمكن القول بأن التبريزى قد أتى على ما في نفس محمود شاكر من الباء ، ولعل محمود لم يطلع على شرح التبريزى على هذا البيت تحديداً ، ولو اطلع عليه لأثبته ووثقه كما جرت به عادته ، فقد ذكر محمود شاكر التبريزى في كتابه نمط صعب ونمط مخيف في اثني عشر موضعاً (٢) ، نصف تلك الموضع جاء في نسبة القصيدة وترتيبها ، والنصف الآخر جاء في نسبة بعض شروحه على أبيات القصيدة سواء خالقه شاكر أم وافقه ، فمن المنطقى جداً أن ينسب له هذا القول لو أنه اطلع عليه ، وغاية ما يقال إن محمود شاكر كان شديد التمرس والتمكّن من النحو العربي ، وقد قاده هذا التمكّن إلى استظهار جماليات النص والمعانى التي أرادها الشاعر من خلال الطريقة الإعرابية التي سلكها في بناء العمل الأدبي .

ثالثاً : المقاربة التطبيقية للجانب الإيقاعي في النص :

اهتم محمود شاكر كثيراً بمعانى الحروف اهتماماً بالغاً ، وقد شكل هذا الاهتمام أحد المداخل التي ولج بها إلى مواجهة النص واستنطاق ما يستتر خلف تراكيبه ، وقد وقف وراء هذا الاهتمام إحساس من شاكر بإهمال الكثير للجمالية الموسيقية التي يقف وراء جملها أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي ، التي لم يعد أغلب الدارسين قادرین على البيان عنها في النص إلا بملء فراغات نوع البحر وبيان تامه ومجزئه وعلله وزحافاته وأسبابه وأوتاده ، وهذا أطلق محمود شاكر تأوهًا صدر به القسم الثاني من مقالات نمط صعب ونمط مخيف ، حيث صدر هذا القسم بيتهن لأبي العلاء المعري أنت على شيء مما يجده في نفسه من عروض الخليل والتي يمتد أثرها

(١) شرح ديوان الحماسة لأبي قمام ليحيى بن علي بن محمد التبريزى ، كتب حواشيه غريد الشيخ ، ووضع فهرسه أحمد شمس الدين ، ط١، عام ١٤٢١ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ج ١ ، ص ٥٣٩ .

(٢) ينظر لنمط صعب ونمط مخيف لمحود شاكر : ص ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٩ .

النفسي عنده إلى محاولات الانقلاب الثقافي على التراث العربي الأصيل ، يقول محمود شاكر معلقاً على بيته لأبي العلاء المعري :

وَخَلَى الْعَرْوَضَ لِأَزْبَاهَا

تَوَلَّ الْخَلِيلُ إِلَى رَبِّهِ

وَلَا مُرْجِعٌ فَضْلَ أَسْبَاهَا^(١)

فَأَيْسَرَ بِدَائِكِرِ أَوْتَادِهَا

" ... ثم رحم الله الخليل بن أحمد ، فلو هبّ من رقته فاطلع على أهل هذا الجيل ، كيف يخوضون فيه وفي عروضه ، لرأى العقل الذي في الجمامجم قد عاد راراً^(٢) ... ، و لترمي ألا يكون وضع للناس عروضه ، حتى يسلم عرضه لقوارص ألسنتهم ، ومن طيش عقوفهم ، وأيُّ رجل كان الخليل لو كان لعلمه ورثة ..."^(٣) .

وقد جاء اهتمام محمود شاكر بالجانب الموسيقي ودلائله على الشقين التطبيقي والنظيري ، أما ما يغلب عليه الجانب النظيري فقد جاءت في سلسة مقالات ثلاث حملت اسم : (علم معاني أصوات الحروف سر من أسرار العربية نرجو أن نصل إلى حقيقته في السليقة العربية)^(٤) ، نشرها في مجلة المقططف في العامأربعين وتسعمائة وألف ميلادي ، وكان يقصد في هذه المقالات ما تحمله أصوات حروف اللغة العربية لا الحروف نفسها من معانٍ نفسية يمكن أن تنبض بها الموجات النطقية عند المتكلم ، وما تحمله أيضاً من صور عقلية معبرة عن الطبيعة وما يتصل بها من أصوات وصفات ، وقد حاول شاكر في هذه المقالات جاهداً الكشف عن المعانٍ الفطرية لصوت الحرف العربي منطلاقاً في ذلك من الأسس والقواعد التي وضعها أهل اللغة في صفات

(١) اللزوميات لأبي العلاء المعري ، تحقيق أمين الخانجي ط١، عام ١٩٢٤ م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ج١، ص ١٤٠ -

.١٤١

(٢) فسر محمود شاكر (رارا) في نفس هذا النص بقوله : مخا ذائباً كمح العظام البولي ، قال ابن منظور : "تَرَكَتِ الْمَحَ رَاراً أَيْ ذَائِبًا رَقِيقًا لِلْهَرَالَ وَشِدَّةَ الْجَدِبِ" لسان العرب لابن منظور : ج٤ ، ص ٣١٤ .

(٣) نحط صعب ونمط مخيف لمحود شاكر : ص ٨٧ ، وقد أثبت بيتي المعري في صفحة مستقلة في بداية المقالة الثانية " على هذا دار القمم " ص ٨٣ .

(٤) جهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان جمال : ج٢ ، ص ٧٠٨ - ٧٣٤ .

الحروف وتقاربها وتباعدها من ناحية المخرج ، وقد وضع محمود شاكر بعد أن استعرض ذلك منهجه في معاني أصوات الحروف العربية ، حيث قال :

"ونحن نريد أن نأخذ معاني هذه الأصوات التي تدل على حروف العربية من جهة طبيعة الإنسان حين يريده العبارة عن شيء في نفسه ، أحس به أو عزم عليه محاكيًا أو مقلدًا أو منهاً أو مصورةً أو مقرابًا للمعنى الذي يريده ، بالجرس الصوتي المفرد الذي يتبادر إليه فيحاوله ويعالجه وينهجم عليه "(١).

والحق أن هذا الإجراء الذي يريده محمود شاكر تطبيقه على معاني أصوات الحروف ، ما هو إلا من الأثر النفسي للتذوق الذي انتهجه وعرف به طريقته العلمية ، ويبدو ذلك جليًا واضحًا من الأمثلة وطريقة المعالجة التي حاول أن يصل فيها إلى المعاني الفطرية لصوت الحرف العربي في هذه المقالات ، فالفهم والهاء والألف وهي الحروف الحلقية التي تلقي الهواء حال تصويتها ولا يقف في سبيلها ما يعترضها ويرتطم بهوائها ، ولا يعمل معها اللسان عملاً في تكوين صداتها وجرسها ، وحقيقة بما بعد أن اتصفت بذلك هي وبعض من أخواتها الحروف الحلقية "أن ترتبط بال الحاجات الأولى التي يدفع الإنسان للتعبير عنها ، كالنداء ، والتعجب ، والتأوه ، والأنين ، والإشارة ، والتنبيه ، وغير ذلك مما تدعو إليه معاناة الحياة الفطرية الأولى التي بدأ الإنسان بها عمله على الأرض" (٢) وعلى هذا النحو سار شاكر في محاولات حثيثة للكشف عن معاني الأصوات الفطرية ، ولو قُرِّر له طول عهد في مناقشة هذه القضية لفتح باباً من العلم ، لاسيما وأنه أكد إمكانية تطبيق ذلك كله على أصوات اللغة كلها ، فحين فرغ من هذه المقالات التي لم تكن كافية لتحقيق كل ما وعد به في صدرها ، قال :

"ونحن نقف بالقول عند هذا الحد ولعلك تجد له من الطرافه والحسن والله ما يجعلك تضي في إتمام ما أسقطناه من كلامنا ، فإذا فعلت عرفت لطف هذه اللغة ، وملابستها للطبع والطبيعة والفطرة ، وأن أصحاب هذا اللسان كانوا أرق الناس إحساساً وألطفهم فهماً وأحسنهم تهدياً إلى المعاني" (٣) ، على أن الشق التنظيري في هذه المقالات الثلاثة كان يأخذ الحيز الأكبر من اهتمام شاكر بالصوت والجرس المنتج للنغم

(١) جمدة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ج ٢ ، ص ٧١٧.

(٢) السابق ، ج ٢ ، ص ٧٢٢.

(٣) السابق ، ج ٢ ، ص ٧٣٤.

والموسيقى ، وكان منطلق دراسته التطبيقية دوائر الخليل بن أحمد الفراهيدي العروضية ، وذلك بعد أن رأى المستشرين خصوصاً أن عروض الخليل تحتاج إلى إعادة نظر ، إذ إن العروض التي ابتكرها الخليل بن أحمد قد تسبب في مخالفة الواقع من جهات كثيرة ؛ لأنها أحدثت فروضاً نظرية عن الأوزان تخالف الواقع الشعري من حيث عدد التفاعيل ، والناظر في طبيعة هذه الدوائر يجد أنها لا تعني أكثر من الجمع بين البحور ، " وحسبك دليلاً على ذلك أن الكامل والرجز والسبعين موزعة على ثلاث دوائر مختلفة عند الخليل في حين أنها تدخل في مجموعة واحدة في تصنيف المستشرين "^(١) ، فاقتصر محمود شاكر فرصة تأليف مقالاته التينظمها في نمط صعب ونمط مخفف للرد على تهم المستشرين الموجهة للعروض العربي من ناحية ، ولتطبيق تحليل القيمة الصوتية للحرف والنغم في الشعر العربي على النحو الذي يقابل به الشق النظري في مقالاته عن معاني أصوات الحروف ، " وتتبع بدقة بالغة الصورة الأولية التي صاغها الخليل مما لم يصلنا في كتاب ، وكشف عن أسرار العلاقات بين بحور الشعر في الدائرة الواحدة ..."^(٢) ، والحق أن محمود شاكر حينما تناول العروض في كتابه نمط صعب فإنه قد اعترف بأن العروض قد خرج من عند الخليل تماماً جاماً ، ولكن " الخصار لهم في ضبط علم العروض وفي تفسير بعض قواعده كان سببه تلك المهمات الكثيرة التي أحاطت بهذا العلم"^(٣) ، على أن الجهد الذي بذله الخليل كان جهداً منظماً وخارقاً ودقيقاً ، " تلقى به موسيقى الكلام نثره وشعره حتى استطاع أن يميز كلاً من كل ، ثم استطاع أن يميز نغماً من نغم ، ثم استطاع أن يفصل كل نغم على حدته ، ثم استطاع أن يعرف نسب كل نغم إلى أخيه ، ثم استطاع أن يضع لكل نغم أساساً يقوم عليه لا يختلط ، ثم استطاع أن يركب لهذا النغم أجزاء فيها ضابط لا ينحل ضبطه ثم يركب من هذه الأجزاء دوائر جامعة لبحور جمهورة الشعر العربي كله..."^(٤) ، ومع هذا الثناء على جهود الخليل فإن شاكر يقطع بأن الشعر العربي لا يمكن أن يقف حده عند هذه البحور الخمسة عشر التي جاء بها الخليل ويرى أن الخليل نفسه لا يمكنه توهّم ذلك، لوجود شعر جاهلي لا

(١) ينظر لكتاب موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس الفصل الرابع تحليل المستشرين للأوزان : ط ٢، عام ١٩٥٢ م ، لدار الأنجلو المصرية، ص ١٤٤ - ١٥٩ .

(٢) محمود محمد شاكر ، الرجل والمنهج ، لعمر حسن القيام : ص ٢١٨ .

(٣) نمط صعب ونمط مخفف لمحمود شاكر : ص ١٠٨ .

(٤) نمط صعب ونمط مخفف لمحمود شاكر : ص ١٠٩ - ١١٠ .

يدخل في عروضه مستوىً كل الاستواء مع أنه من جيد الشعر وبارعه^(١)، وحينما وصفت جهود محمود شاكر في نمط صعب ونمط مخيف بأنها جهود تطبيقية أكثر منها تنظيرية حيال النغم والجرس والموسيقى ، فإن ذلك يتأكد من ينظر إليه حينما طبق مفاصل تنظيراته على بحر المديد وتفعياته الذي بنيت عليه قصيدة إن في الشعب الذي دون سلع ، فقد استوقف محمود شاكر كلام بعض النقاد الذين رأوا أن في بحر المديد صلاة ووحشية وعنفاً ، وأنه على الرغم من تلك البساطة والسهولة التي يتكون منها بتفعياته إلا أنه يطلب كلمات متقطعة ، ولأجل تلك السهولة في تفعيلاته وطلبه لكلمات متقطعة مع تلك السهولة ؛ فإن الشعرا قد تحاموا وتجنبوا جاهدين الإنဆاد عليه ، وقد أقر شاكر بقول النقاد في ذلك ولم يتوقف عند الإقرار به ، بل تجاوزه لمحاولات تطبيقية لمعرفة ذلك واكتشاف خفاياه من خلال نغم قصيدة إن في الشعب الذي دون سلع ، فبين شاكر أولاً أن البحور العروضية ثلاثة أقسام^(٢) :

أولها : بحور مركبة من التفاعيل الأصول (فعلن - مفاعيلن - مفاعيلن فاع لاتن) وهي : (البحر الطويل والوافر والهرج والمضارع والمتقارب) .

ثانيها : بحور مركبة من بعض فروع الأصول (فاعلن - مستفعلن - متفاععن - مفعولات) ولا يخالطها شيء من الأصول والوتد فيها طرف ، وهي : (البحر البسيط والكامل والرجز والسريع والمنسج والمقتضب) .

ثالثها : بحور مركبة من بعض فروع الأصول الأربع ولا يخالطها شيء من الأصول والوتد فيها وسط ، وهي : (البحر الرمل والخفيف والجثث) .

" فهذه أربعة عشر بحراً ، شذ عنها بحر واحد هو (المديد) ، فإنه مركب من فرعين لا يخالطهما شيء من الأصول ، وأحد الفرعين وتد (وسط) ، والثاني : وتد (طرف) ، وهكذا جاء في دائرة المختلف من دوائر الخليل مخالفًا للأصل الذي سار عليه ".^(٣)

(١) نمط صعب ونمط مخيف لمحود شاكر : ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) السابق ص : ٩٩-١٠٠.

(٣) السابق ص ٩٩.

وهذا الاستنباط يكشف بجلاء العمق العروضي الذي وصل إليه محمود شاكر ؛ إذ إنه محاولة جادة للتقاء مع الطريقة التي كان يفكر بها الخليل بن أحمد الفراهيدي حينما اخترط دوائره العروضية وبحوره الشعرية ، وأراد أن يصل بذلك إلى غاية هي في حقيقة الأمر ما يود إثباته من خلال هذه الأصول النظرية ، وهي أن بحر المديد بحر تتحاماه الشعرا لأنه بحر نمطه صعب ومحيف وثقيل وعسر ، إذ إن تركيب مصراع المديد بعد المجزء :

فاعلن مستفعلن فاعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

فـلما دخل الترفيل (زيادة سبب حفيـف على الـوتـد) في العـروـضـ والـضـربـ جـمـيـعاً أـصـبـحـ :

فاعلن مستفعلن فاعلن تن فاعلن مستفعلن فاعلن تن

" فالحادي والمجيب في المصـرـاعـ الأولـ ، وـهـمـ الصـوتـ والـصـدـىـ - أيـ الجـزـآنـ الأولـانـ مـعـاـ وـوـتـدـهـماـ طـرـفـ - يتطلبـانـ منـ تـمـامـ النـغـمـ أـنـ يـقـفـ عـلـىـ وـتـدـ طـرـفـ فيـ العـرـوـضـ وـهـوـ آـخـرـ المصـرـاعـ الأولـ (فاعلن) ، فـتـكـادـ تـقـفـ وـتـرـدـ قـلـيلاـ وـتـحـجـمـ بـعـضـ الإـحـجـامـ ، وـلـكـنـ التـرـفـيلـ يـسـرـعـ بـكـ إـلـىـ طـرـحـ التـرـدـ وـالـإـحـجـامـ مـسـرـعاـ قـائـلاـ : فـاعـلنـ تنـ ... ، ثـمـ تـأـخـذـ فيـ المصـرـاعـ الثـانـيـ فـيـ حـمـلـكـ الحـادـيـ وـالـمـجـيـبـ (فاعلن مستفعلن) عـلـىـ أـنـ تـقـطـعـ النـغـمـ مـرـةـ آـخـرـىـ عـلـىـ وـتـدـ طـرـفـ فيـ الضـربـ ، وـهـوـ آـخـرـ المصـرـاعـ الثـانـيـ (فاعلن) ؛ فـتـقـفـ مـتـرـدـداـ مـحـجـماـ مـرـةـ آـخـرـىـ ، وـسـرـعـانـ مـاـ يـسـفـرـكـ التـرـفـيلـ ؛ فـتـنـطـلـقـ مـسـرـعاـ قـائـلاـ فـاعـلنـ تنـ ... " ^(١) .

وشـاـكـرـ يـرـيدـ أـنـ يـبـيـتـ أـنـ هـنـاكـ نـزـاعـاـ خـفـيـاـ مـصـدـرـهـ نـغـمـ الـحـادـيـ وـالـمـجـيـبـ وـاسـفـازـ التـرـفـيلـ بـعـدـهـماـ ، كـلـهـاـ تـقـودـ مـجـمـعـةـ إـلـىـ التـرـدـ وـالـإـحـجـامـ ثـمـ تـرـكـ التـرـدـ وـالـإـحـجـامـ عـنـ طـرـيقـ التـرـفـيلـ ، وـحـدـوـثـ ذـلـكـ كـلـهـ فيـ زـمـنـ مـتـقـارـبـ وـفـيـ نـفـسـ وـاحـدـ ؛ وـهـذـاـ كـلـهـ السـبـبـ الـحـقـيـقـيـ وـرـاءـ ثـقـلـ بـحـرـ المـدـيـدـ وـعـسـرـهـ وـصـعـوبـتـهـ وـإـحـجـامـ الشـعـرـاءـ عـنـهـ ، وـقـدـ جـعـلـ مـنـ هـذـاـ المـنـطـلـقـ كـشـافـاـ استـجـلـىـ بـهـ أـنـغـامـ قـصـيـدةـ إـنـ فـيـ الشـعـبـ الـذـيـ دـونـ سـلـعـ ، وـلـمـ يـتـرـدـ بـعـدـ إـلـيـانـةـ عـنـ ذـلـكـ فـيـ مـعـالـجـةـ هـذـهـ الـقـصـيـدةـ وـمـحـاـكـمـتـهاـ بـنـاءـ عـلـىـ هـذـاـ المـنـطـلـقـ ، فـفـيـ بـدـاـيـةـ قـرـاءـتـهـ الـفـعـلـيـةـ الـنـقـدـيـةـ الـمـواـجهـةـ لـلـنـصـ بـشـكـلـ مـبـاـشـرـ فـيـ كـتـابـهـ نـمـطـ صـعـبـ وـنـمـطـ مـحـيـفـ يـقـولـ عـنـ قـوـلـ الشـاعـرـ (أـنـاـ بـالـعـبـءـ لـهـ مـسـتـقـلـ) ^(٢) :

(١) نـمـطـ صـعـبـ وـنـمـطـ مـحـيـفـ لـمـحـمـودـ شـاـكـرـ : صـ ١١٠-١١١ـ.

(٢) نـمـطـ صـعـبـ وـنـمـطـ مـحـيـفـ لـمـحـمـودـ شـاـكـرـ : صـ ١٤٩ـ.

" ولو قال : وأنا بالعبء مستقل ، وحذف (له) ، لسقط الكلام سقوطاً ظاهراً ، فهذه مهارة الشاعر ، وسلطان بحر المديد ، الذي يحمل الشاعر على أن ينذر إليه بالكلمات حية موجزة مقتضدة خاطفة الدلالة في أناة وتؤدة ، ويوقعها في حاقد موضعها لا يتجاوزه ..." ويقول في موضع آخر^(١) :

" (مُطْرِقٌ - يَرْسَخُ مَوْتًا - كَمَا أَطْرَقَ أَفْعَى - يَنْفُثُ السَّمَّ - صِلْ) وهذا ضرب آخر من التشعيث ... هو تشعيث لخارج الألفاظ عند الإنشاد وأغانى على تحويده سطوة بحر المديد ، وما فيه من غلبة الآلة والمؤدة"

وعضى محمود شاكر في بيان قيمة النغم الفنية الذي أفرزه بحر المديد في هذه القصيدة ، متخدناً من تلك الأحكام النظرية التي أطلقها جذوة قبس لا ينكره وهجها عن فكره وعينه ، حتى يصل إلى الجزء الثامن من هذه القصيدة التي تراءى له تجزئتها بحسب أزمنة التغنى ، ويكاد يسكت في قراءته لهذا الجزء جل ما أثبته في بداية كتابه عن بحر المديد وسبب صعوبته وعسره وثقته ، يقول في ذلك^(٢) :

" ... ثم انبعث يتغنى بأخلاقه في ثمانية أبيات من حُرّ الشعر وعتيقه ورائعه ، يقسم كلماته لفظاً لفظاً على حركة بحر المديد ، بين البسط والقبض ، يبطئ مرة ويسرع مرة ، يذعن لسيطرة النغم ، ثم يسطو بالنغم حتى يذعن له ، كلمات متعانقة تناسب ، وكلمات مفردة تُنبئُ على ذبذبات النغم وقراراته ، فينساب بها أو يتهد ، كلمات سافرة وكلمات أخرى تتبرج من وراء نقاب"

ثم يطيل القول في ذلك ويصل به إلى تطبيق كلي لقيمة النغم الصوتي في بحر المديد ، وفق ما حكم به بعض النقاد وما أقر به هو من عسر الإنشاد على بحر المديد ، وهو تحليل رائع وقراءة نقدية ملهمة بالذوق وترقي الإحساس بعذوبة النغم ، ولا يُشكُّ في أن الإحساس بقيمة النغم الشعري قيمة مهيمنة على تعاطي محمود شاكر مع الشعر كلّه ؛ فقد حدّ الشعر في كلمات تدل على قيمة الإيقاع والنغم الشعري المتأصلة في ذوقه وقراءاته النقدية وذلك حين قال : " ولفظ الشعر في لسان العرب موضوع للدلالة على كلّ كلام شريف المعنى

(١) نحث صعب ونمط منيف لمحود شاكر : ص ١٥١ .

(٢) السابق ص : ١٥٦ .

نبيل المبني ، محكم اللفظ ، يضبطه إيقاع متاسب الأجزاء ، و يتنظمه نغم ظاهر للسمع مفرط الإحكام والدقة في تنزيل الألفاظ وجرس حروفها في مواضعها منه ، لينبعث من جميعها لحن تتجاوزه أصداوته متهددة من ظاهر لفظه وباطن معانيه ، وهذا اللحن المتكمال هو الذي نسميه القصيدة^(١) فحده للشعر على هذا النحو يثبت لنا مدى اهتمامه بالإيقاع والقيمة الصوتية للنغم الشعري ، إذ شكل التعبير عن الإيقاع الحيز الأكبر من محتوى هذا الحد مع شيء من ترقى الإحساس بقيمه، يستبان من طريقته الأسلوبية التي عبر بها عنه ، وإذا كان المكون الرئيس عنده لضابط الشعر وحده هو الإيقاع والنغم فليس من المستغرب أن نجد في قراءته للشعر وتحليله لنصوصه ما يعكس الاهتمام والعناية بالجرس والموسيقى الشعرية ، لا سيما وأن محمود شاكر منذ صغره كان يحس بقيمة ذلك منذ صغره ونشأته العلمية ، فقد كان شديد التأثر بالترنم الذي كان ينشئه لديه ويشعليه في قلبه شيخه السيد بن علي المرصفي ، صاحب (رغبة الآمل من كتاب الكامل) و (أسرار الحماسة) ، فقد ذكر محمود شاكر عنه أنه كان يجلس بين يديه لقراءة الشعر ، وحين يقرأه يهتز يمنة ويسرة ، ويرى شفتاه والكلمات تخرج من بينها وكأنه يجد لها في فمه من الحلاوة واللذة والنشوة مالا يمكن وصفه ، فكان يصغي إليه كل الإصغاء وينظر إليه لا تكاد تفارق عينه وهو على هذه الحال ، " وصوته يتحدر في أقصى أعماق نفسي كأنه وابل منهر ... فإذا كف عن الإننشاد والترنم أقبل يشرح ويبيّن ... ولكن شرحه كان دون ما أحسه وأفهمه يتغلغل في أقصاصي نفسي من هيئته وملامحه وهو يترنم بالشعر أو يردد ...^(٢) ، فقد تسرب أثر الإحساس بالترنم والإنشاد ووقع النغم في نفسه وامتلاً به قلبه منذ نشأته الأولى وفي سنّة الصغيرة ، يقوى ذلك وبعوضده تلك الموهبة التنويقية التي وجدتها في نفسه وتدرّب عليها حتى سمى بها منهجه العلمي .

(١) مقالة الشعر الجاهلي ، مجلة العرب السنة العاشرة ، ج : ٦-٥ ، عام ١٩٧٥ م ، ص ٣٤٨ ، ولم أجده هذه المقالة في جمهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان ، ولم أجده عادل سليمان أخذ من مجلة العرب لمحمد شاكر إلا مقالة واحدة ج ٢ ، ص ١٠١٦ - ١٠٤٣ ، بعنوان : قرى عربية ، السنة الثانية ، ج ٩ ، لربيع الأول في عام ١٣٨٨ - ١٩٦٨ ،

(٢) ظل النديم لوجдан العلي : ص ١٦ .

المبحث الثالث : الثقافة والتجربة

لا يشك أحد أن وراء هذه المنزلة العلمية المروقة محمود شاكر ثقافة كبيرة جداً ، وقد نشأت معه تلك الثقافة منذ الباكير الأولى لحياته ، فالمراجع العلمية^(١) التي رصدت معلم مسيرة محمود شاكر الثقافية تدلنا دلالة واضحة على أن الثقافة مركزة في شخصيته وتنشئته الأولى ، وقد اهتم محمود شاكر كثيراً بالجانب الثقافي بل ونافع عنه ، وألف فيه رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، وضع فيها أصول منهجه التذوقى وتناول فيها المستشرقين والمبشرين والمستعمرات وكيف أن جهودهم احتدت للقضاء على الثقافة العربية والإسلامية التي نشأ عليها ، ومحمود شاكر يرى أن "ثقافة كل شعب هي تراثه البعيد الجنوبي تاريخه المنحدر مع أجياله ، ينطلقه خلف عن سلف ، وهذا التراث مكون من أفكار ومبادئ يحملها أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم وطبائعهم في زمن من حيائهم ومن تطبيق هذه الأفكار والمبادئ حتى تصبح أسلوباً حياة المجتمع المكون من هؤلاء الأفراد"^(٢). والملحوظ أن شاكر حينما تناول الجانب الثقافي كإطار نظري في رسالته ، ربطها بروطاً مباشراً بأمريرين لها فيحقيقة الأمر ما يمثل صفات الشخصية وطبيعته النفسية ، والأمران هما : الدين ، والقومية العربية ، أما الدين فيكتفي أن نثبت في ذلك قوله :

"ورأس كل ثقافة هو الدين بمعناه العام والذي هو فطرة الإنسان ، - أي دين كان - أو ما كان في معنى الدين ، وبقدر شمول هذا الدين لكل جموع ما يكتب جموع النفس الإنسانية ويحجزها عن أن تزيغ عن الفطرة السوية العادلة "^(٣) ، فالدين عنده هو رأس الثقافة وعمادها وهو الأصل الأخلاقي للمنهج العلمي الذي

(١) ينظر لالفصل الأول من الدراسة العلمية : محمود محمد شاكر دراسة في حياته وشعره ، لأماني حاتم بسيسو ، وينظر لالفصل الأول من الدراس العلمية : محمود محمد شاكر ، الرجل والمنهج ، لعمر حسن القيام ، وينظر لمهد الدراسة العلمية : محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النقدي ، لإبراهيم الكوفحي ، وينظر للباب الأول من كتاب ظل النديم ، لوجдан العلي .

(٢) جمارة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ج ٢، ١٠٨١-١٠٨٢.

(٣) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا محمود شاكر : ص ٣١.

يخلص نية الإنسان ويسلمه من الزيف والهوى ، وإغفال هذا الأصل الأخلاقي عند شاكر هو داء سماه آفات الهوى والغرض ، وهو ما يهدم شطري المنهج في جمع المادة والتطبيق ، والالتزام بهذا الأصل الأخلاقي هو ما يجعل نتائج البحث أكثر نجاعة وأقرب للصحة والصواب ، يقول محمود شاكر في ذلك :

"وهذا الأصل الأخلاقي عندي هو الدين – أي دين معناه العام – ؛ وهو ما يعصم الإنسان من الهوى ويکبح جموح النفس الإنسانية ویحجزها من الزيف عن الفطرة السوية ، وعلى قدر تحقق الإنسان من هذا الأصل العظيم وتلبسه به ، وانتظامه في سلكه ، على قدر ما يكون بمحنة أقرب للصحة وأميل إلى الحق ، وأحرى بالدقة التي يسعى إليها كل متجرد منصف "(١) ."

أما ربط الثقافة بقومية العرب فهو نداء ضج به قلم محمود شاكر ولسانه ، فألف فيه رسالته المشهورة في الطريق إلى ثقافتنا (٢) ، وأفاض فيه في أباطيله وأسماره (٣) ، ومن أجل الثقافة العربية أقام معاركه الثقافية مع العديد من الأدباء في عصره ، وقد يكون القاسم المشترك بين جميع الشخصيات التي دخل معها شاكر في خصومة أدبية وعلمية اعتمادهم على ثقافة غربية دخيلة من وجهة نظره ، وهو الأمر الذي وصل به في بعض الأحوال إلى تمثّله المطلق من ذكر اسم خصميه على لسانه مجرد ذِكْر ، كما فعل مع لويس عوض في لقاءات صحفية وإذاعية مؤثقة ، ومن ذلك أن طرح عليه سؤال في إحدى اللقاءات الإذاعية كان نصه : "تابع القراء في مجلة الرسالة وغيرها معركتك الضارية مع لويس عوض ، كيف بدأت ؟ وكيف انتهت ؟....." فأجاب شاكر بقوله: "أولاً أنا أنكر عليك توجيه هذا السؤال ؛ لأنني لم أخض معركة ، وهذا الشيء الذي كتبته في سنة ١٩٦٤ - ١٩٦٥ م ليس معركة في الحقيقة إلا إذا عدلت حياتي ... كلها معركة ، فهذا الرجل الذي ذكرت اسمه في هذه المسألة لا وجود له عندي في الحقيقة" (٤) ، وقد سُئل بعد هذا السؤال ستة أسئلة كلها تدور حول

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحود شاكر : ص ٣١ .

(٢) السابق : ص ٢٢ وما بعدها .

(٣) ينظر لأباطيل وأسمار محمود شاكر : ص ١١٥ وما بعدها .

(٤) ينظر لظل النديم لوجдан العلي ص : ١٠٩ - ١١٠ .

لويس عوض يتعمد في إجابتها كلها عدم ذكر اسمه ويعبر عنه بهذا النحو الذي أثبته له في الفقرة السابقة ، ولعل الثقافة العربية الخالصة التي تشربها محمود شاكر ، وتدریبه عليها بعد أن حلت عليه محنـة الشعر الجاهلي ، هي ما يدفعه لمطـارحة غيرها من الثقافات والثقفـين ، واستجلـاء الجانب الثقافي عند محمود شاكر يجدر تتبع هذا الجانب طبقـاً لـمراحل حـياته والتي كان لكل مرحلة منها ما يميز به الجانب الثقافي عندـه .

الثقافة والتـجربـة عند محمود شـاـكر: أولاً : مرحلة النـشـأة والتـكـوـين :

تشير الدراسـات^(١) التي رصدـت مـعـالم حـيـاة مـحـمـود شـاـكر إلى أن والـدـه مـحـمـد شـاـكر كان من أـبـرـز الـعـلـمـاء في عـصـرـه، وقد رـصـدـ ابنـه الأـكـبـر أـحمد شـاـكر جـوانـب حـيـاته في مـقـالـ نـشـرـ عنـه في المـقـطـفـ^(٢) ، فقد ولـدـ والـدـه في مـديـنـة جـرجـا المـصـرـية عام ١٨٦٦ مـ ، وـفيـها أـتـم حـفـظـ القرآنـ الـكـرـيمـ وأـسـاسـاتـ التـعـلـيمـ الـعـامـ ، ثم اـنـتـقلـ بـعـدـ ذـلـكـ إلى الأـزـهـرـ فـتـلـقـىـ الـعـلـمـ فـيـهـ عـلـىـ يـدـ كـبـارـ رـجـالـ الأـزـهـرـ حتـىـ أـصـبـحـ مـؤـهـلاًـ لـلـعـلـمـ فـيـ مـجـالـاتـ الـفـتـيـاـ ، فـعـينـ عـام ١٨٩٠ مـ أـمـيـناًـ لـلـفـتـوـىـ ، ثم تـولـىـ بـعـدـ أـرـبـعـ سـنـوـاتـ مـنـ ذـلـكـ مـنـصـبـ نـائـبـ مـحـكـمـةـ مـديـرـيـةـ الـقـلـيـوـيـةـ ، وـاشـغـلـ وـهوـ عـلـىـ رـأـسـ هـذـاـ مـنـصـبـ بـإـصـلـاحـ الـمـحاـكـمـ الـشـرـعـيـةـ وـرـفـعـ فـيـهـ تـقـرـيـراًـ خـطـيـراًـ لـفـتـيـ الـدـيـارـ الـمـصـرـيـةـ أـنـذاـكـ الشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ ، وـقـنـاعـةـ الـمـفـتـيـ بـمـاـ أـورـدـهـ مـحـمـدـ شـاـكرـ فـيـ هـذـاـ تـقـرـيـرـ دـفـعـتـهـ لـتـعـيـيـنـهـ قـاضـيـ قـضـاـةـ السـوـدـانـ عـامـ ١٩٠٠ـ ، وـقدـ هـيـأـ لـهـ هـذـاـ مـنـصـبـ وـضـعـ أـسـسـ الـحـكـمـ الـشـرـعـيـ فـيـ مـحاـكـمـ السـوـدـانـ مـلـدـةـ أـرـبـعـةـ أـعـوـامـ ، ثم نـقـلـ شـيـخـاًـ لـمـعـهـدـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ ، وـأـضـافـ لـهـ مـاـ لـمـ يـكـنـ فـيـهـ مـلـفـ عـلـومـ الـقـاـفـةـ الـحـدـيـثـةـ كـالـحـاسـبـ وـالـجـبـرـ وـالـمـبـادـيـ الـهـنـدـسـيـةـ وـالـعـلـمـ الـاجـتمـاعـيـةـ ، وـجـعـلـ الـدـرـاسـةـ فـيـهـ إـجـارـيـةـ إـلـىـ جـانـبـ عـلـومـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ وـالـعـلـومـ الـشـرـعـيـةـ بـعـدـ أـنـ كـانـتـ اـخـتـيـارـيـةـ ، ثـمـ اـنـتـقلـ عـامـ ١٩٠٩ـ مـ وـكـيـلاًـ لـلـجـامـعـ الـأـزـهـرـ فـأـصـلـحـ فـيـهـ وـجـدـ وـابـتـدـأـ إـلـصـلـاحـ بـزـيـاراتـ مـكـنـفـةـ لـصـعـيدـ مـصـرـ

(١) يـنـظـرـ لـلـفـصـلـ الـأـوـلـ مـنـ الـدـرـاسـةـ الـعـلـمـيـةـ : مـحـمـودـ مـحـمـدـ شـاـكرـ درـاسـةـ فـيـ حـيـاتـهـ وـشـعـرهـ ، لأـمـانـيـ حـاتـمـ بـسيـسوـ ، وـيـنـظـرـ لـلـفـصـلـ الـأـوـلـ مـنـ الـدـرـاسـةـ الـعـلـمـيـةـ : مـحـمـودـ مـحـمـدـ شـاـكرـ ، الرـجـلـ وـالـمـنهـجـ ، لـعـمـرـ حـسـنـ الـقـيـامـ ، وـيـنـظـرـ لـمـهـادـ الـدـرـاسـةـ الـعـلـمـيـةـ : مـحـمـودـ مـحـمـدـ شـاـكرـ سـيـرـتـهـ الـأـدـبـيـةـ وـمـنـهـجـهـ الـنـقـديـ ، لإـبرـاهـيمـ الـكـوـفـحـيـ ، وـيـنـظـرـ لـلـبـابـ الـأـوـلـ مـنـ كـتـابـ : ظـلـ النـدـيمـ ، لـوـجـدانـ الـعـلـيـ .

(٢) يـنـظـرـ لـمـقـالـ (مـحـمـدـ شـاـكرـ) لأـمـدـ بنـ مـحـمـدـ شـاـكرـ : المـقـطـفـ الـمـجـلدـ ٩٥ـ ، أـغـسـطـسـ ١٩٣٩ـ مـ ، صـ ٣٠٠ـ .

بهدف إنشاء معاهد علمية تخدم الأرياف وهجر الصعيد وقراه ، وفي عام ١٩١٣ م ظهر عضواً في الجمعية التشريعية وأحيل إلى المعاش في نفس السنة بناء على طلبه ، ثم بدأ يخوض غمار السياسة فأيدى الحزب الوطني وانتوى له ، ونشر عدداً من المقالات السياسية التي تميزت بالدفاع عن الإسلام وعن وحدة الشعوب العربية والإسلامية ، حتى توفي بالفالج في عام ١٩٣٩ م ، وهو لم يؤلف - مع فقهه في الدين واستغلاله في آخر حياته بالسياسة - إلا ثلاثة كتب صغيرة الحجم في العقائد الدينية وفي ترجمة القرآن الكريم وفي المنطق الصوري^(١)، وبعد هذا العرض السريع لحياة محمد شاكر ومسيرته العلمية ومناصبه القيادية واستغلاله في آخر حياته بالسياسة، فقد يتوهם أنه كان في شغل من ذلك عن تنفيذ أبنائه وتشتيتهم العلمية ، ولكن ترجمة أحمد شاكر لأبيه والتي اعتمدت عليها في العرض الموجز السريع لحياة محمد شاكر العلمية والعملية نفت ذلك عنه ، حيث ذكر أحمد شاكر بأن والده كان يقرأ عليهم تفسير القرآن الكريم عدة مرات من كتب مختلفة ، كما قرأ لهم بعضاً من كتب الصلاح والفقه وأصوله ، بل وأصر على إخراج ابنيه أحمد وعلي من مدراس التعليم العام في عصره إلى مدراس متدينة تختتم بالعلم الشرعي ، وقد عاش محمود شاكر في كنف والده ثلاثين عاماً ، فقد ولد محمود عام ١٩٠٩ م حينما كان عمر والده اثنين وأربعين عاماً ، وهي نفس السنة التي عين فيها وكيلًا للجامع الأزهر، فمن الطبيعي جداً أن يتأثر محمود شاكر بثقافة والده ومشيخته وتراثه ، فما لبثت عينا محمود شاكر أن ترى النور إلا ووالده وكيلاً أزهرياً وفقيها حنكته التجارب والمناصب والسنين التي وصل بها إلى الرشد والنجاح ، وقد تبدلت آثار شخصيته على ابنه محمود خاصة ، فمحمود كان ذا نزعة دينية وقومية عربية قوية ، وكان قوي الإيمان بالثقافة الإسلامية وخصوص لها مؤلفات تزدود عنها وتنافح ، ولا عجب إن فعل شيئاً من ذلك وتلك صفات والده. إذن هذا هو المهد الذي نشأ فيه محمود شاكر في ظلال والد الكريم أولى العلم والتدين والثقافة الإسلامية جل ما يمكن أن يوليه من اهتمام ورعاية في مراحل حياته المختلفة ، ولكن تلك التنشئة والاهتمام لم تكن كافية لأن

(١) دلني على ذلك كتاب محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النقدي لإبراهيم الكوفحي : ص ٢٢ ، وقد دلني أيضاً

على المصدر الذي استقى منه آثار محمد شاكر العلمية ووجوده دقيقاً في النقل والتوثيق ، حيث نسب المؤلفات

العلمية لحمد شاكر عن طريق كتاب : مصادر الدراسة الأدبية ليوسف أسعد داغر ، ط بدون ، لمنشورات جمعية

أهل القلم في لبنان ، ج ٢ ، ص : ٤٦٦-٤٦٧ .

تقنع محمود شاكر في أن يحب اللغة العربية أو أن تجد إلى قلبه سبيلاً ، فمن العجيب أن يكون مثل محمود شاكر قد نشأ في هذه الحاضنة الثقافية الدينية واللغوية وهو ضعيف في دراسته الابتدائية في اللغة العربية حتى أخفق بسبب من ذلك في السنة الرابعة فأعادها مع ميله الشديد للغة الإنجليزية وحبها ، ومن الأعجب أن يكون إخفاقه في اللغة العربية في السنة الرابعة الابتدائية هو الطريق لأن يكون إماماً للغة نفسها وحاملاً للوائها ، فقد تسبب إخفاقه في تركه للمدرسة وبدء رحلته العلمية الكبرى في رحاب الأزهر الشريف ، فسمع فيه أولاً خطب الثوار وسمع في رواق السنارية مطارة شعرية ، وسمع فيه شعراً للمتنبي وأحبه ، واتفق أن أهداه ابن خاله ديواناً للمتنبي وفي ذلك يقول محمود شاكر :

" فلم أكُد أظفر به حتى جعلته وردي في ليلي وفي نهاري حتى حفظه يومئذ ، وكأن عيناً دفينة في أعماق نفسي قد تفجرت من تحت أطباق الجمود الجاثم ، وطفقت أنغام الشعر تتردد في جوانحي وكأني لم أجهلها قط ، وعادت الكلمة العربية في مكانها من نفسي وإن لم أجدها زحزحت شيئاً من الكلمة الإنجليزية التي غرسها دنلوب اللعين في غضارة أيامي ... " ^(١) .

وقراءاته للمتنبي في هذه السن الصغيرة وحفظه لديوانه هو ما حقق له بعد ذلك قراءاته النقدية للمتنبي في كتابه المتنبي ، بتلك الطريقة التي ملأت عالم الأدب في عصره وأشغلت معها الأدباء ، مما يدل دلالة وثيقة على عمق الأثر الثقافي الذي خلفته في نفسه وثقافته تنشئته بين يدي أبيه ، وزاد من الأمر أن تتلمذ وهو ابن الرابعة عشرة على يد الشيخ السيد بن علي المرصفي ، فأعاد محمود شاكر إلى لغته العربية وأصل في نفسه حبه لها ، وتأثر به تأثراً شديداً امتد في نفس محمود شاكر طويلاً، وقد كانت طريقة شيخه المرصفي في قراءة الشعر الشارة الأولى التي أوقدت النار في التندوق عند محمود شاكر ^(٢) فكان شديد التأثر بها وبنغمتها وبترديد كلمات البيت الواحد والوقف عندها وتذوقها كما يجب .

وقد تسربت طريقة المرصفي في قراءة الشعر لمحود شاكر على هذا النحو في حفاوة شاكر بالشعر الجاهلي خاصة ، وفي الحرص على قراءته وتتبع قواصيه ونواوره ، فقرأ كل ما وقع بين

(١) أباطيل وأسمار محمود شاكر : ص ٤٤٧.

يديه من دواوين الشعر الجاهلي، يقول شاكر في معرض حديثه عن قراءته الشعر الجاهلي على الشيخ الم Rafi'ي ومدى تأثيرها عليه : " وإن قراءتي على الشيخ أوقتنى على شيء مهم جدا ، شغلى واستولى على لي ... فعدت أدراجي أقرأ دواوين الشعراء الجاهلين ديواناً ديواناً ، شاعراً شاعراً ، ومن لم أجد له منهم ديواناً جمعت لنفسي ما بقي من شعره وقرأت شعره مجتمعاً ، وهذا المسلك في ترتيب القراءة جعلني أجد في الشعر الجاهلي شيئاً لم أكن أحده من قبل وأنا أقرأ الشعر الجاهلي متفرقاً على غير نظام ، مبعثراً بين الشعراء المختلفين ، أو وأنا أحفظ هذه المعلقات العشر وأدarsها^(١) معاني ألفاظها "^(٢) ، ومعنى هذا أن محمود شاكر كان مهياً ثقافياً لرد رأي أستاذته طه حسين حينما قال ما قاله في الشعر الجاهلي ، وأن الفضل في ذلك يعود بعد الله إلى الأثر العلمي الذي خلفه في نفسه وتفكيرهشيخه الم Rafi'ي ، إضافة إلى ما كان يخترله مخزونه الثقافي قبل مدارسة الم Rafi'ي واطلاعه على الشعر الجاهلي بجهوده الشخصية والتي تخوض عنها مثلاً حفظه للمعلقات العشر ، فالقول بأثر شيخه الم Rafi'ي الثقافي عليه حقيقة ظاهرة أقر هو بما خلفته في نفسه وفي فكره وفي طريقة تعاطيه مع هذا الشعر .

ولم تنحصر علاقة محمود شاكر الثقافية في مرحلة نشأته وتكوينه برمز أدبي كبير في عصره كالشيخ الم Rafi'ي ، بل تتجاوزها إلى قامة علمية أدبية أخرى كان لها عظيم الأثر في فكر محمود شاكر ، بل وامتزجت بحميمية أحاسيسها محمود تضضم في قلبه وهو في مرحلة دراسته الثانوية ، إنما علاقته مع الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي والذي أعاد بعض الدارسين علاقة محمود به وهو ابن أربع عشرة سنة^(٣) ، حينما قرأ له كتابه المساكين ، وحينما بعث إليه محمود شاكر برسالة يطالبه فيها بالذب عن القرآن الكريم من طعن القائل بأن قول العرب

(١) وردت هذه الكلمة في أصل المقال (إدarsها) وقد نبه صاحب جمارة مقالات محمود شاكر في الحاشية رقم (٢-١) على أنها وردت (إدarsها) في أصل مجلة الثقافة وأن الصواب فيها (أدarsها) وقد صدق في ذلك ولذلك قمت بإثبات الصواب في المتن بشكل مباشر لأن المعنى لا يستقيم مع ما أجزم بأنه خطأ مطبعي .

(٢) جمارة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ج ٢، ص ١١٧٨ .

(٣) ينظر : محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النبدي ، لإبراهيم الكوفحي ، وينظر لظل النديم لوجдан العلي ، ص

القتل أنفني للقتل أفضح^(١) من قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولَئِكَ بِالْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَوَّنَ﴾^(٢) ، ولعل أثر تعصبه للغة العربية وحبه لها قد تسرب كثير منه إلى نفسه من خلال أستاذه الرافعي ، وقد هيأ لذلك عاطفة حميمة متبادلة بينهما لبعضهما البعض ، على الرغم من فارق السن بين الأستاذ وتلميذه ، وقد عبر شاكر عن ذلك بقوله :

"عرفت الرافعي معرفة الرأي أول معرفته ، ثم عرفته معرفة الصحبة فيما بعد فلم أجد خيراً إلا خيراً مما كنت أرى ، وتبعدت لي إنسانية هذا الرجل كأنها نغمة تجاوب اختها في ذلك الأديب الكاتب الشاعر ، وظفرت بحبيب يحبني وأحبه ؛ لأن القلب هو الذي كان يعمل بيدي وبينه ، وكان في أدبه مسٌّ لهذا القلب..."^(٣)

ويكفي لإثبات ما يكتن بين جوانح محمود شاكر لأستاذه ذلك الرثاء الذي أوقفه عن هم أهمه ، رثاء تکاد حروف كلماته تقطر باللوعة والأسى والحزن العميق للفاجعة الكبيرة والنازلة الأليم وهي موت أستاذه وحبيبه الرافعي ، ذلك الرثاء الذي تكررت فيه الكلمة أيها الحبيب في مناجاة تشير كل العواطف ، وهو ذاته الرثاء الذي قطع به سلسلة مقالاته التي شن فيها هجوماً على طه حسين يتهمه فيها بأخذ كتابه المتبنى ، وأفرغ في رثاء الرافعي دواه حزنه وألمه في مقالة (نحو الرافعي)^(٤) ، وقد كان الرافعي يبادله الحب والإعجاب ويعلم يقيناً منزلته في نفس تلميذه ومن ذلك قوله : "وابن الشيخ شاكر هذا من المخلصين لنا كل الإخلاص والمعصبين كل النعصب ، أكثر الله من أمثاله ..."^(٥) ، وكان الرافعي حريصاً... على تلميذه وكثيراً ما كان يكتب إليه إذا هو تأخر عن مراسلته ، يسأله عن حاله وعن سبب انقطاعه عنه ، ولعله كان يرى في محمود خليفته الذي يحمل

(١) الرسالة كاملة مثبتة في كتاب حياة الرافعي لحمد العريان ، ط٣، عام ١٩٥٥ م ، للمكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، ص ١٧٢-١٧٤ ، نقلًا عن جريدة البلاغ عدد نوفمبر للعام ١٩٢٣ م .

(٢) سورة البقرة : الآية الكريمة رقم : ١٧٩ .

(٣) حياة الرافعي لحمد العريان : ص ٨ ، وهذا النقل من تصدر محمود شاكر لهذا الكتاب .

(٤) جمهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ج ١، ص ١٦٧ .

(٥) رسائل الرافعي لمحomed أبو رية ، ط١ ، عام ١٩٥٠ م ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

من بعده لواء التبشير بمذهبه في الفكر والأدب ...^(١) ، ولعل أهم تأثير كان للرافعي على محمود شاكر قراءة حما الآنية مؤلفات بعضهما وتبادلها النقد والإعجاب لأعمالهما الأدبية ، ومن ذلك نقد شاكر لكتاب (ابن الرومي حياته من شعره) ووصفه فيه بالتناقض^(٢) ، ويقابل ذلك قراءة الرافعي الآنية لكتاب المتنبي لتلميذه وثنائه عليه وإعجابه الشديد بما وجده فيه ، وتدل مقالة الرافعي التي كتبها عن كتاب المتنبي أنه قرأ ما فيه بعناية ومزيد من الاهتمام^(٣) ، وقد تسبب إعجابه به في الكشف عن عاطفته وميله الشخصي لتلميذه شاكر ، فهو يرى أن روح المتنبي المنسمة بالكرياء قد أظهرت كرياءها مرة أخرى على يد شاكر واعتزلت المشهورين من الأدباء العرب ، ووصف كتاب المتنبي بـ "البحث النفيس" الذي تبصر فيه مؤلفه لأشياء "كانت خافية ، وكان الصدق فيها ، ليرد بها على أشياء كانت معروفة وكان فيها الكذب ، ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التي جاءت من تلك النفس ذاتها ، لا الحياة التي جاءت من نفوس أعدائها وحسادها"^(٤) ، ومن أشد ما أعجب به الرافعي في هذا الكتاب أنه كشف سر حب المتنبي لخولة في باب كامل ، " وهذا الباب من غرائب هذا البحث ، فليس أحد من هذه الدنيا المكتوبة... يعلم هذا السر .. والأدلة التي جاء بها المؤلف تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي ، ومتى لم يستطع المرء نفيًا ولا إثباتًا في خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره ، فهذا حسبك إعجاباً يذكر ، وهذا حسنه فوزاً يُعَدّ .."^(٥) ، يضاف إلى ذلك تلك العلاقة التأثرية المشتركة بين الأستاذ وتلميذه بعض رموز الأدب في عصرهما ، وتلك المواقف المنسجمة التي اتخذها معاً لمواجهة أساطير كطه حسين وسيد قطب والعقاد ، فقد كانوا على خطوط تماس متقاربة أو تكاد تجاه هذه الشخصيات العلمية البارزة ، وقد يمكن بعد ذلك الإشارة إلى تلك العلاقة الخفية التي تبدلت لي من

(١) محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النبدي ، لإبراهيم الكوفحي ، ص : ٤١ .

(٢) على السفود ، مصطفى الرافعي ، ط١ ، عام ١٩٣٠ م ، دار العصور بمصر ، ص ٥٠ - ٥٣ ، وما اشتمل على شيء من ذلك أيضاً مقالات (بين الرافعي والعقاد) ، جمحة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان ج ١، ص ٣٦-٨ ، وكذلك مقال في ذكرى الرافعي (السابق، ج ١، ص ١٧٣-١٧٠) ومقدمة كتاب حياة الرافعي لحمد العريان .

(٣) جاء ذلك في مقالة نشرها الرافعي في مجلة الرسالة سماها (المقتطف والمتنبي) وهي مثبتة في وحي القلم لمصطفى الرافعي ، راجعه واعتنى بمدريوش الجويدي ط بدون ، تاريخ بدون ، المكتبة العصرية بيروت ، ج ٣ ، ص ٣٤٩ .

(٤) السابق ص ٣٥٠ : .

(٥) السابق : ص ٣٦ .

ثناء الرافعي على كتاب المتنبي ومن تأليف شاكر نفسه لكتاب المتنبي ، فثناء الرافعي له قد يكون منطلقه تقارب المنهجين العلميين بين كتابي ابن الرومي حياته من شعره وكتاب المتنبي ، وسر إعجابه به أن شاكر قد استلهم فيه نفس منهج كتاب ابن الرومي وجاء بما لم يأت به أحد بسبب من هذا المنهج ، لاسيما وأنه أول كتاب أخرجه محمود شاكر ولفت إليه الأنظار واسترعى به انتباه النقاد والأدباء ، أما شاكر فأكاد أصل بالشك إلى اليقين أن صنيع الرافعي حينماقرأ ابن الرومي كان حاضراً بين عينيه ، بدليل اطلاعه التام على هذا الكتاب ونقده له كما سبق ذكره آنفاً ، وبدليل أنهقرأ المتنبي هو أيضاً من وجهة قريبة من قراءة شيخه لابن الرومي ، إلا أن الآكاد من ذا وذاك أن الرافعي قد أحدث أثراً ثقافياً لا تخطئه العين في فكر محمود شاكر وحياته الأدبية في بداية نشأته وتكوينه.

الثقافة والتجربة عند محمود شاكر : ثانياً : مرحلة الثورة:

كان للمرصفي والرافعي كما سبق ذكره أثر بالغ في تكوين محمود شاكر الثقافي في مرحلة نشأته الأولى ، إلا أن هذا الأثر لم يستطع أن يغيّر مسار محمود شاكر في وجهته الدراسية في مرحلة دراسته الثانوية ، فمع اطلاعه الكبير الذي تمت الإشارة إليه آنفاً بفضل شيخيه على الشعر والأدب ، إلا أنه توجه في دراسته للقسم العلمي في مرحلة البكالوريا بسبب حبه للرياضيات واللغة الإنجليزية وتمكنه منها ، ولكن محمود لم يسلم نفسه لهذا المسار في مرحلة دراسته الجامعية ، على الرغم من وجود نظام لا يتيح له الالتحاق بالأقسام الأدبية في الجامعة إذا كان مسار دراسته في مرحلته الثانوية علمياً ، إذ وجد في نفسه بعد مدارسة شيخيه حبًّا للغة العربية من جهة ، ورغبة منه في مخالفة زملائه الذين التحقوا بالأقسام العلمية في الجامعة من ناحية أخرى كما تشير لذلك المؤلفات التي رصدت معلم مسيرته العلمية^(١)، بل وكما أقر بشيء من ذلك بنفسه في بعض مقالاته^(٢) ، إلا أن

(١) ينظر لالفصل الأول من الدراسة العلمية : محمود محمد شاكر دراسة في حياته وشعره ، لأماني حاتم بسيسو ، وينظر للفصل الأول من الدراس العلمية : محمود محمد شاكر ، الرجل والمنهج ، لعمر حسن القيام ، وينظر لمหาย الدراة العلمية : محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النافي ، لإبراهيم الكوفي وينظر للباب الأول من كتاب : ظل النديم ، لوجдан العلي .

(٢) ينظر في ذلك لمقالة (المتنبي ليبني ماعرفته) ، جمهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان ، ج ٢ ، ص : ١٠٩٣ -

طه حسين له يد لا ينكر محمود فضلها عليه ، فقد استطاع إقناع مدير الجامعة بإلحاقي شاكر بكلية الآداب بجامعة القاهرة وقد أقر بذلك شاكر نفسه ^(١)، والعجيب أن طه حسين الذي كان سبباً لدخول شاكر إلى الجامعة كان هو ذات السبب لخروجه من الجامعة ، بعد أن قال طه ما قال في الشعر الجاهلي وبعد أن ي sis الشري بينه وبين أستاذته بسبب من ذلك ، ومع توقير أهل العلم وإجلالهم والتأدب بين يديهم الذي نشأ عليه محمود شاكر ورشف لبانه منذ صغره ، إلا أنه لم يتزدد في الاعتراض على رأي أستاذته طه في الشعر الجاهلي ، وقد كان مؤهلاً ثقافياً لأن يتهمه بأن ماجاء به ليس إلا حاشية لمقالة مرجلبوت في الشعر الجاهلي ، ومن هنا نشأت بينه وبين طه خصومة أدبية يكره شاكر كثيراً وصفها بالخصوصية الشخصية ^(٢).

وتعود هذه المرحلة بالذات الأهم والأكبر في التكوين الثقافي لدى محمود شاكر بل والمنهجي أيضاً ، فقد اضطره رأي أستاذته طه حسين لأن يقلب موروث التراث العربي و لا يخرب منه شيئاً مما وقع بين يديه منه ، كما دفعه منهج أستاذته الذي استخدمه لأحجية الشعر الجاهلي لأن يستخلص لنفسه منهجاً يقابله وينافح به عن معتقده الأصيل بسلامة وصحة الشعر الجاهلي ، واستخلاص ذلك المعتقد عن طريق الشعر نفسه بمنهاج التذوق الذي طبقه على كل كلام ، فلا غرو أن يكون طه حسين المحور الرئيسي للتكوين الثقافي والتجربة العلمية عند محمود في مرحلة شبابه وفتوله ، فقد قذف به موقف أستاذته وسط دائرة ثقافية كبيرة جداً اتّزمه فيها شاكر تسليع نفسه وفكه بالفكر العربي القديم الأصيل في مختلف المجالات والتخصصات .

وبفضل تلاقيه أثر ثقافة النشأة والتكوين وثقافة الشباب على يد المرصفي والرافعي وآراء طه حسين ، أنتج محمود شاكر أول نتاج أدبي له استوقف إليه الأنظار وعرفه به الوسط الثقافي في العالم العربي كله واستطاع به أن يحصل جائزة الملك فيصل العالمية خلال العام الهجري الرابع بعد الأربع مائة وألف ^(٣) ، ولم يكن الخلاف محصوراً بين الأستاذ محمود شاكر وطه حسين على محبة الشعر الجاهلي فقط دون سواها ، فقد امتد الخلاف

(١) جهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان ، مقالة (المتنبي ليتني ماعرفته) : ج ٢، ص ٩٧٠ .

(٢) السابق : ج ٢، ص ١٠٠٠ .

(٣) نشر محمود شاكر شهادة براءة جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي في كتابه المتنبي ص : ١٩٥ .

بينهما لما هو أشد وأكبر ، وذلك حينما اتهم محمود شاكر طه حسين أنه قد سطى سطوا ملفعا على كتابه المتنبي ، بعد أن أخرج طه كتابه مع المتنبي في نفس السنة التي أصدر فيها محمود شاكر كتابه عن المتنبي عام ستة وثلاثين وتسعمائة وألف للميلاد ، فكتب في ذلك سلسة مقالاته المشهورة (يبني وبين طه)^(١) ، ولم يوقفه عن كتابة هذه المقالات إلا موت أستاذته وشيخه مصطفى صادق الرافعي.

ومن ينظر لهذه المقالات وغيرها وهجوم شاكر فيها العنيف على طه حسين في مرحلة شبابه وفتوته ، لا يتورّم بأن شاكراً نفسه عند نضجه واكتهاله سيتوب من الهجوم على أستاذته ويرئه من تهمة فساد الحياة الأدبية ، والتي كانت أصابع شاكر تشير كلها إلى طه حسين فيها ، فقد وجدت في مجلة الكاتب المصرية في عدد شهر مارس للعام الميلادي خمسة وسبعين وتسعمائة وألف مقابلة صحفية أثني فيها شاكر على طه حسين ويرأه فيها من التهم التي كالملا لاه في مرحلة ثورته الثقافية ، يقول شاكر فيها بعد أن ذكر قصة إنشاء جامعة القاهرة " ولكن لم تكدر تمضي سنة على إنشاء الجامعة ، حتى صرنا إلى أمرٍ غريبٍ جداً : لا يكاد يُذكر اسم الجامعة حتى ينصرف ذهن كل سامع إلى كلية الآداب وحدها ، ثم إلى الدكتور طه حسين وحده ، مع أن عدد طلبة كلية الآداب كان يومئذ يُعد بالعشرات ، وكان عدد طلبة قسم اللغة العربية من هذه الكلية يكاد يعد على الأصابع ، أيُّ أnek تستطيع أن تقول بلا تجُوزٍ كثير : إن طه حسين كان عند الناس هو الجامعة ، وكانت الجامعة عندهم هي طه حسين..." وبين أن الفضل في ذلك راجع إلى طه حسين ، وإلى ما أثاره يومئذ من صراع عنيف في الحياة الأدبية لذلك العهد ، ثم يمضي فيبرئ طه من بعض التهم التي اتهمه بها ويسوق لذلك بعضا من الأدلة ، يقول في ذلك : "لقد لقي طه حسين يومئذ ما لقي ، ونُسبَ إليه ما أقطعه بأنه بريء منه ، والدليل على براءته عندي ، هو أنه منذ عرفته في سنة ١٩٢٤ إلى أن تُوفي في ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ ، كان كما وصفته في أول حديثي ، محبًا للسانه العربي أشدَّ الحب ، حريصًا على سلامته أشدَّ الحرث ، متذوقًاً لروائعه أحسن التذوق؛ فهو لم يكن يريد فقط باللسان العربي شرًّا ، بل كان من أكبر المدافعين عنه ، المنافحين عن تراثه كله إلى آخر حياته. وحال أن يُخْتَشَرَ من هذه خصاله في زمرة الخباء ، ذوي الأحقاد من ضعاف العقول والنفوس ، الذين ظهروا في الحياة العربية لذلك العهد ، بظهور سطوة الاستعمار ، وسطوة التبشير ،

(١) نشر شاكر تلك المقالات في كتابه المتنبي ونشر قصته مع طه حسين في ذلك : ص ٨ وما بعدها.

وهما صنوان لا يفترقان " ثم يمضي ليسوق دليلا آخر على تبرئة طه حسن من فساد الحياة الأدبية التي كانت عنوانه العريض حينما يكتب عن طه شيئاً ، وذلك الدليل يتلخص أنه حين انجلح غبار ما أثاره طه حسين بكتابيه «في الشعر الجاهلي» «مستقبل الثقافة في مصر» ، ومع أخهما كتابان لا قيمة لهما من الوجهة العلمية عند محمود شاكر ، فقد انجلح بعد ذلك نفس طه حسين ونافق به ما كتبه وما قاله في كل ما في هذين الكتابين من فساد! وأعاد سبب ذلك إلى هذه الخصال الحميدة التي كادت تكون في نفسه ، وفي حبه للعربية ، وحرصه على سلامتها ، وما هداه الله إليه من حسن التذوق لروائع البيان ، وقد أسهם ذلك كله من وجهة نظر شاكر في شهرة طه حسين ، وفي ارتباط حياته بحياة هذه الأمة العظيمة من العرب والمسلمين ، ويرى محمود شاكر في هذا اللقاء الصحفي أن طه حسين أدرك إدراكاً واضحاً جداً، أن اللسان العربي قد صار في محنٍ، لا في نفسه بل في هذه الأعداد الهائلة من المثقفين الذين رفضوا الأدب العربي كله، ورفضوا القديم كله، شعره ونشره، ليس في مصر وحدها، بل في كثيرون من البلاد العربية، وأن أعدادهم إلى تكاثرٍ كلما تقدمت الأيام؛ فأخذ يُعبر عن ذلك بألفاظ محزنة باكية، وحاول أن يتآلف هؤلاء النافرين، ويرد لهم أدبهم القديم لكي يظل قِواماً للثقافة، وغذاءً للعقل؛ لأنه أساس الثقافة العربية ، ويعتبر شاكر أن مقامه به طه حسين في ذلك كان مقوتاً للشخصية العلمية العربية ومحقاً لقوميتها ، وعاصماً لها من الفناء في الأجنبي ، ويعينا لنا على أن نعرف أنفسنا ، هذه الكلمات لو تمت مقابلتها بتلك التي كتبها محمود شاكر في بداية خصومته الأدبية مع طه حسين لتوهم في نسبتها إليه ، ويكتفي أن تتم مقابلتها بتهمة الفساد الحياة الأدبية التي دنن عليها شاكر في غير ما موضع من كتاباته^(١) ، بل واتهامه الصريح بالسطو والثرثرة وصفاً لما جاء به طه في الشعر الجاهلي^(٢) ، وتجريده من الأصالة العربية كلها وملئه فمه بما يعمّ الحقائق ويبدل وجهتها^(٣) ، والتي تتصل بطه حسين اتصالاً مباشراً بعد أن قوض معنى الجامعة في نفس تلميذه محمود شاكر ، ولعل محمود شاكر أراد من ذلك بعضًا من الرجوع

(١) ينظر رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمد شاكر ص: ٦ وما بعدها ، وينظر لمقدمة كتاب المتنبي لمحمد شاكر ص: ٨ وما بعدها .

(٢) ظل النديم لوجдан العلي ص: ١٣٢ .

(٣) أباطيل وأسمار لمحمد شاكر : ص ٢٧١ .

وشيئاً من التوبة عما أساء به لأستاذه في مرحلة الشباب وعنفوانه وبعد أن نضج واكتهل وحنكته التجارب ، وأيما كان الأمر فإن طه حسين هو المحور الرئيس الذي أثر على حياة شاكر الثقافية في مرحلة شبابه وفتنته .

الثقافة والتجربة عند محمود شاكر : ثالثاً : مرحلة النضج والإنتاج العلمي :

يمكن عد أحمد محمد شاكر الأخ الأكبر لمحمد شاكر أهم رافد ثقافي له مرحلة ما بعد الثورة والشباب ، على الرغم من اتصاله به وتأثره به وهو في صغره ، إلا أن الذي يدفع لجعل تأثير أحمد في هذا الموضوع أن أحمد شاكر رحمة الله جائعاً كان صارفاً همته للحديث البوبي الشريف وعلومه واهتم بعلم بالتفسير حتى سماه محمود نفسه (إمام المحدثين)^(١) ، فبعد أن صرف محمود شاكر همته إلى ثقافة واسعة في تذوق الكلام بعد أن أصبح بمحنة الشعر الجاهلي ، وكان من بين مواد تلك الثقافة علمي الحديث والتفسير ، وقد وجد في أحمد شاكر أستاداً له وشيخاً في هذين المجالين ، فأسقط ما أخذه منه في علوم الحديث على رواية الشعر العربي ، وأخرج بفضل الله ثم بعلم أخيه تفسير الطبرى ؛ حيث لم يتعدد محمود شاكر في بيان فضل أخيه عليه في صغره وكبره وفي تحقيق تفسير الطبرى خصيصاً^(٢) . ومن العلماء الذين أثروا في تجربة محمود شاكر وثقافته في هذه المرحلة ، الشيخ محمد عبد الحى ابن عبد الكبير الإدريسي^(٣) ، وقد كان محمود شاكر يلازمه حين يسمع بوفاته إلى مصر فتأثر به تأثراً شديداً ،

(١) جاء ذلك في مقدمة كتاب حكم الجاهلية لأحمد محمد شاكر ، ط١، عام ١٩٢٢م، مكتبة السنة بالقاهرة ، ص ١٩٢ و ما بعدها ، حيث صدر محمود شاكر لهذا الكتاب وأطلق عليه إمام المحدثين في هذا التصدير.

(٢) يقول محمود شاكر في فضل وجهد أخيه أحمد شاكر في تحقيق تفسير الطبرى خاصة : "...فتفضل أخي أن ينظر في أسانيد أبي جعفر ... فيتكلم عن بعض رجالها ... ثم يخرج ما فيها من أحاديث ... فإن وجد بعد ذلك فراغاً نظر في عملي وراجعي واستدرك عليه ، فشكترت له هذه اليد التي طوقني بها ، وكم له عندي من يد لا أملك جزاءها... وحسبه من معروف أنه سدد خطاي صغيراً ، وأعاني كبيراً "تفسير الطبرى ، ج١، ص ١٢-١٣ .

(٣) محمد عبد الحى بن عبد الكبير الحسنى الإدريسي الكتani ولد في فاس بالمغرب سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م - وتوفي في مدينة نيس ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م ، من أكبر علماء المغرب في الفقه الإسلامي ، وله ثلاثون ومائة كتاب مؤلف ، ينظر لكامل ترجمته في مقدمة فهرس الفهارس والأثبات ، ومعجم المعاجم والأشياخ والمسلسلات ، محمد عبدالحى الكتاني ، اعتمى به إحسان عباس ، ط٢ ، عام ١٩٨٢م ، لدار الغرب الإسلامي بيروت ، ج١ ، ص ٤٤-٤٥ .

وقد ذكر محمود شاكر شيئاً من أثره وفضله في مقالة له أسمها باسمه^(١)، ويرى الدكتور إبراهيم الكوفحي أن محمود شاكر قد تأثر بالكتابي تأثراً بالغاً بشكل خاص في اقتناء الكتب والمخطوطات واللقاء بأهل العلم وخاصة ، وهذا ما يفسر اهتمام محمود شاكر بإخراج المخطوطات وتحقيقها وقراءته وتعليقاته عليها والتي هي بين يدينا الآن ، فقد أعقب ملازمته لهذا العالم تحقيقه لكتاب (فضل العطاء على اليسر لأبي هلال العسكري) ، ثم تتوالى بعد ذلك التحقيقات وإخراج المخطوطات التي استطاع اقتناءها في تلك المرحلة وبأثر بالغ من منهج شيخه الكتابي . ومن العوامل المؤثرة في مسيرة محمود شاكر وتجربته في هذه المرحلة أيضاً المجالات والجرائد الثقافية ، التي كانت ميداناً عريضاً تباري فيه أفلام الكبار ، وقد سطر فيها محمود شاكر عصارة ثقافته وتجربته ، وتبين الإشارة إلى أن جل أعمال محمود شاكر الأدبية ومجهوداته في التأليف هي في حقيقتها مقالات نشرت على صفحات تلك المجالات والجرائد السائدة في عصره ، كمجلة الرسالة، والمقططف ، والزهراء ، وجريدة المقططم، والبلاغ ، والدستور وغيرها ، فقد ضم محمود مجموع مقالاته في كتب كالمنبي ، وأباضيل وأسمار ، ونقط صعب وغط مخيف ، وقد قام الأستاذ عادل سليمان بجمع مقالاته الأخرى في كتاب نفيس أسماه (جمهرة مقالات محمود شاكر) ، ويكفي في ذلك أن نشير لأثر المجالات والجرائد الثقافية على تجربة محمود شاكر - غير ما ذكر آنفاً - إلى تلك المقالات التي نشرها في مجلة المقططف لنقد كتب أدبية ، ككتاب صحي الإسلام لأحمد أمين^(٢) ، وأنتم الشعراء لأمين الرحابي^(٣) ، والنشر الفني في القرن الرابع الهجري لزكي مبارك^(٤) . ومن العوامل المؤثرة على ثقافة محمود شاكر وتجربته في مرحلة النضج وما بعدها تلك الصراعات الأدبية والنقدية مع أدباء ونقاد عصره ، بعد أن زاد رصيده

(١) نشرت هذه المقالة في مقدمة مجلة المقططف في المجلد ٨٢، ص: ٤٨٣ عدد إبريل ١٩٣٣ م ، وأتبها صاحب جمهرة مقالات محمود شاكر عادل سليمان : ج ٢، ص ٦٣٠.

(٢) المقططف ، المجلد ٨٢، ص ٣٦٥-٣٦٠، مارس لعام ١٩٣٣ م ، (جمهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان ج ٢، ص ٦٢٣-٦٢٩).

(٣) المقططف ، المجلد ٨٣، ص ٢٩٢، ديسمبر لعام ١٩٣٣ م ، (جمهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان ج ٢، ص ٦٦٣-٦٦٥).

(٤) المقططف ، المجلد ٨٤، ص ٥١٤-٥١١، إبريل لعام ١٩٣٤ م ، (جمهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان ج ٢، ص ٦٨٢-٦٨٦).

الثقافي في مرحلتي الصغر والشباب ، وقد استدعي محمود شاكر في هذه المرحلة ما استجمعته من ثقافته وتجربته السابقة ليحتشد إلى ما تطلبه هذه المرحلة من ثقافةٍ هي أكبر من أختيها ، وقد أشرت آنفًا للتأثير الذي خلفه عليه الشيخ محمد محي الدين الكتاني ، حيث نحضر محمود بتأثر من شيخه الكتاني إلى كتب التراث العربي لا ليقرأها فحسب ، ولكنه نحضر إليها ليخرجها إلى أهل العلم من نسخها الأولية التي خطتها يد الوارقين والنساخ وأهل العلم وخاصة ، فأجلأه تحقيق هذه الكتب إلى الاستفادة من ثقافات الآخرين ولا سيما أولئك الذين كانوا يحييون في محمود شاكر جانب تحقيق كتب التراث ، كمحب الدين الخطيب^(١) ، حيث كان "يتعدد على الخطيب في دار المطبعة السلفية فكتيرا ما كان يوجهه إلى بعض الأعمال النافعة في هذا المجال ، أو يطلب منه مساعدته في تحقيق بعض الكتب التراثية وتصحيحها"^(٢) فسبباً لإخراجه لتلك الكتب صراعاً أدبياً مع العديد من الشخصيات البارزة ، كعلي جواد الظاهري ، والسيد صقر .

كما قامت في هذه المرحلة صراعات ثقافية مع شخصيات بارزة أخرى على خلفية بعض الآراء والأحكام والمناهج العلمية التي لم يرضها شاكر ، ووصل في تلك الصراعات إلى ذروة الانفعال بل والتطاول على أصحاب تلك الآراء لا الآراء نفسها ، كما فعله مع لويس عوض في أباطيل وأسمار ، وقد كان محمود شاكر جريئاً جداً في بيان آرائه العلمية في تلك الصراعات ، غير مبالٍ حين يتعلق الأمر بالعلم بالأسماء الكبيرة واللامعة ، كطه حسين ، وسيد قطب ، وعلى الطنطاوي ، وركي مبارك ، وسلامة موسى ، ومحمد رجب البيومي ، ولويس عوض ، وشوفي ضيف ، وقد تسرب أثر جرأته العلمية إليه من جرأته الشخصية التي أدخلته المعتقل ، فقد تجرأ على ذات رئيس الثورة جمال عبد الناصر وقام بسبه وشتمه مع صديقه يحيى حقي ، وكلفة ذلك السجن تسعة أشهر من عام تسعين وخمسين وتسع مائة وألف

(١) محب الدين بن أبي الفتح محمد عبد القادر صالح الخطيب ولد بدمشق عام ١٣٠٣ هـ - ١٨٨٦ م وتعلم بالآستانة حضر إلى القاهرة ١٩٠٩ م وعمل في جريدة المؤيد ، ثم قصد العراق فاعتقله الإنجليز سبعة أشهر ، ثم ذهب إلى مكة المكرمة عام ١٩١٦ م فحكم عليه الأتراك بالإعدام غيايا ثم استقر في مصر سنة ١٩٢٠ م ، وأنشا مجلتي الزهراء والفتح ، وأنشا المطبعة السلفية ، وتوفي في القاهرة سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٦٩ م .

(٢) محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النبدي ، لإبراهيم الكوفحي : ص ٥٧ ، وينظر في ذلك أيضاً لكتاب محمود محمد شاكر الرجل والمنهج لعمر القيام : ص ٦٨ .

للميلاد^(١) ، وربما كانت جرأته هذه أحد الأسباب التي دفعته للنيل من بعض خصومه في المجالات العلمية ، والتصرّح والتلميح بما يسيء لهم ولفكرهم من ألفاظ عالية الحدة في نبرتها تحكمها وإساءة ، وغاية ما يقال أن الكتابة في الجرائد وال المجالات الثقافية التي تراقص فيها أعمدة الكبار وتحبّر اتهم العلمية ، تستدعي من محمود شاكر أن يطّلع ويبحث وينقب في الكتب القديمة والحديثة عما يود الكتابة فيه ، ولاسيما تلك الكتابات التي تحمل وجهاً من وجوه الصراع والخصومات الأدبية التي كان محمود طرفاً رئيساً فيها .

لقد شكلت ثقافة محمود شاكر وتجربته مصدرًا مهمًا من مصادره المعرفية ، وكانت رافداً ومعيناً لتكوين شخصيته العلمية التي وصلت لهذه المنزلة المرموقة في أدبنا الحديث ، وقد اطلعت على وصف مكتبه الخاصة التي كانت ركاماً بعده فوقي بعضه من ثقافات محمود شاكر على مر السنين والأيام ، فقد ذكرت الأستاذة عايدة الشريف أن مكتبة محمود شاكر (مكتبة فيها بيت) ، تكاد تجد رفوف الكتب والكتب في أضيق مرات البيت وزواياه، ومع ضخامة هذه المكتبة فإنك لا تكاد تجد فيها كتاباً إلا وفيه أثر من تلخيص أو إشارة أو إضافة مرجعية لفكرة معينة ، يزيد من إجلال تلك المكتبة وعظمتها هيبة صاحبها العلمية واطلاعه الواسع على مافيها، حتى وصفته الأستاذة بقولها :

"إذا به يتجلّى أمامي صرحاً إنسانياً وثقافياً شاخحاً..."^(٢).

وكان بيت محمود شاكر "ندوة متصلة لا تنفصل من أعضائها الثابتين ... فأراهم وأرى من العالم العربي كله ، ومن العالم الإسلامي على تراثيه شخصيات لا حصر لها ، تتبادر بعضها عن بعض في الزي ، والمظهر ، والثقافة ، واللهجة ، والشواغل والمطامح ، ولكنها تلتقي كلها عند محمود شاكر تسمع له وتتأخذ عنه ، وتقرأ عليه ، وتتأثر به ..." ، وليس الإيمان بثقافة محمود حكراً على محبيه ومربيه من طلبة العلم وأهله ، ويكتفي في ذلك أن نشير إلى رأي لعباس محمود العقاد الذي قام محمود شاكر بمساجلته أدبياً في بعض آرائه العلمية

(١) حياة شاكر وشعره لأمانى بسيسو : ص ٣٣-٣٤.

(٢) محمود محمد شاكر قصة قلم لعايدة الشريف : ص ١٦.

(٣) السابق : تصدير محمود الطناحي : ص ٦.

ونصرة لشيخه مصطفى الرافعي ^(١)، حيث قام العقاد بتوجيه أحد طلاب الفلسفة بأن يحضر مجالس محمود شاكر ^(٢)، وفي هذا دلالة عميقة على تنوع مشارب الثقافة التي تكون منها فكر محمود شاكر رحمه الله ، إذ ليست حكراً على الأدب العربي واللغة العربية ، بل هي ثقافة عامة جعلت من محمود شاكر مرجعاً يرجع إليه العلماء في شتى مجالات العلم وتخصصاته ^(٣).

(١) ينظر في ذلك للمقالات الخمسة (بين الرافعي والعقاد) ، التي نشرها مجلة الرسالة ، العدد ٢٥٤ ، لعام ١٩٣٨ م ، ص ٢٧ ، ونشرها أيضاً صاحب مجهرة مقالات محمود شاكر عادل سليمان : ج ١ ، ص ٣٦-٨.

(٢) ذكر ذلك الدكتور محمد رشاد سالم في إحدى أيام ميلاد محمود شاكر في يوم عاشوراء ، حيث يجمع فيه الأصحاب والخلان على سنة أشرف الصعيد في هذا اليوم ، ظلل النديم لوجдан العلي : ص ٨٣.

(٣) ذكر ذلك عنه أيضاً الدكتور محمد رشاد سالم قوله : "وقد استفدت منه كثيراً في مجال الدراسات الإسلامية وفي مجال الفلسفة وفي مجال تقويم الفكر وفي مجال العمل والدعوة لهذا الدين ولعقيدته مما قد لا يتتبه إليه كثير من الناس".
ينظر للسابق : ص ٨٣.

الفصل الثاني : طرائق الاستنباط

تمت الإشارة في الشق الثاني من مهاد هذه الدراسة إلى أن بعض الدارسين قد عدوا المنهج الاستنباطي من أنسجم المناهج العلمية ، فهو منهج يسعى في نهاية المطاف إلى إخراج ما كان خفيا ليظهر للعيان ، وإذا ما تم ربط الاستنباط بالأدب العربي فإن الرابط لا يخلو من أحد أمرين :

أولهما : إما أن يكون الرابط عن طريق استنباط مفاهيم أدبية ونقدية لا تواجه النص الشعري بشكل مباشر ، أو أنها تواجهه مواجهة غير مقصودة لذاها ؛ بمعنى أنها لا تسعى لمواجهة النص وإنما تستخدمه وسيلة ؛ غايتها بيان بعض من المفاهيم والأحكام النقدية والأدبية .

ثانيهما : أن يكون الرابط عن طريق استنباط ما في النص الشعري من قيم جمالية ومعاني مستتبعة لا تراها عين القارئ العادي ، بل يستبطنها فقط ويستخرجها من أصدافها الناقد الحصيف الذي أُتي جانباً من النسوج والفهم والإدراك والشموليّة العلمية والذوق الفطري المدرب .

والحق أن الاستنباط الأدبي عند محمود شاكر كان يسير في هذين الاتجاهين ، وكانت تتمحض منه نتائج تسترعي الانتباه وتستحق أن يشار إليها وإلى طرائقها ، وينبغي أن يشار إلى أن المقصود بالاستنباط المرتبط بمواجهة النص لا يتمحور فقط في معنى الشرح وبيان الدلالة الظاهرة المنطوق النص أو مفهومه المباشر المرتبط بمنطوقه ، فقد تكون مجرد القراءة العادية لبعض النصوص الشعرية كافية لبيان دلالاتها وممضان جمالها ، وإنما المقصود به استخراج وداع النص الخفية التي لا يراها كل أحد ، والاستنباط من النص بهذا المعنى يكون مرتبة تالية لفهمه وقراءته الظاهرة ، وسأحاول في هذا الفصل أن أكشف عن طرائق الاستنباط عند محمود محمد شاكر رحمة الله ، عن طريق وضع الاستنباط عنده تحت خطين عريضين ، هما :

- الاستنباط بمنطوق النص وأدلته الظاهرة المرتبطة بمنطوقه .

- الاستنباط بالمفهوم وتأويل ذلك المفهوم حتى يكون في إقناعه ودلاته كالمقطوع نفسه .

وفي كلا الأمرين سيتم النظر إلى الأمر المستنبط والفائدة العلمية المتعلقة به عند محمود شاكر تحت هذين الخطين العريضين ، فإن تبين خطأ الاستنباط تمت الإشارة إلى خطأه وكذلك خطأ ما يترب عليه من نتائج ، وإن تبين

صحة المستبطة ، تم ربطه بدلبله ومحاولة استبصار المناسبة بين الدليل والاستدلال به ، إذ ليس بالضرورة أن يكون الاستبطة مرتبطاً بدلبل أورده مستبطة حتى وإن كان الاستبطة صحيحاً فيما لو استدل عليه بدلبل آخر لا يدل عليه ؛ وبذلك قد يكون الاستبطة بالمنطق صحيحاً أو خاطئاً ، أما إذا كان الاستبطة مرتبطاً بالمفهوم فلا بد أن يعرض التأويل الذي تم الاعتماد عليه للمساءلة والاختبار ، وذلك بأن يكون مقبولاً ومقرراً بحسب ما تنص عليه الأصول النظرية للأدب والنقد ، وأن يكون واضحاً وقوياً ومبيناً على أساس متين ، فالاستبطة بالمفهوم عند البعض يكون ضعيفاً هشاً لا يصح الاعتماد عليه ولا النظر فيه ، وبهذا أيضاً يكون الاستبطة بالمفهوم والتأويل صحيحاً أو خاطئاً أو ضعيفاً هشاً .

هذا ومحاولة رصد ذلك كله وإيجاد شواهد له عند محمود شاكر ، يحتاج فيه وفي غيره إلى توفيق الله وسداده قبل كل أمر ، و يحتاج إلى مزيد من جهد و إعادة نظر وطول صبر ، لا سيما تلك الاستنباطات التي تراءى للباحث أنها ليست كالاستنباطات ذات القيمة العلمية عند الأستاذ محمود شاكر ، وليس مأم هذا البحث وغايته تصيد تلك الاستنباطات والإشارة إليها ، ولولا أن حق العلم علينا أن نبنيها ونصحح مسارها لما تجرأت على أراء عالم كبير كمحمود شاكر رحمه الله ، ولكن محمود شاكر نفسه رحمه الله كان يُسرّ كثيراً حينما يتم الاستدراك عليه وتبصيره بالصواب ، فهذا تلميذه النجيب محمود الطناحي ، يستدرك عليه بعض استنباطاته في قراءته لطبقات فحول الشعرا ، فيقول:

" هناك إن أذنت يا شيخنا بعض الأشياء التي استشكلتها في طبقات فحول الشعرا " ، فيسرد عليه تلك الملاحظات ويرد عليه محمود شاكر بقوله : " كل ما قلته صحيح ... "^(١) ، ثم يقوم محمود شاكر نفسه بضم هذه الاستدراكات في آخر كتابه طبقات فحول الشعرا ، وينسب الخطأ إلى نفسه والصواب إلى تلميذه محمود الطناحي ، فيقول : " أفادني ولدي محمود الطناحي بكلـا... "^(٢) ثم يذكر تصويب تلميذه وخطأه هو ، وهكذا تكون أخلاق العلماء ، والله وحده حسبنا ونعم الوكيل .

(١) ظل النديم لوجдан العلي : ص : ٣٩ - ٤٠ .

(٢) طبقات فحول الشعرا لابن سلام الجمحى ، ج ٢ ، ص ٩٨٢ .

المبحث الأول : المسطوق وأدلته الظاهرة

نقصد بدلالة المسطوق عند محمود شاكر الأحكام النقدية والأدبية وحتى اللغوية المبنية على الدلالة المناسبة بين النص ومعانيه ودللات ألفاظه ، ولا يُستطيع إلى تلك الدلالة حتى تستبان معانٍ النص و تتضح جلياً في ذهن كل مريد للاستنباط ، والمعانٍ التي وضعت للألفاظ وحفظتها معاجم اللغة العربية ذات مقاصد ومغازي يدركها من كان ملماً باللغة العربية كمحمود شاكر ، ومعانٍ الألفاظ الدلة عليها مستقرأة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفصيح كلام العرب شعره ونشره . وفهم النص فهماً شاملًا هو الأساس الصحيح للاستنباط السليم السوي ، ولا يمكن أن يكون الاستنباط صائباً إذا كان مبيناً على عدم الفهم والإدراك لمضمونه ، وقد تكون النصوص طبقاً لذلك ظاهرة المعنى لا تحتاج إلى بيان وبث عن دلالتها ، وهي تلك النصوص التي يستطيع أن تفهم بدون عناء وكد ، ومن هذا النوع جاءت بعض استنباطات محمود شاكر وخصوصاً في كتب تحقيق التراث مما سينتفي بيانيه في هذا البحث ، ونصوص أخرى تحتاج إلى إلمام باللغة وسبر لأغوارها كي يستنبط منها حكم بدلالة منطقها ، وقد استخدم محمود شاكر هذه النصوص وأطال النظر فيها واستنبط منها أحكامه النقدية والأدبية والبلاغية ، وقد كثر استنباطه من هذه النصوص حينما قرأ المتنبي وقرأ قصيدة (إن في الشعب الذي دون سلع) .

والحق أن محمود شاكر حينما يلجأ إلى استنباط النصوص فإنه يقوم بتحميلها أعباء تنوع باستنطاقها الأذواق والعقول الأخرى ، وقد يستحلب منها فهمه ما يجعله يستدرك على غيره كثيراً غير ملتفت إلى من يستدرك عليه ، فتكون له من ذلك استدراكات كثيرة على معاجم وكتب اللغة جعلها ثبتاً في آخر بعض كتبه التي قام بنائها أو تحقيقها ، فيسميهما (الالفاظ من اللغة أخلت بها المعاجم أو قصرت في بيانها) ، وكان هذا ناتجاً طبيعياً لتمكنه اللغوي من ناحية ، وقراءته للنصوص من وجهته الخاصة وتذوقه الفريد من ناحية أخرى ، كما كثرت استدراكاته تبعاً لذلك على اللغويين والبلاغيين مع تفنيده لآرائهم المستدركة ، بل وطالت استدراكاته علماء الحديث وأصحاب الترجم والمفسرين والطبقات ، وتنوع هذه الاستدراكات نتاج طبيعي لتنوع مشارب ثقافته وتعدد مصادرها ، وفي أثناء تلك الاستدراكات خاصة تظهر السمة الأسلوبية للاستنباط عنده ، وهي أيسر الطرق لمعرفة طرائق الاستنباط عنده وسماته وأنمطه .

أولاً : الاستنباط من منطوق النص بدلالة التذوق :

من الاستنباطات التي يحسن الوقوف عليها في هذا الباب ، استنباط مباشر للأستاذ محمود شاكر من دلالة بيت مشهور لكتاب بن زهير، ورد في الطبقات وهو قوله :

فَقُلْتُ حَلُّوا سَيِّلِي لَا أَبَا لَكُمْ
فَكُلُّ مَا قَدَرَ الرَّحْمَنُ مَعْوُلٌ^(١)

يقول الأستاذ محمود شاكر - رحمه الله -: "... ويقول الشرح إنه لما رأى أخلاه لا يغون عنه شيئاً ، يئس من نصرهم ، وأمرهم أن يخلوا طريقه ولا يحبسوه عن المثلول بين يدي رسول الله ﷺ ؛ ليمضي فيه حكمه ، فإن نفسه أيقنت أن كل ما قدر الله واقع ، ولا أرتضي هذا السياق في معنى الشعر ، فإنه ذكر قبل أن كل خليل قال له : إني عنك مشغول ، فليس أحد منهم يحبسه ويمسكه ، حتى يصح سياق هذا الشرح ، وأرى أن معنى خلوا سيلي هو الاستنكار والاستهزاء والأنفة من التجاهه إليهم ، و التحقيق لشأنهم ، فيقول : افسحوا طرقي وابتعدوا عنه أيها الجبناء ، وليس منهم إمساك ولا حبس عن المثلول بين يدي رسول الله"^(٢)

وبسبب وضوح هذا البيت وعدم وجود غموض في مبناه ومعناه فقد قل شرحه عند أهل العلم ، فلم أجده مشرحاً عند السكري^(٣) ، أما شرح الأستاذ علي فاعور فقد اكتفى بقوله : "ويروى في صدر البيت سيلي ، وقوله لا أبا لكم : أي لا أبا حرا لكم، ويقال في المدح والذم"^(٤) ، وكذلك قال الدكتور مفيد قميحة أحد شراح صنعة السكري^(٥) .

(١) ديوان كعب بن زهير تحقيق وشرح علي فاعور ، ط ١ ، عام ١٩٩٧ م لدار الكتب العلمية بيروت ، ص ٦٥ ، وقد ورد البيت في كتاب طبقات فحول الشعراء في ج ١ ص ١٠١.

(٢) حاشية طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٠١.

(٣) شرح ديوان كعب بن زهير صنعة لأبي سعيد بن الحسن بن عبيد الله السكري تحقيق : عباس عبد القادر ط ٣ ، عام ٢٠٠٢ م لدار الكتب والوثائق القومية – مركز تحقيق التراث بالقاهرة، ص ١٢٤.

(٤) ديوان كعب بن زهير شرح وتحقيق علي فاعور ص ٦٥.

(٥) ديوان كعب بن زهير صنعة أبي سعيد السكري شرح د مفيد قميحة ط ١ ، عام ١٩٨٩ م لدار الشواف بالرياض ، ص ١١٤.

وقد وردت القصيدة كاملة بما فيها البيت في البداية والنهاية لابن كثير^(١) ، فلم أجد فيها شرحاً أو تعليقاً سوى ثبته للقصيدة وذكر ملناستتها ، ولم يرد البيت في كتاب الشعر والشعراء عند ترجمة ابن قتيبة لكتاب كعب بن زهير^(٢) ، وقد وجدت بعضاً من القصيدة عدا هذا البيت مثبتة في كتاب الأغاني ومعها نتف من أخبار كعب بن زهير^(٣) . واستنباط الأستاذ محمود لهذا المعنى دليل على قوة استظهاره للمعاني ، وشدة تعايشه مع النص كله حتى وإن كان الحديث عن بيت واحد فيه ، وهو الأمر السوي الذي يحتاج له كل من يحاول مواجهة أي نص شعري ، ولعل انتزاع البيت واقتطاعه عن سياقه الكلي يوهم في أن المراد منه أن يخلو أصحاب كعب كعباً ، ولا يحبسوه عن المثلول أمام الرسول ﷺ ، وعند استحضار البيت السابق فإنه يتدرد في الذهن على الفور كيف أنه يتطلبهم ذلك وهم غير قادرين على تقديم شيء له ؟ كيف يقدرون على حبسه وهم الذين اعتذروا بالانشغال والتشاغل عنه ؟ فلا بد حين أن يربط البيت بما قبله – وهذا ما يجب – ، أن يجعل قوله خلوا سبيلي على وجه التهكم والتحقير لردة فعلهم الأولى المذكورة في البيت الذي قبله ، وهو نفس الأمر الذي نستخدمه في حياتنا اليومية ، فحينما أطلب أمراً من شخص لا أستطيع القيام به بنفسي ويعني عنه مانع ، ويحيب حسن ظني فيمن طلبت وفيما طلبت ، لا أجد أبلغ من أن أقول له : ابتعدعني سأفعل كذا وكذا ، لا على سبيل أنه قادر على منعي أن أقوم بما أريد ، بل على سبيل استحقار ردة فعله ، واستهجان عدم قدرته الأولى على تقديم شيء كنت قد طلبت منه في ذات الأمر .

ومن الاستنباطات التي ترد إلى تذوق محمود شاكر من ناحية وتعتمد على منطق النص بأكمله من ناحية أخرى ، استنباط تذوقي خالص رد به على الجاحظ وعلى الشيخ عبد السلام هارون الحق المعرف ، وذلك في معرض ترجيحه للفظة (غريب إبط الشمال) بالغين المعجمة في قول شتيم بن خويلد^(٤) :

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق عبد الله التركى ، طبعة بدون ، عام ١٤٢٤ هـ لدار هجر ، ج ٧ ص ١٢٣ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ١٥٤ .

(٣) الأغاني لأبي فرج الأصفهانى ج ٧ ص ٣٨٦ الطبعة الأولى عام ١٩٣٥ م لدار الكتب المصرية بالقاهرة .

(٤) شتيم بن خويلد الفزارى: شاعر جاهلى. له قطع متفرقة، منها قطعة آخرها البيت المشهور: فإن يكن القتل أفنائهم ... فللموت ما تلد الوالدة رواها له المفضل بن سلمة. وذكرها ابن الأعرى لنھيکة بن الحارث المازنى .الأعلام للزکلی : ج ٣ ،

ص : ١٥٧ .

أَعْنَتْ عَدِيًّا عَلَى شَوْهَةٍ

أَطْعَتْ غُرِيبَ إِبْطِ الشَّمَالِ

ثَعَادِيْ فَرِيقًا وَتَنْفِيْ فَرِيقًا

يُنَجِّي بَحْدَ الْمَوَاسِيِّ الْخُلُوقًا^(١)

وخبر هذه الأبيات رواه الزبير بن بكار في جمهرة نسب قريش ^(٢)، حيث تجمعت بطنون عدي على بني بدر، فحالفت بنو بدر بني مازن بن فرارة ، وقال شتيم هذه الأبيات في هذا الحلف ، والمقصود بغريب إبط الشمال لقب لرجل من بني فزارة يدعى معاوية بن حذيفة الفزاروي ^(٣) ، وقد ورد هذا اللقب في بعض الروايات بالعين المهملة والعين المعجمة للفظة (غريب- عربي) وهو ثاني كلمة في البيت الثاني .

ومحمود شاكر استنبط من رواية الزبير بن بكار صاحب جمهرة نسب قريش بالعين المعجمة أنها الصواب ، مستدلاً برواية الزبير في الجمهرة ، ومعتمداً على تنوقه الخاص ليكون معناها أنها تصغير للغراب ، ومستفيداً هذا المعنى أيضاً من قام تعريف الزبير بن بكار لمعاوية هذا بأنه كان رجلاً مشوماً فيما تذكره عنه العرب ^(٤)، وقد علل محمود شاكر رحمة الله تعالى صواب أن يكون البيت باللقب (غريب) تصغيراً للغراب باتفاقه مع معنى البيت ، إذ إن المراد أنه غراب شؤم والغراب عادة يرتبط بالشؤم وارتباطه بالشؤم متناسب بما عرف عن معاوية

(١) نسب هذه الأبيات لشتيم بن خويلد الجاحظ في كتابه الحيوان ورواهما بالعين المهملة ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج ٥ ، ص ٥١٨ ، ط ١ ، عام ١٣٦٢ هـ ، لمكتبة مصطفى الباعي الحلبي بيروت ، ورواهما الجاحظ كذلك بالعين المهملة أيضاً في كتابه البرصان والعرجان والعميان والحوالان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ص ٥٥١ ، ط ١ ، عام ١٤١٠ هـ ، لدار الجبل بيروت ، ونسبها أيضاً لشتيمة بن خويلد ورواهما بالعين المهملة أيضاً المزباني في معجم الشعراء ، تصحيح وتعليق (كرنك)، ص : ٣٩٢ ، ط ٢ ، عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ورواه بالعين المعجمة جار الله الزمخشري ، أساس البلاغة ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، ج ١، ص ٥٢٣ ، ط ١ ، عام ١٤١٩ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت ، وذكرها صاحب لسان العرب برواية مختلفة عن رواية الجاحظ والزبير بن بكار :

أَطْعَتَ الْيَمِينَ عِنَادَ الشِّمَالِ، ... ثُنَجِي بَحْدَ الْمَوَاسِيِّ الْخُلُوقَا (لسان العرب لابن منظور ج ١٠، ص ٨١)

(٢) جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار، حققه وشرحه محمود شاكر ، ط ١ ، عام ١٣١٨ هـ ، لدار المدى ، ج ١٣ ، ص ٢١ .

(٣) لم أجده لمعاوية هذا ترجمة في كتب الترجم والطبقات والأعلام في حدود ما توفر لدى منها ، ومحمود شاكر أكفى في تعريفه ببيان اسمه (معاوية بن بدر الفزاروي) ولم يشر في ذلك إلى مرجع اعتمد عليه ، ينظر للحاشية رقم ١ ، ص ٢٣ ، من جمهرة نسب قريش وأخبارها ، للزبير بن بكار .

(٤) جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار ، ج ١٣ ، ص ٢٣ .

صاحب هذا اللقب من أنه كان مشوما ، يقول محمود شاكر في ذلك :

"غريب إبط الشمال بالغين المعجمة وهو كذلك في بعض نسخ الحيوان ، ولكن الأستاذ عبد السلام هارون ظنه تحريفاً واعتمد على ما في معجم الشعراء ، وإحدى نسخ الحيوان ، وأنا أرجح أن الصواب بالغين المعجمة كما في كتاب الزبير ، مصرع غراب ، وشئم الغراب^(١) مشهور ؛ ولذلك قال بعد في المعجم ، (وفي النسب : وكان مشوما)...."^(٢) هكذا بني محمود شاكر استنباطه بناء على دلالة النص ، وبناء على تذوقه الخاص ، وبناء أيضاً على ربط باستكمال قراءة كلام الزبير بن بكار عن معاوية الفزارى بعد البيت من أنه كان مشوما ، وربط شئم معاوية هذا بالغراب كما هي عادة العرب في نسبة الشئم للغراب ، الذي لطالما كان من أكبر علامات دواعي الطيرة والشئم في الحياة الجاهلية .

وقد خالف محمود في هذا الاستنباط ما جاء به الشيخ الحقيق عبد السلام هارون ، حيث أثبت عبد السلام هارون رواية البيت بالعين المهملة ، مستندا على رواية معجم الشعراء ، وقال ما نصه :

" عَرِيبُ، بَعْيَةُ التَّصْغِيرِ مَعَ تَشْدِيدِ الْيَاءِ: لَقْبُ مَعَاوِيَةَ بْنِ حَذِيفَةَ السَّابِقِ الْذَّكَرِ، كَمَا فِي مَعْجَمِ الْمَرْزَبَانِ، الشَّمَالُ: لَقْبُ لَهُ كَمَا فِي الْمَعْجَمِ، لَأَنَّهُ كَانَ مَشْئُومًا، وَالْمَوَاسِيُّ: جَمْعُ مُوسَى، الْحَلَاقُ، وَالْحَلُوقُ: جَمْعُ حَلْقٍ، وَبِرْوَى: «تَنْحَىٰ لَحْدَ الْمَوَاسِيِّ»، أَيْ تَمْيلُ الْحَلُوقِ إِلَى حَدِّ الْمَوَاسِيِّ، وَفِي الْمَرْزَبَانِ: «يَنْتَجِي بَحْدَ الْمَوَاسِيِّ»، أَيْ يَنْتَجُهَا، وَفِي الْلِّسَانِ: أَطْعَتَ الْيَمِينَ عَنْدَ الشَّمَالِ تَنْحَىٰ بَحْدٌ، وَقَالَ: مُثْلِ ضَرْبِهِ، يَرِيدُ فَعْلَةً فَعَلَّاً أَمْكَنَتْ بِهِ أَعْدَاءُنَا مَنَا . "^(٢) ، وَيَبْدُو وَاضْحَىًّا مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ هَارُونَ اعْتِمَادُهُ عَلَى الدَّلِيلِ النَّقْلِيِّ وَالنَّصِّ الْقَاطِعِ الَّذِي اسْتَنَدَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ مَا وُجِدَ فِي مَعْجَمِ الْمَرْزَبَانِ ، وَالْوَاضْحَى أَنَّ الشَّيْخَ عبدَ السَّلَامَ هَارُونَ اعْتَمَدَ فَقْطًا عَلَى الْمَرْزَبَانِ فِي اخْتِيَارِ (عَرِيبٍ) بِالْعَيْنِ الْمُهَمَّلَةِ ، إِضَافَةً إِلَى النَّسْخَةِ الَّتِي بَيْنَ يَدِيهِ مِنْ كِتَابِ الْجَاحِظِ الْبَرْصَانِ وَالْعَرْجَانِ وَالْعَمِيَانِ وَالْحَوْلَانِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنِ الْمَرْزَبَانِ أَنَّ مَعَاوِيَةَ هَذَا كَانَ (مَشْئُومًا) ، عَلَى أَنَّ هَنَاكَ فَرْقًا سِيَّئَتِي بِيَانِهِ بَعْدَ قَلِيلٍ بَيْنَ النَّقْلِ الَّذِي نَقَلَهُ عبدُ السَّلَامُ هَارُونَ وَمِنْ بَعْدِهِ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ ، وَبَيْنَ مَا هُوَ مُوْجَدٌ فِي الْمَعْجَمِ، حَيْثُ وَرَدَ فِي مَعْجَمِ الْمَرْزَبَانِ مَانِصَهُ: " مَعَاوِيَةَ بْنَ حَذِيفَةَ بْنَ بَدْرَ الْفَزَارِيِّ يُلْقَبُ عَرِيبٍ إِبطَ الشَّمَالِ وَكَانَ مَشْوَهًا سَمِّيَ بِقَوْلِ شَتِيمِ بْنِ خَوِيلَدِ الْفَزَارِيِّ لَعْنَ سَارِ حَلْفِ كَانَ بَيْنَهُمْ :

(١) أَثَبَتَ كَلْمَةَ الغَرَابَ هُنَا بِهَذَا الشَّكْلِ ، لَأَنَّمَا وَرَدَتْ فِي الْكِتَابِ (الْغَرَامُ) وَهُوَ خَطَأٌ طَبَاعِيٌّ بَيْنَ .

(٢) الْبَرْصَانُ وَالْعَرْجَانُ وَالْعَمِيَانُ وَالْحَوْلَانُ لِلْجَاحِظِ ، تَحْقِيقُ الشَّيْخِ عبدِ السَّلَامِ هَارُونَ ، ص ٥٥١.

توالي فريقاً وتبقى فريقاً ينحي بحد الموسى الحلوقا ^(١)"	أعنت عدياً على شاؤها أطعت عريب إبط الشمال
---	---

والحق أن كلا الرجلين (محمود شاكر وعبد السلام هارون) يعتمدان في استنباطيهما على منطق صريح ، فغريب المهملة وردت في معجم الشعرا وعليه اعتمد الشيخ هارون ، وغريب المعجمة جاء بها الزبير بن بكار وعليها اعتمد محمود شاكر ، وقبل أن ينظر إلى قوليهما لابد من الإشارة إلى أمرين يحسن التنبه عليهما :

أولاً : أن عبد السلام هارون اعتمد في استنباطه على رأي المرزباني في معجم الشعرا ، وقام بالإحالـة إليه لتدعيم ما استتبـطـه واطـمـأـنـتـ إـلـيـهـ نـفـسـهـ ، ولكنـ نـقـلـهـ لـهـ لمـ يـكـنـ دـقـيقـاـ بـحـسـبـ حدـودـ بـحـثـيـ وـاطـلـاعـيـ ، فـفـيـماـ وـقـعـ بـيـنـ يـدـيـ مـنـ نـسـخـ وـطـبـعـاتـ لـعـجـمـ الشـعـرـاـ لـلـمـرـزـبـانـيـ لـمـ أـجـدـ فـيـهـ كـلـمـةـ (ـمـشـئـومـاـ)ـ عـلـىـ النـحـوـ الـذـيـ نـقـلـهـ عبدـ السـلـامـ هـارـونـ ،ـ وـالـذـيـ وـرـدـ فيـ مـعـجـمـ الـمـرـزـبـانـيـ (ـمـشـئـومـاـ)ـ كـمـاـ بـيـتـهـ آـنـفـاـ ،ـ وـالـرـجـلـ الـأـشـوـءـ فـيـ الـمـعـاجـمـ :ـ قـبـيـخـ الـوـجـهـ^(٢)ـ ،ـ وـبـنـاءـ عـلـىـ ذـلـكـ فـإـنـ الشـيـخـ عـبـدـ السـلـامـ لـمـ يـكـنـ دـقـيقـاـ فـيـ نـقـلـهـ لـنـصـ اـسـتـبـطـ مـنـهـ حـكـمـاـ ،ـ وـاـخـتـلـطـ عـلـيـهـ الرـسـمـ الـاـمـلـائـيـ لـكـلـمـةـ مـشـئـومـاـ وـمـشـئـومـاـ عـلـىـ مـاـ بـيـنـهـمـاـ مـنـ تـقـارـبـ شـكـلـيـ ،ـ أـمـاـ مـحـمـودـ شـاـكـرـ فـقـدـ كـانـ دـقـيقـاـ جـداـ فـيـ نـقـلـهـ عـنـ كـتـابـ الـحـيـوانـ وـعـنـ كـلـامـ لـلـجـاحـظـ أـورـدهـ أـيـضاـ لـلـاستـشـهـادـ عـلـىـ مـعـنـىـ إـبـطـ الشـمـالـ ،ـ وـلـمـ يـخـرـمـ مـنـ كـلـامـ الـجـاحـظـ حـرـفاـ وـاحـدـاـ ،ـ وـنـقـلـهـ بـالـنـصـ دـوـنـ تـبـدـيـلـ ،ـ وـلـكـنـهـ هـوـ الـآـخـرـ مـؤـاخـذـ عـلـىـ اـطـمـئـنـانـهـ عـلـىـ نـقـلـ الشـيـخـ عـبـدـ السـلـامـ هـارـونـ لـكـلـمـةـ (ـمـشـئـومـاـ)ـ ،ـ فـرـعـيـماـ لـوـ اـطـلـعـ مـحـمـودـ عـلـىـ أـنـ مـعاـوـيـةـ فـيـ مـعـجـمـ مـشـئـومـاـ وـلـيـسـ مـشـئـومـاـ لـأـضـافـتـ لـهـ هـذـهـ الصـفـةـ مـاـ يـدـعـمـ اـسـتـبـاطـهـ أـوـ يـغـيرـ وـجـهـتـهـ أـوـ شـيـئـاـ مـنـ وـجـهـتـهـ .

ثانية : أن عبد السلام هارون اعتمد على رواية العلماء للبيت وحدتها في جعل اللقب (عريب) بالعين المهملة، ولم يبين عمـا وراءـ هذاـ اللقبـ منـ معـنىـ ،ـ وـلـمـ يـتـكـلـفـ بـرـبـطـ مـعـناـهـ رـبـطاـ صـحـيـحاـ بـماـ اـشـتـملـتـ عـلـيـهـ الأـيـيـاتـ ،ـ أـمـاـ مـحـمـودـ شـاـكـرـ فـقـدـ بـيـنـ أـنـ غـرـبـ تـصـيـرـ لـلـغـرـابـ وـأـنـ الـمـقـصـودـ بـهـ مـاـ اـشـتـهـرـ بـهـ الـغـرـابـ مـنـ شـئـومـ عندـ الـجـاهـلـيـينـ رـابـطاـ إـيـاهـ بـماـ أـثـبـتـهـ الزـبـيرـ بـكـارـ مـنـ أـنـ مـعاـوـيـةـ كـانـ مـشـئـومـاـ .

وقد حاولت جاهدا الوصول إلى معنى مناسب لللقب (عريب إبط الشمال) على رأي الشيخ عبد السلام

(١) معجم الشعرا للمرزباني تحقيق كرنكرو ، ص ٣٩٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور : ج ١٣ ، ص ٥٠٨.

هارون يسوغ أن تكون الكلمة بالعين ؛ فوُجِدَتْ أَنْ بَعْضًا مِنْ معاجم اللغة قد نصت على أن العرب تقول للشَّؤْم (إبط الشمال) ^(١)، أما عَرِيب مصغرة مهملة فإنها مأخوذة من الإعراب وهو الإِبَانَةُ عن المعانِي والألفاظ ^(٢)، فيكون معنى اللقب بالعين المهملة متكلماً الشَّؤْم والمبين عنه بعد تركيب مانصت عليه المعاجم في شقي اللقب ، أما استنباط محمود شاكر بالعين المعجمة ، فغريب تصغير لغраб والغراب من أهم علامات الشَّؤْم والطيرة عند العرب ، ويكون معنى اللقب عندئذ طائر الشَّؤْم ، وهو استنباط أشد تعزيزاً وتمكيناً لتحقيق الشَّؤْم في هذا اللقب ، وهو استنباط يتفق مع استخدامات العرب في إضافة الغراب للشَّؤْم وللشَّمال ، فقد دلل محمود شاكر على إضافة الطير للشَّمال في سياق الشَّؤْم من فصيح قول العرب بقول أبي ذؤيب:

رَجَرَثُ لَهَا طَيْرُ الشَّمَالِ فَإِنْ تَكُنْ
هَوَأَكَ الَّذِي تَهُوَى يُصِبِّكَ اجْتِنَابَهَا ^(٣)

بل واستدل أيضاً بإضافة الغراب نفسه إلى الشَّمال بيت للحارث بن عمرو الفزارى ^(٤):

بِحَمْدِ إِلَهِي أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ لَهُمْ
عَرَابَ شَمَالٍ يَنْتِفُ الرِّيشَ حَاتِمًا ^(٥)

وبذلك يكون استنباط محمود شاكر من دالة النص المدعوم بتذوقه الخاص أنساب لمعنى البيت ولمعنى هذا اللقب ، لاسيما وأن صاحب المعجم كما سبق ثبته جعل البيت سبباً لإطلاق هذا اللقب على معاوية الفزارى.

(١) ينظر تاج العروس من جواهر القاموس ، لمترتضى الزبيدي ج ١٩٢ ، ص ١٢٣ ، وينظر : التكميلة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية ، لحسن الصغاني ، ولمجموعة من المحققين ، ط ٢ ، عام ١٩٧١ م ، مطبعة دار الكتب بالقاهرة، ج ٤ ، ص ١٠٤ .

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور : ج ١ ، ص ٥٩٢ ، وينظر القاموس الحيط للفيروز آبادي ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقُوسِي ط ٨ ، عام ١٤٢٦ هـ ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج ١ ، ص ١١٣ ، وينظر لتاج العروس لمترتضى الزبيدي ، ج ٣ ، ص ٣٥٠ .

(٣) ديوان أبي ذؤيب المذلي ، شرحه وقد له ووضع فهارسه سوهاجم المصري ، ط ١ ، عام ١٤١٩ هـ ، للمكتب الإسلامي بيروت ودمشق وعمان ، ص ٢٩ .

(٤) الحارث بن عمرو بن حرجة بن حرام بن سعد بن عدي. شاعر جاهلي من بني ذبيان، عاصر حصن بن حذيفة وعاته في بعض أبيات من الشعر له شعر في كتاب شعاء قبيلة ذبيان في الجاهلية ، الأعلام للزرکلي : ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٥) كتاب الوحشيات وهو الحماسة الصغرى لأبي تمام ، تحقيق عبد العزيز الراجحوني وزارد في حواشيه محمود شاكر ط ٣ ، عام ١٣٨٨ هـ ، لدار المعارف المصرية ، ص ٦٢ .

ومن استنباطات شاكر من دلالة النصوص مدعومة بتذوقه الخاص استنباط رفض فيه وجود موازنة بين بيتين رأى فيما ابن سلام الجمحى موازنة في طبقات فحول الشعراء ، حيث قال ابن سلام الجمحى في معرض حديثه عن امرئ القيس : " واستحسن الناس من تشبيه امرئ القيس قوله :

فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ كُجُومًا —

خَيَرُوا بَيْنِهِ وَبَيْنِ قَوْلِ النَّابِغَةِ :

فَإِنَّكَ كَاللَّيلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكٌ
وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ^(١)

فرغم بعض الأشياخ أن بيت النابغة أحكمهما . " ^(٢)

وقد رد محمود شاكر موازنة ابن سلام الجمحى هذه واستنباط ألا موازنة بين البيتين بناء على تذوق محمود لهما بتذوقه الخاص ، يقول في ذلك : "... لا أرى وجها للتخيير والموازنة ، ويما بعد ما بين موقع كل منهما ، من سياقه ومعناه ، فامرئ القيس أراد ما رأيت من بطء الليل وثقله عليه ، والنابغة أراد شيئا يخالفه كل المخالفة حين ذكر الليل ، وللشرح كلام كثير ، قال بعضهم : لا معنى لتخصيص الليل ، لأن النهار يدركه كما يدرك الليل ... يقول -يقصد الشاعر- : فإنما مثلي ومثلك كالسائلون نهاراً في أرض ... وكلما نجا من مخوف أو همه نجاته أن الليل بعيد ، وإنه خلائق أن يخلص منها قبل أن يدركه ، ولكن الليل يدركه لا محالة بغوائل لا ينجو عليهم ناج أبداً . بهذا نعلم أنه لا وجه للتخيير بين البيتين ، إلا أن يراد بالتخيير و الموازنة بين قدرة الشاعرين في البيان وحده" ^(٤) ، إذن فشاكر يبطل هذه الموازنة بعدم توفر واحد من أهم معاييرها الأدبية وهو

(١) ورد البيت في ديوان امرئ القيس بنفس الشطر الأول ، وباختلاف في الشطر الثاني : (بكل مغار الفتل شدت

بيذبل)، والشطر الثاني المثبت أعلاه إنما هو تتمة لشطر أول بعده في الديوان : (كأن الشريا علقت في مسامها) ، ينظر ديوان

امرئ القيس ضبط مصطفى عبد الشافي ط٥ ، عام ١٤٢٥هـ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ص ١١٧.

(٢) ديوان النابغة الذبياني شرح وتقديم عباس عبد الساتر ط٣ ، عام ١٩٩٦م لدار الكتب العلمية بيروت ، ص ٥٦.

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، ج ١ ص ٨١-٨٧ باختصار.

(٤) السابق : ج ١ ، ص ٨١-٨٢ ، الحاشية رقم (١) ، باختصار .

معيار المعنى الذي يقوم عليه كل من النصين المراد الموازنة بينهما ، وقبل فحص الآراء لابد وأن نشير إلى أن ابن سلام نقل خبر هذه الموازنة ونقلها كما هي في كتابه ، ولنا أن نتساءل ، هل يعد نقله لها قبولاً بإجرائها ؟ هناك دليلاً يستطيعان وحدهما الإجابة عن هذا التساؤل :

أو لهما : أن ابن سلام لم يبد اعترافاً على إجراء هذه الموازنة ، وعدم اعتراضه على إجرائها يشي بقبوله لها بين هذين الbeitين ، ولو لم يكن راضياً لم يثبتها في طبقاته ، أو أثبتتها مع بيان رأيه الخاص فيها.

وثانيهما: مستنبط من قوله (الأشياخ) ، فوسمه للفريق الذي اختار بيت النابغة بـ(الأشياخ) يوحى بدلالة الرضا على هذا الحكم النقدي ، فإنه لم يستحقوا مسمى الأشياخ إلا لإطلاقهم مثل هذه الأحكام التي ارتكبها محمد ابن سلام ؛ ومن ذلك يستطيع القول بأن ابن سلام يكاد يكون راضياً عن إجراء هذه الموازنة ، وراضياً أيضاً عن نتيجة حكم الأشياخ لصالح ليل النابغة ، أما محمود شاكر فقد رفض إجراء هذه الموازنة ، وأعاد السبب إلى بُعد ما بينهما من معنى ، فهما وإن كانا في وصف الليل ، فإن السياق الذي تم توظيف ليل كل شاعر منهما يختلف عن الآخر ، فامرئ القيس وظف ليله في سياق البطء والثقل ، والنابغة وظف ليله في سياق الخوف وعدم النجاة من الغوائل ، وبذلك يتتفق شرط اتحاد المعنى بين الbeitين وتفسد حينئذ الموازنة ، واستثنى شاكر ما إذا كانت الموازنة -وبناء على اختلاف المعنى- تقوم على أساس البيان وحده ، والحق أن الحكم ببيان شاعر أو أديب امتاز عن أديب آخر لا يتأتى غالباً عن طريق الموازنة إلا باتحاد المعنى ، واتحاد الجنس الأدبي ، والحق الذي يكتشف من خلال استظهار ما دارت عليه رحى الbeitين ، أن المعنى بينهما مختلف غير مُؤتلف ، فهما وإن كانوا في الليل إلا أن مائماً أحدهما بعيد عن الآخر كما احتاج به الأستاذ شاكر ؛ وهذا حينما أراد الشعبي أن يحكم بين الوليد بن عبد الملك وأخيه مسلمة بن عبد الملك ، بعد أن اختلفا على القضية ذاتها (ليل النابغة وأمرئ القيس) ، لم يطلق حكمه جزاً من القول ، بل استندهما أي ليل قد اختلفا عليه واحتكموا إليه، فأنسد الشعبي قول النابغة :

وَلَيْلٌ أَقَاسِيهِ بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ

كِلِئِنِي هِمْ يَا أَمِيمَةَ نَاصِبِ

وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآيِّ

نَطَوْلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْفَضٍ

وَصَدِّرَ أَرَاحَ اللَّيلَ عَازِبٌ هَمِّهِ

وَأَنْشَدَ قَوْلَ امْرَئِ الْقَيْسِ :

عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمْمُومِ لِيَبْتَلِي
وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكُلْكَلٍ
بِصُبْحٍ، وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلٍ
بِكُلِّ مُعَارِ الْفَتْلِ شَدَّرْتَ بِيَدْبُلٍ
وَلَيْلٌ كَمْوَجَ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا ثَمَطَّ بِصُلْبِهِ
أَلَا أَئِهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا إِنْجَلِي
فَبِا لَكَ مَنْ لَيْلٌ كَانَ نُجُومَهُ

فَرَكَضَ الْوَلِيدَ بِرْ جَلَهُ (طَرِيًّا) ، فَقَالَ الشَّعُوبِيُّ : "بَانَتِ الْقَضِيَّةُ" (٢).

فلم يحكم الشعبي لأحد الليلين إلا بعد أن استند الأبيات المقصودة ، وذلك لعلمه باختلاف سياقات الليل عند كل من الشعرتين ، ولو أنعم النظر بين الأبيات السابقة لوجد أنها ترتكز حول طول الليل ، فكل شاعر صور طول الليل بحسب أدواته البينية وقدرته الشاعرية ومعجمه اللغوي ، وحينما أورد الخطابي هذه القصة في رسالته (بيان إعجاز القرآن) ، سمح لنفسه أن يعالجها نقدياً عن طريق الموازنة المعللة ، فحكم في نهاية الأمر للخطابي بعقد هذه الموازنة المعللة ، وبهذا نستطيع القول بأن اعتراض محمود شاكر على إجراء هذه الموازنة مسوغاً، ولم يأت إلا عن بصر بالشعر ودرأة .

(١) ديوان النابغة الذبياني شرح عباس عبد الساتر ص ٢٩.

(٢) ديوان امرئ القيس ضبط مصطفى عبد الشافي ص ١١٧.

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق وتعليق محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام ط ٣، عام ١٩٧٦ م لدار المعارف بمصر، ص ٦٣ ، كما أن القصة وردت أيضاً في ديوان امرئ القيس ضبط مصطفى عبد الشافي ص ١١٧.

(٤) السابق ، ص : ٦٣ وما بعدها .

بقي أن يشار في هذه الموازنة إلى أمر واحد يُحسب للأستاذ محمود شاكر ، و مثل هذا الأمر هو في الحقيقة من الذري الرفيعة في الفهم التي لا يصل لها كل أحد ، وذلك أنه حينما شرع في تحليل بيت النابغة ليرينا فرق المأخذ بينه وبين بيت امرئ القيس ، تناول حال الشاعر الخائفة الهائمة في النهار ، مع أن البيت ليس فيه ذكر للنهار ، ومع أن الشاعر عمد عمداً إلى جعل المشبه به ليلاً ولم يجعله نهاراً ، لتناسب حال الرهبة والخوف والهلع مع الليل منها إلى النهار ، فمن أين استحضر الأستاذ النهار ؟ وهل استحضاره للنهار مع ذكر الليل صراحة منطقية ؟

يبدو أن كلمة (مدركـي)المثبتة في بيت النابغة هي ما دفعه لذلك لما فيها من معنى التبع والملاحقة ومن ثم الإدراك حتى لو وصل إلى قعر الشيء^(١)، وإذا كان السياق سياق تشبيه الشاعر لمدحـوه بالليل وكان من دلالة الكلمة مدركـي التبعية ؛ فإن المتبع الذي يستظهر بعد الليل هو حال الشاعر الهائمة والخائفة وهي تضرـب الأرض في النهار ، وتعلم بأنه لا مهرـب لأحد من غـوائل لـيل ذلك النهار ، وهذا تنبـه من محمود شـاكر يستحق الذكر والثناء .

ثانياً : الاستنباط من منطوق النص بدلالة اللغة :

إن التمكـن من اللغة عند محمود شـاكر من أهم مصادـره المعرفـية، وهو من أهم أدواته الاستنبـاطـية التي اعتمدـ عليها كثيرـاً في مؤلفاته وقراءاته وتعليقاتـه على كتب التراث العربي ، ويـكاد يكون الاستنبـاطـ من منـطـوقـ النـصـ بـدـلـالـةـ الـلـغـةـ سـمـةـ ظـاهـرـةـ عـنـدـ مـحـمـودـ شـاـكـرـ توـهـمـهـ بـغـيـرـ الصـوابـ فـتـجـعـلـهـ يـضـيـفـ لـمـعـاجـمـ الـلـغـةـ ماـ لـيـسـ مـنـهـ وـمـاـ لـمـ تـنـصـ عـلـيـهـ ، وـهـذـاـ كـثـيرـ عـنـدـ مـحـمـودـ شـاـكـرـ وـغـالـبـ عـلـىـ أـسـلـوبـهـ، وـقـدـ أـشـرـنـاـ لـإـضـافـهـ مـلـحـقاـ فيـ آـخـرـ بـعـضـ الـكـتـبـ التـرـاثـيـةـ الـتـيـ قـرـأـهـ وـعـلـقـ عـلـيـهـ وـيـسـمـيـهـ (أـلـفـاظـ مـنـ الـلـغـةـ أـخـلـتـ بـهاـ مـعـاجـمـ أـوـ قـصـرـتـ فـيـ بـيـانـهـ) .

ومن نماذج هذه الاستنبـاطـاتـ : رأـيهـ فيـ معـنىـ (جـَفـَلـ)ـ ، فقد استخدمـ ابنـ سـلامـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ فيـ خـبـرـ عنـ جـوـيـرـيـةـ بـنـ أـسـمـاءـ^(٢)ـ نـصـهـ :

(١) لسانـ العـربـ لـابـنـ منـظـورـ ، جـ ١٠ـ ، صـ ٤١٩ـ .

(٢) أبوـ مـخـارـقـ وـقـيـلـ: أبوـ مـخـارـقـ ، جـوـيـرـيـةـ بـنـ أـسـمـاءـ بـنـ عـبـيدـ الضـبـعيـ ، مـحـدـثـ ثـقـةـ ، تـوـفـيـ فيـ سـنـةـ ثـلـاثـ وـسـبـعينـ وـمـائـةـ ،

وـحـدـيـثـهـ مـحـتـجـ بـهـ فـيـ الصـحـاحـ ، سـيـرـ أـعـلـامـ النـبـلـاءـ ، لـشـمـسـ الدـيـنـ الذـهـبـيـ ، جـ ٧ـ ، صـ ٣١٨ـ .

"مات كثيّر^(١) وعكرمة^(٢) مولى ابن عباس في يوم واحد ، فاجفلت قريش في جنازة كثيّر ، ولم يوجد لعكرمة من يحمله^(٣) ، وقد رأى محمود شاكر أن لفظة (أجفل) الواردة في الخبر جاءت بمعنى (أسرعوا مجتمعين إلى الشيء أو نحوه) ، وليس هذا المعنى واضحًا في كتب اللغة ، ولكن جاء في الحديث : (ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجل الناس قبله) ، أي ذهبوا مسرعين نحوه ، فهذا حق المعنى ...^(٤) ، والحق أن المعنى الذي ينشده محمود شاكر في أجفل ويدعى عدم وضوحي في كتب اللغة ؛ جاء بالنص الذي اقتربه وأراده صراحة وضمناً ، يقول ابن منظور في لسانه:

"الْجَفَلُ الْقَوْمُ الْجِفَالُ إِذَا هَرَبُوا بِسُرْعَةٍ وَانْقَلَبُوا كُلُّهُمْ وَمَضُوا ، وَفِي الْحَدِيثِ: (مَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ ، الْمَدِينَةَ الْجَفَلَ النَّاسُ قَبْلَهُ) أَيْ ذَهَبُوا مُسْرِعِينَ تَحْوَهُ والجفالات: الجماعة مِنَ النَّاسِ ذَهَبُوا أو جاؤوا^(٥)".
وليس أشد وضوحاً فيما يبدو من هذا التفسير لمعنى كلمة أجفل بما يتواافق مع ما ينشده محمود شاكر ويقول بعدم وضوحي في كتب اللغة ، لاسيما وأن لسان العرب عمدة في معاجم اللغة العربية وكثيراً ما يعتمد عليه الباحثون في استجلاء معاني مفرداتها ، ومن الصعب جداً أن يقال بأن محمود شاكر لم يطلع على نص ابن منظور هذا ؛ فقد أتم محمود شاكر قراءة الأغاني ولسان العرب قراءة تامة وهو في الرابعة عشر من عمره ،

(١) شاعر عربي متيم من أهل المدينة المنورة وشعراء الدولة الأموية واسمها كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر بن عميرة الخزاعي ، واشتهر بكثير عزة ، لم تعين المصادر تاريخ ولادته بل عينت تاريخ وفاته في العام خمسة ومائة بعد الهجرة المشرفة ، عاش في (تربان وفرش ملل والغريش) مواضع في غرب المدينة المنورة ، وذكر تلك المواقع في كثير من قصائده ، ينظر مقدمة ديوانه جمعه وشرحه إحسان عباس ، ط بدون ، عام ١٣٩١ م ، للدار الثقافية للنشر والتوزيع بلبنان .

(٢) العالمة ، الحافظ ، المفسر ، أبو عبد الله القرشي مولاهم ، المديني ، البربرى الأصل ، ولد لخمس وعشرين خلون من الهجرة ، وعاش ثمانين عاماً ، حدث عن : ابن عباس ، وعائشة ، وأبي هريرة ، وأبن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وعقبة بن عامر ، وعلي بن أبي طالب ، حدث عنه: إبراهيم التميمي ، والشعبي ... وعمرو بن دينار ، وأبو الشعفاء جابر بن زيد ، وحبيب بن أبي ثابت ... ، ينظر لسير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ، ج ٥، ص ١٣ .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ، ج ٢ ، ص ٥٤٥ .

(٤) السابق الحاشية رقم (١) ج ٢ ، ص ٥٤٥ .

(٥) لسان العرب لابن منظور ، فصل الجيم ، ج ١١ ، ص ١١٤ .

واستظهر ديوان المتنبي كله وهو في تلك السن الصغيرة، وقد اشتهر بذكراه التي لا تكاد تخزم شيئاً^(١)، وأشد صعوبة من ذلك أن يقال بأنه قد اطلع على نص ابن منظور هذا ولم يثبته ؛ فهو أستاذ جليل وعالم ثقة لا يُشك في ثقته وفضله وحرصه على نسبة كل فكرة لقائلها ، والذي أراه أن محمود شاكر قد اعتمد على ذكره تحديداً في معنى هذه الكلمة دون الرجوع إلى معجم لسان العرب حين تناولها في هذا الموضوع ، واطلاعه المسبق ودرايته التامة بلسان العرب في صغره هو الذي سُئل له ألا يعاود الرجوع إليه ، واكتفى بإثبات ما لصق من لسان العرب في ذكره مما لا يظنه منه واعتقد أنه من استبطاطه الخاص بما يقتضيه المعنى من دلالة لغوية ، ووراء هذا كله أن الأستاذ محمود شاكر رحمه الله عانى كثيراً من عدم ثقته المطلقة في كتب معاجم اللغة ، وقد دفعه ذلك دفعاً إلى الجرأة على اتهامها بالإخلال ببعض معاني مفرداتها أو أنها قصرت في بيانها ، وقد أثبتت هذه الكلمة (جفل) في آخر كتاب طبقات فحول الشعراء وأدرجها تحت قسم (الآفاظ من اللغة أخلت بها المعاجم أو قصرت في بيانها)^(٢) ، على أن ابن دريد جعل من مشتقات (جفل) الجفالة ، وشرحها بقوله : "وأقبلت جفالة من الناس : جمع كثير في إسراع مشي^(٣)" ، وربما يدل هذا المعنى على إجفال قريش في جنارة كثير في خبر جويرية بن أسماء السابق ، وقد نص على نحو من ذلك ابن سيده فقال : "والجفالة: الجماعة من الناس ذهبوا أو جاءوا".^(٤) ومن الممكن أيضاً القول بأن مقصده محمود شاكر في عدم وضوح معاجم اللغة على المعنى الذي أراده هو ، ذلك المعنى الذي تردد كثيراً في كتب معاجم اللغة لمعنى كلمة جفل ، فقد نصت بعض معاجم اللغة على أن معنى تحفل القوم "أسرعوا في المهمة والهرب وانقلعوا كلهم فمضوا".^(٥)

(١) ينظر لظل النديم لوجдан العلي : ص ١٥.

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى، ج ٢، ص ٩٧٧.

(٣) جمهرة اللغة لحمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، ط ١، عام ١٩٨٧ م ، دار العلم للملائين بيروت ، ج ١، ص ٤٨٧.

(٤) الحكم والمحيط الأعظم ، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، ط ١، عام ٢٠٠٠ م ، دار الكتب العلمية بيروت ، ج ٧ ، ص ٤٢٩.

(٥) نص على ذلك ابن سيده في كتابه المخصص ، تحقيق خليل إبراهيم جفال ، ط ١، عام ٤١٧ هـ ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ج ٣، ص ٣٥٩ ، وكذلك المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، لأحمد الحموي ، تحقيق ، يوسف الشیخ محمد ، ط ١، عام ١٩٨٧ ، مكتبة العصرية بيروت ، ص ٥٨ ، وكذلك ناج العروس ، مرتضى الزبيدي ، ج ٢٨، ص ٢١٦ .

وإذا كان هذا الأمثلة مما قد يدل على عدم رجوع شاكر لمعجم لسان العرب خاصة ، فإن الأمر يشتد إذا كشف أمثلة آخر عدم رجوعه لمعاجم أخرى مجتمعة في بيان معنى مفردة من مفردات اللغة العربية ، ففي سياق تفسير ابن جرير الطبرى لقوله تعالى :

فَإِنَّمَا تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أَمْرُوا أَنْ يَكُفُّرُوا بِهِ وَبِرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضْلِلُهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ^(١)

أورد ابن جرير خبراً في سبب نزول هذه الآية مفاده أن بني قريظة والنضير في الجاهلية، إذا قتل أحد بني قريظة الرجل من بني النضير قُتل به ، فإذا قتل بنو النضير الرجل من بني قريظة أعطوا ديته ستين وسقاً من تمر ، فلما أسلم ناس من بني قريظة والنضير، قتل رجل من بني النضير رجلاً من بني قريظة ، فتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقتله النبي ﷺ به فتفاخرت بنو النضير وبنو قريظة على بعضهم كل منهم يقول نحن أكرم منكم ، ودخلوا إلى المدينة فطلب المنافقون الاحتكام في ذلك إلى أبي بردة الأسلمي ^(٢) ، والمسلمون منهم أرادوا الاحتكام إلى الرسول الله ﷺ فأبى المنافقون إلا أن يحتكموا إلى أبي بردة الأسلمي: فقال لهم : أعظموا اللقمة = يقول: أعظموا الخطر = فقالوا: لك عشرة أوساق. قال: لا بل مئة وسق ديني ، فإني أخاف أن أنفر النضير فقتلني قريظة، أو أنفر قريظة فقتلني النضير! فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أوساق، وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله عز وجل: " يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت" ^(٣) ، وقد استنبط محمود شاكر معنى للخطر الوارد في هذا الخبر وقد رأى أن معاجم اللغة قد قصرت في بيانه ، يقول محمود شاكر في ذلك :

"الخطر" هو المال الذي يجعل رهنا بين المتراهنين ، وأراد به الجعل الذي يدفعه كل واحد من المتراهنين إلى الحكم، وبماه اللقمة مجازا ، وهذا كله لم تقidente كتب اللغة ^(٤).

وهذا المعنى الذي رأى أن معاجم اللغة قصرت في بيانه هو الآخر مذكور في معاجم اللغة ، يقول في ذلك

(١) سورة النساء الآية الكريمة رقم ٦٠.

(٢) أبو بردة الأسلمي صحابي دعا النبي عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم إلى الإسلام فلم يسلم ، ثم كلمه فيه أبناءه فأجابهم إليه وأسلم ، وعند الإمام الطبراني بسنده حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان أبو بردة الأسلمي كاهنا يقضى بين اليهود وذكر الآية الكريمة السابقة من سورة النساء ، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني : ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٣) تفسير جامع البيان لابن جرير الطبرى ، ج ٨، ص ٥١٠-٥١١.

(٤) السابق : ج ٨، ص ٥١١ ، الهاشم رقم ٢ .

صاحب الصحاح :

"والخطر: السبق الذي يُتَرَاهِن عليه. وقد أَخْطَرَ المال، أي جعله خَطَرًا بين المتراهين" ^(١) وقال صاحب لسان العرب ابن منظور: "الخَطَرُ: السَّبَقُ الَّذِي يُتَرَاهِنُ عَلَيْهِ فِي التَّرَاهِنِ، وَالْجَمْعُ أَخْطَارٌ. وَأَخْطَرُهُمْ خَطَرًا وَأَخْطَرُهُمْ بَدْلُهُمْ مِنْ الْخَطَرِ مَا أَرْضَاهُمْ. وَأَخْطَرَ الْمَالَ أَيْ جَعَلَهُ خَطَرًا بَيْنَ الْمُتَرَاهِنِينَ. وَتَخَاطَرُوا عَلَى الْأَمْرِ: تَرَاهُنُوا؛ وَخَاطَرُهُمْ عَلَيْهِ: رَاهَنُهُمْ. وَالخَطَرُ؛ الرَّهْنُ بِعِينِهِ" ^(٢)، وقال الحموي: "وَالخَطَرُ السَّبَقُ الَّذِي يُتَرَاهِنُ عَلَيْهِ وَالْجَمْعُ أَخْطَارٌ مِثْلُ: سَبَبٍ وَآسْبَابٍ وَأَخْطَرُ الْمَالِ إِخْطَارًا جَعَلَتْهُ خَطَرًا بَيْنَ الْمُتَرَاهِنِينَ" ^(٣) ، وقال الفيروز آبادي: "وَتَخَاطَرُوا: تَرَاهُنُوا ، وَأَخْطَرَ: جَعَلَ نَفْسَهُ خَطَرًا لِغَرْبَنِهِ فَبَارَزَهُ، وَالْمَالُ: جَعَلَهُ خَطَرًا بَيْنَ الْمُتَرَاهِنِينَ" ^(٤) أما مرتضى الزبيدي فقد جعل الخطر في مثل هذا من باب المجاز فقال: "من المجاز: أَخْطَرُ (الْمَالُ: جَعَلَهُ خَطَرًا بَيْنَ الْمُتَرَاهِنِينَ) . وَخَاطَرُهُمْ عَلَيْهِ: رَاهَنُهُمْ." ^(٥)، وبذلك يعلم أن لفظة الخطر بمعنى المال الذي يجعل رهنا بين المتراهين قد ذكرته كتب اللغة وقيادته بوضوح بل وبنص ما ذكره هو رحمة الله ، وليس كما ذكر الأستاذ أنها لم تقيده وتنص عليه ، أما بالنسبة لاستخدام اللقبة مجازاً على أنها تعني الجعل الذي طلبه أبو بردة في الخبر ، فإن كتب اللغة غير مسؤولة بتقييد تصرف أهل البيان بمفردات اللغة ، واستخدامهم لها في غير ما وضعت له في أصلها بقرائن ودلائل جمالية وبلاعية ، ولو كان الأمر كذلك لقيدت معاجم اللغة خيال الشعراء واحتياكتها بقوانين لغوية لابد ألا يحيى عنها الشاعر ولا يخرج عنها خياله ، ونستطيع أن نستعين من ذلك وما سبقه أن الاقتراحات اللغوية لمحود على معاجم اللغة وكتب اللغة تحتاج إلى مزيد مراجعة وعناية واهتمام ، فتوضع في موضعها الصحيح من حيث إضافتها للغة أو من حيث تجنيها عليها ، ولعل دراسة آراء محمود شاكر فيما يخص معاجم اللغة دراسة من زملائنا المختصين باللغة دراسة يتطلبها البحث العلمي بشكل عاجل ومنظم ، حتى توضع تلك الآراء في موضعها الصحيح بين آراء محمود شاكر وجهوده العلمية .

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل الجوهري ، ج ٢ ، ص ٦٤٨.

(٢) لسان العرب لابن منظور ، ج ٤ ، ص ٢٥١ ، فصل الخاء المعجمة .

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، لأحمد الحموي ، ج ١ ، ص ١٧٣.

(٤) القاموس المحيط للفيروز آبادي ، ج ١ ، ص ٣٨٦.

(٥) تاج العروس لمرتضى الزبيدي ، ج ١١ ، ص ٢٠٠.

ثالثاً : الاستنباط من منطق النص بدلالة المصطلح العلمي :

كان محمود شاكر استنباطات خاصة بعض المصطلحات العلمية مستلهمة من مواجهة بعض النصوص ، وكانت جل هذه الاستنباطات استدراكات على شراح الدواوين عموما وعلماء البلاغة العربية بشكل أخص ، فقد رأى محمود شاكر في إطلاق بعض المصطلحات العلمية وإجرائها على بعض النصوص إفسادا لما تقتضيه جمالية في المعنى والدلالة الشعرية ، وقد نبه محمود شاكر كثيرا على أن الخطأ في إطلاق هذه المصطلحات وإجرائها على بعض الصور البيانية خاصة يقود إلى أخطاء أخرى ؛ تعاون جيما في الفتك بجمال اللغة الشعرية وأواد دلالتها المأorie، ومن ذلك رأى الأستاذ في بيت مشهور لفرزدق أورده ابن سلام في الطبقات :

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّابِبِ كَانَهُ
لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبِهِ حَمَارٌ^(١)

أما رواية ديوان الفرزدق فقد أتت على هذا النحو :

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَانَهُ
لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبِهِ حَمَارٌ^(٢)

باختلاف ملحوظ بين كلمتي السواد والشباب ، وحين علق الأستاذ محمود شاكر وذكر ما قبله وما بعده أثبته برواية الديوان ، وسوف أقف على سبب ذلك – إن شاء الله – عند الحاجة إليه.

وقبل استعراض تعليق شاكر على هذا البيت ، يجدر الوقوف عند معرض هذا البيت في كتاب الطبقات ، حيث أورده ابن سلام بعد اثنى عشر موضعا شعريا لفرزدق ، الفرزدق الذي شغل حيزا كبيرا من كتاب الطبقات لا يكاد يكون لغيره من الشعراء مثله ، وقد أورده ابن سلام بعد أن قال :

" وكان يدخل في الكلام وكان ذلك يعجب أصحاب النحو ، من ذلك قوله قوله ... قوله "^(٣)
حتى وصل إلى هذا البيت ، ولا أعلم ماهي المداخلة التي في هذا البيت والتي مثل لها أولا ببيت المشهور "ومامثله في الناس إلا ملكا...." ، فالبيت كما يبدو جليا في غاية الروعة وحسن التصوير وجمال المعرض ولم يظهر فيه أي تداخل ، وقد أشار الأستاذ محمود شاكر لذلك وتنبه له ، وزاد بأن موضع التداخل ليس هنا ، والذي يهمنا من كل ذلك تعليق الأستاذ محمود شاكر على هذا البيت ولا بد لي هنا من إيراده كاما لا غير

(١) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ج ٢ ص ٣٨٦ .

(٢) ديوان الفرزدق شرح وضبط وتقديم علي فاعور ، ط ١ ، عام ١٩٨٧ ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ص: ٣٢٣ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ج ٢، ص ٣٦٤ و ما بعدها .

محزوعه كثيرا ، حتى يتسرى لنا استظهار الصواب من كل جانب ، يقول بعد أن أورد الأبيات الثلاثة قبل وبعد هذا البيت :

إِنَّ الْمَلَامَةَ مِثْلُ مَا بَكَرْتُ بِهِ
وَتَقُولُ كَيْفَ يَمْلِئُ مِثْلُكَ لِلصِّبَابِ؟
وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّابِ كَأَنَّهُ
إِنَّ الشَّابَ لَرَابِعٌ مَنْ بَاعَهُ
وَالشَّيْبُ لَيْسَ لِيَأْعِيهِ تَحْمَارُ

يقول : " وأصحاب البلاغة يدعونه من التشبيه ، تشبيهه بياض الشعر وسوداه ، بياض النهار وسود الليل ، وهذا معنى مغسول لا خير فيه ، وإنما فعلوا ذلك بعد أن أفردوا هذا البيت بالاستشهاد.... فهذا البيت الثالث من تمام الذي قبله، وهو من قول النوار في ملامتها له.... والواو في قوله (والشيب ينهض) واو الحال . " سمة الحليم " هي الشيب الدال على أنه بلغ مبلغ المجريين ذوي الأناء ، لا يستخفهم هو ، ولا يطيش بأجلهم جهل ، و " العذار " من اللجام ، م الواقع منه في خدي الفرس ، يكبح من غلوائه . تقول النوار للفرزدق : كيف تصبو سادرا في غفلتك ، وقد كبرت وتحنكت وحكمتك التجارب ، ولمرء إذا بلغ من العمر ما بلغت وشاب عارضا ، كف الشيب من عنفوانه وانبعثت بخاريه تذكره وتندره وتنظره وتبصره ، وتحديه إلى حياة أخرى غير حياة اللهو والصبا وجنون الشباب ، فتنقشع الغشاوة عندئذ عن عينيه وينهتك ظلام الغفلة التي كانت مطبقة عليه.... ثم شبهت هذا كله بالفجر إذا اقبل فأسفر على القوم النiam ... فلم يرد بالشيب والشباب ولا بالليل والنهار لونهما من بياض وسود ، وإنما أراد الحلم والجهل والهدى والضلال ، واليقظة والغفلة ... قوله (كأنه) أراد تشبيه حالة مجتمعة ، بحال أخرى مجتمعة لا تشبيه لون بلون ، فإنه إسقاط للشعر ، ورحم الله من قال بذلك من علماء البلاغة ^(١) .

وقد أورد ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء هذا البيت مررتين ، أولها في فصله المشهور عن تصنيف الشعر (ضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه) ^(٢) ، والأخرى ذكره حينما اختار للفرزدق بعضا من مختاراته الشعرية

(١) طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٣٦٩ / ٣٧٠.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة، ج ١ ، ص ٦٨ .

حيث جعل من بينها هذا البيت^(١) ، ولم يعلق ابن قتيبة على التشبيه في هذا البيت بل أكتفى بذكر البيت في كل مرة ، وقد أورد هذا البيت برواية ابن سلام أيضاً الخوارزمي في مقدمة كتابه (الأمثال المولدة) واستشهد به على التشبيه والتمثيل دون الحديث عما دون ذلك من تفاصيل^(٢) ، وقال المرزباني عن هذا البيت "أوضح معنى، وأعذب لفظ، وأقرب مأخذ"^(٣) وذلك بعد أن أورده برواية ابن سلام بعد بعض من شواهد تعقيد الفرزدق في الشعر ، أما أبو هلال العسكري فقد أورده في أربعة مواضع من كتابيه الصناعتين وديوان المعاني ؛ أو لها : شاهد على بديع التشبيه^(٤) وثانيها: شاهد على الطلاق الواقع في البيت بين الشيب والشباب والليل والنellar^(٥) ، وثالثها : شاهد على البلاغة والفصاحة^(٦) ، وآخرها : شاهد على المبالغة في صفة الشباب والشيب والخضاب والعلل والموت والمراثي^(٧) ، وقد التزم في كتاب الصناعتين برواية ابن سلام حرفياً ، أما في ديوان المعاني فرواه بتتعديل طفيف استبدل فيه حرف الجر (في) بحرف الجر (ب) قبل كلمة الشباب لتكون (بالشباب) بدلاً من (في الشباب) ، ولم يتطرق لتفاصيل التشبيه في البيت بأكثر مما سبق ذكره ، أما ابن رشيق القيرواني فقد ذكره برواية ابن سلام الجمحي في باب المجاز^(٨) ، دون حديث عن تفاصيل التشبيه أو حتى إشارة إلى ما فيه من تشبيه ، أما عبد القاهر الجرجاني فقد ذكر هذا البيت برواية ابن سلام الجمحي في كتابيه: أسرار

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ، ص ٤٩٣ .

(٢) الأمثال المولدة لأبي بكر الخوارزمي ، تحقيق وتقدير محمد الأعرجي ، ط ٢ ، عام ٢٠٠١ م ، للمجمع الثقافي بأبوظبي بالإمارات العربية المتحدة ، ص ٧٥ .

(٣) الموسوعة في مآخذ العلماء على الشعراء تحقيق محمد شمس الدين ، ط ١ ، عام ١٩٩٥ م ، دار الكتب العلمية بيروت ، ص ١٣٢ .

(٤) الصناعتين لأبي هلال العسكري : ص ٢٢٦ .

(٥) السابق ص : ٢٨٢ .

(٦) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، نشرته مكتبة القدسية عن نسخة الشييخين : محمد عبده ، ومحمد محمود الشنقيطي ، ط ١ ، عام ١٣٥٢ هـ ، مكتبة القدسية بالقاهرة ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

(٧) السابق : ج ٢ ، ص ١٦٣ .

(٨) العمدة في محسن الشعر وآدابه ونقداته ، لابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، ط ٥ ، عام ١٩٨١ م ، دار الجيل المصرية للطباعة والنشر ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

البلاغة ودلائل الإعجاز ، أما ذكره له في أسرار البلاغة فقد ذكره في صياغات التشبيه المركب حيث يقول :

" فانظر الآن ، إنْ فَرَقْتَ ، كيْفَ يَنْفَرِقُ عَنْكَ الْحَسْنَ وَالْإِحْسَانَ ، وَيَحْضُرُ الْعَيْ وَيَذْهَبُ الْبَيْانُ لِأَنَّ تَشْبِيهَ الْبَيْاضَ عَلَى الْاِنْفَرَادِ لَا مَعْنَى لَهُ ، وَأَمَّا تَشْبِيهُ الْحَمْرَةَ ، وَإِنْ كَانَتْ تَصْحَّ عَلَى الطَّرِيقَةِ السَّادِّجَةِ أَعْنَى تَشْبِيهَ الْوَرْدَ الْأَحْمَرَ بِالْخَلْدِ فَإِنَّهُ يَقْسِمُ مِنْ حِيثِ إِنَّ الْقَصْدَ إِلَى جَنْسِ الْوَرْدِ مُخْصُوصٌ ، هُوَ مَا فِيهِ بَيْاضٌ تُحْدِقُ بِهِ حَمْرَةً ، فَيُجَبُ أَنْ يَكُونَ وَصْفُ الْمُشَبَّهِ بِهِ عَلَى هَذَا الشَّرْطِ أَيْضًا ، وَهَذَا الْاِخْتَصَاصُ وَمَا ذَكَرْتُ لَكَ ، تَجَدُّ أَحَدُ الْمُشَبَّهَيْنِ فِي الْأَمْرِ الْأَعْمَمِ الْأَكْثَرِ وَقَدْ ذُكِرَ فِي صَلَةِ الْآخِرِ ، وَلَمْ يُعْطَفْ عَلَيْهِ كَفَوْلَهُ : " وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ " ^(١) ، إِذْنَ فَعْدِ الْقَاهِرِ الْجَرْجَانِيِّ قَدْ اسْتَشَهَدَ بِهِذَا الْبَيْتِ لِلْدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ أَحَدَ جَزَائِيِّ الْمُشَبَّهِ صَلَةً لِلْآخِرِ وَتَبَعَّا لَهُ مَتَصَلَّا بِهِ لَا يَنْفَكُ عَنْهُ كَاتِصَالِ الْمُجْرُورِ (الشَّبَابِ) بِالْفَعْلِ يَنْهَضُ الْوَاقِعُ خَبْرًا لِلشَّيْبِ ، وَهَذِهِ صِيَاغَةٌ مِنْ صِيَاغَاتِ الْمُشَبَّهِ فِي التَّشْبِيهِ الْمُرْكَبِ وَالدَّالَّةِ عَلَى شَدَّةِ اِتَّصَالِ أَجْزَائِهِ " ^(٢) .

أَمَّا ذُكْرُهُ لَهُ فِي دَلَائِلِ الإعْجازِ فَقَدْ اسْتَشَهَدَ بِهِ عَلَى النَّمَطِ الْعَالِيِّ مِنَ الْبَيْانِ وَالْبَابِ الْأَعْظَمِ مِنْهُ وَهُوَ مَا تَتَحَدَّدُ أَجْزَاؤُهُ ، حَتَّى يَوْضُعَ وَضْعًا وَاحِدًا ، فَقَالَ :

" ... وَمَا نَدَرَ مِنْهُ وَلَطْفٌ مَا خَذَهُ وَدَقْ نَظَرٌ وَاضْعَهُ وَجْلَى لَكَ عَنْ شَأْوٍ قَدْ تَحْسَرُ دُونَهُ الْعَتَاقُ وَغَایَةُ يَعْيَا مِنْ قَبْلِهَا الْمَذَاكِيُّ الْقَرْحُ الْأَبِيَّاتُ الْمُشَهُورَةُ فِي تَشْبِيهِ شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ بَيْتُ اِمْرَئِ الْقَيْسِ :

لَدَى وَكْرِهَا الْعَنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِيُّ ^(٣) كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا

وَبَيْتُ الْفَرِزَدِقَ :

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِيَّهِ تَهَارٌ ^(٤)

فَكَمَا أَنَّ الرَّطْبَ وَالْيَابِسَ مِنْ قُلُوبِ طَيُورِ اِمْرَئِ الْقَيْسِ تَشَبَّهَانِ الْعَنَابِ وَالْحَشَفِ الْبَالِيِّ ؛ فَإِنَّ شَيْبَ وَشَبَابَ الْفَرِزَدِقَ يَشَبَّهَانِ الْلَّيلِ وَالنَّهَارِ وَهَذَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ مُنْطَوْقِ كَلَامِ عَبْدِ الْقَاهِرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ .

وَقَدْ أَوْرَدَ هَذِهِ الْبَيْتِ أَيْضًا أَبُو عَيْبَدَ الْبَكْرِيَّ فِي سَمْطِ الْأَلَائِعِ ، وَجَاءَ بِهِ كَشَاهِدٍ عَلَى التَّشْبِيهِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١٩٨.

(٢) شرح أسرار البلاغة للدكتور محمد إبراهيم شادي ، ط١، عام ٢٠١٢ م ، لدار اليقين بمصر ، الحاشية رقم (٣) ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

(٣) البيت في ديوان اميرئ القيس ، ص ١٢٩.

(٤) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ص : ٩٥.

إضاءة الصبح مذهبة لليل ومنفحة له^(١) واستشهد به أبو الراغب الأصفهاني على ظهور الشيب واحتلاط البياض بالسود^(٢) دون تفصيل للتشبيه ، وجاء على نحو من ذلك في ربيع الأبرار^(٣) ، واستشهد به أيضا على الطbac فقط ابن منقد في كتابه البديع في نقد الشعر^(٤) ، ونقل صاحب حلية الحاضرة نقدا لبيت الفرزدق هذا فقال:

" قال أبو علي : والناس يرون أن أحسن ما قيل في وصف الشيب قول الفرزدق
" والشيب ينهض في الشباب كأنه
ليل يصبح بجانبيه نهار
وهذا خطأ ، لأن هذا البيت مركب تركيباً معكوساً ، ولا تصح المقابلة في التشبيه ، إلا بأن يقول "والشيب
ينهض في الشباب كأنه نهار يصبح بجانبي ليل"^(٥) ، وتابعه في ذلك أيضا صاحب أنوار البديع واستشهد بالبيت
على عدم وجود مقابلة صحيحة^(٦) .

ومن طريف الأمر أن الدكتور محمد أبو موسى قد توافقت قراءاته النقدية لهذا البيت مع قراءة الأستاذ شاكر
بحض الصدفة ، دون أن يكون له اطلاع سابق على تعليق الأستاذ محمود شاكر ، ولم يطلع على تعليقه إلا
بعد أن علق الأستاذ على النسخة التي أهدتها له طالبه أبو موسى من كتاب التصوير البياني ، فكتب تحت

(١) سبط اللآلئ ، اللآلئ في شرح أمالى القالى ، لأبي عبيد البكري ، بمشاطرة عبد العزيز الميمى له في أبحاثه ، ط١ ، عام ١٩٣٥ م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ج١ ، ص٧١.

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي الراغب الأصفهاني ، تقديم عمر الطباع ، ط١ ، عام ١٤٢٠ هـ ، لشركة دار الأرقام بن أبي الأرقام ج٢ ، ص٣٤.

(٣) ربيع الأبرار ونوصوص الأخبار ، محمود الرمخشري ، تحقيق عبد الأمير مهنا ، ط١ ، عام ١٩٩٢ م ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ، ج٣ ، ص٤٠.

(٤) البديع في نقد الشعر ، تحقيق أحمد أمد بدوي ، و حامد عبد المجيد ، مراجعة إبراهيم مصطفى ، ط١ ، تاريخ بدون ، الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة ، ص٣٧.

(٥) حلية الحاضرة في صناعة الشعر ، محمد الحاتمي ، تحقيق جعفر الكتبي ، ط بدون ، عام ١٩٧٩ م ، دار الرشيد بالعراق ، ج١ ، ص ٨١-٨٢.

(٦) أنوار الربيع في أنواع البديع ، تأليف ابن معصوم المدى ، تحقيق ، شاكر هادي شكر ، ط١ ، عام ١٩٦٩ م ، مطبعة النعمان بالعراق ، ج٥ ، ص ٢٣٥.

هذا البيت (الطبقات) ، فراجع أبو موسى تعلیق الأستاذ محمود شاکر رحمه الله في الطبقات وجعله ثبّٰـكـه في كتابه (١) .

وَهِينَ نَتَمَعَنْ فِي هَذَا الْبَيْتِ مُسْبِقاً وَمُتَبَعِّداً يَأْخُوتُهُ، إِنَّ الَّذِي يَتَدَرَّبُ الْذَّهَنَ وَتَطْمَئِنُ إِلَيْهِ النَّفْسُ، الْقَوْلُ
بِتَشْبِيهِ هَيَّةِ هَيَّةٍ لَيْسَ بِجَامِعِ السَّوَادِ وَالْبَيْاضِ وَلَا بِجَامِعِ الْهَدَى وَالضَّلَالِ، فَقَدْ أَرَادَ الشَّاعِرُ تَشْبِيهَ هَيَّةِ ظَهُورِ
الشَّيْبِ بَعْدِ الشَّابِبِ، بِهَيَّةِ ظَهُورِ النَّهَارِ بَعْدِ الْلَّيلِ بِجَامِعِ السُّرْعَةِ وَالْإِحْاطَةِ فِي كُلِّ مِنْهُمَا.

وقد ترك لنا الشاعر عدة مفاتح لنطمئن إلى ذلك ، أما السرعة فيدل عليها قوله (ينهض) والنهوض في اللغة من " نَهَضَ ، كَمْنَعَ ، نَهَضَا وَنَهُوْضًا : قَامَ .. وَالطَّائِرُ : بَسَطَ جَنَاحَيْهِ لِيَطِيرَ "(٢) ، فالدلالة على السرعة مستمدّة من أصل الوضع اللغوي لينهض ، واستخدامها إثبات لجانب السرعة التي قصد إليها الشاعر قصداً كما هو واضح وجلي .

أما جانب الإحاطة فهو واضح أيضاً من قوله (جانبيه) والمقصود المبالغة في إحاطة النهار الليل (المشيب للشباب) وكأنه يحاصره من جهة ظهوره (غروب الشمس) ومن جهة غيابه (انبلاج الفجر) ، والدلالة الوظيفية لهذه المبالغة تكمن في إثبات السلطة الأعلى والنفوذ الأقوى للنهار على الليل(المشيب على الشباب) بحيث لا بد وأن يسيطر عليه ويستلبه منه سواده وسطوته.

أما جحدان السواد والبياض من التشبيه بالصورة التي ذكرها محمود شاكر، فهو جحدان يتدافع مع منطق البيت ، و(السواد) الوارد في ديوان الفرزدق بدلاً عن (الشباب) هو ما يقوي القول بذلك ويدعمه ، وهو فيما ييدو السبب الذي جعل الأستاذ محمود شاكر وتلميذه أبو موسى يغضبان الطرف عن رواية البيت بالسواد.

أما ما استتبطه محمود شاكر من أن الشاعر لم يرد بالشيب والشباب ولا بالليل والنهار لونهما من بياض وسوداء وإنما أراد الحلم والجهل والهدى والضلال ،واليقظة والغفلة ، فلاشك أن الشاعر أراد ذلك بدليل منطوق الآيات قبل وبعد هذا البيت ، ولكنكه مراد مفهوم ما وراء التشبيه ، ويستحق أن يكون فهم رفيع الذرى من

(١) ذكر ذلك الدكتور محمد أبو موسى في كتابه (التصوير البصري دراسة تحليلية لمسائل البيان)، ط٧، عام ٢٠٠٩م.

مكتبة وهبة بالقاهرة ، ص ١١٣-١١٥ .

(٢) القاموس المحيط لحمد بن يعقوب الفيروز آبادى ج ١ ص ٦٥٦.

مستبعات هذه الصورة البيانية ؛ إذ إن الضلال والمدى والحلل والجهل واليقظة والغفلة التي قصد إليها هي في حقيقتها صفات لازمة للشيب والشباب ، والمدى والحلل واليقظة التي تكون في شيبة الإنسان هي (العذار) التي تكبح جماح الشباب وتحد من طيشه ، ويمكن إدراج ذلك كله تحت الدلالة الوظيفية للتتشبيه .

ومن ذلك أيضا تعليق محمود شاكر على بيت أمري القيس المشهور :

علَيِّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِبِيْتِلِيٍّ^(١)

ولَيْلٌ كَمْوَجٌ الْبَحْرِ أَرْجَحِي سُدُولَهُ

يقول محمود شاكر :

" وهذا البيت أيضا مما يزعم الشرح أنه شبه الليل فيه بوج البحر في ظلمته ووحشته وهوله ، وأن قوله (بأنواع الهموم) متعلق ب (أرجحه على) ، والتتشبيه الذي زعموه هو هنا فاسد فيما أرى ، والموج في البيت مصدر لا اسم ، وأصل سياقة البيت (وليل يموج بأنواع الهموم ليتلي ، موجا كموج البحر أرجحه سدوله) ، أما التوحش والهول فهو توحش الهموم الطاغية المتضربة عليه في ظلام الليل ، وهذا أحق بامرئ القيس ونبل معاليه"^(٢)

وهذا البيت كسابقه كثير الدوران بين أرباب اللغة والبلاغة والأدب ، وقد خالف محمود شاكر في رأيه بفساد التتشبيه معظم من تناوله من العلماء ، فأبو عمر الشيباني صاحب شرح المعلقات التسع إن صحت نسبة الكتاب إليه يذكر الجامع بين المشبه والمشبه بدون إشارة إلى وجود التتشبيه لأنه أوضح من أن يبينه ، ويكتفي بقوله : " قوله كموج البحر أي في كثافة ظلمته ، وسدولة أطرافه "^(٣) ، واستشهد به ابن طباطبا العلوي في " تشبيه الشيء بالشيء لوناً "^(٤) ، واستشهد به على نحو من ذلك أبو هلال العسكري وجعله كواحد من الأبيات المبنية

(١) ديوان أمري القيس ص ١١٧ .

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ج ١ ص ٨٥ الحاشية رقم (٢) .

(٣) شرح المعلقات التسع لأبي عمرو الشيباني ويليه معلقة الحارث اليشكري ، منسوب لأبي عمرو الشيباني ، تحقيق : عبد المجيد هو ، ط ١ ، عام ٢٠٠١ م ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت ، ص ١٥٥ ، ويرى ححقق الكتاب أن نسبة هذا الكتاب لناسخ المخطوطة الغير معروف ، وقد فند في مقدمة الكتاب نسبة الكتاب لأبي عمرو الشيباني ، وقال بعدم إمكانية نسبته إليه لإحالته في الكتاب على علماء بعده كابن كيسان أبي الحسن وابن السكين ، بالإضافة إلى أنها لا تقترب من أسلوب الشيباني على رأي المحقق ، ينظر في ذلك مقدمة الكتاب : ص ١٦-٥ .

(٤) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر ، مراجعة نعيم زرزور ، ط ٢ ، ٢٠٠٥ م ، دار

الكتب العلمية بيروت ، ص ٣١ .

على التشبيه الذي " يتضمن معنى اللون وحده"^(١) ، كما أنه نقد هذا البيت في ديوان المعاني وجعل فيه عيّاً من ناحية التضمين ، وعلل ذلك بقوله : " وهذا من أفسح الكلام وأبرعه إلا أن فيه تضميناً يلحق به بعض العيب وهو من أدل شيء على شدة الحب والهم ؛ لأنه جعل الليل والنهر سواء عليه فيما يكابده من الوجد والحزن وجعل النهر لا ينقصه شيء من ذلك وهذا خلاف العادة إلا أنه دخل في باب الغلو"^(٢) ، أما الزوزني صاحب شرح المعلقات السبع فلم يتردد في إجراء التشبيه من نفس الجهة التي قال بفسادها فيه محمود شاكر ، وذكر أن أمراً القيس " شبه ظلام الليل في هوله وصعوبته ونكاره أمره بأمواج البحر"^(٣) ، ونص التيفاشي صاحب سرور النفس على تشبيه الليل بالبحر في هذا البيت^(٤) ، وقال البغدادي بالتشبيه في هذا البيت على الوجه المأثور ما بين العلماء فقال في ذلك : " رب ليل يحاكي أمواج البحر في توحشه وهوله وقد أرخى على ستور ظلامه مَعَ أنواع الحزن ليختبرني : أَصْبَرْ أَمْ أَجْزَعْ ؟ "^(٥) ، وقد جرى معظم علماء العصر الحديث على منوال من ذكرتهم آنفاً من علماء التراث في إجراء التشبيه بين الليل وموسم البحر ، فشوقي ضيف يرى بأن أمراً القيس في هذا البيت " يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهي ، ويحس كأنه طال وأسرف في الطول حتى ليظن كأن نجومه شدت بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهي لا تتحرك ولا تنزلو"^(٦) ، ويصرح عبد الملك مرتاض بتشبيه الليل بالموسم كشوفي ضيف^(٧) .

- (١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ص : ٢٧٤ .
- (٢) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، ج ١ ، ص ٣٤٦ .
- (٣) شرح المعلقات السبع لحسين بن أحمد الزوزني ، تحقيق لجنة التحقيق في الدار العلمية ، ط بدون ، عام ١٩٩٣ م ، للدار العلمية بيروت ، ص ٢٩ .
- (٤) سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، لأبي العباس أحمد بن يوسف التيفاشي ، هذبه : محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور) ، تحقيق إحسان عباس ، ط ١ ، ١٩٨٠ م ، للمؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ص : ٢١ .
- (٥) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون ط ٤ ، عام ١٩٩٧ م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٧١ .
- (٦) تاريخ الأدب العربي ، العصر الماجاهلي ، لشوفي ضيف ، ط ١١ ، عام بدون ، لدار المعارف المصرية ، ص ٢٥٣ .
- (٧) السبع المعلقات مقاربة سيمائية/أنثروبولوجية ، عبد الملك مرتاض ، تاريخ بدون ، لدار رسلان للطباعة والنشر بسوريا ، ص ٤٢٤ .

أما محمد محمد أبو موسى تلميذ محمود شاكر فقام بنقل تعليق أستاذه على التشبيه في حاشية كتابه التصوير البصري، ثم اتخذ منه سبيلاً لتناوله وقراءته من نفس الزاوية ، فعند تناوله هو للبيت قال بأنه " لم تقف دلالة التشبيه بالموج عند الإشارة إلى أن همومه التي تمواج في ليته هموم متعددة متتابعة تمواج كمواج البحروالذي ييدو لي أن فيه معنى الإحساس بالقلق الطاحن الذي يتمثل في فوران الموج وصخبه وتشاقله...."^(١).

ومن الممكن عدم وجود فساد كلي في تشبيه يجعل الظلام جاماً بين الليل والموج، بما يتوفّر في كل منهما من سواد وظلمات ، لاسيما وأن الظلام والأمواج متلازمان سواداً حتى في التعبير القرآني الكريم يقول تعالى:

﴿أَوْ كَظُلْمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَّجِيٍّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلْمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^(٢).

يقول أبو القاسم الزمخشري في تفسير الآية:

"....وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق لظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحب ، ثم قال : ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه فهو في ظلمة الباطل لا نور له ، وهذا الكلام مجرّد الكنيات"^(٣).

ولعل كلمة (سدوله) والتي هي من "سدل: سَدَلَ الشَّعْرَ وَالثَّوْبَ وَالسِّتْرَ يَسْدِلُهُ وَيَسْدِلُهُ سَدْلًا وَأَسْدَلَهُ: أَرْخَاهُ وأَرْسَلَهُ"^(٤)، قريبة جداً من الظلمة منها إلى استنباط الأستاذ محمود شاكر .

(١) التصوير البصري لحمد أبو موسى ص : ٨٦.

(٢) سورة النور الآية الكريمة (٤٠).

(٣) الكشاف عن حقائق غواصات التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري ، ط٣، عام ١٤٠٧ هـ ، لدار الكتاب العربي بيروت ، ج٣، ص ٢٤٤ .

(٤) لسان العرب لجمال الدين بن منظور ج ١١ ص ٣٣.

المبحث الثاني : المفهوم وتأويله

جنه محمود شاكر في كثير من استنباطاته إلى المفهوم والتأويل من غير ألفاظ النص المنطوق ، وكثيراً ما كان يظهر هذا النوع من الاستنباط عند في مواجهته المباشرة للنصوص الأدبية ؛ ولذلك يتضح الكثير من جوانب استنباطاته بالمفهوم في مؤلفاته التي واجه فيها النصوص مواجهة مباشرة ؛ وذلك أنه حشد لقراءة النصوص في هذا المؤلفات جل ما توفر له من أدوات القراءة النقدية الفاحصة المدعومة بثقافته الكبيرة وفكرة الخاص ، حيث كان فكره عنصراً رئيساً للإنتاج النصي ، وقد دعمه بطاقاته وقواه ومقدراته العقلية والذوقية ، وحينما يكون الفكر العنصر الرئيس في قراءة النص الأدبي تتجلّى قيمة قراءة المفهوم المسكوت عنه ، الذي لا يظهر في ألفاظ النص الصريحة ودلائلها الوضعية في أصل استخدامها اللغوي ، وقد تميز محمود شاكر - كما سيبينه هذا البحث - بعمق فكري اتسعت معه دائرة المفهوم ؛ فلم يحصر نفسه وهو يواجه النصوص الأدبية بشكل خاص إلى مجرد النظر العقلي في ظاهر النص وشكله ، وهو ذات الأمر الذي جعل من المفهوم وتأويله طريقة بارزة من طرائقه الاستنباطية .

وقد اشترط محمود شاكر نفسه على الناقد أن يكون قادراً على استنباط أوابد المعاني التي يستخرج خبيئها بالمفهوم وتأويله ، بعد أن يكون قادراً أيضاً على تتبع وفهم شوارد الألفاظ ، فيكون نتاج الأمرين معاً الوصول إلى حقائق خبيء الأقوال ، والحكم لها أو عليها بتميز وإنصاف ، فلا يحيف في أحکامه ولا يتجاوز فيها ، ولا يقصر عنها تقصيراً يخل بكونها أحکاماً نقدية منصفة ، يقول في ذلك :

"الناقد رجل عَدْلٌ منصف لا يزال يتبع شوارد اللفظ ، وأوابد المعاني ، يستنبئها أخبار أصحابها ، ويستتبّط من قلوبها أسرار كُتابها ، ويكشف عنها خبيئة قائلتها.. ثم يحكم ميزاً مقدراً لا يجور فيتجاوز الغاية ، ولا يحيف فيقع دون المدى" (١)

وستكون المحاولة جادة في هذا البحث للوصول إلى أجناس الاستنباط بالمفهوم وتأويله عند محمود شاكر ، واستعراض استنباطاته التي تخضت عن مفهومه الخاص وتأويله الخالص ، ومن ثم مساءلتها ومناقشتها للتوصل بها إلى الطريقة الفكرية التي كان يفكر بها الأستاذ محمود شاكر رحمه الله وهو يستنبط بمفهوم النص بعد أن تم شيء من ذلك في المبحث السابق المتعلّق بالاستنباط المنطوق النص .

(١) جمّة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ج ١ ، ص : ٣٤

طائق التأويل لفاهيم المصطلح العلمي :

تتجلى ملامح الاستنباط بالمفهوم وتأويله عند محمود شاكر بشكل أخص في توظيفه لبعض المصطلحات البلاغية والنقدية وحتى اللغوية في فهم النص الشعري ؟ فعندما تستدعي القراءة النقدية بعضاً من هذه المصطلحات يقوم بتوظيفها كما نص عليه ضبط العلماء لها تارة ، وربما يستخدمها بألفاظها فقط ويسقطها على ضوابط أخرى غير ما نص عليه أهل العلم والاختصاص ، وربما يتسع في ذلك فيستدعي مصطلحات علمية من علوم أخرى يلامس اصطلاحه لها شيئاً من توظيفه القرائي لها ، ولا يجد في نفسه حرجاً من تسميتها مصطلحات أدبية ونقدية ، بل ويخصص فهرستاً لها من بين العديد من الفهارس التي يختتم بها كتبه ^(١)، ومنها :

- زمن الحدث .
- زمن النفس .
- تزييف الإسناد .
- حديث النفس.
- طائف الذكري.
- الوقف في قراءة الشعر .
- النمط الجامع .
- حادي النغم.
- مجيب النغم.

هذه أمثلة فقط لتلك المصطلحات التي كانت فيما ييدو البوابة الرئيسية التي ولج منها محمود شاكر إلى مفهوم النص وتأويله ، وسيكون من الصعب على مبحث واحد كهذا استعراض كل المصطلحات ؛ لكنه كثيرة نماذجها التي درأت عليها قراءة النص عند الأستاذ محمود شاكر ، ولكن سيتم انتخاب ما يمكن انتخابه منها لاستجلاء جوانب الاستنباط بالمفهوم عبر المصطلح عند الأستاذ ، وقد يكون استجلاء بعضها على هذا النحو مقاربة تطبيقية افتتاحية لغيرها من المصطلحات .

(١) ينظر في هذه المصطلحات والإحالات لمعانيها إلى فهارس نمط صعب وغط مخيف لمحود شاكر : ص ٤١٧ - ٤٢٢ .

أولاً : المصطلح البلاغي :

اعتبرت محمود شاكر بعض من المصطلحات البلاغية في قراءته للنص الأدبي واستنباطاته منها بالمفهوم ، وقد نبه محمود شاكر على أن أمر ألفاظ الشعر له خصوصية مطلقة ، فثنائية الحشو والحدف البلاغيتين لها قدرة على توليد المفهوم وفق القراءة الفاحصة ، فالزيادة في الألفاظ عما تحتاجه من معان - وهو ما سماه بالإساغ ، والحدف منها - وهو مسماه بالتعريبة - ، يكاد ينفلان الألفاظ من أصل وضعهما اللغوي إلى ما يشبه انتقالها في التصوير البياني ، يقول الأستاذ في ذلك :

"أما ألفاظ الشعر فأمرها مختلف ؛ لأنهم يلبسوها بالإساغ ، ويخلعون عنها بالتعريبة ، ما يكاد ينقل اللفظ من مستقره في اللغة وفي كتبها ، إلى مدرج تسيل باللُّفْظ وقرنائه من الألفاظ إلى غاية غير غاية المتكلم المبين عن نفسه لسامعه ، وهذا شبيه بما نسميه المجاز والاستعارة والكتابية وما جرى مجرها" ^(١) .

وهذا النص يكشف وبوضوح السبب الذي يقف وراء اعتراضات محمود شاكر على معاجم اللغة ، واتهامها بالقصور في بيان معاني بعض ألفاظ اللغة ، ويكشف أيضاً عن السبب الذي دعاه لإضافة معجم خاص به في أواخر الكتب التي قام بتحقيقها على وجه خاص ، فالاعتماد على شروح أصحاب المعاجم غير كاف من وجهة نظره في قراءة الشعر قراءة جمالية تذوقية ، يستطيع من خلالها اكتساب مهارة الإصابة في الاستنباط بالمفهوم المسكوت عنه وتأويله تأويلاً يتفق مع قصدية النص ومقصدية مبدعه ، يقول محمود شاكر عن ذلك وهو يقرأ قصيدة (إن في الشعب الذي دون سلع) :

" وهكذا وجدتني أسيير في طريق طويل أعالج الحديث عن نسبة القصيدة ، وعروضها ... وترتيب أبيات القصيدة كما جاء في روایات الأقدمين ... ثم ما اقترحته أنا من ترتيب وفق منهجي في تذوق الشعر ... وخالفتي في ذلك مما قاله بعض شراح القصيدة من النقاد الأوائل، ثم عدولي عن شروحهم اللغوية المجردة لبعض ألفاظها ، ورأيت أننا إذا وقفنا عندها دفناً الشعر في تابوت من اللغة ^(٢) ومن المصطلحات البلاغية التي اعتبرت محمود شاكر في استنباطاته التأويلية مصطلح الحشو البلاغي ، وهو مصطلح بلاغي حده السكاكي بقوله : " وهو أن تدرج في الكلام ما يتم المعنى بدونه كقول طرفة :

(١) نط صعب ونمط حنيف لمحود شاكر ، ص : ١٣٣ .

(٢) السابق : ص ٢-١ .

فَسَقِيٌ دِيَارَكَ - عَيْرٌ مُفْسِدٌ هَا -

فَأَدْرَجَ غَيْرَ مُفْسِدٍ هَا^(٢)

وَكَثِيرًا مَا يُرْتَبِطُ مَصْطَلِحُ الْحَشُو الْبَلَاغِيِّ بِالْزِيَادَةِ وَعَدْمِ الْفَائِدَةِ ، وَهَذَا الْإِرْتِبَاطُ مَدْلُولٌ عَلَيْهِ بِاسْمِهِ الَّذِي اصْطَلَحَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ، وَلَكِنْ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهِ غَالِبًا عَلَى نَحْوِهِ مِنْ عَدْمِ الْفَائِدَةِ ، بَلْ نَظُرٌ إِلَيْهِ كَمَوْطَنِ صَالِحٍ لِفَهْمِ النَّصِّ وَقِرَاءَةِ مُسْتَبِعَتِهِ ، وَإِنْعَامًا فِي نَظَرِهِ هَذِهِ فَقَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ أَحَابِيهِ اسْمَ الْإِسْبَاغِ لِالْحَشُو كَمَا سَبَقَ ذِكْرَهُ آنَفًا ، مُسْتَدِعًا هَذِهِ التَّسْمِيَّةَ مِنْ عِلْمِ الْعُرُوضِ كُلُّهُ مَعْرُوفٌ مِنْ عُلُلِ الْزِيَادَةِ الَّتِي تَزِيدُ حَسْنَ النَّغْمِ ، وَرِبِّما كَانَ اسْتَدِعَأَهُ لَهَا مُرْتَبِطًا بِأَصْلِهِ الْلُّغُويِّ الَّذِي يَنْصُ عَلَى الْاِتْسَاعِ وَالْزِيَادَةِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي التَّكَامِ^(٣) ، فَيَكُونُ اسْتَدِعَأَهُ لَهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْأَصْلِ الْلُّغُويِّ مِنْ قَبْلِ التَّوْسُعِ فِي الْمَعْنَى وَالْزِيَادَةِ فِي بَيْزِيَادَةِ مَبْنَاهِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي إِنْتَامِهِ ، وَمُحَمَّدُ شَاكِرٌ فِي ذَلِكَ مُتَبعٌ لِلْعُلَمَاءِ لَا مُبْتَدِعٌ ، فَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِ نِظَرَةً مُتوسِّطَةً بَيْنِ الْفَائِدَةِ وَعَدْمِهَا ، وَأَثَبَتُوا لَهُ مَزِيَّةً وَفَائِدَةً لِلْمَعْنَى عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَسْمِيَتِهِ حَشُوًا ، فَأَصْلُ الْحَشُو الْبَلَاغِيِّ مُرْتَبِطٌ بِإِصْلَاحِ الْوَزْنِ وَالْقَافِيَّةِ فِي مَنْظُومِ الْكَلَامِ ، وَمُرْتَبِطٌ بِالسَّجْعِ وَتَأْلِيفِ الْفَصْوَلِ فِي الْمُشَوَّرِ مِنْهُ ، وَزِيَادَتِهِ "إِمَّا أَنْ تَكُونَ أُثْرَتُ فِي الْكَلَامِ تَأثِيرًا لَوْلَا هَا لَمْ يَكُنْ يَؤْثِرُ أَوْ لَمْ تَؤْثِرْ بَلْ دَخُولُهَا فِي كَخْرُوجَهَا مِنْهُ ، وَإِذَا كَانَتْ مُؤْثِرَةً فَهِيَ عَلَى ضَرَبِينِ أَحَدُهُمَا : أَنْ تَفِيدَ فَائِدَةً مُخْتَارَةً بِزِدَادِ بَهْمِ الْكَلَامِ حَسْنًا وَطَلَوَةً ، وَالآخَرُ أَنْ تَؤْثِرَ فِي الْكَلَامِ نَفْصَا وَفِي الْمَعْنَى فَسَادًا..."^(٤) وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجَرجَانِيُّ : "وَأَمَّا الْحَشُو فَإِنَّمَا كُرِّهُ وَدُمِّرَ .. لَأَنَّهُ خَلَا مِنَ الْفَائِدَةِ ، وَلَمْ يَحْلِّ مِنْهُ بَعَائِدَةً ، وَلَوْ أَفَادَ لَمْ يَكُنْ حَشُوًا ، وَلَمْ يُدْعَ لَعْوًا ، وَقَدْ تَرَاهُ مَعْ إِطْلَاقِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ عَلَيْهِ وَاقِعًا مِنَ الْقَبُولِ أَحْسَنَ مَوْقِعًا ، وَمُدْرِكًا مِنَ الرَّضَى أَجْزَلَ حَظًّا ، وَذَاكَ لِإِفَادَتِهِ إِيَّاكَ ، عَلَى مُجَيِّهِ مُجِيَّهًا مَا لَا يَعْوَلُ فِي الإِفَادَةِ عَلَيْهِ ، فَيَكُونُ مَثْلُهُ مَثْلَ الْحَسَنَةِ تَأْتِيكَ مِنْ حِيثِ لَمْ تَرْقِبَهَا ، وَالنَّافِعَةُ أَتَتْكَ لَمْ تَحْتَسِبَهَا..."^(٥) .

(١) هَذَا الْبَيْتُ مَذَكُورٌ فِي دِيَوْن طَرْفَةِ بْنِ الْعَبْدِ بِبِرَوَيَّةِ (بِلَادِكَ) بَدْلًا مِنْ (دِيَارَكَ) ، يَنْظُرْ لِدِيَوْن طَرْفَةِ بْنِ الْعَبْدِ شَرْحَ الْأَعْلَمِ

الشَّيْتَمْرِيُّ ، وَتَلِيهِ طَائِفَةٌ مِنَ الشِّعْرِ الْمُنْسُوبِ إِلَى طَرْفَةَ ، تَحْقِيقُ دَرِيَّةِ الْخَطِيبِ وَلَطْفَيِ الْصَّقَالِ ، طِّ٢ ، لِلْمُؤْسَسَةِ

العَرَبِيَّةِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوزِيعِ بِبَيْرُوتِ ، وَدَائِرَةِ الشَّفَافَةِ وَالْفَنُونِ بِالْبَحْرَيْنِ ، صِ ١٠٤ .

(٢) مَفْتَاحُ الْعِلُومِ لِلْسَّكَاكِيِّ ، صِ ٤٢٨ .

(٣) يَنْظُرْ لِسَانِ الْعَرَبِ لَابْنِ مَنْظُورِ ، جِ ٨ ، صِ ٤٣٣ .

(٤) سَرُّ الْفَصَاحَةِ لَابْنِ سَنَانِ الْخَفَاجِيِّ ، طِّ١ ، عَامِ ١٩٨٢ مِ ، لِدارِ الْكِتَابِ الْعُلُومِيَّةِ بِبَيْرُوتِ ، صِ ١٤٦ .

(٥) أَسْرَارُ الْبَلَاغَةِ لِعَبْدِ الْقَاهِرِ الْجَرجَانِيِّ : صِ ١٩ .

وقد استدعي الأستاذ محمود شاكر الحشو استدعاءً جمالياً رائعاً في كتابه نمط صعب ونمط مخيف ، ومواطن ذكره للخشوة في هذا الكتاب جديرة بالعناية والاهتمام ، ومن ذلك تعليقه على قول الشاعر :

حَبَّرْ مَا نَابَنَا مُصْنِئٌ^(١)

يقول محمود شاكر في زيادة ما بعد خبر في البيت :

" (خبر ما) : قدم الفاعل على فعله وأدخل على الخبر (ما) التي تحيى حشواً ؛ لتدل على الإعراض عن وصف الشيء بما ينبغي له من الصفات ، لأنك مهما وصفته فبالغت فيه الصفة فلن تبلغ كنهه "^(٢) ، فاستبط من مجيء ما حشوا في هذا البيت استنباطاً بالمفهوم وبدلالة المصطلح البلاغي ، فقد أُول حشو (ما) في مبني البيت للدلالة على أن خبر قتل حال قائل القصيدة خبراً لن تبلغ منتهي وصفه مهما كانت له واصفاً ، فأعراض عن ذلك كله واختصره بزيادة (ما) ، وبذلك تكون (ما) أدت في مبنها ما يؤديه الحشو من زيادة المعنى وتمامه، وتكون في دلالتها الوظيفية - حتى مع كونها حشواً - دلالة اختصار وإيجاز بلغ ينحدر منها حول ذلك الخبر وعظمته وشدة وقوعه وهو مصابه ، فـ (ما) هذه يستتر وراءها الكثير من مفهوم النص المسكوت عنه الذي تركه الشاعر وخباء خلف حرفها ، وهذا من عجيب أمر قراءة الأستاذ محمود شاكر وبديع استنباطاته ، فالخشوة الذي أصله الزيادة في المبني هو ذاته يقوم بدلالة الحذف ويؤدي وبكل اقتدار بلاغة الإيجاز ، وفي هذا ما فيه من عمق النظر في معانٍ الشعر وإنعام التفكير والتدبّر فيما يستكثن وراء ألفاظه ، ولما كان موقع (ما) من الفائدة على هذا النحو الراسخ في تذوق الأستاذ محمود شاكر وتأمله ؛ لم يتزدد في وصف من قال بزيادة (ما) في مثل هذا الموضع ثم يسكت بأنه قولٌ مسيءٌ للشعر ، وأنه يتعامل مع الشعر على أساس من الإعراب النحوي لا غير^(٣) ، ولكن القول بفائدة ما في هذا البيت على النحو الذي قوله محمود شاكر ، لا يعطي الحق في ادعاء أنها اختصرت كل صفة ، أو أن الشاعر أراد بها أن تكون جامعة لكل صفة أرادها في نفسه ، وذلك

(١) هذا البيت من قصيدة ألف فيها محمود شاكر كتابه نمط صعب ونمط مخيف ، وقد تحدث في أول كتابه عن نسبة هذه القصيدة ورجح فيها أن تكون لخفاف بن نصلة ابن أخت تأبظ شرا ، وقد أثبتت في كتابه آراء العلماء في نسبة هذه القصيدة إلى الشعراء ، ينظر في ذلك نمط صعب ونمط مخيف : ص ٤٦ وما بعدها .

(٢) السابق ، ص ١٤٣ .

(٣) السابق ، ص ١٤٤ .

أن الشاعر أورد لهذا الخبر صفات وقعت بعد(ما) ، فهو خبر مصطلح " وقد اصْمَأَ الرَّجُلُ اصْمَالًاً ، إذا اشتدَّ وَغَلَطَ ، وَمِنْهُ اشتقاق المصمَلة ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ ... " ^(١) ، ثم أوغل الشاعر في صفة الخبر ووصفه في آخر البيت بأنه خبر عظيم وإذا قيس به دواهي الناس صارت دواهيهم بالنسبة إليه حقيقة صغيرة ، فما الزائد في هذا البيت استطاعت وباقتدار أن تختصر كثيراً من الصفات التي أراد الشاعر لنا أن نستنبطها منها ، ولكنها لم تكن كافية من وجهة نظر الشاعر لاختزالها كل صفة أرادها في ذلك الخبر ، ولم تكن كافية للاستغناء بما عما سواها من الصفات ، أو بما سماه الأستاذ محمود شاكر (ترادف الصفات) ^(٢) .

ويلاحظ غالباً على محمود شاكر وهو يستنبط بالمفهوم وتأويله جنوحه كثيراً إلى دعم فراءته بشواهد من فصيح كلام العرب ، والاستباط بالمفهوم يحتاج في غالب الأمر إلى شواهد تدعم الأمر المستنبط وتقنع القارئ بقبوله والتسليم به ، وقد لجأ محمود شاكر في البيت السابق إلى شاهد يدعم استنباطه في فائدة (ما) الزائد التي أنت حشوأً ، وهو بيت أمر القيس :

وَحَدِيثُ الرَّجُبِ يَوْمَ هُنَّا
وَحَدِيثُ مَا عَلَى قِصَرِهِ^(٣)

فهو يرى أن المقصود ب (حديث ما) في هذا البيت الحديث الذي جرى بين الشاعر وبين صاحبته ، والشعر يتৎسر على ما فاته من تطاول استمتاعه بهذا الحديث ، " بلغ بترك صفة الحديث ما لا يبلغه إثبات الصفة" ^(٤) ، وهذا الشاهد أدل على فائدة ما وإثبات مقدرها على الإعراض عن استيعاب الصفات من البيت المستشهد له ، حيث لم يذكر بعد (ما) من الصفات إلا أنه حديث قصير ، و على أن الشاعر لم يرد من ذكر القصر في آخر البيت وصف الحديث بشكل مباشر ، بل أراد أن تكون ما للإعراض عن وصف الحديث بما ينبغي له من الصفات ، فجاء بوصف (القصر) مضموناً في أسلوب الاحتراس ، ليكون المعنى أن هذا الحديث

(١) جمارة اللغة لا بن دريد الأزدي : ج ٢، ص ١٠٨٩.

(٢) نمط صعب ونمط مخيف لمحود شاكر : ص ١٤٤.

(٣) ديوان أمر القيس : ص ٧٦.

(٤) نمط صعب ونمط مخيف لمحود شاكر : ص ١٤٤.

الحديث لا تستطيع أن تصف كنهه تضامن الصفات على الرغم من كونه حديثاً قصيراً ، ولو حذف قوله على قصر لتوهم المعنى أنه حديث لا تستطيع أن تصف كنهه تضامن الصفات لطوله ، فاحتسب عن ذلك بقوله (على قصر) مضموناً صفة قصر الحديث في هذا الاحتراس . وبذلك تكون (ما) في هذا البيت أدل على فائدها في الإعراض عن استيعاب كل ما يمكن أن يوصف به هذا الحديث ، لعدم وجود صفة مباشرة بعد (ما) للحديث ، وليس مثل ذلك في البيت المستشهد له ، حيث جاءت صفة مصمتل وحملة (جل) صفات مباشرة بعد (ما) الزائدة لذلك الخبر ، ويعنيها من ذلك كله أن الأستاذ محمود شاكر استدل على استنباطه بالمفهوم بشاهد من فصيح كلام العرب ، وقد كان وجه الاستدلال صارخاً بحسن فائدة (ما) وجلال قدرتها على استيعاب صفات لا يمكن استيعابها من خلال ذكرها المباشر وتعدادها كما يراه الشاعر .

وقد يدعم محمود شاكر استنباطاته بالتأويل باستدلال ليس من قبيل جلب شاهد ومقاييسه على الاستنباط ، بل يلجأ في بعض الموضع إلى الاستدلال بالعكس ، والاستدلال بالعكس من أقسام الاستدلال المباشر عند علماء المنطق ، ويقصد به أن يشتق صاحب الاستدلال " من القضايا الحاضرة في الذهن عكوساً لها ، ويستفيد منها أحكاماً جديدة ، وعمليته في ذلك عملية عقلية بحثة "(١) ، ومن ذلك تعليقه على الحشو الذي جاء في البيت التالي للبيت السابق من قصيدة ابن أخت تأبطة شرّاً (٢) :

قَدَّفَ الْعِبَةَ عَلَيَّ وَوَلَى
أَنَا بِالْعِبَءِ لَهُ مُسْتَقِلٌ

فمحمود شاكر يرى أن قول الشاعر (له) يعني (من أجله) وهو حشو ازداد معه الكلام قوة وحسناً واستطاع ببراعة أن يضيف للنظم معنى جديداً ، إذ أفاد هذا الحشو تعظيم شأن هذا القتيل ، الذي لم يذهب دمه هدراً على الرغم من إهجامهم عن الأخذ بثاره (٢) ، ولتمكن استنباط مفهوم فائدة (ما) على هذا النحو في نفس القارئ وفكه تقرر للأستاذ محمود شاكر أن يستدل بالعكس فقال :

(١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة صياغة للمنطق وأصول البحث متmeshية مع الفكر الإسلامي ، عبد الرحمن حسن جبنكة الميداني ، ص : ١٧٧ .

(٢) نمط صعب ونمط مخفف لمحمد شاكر ، ص : ١٤٨ .

" ولو قال : (وأنا بالعبء مستقل) وحذف (له) لسقط الكلام سقوطاً ظاهراً ، فهذا مهارة الشاعر وسلطان بحر المديد ، الذي يحمل الشاعر أن ينبع إلية بالكلمات حية موجزة مقتضدة خاطفة الدلالة في آناء وتوءة ، ويوقعها في حاقد موضعها لا يتتجاوزه ... " ^(١)

فالقضية الحاضرة في ذهنه حسن المعنى وتمامه الذي أضافته (له) حينما وقعت حشوا في هذا البيت ، فسكتت على الكلام رفعة بيانية وجمالية ألقها ، وعكس ذلك لو جاء الكلام بغيرها فسيسقط سقوطاً ظاهراً ، ويفقد الحسن والتمام الذي هو مرتبط بإضافة (له) حشواً في البيت .

ومن المصطلحات البلاغية التي اعترضت محمود شاكر وجعلته يستنبط بالمفهوم وتؤويله عن طريق دلالتها مصطلح الحذف ، والحدف باب عظيم من أبواب البلاغة العربية ، وقد جاء في محكم التنزيل وفي كلام النبي ﷺ والفصيح من كلام العرب ، و هو مدار الإيجاز وكنه البلاغة ؛ " لأن موضوعه يقوم على الاختصار " ^(٢) ومن النماذج التي قرأ فيها محمود الحذف قراءة آنية الحذف في (حلوا) في قول ابن أخت تأبّط شرًا :

وَقُلُوتُهُ هَجَرُوا مِمَّا أَسْرَوا
لَيْلَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا اخْتَابَ حَلُولًا

ويり محمد شاكر أن الحذف ورد في هذا البيت في قوله (حلوا)، ولمعنى أن هؤلاء الفتية آخذني الثأر " حلوا بهمذيل فأطبقوا عليهم ، فاختنوا فيهم القتل ، فاختصر القول اختصاراً ، لدلالة قوله فيما بعد (فادركتنا الثأر منهم) على هذا المحنوف ^(٣) ، وقد وصل إلى تأويل هذا الحذف من طريقين :

أوها : الدلالة المجازية التي اكتسبتها الكلمة (حل) ، حيث أصبحت هذه الكلمة مقرونة بالعذاب والعقاب ، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنْ قُرْآنًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمْ بِهِ الْمُؤْتَمِ﴾
بِلِ اللَّهِ الْأَمْرُ حَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْسَرْ اللَّهُ لَهُدَى النَّاسَ حَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُصِيبُهُمْ إِمَّا

(١) نمط صعب ونمط مخيف لـ محمود شاكر : ١٤٨ .

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حفائق الإعجاز ، ليحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني ، تحقيق : عبد الحميد المنداوي ، ط١ ، عام ٢٠٠٢ م ، للمكتبة العصرية بيروت ، ج ٢ ، ٥١.

(٣) نمط صعب ونمط مخيف لـ محمود شاكر : ص ٢١٦ .

صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحْكُمْ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١﴾

واستدل أيضاً على أن الحلول مقرونا بالعذاب بقول بشر بن أبي خازم ^(٢):

وَمَا حَيٌّ نَحْلٌ بَعْثَرٌ وَتَبَاهٌ
من الحرب العوان بمستراح ^(٣)

والحق أن الحلول غالب مجئه في القرآن الكريم مقرونا بالعذاب كما قاله الأستاذ محمود ، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ^(٤) ، قوله تعالى : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيَّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْعُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ وَمَنْ يَتَّلَغَّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ^(٥) ، قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ عَضْبَانَ أَسْفًاٰ قَالَ يَا قَوْمَ أَمْ يَعْدُكُمْ رِبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًاٰ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَحْلَقْتُمْ مَوْعِدِي﴾ ^(٦) وقوله تعالى : ﴿فُلْنٍ يَا قَوْمَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِتِكُمْ إِلَيِّ عَامِلٌ﴾ ^(٧)
﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ^(٨)

(١) سورة الرعد ، الآية الكريمة رقم : ٣١ .

(٢) بشر بن أبي خازم عمرو بن عوف الأنصاري، أبو نوفل ، شاعر جاهلي فحل من الشجعان من أهل نجد ، من بني أسد بن خزيمة ، كان من خبره أنه هجا أوس بن حارثة الطائي بخمس قصائد ، ثم غزا طيئاً فجرح وأسره بنو نبهان الطائيون فبذل لهم أوس مائتي بعير وأخذه منهم ، فكساه حلته وحمله على راحلته وأمر له بمائة ناقة وأطلقه ، فانطلق لسان بشر بمدحه فقال فيه خمس قصائد بما الخمس السالفة ، توفي قتيلاً في غزوة أغار بها على بني صعصعة بن معاوية، رماه فتى من بني وائلة بسهم أصاب ثندؤته ، ينظر لترجمته في ديوانه ، ديوان بشر بن أبي خازم الأنصاري ، قدم له وشرحه مجید طراد ، ط ١ ، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتاب العربي بيروت ، ص ١٥-٧ .

(٣) البيت في ديوان بشر بن أبي خازم الأنصاري(السابق) ص ٤٥ .

(٤) سورة هود الآية الكريمة رقم (٣٩) .

(٥) سورة طه ، الآية الكريمة رقم (٨١) .

(٦) سورة طه الآية الكريمة رقم (٨٦) .

(٧) سورة الزمر الآيتين الكريمتين رقم (٤٠-٣٩) .

أما في فصيح الكلام من شعر العرب فإن الحلول لم يكن ارتباطه بالعذاب والعقاب مما يمكن القياس عليه واستخلاص حكم لغوي أو حتى تغليب ، فكما أن الحلول ارتبط في الشعر الفصيح بالعذاب والعقاب ، فقد ورد الحلول أيضاً مرتبطاً كثيراً بالكرم ومن ذلك قول الخنساء^(١) في رثاء أخيها صخر:

بَعْدَ صَحْرٍ إِذَا دَعَاهُ صُيَاحًا^(٢)

مَنْ لِضَيْفٍ يَحْلُّ بِالْحَيِّ عَانِ

وَقُولُهَا أَيْضًا في رثاء صخر :

فُبَالَكَ حَلَّوْا ثُمَّ نَادَوْا فَأَسْمَعُوا^(٣)

فَمَنْ لِقَرَى الأَضْيَافِ بَعْدَكَ إِنْ هُمْ

وَقُولُ أَوْسَ بنْ حَجْر^(٤) :

وَيَضْرِبُ أَنْفَ الْأَبْلَخِ الْمُتَغَشِّمِ

يَجُودُ وَيَعْطِي الْمَالَ مِنْ غَيْرِ ضَنْنَةٍ

لَمْنَ نَابَةٌ مِنْ مُسْتَجِيرٍ وَمُنْعِمٍ^(٥)

يَحْلُّ بِأَوْعَارِ وَسَهْلٍ بِيُوتَتَةٍ

(١) تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، أشهر شاعر العرب وأشعرهن على الإطلاق ، من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهلي، وأدركت الإسلام فأسلمت. ووفدت على رسول الله ﷺ مع قومها بني سليم. فكان رسول الله يستنشدها ويعجبها شعرها، فكانت تنشد وهو يقول: هيhe يا خنساء ، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية وكان قد قتلا في الجاهلية ، وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية فجعلت تحرضهم على الثبات حتى استشهدوا جميعاً فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، توفيت عام ٢٤ هـ ، ينظر لترجمتها في مقدمة ديوانها ، ديوان الخنساء ، شرح معانيه ومفرداته حمدو طماس ، ط٢ ، عام ٢٠٠٤ م ، لدار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ، ص ١٢-٥ .

(٢) البيت في ديوان الخنساء ، ص ٢٨ .

(٣) البيت في ديوان الخنساء : ص ٧٧ .

(٤) أوس بن حمير بن مالك التميمي أبو شريح ، شاعر تميم في الجاهلية، أو من كبار شعرائهم، أبوه حمر هو زوج أم زهير بن أبي سلمي ، كان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة. عمر طويلاً ولم يدرك الإسلام ، في شعره حكمة ورق، وكانت تميم تقدمه على سائر الشعراء العرب. وكان غلاً مغرماً بالنساء ، ينظر لموسوعة شعراء العصر الجاهلي ، إعداد عبد عون الروضان ، ط١ ، عام ٢٠٠١ م ، لدار أسامة للنشر والتوزيع بالأردن ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٥) البيتان في ديوان أوس بن حمير ، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم ، ط١ ، عام ١٩٨٠ م ، لدار بيروت للطباعة والنشر ، ص ١١٨ .

وفي غير الشعر الجاهلي قول أبي فراس الحمداني ^(١):

حَلُّوا بِأَكْرَمِ مَنْ حَلَّ النَّدَى وَاسْتَوْثَقَ الْكَرَمَ^(٢)

كما أن الحلول مرتبط في الشعر كثيرا بالحب والعشق وترحال الأحبة ، ومن ذلك قول عنترة بن شداد

العبسي ^(٣):

إِذَا جَاءُوكُنُوا عَدْلَنَا فِي هَوَاهُنَا
وَكَيْفَ يَكُونُ لِي عَرَمٌ وَجَسْمٌ

تَرَاهُ قَدْ بَقَيْنِي مِنْهُ الْأَقْلَى
بَرَاكَ عَسَاكَ تَعْلَمُ أَيْنَ حَلَّوْا^(٤)

(١) أبو فراس الحمداني الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي اليعي، أبو فراس. (٣٢١ - ٩٣٢ هـ / ٩٦٧ م)،

شاعر أمير، فارس، ابن عم سيف الدولة. له وقائع كثيرة ، قاتل بها بين يدي سيف الدولة، وكان سيف الدولة يحبه ويجله ويستصحبه في غزواته ويقدمه على سائر قومه، وقلده منصب وحران وأعمالها، فكان يسكن منبج ويتنقل في بلاد الشام ، جرح في معركة مع الروم، فأسروه وبقي في القسطنطينية أعوااماً، ثم فداء سيف الدولة بأموال عظيمة ، قال الذهبي: كانت له منبج، وتملك حمص وسار ليتمكن حلب فقتل في تدمر، وقال ابن خلkan: مات قتيلاً في صدر (على مقربة من حمص) ، قتل رجاليه سعد الدولة ، ينظر لترجمته في مقدمة ديوانه ، ديوان أبي فراس الحمداني ، شرح خليل الدويهي ، ط٢، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتاب العربي بيروت ، ص : ١٣-٧ .

(٢) البيت في ديوان أبي فراس الحمداني ، ص : ٢٩١.

(٣) عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي ، أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقية الأولى، من أهل نجد. أمه حبشية اسمها زبيبة، سرى إليه السود منها. وكان من أحسن العرب شيمه ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعدوية ، كان مغرياً بابنته عمه عبلة فقل أن تخلو له قصيدة من ذكرها. اجتمع في شبابه بامرئ القيس الشاعر، وشهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلاً ، ينظر لموسوعة شعراء العصر الجاهلي ، إعداد عبد عون الروضان ، ص : ٢٤٧-٢٤٨.

(٤) الأبيات موجودة في شرح ديوان عنترة ، للخطيب التبريزي ، قدم له ووضع هامشه وفهارسه ، مجید طراد ، ط١ ، عام ١٩٩٢ م ، لدار الكتاب العربي بيروت ، ص ١١٥.

ومنه قول علقمة الفحل^(١):

وَمَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجْنِبِ

ذَهَبْتَ مِنَ الْهِجْرَانِ فِي عَيْرٍ مَدْهَبِ

لَيَالِيٍ حَلُوا بِالسَّتَّارِ فَعَرَبِ^(٢)

لَيَالِيٍ لَا تَبَلَّى نَصِيبُهُ يَبْنَةٌ

ومنه قول وضاح اليمن^(٣):

وَحِيَا أَصْبَحُوا قُطْعُوا شُعُوبَا

تَذَكَّرِتِ الْمَنَازِلَ مِنْ شَعَوْبِ

وَيَعْظُمْ إِنْ دَعُوا أَلَا يُحْيِيَا^(٤)

سَبُوا قَلْبِيْ فَحَلَّ بِحَيْثَ حَلُوا

ومن ذلك أيضا ارتباط الحلول بالوداع كقول المتنبي^(٥):

بِمُبْلِكَ أَنْ يَحْلِ بِهِ سِوَاكًا^(٦)

أَرْوَحُ وَقْدَ حَتَّمَتَ عَلَى فُؤَادِي

(١) علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس، من بني تميم، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصرًا لأمرئ القيس وله معه مساجلات ، وأسر الحارث ابن أبي شمر الغساني أخًا له اسمه شأس، فشفع به علقمة ومدح الحارث بأبيات فأطلقه ، شرح ديوانه الأعلم الشنتمري، قال في خزانة الأدب: كان له ولد اسمه عليّ يعد من المخضرمين أدرك النبي ﷺ، ولم يره ، ينظر لموسوعة شعراء العصر الجاهلي ، إعداد عبد عون الروضان ، ص : ٢٠٧-٢٠٩.

(٢) عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال من آل خوذان الحميري ، شاعر رقيق الغزل عجيب النسيب كان جميلاً الطلة يتقن في المواسم من شدة حسنه، له أخبار مع عشيقة له اسمها روضة من أهل اليمن ، قدم مكة حاجاً في خلافة الوليد بن عبد الملك فرأى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، زوجة الوليد فغزل بها فقتله الوليد في العام الخامس والستين من الهجرة النبوية المشترفة على أصح الأقوال ، ينظر في ترجمته لمقدمة ديوانه ، البيت في شرح ديوان علقمة الفحل ، بقلم السيد أحمد صقر ، تقديم ركي مبارك، ط١، عام ١٩٣٥م، للمطبعة محمودية بالقاهرة ، ص: ١٩.

(٣) ديوان وضاح اليمن ، وبذيله كتاب مأساة الشاعر وضاح، تأليف محمد الأثيري ، وأحمد الزيات ، جمعه وقدم له وشرحه : محمد خير البقاعي ، ط١، عام ١٩٩٦م ، لدار صادر للطباعة والنشر بيروت ، ص: ٥-٢٦.

(٤) البيتان في ديوان وضاح اليمن السابق ، ص: ٣١.

(٥) المتنبي الشاعر المعروف : أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب ، (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ) على اختلاف في نسبة ، لا يعرف في الأدب العربي مثله وهو في غنى عن التعريف والتترجمة له .

(٦) ديوان المتنبي ، ط بدون ، عام ١٩٨٣م ، لدار بيروت للطباعة والنشر ، ص: ٥٦٦ .

و بذلك لا يمكن عدم ارتباط الحلول بالعقاب والهلاك في الشعر مطرباً كاطراده في القرآن الكريم ، وفي استدلال الأستاذ شاكر على ذلك من القرآن الكريم دليل على حسن استقرائه للظواهر القرآنية ، فالحلول في القرآن الكريم مرتبطة غالباً بالعقاب والعقاب ، كما سبق ذكره .

ثانيها : كما وصل شاكر إلى الحذف الوارد في البيت عن طريق قراءته الخاصة واستنباطه بالمفهوم ، وتأويل المسكت عنه المذوف الخيء وراء (حُلُوا) ، فقد توصل إلى أن الحذف في قوله (حُلُوا) هو الذي أتاح للشاعر أن يستأنف ما يشبه الكلام الجديد في البيت الذي يليه وهو قوله :

كُلُّ ماضٍ قَدْ تَرَدَّى بِمَا يُسَلِّلُ

واعتبر الكلام الجديد في هذه البيت بمنزلة الفاعل من (حل) ، ليكون المعنى :

" حتى إذا انجاب حُلُوا فحل بمجاز كل ماضٍ قد تردى بماضٍ "^(١) ، وافتراض الحالة الإعرابية مسوغ نظري جيد لربط البيتين بعضهما البعض ، ولكن إجراءه على هذا التحوّل فيه وجه من التحمل ليس بعصي على عين المتأمل ، إذ إن معنى البيت فيه من الوصف المغرق ما لا تخطئه العين ، فالسيوف الماضية تتردى في بعضها البعض في هذه المعركة وكأنها سنا البرق حين يُسَلِّل ، فما هو الا توصيف لحال المعركة بعد الحلول ، ولو كان الربط بين الـبيتين بافتراض الوصفية لكان أشد قبولاً من افتراض الفاعلية ، ولعل ما يدفع الأستاذ خلق مثل هذه العلاقة هو رأيه المتطرف والمتشدد جداً في وحدة القصيدة الجاهلية ، بعد أن رأى أن القول بعدم وحدة القصيدة الجاهلية واحتلال بنائها مقالة خبيثة ، تهدف إلى " اتهام الشعر الجاهلي كله بالتفكك والاختلال فيبنون عليها تعيمياً في الحكم يتبع لأحد هم أن يشفى ما في النفس من حب القدح والتراخي في طلب المدمة ، أو أن يتقلد شعار التجديد أو الإغراب طلباً للذكر وحباً للصيت...."^(٢) ، واعتبر محمود أن الاختلال في وحدة القصيدة ينتهي ويتلاشى تماماً في ذهن القارئ المنصف؛ إذا جمع لنفس القصيدة روایات أخرى في المخطوط والمطبوع من الكتب والدواوين تصحيح بعضها بعضاً ، وَتَسِمُّ القصيدة بصحّة البناء ^(٣) ، وهذا الحكم الصارم هو ما يتسبب في إفراز بعض محاولات الربط بين الأبيات وافتراض علاقتها بما تكون بعيدة جداً بينها ،

(١) نمط صعب ونمط محيف لمحمود شاكر : ص ٢٦٦.

(٢) السابق : ص ٤٤.

(٣) السابق ص ٤٤.

أما استخلاص المذوق بالتأويل فقد تناوله شاكر بشكل لافت ، استطاع من خلاله أن يقرأ أدق التفاصيل للانسية الأسلوبية التي فرضها هذه الحذف على النظم ، حيث ذكر أن هذا الحذف استطاع أن يحدث سرعة حثيثة متقدمة فيها مجموعة من التفاصيل ، فقد استطاع أن يرسم الحذف " صورة لغارة مفاجئة في غيش الظلام إذ انقضوا على هذيل وهم صرعى رقاد فأجلوهم فأثخنوا فيهم واستباحوهم قبل أن يفيقوا ، فأدركوا من التأثير ما شاءوا " ^(١) ، وحينما يتم استحضار ذلك كله وربطه بما يقتضيه مقام التأثير والعقاب من التصريح والتلميح يعلم حينها بقراءة الأستاذ الفاحصة وقدرته على لم شعث المعاني ، وإحضار كل ما استطاعت ألفاظ النص أن تجعله مستتراً خبيئاً .

ثانياً : المصطلح النبدي :

اعتبرت محمود شاكر بعض المصطلحات النقدية في استنباطاته وتأويلاتها بالمفهوم ، ومن تلك المصطلحات مصطلح التشعيث الذي وقف عنده كثيراً في كتابه نمط صعب ونمط مخفيف ، وقد استردد محمود هذا المصطلح من علم العروض ، فالتشعيث عند العروضيين زحاف يقطع الوتد المجموع ولا يكون إلا في بحر المجتث وبحر الخفيف ^(٢)، وقد استرده معناه العروضي وضمنه إلى نقه على نحو من ذلك المعنى ، فقد ارتبط التشعيث عنده ارتباطاً وثيقاً بوحدة القصيدة الجاهلية ، حيث اعتبر محمود التشعيث بمعنى التفريق طريقاً ركبه شعراً العصر الجاهلي في بيامهم ، فما وجد من اختلال في وحدة القصيدة الجاهلية وصحة بنائها فهو مبني على أساس من قصد الشاعر إليه وتعتمده ؛ لأن الشعراً لم يقصدوا قط مقصداً لإبانة المغسولة عن المعاني ، بل ركزوا إلى أغراضهم أغمس ما في البيان الإنساني من المذاهب ، فربما شعّلوا ما كان حقه أن يكون مجتمعاً ، لأنهم لا يبلغون حق الشعر إلا بهذا التشعيث" ^(٣) ، وإذا كان الشاعر يعمد عمداً إلى التشعيث و يجعله من مرامي النظم وغاياته البيانية ، فمن الطبيعي عند شاكر بناء على ذلك أن يكون الناقد الذي يحاول إيجاد علة أخرى لعدم وحدة القصيدة الجاهلية وعدم انتظام بنائتها غير علة عمد الشاعر إلى التشعيث ، من الطبيعي

(١) نمط صعب ونمط مخفيف لمحود شاكر : ٢١٧.

(٢) البارع في علم العروض ، لأبي القاسم القطاع ، تحقيق محمد عبد الدايم ، ط٢ ، عام ١٤٠٥ هـ ، مكتبة الفيصلية بمكة المكرمة ، ص ٢١٦ .

(٣) نمط صعب ونمط مخفيف لمحود شاكر : ص ١٢٩ .

أن يكون مفسداً بعقله ما تعب الشاعر في تفريقه ، وما كد نفسه فيه من تشعيث ماحقه أن يكون مجتمعا ، فالتشعيث بهذا يكون قريبا من المحسن البديعي المعنوي ، ولكنه يحتاج في استخراجه إلى كد ذهني وإعادة نظر ومحاولة لخلق تأويل مناسب ، ويحتاج قبل ذا وذاك إلى الإيمان به والتسليم بأنه تشعيث لا اختلال في وحدة القصيدة ، وأنه جاء عن قصد وتعمد من الشاعر ولم يكن مجيهه عيباً بيانياً ولا جنائية من جنایات الرواية على الأدب العربي .

ولم يكن التشعيث عند محمود شاكر مرتبطاً فقط بجانب تفريق المعاني المفسرة لاختلال بناء القصيدة الجاهلية ، بل امتد مصطلح التشعيث ليطال تشعيث الكلام وتقطعه ، وتشعيث مخارج الألفاظ عند الإنشاد ، وتشعيث الجمل بتراكيب تفصل بين المتلازمين كما يفعله التشعيث من تفريق الوتد الجموع عند العروضيين ، وتشعيث أزمنة الغناء الذي عالج فيه وبشكل مباشر اختلال وحدة القصيدة الجاهلية .

وقد قام محمود شاكر بتطبيق مفاصل ما أراده من التشعيث على قصيدة ابن أخت تأبط شرآ ، ليزيد من يقينه بأنه مجيه في قصائد الشعراء الجاهليين زادها حسناً ومزيد عنایة من شعرائها ، ومن ذلك استنباطه التشعيث بالمفهوم من قول ابن أخت تأبط شرآ :

حَبَّرْ مَا ، نَابَنَا ، مُصْمِئُ ،
وكتابة البيت أعلاه بعلامات الترقيم (الفواصل) هذه مأخوذ من صنيع محمود شاكر به ومرتبط كل الارتباط بتشعيث الكلام وتقطيعه لديه ، فهو حينما رسم البيت بهذه الفواصل على هذا النحو إنما قصد إلى ما بين كلماته من سكتات يجب بينها الفصل ، فقد بين أن في البيت ثلاث سكتات لا بد وأن تسكت عليها كلها في حال إنشادك البيت حتى تترنم به وتفهم خبایا ، فالسكتة الأولى تكون بعد (خبرٌ ما) وتأويله أن السكت هنا يزيدك " لهذا الخبر المهوول استهواه ، حتى تكف من ذات نفسك و يجعل هذا الذي جرى على لسانك كأنه قائم بنفسه منقطع عما بعده " ^(١) ، وتأويل الأستاذ هنا في حقيقة الأمر تأويل لا يملك من يسكت هذا السكتة من باب الترنم بالإنشاد إلا أن يسلم بصحته ، وأن يعتبر الوصول إليه ووصفه والإبانة عنه من باب الطرافه والتفرد التذوقى اللطيف الذي يلتج في أعماق النص ويترقى مع الإحساس به والشعور بنشوته وسطوة نغمته ، أما السكتة الثانية فهي بعد قوله (نابنا) وتأويله : أن إتيانه ب (نابنا) " في هذا الموضع غريب ؛ لأنه لا

^(١) نط صعب ونمط مخفف لمحود شاكر : ص ١٤٤ .

يقال نابنا خبر ، وإنما يقال نابنا رُزء من أرباء الدهر أو نائبة من نوائبه ، ويقال جاءنا خبر أو أتنا ، والذي حسن استعمال هذا الفعل في غير حقه من الكلام هو انقطاعه اللازم عمّا سبقه ، وانقطاعه اللازم عمّا لحقه ، حتى صار بين هاتين السكتتين كأنه فعل حذف فاعله وأضمر ، وكأنه خرج مخرج الصفة للخبر قبله ^(١).

والحق أن الشاعر حينما أراد وصف هذا الخبر الفاجع وهو خبر مقتل خاله لم يرد وصفه على أنه نبأ كان وخبر قد علم ، ولكنه أراد التهويل والتعظيم وإظهار الفجيعة على المقتول ، وقد يكون من المناسب لإظهار ذلك كله أن يحمل الألفاظ المستخدمة لهذا الشأن لفظة تتيح له التعبير عن هول الخبر وفاجعته ، فاختار لذلك (نابنا) والتي تستعمل في أصل وضعها اللغوي على نحو من ذلك ، يقول الجوهري صاحب الصحاح :

" والنَّوَيْبَةُ بِالضَّمِّ: الاسم من قولك نَابَةُ أَمْرٍ وَاتِّابَهُ، أي أصابه. والنَّائِبَةُ، المُصَبِّيَةُ، وَاحِدَةُ نَوَائِبِ الْدَّهْرِ" ^(٢) ويقول ابن منظور : " النَّوَائِبُ، جَمْعُ نَائِبٍ، وَهِيَ مَا يَتَوَبُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، أي: يَنْزِلُ بِهِ مِنَ الْمَهَمَّاتِ وَالْحَوَادِثِ: {وَنَابَتُهُمْ} نَوَائِبُ الدَّهْرِ. وَفِي حَدِيثِ حَيْبَرَ: (قَسْمُهَا نِصْفَيْنِ: نِصْفًا لِنَوَائِيهِ وَحَاجَاتِهِ، وَنِصْفًا بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ) . وَفِي الصَّحَّاحِيْخِيْنِ: (وَتَعْنِيْنُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ)، والنَّائِبَةُ: النَّازِلَةُ ..." ^(٣).

فكلمة نابنا هي الخيار الأمثل للشاعر لأن يحشد إلى هذا الخبر معنى النازلة العظيمة والنائبة الجلل والفاجعة الكبيرة ، وربط شاكر للفعل ناب بأرباء الدهر ربطً مناسب لاستخدامه اللغوي واستقراء يحسب له مادة هذه اللفظة في معاجم اللغة ، أما السكتة الثالثة الأخيرة فهي بعد قوله مصمتل "فجاء بصفة طال الفصل بينها وبين موصوفها ، حتى توشك أن تكون صفة أفردت لمحذف مضمر ، وكأنه كاد يقول مرة أخرى : خبر" مصمتل ، فقد نسي أنه قال خبر ما ، ثم عاد فتنذكر فمحذف لفظ (خبر) واستمر وبقيت مصمتل كأنها قائمة وحدتها بعد السكتة الثانية وبعد انقطاع الكلام ...^(٤) ، ويلاحظ من هذا جهد في التأويل بالمفهوم ومحاولات حثيثة لإثبات تشعيث الكلام وتقطيعه واستخراج بوح دفين بين السكتات المفترضة بين كلماته ، ومنشأ ذلك كله طريقة الإنشاد والترنم بالنغم وترجمته ، وهي هي ذات الطريقة التي تأثر بها محمود شاكر من شيخه المرصفي ،

(١) نَطِ صَعْبٌ وَنَطِ مُخِيفٌ لِمُحَمَّدِ شَاكِرَ : ص ١٤٤-١٤٥.

(٢) الصَّاحِحُ تَاجُ الْغُلَامِ وَصَاحِحُ الْعَرَبِ لِلْجَوَهِرِيِّ الْفَارَابِيِّ : ج ١ ، ص ٢٢٩ .

(٣) لِسَانُ الْعَرَبِ لِابْنِ مَظْهُورٍ : ج ٤ ، ٣١٧ .

(٤) نَطِ صَعْبٌ وَنَطِ مُخِيفٌ لِمُحَمَّدِ شَاكِرَ : ص ١٤٥ .

حينما كان شيخه يردد ويعيد الأبيات ويشير حينها بكلتا يديه وتبرق عيناه ويهتز يمنة ويسرة ، " وترى شفتيه والكلمات تخرج من بينهما تراه كأنه يجد للكلمات في فمه من اللذة والنشوة يفوق كل تصور ..^(١)" ، وتسرب هذا الأثر في قراءة محمود شاكر وافتراضه لهذه السكتات ، دليل لا تخطئه العين على أن حديثه عن هذه السكتات ووقفه عندها على هذا النحو إنما هو بأثر من طريقة قراءة شيخه المرصفي وترغه وتفاعله مع نغم الشعر .

ولم يرد محمود شاكر أن يتجاوز هذا الموضع الذي جهد في بيانه تأويلاً إلا بعد أن يعود استخدام نمط الاستدلال بالعكس ؛ ليقرر تأويله في ذهن المتلقى وكأن السكتات والتشعيث المشار إليهما في قراءته للبيت ذات إيحاءات ودلائل تستظهر بعكسها ، فالشاعر " لو ساق عبارته هكذا : (نابنا خبر مصطل) لكان كلاماً مغسولاً لا خير فيه "^(٢) ؛ وبذلك يتضح جلياً أن التشعيث الذي يقصد إليه محمود شاكر مرتبط ارتباطاً يكاد يكون وثيقاً ببحث التقديم والتأخير عند البلاغيين ، ولا غرابة أن يكون التشعيث عند محمود شاكر من الآثار التي سرها إلى نفسه وذوقه الإمام عبد القاهر الجرجاني ، وذلك بعد أن قام شاكر بقراءة أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وعلق عليهما وأظهرهما في تحقيق يعتمد عليه طلاب العلم كثيراً حتى زماننا هذا .

ثالثاً : المصطلح البحثي :

استدعي محمود شاكر بعضاً من المصطلحات العلمية والبحثية للاستنباط بالمفهوم وتأويله ، ومن تلك المصطلحات مصطلح المنهج ، وقد شكل المنهج لدى محمود شاكر حجر زاوية في حياته الثقافية والأدبية ، ومن خلاله قامت معاركه النقدية مع بعض رموز الأدب وقاماته في عصره .

وسوف يتم تناول الدرية هنا كمصطلح علمي استخدمه شاكر كان له أثر كبير في الاستنباط بالمفهوم عنده ، كما كان له أثر كبير وبالغ في نقد خصومه الذين أدار معهم معاركه النقدية وخصوماته الأدبية .

فقد نظر محمود شاكر نظرة آنية للمنهج الذي وصفه لويس عوض بأنه منهج سليم لقراءة أبي العلاء المعري قراءة نقدية فاحصة ، وقد لاحظ محمود أن لويس عوض لم يطبق مفاصيل المنهجية على هذه القراءة ، فمن ضوابط مصطلح (المنهج) كمصطلح نceği عند محمود شاكر أن يباشر الباحث دراسة غايتها البحثية ليصل إلى

(١) جمهورة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ص ١١٧٩ .

(٢) نمط صعب ونمط مخيف لمحمود شاكر : ص ١٤٥ .

نتائجها المبتغاة ، أما إذا ابتعد الباحث عن صلب بحثه وغايته واستدعي ما ليس من غائيته البحثية فقد ابتعد كثيراً عن المنهج كمصطلح علمي نceği له ضوابطه وإجراءاته ، وقد رأى أن لويس عوض قد وقع في ذلك حينما لم يذكر أبي العلاء المعري ورسالة الغفران إلا في مقالته السادسة من سلسلة مقالات نشرتها صحيفة الأهرام المصرية ، التي جمعها لويس عوض فيما بعد في كتابه المشهور على هامش الغفران ، حيث توصل لويس لهذا المنهج إلى نفي الأصالة العربية الخالصة عن أبي العلاء المعري ، وادعى أنه قد تأثر بالأدب اليوناني وحشد لهذا الادعاء العديد من الأدلة التي لم تقنع محمود شاكر وأثارت حفيظته ، يقول شاكر في ذلك :

" ومadam الدكتور لويس عوض قد تخبر لنا أسلم منهجه في دراسة رسالة الغفران فقد رأيته حسناً أن أبدأ بالنظر في منهجه ... ؛ لأنني وجدت الدكتور لويس عوض قد أخفى عنا مادة الدراسة وهو شيخ المعرفة نفسه على امتداد خمس مقالات طوال ، فلم يذكرها إلا في ختام الخامسة منها ، وشيخ المعرفة هو مادة الدراسة ؛ لأنه صاحب رسالة الغفران ولأنها أثر من آثاره^(١) ."

ومحمود شاكر حينما عاب منهجه لويس عوض في ذلك فهو يقصد الخمس مقالات الأولى من سلسلة مقالاته التي لا يرى لها اتصالاً بمادة البحث الرئيسة (رسالة الغفران) ، واستثنى من ذلك الجزء الأخير من المقالة الخامسة ، والمقالات المقصودة على الترتيب هي :

١ - نعيم هوميروس.^(٢)

٢ - جحيم هوميروس.^(٣)

٣ - الشعراة في الآخرة.^(٤)

٤ - شيء من التاريخ.^(٥)

٥ - كلمة عن ابن القارح.^(٦)

(١) أباطيل وأسمار ، محمود شاكر ، ص ٢١-٢٢.

(٢) ينظر لكتاب الملال : على هامش الغفران ، للويس عوض العدد ١٨١ ، إبريل ١٩٦٦ م ، ص ١٣ .

(٣) السابق ص: ٣١.

(٤) السابق ص : ٤٧ .

(٥) السابق ص : ٦٣ .

(٦) السابق ص : ٨٣ .

وعند قراءة هذه المقالات يتضح أن الأولى والثانية نعيم وجحيم هوميروس^(١) مقالتان بنيتا لإثبات أن رحلات الشعراء للعالم الآخر كانت قبل هوميروس ولم تقطع بعده ، فلا "سبيل إلى تبع تسلسل أفكار الشعراء عن العالم الآخر سواء بالتأثير الأدبي الخاص أو من خلال التراث الروحي الشائع المتوارث إلا بالرجوع إلا أوديسا هوميروس"^(٢) وما شابهها من الملحم الشعري المشهورة ، وقد علل لويس عوض ابتداءه بنعيم وجحيم هوميروس لسلسة مقالاته بأن ملحمة الأوديسا هي أقدم نص أدبي نعرفه جاء فيه وصف للنعم والجحيم ، وهي أسبق ما نعرف من نصوص أدبية تتناول العالم الآخر شأنها في ذلك شأن رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، ومن أجل ذلك لا غير تناولها لويس عوض في مقدمة مقالاته وعرض محتواها المشابه لرسالة الغفران والمشترك معها في وصف العالم الآخر ، ولا أراه فعل إلا ما يتطلبه المنهج العلمي .

ووجود هاتين المقالتين يجعلها كالمهد التاريخي في مقدمة مقالاته ، ويعطيها الحق أن تكون وثيقة استقراء تاريخية للنصوص الأدبية التي تحدثت عن العالم الآخر مثل مادة البحث (رسالة الغفران) ، ووجودها قبل رسالة الغفران منطقى جداً من ناحية احترام التسلسل الزمني بين الأعمال الأدبية ، أما المقالة الثالثة والتي عنونها لويس عوض بـ (الشعراء في الآخرة) ، فهي لا تختلف كثيراً عن سابقتها الأولى والثانية ، فقد تناول فيها لويس عوض

(١) هوميروس تعني باللغة الإغريقية الرهينة أو الأعمى ، وهو أكبر شاعر عرفته الحضارة الإغريقية ، وصاحب «الإلياذة» و«الأوديسة». كانت حياته مثار جدل كبير بين مؤرّخي الحقبة الكلاسيكية، حيث قال هيرودون: إن هوميروس سبقه بأربعين عاماً أي حوالي العام ٨٥٠ ق.م، وترجح مصادر قديمة أخرى أنه عاش في فترة قريبة من حرب طروادة التي وقعت بين عامي (١١٩٤-١١٨٤ ق.م) وبينما يُعدُّ القدماء شخصية تاريخية، يُشكِّل الباحثون والعلماء المعاصرون في وجوده التاريخي أصلاً، حيث لا توجد ترجمات موثوقة من الحقبة الكلاسيكية تتحدث عن سيرته، وقد اصطلاح المؤرّخون فيما بينهم على تسمية هذا الجدل الكبير حول هوميروس (وجوده، وحياته، وأشعاره ... إلخ) بالمسألة الهوميرية ، عد النقاد هوميروس ينبع الشعر الإغريقي وقمه، حيث كان شاعراً فذّا، برع في نظم «الإلياذة» و«الأوديسة»، وكانت أشعاره وملامحه تُشكِّل النموذج المثالي الذي يحتذيه الشعراء في أعمالهم، ولا يقتصر تأثير هوميروس على شعراء الحقبة الكلاسيكية فقط، ولكن يمتد أيضاً إلى شعراء أوروبيين وعالميين يتمون لأحباب زمنية لاحقة، كما يلاحظ أن شعر هوميروس فطري، ويمكن تمييز أسلوبه بسهولة بسبب سهولة حركته ووضوحه التام، والدافع العاطفي المميز الكامن في نصوصه الشعرية، كما تهم أعماله بالتركيز على التأثير الدرامي والعواطف البشرية ، باختصار من كتاب هوميروس الإلياذة ، ترجمة وتقديم سليمان البستاني ، ط١ ، لعام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بمصر ، ص ١١: وما بعدها .

(٢) ينظر على هامش الغفران للويس عوض : ص ١٥ .

مسرحية الضفادع (أرسطوفانيس)^(١) على أنها من أقدم النصوص الأدبية التي تناولت العالم الآخر جحيمًا ونعيماً من ألفها إلى يائها ، والفرق بينها وبين سابقتها أن النعيم والجحيم عند هوميروس إنما جاء في الإليةادة كسياق من بين العديد من السياقات التي تضمنتها الإليةادة الأوديسية ، أما مسرحية الضفادع فهي عمل أدبي خصص كله للحديث عن الجحيم والنعيم مشبهة في ذلك رسالة الغفران ، وقد تحدث عنها لويس عوض واختصر محتواها على اعتبار أنها عرض تاريخي للنعيم والجحيم في الأعمال الأدبية قبل رسالة الغفران ، وهو كما يلاحظ عمل مشروع ومنهج صالح بذلك فيه لويس عوض غاية جهده لعرض مادته وبسطها وجعلها سهلة جداً للموازنة بينها وبين رسالة الغفران ، أما المقالة الرابعة والتي عنونها لويس عوض بـ (شيء من التاريخ) فقد قال في مقدمتها ما نصه : "ولعل أسلم منهج في الانتقال إلى المعري والحديث عن رسالة الغفران هو أن نبدأ بعرض الخلفية التاريخية لهذا العمل العظيم ؛ فنوضح طبيعة العصر الذي كان يعيش فيه المعري ، فتتضاح بذلك أهم مشاكله وأهم معتقداته ومحاور الصراع المادي والفكري فيه ، عسى أن يلقي كل ذلك ضوءاً على مرامي المعري وغایاته من رسالة الغفران "^(٢) ، ثم عرض بعد ذلك للمحيط التاريخي الذي عاش فيه أبو العلاء المعري ونشأت في داخله رسالة الغفران ، ودراسة الجوانب الخارجية المؤثرة على النصوص الأدبية حق مشروع ومكتسب لكل ناقد ، مادامت تخدم النص وتكشف دلالاته ، وقد فعله محمود شاكر نفسه حينما قرأ المتنبي وربط حياته وشعره بالجو السياسي الذي أحاط به ، أما المقالة الخامسة التي قال عنها محمود أنها لا تتعلق بصلب المادة

(١) أرسطوفان بالإنجليزية أو أرسطوفانيس باليونانية ، شاعر كوميدي أغريقي ومؤلف مسرحي ويعتبر من رواد المسرح الساخر في اليونان القديمة ، كان ينتمي إلى أسرة مثقفة غنية من طبقة ملاك الأرضي في أثينا، وكان في عهفوان الشباب حين دارت بين أثينا إسبرطة حرباً أضحت فيما بعد موضوعاً مشهوراً لمسرحياته وأخذ يندد بهذا التطاحن الذي يقتل فيه اليوناني أخاه اليوناني ، ويدعو في كل مسرحية يكتبها إلى السلم ، ولم يبق من أعماله سوى إحدى عشرة مسرحية ، يسخر فيها من كل أنواع البشر بما فيهم الشخصيات المعروفة أمثال سقراط الذي كان يعده صديقاً ، كانت مسرحياته تغص بالنكات والمباغات والنقد السياسي اللاذع على الرغم من إلباسها بمهارة فائقة ثوب العبارات الهزلية ، وله عدة أعمال مسرحية كوميدية منها (مرتادو الولائم) (النساء في الجمعية الوطنية) (بلوتس) ، ينظر لترجمته في مقدمة مسرحية الضفادع من الإصدار الثاني من المجلة الشهرية (من المسرح العالمي) الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت ، العدد ٣٥٨ ، مارس ، عام ٢٠١٢ م .

(٢) على هامش الغفران للويس عوض ، ص : ٦٤-٦٥ .

البحثية لقراءة لويس عوض لرسالة الغفران إلا آخرها ، فهي ذاتها المقالة التي عنونها لويس ب (كلمة عن ابن القارح) ، وهي مقالة دارت حول ابن القارح على اعتبار ربطها الوثيق برسالة الغفران ، فقد جاءت رسالة الغفران على أساس إجابات لتساؤلات رسالة ابن القارح ، ثم إن ارتباط رسالة الغفران برسالة ابن القارح ليس فقط لكونها " السبب القريب المباشر الذي دعا أبا العلاء إلى إملاء رسالة الغفران فحسب ، بل لأن رسالة أبي العلاء كذلك لا يمكن أن تفهم مالم تقرأ قبلها ومعها رسالة ابن القارح ، التي تعد بحق مفتاح رسالة الغفران ^(١) ، إذن فارتباط رسالة ابن القارح برسالة الغفران ارتباط وثيق ، واستدعاء رسالة ابن القارح حين تقرأ رسالة الغفران استدعاء تتطلب القراءة النقدية الفاحصة ، على أن لويس عوض لا ينكر هذه العلاقة ويقر بها إقرارا جازما ^(٢) ، ولكنه يرى أن من السخف القول بأن رسالة الغفران جاءت ردًا على رسالة ابن القارح لذات رسالة ابن القارح أو لذات ابن القارح نفسه ، وإنما كان أبو العلاء المعري مطالبًا بالرد على رسالة ابن القارح من " مثقفي عصره ومن ساسته في آن واحد .." ^(٣) .

وغاية ما يقال أن شاكر في استنباطه ونقده بمصطلح المنهج لم يكن موفقاً تماماً حينما تناول منهج لويس عوض ، وحينما ادعى تحديداً على لويس بأنه مقالاته الخمس الأول ليس لها علاقة بصلب مادة البحث (رسالة الغفران) ، ولعل عين السخط التي رأى بها محمود نتائج قراءة لويس عوض للمعري وتجريده بعضاً من عريبيته الخالصة ، هي ما يقف وراء ادعاء شاكر لذلك وزعمه ، والحق أن بين مقالات لويس عوض التسع التي جمعها في كتابه على هامش الغفران من الترابط والتسلسل وال الحاجة المنهجية ما لا يستطيع إلى نكرانه وجحده . وقد اجتمع مصطلحات المنهج ومصطلح الموازنة وكذلك مصطلح الخصائص الفنية كمصطلحات بخثية وعلمية في نقد محمود شاكر واستنباطاته على كتاب الأستاذ أنيس الخوري المقدسي ^(٤) (تطور الأساليب التشرية في

(١) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، ومعها نص محقق من رسالة ابن القارح ، تحقيق وشرح . عائشة عبد الرحمن ، ط ، ٩٦ ، لعام ١٩٧٧ م ، للدار المعرف المصرية ، ص ١١ .

(٢) على هامش رسالة الغفران للويس عوض ، ص : ٨٥ .

(٣) السابق ص : ٨٦ .

(٤) أنيس الخوري المقدسي: (١٣٠٣ - ١٣٩٧ هـ = ١٨٨٥ - ١٩٧٧ م) كاتب وشاعر وباحث لبناني ، مارس التدريس في جامعة بيروت الأمريكية ، حقق ديوان ابن الساعاتي. من مؤلفاته (تطور الأساليب التشرية في الأدب العربي) و (أمراء الشعر في العصر العباسي) (والاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث) ينظر الأعلام للزركلي : ج ٢٩ ، ص : ٢٩ .

الأدب العربي) ، وهذا الكتاب مكون من جزأين كلامها يتناول الخصائص الفنية للنشر العربي من العصر الإسلامي إلى العصر الحديث ، وذلك عن طريق تحليل بعض النصوص النثرية لأدباء العصور الأدبية واستخراج خصائصها الفنية من باطنها ، وقد تناول محمود هذا الكتاب ونظر إليه النظرة الأولى عن طريق تطبيق مؤلفه لمنهجه الذي رسمه وارتباط هذا المنهج بما درج عليه الناس ، حيث جعل هذه النظرة أول ما يقوم به عند قراءته للمؤلفات والكتب التي يريد قراءتها والاطلاع عليها ^(١) ، فلم يقع له عند قراءته لهذا الكتاب إلا أن "أخذ ... المقدسي بآرائه في مفردات علمه غير متعرض لمنهجه أو أغراضه في كتابه هذا" ^(٢) ، ومن ذلك السجع الذي تناوله المقدسي ، فقد رأى محمود أنه أكفي بذكر الشبه التي تورط الناس فيها كتحريم السجع ، وعلة تحريم السجع ، وقد استبط شاكر استنباطاً افتراضياً في المنهج الصحيح الذي كان ينبغي أن يكون عليه عمل المقدسي ، فالموزانة النقدية هي السبيل الأمثل والطريقة الأنفع مثل هذه الدراسة ، حيث كان من المفترض على المقدسي أن ينظر في خصائص سجع الكهان نفسه ليستخرج منه الفرق بينه وبين السجع عند البلاغة والأدباء ، ثم بينه وبين القرآن الكريم "إِنَّ هَذَا هُوَ مَوْضِعُ الْفَصْلِ فِي الْكَلَامِ الَّذِي دَارَ حَوْلَ السَّجْعِ ، وَهُوَ مَوْضِعُ التَّحْقِيقِ فِي الْعِلْمِ الْمَرْوِيِّ الَّذِي وَقَعَ إِلَيْنَا وَلَمْ نَحْقِقْ فِيهِ إِلَّا الْقَلِيلِ" ^(٣) ، وهذا تأثير نظري لما يجب أن يكون عليه المنهج النقدي في تناول السجع ، ومن المتوقع بعد هذا التأثير أن يطالعنا شاكر بأنوذج من المنهج الذي اقتربه وافتراض صحته ، ولكنه لم يقدم شيئاً من ذلك ، بل أكفي بقوله :

"وأكفي هنا بأن أقول أن سجع الكهان اسم لما وقع في ألفاظ الكهان على صورة صامتة وهو غير السجع الذي عرفه علماء البلاغة ووضعوا له الحدود والرسوم ، وسنفرد لهذا البحث كلمة خاصة في المقتطف إن شاء الله . " ^(٤) ، وقد بحثت عن هذه المقالة ولكني لم أجدها مطلقاً فيما وقع بين يدي من أعداد مجلة المقتطف ، ولا أرجو أن يكون الأستاذ محمود لم يفرد السجع ببحث خاص كما وعد ، وغاية الأمر أن شاكر استنبط أن سجع الكهان اسم لما وقع في ألفاظ الكهان على صورة صامتة ، ومن المتوقع أن شاكر لم يطلق هذا الاستنباط

(١) جمارة مقالات محمود شاكر ، ج ٢ ، ص ٧٧٩.

(٢) السابق ، ج ٢ ، ص ٧٧٩.

(٣) السابق ص : ٨٨٠.

(٤) السابق ص : ٨٨٠.

على عمومه إلا بعد استعراضه لعدد من النماذج وإجرائه بعضًا من الموازنات بين سجع الكهان والسجع عند البلوغ والأدباء ، ولكن لم يعرض هنا إلا خلاصة رأيه في أن سجع الكهان صورة صامتة مكونة من الألفاظ الثابتة المسجوعة دون أن يضفي ذلك السجع صنعة جمالية كما هو الجمال الفني لسجع الأدباء والبلوغاء الغير متتكلف ، وبالفعل لم يذكر المقدسي شيئاً من خصائص السجع الفنية التي تميزه عن السجع عند غير الكهان أو السجع كصنعة بدعة تضفي للكلام حسنا وزينة ، على الرغم من أنه التزم بتبيان الخصائص الفنية لأجناس الشر العربي التزاماً عريضاً جداً وملزاً عليه جداً ، حيث جعل تحت عنوان الكتاب هذه العبارة "وهو يتناول الشر العربي وخصائصه الفنية منذ بزوغ الإسلام إلى النهضة الأخيرة ويخلله دراسات تحليلية لنجمة من أمراء الأقلام"^(١) وما يزيد من وطأة ذلك أنه افتتح كتابه بباب سماه (الأسلوب الشري وكيف نراه عند ظهور الدعوة الإسلامية) ، وافتتح هذا الباب ببحث (نظرة في السجع القديم)^(٢) وهو موطن نقد محمود شاكر ، وكان من المنتظر أن يتلهم المقدسي بما قطعه على نفسه في غلاف كتابه بأول مبحث في كتابه ولكن لم يفعل فتال نقد محمود شاكر والذي ييدو أنه نقد في موضعه ، أما استبطاط محمود شاكر المبني على نقه للمرتضى والمتضمن أن السجع صورة صامتة عند الكهان ، فهو كما تمت الإشارة إليه استبطاط لم يقدم محمود بين يديه أدلة تنهض به وتقويه ، ولكن في حقيقة الأمر استبطاط مختصر جداً ذكر فيه أهم ما يتميز به سجع الكهان عن سجع البلوغ والأدباء ، فسجع الكهان يخلو من الصبغة الجمالية لسجعه وموغل في التعمية والغموض ، وهي ميزة تكاد تكون في سجع الكهان ، فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعاً كما فعل الكاهن في قصة هند بنت عتبة، فإنه قال لما امتحن قبل السؤال عن قصتها "ثرة في كمرة" فقيل له: نريد أبين من هذا! فقال: "حبة بر في إحليل مهر"^(٣)، ولعل أهم ما يميز سجع الكهان عن سجع البلوغاء غير الصنعة والطبع ، تميز سجع البلوغ والأدباء بما وصل إلينا من سجع "الثر الجاهلي" بـ "الوضوح والصراحة بحيث لا يحتاج إلى

(١) ينظر لورقة الغلاف الداخلي من كتاب تطور الأساليب الشعرية في الأدب العربي ، لأنيس المقدسي ، ط٢ ، عام

١٩٦٠ م ، لدار العلم للملاتين بيروت ، (ص ٣).

(٢) السابق : ص ١٣ وما بعدها .

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طباعة ط بدون ، عام

بدون ، لدار نهضة مصر ، ج ١ ، ص ٢١٢ .

كَدَ الْذَّهَنُ أَوِ التَّعْمِقُ فِي الْخَيَالِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ غَمَوضٌ إِلَّا فِي سَجَعِ الْكَاهَانِ،(حِيثُ كَانَ) الْكَاهَانُ يَعْمَلُونَ إِلَيْهِمْ سَجَعًا، فَكَانُوا يَقْصِدُونَ إِلَيْهِ قَصْدًا^(١) .

وقد واصل محمود شاكر نقده لكتاب المقدسي على نحو من ذلك ، فلم يتعد كثيراً عن المنهج النبدي وعن المطالبة بإجراء الموازنة لاستخراج الخصائص الفنية للنشر كما وعد بها أنيس المقدسي ، ولم يخرج فيه أيضاً عن السجع ، بمعنى أن نقده لأنيس المقدسي نقد لأول كتابه فقط ، وكان يقصد من ذلك إثبات الفساد في أول الكتاب ليتم الاستغناء بذلك الفساد عن قراءة باقي الكتاب والاعتماد عليه ، ولم تخل نقدات محمود شاكر للمقدسي من بعض الألفاظ التي لا بد وأنها تسبب شرخاً في نفس سامعها ، وتبقى في القلب أثراً من التجربة قد لا يقبل معه نقد ولا يسمع بعده نصح ولا إرشاد ، ومن ذلك قوله في خاتمة هذه المقالة :

"هذا وسنعود إلى مواضع من الكتاب بعد قليل ، لنثبت أن هذا الكتاب لابد من تغييره البة ؛ لأنه لا يصلح أن يكون دراسة في التراث العربي ، وهنا أسوق للمؤلفين قول كونفوشيوس^(٢) من تعلم من غير تفكير فهو في حيرة ، ومن فكر من غير تعلم فهو في خطر"^(٣) .

(١) الكلام بتصرف وفيه حذف وزيادة قوله (حِيثُ كَانَ) وهو منقول من كتاب في تاريخ الأدب الجاهلي لعلي الجندي ،

ط١، عام ١٩٩١ م ، مكتبة دار التراث بمصر ، ص : ٢٧٣ .

(٢) كونفوشيوس أو كونك المعلم ، ليس هناك قول راجح في تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته ، وهو فيلسوف صيني نشأ في بلدة شانتونك الصينية ، وهي ولاية لو في شمال الصين ، مات أبيوه وهو طفل ، فعاش مع أمه في فقر شديد ، وبعدها أمضى ستة عشر عاماً من عمره يعظ الناس متقدلاً من مدينة إلى أخرى ، وقد التف حوله عدد كبير من الناس ، ولكن استطاع بعض الحاذدين عليه أن يطردوه من بلاده ، فترك لهم البلاد كلها ، وأمضى بعد ذلك ثلاثة عشر عاماً مبشراً متوجلاً. ثم عاد ليقيم في بلدته الخمس سنوات الأخيرة من عمره ، نجح في إقامة مذهب يتضمن كل التقاليد الصينية عن السلوك الاجتماعي والأخلاقي ، ففلسفته قائمة على القيم الأخلاقية الشخصية وعلى أن تكون هناك حكومة تخدم الشعب تطبيقاً مثل أخلاقي أعلى. ولقد كانت تعاليمه وفلسفته ذات تأثير عميق في الفكر والحياة الصينية والكورية واليابانية والتايوانية والفيتنامية. ويلقب ببني الصين ، ينظر لترجمته في كتاب حكمة الصين: دراسة تحليلية لعالم الفكر الصيني منذ أقدم العصور ، لفؤاد محمد شبل ، ط١ ، عام ١٩٦٨ م ، لدار المعارف المصرية ، ص ٤٧ .

(٣) جمارة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان : ج٢ ، ص ٧٨٣ .

الاستنباط بالمفهوم بتأويل التذوق والسياق الخارجي للنص :

وهذا النوع من الاستنباطات من أكثر ما استنبط به محمود شاكر بالمفهوم ، وهو يكاد يقع في جميع مؤلفاته وتحقيقاته والكثير من مقالاته ، ويعود السبب في ذلك إلى منهج محمود شاكر التذوقي الذي جعله طريقة علمية لتعامله مع كل كلام يعترضه ، فليس بالضور أن يكون التذوق عنده مختصاً بالإبداع الأدبي.

وهذا النوع من الاستنباط في حقيقة الأمر هو من أكثر الدوافع التي قادت محمود شاكر للجرأة على متون أهل العلم، فتطبيقه لهذا المنهج يدفعه دفعاً لتغيير بعض كلماتها أو تعديلها أو إضافة أبيات شعرية على الأبيات المثبتة في المتن لا يستقيم الاستشهاد من وجها نظره إلا بتمامها ، مما تسبب في نقده من بعض رجالات الأدب وأساتذة التحقيق العلمي في عصره .

ومن ذلك استنباط أفضى به إلى جرأة على متن ابن سلام ، ليقتلع من بيت شعري كلمة وبثت بدلا عنها كلمة أخرى ، لأن الثانية مرتبطة بنسق تاريخي يتم به معنى البيت وتحقّق دلالته ، وبيان ذلك أن ابن سلام وهو في معرض حديثه عن ابن الزبوري^(١) قال :

(١) عبد الله بن الزبوري بن قيس أحد شعراء قريش المعودين ، كان يهجو المسلمين ويحرّض عليهم كفار قريش، وكان من أشد الناس على الرسول ﷺ بلسانه ونفسه ، فقبل هجرته ﷺ إلى يثرب كان يدخل الكعبة ليصلّي، فلما دخل ذات يوم ليصلّي كعادته قال أبو جهل: من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته ، فقام ابن الزبوري فأخذ فرثا ودما فلطخ به وجه النبي ﷺ، وانفلت النبي عليه السلام من صلاته وقد إلى عمّه أبي طالب، فسألّه عمّه: من فعل هذا بك؟ قال: عبد الله ابن الزبوري. فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشي معه حتى أتى القوم فلما رأوه قد أقبل وجلوا منه ، فقال أبو طالب: والله لئن قام رجل جلّته بسيفي، فقعدهوا حتى دنا منهم وأخذ فرثا ودما فلطخ به وجوههم ولحاظم وانصرف وهو يغاظ لهم ، وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة كان ابن الزبوري يهاجِي حسان بن ثابت وكعب بن مالك شاعري النبي ﷺ. وما فتح المسلمون مكة، فر إلى نجران فهجاه حسان ببيت واحد، فلما بلغه ذلك قدم على النبي ﷺ، فأسلم واعتذر إلى الرسول عليه السلام فقبل عذرها. وقد حسن إسلامه فقام بنصرة الدين والذب عنه كما شهد كل الغزوات والفتورات حتى وفاته في خلافة عمر بن الخطاب عام ١٥ هـ ، ينظر في ترجمته لكتاب معجم أعلام شعراء المدح النبوي محمد أحمد درنيقة تقديم: ياسين الأيوبي، ط١ ، عام ٢٠٠٣ م ، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر بيروت ، ص : ٢٠٤ .

"وقال في يوم أحد قصيدة يقول فيها:

كُلُّ بُؤْسٍ وَنَعِيمٌ رَأَيْ—
وَبَنَاتُ الدَّهْرِ يَلْعَبُنْ بِكُلِّ
وَسَوَاءُ رَمْسَ مُثْرٌ أَوْ مُقَلٌ
ضَحْرَ الْخَرْجَ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلِ
وَاسْتَحْرَ الْفَلْلُ فِي عَبْدِ الْأَشَلِ
وَعَدَنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدْ—^(١)
لَبَتْ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا
حِينَ أَلْقَثْ بِقَنَاهِ بَرْكَهَا
فَقَبِنَا النِّصْفَ مِنْ سَادَاهُمْ

وقد استنبط الأستاذ محمود شاكر هنا استنباطين بالمفهوم التذوقى للنص وبالربط بالسياق الخارجى له بعلاقة مكانية وتاريخية:

أولهما : تعليقه على البيت الرابع بقوله: " في جميع ما وقع بين يدي من الكتب (قباء) ، وقباء قرية على ميلين أو ثلاثة من المدينة على يسار القاصد إلى مكة ، فهي على جنوب المدينة ، وهذا أمر مشكل كل الإشكال ، فلم أر أحدا ذكر أن القتال يوم أحد نشب في قباء ، وجبل أحد في شمال المدينة بينها وبينه ميل أو نحوه ، فأكاد أرجح أن في رواية هذا الشعر خطأ قدیماً جداً ، وأن صواب الرواية ما أثبته في الشعر ولو كان القتال نشب في جنوب المدينة عند قباء ، ثم ارتفع إلى أحد في شمال المدينة ، لكان أهل السير قد يبنوه كل البيان ، بل الذي رواه يخالف هذا الفرض كل المخالفة ، فهذا ما أدى إليه اجتهادي ، ولا أزال أرجحه حتى أجده عند أحد حجة أفارق إليها ما أذهب إليه في تصحيح الشعر."^(٢)

وثانيهما : قوله في تعليقه على البيت الخامس :

(١) ينظر لطبقات فحول الشعراة لابن سلام الجمحى : ج ١ ص ٢٣٨ ، وهذه الأبيات مثبتة في ديوان شعر عبد الله ابن الرزيعى تحقيق الدكتور يحيى الحبورى، الطبعة الثانية عام ١٩٨١ م مؤسسة الرسالة بيروت ، ص ٤٢ .

(٢) حاشية طبقات فحول الشعراة ج ١ ص ٢٣٩/٢٣٨ باختصار كبير.

"(فقتلنا) وأثبتُ ما في (م) مضبوطة ، وهذا أيضاً بيت تكثُر روایته في سائر الكتب (فقتلنا النصف) أو (فقتلنا الضعف) وهو خطأ كله ، فإن المشركين لم يقتلوا يوم أحد نصف المقاتلة ، فإن من شهد القتال من المسلمين في يوم أحد سبعمئة قتل منهم أربعة وسبعون من الشهداء ، ولا قتلوا ضعف ما قتل المسلمين يوم بدر من المشركين فإن عدة قتلى بدر من المشركين سبعون وإنما أراد ابن الزعري أنهم قتلوا من المؤمنين في أحد مثل الذي قتله المسلمون منهم يوم بدر ، فانتصروا منهم أي أخذوا حقهم كاملاً حتى صاروا على النصف سواء فرواية ابن سلام في الطبقات هي أحق الروايات بالصواب، وأما الروايات الأخرى فهي خطأ قديم كالخطأ في رواية البيت السابق ..^(١).

أما الاستنباط الأول والخاص بـ (قباء) واستبدالها بـ (قناة) ففيما يتعلق برواية البيت فقد ورد عند الجاحظ بلفظة قباء^(٢)، وعلق الشيخ عبد السلام هارون بقوله : " قباء بضم القاف قرية على بعد ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة ، والبرك بالفتح : الإبل الكثيرة ، استحر : اشتد ، فيما عدا ل : (بناء) تحريف ، وفي السيرة حين حكت^(٣) وتبعه في ذلك صاحب سبط اللائى^(٤)، وأورده بقباء أيضاً ابن عصفور في ضرائر الشعر^(٥)، وأورده ابن منظور بقباء في موضعين من اللسان^(٦)، وتبعه الزبيدي وأورده هو الآخر في موضعين بلفظة قباء^(٧) وهي رواية ديوان ابن الزعري^(٨) ، ولم أجده من روى البيت بغير قباء في حدود بحثي واطلاعي وحسبما وقع بين يدي من مراجع ، وهذا يؤيد استقصاء الأستاذ محمود شاكر لرواية هذا البيت ، حيث ذكر أن رواية البيت بلفظة قباء في الكتب التي رجع إليها .

أما استبداله لكلمة قباء بقناة وتغييرها من متن ابن سلام ومن شعر ابن الزعري فكان مرده رواية استند عليها

(١) حاشية طبقات فحول الشعراء ج ١ ص : ٢٣٩ .

(٢) الحيوان للجاحظ : ج ٥ ، ص ٥٦٤ .

(٣) السابق ج ٥ ، ص ٥٦٤ ، الحاشية رقم : ٧ .

(٤) سبط اللائى ، اللائى في شرح أمالي القالى ، لأبي عبيد البكري ج ١ ، ص ٣٨٧ .

(٥) ضرائر الشعر لابن عصفور ، تحقيق السيد إبراهيم محمد ط ١ ، عام ١٩٨٠ م ، لدار الأندلس للطباعة والنشر ، ص ١٤٤ .

(٦) لسان العرب لابن منظور ، ج ١٠ ، ص ٣٩٨ ، وكذلك : ج ١١ ، ص ٣٧٣ .

(٧) تاج العروس لمرتضى الزبيدي ، ج ٢٧ ، ص ٦١ ، وكذلك : ج ٢٩ ، ص ٣٠٩ .

(٨) ديوان شعر عبد الله ابن الزعري ص ٤٢ .

من كتاب معجم ما استعجم للبكري حيث يقول شاكر : " ويقول البكري في معجم ما استعجم: (أحد جبل تلقاء المدينة دون قناة إليها) ^(١) ، وقناة هذه التي ذكرها البكري أحد أودية المدينة ، واد يأني من الطائف حتى يمر في أصل قبور الشهداء بأحد .. " ^(٢) ، وقد استنبط محمود من كلام البكري أن وادي قناة الذي يمتد من جبال الطائف إلى وادي أحد هو الصواب في رواية الشعر ، حيث إن قباء تقع إلى جنوب المدينة المنورة أما وادي قناة هذا فهو أقرب ما يكون إلى جبل أحد موضع غزوة أحد وهو مع قريه من جبل أحد فإنه على الطريق من الطائف إلى أحد ومن المنطقي أن يكون هو الموضع المقصود في الشعر ، ولكن دخله خطأ فأصبح قباء بدلاً من قناة على بعد ما بينهما ، فاستحل محمود أن يقتلع من البيت كلمة قباء ويستبدلها بقناة كاستنباط بالمفهوم مبني على التذوق الخاص ، وباستناده على سياق مكاني وتاريخي واستدلال عقلي ، وتجدر الإشارة إلى أن البكري الذي استنبط محمود من كلامه الخطأ الواقع في الشعر ، أورد البيت بلفظة قباء وهو في صدد حديثه عن موضع قباء ، وأورد البيت للاستشهاد به على جواز صرف قباء ^(٢) صرفاً نحوياً.

أما عند إعادة النظر إلى كتب المغازي والسير كسياق تاريخي خارجي للنص الذي بنى الأستاذ عليه حكمه النقدي بخطأ هذا الشعر ، فإن الأستاذ يذكر أنه لم يجد من أشار إلى أن قباء كانت موضعًا لغزوة أحد دون إشارة إلى أن أحداً لم يذكر أن وادي قناة هذا الذي استبدلته بكلمة قباء منصوص عليه في كتب المغازي والسير التي رصدت ووصفت غالب ما يتعلق بغزوة أحد .

والحق أن بعضاً من مراجع السيرة النبوية ورد فيها وادي قناة بضم القاف كموضع لغزوة أحد ، الأمر الذي يقوي استنباط الأستاذ محمود شاكر ، وأكاد أصل بالشك إلى اليقين أن الأستاذ لو اطلع على هذه المراجع لأثبت ما قالته عن وادي قناة كثبته لكتاب البكري ؛ لتقوية وجه استنباطه ودعمه وإخراجه من دائرة الأخذ من المفهوم إلى الأخذ بالنقل المنطوق ، والمنطوق مقدم على المفهوم كما هي القاعدة الأصولية ، ومن ذلك ما ورد في سيرة ابن إسحاق :

" فأقبلوا حتى نزلوا ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله

(١) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع ، لأبي عبيد البكري ، تحقيق مصطفى السقا ، ط١ ، عام ١٩٤٥ م ،

لعلم الكتب بيروت ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(٢) السابق : ج ٣ ، ص : ١٠٤٥ .

عليه وسلم وال المسلمين قد نزلوا حيث نزلوا ، قال رسول الله ﷺ لل المسلمين : إني قد رأيت نفراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، فتأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوه حيث قد نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها^(١) ، وقد ذكر الواقدي وبشكل صريح في مغازي وهو في معرض حديثه عن إصابة الرسول ﷺ في غزوة أحد وقلق صحابته عليه حين انصراف المسلمين بعد انتهاء المعركة من وادي قناة حيث كان جيش المسلمين ، يقول الواقدي في ذلك :

" فلما كان من النهار وبلغنا مصاب رسول الله ﷺ وتفرق الناس عنه، جئت مع غلمان من بني خدرا نعترض لرسول الله ﷺ وننظر إلى سلامته فرجع بذلك إلى أهلهنا، فلقينا الناس منصريين يبطن قناة ، فلم يكن لنا همة إلا النبي ﷺ نظر إليه.... "^(٢) ، ومن صريح ذلك أيضاً ما جاء في جوامع السيرة النبوية :

" فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد قدومه من بحران، جمادى الآخرة، وربما، وشعبان، ورمضان، فغزته كفار قريش في شوال سنة ثلاث، وقد استمدوا بخلفائهم والأحابيش من بني كنانة وغيرهم، وخرجوا بنسائهم لخلافها، فأتوا فنزلوا بموضع يقال له: عينين، وهو بقرب أحد على جبل يبطن السبخة من قناة، على شفير الوادي، مقابل المدينة.... "^(٣) ومن صريح ذلك ماجاء في بحجة المحافل وبغية الأمثال في تلخيص المعجزات والسير والشمائل في معرض الحديث عن غزوة أحد : " ونزل صلي الله عليه وسلم بالشعب من أحد على شفير وادي قناة وجعل ظهره إلى أحد ورتب أصحابه وبؤتهم مقاعد للقتال وكانوا مشاة فجعل عبد الله بن جبير على الرماة وهم خمسون رجلاً وأقعدهم على جبل عينين وقال لهم لا تبرحوا مكانكم إن علمنا أو علمنا "^(٤) ، وكثيرة المراجع التراثية المهمة بالمعاري والسير النبوية التي ذكرت وبشكل صريح أن وادي قناة

(١) سيرة ابن إسحاق ، محمد بن إسحاق المطلي ، تحقيق سهيل زكار ، ط١ ، عام ١٩٧٨ م ، دار الفكر بيروت ، ص ٣٢٤ .

(٢) المغازي لحمد بن عمر الواقدي ، تحقيق ، مارسدن جونس ، ط٣ ، عام ١٩٨٩ م ، دار الأعلمى بيروت ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

(٣) جوامع السيرة النبوية لابن حزم الأندلسي ، ضبط وتصحيح عبد الكريم الجندى ط١ ، عام ٢٠٠٢ م ، دار الكتب العلمية بيروت ، ص ٩٣ .

(٤) بحجة المحافل وبغية الأمثال في تلخيص المعجزات والسير والشمائل ليحيى بن أبي بكر الحرضي ، عني به : أنور بن أبي بكر الشيشي ، ط١ ، عام ٢٠٠٩ م ، دار المنهاج للنشر والتوزيع بجدة ، ص ١٦٥ .

بضم القاف كان موضعًا من موضع معركة أحد^(١)، أما علماء السيرة النبوية المحدثون فيكادون يتلقون على أن وادي قناة كان أحد الموضع التي دارت فيها معركة أحد ومن ذلك قول صاحب الرحيق المختوم : " وهناك عبئاً رسول الله ﷺ جيشه، وهياهم صفوفاً للقتال، فانتخب منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلاً، وأعطي قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنباري الأوسي البدرى، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناة - وعرف فيما بعد بجبل الرماة - جنوب شرق معسكر المسلمين، على بعد حوالي مائة وخمسين متراً من مقر الجيش الإسلامي...."^(٢).

ومن ذلك أيضًا قول صاحب السيرة النبوية والuhed المدّنى في معرض حديثه عن جيش المشركين في يوم أحد : " واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة فاستراح عند مدينة تسمى "الصمغة" وأطلق الإبل والخيل ترعى، وبعدها تابع الجيش مسيرته، فسلك وادي العقيق، ثم انحرف منه إلى ذات اليمين، حتى نزل قريباً من جبل "أحد" في مكان يقال له عينين، في بطن السبخة، ومن قناة على شفير الوادي، الذي يقع شمالي المدينة، فعسّر هناك يوم الجمعة....."^(٣)

والحق أن اتفاق كثير من علماء السيرة النبوية الطاهرة والمعازى على أن وادي قناة موضع من موضع معركة

(١) ينظر الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، لعبد الرحمن السهيلي ، تحقيق عمر السالمي ، ط١، عام ٢٠٠٠م ، لدار إحياء التراث العربي بيروت ، ج٥، ص ٣٠٠ ، وينظر كذلك لكتاب: الاكتفاء بما تضمنه من مغازى رسول الله - ﷺ - والثلاثة الحلفاء ، لسليمان الكلاعي ، تحقيق كمال الدين عز الدين علي ط٤ ، عام ٢٠٠١م ، لعالم الكتب بيروت ، ج ١ ، ص ٣٧١ ، وينظر كذلك لكتاب عيون الأثر في فنون المغازى والشمائل والسير ، لفتح الدين محمد اليعمري البعي ، تعليق إبراهيم رمضان ، ط ١ ، عام ١٩٩٣م ، لدار القلم بيروت ، ج ٢ ، ص ٧ ، وينظر كذلك لكتاب: سبل المدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعد ، لحمد بن يوسف الصالحي الشامي ، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض ط ١ ، عام ١٩٩٣م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ج ٤ ، ص ١٨٣ ، وينظر لتأريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، المؤلف: حسين بن محمد بن الحسن الدياري بكري ، ط بدون ، تاريخ بدون ، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت، ج ١ ، ص ٤٢٠ .

(٢) الرحيق المختوم بحث في السيرة النبوية لصفي الرحمن المباركفوري ، ص ٢٥٥ ، ط ١ ، عام ٢٠٠٧م ، لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر .

(٣) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدّنى ، لأحمد أحمد غلوش ، ص ٣٢٦ ، ط ١ ، عام ٢٠٠٤م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر بيروت.

أحد ، أو أنه موضع قريب جداً من جبل الرماة بأحد ، دليل يعوض استنباط محمود شاكر ويدعمه ويقوي من سلامه تذوقه الذي هداه إلى أن في أبيات ابن الزبوري خطأ قديم ، جعل من قباء موضعًا من موضع معركة أحد على ما يبينه وبين أحد من بعده ، فقباء جنوب المدينة المنورة ، ووادي قناة شمال المدينة المنورة ، ولعل ما جعل هذا الخطأ ينتشر ويستشرى بين أهل العلم التشابه الكبير في الرسم الإملائي بين قباء وقناة حينما ضبط هذا البيت كتابة ، ولكن هل وجود هذا الخطأ في الشعر مسوغ لأن تتجزأ على النصوص ونعدل ونبدل فيها ؟ لقد وصف الشيخ عبد السلام هارون رحمه الله الزيادة والمحذف والتتعديل والتبدل من الأمور الخطيرة جداً التي تتعرض لها النصوص ، فالنسخة العالية الموثوقة بها والتي تخضع لقوانين التحقيق العلمي وضوابطه " يجب أن تؤدي كما هي دون زيادة أو نقص أو تغيير أو تبدل " ^(١) .

واعتبر الإحداث في النسخة العالية من المخطوط فعل يخرج بالحق عن الأمانة العلمية ، واعتبر الحواشى حقاً مشروعاً ومكتسباً للمحقق لإثبات كل ما يريد دون المساس بما هو واضح وجلي من المخطوط ^(٢) ، ولعل إحساس شاكر بعدم التزامه بقواعد التحقيق العلمي ما جعله يسمى إخراجه لكتب التراث ونشرها بالقراءة والتعليق ، ولكن ذلك أفضى به إلى الجرأة على نصوص المؤلفات التي قام بتحقيقها كثيراً وتعرض فيها لنقد لاذع من المختصين ، فبدل وعدل وحذف وأضاف رغبة منه رحمه الله في تمام العمل وخدمة العلم وطلاب العلم ، والمتأنل لكتاب الطبقات خصوصاً يجد أن الأستاذ قد مارس ذلك كثيراً .

أما الاستنباط الثاني للأستاذ شاكر في قول ابن الزبوري السابق (قتلنا النصف) أو (فقتلنا الضعف) والذي اعتبره خطأ كله ، بحججة أن المشركين لم يقتلوا يوم أحد نصف المقاتلة من الجيش المسلمين ، حيث يعتمد على أن من شهد القتال من المسلمين في يوم أحد سبعينيئه قتل منهم أربعة وسبعون من الشهداء وهذا العدد لا يمثل النصف ولا أقل منه بقليل ، كما أنهم لم يقتلوا ضعف ما قتل المسلمين يوم بدر من المشركين ، وذلك أن عدة قتلى بدر من المشركين سبعون ، ورواية ابن سلام جاءت بقوله قبلنا النصف ، ورأى أنها أحق الروايات بالقبول ، واستبعد أن تكون رواية البيت بـ (قتلنا النصف) وعلل ذلك بأن ابن الزبوري أراد أنهم قتلوا من المؤمنين في أحد مثل الذي قتلهم المسلمون منهم يوم بدر ، فانتصروا منهم أي أخذوا حقهم كاملاً

(١) تحقيق النصوص ونشرها عبد السلام هارون ط٧، عام ١٩٩٨ م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ص ٧٧ .

(٢) السابق : ص ٧٩ وما بعدها .

حتى صاروا على النصف منهم سواء بسواء ، وبناء عليه فرواية ابن سلام الجمحى عند شاكر هي الرواية الصائبة وغيرها من الروايات فيها خطأ قديم في شعر ابن الزعيرى كالخطأ السابق في قوله (قباء) ، فإن أغلب روايات هذا البيت بقوله (قتلنا الضعف) وهي رواية الجاحظ في الحيوان ^(١)، ورواية ابن هشام في السيرة النبوية ^(٢)، ورواية أبي عبيد عبد الله البكري الأندلسي صاحب سبط اللالى في شرح أمالي القالى ^(٣)، ورواية صاحب الروض الأنف ^(٤)، ورواية أبي الفتح فتح الدين اليعمرى اليعمرى صاحب كتاب عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ^(٥)، وهي أيضاً رواية ابن كثير في سيرته النبوية ^(٦)، وروها بـ (قتلنا النصف) صاحب شرح نجح البلاغة عبد الحميد ابن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد ^(٧)، وروها أيضاً بالنصف صاحب الحماسة البصرية أبو الحسن البصري ^(٨).

(١) الحيوان للجاحظ ، ج ٥ ، ص ٥٦٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام لجمال الدين عبد الملك بن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلي ط ٢، عام ١٩٥٥ م ، لشركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباجي الحلبي وأولاده بمصر ، ج ٢، ص ١٣٧.

(٣) سبط اللالى في شرح أمالي القالى ، لأبي عبيد عبد الله البكري ، ج ١ ، ص ٣٨٧.

(٤) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام لأبي القاسم السهيلى ، ج ٦ ، ص ٨٢.

(٥) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، لمحمد بن أحمد اليعمرى اليعمرى ، ج ٢ ، ص ٢٤٧.

(٦) السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) ، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط ١، عام ١٩٧٦ م ، لدار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ج ٣ ، ص ١١١.

(٧) شرح نجح البلاغة عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ١ ، عام ٢٠٠٧ م ، لدار الكتاب العربي ودار الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع ، ج ١٥ ، ص ١٧٨.

(٨) الحماسة البصرية ، لصدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري ، تحقيق مختار الدين أحمد ، ج ١ ، ص ١٠١ ، ط بدون ، تاريخ بدون ، لعالم الكتب العربية بيروت ، ولكتاب الحماسة البصرية تحقيق آخر لعادل سليمان وهو تلميذ نجيب للأستاذ محمود شاكر ، وقد روى هذا البيت وخرجه على التحو الذي خرجه فيه أستاذه محمود شاكر ، ينظر للحماسة البصرية ، لصدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري ، تحقيق عادل سليمان ، ط ١ ، عام ١٩٩٩ م ، مكتبة الماخنجي بالقاهرة ، ج ١ ، ص ٣١٤.

و قبل مسألة استنباط الأستاذ محمود شاكر لا بد وأن نسأل سؤالاً مشروعاً ، هل يمكن أن نحاكم النص على أنه وثيقة تاريخية ترصد جميع الجوانب التاريخية بدقة متناهية ؟ وهل الشاعر بناء على ذلك مطالب بأن يضع الكلمة الفصل الحق في الحقائق التاريخية متجرداً من جميع الاعتبارات الشعرية ؟ وهل قصد شاعر قريش عبد الله بن الزبير في هذا الموضع الافتخار بقتلهم من المسلمين ضعف قتلامهم في بدر ؟

لقد ارتكز استنباط محمود شاكر في هذا البيت على مبدأ الصدق والكذب في الشعر ، وقام بقراءة هذا البيت وتقوعه احتكاماً إلى أدلة وظواهر تاريخية جاءت من خارج النص ، واعتمد في حكمه على مقاييس قامت على أساس تاريخي محض مرصود ومتفق عليه ، ومعنى ذلك أنه قام بمعاملة النص على أنه وثيقة تاريخية لابد وأن يكون فيها النص راصداً وبدقة متناهية للواقعية التي هو بصدق تناولها بدون تدخل لأدوات الشاعر الخيالية والبيانية والتي من أهمها على الإطلاق المبالغة والتخيل ، والمبالغة والتخيل تحديداً أدوات شعرية تقاد تكون القاسم المشترك بين سياقات المدح والهجاء والفخر ، والحق أن النص لا ينبغي بناء على ذلك أن يحاكم على أنه وثيقة تاريخية دقيقة ولا حتى اجتماعية تعكس الواقع الذي قيل فيه ، فلا فساد في الشعر ولا خطأ قديم ولا حديث حينما تنتصر قبيلة على قبيلة أخرى ، فينهض شاعر القبيلة المنتصرة ويمتدح نصر قومه ويبالغ فيه ويضمنه على وجه المبالغة والتخيل ما ليس فيه ، ولا فساد في الشعر أيضاً حين ينهض الشاعر من القبيلة الأخرى المهزومة ويعتذر للهزيمة ويجمع بخياله الشعري إلى توصيف هزيمة قومه بما يشبه الانتصار الذي هو في حقيقته هزيمة وانكسار ، كل ذلك يكون بأدوات الشعر نفسها وتقنياته الخيالية وحجته التأثيرية.

فلا ينبغي أن يُخططاً مثل شعر عبد الله بن الزبير لوجود مثل هذه المبالغة ، لاسيما وإن خلو سياق وصف المعركة والافتخار بالنصر من المبالغة والطريقة الشعرية التخيلية ؛ يكاد يكون قريباً من وصف ثري مقالى ليس فيه أي روح شعرية تخيلية وهذا مخالف لطبيعة الشعر المؤثرة في النفوس ، ومثل هذه الطريقة الشعرية التي يخالف فيها الشعر بعضاً من الحقائق ويستخدم فيها الشاعر تقنية المبالغة والتخيل قد تكون أحد المقاصد من قولهم أعدب الشعر أكذبه ، ولعل مبالغة ابن الزبير إن أجاز النص لنا تسميتها مبالغة وتخيلاً هي ما يدفع شعراً رسول الله ﷺ لتكتدي بها والتعريض بها في شعرهم المقابل لها ومن ذلك :

فَدَعْ عَنْكَ التَّذَكْرَ كُلَّ يَوْمٍ
وَحَبَّرْ بِالَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ
بِصَدِّقٍ، غَيْرِ إِخْبَارِ الْكَذُوبِ

بِمَا صَنَعَ الْمُلِيقُ عَدَّةَ بَدْرٍ
 عَدَّةَ كَانَ جَمْعُهُ حِرَاءُ
 فَوَاقَيْتَاهُمْ مِنْا بِجَمْعٍ
 كَأْسِدِ الْغَابِ: مُرْدَانٌ وَشَيْبٌ^(١)
 لَنَا فِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيرِ
 بَدَتْ أَرْكَانُهُ جِنْحُ الْعُرُوبِ

فسمى توصيفه لمعركة بدر في هذه القصيدة حقاً ، وسمى توصيف شعراء المشركين لها كذلك لاشتماله على شيء من مثل هذه المبالغات ، ولو تم تطبيق معيار محمود شاكر على الشعر كله لذهب جله ، إذ لو تم تطبيق معيار استنباطه هنا على شعر شعراء المسلمين لسقط أغلبه ، فقد كان من الطبيعي أن يعتذر أحد شعراء المسلمين للهزيمة التي لحقت بهم في معركة أحد وأن يوجد لها حبكة شعرية تخرجها من دائرة الفرمي إلى معنى شعري آخر يتصرف فيه الشاعر بطريقته الخاصة ، كما ننتظر ذلك من مثل حسان بن ثابت^(٢) وكعب ابن مالك الأنصاري^(٣) شاعري رسول الله ﷺ ، فمن المفترض أن نرى شعراً إسلامياً يهون من نصر المشركين

(١) الآيات لحسان بن ثابت ، ينظر : ديوان حسان بن ثابت ، شرح وتقديم عبد علي مهنا ، ط٢ ، عام ١٩٩٤ ، دار الكتب العلية بيروت ص: ٢٤ .

(٢) أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الخرجي الأنصاري، ولد في المدينة قبل مولد الرسول ﷺ بنحو ثمانين سنين ، فعاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة أخرى، وشب في بيت وجاهة وشرف ، وكان ينشد الشعر قبل الإسلام، وكان من يفدون على ملوك الغساسنة في الشام، وبعد إسلامه اعتبر شاعر النبي ﷺ ، وقد سجلت كتب الأدب والتاريخ الكثير من الأشعار التي ألقاها في هجاء الكفار ومعارضتهم، وكذلك في مدح المسلمين ورثاء شهدائهم وأمواتهم. وأصيب بالعمى قبل وفاته، ولم يشهد مع النبي ﷺ لعلة أصابته وبعد في طبقة المخضرمين من الشعراء لأنه أدرك الجاهلية والإسلام ، توفي في العام الخمسين من الهجرة على أصح الأقوال ، ينظر في ترجمة حسان بن ثابت إلى مقدمة ديوانه، ص ٧-١٥ .

(٣) كعب بن مالك الأنصاري الإسلامي، شاعر النبي ﷺ وصاحبـه ، وأحد الثلاثة الذين خلفوا، فتاب الله عليهم. شهد العقبة ، روى عنه بنوه: عبد الله، وعبد الله، وعبد الرحمن، ومحمد، ومعبد، وروى عنه بنو كعب ، وجابر، وابن عباس، وأبو أمامة ، وعمر بن الحكم، وعمر بن كثير بن أفلح ؛ وآخرون؛ وحفيده عبد الرحمن بن عبد الله ، كانت كنيته في الجاهلية : أبا بشير. وكان كعب من أهل الصفة. وذهب بصره في خلافة معاوية ، وهو من السبعين الذين شهدوا العقبة ، اختلف في تاريخ وفاته والراجح أنها في العام الخمسين من الهجرة النبوية المشرفة ، ينظر لترجمته في ديوانه ، ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، تحقيق : سامي مكي ، ط١ ، عام ١٩٦٦ م ، طبع في مطبعة المعارف ببغداد ، ص ١٥ - ١٢١ .

على المسلمين في أحد على لسان شعراء المسلمين ، كما وجد ابن الزبوري شعر يهول نصر بني قومه على المسلمين مما نحن بقصد الحديث عنه هنا ، ولكن كعب بن مالك الأنصاري تراءى له أن يقول في يوم أحد :

أحابيش منهم حاسر ومقنع فجئنا إلى موج من البحر وسطه

ثلاث مئين إن كثروا وأربع ثلاثة آلاف ونحن نصيبة

نشارعهم حوض المنيا ونشرع نغاورهم تجري المنيا بيننا

وليس لأمر حمه الله مدفوع فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى

كأنهم بالقاع خشب مصرع ضربناهم حتى تركنا سراحتهم

كان ذُكانا حر نار تلفع لدن غدوة حتى استفقنا عشية

جهام هراقت ماءه الريح مقع وراحوا سرعاً موجفين كأنهم

أسود على لحم بيشه ضلع^(١) ورحنا وأخانا بطاء كأننا

فأبيات كعب بن مالك هذه قيلت في يوم أحد ، ذلك اليوم الذي انكسر فيه المسلمون بعد أن ترك الرماة الجبل الذي شدد رسول الله ﷺ عليهم بعدم تركه مهما يكن من أمر ، ولم يتسبب نزولهم منه في هزيمة المسلمين فقط ، بل كاد يتسبب في مقتل الرسول ﷺ لولا دفع الله ، وإذا ما تم تطبيق معيار الصدق والكذب على هذه الأبيات ، فإنه سيتوهم بوجود خطأ في هذا الشعر كما ادعاه محمود شاكر في شعر ابن الزبوري ، فظاهر هذه الأبيات المستقطعة يوحي بأن جيش المسلمين قد نال من المشركين وأن المسلمين أثخنوا فيهم الضرب والفتوك حتى تركوهم كالخشب المصرعة ، ومن تبقى منهم هرب وولى كأنهم سحاب أهرقت الريح ماءه وانقلع من السماء ، أما المسلمون فقد تولوا من المعركة كأنهم أسود تشبعت من لحم فرائسها وأخذت منه أوفر الحظ والنصيب ، وادعاء مثل ذلك بتقنيات الشعر وادعاءاته ومباغاته لم ولن يغير من الحقائق التاريخية التي ألقنها في كتب السيرة والتي أثبتت هزيمة المسلمين في هذه الغزوة من جهة ، ولا يعني من جهة أخرى فساد شعر ابن مالك وانطوائه على أخطاء تاريخية ؛ لأن الشاعر ليس مطالب بأن يكون مؤرخاً دقيقاً

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ص ٢٢٦، ٢٢٧ .

ينقل الأحداث والواقع كما هي ، هذا إذا ما قمنا بالتسليم جدلاً بأن ابن الزبوري قصد بقوله (قتلنا الضعف) المبالغة والتخييل والادعاء الشعري ، فقد يكون ابن الزبوري قصد من ذلك ما توحى به الكلمة (أسيادهم) في قوله (قتلنا النصف من أسيادهم) ، فقد تكون كلمة أسيادهم دليلاً على أن المقصود بالنصف أو الضعف هم الأسياد أو الأشراف أو الفرسان (أسيادهم ، أشرافهم ، فرسانهم) على حسب روايات البيت المختلفة المقصود بها أكابر القوم ، وتفسير ذلك أن الشاعر أراد بأن القتل الذي أعمله المشركون في المسلمين يوم أحد والذي هو موضع افتخار ابن الزبوري ، كان قتلاً انتقامياً بحيث لم يقتل من المسلمين أي أحد ، بل قتل منهم الأشراف والساسة والكبار كحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين في غزوتي بدر وأحد ، وأبي حذيفة بن اليمان ، وعمرو بن الجموج سيد الأنصار وعبد الله بن عمرو بن حرام وغيرهم من سادة المهاجرين والأنصار وأشرافهم ، ولذلك قول ابن الزبوري بناء على ذلك أن من قُتل من أسياد المسلمين وكبارهم هم ضعف من قتل من أسياد المشركين وكبارهم في بدر كالحكم بن هشام أبي جهل ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وغيرهم من سادات قريش وكبارهم ، فافتخار ابن الزبوري بقتل سادة المسلمين وكبارهم وأشرافهم قد يكون مقصوداً لهم دون غيرهم من جيش المسلمين ، كما كان مقصوداً لسادة قريش ورؤوسهم في قول حسان بن ثابت رضي الله عنه في غزوة بدر :

مثلَّ ما جَمَعَ فِي الْخَصْبِ الْهَمْلَنْ

وَتَرَكْنَا مِنْ قُرَيْشٍ جَمِيعَهُمْ

وَقَتَلْنَا كُلَّ جَحْجَاجٍ رَفَلْ

فَقَتَلْنَا كُلَّ رَأْسٍ مِنْهُمْ

ماجِدُ الْجَدِينَ مَقْدَامٌ بَطَلْ

كُمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ

لَا نَبَالِيهِ لَدِي وَقَعَ الْأَسْلَلُ^(١)

وَشَرِيفٌ لَشَرِيفٍ مَاجِدٌ

(١) ديوان حسان بن ثابت ص : ١٨٢ .

الفصل الثالث : أنماط الاستنباط

تعددت اهتمامات الأستاذ محمود شاكر طيلة حياته الأدبية ومسيرته العلمية ، فقضية الشعر الجاهلي التي شغل بها كثيراً وكانت اللبنة الأولى والأهم لتكوينه العلمي ، لم يكن اهتمامه بها شافعاً لعدم وجود غيرها من الاهتمامات العلمية ، فالتحقيق العلمي لكتب التراث العربي تحت ستار القراءة والتعليق كان أحد شواغله واهتماماته ، والحديث عن القضايا الأدبية التي أثيرت في عصره كانت هي الأخرى شاغلاً له وقد صرف لها جانباً من اهتمامه وتفكيره ، ونقد المشاريع النقدية لغيره من الأدباء والعلماء كان هو الآخر شاغلاً واهتمامًا من شواغله واهتماماته العلمية ، كل هذه الاهتمامات المتنوعة المتشعبة لم يكن ليتعاطى معها فكر محمود شاكر على وتبة واحدة ونمط استنباطي معين ثابت ، فقد كان لكل جنس منها بل وما يندرج من أنواع تحت الجنس الواحد أنماطاً استنباطية متعددة تتناسب مع طبيعة كل موضوع ، فقد كانت بعض المواضيع والأفكار التي تناولها محمود شاكر تحتم عليه الانتقال من العموميات إلى الجزئيات ، وبعضها الآخر يحتم عليه أن يتنتقل من عام الفكرة إلى خاصتها ، وحين تنعم النظر في استنباطاته تجد أنه يلح على المتلقي في قبول بعضها ، ويستدل عليها بأدلة متنوعة متعددة تعاضد جميعاً لدعم إقناع المتلقي وانتزاع تسليميه ، وهو لا يلتزم هذا النهج مع كل استنباطاته ، فالبعض منها يتعمد شاكر أن ينزله منزلة الاستنباط الحتمي غير القابل للشك ، ولا يدعمه بأدلة ولا يجهد نفسه في محاولة إقناع المتلقي به ، وكأنه في ذهنه كما هو في ذهن المتلقي من الأمور المسلمة البديهية التي لا تحتاج إلى تدعيم أو استدلال ، وبعض استنباطاته يقوم على الافتراض العلمي القائم على أصول معرفية وثقافية ثم يثبت في بحثه ذلك صحة استنباط ذلك الفرض ، كما يلاحظ في الكثير من استنباطاته اعتماده على نص واحد أو دليل واحد وهو استنباط لا يشبه تلك الاستنباطات المركبة التي تحتاج أن يضم إلى النص نص آخر ليكتمل الاستنباط وُتُسْتَظَهِرَ النتيجة المبتغاة

وبما أن أساس الاستنباط هو الفهم والإدراك من النص منطقه ومفهومه ، فقد اعترضت محمود شاكر بعضاً من النصوص الظاهرة المعنى ، استطاع أن يحرى عليها نمطاً من الاستنباط لم يجره على تلك النصوص الخفية التي يحتاج الاستنباط معها إلى مزيد تأمل وعناية وإعمال للفكر ، وهذا النوع من الاستنباط هو من أكثر الأنواع التي تحملت فيها قدرة محمود شاكر التذوقية ، وسنحاول في هذا الفصل الحديث عن أنماط الاستنباط باعتبار الإفراد والتركيب والظهور والخفاء واستعراض بعض من أداته الاستنباطية .

المبحث الأول : الاستنباط بين الإفراد والتركيب

أولاً : الاستنباط باعتبار الإفراد :

ويقصد به الاستنباط من النص المفرد دون حاجة إلى نص آخر لإتمام الاستنباط ، وهذا النوع جاءت به كثيرة من الاستنباطات عند الأستاذ محمود شاكر ، وقد تنوّعت السبل التي سلكها الأستاذ عند جنوحه إلى هذا النوع من الاستنباط ، فقد يكون الاستنباط مبنياً على اختيار معنى صائب يقتضي به المراد من النص ، وكثيراً ما يعارض باختياره لما يراه صواباً اختياراً لعالم آخر يخطئه وي Ferdinand خطأ اختياره ، ومن ذلك استنباط معنى كلمة شقراء بما يتوافق مع المعنى العام لبيتين أوردهما ابن سلام الجمحي في طبقات فحول الشعرا للشماخ بن ضرار^(١) والبيتان قوله :

يُقْلِوْنَ لِيْ : يَا احْلِفْ وَلَسْتُ بِحَالِفٍ
أَخَاتِهِمْ عَنْهَا لِكِنْمَا أَنَاهَمَا

فَعَرَجْتُ هُمَّ النَّفْسِ عَيْ بِحَلْفَةٍ
كَمَا شَفَقْتُ السَّفَرَاءُ عَنْهَا جِلَاهَمَا^(٢)

(١) الشماخ بن ضرار بن حرملاة بن سنان المازني الذهبياني ، قيل اسمه معقل بن ضرار والشماخ لقبه فقط ، وهو شاعر مخضرم شهد الجاهلية والإسلام ، عده البعض من طبقة لبيد بن ربيعة ، ويقال أنه كان لديه سرعة بديهية في تأليف الأراجيز ، أسلم وحسن إسلامه وله صحبة ، جاحد في فتح العراق ، وكان يجت الناس في معركة القادسية على القتال ، وقد غزا أذريجان مع سعيد بن العاص ، لا يعلم تحديداً تاريخ وفاته ولكن المزباني قال بأنه توفي في غزوة موقعان في زمن الخليفة عثمان بن عفان ، وذلك في العام الواحد والعشرين للهجرة النبوية المشرفة ، ينظر لترجمته في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ، لأحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معرض ، ط١ ، عام ١٤١٥ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ج ٣ ، ٢٨٥ .

(٢) البيتان في ديوان الشماخ بن ضرار الذهبياني ، تحقيق وشرح صلاح الدين الهادي ، ط ١ ، عام ١٩٦٨ م ، لدار المعارف بمصر ، ص ٢٩٢-٢٩٤ ، وقد وردت البيتان باختلاف ملحوظ في البيت الأول ، حيث لم تذكر رواية الديوان باء النداء قبل الحلف ، ووردت أخادعهم بدلاً من أخاتلهم في بداية الشطر الثاني من البيت الأول ، أما تحقيق الشنقيطي لديوان الشماخ فأورد البيت الأول باء النداء قبل الحلف ، وأورد أخادعهم في الشطر الثاني بدلاً من أخاتلهم ، وفي البيت الثاني رواه بلحظة قدّت بدلاً من شفت ، ينظر لديوان الشماخ بن ضرار الصحابي الغطفاني ، تحقيق محمد الأمين الشنقيطي ، بدون ، تاريخ بدون ، مطبعة السعادة بمصر ، ص ٢٠ .

فقد استنبط محمود شاكر أن معنى كلمة الشقراء الواردة في هذا البيت " المرأة الحسناء البيضاء ، يعلو بياضها حمرة صافية ، وجلال كل شيء غطاوه ، كالمحجة ونحوها ، والمحجة قبة العروس والعذاري المقصورات ، توضع عليها ثياب مزينة موشاة تسترها"^(١) ، ليكون المعنى عنده بناء على تفسير هذه الشقراء ، أئمأ أرادوا منه أن يُطلق هذه المرأة ، فلما أقبلوا عليه يحثونه على الحلف بيمين الطلاق ، وامتنع هو عن الحلف مرة بعد مرة ، يريد خداعهم عن الطلاق ورغبة منه في إصابة استيقاظهم بعدم حلفه ، لترسيخ عزة طلاقها في أنفسهم ، " فلما استيقظوا ويسروا أن يسمعوا اليمين خارجة من فيه فرج كرب نفسه بهذه المرأة البغيضة بيمين شقت يأسهم من سماعها ، أرسلها عليهم فجأة ، واضحة بينه سريعة خاطفة ، أذهلت السامعين ، كما تذهل الناظرين حسناء محجبة مبنية قد ينس المترقبون من رؤيتها ، فإذا بهم تشق حجابها فجأة ، فتطيش أبصارهم من رؤيتها ، واضحة الحبا مشرقة الوجه "^(٢) وهو حينما استنبط هذا المعنى فإنما أراد باختياره بإزاء معنى لشقراء في نفس السياق أورده ابن قتيبة في كتابه المعاني الكبير، قال فيه ابن قتيبة: " يريد يقولون لي يا هذا الحلف، أخادعهم عن اليمين لكينا أردها عني فلما عيل صيري حلفت ، .. كما وطئت فرس شقراء على جلالها فخرجت منها وكذلك خرجت أنا من هذه اليمين، أبو عمرو: "كمثال جواد قدّ عنها جلالها" أبو عبيدة و " كقدك عن متن الجواد جلالها ".^(٣)

إذن فالأستاذ محمود شاكر يرى أن الشقراء المرأة الحسناء المحجبة المبنية التي ينس من رؤيتها المترقبون ، وفجأة تشق حجابها فينظرون إليها بجلاء ووضوح ، وهذه الهيئة هي هيئة مشبه به مشبه هو هيئة رجل يناشد قوم طلاق زوجته فيما نع مراراً ثم يفجؤهم بيمين فرج بها هم نفسه ، هذا على رأي الأستاذ محمود شاكر أما ابن قتيبة فيرى أن هيئة المشبه به فرس شقراء وطئت على جلالها فخرجت منها كما خرج الشاعر من اليمين بهذه الحلفة التي فرج بها كرب نفسه ، ولم يقدم محمود شاكر بين يدي استنباطه دليلاً سوى أنه بسطه تحليلاً وتذوقاً

(١) ينظر لطبقات فحول الشعراء الحاشية رقم (١) ، ج : ١ ، ص : ١٣٥ .

(٢) السابق : ج : ١ ، ص : ١٣٥ .

(٣) المعاني الكبير في أبيات المعاني ، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الديبورى ، تحقيق سالم الكرنكوى ، و عبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني ، ط ١ ، ١٩٤٩ م ، لدائرة المعارف العثمانية ، ثم أعادت تصويرها ونشرها دار الكتب العلمية بيروت ط ١ ، عام ١٩٨٤ م ، ج ٢ ، ص ٨٤١ .

واعتماداً على استنباطه الخاص ورؤيته التذوقية الناقلة الفاحصة ، وكما أنه لم يقدم دليلاً مادياً واحداً على صحة استنباطه من النص ، فإنه لم يقدم تعليلًا واضحًا يمكن الاستئناس به لرد رأي ابن قتيبة ، واكتفى بقوله: إن رأي ابن قتيبة رأي غير حسن ولا نعلم أي عدم حُسْنٍ قصد ، فلو أبان عن عيب يرتبط بالمعنى من تفسير ابن قتيبة لكان ذلك الإبانة دليلاً يدعم استنباطه ويقويه ، أما ابن قتيبة فقد قدّم بين يدي استنباطه دليلاً وكأنه استظهر استنباطه من خلال هذا الدليل، فقد عضد استنباطه برواية أخرى لشطر البيت الذي فيه لفظة الشقراء موضع الخلاف لأبي عمرو بن العلاء : "كمثل جواد قدّ عنها جلالها" ، ورواية أخرى لأبي عبيدة عمر بن المثنى : "كقدك عن متن الجواد جلالها" ، وهاتان الروايتان تدعiman رأي ابن قتيبة في أن المراد بالشقراء الفرس ، ويدعمه أيضاً قرب الشبه ما بين الهيئتين ؛ فأداؤه للليمين وخروجه منها مشابه إلى حد بعيد وطأ الفرس جلالها وخروجه منها ، على أن هذا القرب ما بين طرف التشبيه لا يلاحظ كثيراً في استنباط شاكر ، فأداء الشاعر ليمينه وخروجه منها وتفرج كربته بها لا يقترب كثيراً من المرأة الحسناء المحجبة الجميلة المرقوبة التي تلقى بخمارها فجاءة ، إلا على سبيل حالة الذهول التي تصيب مرتفقي الطرفين ، إذ جعل محمود عنصر المفاجأة والذهول بين الطرفين عنصراً مشتركاً استحلب منه توجيهه كلمة الشقراء والمعنى المبني على هذا التوجيه ، وقد يكون تأويل ابن قتيبة أقرب للصواب لعدة أمور :

أولاً : أن ابن قتيبة استند على روايتين للبيت - كدليل منطوق - تقطعان بصحة ما ذهب إليه من رأي وما وفق إليه من استنباط ، أما محمود شاكر فقد استند على مفهومه الخاص والمنطوق مقدم على المفهوم كما هي القاعدة الأصولية .

ثانياً : أنه لا يظهر أي فساد للمعنى من اعتبار الشقراء فرساً وطافت بقدمها على جلالها فخرجت منه ، ولذلك لم يقدم محمود شاكر تبريراً منطوقاً لعدم استحسانه لهذا الرأي ، بل اكتفى بعدم استحسانه بدون تعليل ؛ لأنه يجد في نفسه أن اختياره أليق بالشعر وبهذه الصورة البيانية وأشد إصابة .

ثالثاً : هناك دليل من البيت يمكن أن يستأنس به للدلالة على أن المراد بالشقراء الفرس لا المرأة ، وهو قوله الفعل المسند إليه كلمة الشقراء (شقت الشقراء) ، وبيانه أن وطأة الفرس على جلالها الذي تغطي به قد يحدث فيه شقاً وقد لا تحدثه أبداً المرأة الحسناء التي تزيد أن تخلع عنها حجابها ، فالمرأة التي تخلع حجابها

لا تزيد عن أن تتناوله بيدها ثم تلقي به عن رأسها ووجهها دون شقه وقدّه ، وهذا الغالب في وضع النساء حين يلقين حجبهن عنهن ، وبذلك يكون الشق مناسباً للفرس ولديلاً يومئ إلى أن الشاعر قصد بالشقراء فرساً لا امرأة .

رابعاً : أن العرب اعتادت على تسمية الفرس الكريمة بالشقراء تسمية عَلَمِيَّة ، كما أن الشعر الفصيح كثير فيه أن تكون الشقراء فرساً لا امرأة ، حتى وإن لم تدل على علم بل على صفة أو رمز فقط ، والشاهد على ذاك وكثيراً جداً ، يقول صاحب أسماء خيل العرب وفرسانها :

" ومن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة فارس الشقراء وهو ربيعة بن أبي ، أبلى في يوم نقا الحسن ، ... يوم قتلوا بسطام بن قيس..... وكان خرج بسطام ليغير على بني ضبة ، قال شعيلة بن الأخضر بن هبيرة بن المنذر بن ضرار بن عمرو :

بنو شيبان آجالاً	قصارا	و يوم شقيقة الحسينين لاقت
.....
.....
وقد صار الدماء لـ إزارا ^(١)	ترى الشقراء ترفل في سلاها	
وذكر أيضاً صاحب (أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها) أن ربيعة بن أبي فرسه الشقراء ^(٢) ، وذكر أيضاً أن " الشقراء فرس للرقداد بن المنذر القائل فيها:		
فشبّ الإله الحرب بين القبائل ^(٣)	إذا المهرة الشقراء أدرك ظهرها	

(١) أسماء خيل العرب وفرسانها ، لأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي ، تحقيق حاتم صالح الضامن ، ط١ ، عام ٢٠٠٩ م ، لدار البشائر بدمشق ، ص ٣٧.

(٢) أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها ، للحسن بن أحمد بن محمد الأعرابي الملقب بالأسود العندجاني ، تحقيق محمد علي سلطاني ، ط١ ، عام ١٩٨١ م ، مؤسسة الرسالة بيروت ص ١٤٠-١٤١.

(٣) السابق ص : ١٣٢.

وقال الجاحظ في كتابه الحيوان :

"وبعث رجل من العرب بدليلاً مكانه في بعض البعثات، وأنشأ يقول:

فهانَ علِيٌّ مَا لَقِيَ الْبَدْلُ
إِذَا مَا اخْتَبَتِ الشَّقَرَاءُ مِنْ لَا
قَلِيلٌ عِلْمُهُ بِالْخَيْلِ فِي لِلَّاءٍ^(١)
يَشَنَّفُهَا وَيَحْسِبُهَا بِعَبْرَا

ونقل الخالديان قول رجل يسمى العرندس بن وثاق اليربوعي:

يُطَوَّعُ فِي عَالٍ مِنَ الرَّكْضِ زَائِدٌ
فَأَوْلَى عَلَى عُمَرِ بْنِ بَدْرٍ إِنَّهُ
بِهِ تَحْتَ جُؤُوشُ شِيشِيٍّ^(٢) مِنَ اللَّيلِ وَافِدٌ
مَضِي يَحْمَدُ الشَّقَرَاءَ مَا تَمَطَّرَتْ
طَرِيقُ نَجَاءِ لِلْفَرَارِ مَسَاعِيدٌ^(٣)
إِذَا مَا رَأَى لَمَعَ السَّيُوفِ بَدَأَ لَهُ

ونقل أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال عن بعض العرب "قولهم : شيئاً ما يُريد السُّوطُ إِلَى الشَّقَرَاءِ ، قَالَ
الأَصْمَعِي مَعْنَاهُ إِنَّكَ لَتَتَبَغِي شَيْئاً"^(٤) ، ومن ذلك أيضاً ما ورد في ديوان الحماسة من قول المرار بن منقد^(٥) :

(١) الحيوان للجاحظ ، ج ٧ ، ٨٢.

(٢) "الجوش": الصدر، مثل الجوش والجوشن ... ومضى جوش من الليل: أين صدر منه، مثل جرش. قال ربيعة بن مفروم الضبي: وَفِيَانٍ صِدْقٍ فَدْ صَبَحْتُ سَلَاقَةً
إذا الديك في جوش من الليل طرباً
الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ، ج ٣ ، ٩٩٩ .

(٣) الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين ، للخالديين : أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي ، وأبو
عثمان سعيد بن هاشم الخالدي ، تحقيق محمد علي دقة ، ط ١ ، عام ١٩٩٥ م ، لوزارة الثقافة السورية ، ص ٥٩ .

(٤) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، عبد المجيد قطامش ، ط ٢ ، عام ١٩٨٨ م ،
لدار الجليل بيروت ، ج ١ ، ص ٥٥١ .

(٥) المرار بن منقد: شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، كان معاصرًا لجرير والفرزدق. وهو زياد بن منقد بن عبد بن عمرو بن صديق بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن قيم الحنظلي العدوبي. والمار لقب له، واسمها زياد ،
ينظر لمعلم الشعراء للمزميزاني : ص ٤٠٩ .

متى أَمْرٌ على الشقراء معتسفاً

والوشم قد خرجت منها وقابلها

حَلَّ النَّقَاءِ بِمَرْوِحٍ لَّهُمَا زِيَّمٌ

مِنَ الشَّنَائِيَّةِ الَّتِي مَمْأُولُهَا بَرْمٌ

قال المزوقي : " والشقراء ، قال الأصمسي: يعني فرسه ، أي راكباً الشقراء ، والخل: الطريق في الرمل ، والنقا: الرمل ، والمروح: النشيط ، ومعنى زيم: متفرق ، ووشم وبرم: موضعان ، والشنايا: العقاب . " ^(١) .

وقريب من شقراء بيت الشماخ ما أورده الحصري القيرواني من بيتين نسبهما لابن المعتر ^(٢) وما قوله :

كَأَنْ سَيِّفًا بَيْنَ عِيْدَانِهَا بُجَّلَى

مشهَّرَةٌ لَا يُحَجِّبُ النَّحْلَ ضَوْءُهَا

كَمَا شَقَّتِ الشَّقْرَاءُ عَنْ مَتْنَاهَا جَلَّا

يُفَرِّجُ أَعْصَانَ الْوَقْدِ اضْطِرَامُهَا

وأورد جار الله الزمخشري أيضاً الشقراء اسماء الخلي في كتابه المستقصي في أمثال العرب ، حيث قال في ذلك : "أشئام من الشقراء على نفسها قيل هي فرس لقيط بن زراة التي ركبها يوم جبلة وكان يقول : أشقراء إن تقدم تنحر وإن تأخر تعقر ، وقيل هي فرس رمحت راكبها فأصابت فلوها فشققت بطنه ، وقيل هي فرس كانت لبعضبني لكيز جموج فركبها يوماً فمررت بحرف فأرادت أن تتبه فقصرت عنده فانكبت فيه فاندق عنقها وسلم راكبها ودخل على أهلها بليجامها ، ف قال : إن الشقراء لم يعد شرها سنابك رجليها فأبشروا ، قال بشر بن أبي حازم :

(١) شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المزوقي الأصفهاني ، ص : ٩٨٠ .

(٢) عبد الله بن المعتر بالله وهو أحد خلفاء الدولة العباسية، وكتبه أبو العباس، ولد عام ٢٧٤ هـ في بغداد، وكان أديباً وشاعراً ويسمى خليفة يوم وليلة، حيث آلت الخلافة العباسية إليه، ولقب بالمرتضى بالله، ولم يلبث يوماً واحداً حتى هجم عليه غلمان المقتدر بالله وقتلوه في عام ٢٩٦ هـ، وأخذ الخلافة من بعده المقتدر بالله.

(٣) زهر الآداب وثغر الألباب ، لإبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، تفصيل وضبط وشرح ركي مبارك ، وحققه وزاد في تفصيله وضبطه وشرحه ، محمد محى الدين عبد الحميد ، ط ٤ ، عام بدون ، لدار الجليل بيروت ، ولم أجده هذين البيتين في ديوان ابن المعتر ، ط ١ ، عام بدون ، لدار صادر بيروت ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

فأصبح كالشقراء لم يعد شرها

سنابك^(١) رجليها وعرضك أوفر^(٢)

هذا وقد أورد البغدادي صاحب الخزانة بيت الشماخ هذا ، ووافق ابن قتيبة على أن الشقراء في البيت بمعنى الفرس ، حيث قال : " وقدّ بمعنى شق وقطع طولاً . يزيد : كشفت هذا الغم عنى باليمين الكاذبة كما كشفت الشقراء ظهرها بشق جلها عنه^(٣) .

خامساً : ومن الأدلة التي تشي بأن الشقراء الفرس لا المرأة ، أن الشاعر عقد التشبيه على أساس وصف حالته هو لا حال المترقبين له ، وهذا الأمر مستنبط من قوله (فَرَجَحْتُ هَمَ النَّفْسِ عَيْ بِحَلْفَةٍ) ، وبذلك يكون من المناسب الجمع بين الميتين بحال الشاعر والفرس نفسيهما ، فالشاعر خرج من كربه بيمنيه ، والفرس خرجت من جلالها بقدر وتفلتتها وخلاصها منه ، وليس مأم التشبيه معقوداً على حال المترقبين حتى يجعل الجامع بين الميتين الذهول والمفاجأة ، وتصدير هذه الصورة البيانية بتفریج الكرب خير مبين عن ذلك ، وبناء على ما تم ثبته وإيضاحه فإنه لا يظهر فساد في تأويل ابن قتيبة للشقراء بالفرس .

ومن شواهد هذا الباب بيت لرؤبة بن العجاج^(٤) ، استنبط منه محمود شاكر بشكل مباشر معناه المراد بحسب فهمه له ، وبغض نظره عن اختلاف كبير ساقه حول أصل هذا البيت ، ودون أي تدخل منه لترجح رأي على

(١) "الستبلك": طرف الحافر وجنباه من قدم، وجمعه: سنابك ، وستبلك السييف: طرف حلبله" العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، ج ٥ ، ص ٤٢٧ .

(٢) المستقصى في أمثال العرب ، لأبي القاسم جار الله الزمخشري ، ط ٢ ، عام ١٩٨٧ م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ح ١ ، ص ١٧٩ والبيت في ديوان بشر بن أبي خازم ، ص ٧٢ .

(٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، للبغدادي ، ج ٣ ، ١٩٥ .

(٤) رؤبة - بضم الراء وسكون الممزة وفتحباء الموحدة وبعدها هاء ساكنة - وهي في الأصل اسم لقطعة من الخشب يشعب بها الإناء ، وجمعها رئاب ، وباسمها سمى عبد الله بن رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي من محضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، كان أكثر مقامه في البصرة ، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة وكانوا يختجلون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة ، مات في البدية ، وقد أسرى ، وله مات عام ١٤٥ هـ قال الخليل: "دفنا الشعر واللغة والفصاحة" ، ينظر لوفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، لأحمد بن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، ط ١ ، عام ١٩٧٨ م ، لدار صادر بيروت ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ .

رأي أو القول بفساد رأي وصواب آخر ، أو حتى توجيه أحد الآراء وتقويمه والأخذ بناصيته ، وقد جاء هذا البيت في جامع البيان للإمام الطبرى في تفسيره لقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا إِلَّا حَوَّانِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أُوْ كَانُوا عُزَّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذُلِّكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ وَمُبِينٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١)

يقول الطبرى : "والغزى جمع غاز ، جمع على فعل كما يجمع شاهد شهد ، وقاتل قول ، . وقد ينشد بيت رؤبة :
فَالْيَوْمَ قَدْ نَهَنَهُنِي تَنَهَّمُهُنِي
وَأَوْلُ حِلْمٍ لَيْسَ بِالْمُسَفَّهِ

وَقُوْلُ إِلَّا دَهٌ فَلَا دَهٌ^(٢)

وينشد أيضاً : وقوهم : إِلَّا دَهٌ فَلَا دَهٌ^(٣)

قال محمود شاكر بعد أن ساق جملة من آراء العلماء في تفسير "إلا ده فلا ده" ، " ومهما يكن من أصله ، فإن رؤبة يريد: زجري عن ذلك كف نفسي عن الغي، وأوبة حلم أطارة جنون الشباب ، وقول ناصحين يقول: إن لم ترعوا الآن عن غيك، فلن ترعوا ما عشت ! "^(٤) .

إذن فهذا نوع من الاستبطاط عند محمود شاكر يضرب فيه الذكر صفحأً عن أقوال علماء التراث ولا يعرضها للمسألة كعادته ، بل يكتفى فقط بعرض رأيه واستبطاطه بحسب فهمه للبيت وكأنه يفهم من قوله : "ومهما يكن من أصله فإن رؤبة يريد ... ، أن الحديث عن أصل هذا التركيب ومسألة أقوال أهل العلم فيه لا يعني شيئاً عن معناه الذي لن يختلف مع كل أصل ، فمحصلة الأمر أن الناصحين يقولون لرؤبة إذا لم تنته عن غيك الآن وفي هذه السن فلن تنته عن الغي أبداً مهما يكن من اختلاف في أصل البيت ، فلن يغير المعنى أن تكون كلمة ده فارسية أو عربية كما اختلفوا فيه ، ولن يتعد معنى البيت عن هذا المعنى حينما يقال أن (إلا ده) معناها إلا هذه فلا هذه ، يعني أن الأصل «إلاه» بالذال المعجمة ، فعربت بالدال غير المعجمة. ولن يغير المعنى أبداً أن تكون «ذه» اسم فاعل لا اسم للفعل وهي م uree لا مبنية وتنوينها تنوين الصرف لا تنوين التكير

(١) سورة آل عمران الآية الكريمة رقم (١٥٦) .

(٢) ديوان رؤبة بن العجاج ، اعنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد ، ط بدون ، عام بدون ، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع بالكويت ، ص ١٦٦ .

(٣) جامع البيان للإمام الطبرى ج ٧ ، ص ٣٣٣ .

(٤) السابق ، الحاشية رقم (١) ، ج ٧ ، ص ٣٣٣ .

كما قاله النحاة ، وما يدعم القول بأن الاختلافات التي وردت في أصل هذا البيت لا تجعل له معنى يبتعد عن هذا المعنى ، استعرض بعض تلك الآراء ومقاييسها بفهم محمود شاكر ، واستنباطه ومعرفة ما كانت تلك الآراء تستطيع توليد معنى للبيت آخر يبتعد عما استنبطه شاكر ويستقيم مع ما يتطلبه السياق الكلي للنص ، فأبو عبيدة معمرا بن المثنى يقول في مجاز القرآن في شرح البيت : " وقال رؤبة: قوله إلا ده فلا ده يقول: إن لم يكن هذا فلا ذا. ومثل هذا قوله: إن لم تتركه هذا اليوم فلا تتركه أبداً، وإن لم يكن ذاك الآن لم يكن أبداً" ^(١). ومن ذلك أيضاً قول ابن قتيبة الدينوري في تأويل مشكل القرآن : " قوله: إلا ده فلا ده ، يريدون : إن لم يكن هذا الأمر لم يكن غير ، وهو مثل قول رؤبة : قوله إلا ده فلا ده يروي أهل العربية أن الدال فيه مبدلة من ذال، كأنهم أرادوا: إن لم تكن هذه لم تكن أخرى" ^(٢).

ولعل أكثر من أسهب الحديث عنها من المتقدمين أبو هلال العسكري ، حيث نقل آراء بعض العلماء عنها، إلا أنه لم يكن لها منها رأي خاص واختيار محدد واكتفى بعرضها فقط ، قال العسكري في ذلك : " (قولهم إلا ده فلا ده) فسر على وجوه فقال بعضهم يضرب مثلاً للرجل يطلب شيئاً فإذا منعه طلب غيره ، وقال الأصماعي لا أدرى ما أصله ، وقال غيره أصله أن بعض الكهان تنافر إليه رجال فامتحنوه فقالوا له في أي شيء جئناك ؟ قال : في كذا قالا لا ، فأعاد النظر وقال إلا ده ، أي إن لم يكن هذا فليس غيره ثم أخبرهما ، وقال آخرون معناه إن لم يكن ذلك الآن لم يكن أبداً بغيره به ، وأنشد قول رؤبة (وقول إلا ده فلا ده ...) وقال الخليل : يقال إن قول رؤبة (إلا ده فلا ده) فارسي حكى صوت ظهره وكانت العرب تقول إذا رأى الرجل ثأره إلا ده أي إن لم تثار فلا تثار أبداً" ^(٣).

أما البغدادي فقد أسهب في شرح البيت دون التفصيل في اختلاف العلماء حوله ، وفي ذلك يقول بعد أن أورد البيت وما قبله : " وصف قبل هذه الأبيات شبابه وما كان فيه من مغازلة الغواني ، ومواصلة الأماني ، إلى أن قال: فاليم قد زجريني عما كنت فيه أربعة أشياء: الأول: التنهي ؛ وهو مطابع نهنته عن كذا فنتهنه أي: كففته وزجرته عنه فكف ، أي: زجريني زواجر العقل ، الثاني: أول حلم أي: رجوع العقل لا ينسب إلى

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمرا بن المثنى ، ج ١، ص ١٠٦ .

(٢) تأويل مشكل القرآن لا بن قتيبة : ص ٣٠٧ .

(٣) جمهورة الأمثال ، لأبي هلال العسكري ج ١، ص ٩٤ .

الستّه ، الثالث: عذر القائلين: إن لم تتب الآن مع الدّواعي إلى التّوبّة فلَا تتوب أبداً ، فَقُولُهُ: وَقُولُ هُوَ عَلَى حذف مُضَافٍ ، والرابع: حقّة أَيْ: خطة حقّة^(١) ، أما أصحاب المعجم فهم لا يبتعدون كثيراً بمعنى التركيب وأصله عن دلالته الواضحة في بيت رؤبة بن العجاج ، بل يجعلون بيت رؤبة شاهداً على توجيه معناه وتحديد أصله ، بعد أن يستعرض البعض منهم جملة الآراء في ذلك ، فالخليل بن أحمد الفراهيدي يرى أن " ده: ده: " كلامه كانت العرب تتكلّم بها ، يرى الرجل ثاره . فتقول له: يا فلان إلا ده فلا ده ، أَيْ: إنك إن لم تثار بفلانِ الآن لم تثار به أبداً ، وأما قول رؤبة: وَقُولُ إِلَّا دَهْ فَلَا دَهْ فيقال: إِنَّهَا فَارسِيَّة^(٢) ، أما صاحب تحذيب اللغة فلعله من أكثر الذين فصلوا القول في هذا التركيب من اللغويين ؛ فقد خصص له ثلاث صفحات متتابعة من كتابه ، تتبع فيها أقوال أهل العلم في معناه وفي أصله واختار منها اختياره الذي لا يبتعد كثيراً عن تلك الأقوال ، ويمكن عدّ نقله مرجعاً يحاط فيه بكلّة الأصول والمعاني التي يعود إليها هذا التركيب والتي لا تبعد كثيراً عن استبطاط محمود شاكر وعن المعنى العام لهذا التركيب في بيت رؤبة ، ويمكن أن نلخص الآراء التي نقلها صاحب التهدية في تركيب (إلا ده فلا ده) فيما يلي :

أولاً : أنها كلمة كانت العرب تتكلّم بها ، يرى الرجل تأمره فيقول له: يا فلان: إلا ده فلان ده؛ أَيْ: إنك إن لم تثار بفلان الآن لم تثار به أبداً .

ثانياً : أنها كلمة تقال في باب طالب الحاجة يسألها فيمنوعها فيطلب غيرها .

ثالثاً : أنها كلمة يعني المثل يضرب للرجل ، يقول: أُريد كذا وكذا ، فإن قيل له: ليس يمكن ذاك ، قال: فكذا وكذا .

رابعاً : أنها كلمة تستخدم لمعنى : إن لم يكن هذا فلان يكون ذاك ، وإن لم يكن هذا الآن فلان يكون لاحقاً .

خامساً : أنها كلمة تستخدم حينما يوتّر الرجل فيلقى واتّره فيقول له بعض القوّم: إن لم تضرّه الآن فإنّك لا تضرّه .

سادساً : أنها كلمة تقال للرجل الذي قد أشرف على قضاء حاجته من غريم له أو من ثاره أو من إكرام صديق له .

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ، ج٦ ، ص ٣٩١ .

(٢) العين للخليل بن أحمد ، ج٣ ، ص : ٣٤٨ .

سابعاً: أنها كلمة تستخدم في معنى: إن لم تغتنم الفرصة الساعية فلست تصادفها أبداً ، وهذا اختيار صاحب التهذيب ^(١).

أما ابن منظور ومرتضى الريدي فلم يزدَا في معجميهما لسان العرب^(٢) وتأج العروس^(٣) إلا أحْمَّا نقاً كلام الأزهرِي صاحب تهذيب اللغة وأوجزاه ونسبة كل ما نقاًه إليه دون إضافة تستحق الثبت هنا في هذا الموضع.

وبعد هذا العرض السريع لمعنى هذا التركيب وما اشتمل عليه من اختلاف أقوایل أهل العلم فيه ، فإنه قد يقال بأن استنباط محمود شاكر استنباط صائب وفهم دقيق مراد البيت من سياقه ومن مبناه ومعناه بنفسه ، ويستطيع أيضاً عن طريق استعراض هذه الآراء المختلفة لأهل العلم حول معنى (إلا دِ فلا دُو) أن يفهم مقصد محمود شاكر ومغزاه حين قال قبل استنباطه معناها : "ومهما يكن من أصله ، فإن رؤية بريد..." ، فتتبع هذه الأصول والمعاني المختلفة لن يسهم غالباً في توليد معنى هذه الكلمة غير ما ذكره محمود شاكر ؛ لأن المعنى الذي يستقيم به البيت ؛ ولأنه المعنى الذي يسوغ استدعاء مثل هذا التركيب الذي يغلب عليه صيغة المثل ؛ ولأنه المعنى الذي يستقيم مع السياق الكلي لهذا البيت ، ولاستجلاء ذلك فلا بد من إيراد الأبيات السابقة لهذا البيت كما هي، رواية الديوان :

(١) تهذيب اللغة لحمد بن الأزهري الهروي ، تحقيق محمد عوض مربع ، ط١، عام ١٤٠٨هـ ، لدار إحياء التراث

العربي بيروت ، ج ٥ ، ص ٣٣٤ .

^{٤٩٠})٢(ينظر لسان العرب ج ١٣، ص .

^(٣) تاج العروس لمتضي، الزبيدي، ج ٣٦، ص ٣٨٠.

لَمْ يَطُو أَدِيَالِي كِتَارُ الْمُتَهَيِّي

فَالِيَوْمَ قَدْ نَهَنَهُنِي نَنَهَنُهُنِي

وَقُولُ إِلَّا دِوْ فَلَا دِوْ

وَلَا مَعَرَاثُ الْخُطُوبِ الشُّدَّةِ

وَأَوْلُ حِلْمٍ لَيْسَ بِالْمُسْفَفَةِ

وَحَقَّةٌ لَيْسَتْ بِيَقْوِلِ الْثُرَّةِ^(١)

فالبین من هذه الأبيات أن الشاعر يبين قرب انغماسه في تلبية رغبات النفس ، فقد واجه كل المشاق في فطم نفسه عن هواها ومنها وکاد مع تحمله هذه المشاق أن ينادي نفسه بتحقيق مشتهاها ونيل مبتغاها ، وقد استمر على هذا أمداً كان حقيقةً بأن يكون زمان التصابي هو زمن التعته ، فقد شكل الشباب بتداعياته الجزء الأكبر من مكونات هذا النص ، والجلجي أن مشكلات الشباب والفتوة استأثرت فيه باهتمام الشاعر ؛ وهذا بسبب ما عاناه من متاعب وهموم واضطرابات نفسية من الخطوب الشدّة ، ومن مصاعب كبح جماح نفسه في ظل وجود مغريات لا تقطع ونعم زاد من صعوبة السيطرة على نفسه ، وما يزيد يقيننا بآراء الشاعر ومعتقداته في الشباب ، أن الشباب بتداعياته الفطرية والغريزية هو أحد المكونات الرئيسة للفكر وللقيم وللمشاعر والسلوك، فيه وحده تبرز دوافع الشهوات ومنطلقـات الأهواء، وتتوقد الأحلام و ويولد الخيال ، وتشتد فيه مظاهر الحيوانية والنشاط في نفس كل شاب ، ويتحدّد كثير من أهداف الشاب من خلال شهواته وغرائزه ، وترسم له مخيلته الطرق السهل للوصول إليها ، فيخترق جميع الحاجز و كافة الممنوعات التي قد تعيقه عن نيل تلك الأهداف أو الوصول إلى أحدها ، فتصبح قوى الشاب العقلية ضعيفة التأثير في مجرى حياته وهو شاب ، بينما تسيطر عليه مشاعر الشهوانية وحب إشباع الغرائز وإصابة الأماني ، بل وتنقلب كل المفاهيم والقيم في نفسه ليصبح شهواته ورغباته هي أساس المبغي وغاية المنال ، والسياق الكلـي لهذا البيت يوحـي بأن الشاعر يتحدث عن تلك الفترة من الشباب ، وكيف أن أولئك الغانيات اللاـتي رأهن عدن به إلى أيام الشباب ولـياليه وغواياته ولهـوه ، بعد أن كـادت أخـلاقـه لا تستـطيع مقـاومـة زـهـوة الشـباب ولـذـات الصـبا وأـطـاـيهـ ، وتقـصر دون تحـكم سـلطـانـ الشـبابـ عـلـيـهـ ، وبعد مرـحلةـ من اللـجاجـ النفـسيـ وـالتـنـازـعـ القـلـبيـ بين تحـكمـ الأخـلاقـ وـتـسلـطـ إـلـفـ الشـبابـ وـفـتوـتهـ ، ذـلـكـ الشـبابـ الذـيـ يـمـنـحـ النـفـسـ كـيـراـ وـاخـتـيـلاـ وـعـجـباـ بـفـتوـتهـ؛ـ فـيـأخذـ منـ المـنـيـ ماـ يـشـتـهـيـ ولاـ يـتـركـ منـ دـنـيـاهـ إـلـاـ مـاـ لـاـ تـشـتـهـيـ نـفـسـهـ وـمـاـ لـيـسـ لـهـ فـيـهـ رـغـبةـ ،ـ وـيـقـرـرـ الشـاعـرـ بـأـنـ فـتوـةـ الشـبابـ

(١) ديوان رؤبة بن العجاج : ص ١٦٦ .

واستحكامه على تصرفاته وأفعاله ليس هو الوحيد الذي يزيد من صعوبة سيطرته ، فمما يساعد على سيطرة أهواء الشباب والانقياد وراء نزواته كثرة أوجه النعيم وتوفرها ومشاهدتها أين ما دار به النظر ووظلت به القدم ، فتعدد وجوه النعيم يشبه الغيوم المطبلة المظلمة التي ليس وراءها غيث ولا رحمة ، ولكنها تعقى على بصر الشاب فلا يكاد يرى نور الحق ، وتقوده إلى تلك المللذات وذلك النعيم المطبق الطيب اللين ، ولكن وبعد أن انقضت تلك المرحلة فإن الشاعر **فطن** لما يجتبك وراءها وفيها من غور وغمغريات ، فهي غير قادرة على أن تنسيه أحداً ونوازل شدّه يحار فيها العقل ويندهش منها الفكر ، فقد زجره عن ذلك كله كف نفسه عن الغواية والتضليل ، وأوبته إلى حلم أطارات جنون الشباب وغوايته ، وقول ناصحين له يقولون : إن لم ترعوا الآن عن غيك ، فلن ترعوى ما عشت ، وهذا تحديداً ما أراده شاكر من قراءة البيت .

إن هذا السياق وما اشتمل عليه من تداعيات الشباب وأهوائه هو ما يسوغ لأن يكون استنباط محمود شاكر استنباطاً دقيقاً متزرعاً بما أراده الشاعر ورمى إليه ، وغضبه النظر عن كل الأصول اللغوية التي قد يعود إليها التركيب اللغوي المستخدم (إلا ده فلا ده) ، فإن هذه الأصول لا تستطيع مجتمعة ومتفرقة استبعاد هذا المعنى ، ولن تستطيع توليد معنى آخر لهذا التركيب يتناسب مع السياق العام للنص ، بل ويمكن اعتبار تأويل محمود شاكر واستنباطه خاتمة طبيعية وملازمة جداً لتمام المعنى العام وكماله .

ثانياً : الاستنباط باعتبار التركيب :

مضى فيما تقدم الحديث عن الاستنباط عند محمود شاكر باعتبار النص المفرد بدون الحاجة لضميمة نص آخر إليه ، أما الحديث هنا فهو نوع آخر من الاستنباط يستخدم فيه الأستاذ محمود نصين ويربط ما بينهما ربطاً مباشراً للاستنباط ، وهذا النوع هو أقل من صاحبه في أنواع الاستنباط لديه ، وغالب ما يكون هذا النوع من الاستنباط حينما يكون وجه الاستنباط ضعيفاً من النص الواحد ويحتاج إلى نص آخر يدعمه ويقويه ، أو حينما يحس الأستاذ أن الاستنباط ناقص ولا يمكن أن يكون تماماً إلا بضم غيره إليه ، وسيأتي بيان كل من ذلك في نماذج مختارة ، وقد تنوّعت السبل التي سلكها الأستاذ عند جنوحه إلى هذا النوع من الاستنباط ، فمنها ما يكون سبيلاً دلالة اللغة العربية وأصل وضعها اللغوي وسياقها الذي وردت فيه ، ومن ذلك استنباطه الذي أوسع فيه من التهمّم الذي يصل إلى التحرّي بل وليس عوض على خلفية استدعاء الثاني لقوله تعالى:

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَاللِّهَانِ﴾^(١)

ولابد قبل إبرادة استنباط محمود شاكر أن نعرض مقاله لويں عوض حينما استدعاى هذه الآية الكريمة ، فقد استدعاها في استنباط مفاده أن (دانتي) صاحب الكوميديا الإلهية^(٢) ، قد اقتبس من القرآن الكريم ومن رسالة

(١) سورة الرحمن ، الآية الكريمة رقم : (٣٧).

(٢) دانتي *أليغيري* شاعر إيطالي ، ولد دانتي في عام (١٢٦٥ م) ، وقد شارك بحماس في الصراع السياسي الذي كان يوجد في زمانه ، وتم نفيه من مسقط رأسه. فكان مؤيداً نشطاً للوحدة الإيطالية ، وأعظم أعماله الأدبية التي تعنيها هنا والتي استدعاها لويں عوض في كتابه على هامش الغفران (الكوميديا الإلهية) المكونة من ثلاثة أقسام الجحيم ، المطهر والفردوس، ويعتبر هذا العمل البيان الأدبي الأعظم الذي أنتجه أوروبا أثناء العصور الوسطى ، وقاعدة اللغة الإيطالية الحديثة ، فهي واحدة من الأعمال الرئيسية لعملية الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة ، وتعتبر تحفة من الأدب الإيطالي وواحدة من قمم الأدب العالمية ، ويعرف دانتي في الأدب الإيطالي بالشاعر الأعلى، ويعرف أيضاً بـ "أبي اللغة" الإيطالية. وقد كتب جيوفاني بوكاتشيو أول سيرة ذاتية لدانتي، في تراتاتيلو في مرتبة الشرف لدانتي ، وقد اعتمد عليها مترجم كتابه الكوميديا الإلهية في ترجمته لدانتي ، وقد دعى دانتي في آخر حياته من قبل الأمير جيدو نوفيلو بوليتنا إلى رافينا في عام (١٣١٨ م)، ورحل إلى هناك وأنهى عمله الأخير "الجنة" وتوفي عام (١٣٢١ م) عندما بلغ من العمر ستة وخمسين عاماً بينما هو في طريقه للعوده إلى رافينا من مهمته دبلوماسية في فينيسيا ، ينظر لترجمته في مقدمة كتابه الكوميديا الإلهية الجحيم لدانتي ، ترجمة حسن عثمان، ط٣، عام بدون ، لدار المعارف المصرية ، ص ٢٥ وما بعدها.

الغفران حينما رمز لمريم العذراء بالوردة السماوية ، وهذا الرمز يوحى باتصاله بالآية الكريمة السابقة في سورة الرحمن ، حيث وصف دانتي الوردة بأن أوراقها من الملائكة ، وقد كان للوردة من وجهة نظر لويس عوض "أدب غزير في العصور الوسطى الأوروبية ... وهو كله قصص ظاهره دنيوي وباطنه بحث بالخيال في الإلهيات على طريقة دانتي وليس له في التراث الكلاسيكي الأوروبي أصول معروفة ..." ^(١) ، وبناء على ذلك فإن لويس عوض لا يستبعد أن تكون أوربا المسيحية قد أخذت هذا الرمز من العالم الإسلامي مترجمة رموزه الحمراء للجحيم ، وربط لويس عوض هذا الاستنباط بشاهد فيه صورة بيانية لأبي العلاء المعري ، نسخ فيها أبو العلاء الوردة في سقط الزند وجعل جحيمها في الأرض لا في السماء ، وذلك في قوله :

فِإِذَا الْأَرْضُ وَهِيَ غَرَبَاءٌ صَارَتْ
مِنْ دِمِ الطَّعْنِ وَرْدَةً كَالْدِهَانِ

وقد تمسك لويس عوض أياً تمسك بعد استشهاده بهذا البيت باستنباطه السابق المتضمنأخذ أوربا رمز الوردة الحمراء للجحيم من العالم الإسلامي . ^(٢)

غير إن هذا الاستنباط لم يرق لمحمود شاكر مطلقاً ورأى فيه تلاعباً باللغة العربية وعدم فهم لأساليب القرآن الكريم ، كما اتهم فيه لويس عوض بعدم عودته لكتاب التفاسير المعتبرة ، واستخدم في كل ذلك ألفاظاً وأساليب وعبارات مقدعة تحكم فيها كثيراً بفكر لويس عوض وبثقافته الأكاديمية ، والذي يهمنا من ذلك كله استنباطه المبني على استنباط لويس عوض في مدلول الوردة ، وحينما يشرع محمود شاكر في بيان معنى الوردة الواردة في الآية ، فإنه يستدعي نصاً قرانياً آخر لدعم استنباطه وتقويته ، ويستدعي كذلك السياق الذي وردت فيه الآية موطن الاستنباط ، يقول محمود شاكر :

" ومعنى ذلك بلا إطالة هو أن الله سبحانه وتعالى ينذر عباده ويخوفهم بما سيكون يوم القيمة من الهول والفرز الأكبر ، **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾**^(٣) فتنكسر النجوم وتنشر الكواكب ، وتنشق السماء وتتفطر ، يتبدل لونها حمرة صافية مشرقة من شدة اللهب يومئذ ، فذلك قول الله سبحانه في صفة يوم القيمة:

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالْدِهَانِ﴾^(٣٧) **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا ثُكَّدِّبَانِ﴾**^(٣٨) **﴿فِيَوْمَئِذٍ لَا يُسَأَّلُ﴾**

(١) على هامش الغفران للويس عوض ، ص : ١٧٤ .

(٢) السابق ، ص ١٧٤ .

(٣) سورة إبراهيم الآية الكريمة رقم (٤٨) .

عَنْ ذَنِبِهِ إِنْسُنٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَيَأْيِي أَلَاءِ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرُمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ
بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤٠﴾ فَيَأْيِي أَلَاءِ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤١﴾ .^(١)

إذن فالأستاذ محمود شاكر يرى أن الوردة هي الحمرة الصافية المشرقة من شدة اللهب ، وهو لا يعتمد في استنباطه على نص واحد ، بل يستنبط ذلك من قوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ ، ثم من آية سورة الرحمن موطن الخلاف مضموماً إليه السياق الذي وردت هذه الآية فيه ، والحق أن هذا الاستنباط هو الذي جرت عليه كتب العديد من علماء التفسير ، قال مقاتل في تفسير قوله تعالى ﴿فَإِذَا
انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ :

"فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ يعني انفرحت من الجرة، وهو البياض الذي يرى في وسط السماء وهو شرج السماء
لتزول من فيها، يعني رب - تعالى - الملائكة فَكَانَتْ : يعني فصارت من الخوف وَرْدَةً كَالدِّهَانِ: شبه لونها في
التغير والتلون بدھان الورد الصافي ، قال أبو صالح: شبه لونها بلون دهن الورد، ويقال بلون الفرس الورد يكون
في الربيع كميتاً أشقر، وفي الشتاء أحمر، فإذا اشتد البرد كان أuber ، فتشبه لون السماء في اختلاف أحواها بلون
الفرس في الأزمنة المختلفة ^(٢) ، وقال الفراء: في قوله «وَرْدَةً كَالدِّهَانِ» أراد بالوردة الفرس الورد يكون في الربيع
وردة إلى الصفرة فإذا اشتد البرد كانت حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة فتشبه تلون السماء
بتلون الورد من الخيل، وشبه الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن لاختلاف ألوانه. ويقال كدهان الأديم يعني
لونه ^(٣) .

وهذا ما ذهب إليه ابن جرير الطبرى في تفسيره جامع البيان ، يقول الإمام الطبرى :
(فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) يقول تعالى ذكره: فإذا انشقت السماء وتفطرت، وذلك يوم
القيمة، فكان لونها لون البرذون ^(٣) الورد الأحمر ، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ، ذكر من قال
ذلك:

(١) سورة الرحمن من الآية الكريمة (٣٧) وحتى الآية الكريمة (٤١).

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ، مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي ، تحقيق عبد الله محمود شحاته ، ط١ ، عام ١٤٢٣ هـ ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ج٤ ، ص ٢٠١.

(٣) البرذون مفرد ، وجَمِعُهُ بَرَادِينُ . وَالْبَرَادِينُ مِنَ الْخَيْلِ: مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ نِتَاجِ الْعِرَابِ ، لسان العرب لابن منظور ، ج ١٣ ، ص ٥١ .

... عن ابن عباس (فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالْدَهَانِ) قال: كالفرس الورد ...^(١) .

وقال في ذلك السمرقندى صاحب تفسير بحر العلوم :

" فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالْدَهَانِ " يعني: صارت كدهن الورد الصافى، وهذا قول مقاتل. وقال القتبي: صارت حمراء فى لون الفرس. يعني: بمنزلة الدابة الجلجلون الذى تغير لونه فى كل وقت، يرى لونه على خلاف اللون الأول، ويقال له: المورد ويقال: الدهن الأديم الأحمر بلغة الفارسي. يعني: الفرس الذى يكون لونه لون الورد الأحمر، يعنون أحضر يضرب إلى سواد، يتغير لونه بياض. ويقال: من هيبة ذلك زاغ فيرى أنه كالدهن.^(٢)

وقال أبو إسحاق الشعىي صاحب تفسير الكشف والبيان عن تفسير القرآن :

" إِذَا انشقت انفراجت السماء فصارت أَبْوَابًا لِنَزُولِ الْمَلَائِكَةِ، يَبَانُهُ قَوْلُهُ سَبَحَانَهُ: يَوْمٌ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا فَكَانَتْ صَارَتْ وَرْدَةً ، مَشْرِقَةً، وَقِيلَ: مُتَغَيِّرَةٌ، وَقِيلَ: بِلُونِ الْوَرْدِ "^(٣)

وقال الواحدي صاحب التفسير الوسيط في تفسير الآية الكريمة موطن الاستباط :

" {فَكَانَتْ وَرْدَةً} ... كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة والصفرة، قال قنادة: هي اليوم خضراء كما ترون، ولها يوم القيمة لون آخر إلى الحمرة ، {كَالْدَهَانِ} .. جمع دهن، قال الفراء: شبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبه الوردة في اختلاف ألوانها، بالدهن واختلاف ألوانه ...^(٤) .

وقال الإمام البغوي في تفسيره :

" فَكَانَتْ وَرْدَةً، أَيْ كلون الفرس الوردى وهو الأبيض الذى يضرب إلى الحمرة والصفرة وقيل: إنها تتلون ألوانا يومئذ كلون الفرس الوردى يكون في الربع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتدا الشتاء كان أغير فشبها

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للإمام الطبرى ، ج ٢٣ ، ص ٥٠ .

(٢) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندى ، تحقيق محمود مطروح ، ط ٢ ، عام ١٤٢٥ هـ ، دار الفكر بيروت ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ .

(٣) الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، أحمد بن محمد بن إبراهيم الشعىي ، تحقيق ، محمد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدى ، ط ١ ، عام ٢٠٠٢ م ، دار إحياء التراث العربى بيروت ، ج ٩ ، ص ١٨٧ .

(٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعى ، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد صيرة، أحمد عبد الغنى الجمل، عبد الرحمن عويس ، قدمه وقرظه: عبد الحي الفرماوي ، ط ١ ، عام ١٩٩٤ م ، دار الكتب العلمية بيروت ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ .

السماء في تلونها عند انشقاقها بهذا الفرس في تلونه كالدهان، جمع دهن شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل وشبه الورد في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ، وهو قول الضحاك ومجاحد وقتادة والربيع، وقال عطاء بن أبي رباح: كالدهان كعصير الزيت يتلون في الساعة ألواناً ، وقال مقاتل: كدهن الورد الصافي ، وقال ابن جريج تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصيّبها حر جهنم ، وقال الكلبي: كالدهان أي كالأديم الأحمر وجمعه أدهنة ودهن " ^(١) .

وقد عرض فخر الدين الرازي في تفسيره بعض من الآراء التي تؤيد استنباط محمود شاكر ، يقول الرازي في ذلك : " .. ما معنى قوله تعالى: فكانت وردة كالدهان؟ نقول: المشهور أنها في الحال تكون حمراء ذلك: يقال: فرس ورد إذا أثبت للفرس الحمرة، وحجرة وردة أي حمراء اللون. وقد ذكرنا أن هليب النار يرتفع في السماء فتدوب فتكون كالصفر الذائب حمراء، ويتحمل وجها آخر وهو أن يقال: وردة للمرة من الورود كالركعة والمسجدة والجلسة والقعدة من الركوع والسجود والجلوس والتعود، وحينئذ الضمير في كانت كما في قوله: إن كانت إلا صيحة واحدة أي الكائنة أو الظاهرة ، وأنث الضمير لتأنيث الظاهر وإن كان شيئاً مذكراً، فكذا هنا قال: فكانت وردة واحدة أي الحركة التي بها الانشقاق كانت وردة واحدة، وتنزل الكل وخرّب دفعة ، والحركة معلومة بالانشقاق لأن المنشق يتحرك، ويتنزل" ^(٢) .

إذن فاستنباط محمود شاكر مدعاوم بتوافق مع آراء كبار المفسرين كما هو ملاحظ ، ولو اكتفى بالاستنباط المباشر من قوله تعالى : ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالْدِهَانِ﴾ لكان ذلك كافياً لتوفيقه مع ما جاء في أمهات كتب تفسير القرآن الكريم ، ولكن شيئاً ما ألحّ عليه في أن يوطئ لاستنباطه هذا بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ ، ولا أظن ذاك الشيء إلا مهادأً عقلياً يزم إليه عقل المتلقى ويرغمه لأن يقرّ بهذا الاستنباط الذي هو خارج حدود العقل ، فانشقاق السماء وتلونها بالحمرة الدامية كلون الفرس الورد هو مما يجري على خلاف ما تعتاده العقول وتدركه القلوب من أهوال يوم القيمة ، تلك الأهوال التي يجعل

(١) معلم التنزيل في تفسير القرآن ، للحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدى ،

ط١، عام ١٤٢٠ هـ ، لدار إحياء التراث العربي بيروت ، ج٤ ، ص ٣٣٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير ، لفخر الدين الرازي ، ط٣ ، عام ١٤٢٠ هـ ، لدار إحياء التراث العربي ، ج٢٩ ،

الإيمان بها جزءاً لا يتجزأ من الإيمان باليوم الآخر كركن خامس وأساس من أركان الإيمان الستة ، وكان الأستاذ شاكر ي يريد بهاد هذه الآية عدم مفاجأة عقل المتلقى بانشقاق السماء وتلوّحها بالحمرة كالفرس الورد موطن الاستنباط ، فلا بد قبل الشروع في ذلك الاستنباط أن يقدم له بأن السموات والأرض ستبدل يوم القيمة بتبدلات خارقة وخارجية عن نطاق العادة والمألوف ، ومنها ما استنبطه في الآية الكريمة ، وقد زاد من سهولة انتزاع إقرار المتلقى بهذا المهدأ أنه من التنزيل العظيم ، والإقرار به واجب والإذعان له ملزم .

ولابد قبل مغادرة هذا الاستنباط الإشارة إلى أمر بالغ الأهمية ، فقد تمت الإشارة إلى أن محمود شاكر قد هاجم لويس عوض في هذا الموضع هجوماً لاذعاً عنيفاً ، وقد بَرَرْ محمود شاكر هجومه بقوله بعد أن نقل كلام لويس عوض المتضمن استدعاء قوله تعالى ﴿فِإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرَةً كَالدِّهَانِ﴾ :

"وحسبي حسيبي فقد مللت هذا ... الدعي المجرئ ، مالوردة السماوية ؟ ... وما وردة كالدهان ؟ أي مجانون يطيق أن يتكلم بهذا في كتاب يقرؤه الملايين .. فيأتي هذا التالفُ فيلعب بألفاظ لغته كما يشتهي علانية بلا حياء .. ويدعى أنهقرأ تفاسير (وردة كالدهان) ، أي خيال من سعادير^(١) الإدمان تخيل له أن السماء إذا انشقت وانتشرت نجومها يوم القيمة صارت كالوردة التي تُشم بالأنف في شكلها ؟ وهذا إنسان مفيق ؟ وهذا خلق يتكلم في الآداب وفي الشعر ؟ وهذا تصور يليق بمن يحمل رأساً فيه ذرة من عقل ؟ هذا معtoo لا يخاطب..."^(٢)

إذن فمحمود شاكر يرى بخطأ تفسير الوردة الواردة في الآية الكريمة بالوردة المشمومة ، وخطأً ما يترب على هذا التفسير من أن السماء إذا انشقت وانتشرت نجومها يوم القيمة صارت كالوردة التي تُشم بالأنف في شكلها كما نسبة هو للويس عوض ، ومن الوضوح بمكان أن محمود شاكر يرى أن القول بذلك عبث باللغة وادعاء كاذب لقراءة التفاسير المعتبرة التي تناولت تفسير هذه الآية الكريمة ، وهو من الأوهام والسقطات العلمية التي وقع فيها أستاذ جامعي كلويس عوض .

(١) اسمَدَّرَ بَصَرُهُ اسْمَدْرَارًا ... (و) السُّمَدُورُ أَيْضًا: (غِشَاوَةُ العَيْنِ) وَضَعْفُ البَصَرِ ، تاج العروس لمرضى الزبدي ، ج ١٢ ، ص ٨٦ ، وفي المعجم الوسيط : (السمادير) ما يتراهم للناظر كأئنة الذهاب ، الطائر الواحد سدور ، المعجم الوسيط ، المؤلفون : إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، ط٤ ، عام ٢٠٠٤ ، مكتبة الشروق الدولية ، ج ١ ، ص ٤٤٨ .

(٢) أباطيل وأسمار محمود شاكر ، ص ٨٢ .

والحق أن بعضًا من المفسرين فسّر الوردة الواردة في آية سورة الرحمن الكريمة : ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالِّهَانِ﴾ بالوردة المشمومة وإن كان أولئك المفسرين لم يخرجوا بها عن إطار اللون حتى وإن فسرت بالوردة المشمومة ، ومن ذلك قول الماوردي :

" ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يعني يوم القيمة . {فَكَانَتْ وَرْدَةً} فيه وجهان: أحدهما: وردة البستان ، وهي حمراء ، وقد تختلف ألوانها لكن الأغلب من ألوانها الحمراء، وبما يضرب المثل في لون الحمرة.... " ^(١)
ومن ذلك قول عبد القاهر الجرجاني في تفسير الآية الكريمة :
" {وَرْدَةً} زهرة ، أي تنقلب حمراء بعد أن كانت صفراء. رواه ابن عرفة عن ثعلب، وقال الأزهري: أي صارت كالوردة تتلون ألوانًا" ^(٢).

وقال أبو حيان الأندلسي في الآية :
" (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ: جواب إذا مخدوف ، أي مما أعظم الهول ، وانشقاقها : انفطارها يوم القيمة ، فَكَانَتْ وَرْدَةً أي حمرة كالوردة . قال ابن عباس وأبو صالح : هي من لون الفرس الورد ، فأنث لكون السماء مؤنثة ، وقال قتادة : هي اليوم زرقاء ، ويومئذ تغلب عليها الحمرة كلون الورد ، وهي النوار المعروف ، قاله الزجاج ، ويريد كلون الورد ...)" ^(٣) .

وقد جعل ابن الجوزي القول بالوردة النبات قوله ثانيةً في معاني وردة سورة الرحمن ونسبة للماوردي ، قال ابن الجوزي : " قوله تعالى فإذا انشقت السماء أي انفرجت من المجرة لنزول من فيها يوم القيمة فكانت وردة وفيها قولان ، أحدهما كلون الفرس الوردة قاله أبو صالح والضحاك وقال الفراء الفرس الوردة تكون في الربيع وردة إلى الصفرة فإذا اشتد الحر ، كانت وردة حمراء فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة فشبها بتلون السماء بتلون

(١) النكت والعيون ، تفسير الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ، تحقيق السيد بن عبد المقصود ابن عبد الرحيم ، ط بدون ، عام بدون ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ج ٥ ، ٤٣٦ .

(٢) دَرْجُ الدُّرُرِ فِي تَقْسِيرِ الْأَيِّ وَالسُّورَ ، لعبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، دراسة وتحقيق: (الفاتحة والبقرة) وليد بن أحمد بن صالح الحسيني ، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي ، ط ١ ، عام ٢٠٠٨ م ، مجلة الحكمة البريطانية ، ج ٣ ، ص ١٥٨٨ .

(٣) البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق صدقى جميل ، ط بدون ، عام ١٤٢٠ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ج ١٠ ، ص ٦٥ .

الوردة من الخيل والثاني أنها وردة النبات وقد تختلف ألوانها إلا أن الأغلب عليها الحمرة^(١).

وبذلك يعلم أن تفسير الوردة بالوردة النبات المشمومة هو مما قاله بعض علماء التفسير أيضاً في التراث العربي ، وهو من الآراء المحتملة لدى بعضهم وغير المستبعدة ، والحق أن شيئاً من الغيظ يتجدد توقده في نفس محمود شاكر على لويس عوض بسبب آرائه في أبي العلاء المعري ، كانت السبب الأبرز في رفض محمود لآراء لويس عوض وتخطئتها قبل قام التحري عنها والتبع لجنورها ، فلويس عوض كان على اطلاع بكتب التفاسير حينما قال : "ولكن الوردة الواردة في القرآن وتفاسيرها هي المقابل الأصلي الذي خرجت منه كل هذه الاجتهادات في أدب الوردة على أرجح الاحتمالات"^(٢).

ودليل اطلاعه أن قوله بن يأتي وردة آية سورة الرحمن قول فيه اتباع لا ابتداع لعلماء معتبرين ، وليس من الصواب اتهام لويس عوض بناء على ذلك بعدم اطلاعه على كتب التفاسير بناء على آرائه العلمية ومحاكمتها على أساس من ذلك ، كما أنها لا غلوك حق نقد كلام لويس عوض بناء على ما نفهمه لا بناء على ما ينطقه هو بقلمه ، فقد كررت قراءة قسم الكوميديا الإلهية (الفردوس) القسم الأخير من كتاب على هامش الغفران وقبلها الكوميديا الإلهية (الجحيم) فلم أجده فيها أن لويس عوض شبه فيها انشقاق السماء بالوردة في شكلها كما قاله محمود شاكر ، وكل ما في الأمر أنه قام بعرض فردوس دانتي وترقيه في كوميدياه الإلهية إلى السمات التسع مستخلصاً تأثير دانتي بحادثة المراج في التراث الإسلامي والقرآن الكريم ورسالة الغفران ، وقد عرض أثناء عرض نعيم دانتي عن الوردة النبات ونقل فيها أقوالاً مترجمة وعلى الترتيب بحسب ذلك العرض:

القول الأول : على لسان باترياس (شخصية في كوميديا دانتي الإلهية) مخاطبة دانتي (بطل فردوس الكوميديا الإلهية) : "لم تدخلت في عشق وجهي حتى أهلك العشق عن النظر إلى الحديقة الفاتنة التي أينعت تحت ضياء المسيح ، هاهي ذي الوردة التي فيها أصبحت الكلمة الإلهية جسداً ، وهذا هو السوسن الذي هدى شذاه إلى الطريق القوم ، وكانت الوردة هي مريم العذراء (روزا ميستيكا) كما كانوا يسمونها"^(٣)

(١) زاد المسير في علم التفسير ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، ط٣، عام ١٤٠٤ هـ ، للمكتبة الإسلامية

بيروت ج٨، ص ١١٨.

(٢) على هامش الغفران للويس عوض ، ص ١٧٦.

(٣) السابق : ص ١٦٦.

القول الثاني : على لسان دانتي قوله : "وقال عن الوردة : إن اسم الزهرة الجميلة الذي أناديه في صباحي ومسائي قد شغل عقلي ؛ فعاقني عن النظر إلى النار الكبيرة ، وحين امتلأت عيني بضياء ذلك النجم رأيت مشعلا من وسط السماء يرسم دائرة في صورة إكليل من الزهر هبط وأحاط به كالزناد ^(١) .

القول الثالث : على لسان دانتي قوله : "قال دانتي : ورأيت النور في هيئة نهر يتلألأ بالضياء يجري بين ضفتين ... ومن هذا المجرى خرجت شرارات حية ، وفي الجانبين كانت هذه الشرارات تستقر في الأزهار ، وكأنها عقيق يساوره الذهب ^(٢) .

القول الرابع : على لسان دانتي قوله : "وجذبني بياتريس في صمت من يريد الكلام ، فأدخلتني بين أوراق الوردة الأبدية الصفراء التي تنتشر على مدى واسع ^(٣) .

القول الخامس : على لسان دانتي بعد أن طلبت منه بياتريس النظر الدبر الرحبا ذي الأردية البيضاء : "ولكن دانتي لم ير الوردة البيضاء الصافية البياض إلا حول العرش وكانت أوراقها من الملائكة الناصعة البياض ، ورأى راية السلام منشورة في وردة الفردوس حيث جلست مريم العذراء ، وتنتهي الكوميديا الإلهية بصلة موجهة للعذراء وبرؤيا الخلاص الأبدي في النعيم ^(٤) .

القول السادس : للويس عوض نفسه بعد أن لاحظ العلائق بين فردوس دانتي في الكوميديا الإلهية وقصة المعراج ، واستنباطه وجود علائق أخرى بين فردوس دانتي والقرآن الكريم ورسالة الغفران ، ولابد من نقل كلام لويس عوض على طوله ؛ لأنه بعينه ما اقتبسه محمود شاكر نصاً للتهكم به على لويس عوض ونقده : "غير أن بعض التفاصيل الواردة في فردوس دانتي توحى بأنه اقتبس أيضاً من القرآن الكريم ومن رسالة الغفران وربما من غير ذلك من المصادر الإسلامية ، فتصويره للوردة السماوية يوحى بأن له صلة ما بما جاء في سورة الرحمن : ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرَدَةً كَالْدِهَانِ﴾ ، وقد اتخذ دانتي من وردة الفردوس البيضاء رمزاً لMary العذراء في نسخة السماوية أم الحب الإلهي ، ووصف الوردة بأن أوراقها هي الملائكة ، وكان نقاشها في العصور

(١) على هامش الغفران للويس عوض ، ص ١٦٧.

(٢) السابق ص: ١٦٨.

(٣) السابق ص : ١٦٨.

(٤) السابق ص : ١٦٨.

الوسطى هو الوردة الحمراء ، رمز فينيوس الجسدية أم الحب الشهوي ، وقد كان للوردة أدب غزير في العصور الوسطى الأوروبية ، مثل رواية الوردة الشهيرة ، وهو كل قصص ظاهره دنيوي ، وباطنه بحث بالخيال في الإلهيات على طريقة دانتي ، ومنه ما هو سابق لدانتي وليس له في التراث الكلاسيكي الأوروبي أصول معروفة ، فليس يبعد أن تكون أوروبا المسيحية أخذته من العالم الإسلامي عن طريق إسبانيا ، وصقلية ، وترجمت رموزه الحمراء رمزاً للجحيم ، والمعري نفسه ينسج على صورة الوردة في سقط الزند ويجعل جحيم الوردة الحمراء في الأرض لا في السماء :

فإذا الأرضُ وهي غبراءٌ صارتْ
منْ دِمَ الطُّغْنِ وَرْدَةً كَالْدِهَانِ

ولكن الوردة الواردة في القرآن وتفاسيرها هي المقابل الأصلي الذي خرجت منه كل هذه الاجتهادات في أدب الوردة على أرجح الاحتمالات " (١) "

وكم يلاحظ من جميع الأقوال السابقة التي ترجمها لويس عوض عن الكوميديا الإلهية المختصة بالوردة ، وكذلك القول الأخير على لسانه هو شخصياً ، فإنه لم يشبه فيها ولا في غيرها انشقاق السماء بالوردة بجامع شكل كل منهما كما قاله محمود شاكر ، بل جعل تصوير دانتي للوردة السماوية ذا صلة ما بما جاء في آية سورة الرحمن دون أي تفسير منه مباشر للآية الكريمة ، كما أنه جعل من تلك الوردة السماوية رمزاً خيالية للنعيم والجحيم ، ولو قال بذلك لويس عوض صراحة لم يكن إلا متبوعاً لأقوال بعض علماء التفسير ، وشاكر حينما أقنع في نقد لويس عوض في هذا الموضوع تحكم كثيراً على بعض المصطلحات مثل (الوردة السماوية ، روزا مستيكا) ، وكما هو ملاحظ من ثبت الأقوال التي وردت فيها الوردة في القسم الأخير من (على هامش الغفران) فيما سبق آنفأً ، فإن لويس عوض لم يورد هذه المصطلحات إلا مترجماً حرفيأً لكوميديا دانتي الإلهية ، ولم يأتِ بها تشدقأً أو حشوأً من القول ، لاسيما وأن ترجمة هذه الكوميديا بما فيها هذه المصطلحات التي تحكم عليها محمود مقاربة نقدية جادة استطاع فيها لويس عوض أن يثبت تأثر أدب العصور المسيحية الوسطى بحادثة المعراج تحديداً وبالقرآن الكريم وبرسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، وعند إنعام النظر فيما ترجمه وعرضه لويس عوض في القسم الأخير تحديداً من كتابه على هامش الغفران (الكوميديا الإلهية الفردوس) ومقابلته ذلك بالنصوص التي تحدثت عن حادثة المعراج تحديداً ورصدتها بتفاصيلها الدقيقة ، فإنه من الصعب جداً إنكار تسرب أثر حادثة المعراج تحديداً في الكوميديا الإلهية (الفردوس) تحديداً .

المبحث الثاني : الاستنباط بين الظاهر والخفاء.

أولاً : الاستنباط الظاهر :

إن فهم النصوص فهماً صحيحاً هو الأساس القويم الذي يقوم عليه الاستنباط ، ومن الصعب جداً أن يصح الاستنباط بدون فهم جيد للمقتضى النصي المستنبط منه ، وقد يواجه المستنبط بعضاً من النصوص الظاهرة المعنى لا يحتاج لاستنباط معناها إلى كد فكر وتأويل فهم ، فهي من الوضوح يمكن يجعلها باباً مشرعًا يستطيع المستنبط وبكل سهولة استنباط ما يريد منها دون عناء ، وقد واجه محمود شاكر كثيراً من صنف هذا الاستنباط ، وهو حين يواجهه يوجز فيه القول ويختصر فيه العبارة ، فوضووحه يعني عن كل البسط في القول والزيادة فيه ، ولو زاد المستنبط في هذا الصنف بياناً وتفصيلاً فيه لعمّاه وأليسه الغموض وعّاه عن وضووحه وظهوره وجلاه .

ومن هذه الاستنباطات عند محمود شاكر استنباطه استنباطاً مباشراً من قصيدة لعباس العقاد ، جاء على خلفية ردود موجهة لسيد قطب ، بعد أن رد الثاني بعضاً من نقدات هذه القصيدة للرافعي أستاذ شاكر وصديقه الحميم ، فما كان من شاكر إلا أن انبرى لسيد قطب يدعم نقدات أستاذ الرافعي ويخطئ ردود سيد قطب عليها ، ومن ذلك قوله معلقاً على قصيدة العقاد (غزل فلسفى : فيك من كل شيء) ^(١) : " ونحن حينقرأنا قصيدة العقاد لأول مرة في مجلة المقتطف زعمنا أنها قصيدة مؤلفة من غير مادة الشعر، وأن الغزل الفلسفى الذى فيها حديث يتھالك والفلسفة منطق يتماسك ، فهي على ذلك ليست من شعر ولا فلسفة ، وهذا هو بديهية الرأى لمن يقرأ هذه القصيدة ويتدارس معانيها ، ويقيسها إلى غرض صاحبها ، فإنه سماها أول ما سمي (غزاً فلسفياً) ، ثم أتبع هذا وفي رأسها ما يشبه تفسيراً لهذا العنوان ، وما يتضمن فحوى القصيدة ، ويحدد جملة معانيها ، وذلك قوله " فيك من كل شيء..." ^(٢) "

إذن فمحمود شاكر استنبط استنباطاً مباشراً من نص ظاهر المعنى وهو عنوان القصيدة الرئيس الذي وضعه الشاعر وعنون به قصيدة ، استنبط منه أن القصيدة مؤلفة من فلسفة تتساقط معها لغة الشعر وتتهاوى ،

(١) ديوان وحي الأربعين لعباس بن محمود العقاد ، ط١ ، عام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بمصر . ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) أباطيل وأسمار ، محمود شاكر ، ج ١ ، ص : ١٤ .

مع ربطه استنباط فلسفة القصيدة من عنوانها بمنابعها الذي يأتي على رأسه قول العقاد (فيك من كل شيء) ، حيث يرى أن العرب وال فلاسفة جميعاً يزعمون أن لفظ كل إذا دخل على النكرة أليس أفرادها عموماً على سبيل الشمول فقط دون التكرار ، ويستخدم شاكر لشرح هذه الفلسفة لغة فلسفية ليست معهودة في أسلوبه السلس وبيانه الرصين ؟ كل ذلك في محاولة منه لبسط سلطة استنباطه بتسرّب الفلسفة في القصيدة تسرّباً أضّر بلغتها الجمالية ووأد حمال الشعر بين كلماتها ، يقول شاكر :

" فكذلك أوجب الشاعر على صاحبته أن يشمل جوهر شخصيتها جزءاً من كل ما يمكن أن يسمى شيئاً ، ومن كل ما يسوغ أن يسمى موجوداً موعوداً ، وهذا الإطلاق من فيلسوف يتغزل يقتضي شمول الأفراد من كل شيء ، ومن كل موجود ولكن أين تذهب بمعنى اللفظ (كل) في العربية وفي حدود الألفاظ التي تدور على ألسنة الفلاسفة ؟ وأي دلالة توجب قبض معنى الشمول من هذا اللفظ ؟ أو أي مسوغ يجيز الحد من الإحاطة التي يقتضيها هذا الحرف في مجراه قول الشاعر فيه (كل شيء) ، وفيك من كل موجود ؟ "^(١).

واستنباط محمود شاكر من قوله (كل شيء) مبني على استنباط أستاذه الرافعي والذي يختصره الرافعي بقوله : " وهناك ضرب من المبالغة يجيء من سقوط الخيال ... وهذه المبالغة تأتي من جمع أشتات مختلفة وإدماجها كلها في معنى واحد ، كهذا الذي حاول أن يدمج الطبيعة كلها في حبيبه ، فزعم أن فيها من كل شيء ، ونسى أن كل قبيح وكل بغيض هو من كل شيء "^(٢)

وشاكر وقبله الرافعي يريدان بنقدهما هذا قول العقاد من قصيده غزل فلسفى :

فِيَكَ مِنِّي وَمِنَ النَّاسِ وَمِنْ كُلِّ مُوْجُودٍ وَمُوْعَدٍ ثُمَّ اَمَّ^(٣)

والحق أن هذا النقد صحيح لو كان هذا البيت وثرا لا شافع له ، فالقبح جزء من قوله (كل موجود) ، و نسبة القبح وما شابهه مما تشتمل له النقوس و هو إلى الهجاء أقرب منه إلى الغزل وإن كان مقامه غزلاً ، ولكن البيت ليس فرداً لا شافع له ، بل هو جزء من قصيدة أسماءها شاعرها بالحسب الفلسفى ، وهو لا يريد من الفلسفة لغة شعرية ولا تصويراً فلسفياً ولا نمطاً يشابه أنماط الفلسفة المغرقة في الغموض والجفوة ، بل يريد من هذا

(١) أباضيل وأسماء محمود شاكر ، ج ١ ، ص : ١٥.

(٢) وهي القلم لمصطفى الرافعي ج ٣ ، ص : ٢٩٣ .

(٣) وهي الأربعين ، ص : ٥٥ .

العنوان ومن القصيدة كلها فلسفة غزلية جديدة يتحدث بها عما يكتن بين جوانحه تجاه محبوبته ، فهو يتحدث عن الأثر البالغ الذي خلفته في نفسه محبوبته وهي تتراءى له من وراء كل شيء وإن كان ذلك الشيء ليس بجميل ، وقد أراد من ذلك أن يكون غزله مخصوصاً ومختلفاً عن الكثير من سياقات الغزل التقليدية في الشعر العربي .

والشاعر ليس بمؤاخذ حين يرى محبوبته في لغة الخيال الشعري أينما قلب نظره ، بشرط أن يتأنى لذلك تأويلاً يتناسب مع طبيعة النسيب ورقة الغزل ، فعنترة بن شداد العبسي رأى محبوبته في لمعة السيوف وهو في معركة تضرب فيه الرقاب ، ونجح فيه الرؤوس ، وتسلل فيه الدماء ، وتنشرت فيه رائحة الموت ، وتنير فيه حوافر الخيل وأقدام الرجالين النقع ، ومع كل ما في ذلك من معانٍ تتضاد مع الجمال ، ومع كل ما فيه من المعطيات التي لا تحفر الشاعر لاستخدام لفظة رقيقة للتعبير عما يدور في ميدان المعركة ، يفجئنا عنترة بعد أن يصف ذلك كله بقوله :

وَلَقَدْ دَكَرْتُكِيْ وَرَسَّمَخْ نَوَاهِلُ
مِنْيِ وَبِيَضُّ الْهَنْدِ تَقْطُرُّ مِنْ دَمِي

لَمَعَتْ كَبَارِقُ شَعْرِكِيْ الْمُتَبَسِّسِ^(١)
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السَّيُوفِ لِأَهْمَا

قال هذين البيتين بعد أن كان يقول :

لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ
يَتَذَمَّرُونَ كَرْرُثُ غَيْرُ مُدَمَّمٌ

أَشْطَانُ يُبَرِّ في لَبَانِ الْأَذْهَمِ
يَدْعُونَ عَنْتَرَ، وَرَسَّمَخَ كَأَهْمَا

بَرْقُ تَلَالُّاً في السَّحَابِ الْأَرْكِمِ
كَيْفَ التَّقَدُّمُ وَرَسَّمَخَ كَأَهْمَا

(١) هذان البيتان في ديوان عنترة ولم يذكرها ضمن معلقته (هل غادر الشاعر من متقدم) بل ذكرها كبيتين مستقلتين لا ثالث

لهم ، ينظر لشرح ديوان عنترة للخطيب التبريزى ، ص ١٩١ ، و ينظر لديوان عنتر ، ص ٨٤ ، ط ٤ ، عام

١٨٩٣ م ، على نفقة أمين المخوري ، بمطبعة الآداب بيروت ، ول المناسبتها بمعلقته أدرجها بعض العلماء ضمن

معلقته كأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، صاحب جمارة أشعار العرب ، ص ٣٧٦ ، ووردت مدرجة

بالمعلقة كذلك في شرح المعلقات التسع المنسوب لأبي عمرو الشيباني ، ص ٢٤٠ .

كَيْفَ التَّقْدِمُ وَالسَّيُوفُ كَاهَهَا
 مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِعُرَّةٍ وَجْهِهِ
 فَازْوَرْ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ
 فَتَرْكُتُ سَيِّدَهُمْ لِأَوَّلِ طَعْنَةِ
 رَكِبَتُ فِيهِ صَعْدَةً هِنْدِيَّةً
 وَالْحَيْلُ تَفَتَّحُمُ الْعَبَارَ عَوَابِسًا
 وَلَقَدْ حَشِيشُتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ
 الشَّامِيَّ عِرْضِيُّ، وَلَمْ أَشْتَمْهُمَا
 إِنْ يَقْعَلَا فَلَقَدْ تَرْكُتُ أَبَاهُمَا
 وَلَقَدْ تَرْكُتُ الْمَهْرَ يَدْمَى نَحْرُهُ
 إِذْ يُتَقَّى عُمُورُ وَأَذْعُنْ غَدْوَةً
 يَحْمِي كَتَبِيَّهُ وَيَسْعَى حَلْفَهَا

عَوْغَا جَرَادٍ فِي كَثِيبٍ أَهْيَهُ
 وَلَبَانِهِ حَتَّى تَسْبِيلَ بِالدَّمِ
 وَشَكَا إِلَيْ بِعْرَةٍ وَتَحْمُخَهُ
 يَكْبُو صَرِيعًا لِلَّهَيْنِ وَلِلْفَمِ
 سَحْمَاءَ تَلْمُعُ ذَاتَ حَدِّهِ لَهْدَمِ
 مَا بَيْنِ شَيْظَمَةِ، وَأَجْرَدْ شَيْظَمِ
 لِلْحَرْبِ دَائِرَةً عَلَى ابْنَيِ ضَمَضَمِ
 وَالنَّاذِرَيْنِ إِذَا لَمْ الْفَهُمَا دَمَيِ
 جَزَرَ السَّبَاعِ وَكَلِّ نَسْرِ قَشْعَمِ
 حَتَّى اتَّقْتَنِي الْخَيْلُ بَابِي حَلْمِ
 حَذَرَ الْأَسْتَةَ إِذْ شَرَعْنَ لِدَهْمِ
 يَفْرِي عَوَاقِبَهَا كَلْدُغِ الْأَرْقَمِ

ولقد عمدت إلى اختيار الأبيات الأكثر دموية قبل البيتين الأول لعلم أن تذكر الحبيبة التي يتغول بها شاعر ما ليس بالضرورة أن يكون في سياق الغزل التقليدي ، فقد جاء بيها عنترة السابقين على ما فيهما من رقة وعدوبه وسلامة وتمكن من المعنى بعد سياق الموت والدماء وصليل السيف والطعن والكر والفر ، فللشاعر الحق في تذكر حبيبته وذكرها حتى مع رؤية الدماء وسيطرة الموت وغلبة القتل والطعن ، وليس أفضع على النفس وأشد بأساً من ذكر الموت والقتل والطعن ، وكأنها مع تلك الفظاعة وشدة البأس يستحيل أن تتواهم مع سياق الغزل إلا في عالم الشعر وخياله ، وفي حدود إمكانات الشاعر وقدراته التصويرية والبيانية التي تستطيع أن تلح علينا في قبولربط هذه السياقات المتناقفة بعضها بعضاً محكماً ، وقرب من بيتي عنترة قول ابن رشيق القبوري :

مُتَوَقَّعٌ بِتَلَاطِمِ الْأَمْ—وَاج
 وَلَقَدْ دَكَرْتُكِ فِي السَّفِينَةِ وَالرَّدَى
 وَالْجُوُّ يَهْطِلُ وَالرِّيَاحُ عَوَاصِفُ
 وَعَلَى السَّوَاجِلِ لِلأَعْدَادِيِّ غَارَةُ
 يُسَوَّقُونَ لِغَارَةِ وَهِيَاج
 وَأَنَا وَدِكْرِكِ فِي أَلَّدِ تَنَاجِي^(١)
 وَعَلَتْ لِأَصْحَابِ السَّفِينَةِ ضَجَّةُ

(١) ديوان ابن رشيق القبوري ، جمعه ورتبه عبد الرحمن باغي ، ط بدون ، عام ١٩٨٩ م ، دار الثقافة بيروت ، ص

وعلى هذا فإن الغزل الذي سماه العقاد فلسفه له جذور في فصيح الكلام وفي شعر العرب ؛ فليست نظرة العقاد لمحبوبته في كل شيء هي النظرة الأولى لشاعر يتنسب للسان العرب وأدبهم حتى وإن كان الشيء قبيحاً. وغاية ما في الأمر أن استنباط محمود شاكر لفلسفة القصيدة من عنوانها المباشر استنباطاً هو بعينه استنباط من النصوص الظاهرة المعنى ، فليس أدل ظهوراً من معنى عنوان قصيدة وضعها شاعر بنفسه يختزل فيه كثيراً مما اشتغلت عليه معانيها وتكونت منه أجزاءها ، على أن الفلسفة التي قصدتها الشاعر لا ترتبط كثيراً بالفاظ الفلسفة وخياراتهم التركيبية ، بل هي في حقيقة الأمر مرتبطة بفلسفة خاصة بالشاعر يرى فيها محبوبته في كل شيء وكأنها لا تغيب عنه ولا ينفك ذكرها عن عقله بغض النظر عن الأمر الذي يراها فيه ، فظيعاً كان أو لطيفاً ، جيلاً كان أو قبيحاً ، فليس المرئي وحده هو ما يذكره بحبيته لتناسب بين ما يراه وبين حبيته ؛ بل لأن حبيته عالقة وراسخة في ذهنه وقلبه ونظريه ، وكأنها حينما ينظر إلى كل الأشياء تظهر لديه كاللقطة الأولى التي تسبق نظره لأي شيء ، ويزيد من حظوظ صحة أن تكون هذه القصيدة فلسفه بهذا الاعتبار أن الكلمة العقاد :

فيكِ متّي ومن الناسِ ومرّؤامٌ
كُلِّ موجودٍ وموعدٍ ثُؤامٌ

والتي هي موطن النقد وموضع الخلاف ، جاءت في آخر هذه القصيدة وكأن الشاعر يطالعنا أن نقيس مالم يذكره بما هو داخل تحت قوله (من كل موجود) بما قاله قبل هذه الكلمة ، فقد قال قبل ذلك :

ثُرسُ اللَّمْحِ مُضِيَّا فِي الظَّلَامِ
حِينَ يَسْرِي نَائِماً بَيْنَ نَيَّاماً
تُبْيَثُ النُّضْرَةُ عَامًا بَعْدَ عَامَ
عَهْدِهِ الْعَاصِفُ بَرْقٌ وَغَمَامٌ
أَنْتَ رَاوِيَهُ، وَلَا نَاحُ الْحَمَامُ
فَهُنَّيَ أَصْدَأُوكَ مِنْ غَيْرِ كَلامٍ
مِنْ نَفَارٍ بَيْنَكُمْ أَوْ مِنْ وِتَامٍ؟
سَطْوَةُ النَّسْرِ وَلَا حَوْفُ النَّعَامِ
هَلْ حَيَاةُ الْحَيِّ إِلَّا مِنْ ضِرَامٍ؟
هَجْرُكَ الْمَدْعُوَّ بِالْمَوْتِ الرُّؤَامُ

فِيكِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى الْعَيْنُ الَّتِي
فِيكِ مِنْ بَدْرِ الدُّجَى أَخْلَامُهُ
فِيكِ مِنْ كُلِّ رِبِيعٍ طَلْعَةُ
وَالشَّتَاءُ الْجَهَنُّمُ لَا يَعْدُوكَ مِنْ
مَا تُعْنِيَ الطَّيْرُ إِلَّا بَعْضَ مَا
وَإِذَا الْجَدْوُلُ نَاغَى نَفْسَهُ
وَصُنُوفُ الْوَحْشِ هَلْ نَاظَرَهُ
لَا افْتَالَ الْحَوْتُ تَنْسَاهُ وَلَا
فِيكِ مِنْ نَارِ الْحَيَاتَيْنِ الْهَرَوِيِّ
وَالَّذِي أَرْهَبُهُ وَأَسْفَاهُ

فِيْكَ مِنْ دُنْيَاكَ نَفْصُ رَائِقٌ
وَمِنَ الْأَمْلَاكِ طَبِّ وَرِضَاً
وَمِنَ الْحُمْرَةِ سُكْرًا هَا إِدَا
وَمِنَ الْفُؤُتِ غِدَاءً وَمِنَ الْ
فِيْكَ مِنْ أَرْضِكَ حَظٌ وَافِرٌ
فِيْكَ مِنْ هَنْدَسَةِ عُلُوِيَّةٍ
وَمِنَ الْفَنِّ مِثَالٌ بَـاـذـخٌ

وَمِنَ الْأُخْرَى تَبَاشِيرُ التَّمَّامَ
وَمِنَ الشَّيْطَانِ عَيْ وَأَثْمَامَ
أَسْلَسْتُ فِي النَّفْسِ أَوْ طَاشَ الزِّمَامَ
مَاءِ رَيْ ، وَمِنَ الْجُوعِ هِيَامَ
وَحُظُوطٌ مِنْ سَمَاءٍ لَا نَرَامَ
مَا اسْتَدَارَ الْحَطُّ فِيهِ وَاسْتَقَامَ
هُوَ لِلْمُتَّالِ وَالشَّادِي إِمَامَ

ومن هذه الأبيات السابقة للبيت المشتمل على قوله (من كل موجود) ، يتبيّن أن الشاعر يرى أن محبوبته فيها من شمس الضحى ، وبدر الدجى ، والربيع التضر ، والشتاء الجهم ، والطير الشادي ، والحمام النائح ، وجدول الماء ، وصنوف الوحش التي لا تُستأنس ، والحوت ، والنسر ، والنعام ، والنار ، والدنيا ، والملائكة ، والشياطين ، والخمرة ، والقوت ، والأرض ، والسماء ، والهندسة ، والفن ، ويمكن لنا أن نضع هذه الكلمات بإزاء تلك الكلمات التي اقترحها الرافعى والأستاذ محمود شاكر الداخلة تحت نطاق (من كل موجود) (البىق والقمل والنمل والخفساء والوباء والطاعون والمفيضة وزيت الخروع والملح الإنكليزى) ؛ فهذه الأشياء بحسب الرافعى وشاكر داخلة تحت نطاق (كل موجود) باعتبارها من الموجودات وباعتبار العموم الكبير الذي يقتضيه التعبير بهذه الكلمة ، فكيف للشاعر أن يجد شيئاً من محبوبته في هذه الأشياء باعتبارها من الموجودات ؟ والجواب عن ذلك يكمن في أن العقاد فاجأنا بأشياء قد يكون بينها وبين الكلمات التي اقترحها الرافعى وشاكر شيئاً من المؤانسة والاتفاق ، كالشتاء الجهم البائس ، وكالحوت ، والنسر ، والنار ، والشياطين ، وقد استطاع خيال الشاعر إيجاد مناسبة لرؤيه حبيبته في هذه الأشياء التي لا ترغبهما النفس ، وهذه المناسبة تحديداً هي الفلسفة التي أرادها الشاعر في قصيده ، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن الشاعر قصد قصداً لأن يختتم تعداد الأشياء التي يرى محبوبته في شيء منها بقوله (كل موجود) ، وكأنه يضع للمتلقي بهذه الكلمات أشياء أخرى كنماذج وأقياسه يستطيع أن يقيسها على الأشياء التي ذكرها أولاً وكذا خياله في إيجاد مناسبة لها مع محبوبته .

ومن الاستنباط من النص الظاهر المعنى عند محمود شاكر استنباط جاء على خلفية موازنة عقدها بين روایتين
لكلام منقول عن جد الرسول ﷺ عبد المطلب ، وذلك أن أم رسول الله ﷺ قد خرجت بالنبي ﷺ إلى المدينة
المنورة تزور أخواله فماتت وهي عائدة إلى مكة المكرمة ، وله ﷺ ست سنين ، فكفله بعد أمه آمنة بنت وهب

جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يرى في الرسول ﷺ ما يسره ويسعده فيقربه إليه ويدنيه منه ، "حتى كان يُبيّن عليه إذا خلا وإذا نام ، ويجلس على فراشه ، فإذا أراد بنو عبد المطلب منعه قال عبد المطلب : دعوا ابني فإنه يؤنس ملكاً" ^(١) .

قال محمود شاكر معلقاً على قول عبد المطلب :

"في ابن سعد : ج ١ ، ص ٧٤ ، ^(٢) (يؤنس) ، وهي أجود ، أي أنه يحس بذلك ويعلمه ..." ^(٣)

فقد استنبط محمود شاكر من النص الظاهر المعنى لرواية الطبقات الكبرى لابن سعد زيادة في معنى الإحساس والعلم بالشيء في هذه الرواية ، من زيادة لام التوكيد على الفعل (يؤنس) ، وهي زيادة في معنى الإحساس لا تكاد تكون في رواية المقرizi لخلوها من لام التوكيد ، وبناء على هذا الاستنباط فمحمود شاكر يبني استنباطاً آخر يرى فيه أن رواية ابن سعد أجود من رواية المقرizi .

والملاحظ أن الشخصية الفاحصة الناقدة المستنبطة لهذه الأحكام هي الشخصية اللغوية البينية لمحمد شاكر ، وليست الشخصية العالم بالروايات التي تقارن بين ما تجده من روايات وتحتار الأصح منها بحسب ما تقتضيه ضوابط الرواية ، فقد كان معيار مقتضى الدلالة اللغوية سبب اختيار محمد لهذه الرواية واستنباطه معنى زيادة الإحساس والعلم بالشيء من زيادة لام التوكيد على الفعل (يؤنس) .

والحق أن استنباط محمد شاكر هنا استنباط دقيق ومتافق مع الوجهة اللغوية والبينية لكلام عبد المطلب ، فقد ذكر جمع من أهل العلم بنحو العربية بأن عدد اللامات في اللغة العربية إحدى وأربعون لاماً ، منها لام التوكيد " وهي مفتوحة وقبلها نون مشددة لا تأتي إلا بعد إن وإنك وإنكم وإنهم ، وإنما ، وإنه ، وذلك

(١) إمتناع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفيدة والم التابع ، لتقى الدين أحمد بن علي المقرizi ، حققه وشرحه

وصححه محمد شاكر ط٢، عام بدون ، للشؤون الدينية بقطر ، ج ١، ص ٧ .

(٢) يقصد بابن سعد أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الحاشمي بالولاء ، البصري ، البغدادي المعروف بابن سعد المתוقي : ٢٢٣هـ ، صاحب كتاب الطبقات الكبرى ، حققه إحسان عباس ، ط١ ، عام ١٩٦٨م ، لدار صادر بيروت ، وقد وجدت هذا النص في هذه الطبعة في الجزء الأول ، وفي الصفحة : ١١٨ ، كما وجدته في نفس الكتاب ، تحقيق علي محمد عمر ، ط١ ، ط١ ، عام ٢٠٠١م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ج ١، ص ٩٦ .

(٣) إمتناع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفيدة والم التابع للمقرizi ، الحاشية رقم : ٢ ، ج ١، ص ٧ .

مثل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾^(١) و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢) ، و ﴿إِنَّا لَفِي شَلَكٍ﴾^(٣) و ﴿يَقُولُ إِنَّا لَمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾^(٤) و ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِّرِّحِينَ﴾^(٥) و ﴿إِنَّهُ لِجُنُبٍ لَّهُ لَشَدِيدٌ﴾^(٦) و ﴿إِنَّ هُؤُلَاءِ لَشَرِذَمَةٌ قَلِيلُونَ﴾^(٧) .

فنون التوكيد تفيد مزيداً من التوكيد الذي يحتاجه السياق ويطلبه المعنى ؛ لأنها تفيد تثبيت المعنى وتقويته في ذهن المخاطب ، إذ لا تستخدم مع كل ضرب من ضروب التعبير ، وإنما يحسن استخدامها بل ويلزم حين يكون المخاطب منكراً وفي حاجة إلى تثبيت الخبر وتقويته له ، والمخاطبون هنا هم بنو عبد المطلب الذين لا يرون في نعمة ﷺ ما كان يراه جده عبد المطلب ، إذ لو كانوا يرون شيئاً من ذلك ما قاموا بمعاملته معاملة تنتهي بمنعه من دخوله لخلوة جده وفرشه ، فلزم عليه أن يسوق الكلام مؤكداً لهم كتأكيد نفسه مما كانت تحس به نفسه تجاه حفيده عليه السلام ، وهذا توفيق من الله لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، فإحساس جده هذا يضمن له مزيداً من الرعاية والعطف كأشد ما يحتاج إليه اليتيم ، فالكلام إذن يقتضي مزيداً من التوكيد لا تقوم به إلا لام التوكيد ، وشبيه ورودها في هذا الموضع بورودها في سياق القسم وكأن كلام جد الرسول عليه السلام قسم لم يقسمه لفظاً ، وإنما وقع في قلبه وفي معنى كلامه موقع المقسم به المتيقن من حدوثه ووقوعه ، وبناء عليه فالرواية الأجود بياناً هي رواية ابن سعد في الطبقات ووجه جودتها في استنباط شاكر قد لا يكون إلا في حاجة الخطاب لتوكيد يقرر المعنى ويقويه في ذهن المخاطب .

(١) سورة الحج ، الآية الكريمة رقم : ٥٩ .

(٢) سورة النحل ، الآية الكريمة رقم : ١٨ .

(٣) سورة هود ، الآية الكريمة رقم : ٦٢ .

(٤) سورة الصافات ، الآية الكريمة رقم (٥٢) .

(٥) سورة الصافات ، الآية الكريمة رقم (١٣٧) .

(٦) سورة القارعة ، الآية الكريمة رقم (٨) .

(٧) سورة الشعرا ، الآية الكريمة رقم : (٥٤) ، وينظر لنص المخليل الوارد فيه هذه الآيات الكريمة لكتاب إعراب القرآن

وبيانه ، لخبي الدين بن أحمد ط٤ ، عام ١٤١٥ هـ ، لدار اليمامة بدمشق ، ج ٧ ، ص ٤٦٣ .

ثانياً : الاستنباط الخفي :

ونقصد هنا بالاستنباط الخفي عكس الاستنباط السابق في المبحث السابق وهو الاستنباط من النصوص الظاهرة المعنى ، فالاستنباط الخفي هو الاستنباط من النصوص غير الظاهرة المعنى تماماً ، والاستنباط من هذه النصوص يتوقف على ضرورة أساسية لا يتم الاستنباط إلا بها ، وهي الفهم الدقيق للنص بفهم لغته ودلائلها والاستئناس بشرح أهل العلم ومعاجم اللغة كلما استغلق فهم نص ما ، فيلزم كل مرید للاستنباط من مثل هذه النصوص معرفة المعنى المعجمي الصحيح لمفرداتها وربطه بمعجازات اللغة وبلغة الشعر ، ولا بد من التسلیم عند ذلك بأن فهم اللغة من معاجم اللغة فقط والاكتفاء بها في تفسیر الشعر ربما يورط مستنبط معانی بعض النصوص في أخطاء قد تندل لطال النص بأكمله ، وهذا النوع الاستنباط في النصوص الأدبية يقابله عند علماء التفسير الاستنباط من الآيات غير ظاهرة المعنى ، والتي يشترط العلماء للاستنباط من مثل هذه الآيات الفهم الدقيق لها والرجوع للنقل والسماع لمعرفة مشكلتها ، واعتبروا كل مفسر لا يفعل شيئاً من ذلك في مثل هذه الآيات مفسراً بالرأي ، وفي ذلك يقول الإمام القرطي صاحب كتاب الجامع لأحكام القرآن بعد أن ذكر الوجه

الأول من وجوه فساد التفسير بالرأي :

"الوجه الثاني : أن يتسرّع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة ، وما فيه من الاختصار ، والحدف والإضمار ، والتقديم والتأخير ، فمن لم يُحْكِم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانی بمجرد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي .^(١)"

ومثل ذلك ينطبق على من يستظره من النصوص الأدبية ويستنبط منها معتمداً فقط على ظاهر اللغة العربية دون معرفته بأسرارها البينية ، ودون رجوعه لشرح أهل العلم ومعاجم اللغة وكتب التراث البلاغي والنقدی . وقد شغل هذا النوع كثيراً من مساحات الاستنباط عند محمود شاكر ، وكان يسير فيه على ذات منهج القرطي السابق في تفسير القرآن الكريم - والله ولكلامه المثل الأعلى - ، فقد جعل محمود شاكر منهجه في الاستنباط

(١) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان ، لحمد بن أحمد القرطي ، تحقيق عبد الله بن عبد

الحسن التركي ، وشارك في تحقيق الجزء الأول محمد رضوان عرقسوسي ، ط١، عام ٢٠٠٦ م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر

بيروت . ج١ ، ص ٥٩.

من النصوص منهجاً تذوقياً ، لا يعتمد فيه فقط على كتب أهل اللغة ، ولا يحصر نفسه أيضاً في معاجم اللغة التي جعل الاعتماد عليها فقط في تفسير كل الشعر دفنا للغة^(١) ، كما جعل القرطي التفسير بظاهر العربية فساداً وجناية على التفسير .

إن الأستاذ محمود شاكر رحمه الله يعتمد كثيراً في هذا النوع من الاستنباط على تذوقه للكلام وتقليله على كل وجه وربطه بمقامه ومقتضياته والسياق العام الذي جاء فيه ، ومن ثم الوصول إلى نتائج كانت في كثير من الأحوال محل ثقة الأستاذ واطمئنانه .

ومن الاستنباط من النصوص غير ظاهرة المعنى عند محمود شاكر والتي اعتمد فيها على فهمه الخاص وتأويله التذوقى قوله بعد قول الأغلب العجل^(٢) :

بِحَحْفَلٍ جَمُ الْوَعَى مِنْ وَأَيْلٍ	تَحْنُ وَرَدْنَا وَادِيَيْ مُجَلَّجَلٍ
فِي دَيْلِمٍ يَزْحَفُ بِالْفَنَّ سَابِلٍ ^(٣)	عِنْدَ الْخِتَافِ الْأَسْلِ النَّوَاهِلٍ
وَمِنْ بَيْ شَيْبَانَ عَيْرٌ حَامِلٍ	فِي جَدْمٍ ^(٤) عَجْلٍ ^(٥) فِي الْعَدِيدِ الدَّائِلٍ
تَحْتَ قَتَامِ الْعُبَرِ الْقَسَاطِلِ ^(٦)	وَالْحَيْلُ تَعْدُو بِالْوَشِيجِ ^(٧) الدَّابِلِ

(١) ينظر في ذلك لكتاب نمط صعب وغط مخفف لمحود شاكر ، ص ٢-١ .

(٢) "الأغلب" بن عمرو بن عبيدة بن حارثة، من بني عجل بن لجيم ، من ربيعة، شاعر راجز عمر ، أدرك الجاهلية والإسلام وتوجه مع سعد بن أبي وقاص غازيا فنزل الكوفة، واستشهد في واقعة نحاوند، وهو أول من أطال الرجز. قال الأmedi : هو أرجز الرجال وأرصلهم كلاما وأصحابهم معاني ، وقال البكري في شرح نوادر القالي: الأغلب العجلاني آخر من عمر في الجاهلية عمرا طويلا توفي ٢١ هـ ، ينظر الأعلام للزركي: ج ١ ، ص ٣٣٥ .

(٣) القنابل مفردها " القنبلة والقنبل": طائفة من الناس ومن الحيل، قيل: هم ما بين الثلاثين إلى الأربعين وتحمّه، وقيل: هم جماعة الناس، قبيلة من الحيل، وقبيلة من الناس طائفة منهم" لسان العرب لابن منظور ، ج ١١ ، ص ٥٧٠ .

(٤) "جدم القوم: أصلهم" ، العين للخليل بن أحمد ، ج ٦ ، ص ٩٧ .

(٥) عجل : هم قوم الشاعر كما هو موضح في نسبه في الحاشية أعلاه (٢) .

(٦) "فرس ذات": ذو ذات وذيل: طوبيله" تاج العروس ، ج ٢٩ ، ص ٢٢ .

(٧) الوشيج : " وشج: وشجت العروق والأغصان: اشتبتكت، وكل شيء يشتبت" لسان العرب ج ٢ ، ص ٣٩٨ .

(٨) القساطل : مفرده : قسطل:: العبار الساطع ، السابق : ج ١١ ، ص ٥٥٧ ، أفادت من شرح الأستاذ شاكر لهذه الأبيات كثيراً في الطبقات ، وقد أعادني بعد الله على البحث عن معانى الكلمات في المعاجم ، غفر الله له .

وَعَدَدِ الْكَالِدِبِرِ عَيْرِ جَافِلِ
فِي حَسِبِ بَخِ وَقِصِّ كَامِلِ

وقد علق محمود شاكر على البيت الأخير بقوله :

"الحسب : الشرف الثابت في الآباء وشرف الأفعال أيضاً ، وبخ ، سري^(١) نبيل ، يقول الراجز :

فِي حَسِبِ بَخِ وَعَيْرِ أَفْعَسِ^(٢)

وهذا مما أخلت كتب اللغة في بيانه ووجوه استعماله ، وأصله من قولهم في تعظيم الأمر وتفخيمه والفاخر به : "بخ بخ" ، والقبص : العدد الكثير المجتمع ، كامل : تام ، والدبر : بفتح الدال وكسرها ، النحل ، يزيد مثله في الكثرة والازدحام ، قوله : غير جافل ، غير متفرق ولا منتشر ولا متزعج^(٣).

فالأستاذ محمود شاكر استنبط من البيت الأخير معنى قوله حسب بخ بأنها الشرف الثابت المختار النبيل من شرف الآباء وشرف الأفعال ، وقد سوغ لنفسه ذلك بتبعية (بخ) اللغوية لقوله (حسب) ، وبخ عند أهل اللغة اسم فعل " وقد يتكرر فيقال بخ بخ ، الأول منون والثاني مسكن ، وفي حال استخدامها مفردة يجوز أن تكون ساكنة ويجوز أن تأتي مكسورة ، وبخ منونة مكسورة وبخ منونة مضمومة ، أما إذا كانت مكررة فيقال بخ بخ مسكنين ، ومكسورين مخففين ، ومنونين مكسورين مشددين ، وهي كلمة عند أهل اللغة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو الفخر وال مدح ، وقد تستعمل للإنكار، وتكون للرفق بالشيء ، وللمبالغة

(١) "الستري: المختار" ، لسان العرب ، ابن منظور ، ج ١٤ ، ص ٣٧٩.

(٢) ينسب البعض هذا إلى رؤبة بن العجاج ، ولم أجده في ديوانه ، ومن نسبه إليه جعله تمام لقوله :

وَجَدْنَا أَعَرَّ مِنْ تَنَفَّساً عِنْدَ الْحِفَاظِ حَسِبًا وَمُقْيَسًا

في حسب بخ عيْرِ أَفْعَسَا

ينظر لشرح أبيات سيبويه ، لأبي سعيد السيرافي ، تحقيق محمد علي الريح هاشم ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ ، راجعه طه عبد الرؤوف سعد ، ط ١ ، عام ١٩٧٤ م ، لدار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة ، وينظر لأساس البلاغة للزمخشري ، ج ١ ، ص ٤٧ ، وينظر لشمس العلوم ودواة كلام العرب من الكلوم ، لنشوان بن سعيد الحميري اليماني ، تحقيق : حسين بن عبد الله العمري ، مطهر بن علي الإرياني ، يوسف محمد عبد الله ، ط ١ ، عام ١٩٩٩ م ، لدار الفكر المعاصر بيروت ، ج ١ ، ص ٨٢ ، وينظر للطراز الأول والكتانز لما عليه من لغة العرب المعمول ، لابن معصوم المدیني ، تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ، ط ١ ، عام ١٤٢٨ هـ ، مؤسسة آل البيت بممشهد إيران ، ج ٥ ، ص ١٠١.

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سالم الجمحى ، المخاشية رقم (٢) ، ج ٢ ، ص ٧٤٤.

وتقىل أيضًا عند استعظام الشيء^(١).

وأقام الأستاذ شاكر لإخلال معاجم اللغة بوجوه استعمال (بخ) يتلخص في أنها لم تذكر أن من وجوه استعمال (بخ) في لغة العرب أن تكون بمعنى المختار النبيل ، والحق أن ما وقعت عليه من كتب معاجم اللغة - في حدود بحثي واطلاعي - لم تعد السري الشريف من وجوه استعمال بخ كما استنبطه محمود شاكر ، وقد وجدت بعضاً من أتى على هذا البيت واضطره الاستشهاد به يقول بأن (بخ) فيه على نحو يقترب مما رأاه الأستاذ شاكر أو يتطرق معه تطابقاً كلياً ، أما ما يقترب منه فيكاد يكون ما ذكره أبي سعيد السيراني في شرحه لشواهد سيبويه ، حيث ذكر هذه الأبيات مستشهدًا بها على تخفيف بخ :

وَجَدْنَا أَعَزَّ مَنْ تَنَفَّسَا عِنْدَ الْحِفَاظِ حَسَبَاً وَمُقِيسَا

فِي حَسَبٍ بَخٍ وَعِزٍّ أَقْعَسَا

ثم قال في شرحتها : " يمدح قومه ، والحفظ: المحافظة على الأسباب التي توجب الشرف وجميل الذكر ، والمقياس: مقاييسهم إلى غيرهم من الناس. يقول: إذا قايسنا مقاييس إلى غيرنا، كنا أعظم منه وأشرف ، والبخ: الذي يُعجب من عظمه وشرفه. والأensus: المنبع الثابت "^(٢).

وما يقرب من استنباط الأستاذ شاكر أيضاً ما ذكره صاحب أساس البلاغة ، حيث يقول :

" وأما قول العجاج:

فِي حَسَبٍ بَخٍ وَعِزٍّ أَقْعَسَا

فوصف بهذا الصوت مبالغة في كون حسيبه مدحًا معجبًا به، كما يقال: رجل أفة ملن يتائف به "^(٣)

(١) ينظر العين للخليل بن أحمد ، ج ٤ ، ص ١٤٦ ، وينظر للصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري ، ج ١ ، ص ٤١٨ ، وينظر لتاج العروس لمرتضى الربيدي ج ٧ ، ص ٢٢٩ ، وينظر للسان العرب لابن منظور ج ٣ ، ص ٦ .

(٢) شرح أبيات سيبويه ، لأبي سعيد السيراني ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٣) أساس البلاغة للزمخشري ، ج ١ ، ص ٤٧ .

أما ما يتطابق كلياً مع ماذهب إليه الأستاذ رحمه الله فهو ما ذكره ابن معصوم المدي في كتابه الطراز الأول والكتانز، حيث رأى أن بخ في قول هذا الراجز بمعنى السري الشرييف ، وهو الوجه الذي يرى محمود أن معاجم اللغة قد أخلت في جعله وجهاً من وجوه استعمال بخ ، يقول ابن معصوم وإن كان قوله هو نفسه قول الزمخشري صاحب الأساس إلا أن فيه زيادة تطابق ما استتبته محمود شاكر :

"وقول العجاج:

في حسبِ بخٍ وَ عِرْ أقسا

وصف بهذا الصوت مبالغة في كون حسنه مدحّاً معجباً به كما يقال: رجل أفة، ملن يتائف به، ومثله قوله: "رجل بخ، للسري الشرييف .." ^(١).

وغاية الأمر أن استتباط محمود شاكر في هذا الموضع من الاستنباط الخفي ؛ لأن معنى بخ الذي استتبطه لم يكن منصوصاً عليه فيما بين يديه من معاجم اللغة ، وقد تأول له معنى واستتبط هذا الاستنباط بناء على فهمه الدقيق للنص ، والحقّ أن معنى البيت لا يقوم على تمامه إلا على هذا التأويل أو نحو منه ، على أن معنى العجب والعظمة والمبالغة من المعاني التي تحبّكها لفظة بخ في لغة العرب ، وقد تؤول بناء على ذلك بأنها نعت لشيء يسبقها كالحسب ونحوه ، فإن قلت حسب بخ كما هو في بيت الراجز فقد لا تخطئ إن أردت تفسيره بأنه حسب عظيم وغاية في الرفعة ، وقد وجدت مصطلاحاً فقهياً ينسب الدرّاهم إلى بخ كلفظة ؛ تكون بعد إجراء النسب (الدرّاهم البخّيّة) ، "والدرّاهم البخّيّة بتشدید الحاء والياء نوع من أجود الدرّاهم منسوبة إلى بخ وقالوا هي التي كتب عليها بخ .." ^(٢) وما قيل في تسميتها هذا الاسم أنه "يقال لصاحبها: بخ بخ" ^(٣) ؛ فأكسيتها هذه النسبة جودة وأهمية عالية تسربت إليها عن طريق لفظة بخ بما تحمله من معانٍ

(١) الطراز الأول والكتانز لما عليه من لغة العرب المعمول ، لابن معصوم المدي ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .

(٢) طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية ، لأبي حفص نجم الدين النسفي ، طبعة بدون ، عام ١٣١١ هـ ، للمطبعة العامة ، مكتبة المثنى بيغداد ، ص ١٤١ .

(٣) الطراز الأول والكتانز لما عليه من لغة العرب المعمول ، لابن معصوم المدي ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .

العظم والشرف والبالغة في العجب .

وقد اشتمل كتاب المتنبي لمحمود شاكر على نفائس من استنباطاته الخفية من النصوص غير ظاهرة المعنى ، وهي استنباطات كان لها الفضل بعد الله في إطلاله محمود شاكر على الساحة الأدبية ، فقد بقي كتابه المتنبي مهيمناً على أقرانه من الكتب والمؤلفات التي قلبت موازين البحث العلمي في عصره العلمي الراهن ، وإذا كان حصول شاكر على جائزة الدولة التقديرية في مصر قد منحت له تقديراً لأعماله الأدبية كلها ، فإن جائزة الملك فيصل العالمية منحت له بسبب من كتاب المتنبي كما هو مثبت في شهادة هذه الجائزة^(١) ، وربما يتسع المجال لو أردنا القبض على استنباطات شاكر كلها في كتابه النفيس المتنبي ، ولكنه يمكن الاكتفاء في ذلك باستنباط بالغ الأهمية ، استوقف العديد من العلماء والأدباء في عصره ، كمصطفى صادق الرافعى ، وشكري عياد ، وفؤاد صروف ، وهو حب المتنبي للأميرة خولة الأخت الكبيرة لسيف الدولة الحمداني ، وقد خصص محمود شاكر لهذا الاستنباط بباباً كاملاً في كتابه المتنبي قال عنه الرافعى :

" وهذا الباب من غرائب هذا البحث ، فليس أحد من هذه الدنيا المكتوبة... يعلم هذا السر .. والأدلة التي جاء بها المؤلف تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي ، ومتى لم يستطع المرء نفياً ولا إثباتاً في خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره ، فهذا حسبيك إعجاباً يذكر ، وهذا حسبيه فوزاً يُعدّ.." (٢)

وقد تبدي لحمود شاكر حب المتنبي للأميرة خولة بعد فحصه الدقيق للنصوص التي قالها المتنبي في رثاء أخيه سيف الدولة الصغرى والكبيري التي هي خولة ، وأهم ما اعتمد عليه شاكر في استخلاص ذلك أنه وجد فرقاً كبيراً بين أدوات الرثاء وبماته وخصائصه الفنية وعاطفته عندما وزان بين مقامات الرثاء التي قالها المتنبي في الأميرتين ، كما اعتمد على استنطاق بعض الكلمات التي دفن فيها المتنبي عميق حبه لخولة من القصيدة التي رثاها بها حينما توفيت وبعد مغادرة المتنبي بلاط سيف الدولة وضرره في البلاد بين مصر وفارس ثم محاولة العودة إلى موطنها في الكوفة ، ولم يكتفى شاكر باستنباط حب المتنبي للأميرة خولة من الموازنة واستطاق النصوص

(١) نشر محمود شاكر شهادة براءة جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي في كتابه المتنبي ص : ١٩٥ .

(٢) وحي القلم للرافعي : ج ٣ ، ص ٣٤٩ .

فقط ، فقد جعل تجويد المتنبي في شعره الذي قاله في سيف الدولة ومدحه به بسبب من حبه لخولة ، حيث رأى شاكر أن وراء قلب المتنبي وهو يمدح سيف الدولة نفحة من نفحات المرأة التي تصنع للشاعر إبداعه ، وما نكتم له هنا تلك النصوص الخفية المعنى التي استتبط منها شاكر قصة هذا الحب الذي غالب على قلب المتنبي ، ومن ذلك بيتان اثنان اختارهما من قصيدة المتنبي في رثاء الأميرة خولة ، وهما قوله :

أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْنُعِيَتْ
فَكَيْفَ كَيْلُ فَتَّى الْفِتَنِ فِي حَلَبِ
يَظْنُ أَنَّ فُؤَادِي عَيْرُ مُنْسِكِبٍ
وَأَنَّ دَمْعَ جُفُونِي غَيْرُ مُنْسِكِبٍ^(١)

يقول محمود شاكر معلقاً على هذين البيتين :

" فليس يطول الليل على شاعر من أجل أخت أميره ، وإنما يطول عليه الليل من أجل حبيبته التي فاتها به الموت ، ثم زاد أبو الطيب في الدلالة بقوله : إن سيف الدولة يظن أن فؤاده غير ملتهب ، وأن دمعه غير منسكب ، وما لسيف الدولة لهذا ؟ أيحب سيف الدولة أن يتلهب قلبه وينسكب دمعه من أجل أخته ، أو يسوءه إذا لم يكن ذلك كذلك ؟ " ^(٢)

إذن فقد استتبط محمود شاكر من طول ليل المتنبي أنه يحب خولة أخت سيف الدولة ؛ لأن الليل يطول غالباً على المحبين ، وكأنه يرى أن ارتباط الليل بسياقات شعر الغزل بشكل صريح ، هو نفسه ارتباط ليل المتنبي الحب الذي طال بفواته من محبوته ، ولكن الفرق أن المتنبي لم يصرح بأنه ليل محب عاشق كغيره من الشعراء العاشق ، وإنما تأويل شاكر جعل من ليل المتنبي ليل عاشق يطول سكت عنه شاعره و صرح به الفهم والتأويل ، وقد رأى شاكر أن طول الليل يحتاج إلى مزيد من الدلالة على حب المتنبي لخولة ، فاستدعاي القلب الملتهب والدموع المنسكب الواردین في البيت التالي لليل ، فالقلب الملتهب والدموع المنسكب لا يتفقان إلا مع من يطاول ليله الحب ويسهده العشق ، ولو لم يربط القلب والدموع بتطاول الليل لما كان طول الليل دليلاً على العشق ، إذ قد يطول الليل من الهم والخوف وغيرها مما هو وارد في الشعر العربي ومن ذلك قول امرئ القيس في تطاول ليله

(١) ديوان المتنبي ، ص ٤٣٤ .

(٢) المتنبي لمحود شاكر ، ٣٤١-٣٤٢ .

بالمِّمْ :

وَلَيْلٌ كَمْوَجٌ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّ بِصُلْبِهِ
أَلَا أَئِهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي
فَبِا لَكَ مَنْ لَيْلٌ كَأَنَّ نُجُومَهُ
عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَسِلِي
وَأَزَدَ فَأَعْجَازًا وَنَاءٌ بِكُلِّكِلٍ
بِصُبْحٍ، وَمَا إِلَّا صِبَاحٌ مِنْكَ بِأَمْثَلٍ
بِكُلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبَلٍ^(١)

ومثله قول النابغة الذبياني:

كِلِينِي لِهِمْ يَا أُمِيمَةً تَاصِبِ
تَطاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْفَضٍ
وَصَدِرَ أَرَاحَ اللَّيْلَ عَازِبٌ هِمِ
وَلَيْلٌ أَفَاسِيْهُ بَطِئُ الْكَوَاكِبِ
وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعِي النُّجُومَ بِإِبِ
تَضَاعَفَ فِيهِ الْخَرْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ^(٢)

ومنه قول أبي طالب عم النبي ﷺ :

تَطاوَلَ لِي لِي بِهِمْ وَصِبْ
لِلْعِبِ فُصَيِّيْ بِأَحْلَامِهَا
وَدَمِعٌ كَسَيِّ السِّقَاءِ السَّرِبْ
وَهُلْ يَرِجُعُ الْحَلْمُ بَعْدَ الْعِبِ^(٣)

وقال معاوية بن أبي سفيان في تطاول الليل بالوساوس :

(١) ديوان امرئ القيس ، ص : ١١٧ .

(٢) ديوان النابغة الذبياني ، ص ٥٦ .

(٣) ديوان أبي طالب عم النبي ﷺ ، شرح وجمع محمد التونجي ، ص ١٧ ، ط ١ ، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتاب العربي . بيروت .

تطاولَ ليلي واعتربني وساوسي

لآتِ أَنِي بالترهاتِ البسأيسِ^(١)

أتانا جَرِيرُ ، والحوادثُ جَمَّةٌ

بتلكَ التي فيها اجتداعُ المعاطِسِ^(٢)

وقول أبي تمام عن ارتباط الليل بالسقم وإن كان السياق في النسبة :

وَمَّا ضَرَّمُ الْبَرْحَاءَ أَنِي

شَكُوتُ فَمَا شَكُوتُ إِلَى رَحِيمٍ

أَظْلَنَ الدَّمْعَ فِي حَدِي سَبَبَقَي

سَلِيمٌ أَوْ سَهِرٌ عَلَى سَلِيمِ^(٣)

وَأَيْلٌ بِثُ أَكْلَوَهُ كَائِنٌ

وقول أبي فراس الحمداني :

وَأَسْرُرُ أَقَاسِيهِ ، وَلَيلٌ جُوْمُهُ

أَرَى كُلَّ شَيْءٍ ، غَيْرُهُنَّ ، يَرُؤُلُ

تَطُولُ بِي السَّاعَاتُ وَهُنِي قَصِيرَةٌ

وَفِي كُلِّ دَهْرٍ لَا يَسْرُكَ طُولُ!^(٤)

وشواهد تطاول الليل لسبب العشق كثيرة في شعر العرب ، ولكن إحساس محمود شاكر النقدي

جعله يربط تطاول ليل المتنبي بالقلب الملتهب والدموع المنسكب ليؤكد أن ذلك يعود إلى حب المتنبي للأميرة

(١) "البس": الدَّسُّ. يقال: بَسَ فُلَانٌ لُفَلَانٌ مَنْ يَتَحَبَّرُ لَهُ حَبَرَهُ وَيَأْتِيهِ بِهِ أَيْ دَسَّ إِلَيْهِ. والبسَسة: السِّعَايَةُ بَيْنَ النَّاسِ.

والبسَبَسُ: شجر. والبسَبَسُ: لُعَنةُ في السَّبَبِ، وَرَعَمَ يَعْنُوبُ أَنَّهُ مِنَ الْمَقْلُوبِ. والبسَيْسُ: الكذب. والبسَبَسُ: الفُرُورُ.

والترهات البسأيس هي الباطل، ورمى قالوا ترهاة البسأيس " ، ينظر لسان العرب لابن منظور ج ٦، ص ٢٩ .

(٢) ديوان معاوية بين أبي سفيان جمعه وحققه وشرحه ، فاروق أسليم بن أحمد ط ١ ، عام ١٩٩٦ م ، لدار صادر

بيروت ، ص ٨٣ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي ، تقديم وفهرسة: راجي الأسمري ، ط ٢ ، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتاب العربي

بيروت ، ج ٢ ، ص : ٧٧ .

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني ، شرح خليل الدوبيهي ط ٢ ، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتاب العربي بيروت ، ص ٢٥٢ ،

. ٢٥٣

خولة ، والمالاحظ في استنباطات محمود شاكر المتعلقة بحب المتنبي للأميرة خولة أنها متسلسلة وعلى نسق بديع من الترتيب والاتساق ، ومن ذلك أنه بعد أن أتم الاستنباط من البيتين السابقين ، تخلٰى له أمر جديد من خلال البيتين نفسيهما ولكنه لم يصرح بشكل مباشر بما رأه في هذين البيتين مما تخلٰى له بعد تمام استنباطه حب خولة ، فانتقل من استنباطه حب المتنبي خولة إلى علم سيف الدولة بحب المتنبي لأخته ، وانصرافه إلى ذلك هو ما يتطلبه الأمر وما يقتضيه البحث وما يستدعيه تمام الاستنباط ، وبيان ذلك أن شاكر رأى أن البيتين فيهما توجد وتلوّع على موت خولة لا يديه إلا من شغف قلبه حبها ، وأن هذا الحب يتضح جلياً من أرهق فكره في البحث عما يكن بين كلمات هذه القصيدة خصيصاً من اللوعة والتفرج اللذين لا يليقان إلا بعاشق ، والقول بوضوح ذلك يورط شاكر في قضية لابد من طرقها مباشرة بعد هذا الاستنباط وبعد هذين البيتين تحديداً ، وهي قضية عِلمُ الأمير بـهذا الحب الذي كان لأخته الأميرة خولة من المتنبي ، فسؤال المتنبي لسيف الدولة بـ: أَتَنْزَنْ يَا سِيفَ الدُّولَةِ بَعْدَ تَلَهُبِ قَلْبِي وَانْسَكَابِ دَمْعِي عَلَى مَوْتِ خُولَةِ؟ كأنه سؤال مبني على إقرار السائل وعلمه بالمسؤول عنه ، وكأن الجواب عنه هو علم سيف الدولة البديهي والمبني على يقين المتنبي بأنه يعلم تلهب قلب المتنبي وانسكاب دمعه على موت خولة ذاتها ، وهي ذات القضية التي دلف إليها شاكر (عِلْمُ سِيفَ الدُّولَةِ) وانصرف به عن شاغله الأول واستنباطه الأهم (حب المتنبي خولة) ، فإن قال بعدم علم أمير الدولة بهذا الحب فسيكون القول بذلك مناسباً لتمزيق المتنبي وتعيمته على حبه في القصيدة وعدم تصريحه به ، ولكن سيفضي به إلى نفي شيء من وضوح لغة الحب في كلمات هذين البيتين والتي أقرها تأويله وادعواها استنباطه ، مما سيؤثر على استنباطه الأأم وقضيته الكبرى هنا وهي حب المتنبي خولة ، والقول بعلم أمير الدولة بهذا الحب يؤكّد هذا الحب ويقويه ، بل وينتقل بقضية حب المتنبي خولة من الفرض إلى الإثبات ومن الشك إلى اليقين ، فالمتلقى الذي لا يزال في حيرة من أمر هذا الحب ولا يزال قبوله له مترنحاً بين أخذه ورده ، لن يجد بدأً من التسليم بصحته إذا تقرر له أن سيف الدولة على علم بهذا الحب ، إذ إن الماجس الأكبر لدى المتلقى أن الذي يدعى شاكر أن المتنبي يحبها أميرة ، لها من جلالة القدر ورفعة المقام ما يسمو بها عن غزل شاعر بها وإن كان متنبياً ، ولا يقوض معنى ذلك في نفس المتلقى إلا القول بعلم سيف الدولة بهذا الحب ؛ لأنّه سيشرعن لغة الحب وسيجعلها لغة مباحة مستساغة تلامس أذن سيف الدولة فلا تؤرقه - لعلمه بهذا الحب - بما تؤرق به أي رجل عربي آخر قد يعلم أن شاعراً يتغزل في اخته ، ولكن لماذا يستخدم المتنبي

هذا الترميز والتعميمية ؟ ولماذا لم يصرح بهذا الحب في هذه القصيدة لاسيما وأنه أرسلها لسيف الدولة ولم ينشدتها بين يديه ؟ يرى شاكر للجواب عن ذلك افتراض أن علم سيف الدولة بهذا الحب كان سراً بينه وبين المتنبي لا يعلمه غيرهما ، وحين تسرّب علم هذا الحب مع سريته إلى الشاعر أبي فراس الحمداني تسبّب في وجود عداوة باغية بينه وبين المتنبي ، ولهذه السرية جاءت ألفاظ الحب في هذه القصيدة غير صريحة ، بل هي خبيثة بين كلمات النص دلالاتها وعاطفة أبي الطيب الجياشة تجاه خولة ، تراءى كل ذلك لشاكر وهو يستنبط من هذين البيتين حب المتنبي لخولة ، وحينما تخلّى ذلك له وفطن إليه ابترره ، وقام بعرضه وبطريقة مباشرة وبدون محاولة لربط ذلك بالبيتين السابقين بشكل مباشر ، مع أن هذين البيتين كشفاً لشاكر علم سيف الدولة بحب المتنبي لاخته ككشفهما له وجود ذلك الحب نفسه ، وفي ذلك يقول الأستاذ شاكر بعد تعليقه السابق على بيتي المتنبي (أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُدْ نُعِيَّثُ) :

"هذا ولا نشك نحن ومن خلال ما جمعناه عندنا من الدلائل في هذا الأمر ، المتعلق بحب أبي الطيب وخولة في أن سيف الدولة كان على علم بما كان بينهما من الحبة الغالية على أمرهما ، وإنه كان قد وعد أبي الطيب عدّة لم يف لها في أن يزوجه اخته هذه ، وكان ذلك سراً بينهما ، اتصل بعض خبره بأبي فراس الحمداني ، فكان سبباً في العداوة الباغية بين الرجلين ، ولو لا علم سيف الدولة بذلك لما استباح أبو الطيب لنفسه أن يكتب هذه القصيدة إلى سيف الدولة ، على كثرة الإشارات فيها إلى أمره وأمر خولة والحب الذي بينهما ."^(١)

وغاية الأمر أن حب المتنبي لخولة من عجائب استنباطات محمود شاكر وملكته التذوقية الخالصة ، فمن يقرأ قصيدة رثاء المتنبي لأخت سيف الدولة الصغرى ، ثم يوازن بينها وبين قصيدة رثاء اخته الكبرى الأميرة خولة ، يجد أن رثاء الصغرى لا يكاد يكون إلا في مواضع قليلة ومتباعدة في هذه القصيدة كما قاله الأستاذ رحمه الله ، وأن غالبية أبيات هذه القصيدة منصرفه إلى مدح سيف الدولة دون إظهار مزيد من التفجع والتلهم على فقد تلك الأخت ، بل ويزيد من ذلك أن المتنبي يطلب من سيف الدولة المفجوع أن يقيس موت اخته الصغرى ببقاء اختها الكبرى الأميرة خولة ، وإذا قام سيف الدولة بهذه المقايسة سرّى الهم عن نفسه وتسلّى عن حزنه على اخته ، يقول المتنبي :

(١) المتنبي لمحمد شاكر ص : ٣٤٢

فِإِذَا قِسْتَ مَا أَخْدَنَ إِمَّا غَادَ

وَتَيَقَّنْتَ أَنْ حَظَكَ أَوْفَى

رُنَّ سَرَّى عَنِ الْفُؤَادِ وَسَلَّى
وَتَبَيَّنَتْ أَنَّ جَدَّكَ أَعْلَى^(١)

وهذا كله مما أشار إليه الأستاذ محمود شاكر رحمه الله وما استنبط منه حب المتنبي لخولة أخت سيف الدولة ، وما يحسب لشاكر حينماقرأ المتنبي تسلله إلى عمق معانيه وضبط حركتها بلغة المتنبي وبمحيطه الذي مخصوص روایاته تمحیصاً دقيقاً على طریقة علماء الجرح والتعديل ، وجعل ما اطمأنت له نفسه من الروایات التي رویت عن شخصية المتنبي وصفاته وسيرته شواهد لما قرأه في شعره من خلال لغته ومواجهته المباشرة والجسورة للنص ، فليست ثمة دلالات يمكن أن تحيط بالنص وتسرير أغواره وتكشف ماهياته أكثر من دلالة لغته التي تكون منها ، وقد استطاع شاكر وبامتياز أن يكشف النقاب عن الوجه الخارجي لفکر المتنبي عن طريق لغته فيما طرقه من قضایا في كتابه ، كما استطاع أن يربط فکر المتنبي بوجهته النفسية غير متبع في ذلك كله عن لغة النص نفسها التي كانت ملهمه الأول بعد توفيق الله في كل ما توصل إليه ، وغاية الأمر أن شواهد الاستنباط من النصوص غير الظاهرة المعنى التي تعتمد على إعمال الذهن والتدبیر هي التي جعلت الأنظار تتوجه نحو شاكر كناقد وأديب ، وهي من أبرز العوامل التي كان لها الفضل بعد الله في احتلاله منزلة مرموقة بين جهابذة العلم في عصره ، فمما هو معلوم أن عصر شاكر من العصور التي بز فيها علماء فرضوا أسماءهم على الساحة الأدبية ؛ بما حباه الله به من علم ومعرفة وبما قدموه من قضایا وإضافات نفیسة للمكتبة العربية ، ولولا قدرة الله قبل قدرة الأستاذ شاكر الاستنباطية من مثل هذه النصوص لما كان لاسمہ ذکر بين أساطین العلم في عصره.

(١) دیوان المتنبي ، ص : ٤٠٦ .

المبحث الثالث : أدلة الاستنباط

إثبات الأدلة عملية فكرية يعتمد فيها المستنبط على ثقافته وقدرته العقلية لدعم استنباطه وتفويته وشد أركانه ، والغالب أن الاستنباط من النص الظاهر الجلي المعنى لا يحتاج إلى رفده بأدلة ، فوضوحاً وجلاء نصه وظهوره مغنية عن استفاد دليل يدعم هذا النوع من الاستنباط ، ولا يعني القول بذلك عدم وجود أدلة على المستنبط من النصوص الظاهرة المعنى ، فقد يوجد المستنبط حاجة في نفسه دليلاً على أمر استنبطه من نص ظاهر لا يحتاج معه إلى دليل ، أما الاستنباط من النصوص غير ظاهرة المعنى فهو الذي يحتاج إلى استدلال ومحاجة عقلية وأسلوبية تتجيش جديراً على ذهن المتلقي ليكون تعاضدها كفيلاً بإقناعه والاستيلاء على إقراره ، وكلما كان النص المستنبط منه أشد خفاء كلما كانت الحاجة إلى دليل أشد قوة وظهوراً لدعم الاستنباط من النص غير ظاهر المعنى ، ومن الطبيعي جداً أن تتنوع أدلة الاستنباط عند محمود شاكر تبعاً للاستنباطات ، فالاستنباطات من النصوص الظاهرة والخفية لا تأخذ رسماً واحداً في الاستدلال ، وكذلك الحال في الاستنباط العقلي الذي لا يعتمد على نصوص مطلقاً ، وكذلك الحال أيضاً في الاستنباطات التي تتمحور حول القضايا النقدية والأدبية والصراعات الفكرية ، فكل نوع من هذه الاستنباطات يحتاج إلى دليل مناسب يتلاءم مع طبيعته ومقتضاه ، فقد كان الاستدلال بالنص ملحاً في بعض الاستنباطات عند محمود شاكر لم يتم الاستنباط إلا به حيث لا يمكن للمتلقي قبوله إلا بالاعتماد عليه ، وفي موضع آخر يستخدم محمود الاستدلال بالعكس ؛ لأنه يراه مطلباً للنتيجة المستنبطة لا يتم الاستنباط إلا به ولا يقوم إلا عليه ، وقد يجتمع أحياناً للتمثيل ويراه مناسباً للدلالة به على بعض ما يستتبطه فهمه ، وقد يعتمد في بعض استنباطاته على الاستقراء بنوعيه التام والناقص حين يرى أن الاستنباط لا يمكن أن يتمخض إلا عن استقراء ، ذلك الاستقراء الذي جعله شاكر شرطاً في شطر تناول بحث ما في مادة علمية ، " فشطر المادة يتطلب قبل كل شيء جمعها من مظاها على وجه الاستيعاب المتسير ، ثم تصنيف هذا المجموع ، ثم تحخيص مفرداته تحليقاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزائها بدقة متافية ... " ^(١) ، وسنحاول في هذا المبحث استجلاء أهم أنواع الأدلة الاستنباطية عند محمود شاكر ، وربطها بالاستنباطات التي جاءت دليلاً عليها ، ومعرفة وجه دلالتها ، وكشف مدى ملاءمتها لأن تكون دليلاً أو لا تكون والله الموفق.

(١) أباطيل وأسمار محمود شاكر : ص ٢٤-٢٥ .

الأدلة النقلية :

يستدعي الاستنباط في بعض الموضع نقولاً تعد أصيلة في مجال الاستنباط يدعم بها المستتبط رأيه ويقويه ، كاستدلال أهل اللغة والبلاغيين بالقرآن الكريم باعتباره مرد الفصاحة ومرجعها الأول ، وكذلك الاستدلال بسنة نبيه ﷺ باعتبارها جامع الكلم التي يتنهى إليها البيان وتقف عندها حدود البلاغة والفصاحة ، وكذلك الاستدلال بفصيح كلام العرب شعره ، ومتى ما استطاع المستتبط في علوم العربية كلها رفد استنباطه بأدلة نصية من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفصيح كلام العرب شعر ونثره ، فقد وصل باستنباطه إلى الذري الرفيعة من القبول والأخذ ، فلا يملك أحد غالباً رد الاستنباط المعتمد فيه على دليل نصي من واحد من هذه الثلاثة ؛ لأن المستتبط استدل بدليل قطعي الثبوت لا يمكن رده ورد ما استتبط منه إلا إذا كان الدليل لا يتوافق وجهه مع الأمر المستتبط .

والأستاذ محمود شاكر واحد من العلماء الذين استدعوا الأدلة النصية لدعم استنباطهم وعند احتجاجهم ، فكان رحمه الله كثير الاستدلال بنصوص مختارة من كلام الله عز وجل وكلام نبيه ﷺ وفصيح كلام العرب شعره ونثره ، وقد أحوجه لذلك بعض من القضايا اللغوية والنقدية التي يتطلب الاستنباط منها أدلة يحتاج بها ويستند عليها ، ومن ذلك استدلاله بالقرآن الكريم على استنباط له أعقب قول ابن أخت تأبظ شرّاً :

حَتَّىٰ إِذَا انْجَابَ حَلُو

وَقْتُهُ هَجَرُوا ثُمَّ أَسْرَوْا لَيْلَهُمْ

يقول محمود شاكر :

"وبعد هذه السكتة اللطيفة في غنائه 'ابعث يرجع ثم أسرروا ليهم' ، والإسراء : سير الليل كله ، ولكنه ذكر الليل وأضافه إلى الفتية ليدل بذلك على استغراق الإسراء للليل كله بلا انقطاع ولا توقف ، ولি�طرح على (هجرروا) معنى استغراق الهجير كله سيراً ولم يعطف باللواو فيقول : (هجرروا وأسرروا ليهم) بل قال : ثم أسرروا ؛ لأن العطف باللواو يجعل الكلام كأنه إخبار عن أفعال كانت في زمن وانقضت ولا يراد بها غير الخبر ، أما (ثم) فهي بطبيعتها تحمل معنى الحركة والتتابع ، بلا نظر إلى الزمن المقيد ، كما تقول : صعد في الجبل ، ثم

وقف على قمته ، ثم نظر ، ثم رمى بنفسه فهو ، ومعنى الحركة والتتابع ظاهر كل الظهور فيما ذكره الله سبحانه وتعالى من أمر الوليد بن المغيرة المخزومي ^(١) ، لما تعرض لرسول الله ﷺ ثم سمع القرآن :

﴿ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَرَ ﴾١٨﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴾١٩﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴾٢٠﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾٢١﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَسَرَرَ ﴾٢٢﴿ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾٢٣﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ ﴾٢٤﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾٢٥﴾^(٢).

وهذا موضع يحتاج إلى فضل تأمل منك وتزداد ، أما ما يقوله النحاة في (ثم) من أنها حرف عاطف يقتضي الترتيب والتراخي والمهلة ، فهو نظر خاتمة يحتاج إلى بيان ليس من عملنا هنا أن نخوض فيه .. ^(٣) .

وهذا استدلال بالقرآن الكريم استدعاه محمود شاكر ليدعم استنباطه في ثم العاطفة ، فالأستاذ محمود يرى أن ثم العاطفة في البيت فيها معنى الحركة والتتابع بغض النظر عن الزمن المقيد في السياق ؛ ولذلك اختارها الشاعر عاطفة دون الواو لأن العطف بها يجعل الكلام كأنه أخبار عن أفعال ماضية كانت وانقضت ولا يراد بها غير الخبر دون أن تفيد شيئاً من التتابع الذي طرحته (ثم) ، وقد دعم استنباطه بالأيات الثمان الكريمة من سورة

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقطة بن مرة بن كعب بن فهري بن مالك بن النضر المخزومي القرشي ، ولد ٩٨ قبل الهجرة ، وتوفي في العام الأول من الهجرة النبوية المشرفة ، وهو أحد قادة قريش وسادتها ، ووالد الصحابيين خالد بن الوليد والوليد بن المغيرة ، من أغنى أغنياء قريش حيث ورد أنه بني ركن من أركان الكعبة الأربع عندما قامت قريش بتتميمها واشتركت باقي القبائل في بقية الأركان ، وورد كذلك أنه كان في موسم الحج وطول الأربعين ليلة يذبح للحجاج كل يوم عشرة من الإبل ، وكانت قريش تسميه الوحيدة أو وحيد مكة لأن قبائل قريش تكسو الكعبة عام وهو وحده عام ، ويقال أنه أول من حرم الخمر في الجاهلية ، وقد أدرك الوليد بن المغيرة بعثة الرسول ولم يسلم ، بل قال مستنكراً عدم نزول الدعوة عليه هو ، وهو كبير قريش "أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترب أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ، فتحن عظيما القربيتين" ، فأنزل الله فيه قوله جل شأنه : ﴿ وَقَالُوا أَلَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْفُرْقَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ سورة الزخرف ، الآية الكريمة رقم ١٣ .

(٢) سورة المدثر ، الآيات الكريمة من (١٨) إلى (٢٥) .

(٣) نمط صعب ونمط محيف لمحمود شاكر ، ص : ٢١٢

المدثر ، والتي يرى شاكر أن (ثم) قد أحدثت فيها تابعاً وحركة ، ولم يستدل الأستاذ بهذه الآيات المباركة من سورة المدثر إلا بعد أن تقرر له بأن معنى الحركة والتتابع ظاهر كل الظهور فيما ذكره الله سبحانه وتعالى من أمر الوليد بن المغيرة المخزومي لما تعرض لرسول الله ﷺ ثم سمع القرآن الكريم .

وهذا تقرير صريح من الأستاذ بما أضافته ثم في هذه الآيات الكريمة من الحركة والتتابع حينما استدعاه كدليل يعضد استبطنه ، والذي يبدو أن ما رأه شاكر في (ثم) في هذه الآيات قد تبدى له وهو يحس بالحركة التي أحدثتها (ثم) في قول الشاعر السابق (وَقُتُّوْ هَجَّرُوا ثُمَّ أَسْرَوْا) ، وحينما لم يكن منه ترقٍ مع الإحساس بالحركة والتتابع الذي أحدثتها (ثم) لم يقرر شيئاً من ذلك وسيأتي بيان ذلك في موضعه بعد قليل إن شاء الله تعالى .

والتحقيق في هذا الاستبطاط يستلزم مراجعة أقوال العلماء في ثم ، فعلماء النحو يجعلون لكل حرف من حروف العطف فائدة معنوية معنى تختص بكل واحد منها ، ومنها ثم وفائدها : " المهلة والتراخي تقول قَامَ زَيْدٌ ثُمَّ عَمِرُوا أَيْ بَيْنَهُمَا مَهْلَةٌ" ^(١) ، نحو قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ ^(٢)

وهذا غالباً استعمالها في اللغة العربية ، وليس معنى ذلك أنها لا تستخدم إلا للمهلة والتراخي ، فقد تستخدم لمطلق العطف ، دون قصد مباشر إلى المعنى المخصوص الذي رأه علماء النحو واللغة غالباً على ثم العاطفة ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ^(٣)

(١) اللمع في العربية ، لأبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : سميح أبو مغلي ، ص : ٧٠ ، ط بدون ، عام ١٩٨٨ ، لدار مجداوي بعمان .

(٢) سورة عبس ، الآية الكريمة رقم : ٢٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية الكريمة رقم : ١٩٩ .

فلو كانت ثم في هذه الآية الكريمة تفيد التراخي والمهلة لكان معنى الآية الكريمة أن يفيض الناس من مزدلفة ، يقول الشنقيطي صاحب أضواء البيان في سبب نزول هذه الآية الكريمة ^(١) :

"وبسب نزولها أن قريشاً كانوا يقفون يوم عرفة بالمزدلفة، ويقولون: نحن قطان بيت الله، ولا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم؛ لأن عرفات خارج عن الحرم وعامة الناس يقفون بعرفات، فأمر الله النبي ﷺ المسلمين، أن يفيضوا من حيث أفض الناس، وهو عرفات لا من المزدلفة كفعل قريش ، وهذا هو مذهب جماهير العلماء، وحكى ابن جرير عليه الإمام، وعليه فلفلة «ثم» للترتيب الذكري بمعنى عطف جملة على جملة، وترتيبها عليها في مطلق الذكر، ونظيره قوله تعالى:

﴿فَلْ رَقَبَةٌ ﴾١٣﴿أَوْ إِطْعَامٌ ﴾١٤﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَةٍ ﴾١٥﴿أَوْ مُقْرَبَةٌ دَّا مَتْرَبَةٌ ﴾١٦﴿كَمْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾١٧﴾ ^(٢)

وقد تفقد ثم معنى غير معنى التراخي والمهلة ، وهو معنى المشاركة الذي اعتبرت به حرف عطف ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ^(٣)

يقول الأسترابادي :

"فالإشراك بخالق السموات والأرض مستبعد غير مناسب وهذا المعنى فرع التراخي ومجازه" ^(٤)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد المختار الشنقيطي ، ط١ ، عام ١٩٩٥ م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت . ج ١ ، ص ٨٩.

(٢) سورة البلد ، الآيات الكريمة من : (١٧-١٣) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية الكريمة رقم : (١) .

(٤) شرح كافية ابن الحاجب ، محمد بن الحسن الإسترابادي ، تحقيق إميل يعقوب ط ١ ، عام ٢٠٠٦ م ، مؤسسة التاريخ العربي بيروت ، ص : ٣١٦ .

وقد تتجزء (ثم) من دلالة الزمان مطلقاً ، وطبقاً لذلك يتباين تأويلها بحسب السياق الذي وردت فيه ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾^(١)

يقول أبو حيان صاحب التفسير المحيط :

"ثم" كان من الذين آمنوا: هذا معطوف على قوله: فلا اقتصر ثم دخلت ثم لتراثي الإيمان والفضيلة، لا للتراثي في الزمان، لأنه لا بد أن يسبق تلك الأعمال الحسنة الإيمان، إذ هو شرط في صحة وقوعها من الطائع، أو يكون المعنى: ثم كان في عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان، إذ الموافاة عليه شرط في الانتفاع بالطاعات، أو يكون التراخي في الذكر كأنه قيل: ثم اذكر أنه كان من الذين آمنوا"^(٢)

ومن استخدام ثم للترتيب الذكري فقط في الشعر العربي باعتبار الأولى في الذكر بدون تراخ ولا ترتيب زمانى قول الحسن بن هانئ^(٣):

(١) سورة البلد الآية الكريمة رقم (١٧)

(٢) البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسى ، تحقيق عادل أحمد ، علي مغوض ، شارك في التحقيق ، زكريا النوي ، أحمد الجمل ، ط١ ، عام : ١٩٩٣ م ، دار الكتب العلمية بيروت ، ج ٨ ، ص ٤٧١ .

(٣) الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء ، المعروف بأبي نواس ، شاعر العراق في عصره، ولد في الأهواز من بلاد خوزستان في العام ١٤٦ هـ ونشأ بالبصرة ، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها، وعاد إلى بغداد فأقام بها إلى أن توفي فيها عام ١٩٨ هـ ، كان جده مولى للجراح بن عبد الله الحكمي، أمير خراسان فنسب إليه ، وفي تاريخ ابن عساكر أن أباه من أهل دمشق، وفي تاريخ بغداد أنه من طيء من بني سعد العشيرة ، هو أول من نجح للشعر طريقته الحضيرية وأخرجها من اللهجة البدوية، وقد نظم في جميع أنواع الشعر، وأجاد شعره خمرياته ، ينظر لترجمته في مقدمة ديوانه ، ص ٩ وما بعدها ، ط بدون ، عام بدون ، دار الكتاب العربي بيروت ، وينظر كذلك لتاريخ دمشق أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر ، تحقيق ، عمرو بن غرامه العمروي، ط٤ ، عام ١٩٩٥ م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بعمان ، ج ١٣ ، ص ٤٠٧ ، وينظر لوفيات الأعيان لابن خلkan ، ج ٢ ، ص ٩٥.

فُلَنْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبْوَهُ

ومثله قول الأقيشر الأسدی^(٢) أيضاً :

أَبَا ثُمَّ أَمَّا فَقَالُوا : لِمَةٌ

سَأَلَتْ رَبِيعَةَ مَنْ شَرِعَهَا

فالملصود في البيتين ترتيب الدرجات بالأولى دون التراخي والمهلة ؛ لأن سيادة النفس ثم سيادة الأب ثم سيادة الحد أولى في الترتيب وإن كانت في الزمان معكوسه في بيت أبي نواس ؛ ولأن "كون الشخص خيراً أمّا من

غیره لا يتأخر عن كونه خيراً أمّا من غیره "^(٤)

وعلماء التفسير لا يتعاملون دائمًا مع ثم على الصفة الغالبة لها المقتضية للتترتيب والمهلة والتراخي ، بل يجدونها أحياناً من كل ذلك أو شيء منه حين يقتضي التفسير ذلك التجريد ، فالزمخشري مثلاً صاحب الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل تجد له في تفسيره شيئاً من ذا وشيئاً من ذاك بحسب مقتضى التفسير ، ومن ذلك ما قاله في آيات سورة المدثر التي استدل بها شاكر على أن ثم أحدثت فيها حركة وتتابعاً ، حيث قال :

" ثُمَّ نَظَرَ عَطْفَهُ عَلَى فَكَرْ وَقَدَرَ الدُّعَاءِ : اعْتَرَاضٌ بَيْنَهُمَا . إِنْ قَلْتَ : مَا مَعْنَى ثُمَّ الدَّاخِلَةِ فِي تَكْرِيرِ الدُّعَاءِ ؟ قَلْتَ ، الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْكَرْتَةَ الثَّانِيَةَ أَبْلَغَ مِنَ الْأُولَى ... إِنْ قَلْتَ : مَا مَعْنَى الْمُتَوَسِّطَةِ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي بَعْدَهَا ؟ قَلْتَ ، الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَأْتَى فِي التَّأْمُلِ وَتَمَهُلِ ، وَكَأَنَّ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الْمُنَاسِقَةِ تَرَاجُّ وَتَبَاعُدٌ . إِنْ قَلْتَ : فَلَمْ قُيلْ فَقَالَ إِنْ هَذَا بِالْفَاءِ بَعْدَ عَطْفِهِ بِثُمَّ ؟ قَلْتَ : لَأْنَ الْكَلْمَةَ لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِهِ بَعْدَ التَّطْلُبِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ نُطِقَ بِهَا مِنْ غَيْرِ تَلْبِيثٍ ، إِنْ قَلْتَ : فَلَمْ يُوَسِّطْ حِرْفَ الْعَطْفِ بَيْنَ الْجَمْلَتَيْنِ ؟ قَلْتَ :

(١) ديوان أبي نواس ، ص ٤٩٣.

(٢) المغيرة بن عبد الله بن معرض، الأسدی، أبو معرض ، شاعر هجاء، عالي الطبقة من أهل بادية الكوفة، كان يتعدد إلى الحيرة. ولد في الجاهلية ونشأ في أول الإسلام وعاش وعمر طويلاً وكان (عشمانياً) من رجال عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وأدرك دولة عبد الملك بن مروان لقب بالأقيشر لأنه كان أحمر الوجه أفسر وكان يغضب إذا دُعِيَ به، قال المرزباني : هو أحد مجان الكوفة وشعرائهم، هجا عبد الملك ورثي مصعب بن الزبير، وقتل بظاهر الكوفة خنقًا بالدخان في العام الثمانين من الهجرة النبوية المشرفة ، ينظر لكامل ترجمته في مقدمة ديوانه ، صنعة : محمد علي دقة ، ط١ ، عام ١٩٩٧ م ، لدار صادر للطباعة والنشر بيروت ، ص ١٣ وما بعدها.

(٣) ديوان الأقيشر الأسدی ، ص ١١٥.

(٤) تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد ، محمد بن يوسف بن أحمد، حب الدين الحلبي المصري ، المعروف بناظر الجيش، تحقيق : علي محمد فاخر ، جابر محمد البراجة ، إبراهيم جمعة العجمي ، جابر السيد مبارك ، علي السنوسى محمد ، محمد راغب نزال ، ط١ ، عام ١٤٢٨ هـ ، لدار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة ، ج٧ ، ص ٣٤٤ .

لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكدة ^(١).

وقال الزمخشري أيضاً ^(٢) في قوله تعالى :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ ذُكْرِ بِآيَاتٍ رَّتِيهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمْتُ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقَرَاءٌ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبْدَأُوا﴾ ^(٣)

" ثم في قوله ثم أعرض عنها للابتعاد ، والمعنى : أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سوء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز ، ومنه ثم في بيت الحماسة :

يَرِيَ عَمَراتُ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا
لا يُكْشِفُ الْعَمَاءُ إِلَّا ابْنُ حُرَّةَ ^(٤)

هذا بعض من شأن العلماء مع ثم العاطفة ، وغاية ما يقال فيه أن العلماء لاحظوا خروج (ثم) عن نسق فائدتها المعنوية وإفادتها فوائد أخرى غير التراخي والمهلة بحسب ورودها في السياق ، ومعنى ذلك أن التتابع والحركة التي أحدهما ثم في نفس محمود شاكر قد تكون واحدة من دلالات المعاني السياقية التي تتجهها ثم حين تتركيب مع غيرها ؛ إذ إنها حرف لا يظهر معناه إلا مع غيره ، لاسيما وأن المشهد الحركي الذي أحسه

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري ، ج٤ ، ص ٦٥٠ .

(٢) السابق ، ج ٣ ، ص : ٥١٥ .

(٣) سورة الكهف ، الآية الكريمة رقم : (٥٧) .

(٤) البيت في ديوان الحماسة منسوب لجعفر بن علبة الحارثي ، ينظر شرح ديوان الحماسة للتبريزى ، ج ١ ، ص ٩ ، ولم أجد لجعفر بن علبة ترجمة إلا في مقالة علمية إلكترونية لباحث اسمه عباس بن هاني الجراح ، ذكر فيها أنه جعفر بن علبة بن ربعة ويكتفى بأبي عارم؛ وعارم ابن له قد ذكره في شعره ، وهو من مخضمي الدولتين الأممية والعباسية شاعر مقل عرل فارس مذكور في قومه ، وكان جعفر قد قتل رجلاً منبني عقيل قيل إنه قتله في شأن أمة كانا يزورانها فتغيراً عليها ، وقيل بل في غارة أغارها عليهم ، وقيل بل كان يحدث نساءهم فنهوه فلم ينته فرصلوه في طريقه إليهن ، فقاتلوه فقتل منهم رجالاً فاستعدوا عليه السلطان فأقاد منه ، وأخباره في هذه الجهات كلها تذكر وتتنسب إلى من روحاها ، والأصفهانى ذكر أنه كان يكتفى "أبا عارم" ، وعارض ابن له ذكره في شعره ، وكان لجعفر من الإخوة إثنان، هما : جعد ومارز ، وكان أبوه علبة شاعراً وأورد له أبو الفرج الأصفهانى أبياتاً في رثاء ابنه جعفر .

شاكر هو ما يجده القارئ في نفسه فعلياً حينما يقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة المدثر ، والتي تنتقل بالقارئ حركياً بين عبوس وجه الموصوف وتقطبيه وإدباره واستكباره ، وكأنك ترى كل ذلك في مشهد أمام ناظريك ، بل وتستطيع مع إحساس مثل إحساس الأستاذ شاكر أن تقبض على خلجان نفس الوليد بن المغيرة من بين كلمات الآيات المباركة ، وتنسلط على موجهاته الفكرية والشخصية من خلال تدقيقك النظر بالإحساس بمقاييس وجهه وكلام الله عز وجل يلقى عليه ، وعليه فاستنباط الأستاذ غاية في الفطنة والإحساس العجيب باللغة .

وقد سبق القول بأن ما رأه شاكر في (ثم) في هذه الآيات قد تبدى له وهو يحس بالحركة التي أحدثتها (ثم) في قول الشاعر السابق (وَفُتُّوْ هَجَرُوا ثُمَّ أَسْرَوْا) ، وحينما لم يكن منه ترق مع الإحساس بالحركة والتتابع الذي أحدثتها (ثم) لم يقرر شيئاً من ذلك ، وبناء عليه وحينما لم ينته إليه هذا الإحساس الشعري لم يتطرق لما أحدثته (ثم) من حركة وتتابع في الآيات التي استدل بها هنا مطلقاً في جامع البيان لابن جرير الطبرى ، حيث لم يورد الأستاذ في حواشى جامع البيان شيئاً من الحركة والتتابع التي أحدثتها ثم في آيات سورة المدثر ، على أنه أتم كتابه نمط صعب ونمط مخيف والذي سجل فيه هذا الاستنباط قبل أربعة أعوام من نشره جامع البيان بمعونة أخيه الشيخ أحمد شاكر رحمهما الله ، وعلى أن لغة الجزم والقطع التي تحدث بها الأستاذ عن الحركة والتتابع التي أضافتها (ثم) في الآيات حينما استدعاها كدليل ، كانت موهة لأن يتمسك بها في جامع البيان ولكنه لم يفعل ، فهل تراءى له أن يكتفي بما أورده في كتابه نمط مع أنه لم يلامس فيه الآيات تحليلاً وبساطاً كونها جاءت دليلاً ؟ أم وجد في نفسه شيئاً من ذلك ولم ير أن يخوض فيه في كتاب الله عز وجل كما رأى إلا يخوض في اعتبار النحاة لثمن بالتراخي والمهللة ؟ أم غلب عليه نسيان وطول أمد ؟

وقد يُظُنُّ أن مرد عزوف شاكر عن تسجيله إحساسه بما أحدثته ثم من حركة وتتابع في تفسير آيات المدثر ، أن ابن جرير الطبرى نفسه الذي يحقق شاكر متنه لم يُفِضِّ في ذلك في تفسيره لهذه الآيات ، وسيكون الإقرار بهذا الظن وقبوله غير متجانس مع طبيعة محمود شاكر العلمية ، التي لا تنفك عن الإيضاح والزيادة والقبول والنقض والاستدراك على علماء التراث كلما استدعي تذوقه الخاص شيئاً من ذلك ، لا سيما وأن اعترافات شاكر على ابن جرير في جامع البيان كافية وإضافاته العلمية في الحواشى وفيرة في كثير من الأمور التي زاد فيها

على ابن جرير أو عارضه أو استدرك عليه ، إذن فعدم استفاضة ابن جرير عن (ثم) في تفسير آيات المدثر ليست كافية في الاعتذار عن عزوف شاكر عن تسجيل استنباطه عن تتابع وحركة ثم في الآيات المباركة ، لاسيما وأن الحركة والتتابع التي أحدثتها ثم في الآيات أشد ظهوراً وجلاً فيها من البيت الشعري ، ففتية ابن أخت تأبط شرًّا كان منهم ما يكون من الركب في التهجير والإسراء والخلول .

أما الآيات الكريمة فكان فيها حركات متتابعة متراخية فيها تفكير ، وتقدير ، ونظر ، وعبوس وجه ، وب سور ، واستدبار ، واستكبار ، مختوم كل ذلك بقول اختصر نتائج كل هذه الحركات المتتابعة التي أفادتها ثم .

وكان الأولى أن يدون شاكر ذلك في حواشى تفسير ابن جرير لسورة المدثر كونها دليلاً يقاس ما فيه على غيره ويستأنس به ، وكذلك لم ينبع الأستاذ بحرف واحد عن ذلك في مواضع أفضى فيها ابن جرير الطبرى الحديث عن (ثم) العاطفة ، والتي تشبه (ثم) في آيات سورة المدثر من حيث عدم اشتتمالها على الفائدة المعنية التي ألزمها بها النحاة ، ومن هذه المواقع حديث ابن جرير عن ثم العاطفة الوارد في قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَرْنَاكُمْ ثُمَّ قُنْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِإِذْمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسٌ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(١)

يقول ابن جرير الطبرى في معنى الترتيب والتعاقب الذي ينتفي عن ثم في هذه الآية :

" أولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويله: (ولقد خلقناكم) ، ولقد خلقنا آدم = (ثم صورناكم) ، بتصويرنا آدم.... كما قد بينا فيما مضى من خطاب العرب الرجل بالأفعال تصيفها إليه، والمعنى في ذلك سلفه ... و"ثم" في كلام العرب لا تأتي إلا بإيزان انقطاع ما بعدها عما قبلها ، وذلك كقول القائل : "قمت ثم قعدت ولو كان العطف في ذلك بالواو، جاز أن يكون الذي بعدها قد كان قبل الذي قبلها، وذلك كقول القائل: قمت وقدت ؟ لأن الواو تدخل في الكلام إذا كانت عطفا، لوجب للذي بعدها من المعنى ما وجب للذى قبلها ، من غير دلالة منها بنفسها على أن ذلك كان في وقت واحد أو وقتين مختلفين "^(٢)

(١) سورة الأعراف ، الآية الكريمة رقم : (١١) .

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبرى ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ .

وعليه فالأقرب للصواب القول بأن الذي صرف شاكر عن تدوين ذلك في جامع البيان ما تمت الإشارة إليه سابقاً من أن الذي أيقض إحساسه بأثر الحركة والتتابع الذي أحدهته (ثم) انفعاله النبدي وترقي إحساسه لإحساس الشاعر في البيت الشعري الذي وردت فيه من تلك القصيدة .

وحيثما لم يكن شيئاً من ترقي الإحساس النبدي لم يتطرق شاكر لمزيد من التفصيل عن ثم في هذين الموضعين في جامع البيان ، وقد يكون من الصواب أيضاً القول بأن الحركة والتتابع الذي أحدهما أسلوب العطف في البيت الشعري أو الآيات الكريمة من سورة المدثر قد يلاحظ ويستجلّى من غير العطف بثم ، حيث من الممكن استشعار ذلك المشهد الحركي لو أن الأداة العاطفة هي الفاء أو الواو ، فثم كانت بمثابة الوصلة المتقطعة التي ربطت الأفعال الحركية فعلياً، فالأفعال الواردة في الآيات الكريمة (فَكَرَ ، قُتِلَ ، قَدَرَ ، نَظَرَ ، عَبَسَ ، بَسَرَ ، أَدْبَرَ ، وَاسْتَكْبَرَ) ظاهر فيها معنى الحركة بذاتها .

أما حرف العطف الذي يربط بين هذه الأفعال أيًّا كان دوره الرابط المنطقي بين هذه الأفعال ليكون المشهد الحركي بتتابع يرقى لأن يكون مشهداً يسترعى الانتباه ، فلو قلنا في غير القرآن الكريم :

(الوليد بن المغيرة سمع كلام الله عز وجل فكر فقدر فنظر فعبس فبس فأدبر واستكبر) .

(الوليد بن المغيرة حينما سمع كلام الله عز وجل فكر وقدر ونظر وعبس وبسر وأدبر واستكبر) .

فالمشهد الحركي واضح كل الوضوح في التركيبين بدون استخدام ثم العاطفة ، إذ إن الفاء والواو العاطفتين قد قاما بالربط فقط بن الأفعال التي كان لها الفضل في إبراز الحركة والتتابع فعلياً ، وعليه فإن القيمة الحقيقية التي ظهرت معها الحركة والتتابع هي قيمة العطف بذاته وليس حرف العطف (ثم) بذاته ، على أن الحرف ثم في الآية الكريمة قد وقع موقعاً غاية في البلاغة والبيان

فالتعبير القرآني الكريم بثم أكسب حركات الوليد بن المغيرة مهلة وترابطاً أفادت بأن الفعل (فكراً) كان تفكيراً عميقاً طال معه الوقت بحيث لا يصح أن يكون الفعل (نظر) بعده قد أتى بعد تفكير سريع عابر ، بل أتى بعد تفكير عميق وطويل ، فقد كان بين مارآه وبين ما فكر به ما يستحق أن يعبر عنه بثم العاطفة التي تفيد مهلة وترابطاً قد لا تفيده مثلها من أخواتها أدوات العطف ، ومثل ذلك يقال بين الأفعال (نظر وعبس) (بسراً

وأدبر) ، وقيمة التعبير بالتراخي والمهلة بين هذه الأفعال أن اهتم الوليد بن المغيرة محمد بن عبد الله بأنه ساحر وأن ماجاء به يفرق بين المرء وزوجه جاء بعد تفكير وترى وامعان في الكفر والإلحاد ، فاتحاته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك هو الذي ختم به القرآن الكريم هذا المشهد الحركي في آيات سورة المدثر ، والذي جعله المفسرون سبباً لنزول هذه الآيات المباركة ، ومنهم ابن جرير الطبراني حيث قال بعد قوله السابق : " وخبر ذلك أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقرأ عليه القرآن ، فكانه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فقال : أي عَم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا قال : لم ؟ قال : يعطونك فإنك أتيت مُهَمَّداً تتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريشاً أين أكثرها مالا قال : فقل فيه قولنا يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له ؛ قال : فما أقول فيه ، فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه مني ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله حلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، قال : والله لا يرضي قومك حتى يقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر فيه ؛ فلما فَكَرَ قال : هذا سحر يؤثره عن غيره . "

وعليه فإن اهتم الوليد بن المغيرة بالسحر قد سبقه حراك فكري متتابع وخطوات بينها من المهلة والتراخي مala تتسع له إلا ثم من بين أخواتها ، ولذلك جاءت الآيات بتكرار ثم فيها لإثبات ذلك التراخي والمهلة بين كل فعل وفعل ، كما أن التعبير بشم وحدها يحاكي الواقع الذي من أجله نزلت هذه الآيات المباركة ، فمن خلال سبب نزول الآيات المثبت أعلاه يتبيّن جلياً أن المهلة والتراخي بين الأفعال التي صورت حركات الوليد بن المغيرة المتتابعة واقعاً ، حيث لم تتعاقب هذه الأفعال بما تعقب به المصادفة بسط اليد في قولنا : بسطت يدي لزيد فصافحني ، بل تعاقبت وجاء بينها مهلة وتران ومتسع من الوقت ، الأمر الذي يؤكد لنا أن استنباط محمود شاكر قائم على حسن بصر وإحساس باللغة .

ومن أدلة الاستنباط عند محمود شاكر بالسنة النبوية المشرفة على صاحبها أفضل صلاة وأتم التسليم والشعر العربي معًا ، استنباطه الخاص بمعنى (النجاب) في نفس البيت السابق :

وَفُتُّوٌ هَجَرُوا ثُمَّ أَسْرَوَا
لَيْلَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا الْجَابَ حَلُّوا

فقد استدعي شاكر حديثاً عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم رواه البخاري في صحيحه ؛ وبيتاً شعرياً لدعم استنباطه وفهمه الخاص لمعنى كلمة النجاب الواردة في البيت ، حيث نفي أن يكون معنى النجاب

السحاب انكشف السماء وذهب السحاب حتى لا يرى منه شيء ، وبديلا عن ذلك يرى شاكر أن معنى "النجاب السحاب" أن يتضمن السحاب وتنتفق في رقامه جوبه مستديرة تكشف عن جزء من سماء صافية ملساء والسحاب محيط بها من آفاقها ونواحيها^(١)، واستدعي لدعم استنباطه حديث أنس بن مالك عليه في كتاب الاستسقاء في صحيح البخاري الذي روی بألفاظ مختلفة ، لأن هذه الروايات المختلفة في نظره تحدد معنى النجاب السحاب الذي يدعم استنباطه ، والحديث الذي استدل به خبره أن المطر تتبع في عهد رسول الله من الجمعة إلى الجمعة التي تليها في المدينة المنورة ، فتسببت كثرة المطر واستمراره في هلاك المواشي وخدمت من أثره بعضاً من البيوت ، فسأل أصحاب رسول الله عليه أن يدعوه ربه فقال عليه : (اللهم على رؤس الجبال والأكام وبطون الأودية ومنابت الشجر) ، وموطن الاستدلال هو قول أنس بعد دعاء النبي عليه : "فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت ، وصارت المدينة مثل الجوبة" ، وجاء في لفظ آخر: "فنظرت إلى المدينة وإنها لفي مثل الإكليل" ثم جاء الحديث نفسه بلفظ آخر أن السحابة الماطرة: "النجابت عن المدينة انجباب الثوب" . وهذا الحديث قد جاء في صحيح البخاري في مواضع متفرقة منها ثلاثة في كتاب الاستسقاء ، أو لها في باب (باب من أكتفى بصلوة الجمعة في الاستسقاء)، ونصه : "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال هلكت المواشي وتقطعت السبل ، فدعنا فمطربنا من الجمعة إلى الجمعة ثم جاء فقال تخدمت البيوت وتقطعت السبل وهلكت المواشي فادع الله يمسكها ، فقام صلى الله عليه وسلم فقال (اللهم على الأكام والظارب والأودية ومنابت الشجر) . فانجبت عن المدينة انجباب الثوب"^(٢) وثاني هذه المواضع في (باب الدعاء إذا انقطعت السبل من كثرة المطر) ، ونصه قريب من نص سابقه باختلاف ملحوظ في نص دعاء النبي عليه ، ونص الحديث : "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت المواشي وانقطعت السبل فادع الله . فدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمطربوا من الجمعة إلى الجمعة فجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله تخدمت البيوت وتقطعت السبل وهلكت المواشي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم على رؤوس الجبال والأكام وبطون الأودية ومنابت الشجر) ،

(١) نمط صعب ونمط مخفف لـ محمود شاكر ص : ٢١٣ .

(٢) الجامع الصحيح المختصر (صحيـح البخارـي) ، لأبي عبد الله محمد بن إسـماعـيل البخارـي ، تـحـقـيق : مـصـطفـى دـيب الـبغـاء ، طـ٣ ، عـام ١٩٨٧ مـ ، لـدار ابنـكـثـير ، الـيـمـامـة بـبـيـرـوت ، جـ١ ، صـ٣٤٥ .

فإنجابت عن المدينة أنجياب الثوب^(١) ، وثالثها في باب (إذا استشفعوا إلى الإمام ليستسقي لهم لم يردهم) وهو في النص كسابقيه مع اختلاف ملحوظ في نص دعاء النبي ﷺ ، ونص الحديث: " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت المواشي وتقطعت السبل فدع الله . فدعا الله فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله تخدمت البيوت وتقطعت السبل وهلكت المواشي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم على ظهور الجبال والأكام وبطون الأودية ومنابت الشجر) . فإنجابت عن المدينة أنجياب الثوب^(٢) ، ورابعها في (باب رفع اليدين في الخطبة) ، ونصه : " أصابت الناس سنة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم في بينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة قام أعرابي فقال يا رسول هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا ، فرفع يديه وما نرى في السماء قرعة فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابي أو قال غيره فقال يا رسول الله تخدم البناء وغرق المال فادع الله لنا ، فرفع يديه فقال (اللهم حوالينا ولا علينا) ، مما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة وسائل الوادي قناه شهرا ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود^(٣) ، وخامسها في باب علامات النبوة في الإسلام ، ونص الحديث : " أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال يا رسول الله هلكت الكراع هلكت الشاء فادع الله يسقينا . فمد يديه ودعا قال أنس وإن السماء مثل الزجاجة فهاجت ريح أنسأت سحابا ثم اجتمع ثم أرسلت السماء عزاليها فخرجننا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا فلم نزل نظر إلى الجمعة الأخرى فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال يا رسول الله تخدمت البيوت فادع الله يحبسه . فتبسم ثم قال (حوالينا ولا علينا) . فنظرت إلى السحاب تتصدع حول المدينة كأنه إكليل^(٤) ،

(١) صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٣٤٥ .

(٢) السابق : ج ١ ، ص ٣٤٥ .

(٣) السابق : ج ١ ، ص ٣٥٩ .

(٤) السابق : ج ٣ ، ص ١٣١٣ .

وسادسها في باب التبسم والضحك ، ونص الحديث : " أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو يخطب بالمدينة فقال قحط المطر فاستسق ربك ، فنظر إلى السماء وما نرى من سحاب فاستسقى فنشأ السحاب بعضه إلى بعض ثم مطروا حتى سالت مثاعب المدينة فما زالت إلى الجمعة المقبلة ما تقلع ثم قام ذلك الرجل أو غيره والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال غرقنا فادع ربك يحبسها عنا فضحك ثم قال (اللهم حوالينا ولا علينا) . مرتين أو ثلاثة فجعل السحاب يتتصد عن المدينة بينما وشالا يمطر ما حوالينا ولا يمطر منها شيء يريهم الله كرامة نبيه صلى الله عليه وسلم وإجابة دعوته^(١) ، وسابعا في باب الدعاء غير مستقبل القبلة ونص الحديث فيه : " بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فقام رجل فقال يا رسول الله ادع الله أن يسكننا . فتغييت السماء ومطرنا حتى ما كاد الرجل يصل إلى منزله فلم تزل تطر إلى الجمعة المقبلة فقام ذلك الرجل أو غيره فقال ادع الله أن يصرفه عنا فقد غرقنا ، فقال (اللهم حوالينا ولا علينا) ، فجعل السحاب يتقطع حول المدينة ولا يمطر أهل المدينة^(٢) .

أما أهل اللغة فيقولون أن الجوبة " الفُرْجَةُ في السَّحَابِ وَفِي الْجَبَلِ، وَانْجَابُ السَّحَابَةِ: انكشفت^(٣) ، ويرون أن الجوبة في حديث أنس بن مالك^{رضي الله عنه} السابق " الْحُقْرَةُ الْمُسْتَدِيرَةُ الْوَاسِعَةُ وَكُلُّ مُنْقَتِقٍ بِلَا بَنَاءً جَوْبَةً أَيْ حَتَّى صارَ الْعَيْمُ وَالسَّحَابُ مُحِيطًا بِأَفَاقِ الْمَدِينَةِ وَالْجَوَبَةُ : الفُرْجَةُ في السَّحَابِ وَفِي الْجَبَلِ^(٤) .

واستنبط محمود شاكر مبني على إثبات ونفي ، واستدلاله يقوم على الإثبات لا على النفي ، وبيان ذلك أن شاكر يرى أن ان bian السحاب معناه أن يتتصد السحاب وتنتفق في رقامه جوبة مستديرة تكشف عن جزء من سماء صافية ملساء والسحاب محيط بها من آفاقها ونواحيها ، وان bian في بيت ابن أخت تأبظ شرًا مشتق من هذا المعنى ، وهذا هو الشق المستنبط الذي يقوم على الإثبات والذي استدل له بحديث أنس بن مالك^{رضي الله عنه}

(١) السابق : ج ٥، ص ٢٢٦١.

(٢) السابق : ج ٥، ص ٢٣٣٥.

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ، ج ١ ، ص : ١٠٤ .

(٤) تاج العروس للزبيدي : ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

الذي رواه البخاري بآلفاظ مختلفة ، والحق أن تلك الروايات المختلفة تتعاضد جمِيعاً للكشف عن معنى الجوبة التي استبطنها شاكر واستدل لها ، فمعنى انكشاف الظلام وانقشعه لا يتلاءم مع سياق البيت ومراد الشاعر ، فالفتية الذين وصلوا التهجير بالإسراء سرعة منهم في طلب الثأر ، لا يتناسب مع سرعتهم أن يتظروا انخياب ظلام الليل وانكشافه ثم يخفوا إلى أعدائهم ، وعليه فإن انخياب في قوله (حَتَّىٰ إِذَا انجَابَ حَلُوا) لا يحمل معنى انكشاف الظلام وانقشعه لتعارضه مع سياق السرعة والتلهف لأخذ الثأر الذي يظهر في البيت ، ولكنه يحمل ما أراد له شاكر من أن انخياب الظلام الذي أراده الشاعر هو " ظهور صدع مفتوق في ركام الظلام قبل المشرق ، وهو الضوء الخافي المكافف من وراء الليل والظلام محيط به من نواحيه ، وذلك عند أول مطلع الفجر حيث لا تستبين شيئاً ولا تراه إلا تلمساً^(١) ، واستشهد شاكر أيضاً لوجود هذا الوقت في شعر العرب بوصف ذي الرمة^(٢) له في قوله :

وراء الدُّجى هادي أغَرَ جَوَادٍ^(٣)

إِلَى أَنْ يَشْقَى اللَّيْلَ وَرَدْ كَائِنٌ

وصواب الأمر كما استبطنه شاكر أنه هو ذات الوقت الذي يمكن أن تفسر به الكلمة (إنخياب) في بيت ابن أخت تأبظ شرًّا ، ولا يعوض القول بذلك فقط تناصه مع سياق السرعة والتلهف لطلب الثأر ، بل يعوضه

(١) نمط صعب ونمط محيف لمحمود شاكر ، ص ٢١٤ .

(٢) أبو الحارث غيلان بن عقبة بن بجيش بن مسعود بن العدوبي الربابي التميمي ، ولد عام ٧٧٧هـ ، وهو أحد عشاق العرب المشهورين ؛ إذ كان كثير التشبيب بمية، وهي مية بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقرية وقد كانت فاتنة الجمال ، وهو من شعراء العصر الأموي ومن فحول الطبقة الثانية في عصره ، ويقال إنه كان ينشد شعره في سوق الإبل ، فجاء الفرزدق فوقف عليه ، فقال له ذو الرمة: كيف ترى ما تسمع يا أبا فراس؟ فقال: ما أحسن ما تقول! قال: فما لي لا أذكر مع الفحول؟ قال: قصر بك عن غايتها بكاوئك في الدمن وصفتك للأبعار والعطاء، وقال أبو عمرو بن العلاء: ختم الشعر بذى الرمة والرجز برؤبة بن العجاج ، وقال أبو عمرو: قال جرير: لو خرس ذو الرمة بعد قوله قصيده التي أولاها : ما بال عينك منها الماء ينسكب -لكان أشعر الناس ، توفي عام ١١٧هـ وهو في سن الأربعين ، ينظر لترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ، ج ٥ ، ص ٢٦٧ .

(٣) ديوان ذي الرمة ، تقديم وشرح أحمد حسن بسج، ط١، عام ١٩٩٥م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ص ٧٠.

أمر آخر ، وهو أن العرب كانت تتخذ من الليل درعاً للغارة وال الحرب ، فنوم الليل لديهم لا يتفق مع ما تستدعيه العادة وال الحرب من التهيئة واليقظة والاستئثار بالليل للهجوم ، وذلك في مثل قول عمرو بن براقة^(١) :

وَكَيْفَ يَنْامُ الْلَّيْلَ مَنْ جُلُّ مَالِهِ
حُسَامٌ كَلَوْنَ الْمَلِحِ أَيْضُ صَارِمٌ

عَمُوضٌ إِذَا عَصَمَ الْكَرِيمَةَ لَمْ يَدْعِ
لُهُ طَمَعاً طَوْعَ الْيَمِينِ مُلَازِمٌ^(٢)

ومن ذلك أيضاً قول الشنفرى^(٣) :

وَلَيْلَةَ نَحْسٍ يَصْطَلِي الْقَوْسَ رَبِّهَا
دَعَسْتُ عَلَى عَطْشٍ وَبَعْشٍ وَصُخْبَتِي
سُعَارٌ وَإِرْزِيزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَلُ^(٤)

(١) عمرو بن الحارث بن عمرو بن منبه الممدانى ، ويعرف بعمرو بن براقة وهى أمه ، شاعر همدان قبيل الإسلام ، له أخبار في الجاهلية ، عاش إلى خلافة عمر بن الخطاب ، ووفد عليه ، قال الكلبى : أذن عمر للناس فدخل عمرو ابن براقة وكان شيخاً كبيراً يرجع ، توفي على أصح الأقوال عام ١١ هـ .

(٢) كتاب الوحشيات وهو الحماسة الصغرى لأبي تمام ، ص : ٣١ .

(٣) عمرو بن مالك الأزدي ، من قحطان ، شاعر جاهلي ، يمانى ، من فحول الطبقة الثانية وهو صاحب لامية العرب ، وهو أحد الخلاء الذين تبرأت منهم عشائرهم ، وكان من فتاك العرب وعدائهم ، وقيست قفزاته ليلة مقتله فكان الواحدة منها قريباً من عشرين خطوة ، وفي الأمثال (أعدى من الشنفرى) ، وكان الشنفرى سريع العدو لا تدركه الخيل حتى قيل : (أعدى من الشنفرى) ، وكان يغير على بنو سلامان ، وقد ظفر به أعداؤه وقتلوه قبل ٧٠ سنة من الهجرة النبوية على أصح الأقوال ، ينظر في ترجمته لمقدمة ديوانه ، جمع وتحقيق إميل يعقوب ، ص ٩ وما بعدها ، ط ٢ ، عام ١٩٩٦ م ، لدار الكتاب العربي بيروت .

(٤) العطش من (عَطْشَ اللَّيْلِ يَعْطِشُ، أَظْلَمْ) تاج العروس للزبيدي ، ج ١٧ ، ٢٩٢ ، البخش (البعنة: المطرة الضعيفة) ، السابق : ج ١٧ ، ص ٨٣ ، السعار : (الجُوعُ وَقَيْلُ: شِدَّتْهُ، وَقَيْلُ: هَبَّيْهُ) السابق : ج ١٢ ، ص ٣١ ، إرزيز : (الصَّوْتُ فِي الْبَطْنِ مِنَ الْقَرْقَةِ وَخَوْهَا ، أَوِ الْوَجْعُ يَجْدِهِ الرَّجُلُ فِي بَطْنِهِ) والمقصود صوت في البطن من شدة الجوع ، السابق ، ج ١٥ ، ص ١٥٤ ، الوجر : (لُحُوفُ) ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ ، الأفكل : (الْأَفْكَلُ، كَأَحْمَدَ: الرَّعْدَةُ تَعلُو الإِنْسَانَ، تَكُونُ مِنَ الْبَرْدِ وَاللُّحُوفِ) ، السابق : ج ٣٠ ، ص ١٨٨ .

فَأَيَّمْتُ نِسْوانًا وَأَيْتَمْتُ إِلَّا

وَأَصْبَحَ عَيْنِي بِالْعُمَيْصَاءِ جَالِسًا

وَهَذَا الْوَقْتُ الَّذِي هُوَ ظَهُورٌ صَدْعٌ مُفْتُوقٌ فِي رَكَامِ الظَّلَامِ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَذَلِكَ عِنْدَ أُولَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ مُوْطَنٌ
اسْتِبْطَاطٌ شَاكِرٌ لِمَعْنَى الْانْجِيَابِ فِي الْبَيْتِ ، هُوَ الْوَقْتُ الْمَنْصُوصُ عَلَيْهِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَرْسَلَهُ عَلَيْيَنِي بْنُ أَبِي
طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَعْقُلَ بْنِ قَيْسِ الرِّيَاحِي ^(٢) ، حِيثُ حَثَهُ عَلَى السَّيْرِ لِلْحَرْبِ فِي هَذَا الْوَقْتِ تَحْدِيدًا ، وَذَلِكَ فِي
قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

" لَا تَسْرُ أَوْلَى اللَّيلِ إِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكَنًا ، وَقَدْرَهُ مَقَامًا لَا ظَعْنًا ، فَأَرْحَ فِيهِ بَدْنَكَ ، وَرَقْ ظَهْرَكَ ، فَإِذَا وَقَتَتْ
حِينَ يَنْبَطِحُ أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ فَسَرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ " ^(٣)

هَذَا مَا يَخْتَصُ بِالْاسْتِبْطَاطِ الْقَائِمِ عَلَى الإِثْبَاتِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عِنْدَ الأَسْتَاذِ شَاكِرَ ، أَمَّا الْاسْتِبْطَاطُ الْقَائِمُ عَلَى
الْفَيِّ فَالْمَقْصُودُ بِهِ نَفْيُهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَنْ يَكُونَ لِلْانْجِيَابِ مَعْنَى التَّكْشِفِ وَالْانْقِشَاعِ ، فَبَعْدَ أَنْ قَرَرَ فِي
اسْتِبْطَاطِهِ السَّابِقِ مَعْنَى الْانْجِيَابِ الَّذِي يَتَلَاءَمُ مَعَ سِيَاقِ الْبَيْتِ وَمَعَ دَلَالَتِهِ ، قَالَ الأَسْتَاذُ :

" وَحِيثُ وَرَدَ لِفْظُ الْانْجِيَابِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، فَهُوَ حَامِلُ جَمِيعِ هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَا تَكَادُ تَجِدُهُ بَعْنَى مُطْلَقِ

(١) دِيَوَانُ الشِّنَفِرِيِّ ، ص : ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) مَعْقُلُ بْنُ قَيْسٍ (أَوْ عَبْدِ قَيْسٍ) الرِّيَاحِيُّ ، مِنْ بَنِي يَرْبُوعٍ: قَائِدٌ، مِنْ الشَّجَاعَانِ الْأَجْوَادَ، أَدْرَكَ عَصْرَ النَّبِيَّةِ، وَأَوْفَدَهُ عَمَارَ
بْنَ يَاسِرَ عَلَى عَمْرٍ، بِشِيرًا بِفَتْحِ تَسْتَرٍ ، وَوَجْهُهُ عَلَى بَنِي نَاجِيَةٍ حِينَ ارْتَدُوا ، ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرَاءِ الصَّفَوْفِ يَوْمَ الْجَمْلِ، وَوَلِيَ
شَرْطَةَ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ كَانَ مَعَ الْمَعِيرَةِ بْنَ شَعْبَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْكُوفَةِ ، فَلَمَّا خَرَجَ الْمُسْتُورِدُ بْنُ عَلْفَةَ جَهَزَ الْمَعِيرَةَ مَعْقُلاً فِي
ثَلَاثَةِ آلَافِ وَسِيرَهُ لِقَتَالِهِ ، فَنَشَبَتْ بَيْنَهُمَا مَعرِكَةٌ عَلَى شَاطِئِ دَجْلَةِ، فَبَتَارِزاً ؛ فَقَتَلَا مَعًا ، وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةَ اثْتَنِينَ وَأَرْبَعينَ فِي
خَلَافَةِ مَعَاوِيَةَ ذَكْرُهُ الطَّبَرِيُّ وَأَرْخَهُ أَبُو عَبِيْدَةَ سَنَةَ تَسْعَ وَثَلَاثَيْنَ فِي خَلَافَةِ عَلِيٍّ وَفِيهِ قَالَ جَرِيرٌ:

وَمَنْ فَتَى الْفَتَيَانَ وَالْجَوْدَ مَعْقُلَ
يَنْظَرُ لِتَرْجِمَتِهِ فِي الْأَعْلَامِ لِلزَّرْكَلِيِّ ، ج ٧ ، ص ٢٧١ .
(٣) شَرْحُ نَجْمِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ ، ج ١٥ ، ص ٩٢ .

التكشف والانقشاع ^(١) .

والحق أن هناك شواهد من كلام العرب تدل على أن (إنجاب) تأتي بمعنى التكشف والانقشاع ، متوافقة مع

ما نصت عليه العديد من معاجم اللغة في ذلك ^(٢) ، ومن واضح ذلك وجليه قول أم الضحاك الخاربية ^(٣) :

مَ أَنْتِهِ حَتَّىٰ وَقَفْتُ بِعَيَّةً
أَحَا غَيَّةً عَنْهَا انْتَهَىٰ كَانْتَهَا إِيَّاهَا ^(٤)

فإنجذاب الغطاء انكشفه عن المغطى به ، ومن ذلك أيضا ما ذكره صاحب التهذيب في بيت للعجاج ابن

رؤبة :

" وجَبُ اللَّيلُ: الصُّبْحُ قَالَ العَجَاجُ:

حَتَّىٰ إِذَا ضَوَءَ الْقَمِيصِ جَوَّبَ
جَوَّبَ: نَوَرَ، وَكَشَفَ، وَجَلَّ ^(٥)

والمقصود : حتى إذا كشف ضوء الصبح غيَّب الليل وقشعه وجلاه بنوره .

ومن ذلك أيضاً ما رواه الجاحظ في البيان والتبيين في وصف الخمر وشربها في الليل كله حتى ينجب صباحاً :

(١) نَطْ صَعْبٌ وَنَطْ مَخِيفٌ ، لِحَمْدُ شَاكِرٍ : ص ٢١٤ .

(٢) ينظر لتهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن الأزهري الهمروي ، تحقيق: محمد عوض مرعب ، ج ١١ ، ص ١٤٩ ، ط ١ ، عام ٢٠٠١ م ، لدار إحياء التراث العربي بيروت ، وينظر للصلاح تاج اللغة وصلاح العربية للجوهري ، ج ١ ، ص ١٠٤ ، وينظر للسان العرب لابن منظور : ج ١ ، ص ٢٧٨ ، وينظر لتاج العروس لمرتضى الزبيدي : ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٣) أم الضحاك الخاربية شاعرة جاهلية من شاعرات الغزل ، تزوجت رجلاً من الضباب يدعى عطية، وأحبته جداً، وما لبث أن طلقها فعاشت أمداً تندى حبه ، إلى أن سلاماً طول الفراق ، ينظر لشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، جمعه ورتبه ووقف على طبعه: بشير يمومت ، ص ٦٤ ، ط ١ ، عام ١٩٣٤ م ، للمكتبة الأهلية بيروت .

(٤) الأبيات منسوبة إلى أم الضحاك الخاربية في كتاب بلاغات النساء لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور ، صصحه وشرحه: أحمد الألفي ، ط ١ ، عام ١٩٠٨ م ، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول بالقاهرة ، ص ٢٠٢ ، ولم أجدها نسبة في غيره في حدود بحثي واطلاعني .

(٥) لم أجدها في ديوان رؤبة بن العجاج .

(٦) تهذيب اللغة ، لأبي منصور الهمروي : ج ١١ ، ص ١٤٩ .

رَهِينَةٌ عَامٌ فِي الدِّنَانِ^(١) وَعَامٌ

مِنَ الْلَّيلِ حَتَّى الْجَابَ كُلُّ ظَلَامٍ

مِنَ الْعَيْنِ حَكَيْ أَحْمَدَ بْنَ هِشَام^(٢)

وَصَافِيَةٌ تُعْشِي الْعَيْنَ رَقِيقَةٌ

أَدْرَنَا إِلَيْهَا الْكَأسَ الرَّوِيَّةَ بَيْنَنَا

فَمَا ذَرَ قَرْنَ الشَّمْسِ حَتَّى كَانَنَا

وَمِنَ الْجَلِيِّ الْبَيْنِ فِي ذَلِكَ أَيْضًا مَا رَوَاهُ الْجَاحِظُ فِي كِتَابِهِ الْحَيَاةِ :

ثُوبَ الْعَزِيمَةِ حَتَّى الْجَابَ وَانْكَشَفَا

كَانَتْ أُمُورُ فَجَابَتْ عَنْ حُلُومِكُمْ^(٣)

عَنِيْ وَأَعْلَمُ أَيِّيْ آكِلُ الْكَتِيفَا^(٤)

إِلَيْ لَأَعْلَمُ ظَهَرَ الْضَّعْنَ أَغْزِلُهُ

وَعَلَى مَعْنَى الْكَشْفِ وَالْجَلَاءِ وَظَفِ الْبَحْتَرِي^(٥) لِفَظَةِ الْجَابِ فِي قَوْلِهِ :

(١) الدَّنَانُ وَاحِدَهُ : (الَّدَنُ) "وَهُوَ وَعَاءُ ضَخْمٍ لِلْخَمْرِ وَخَوْهَا" ، المَعْجمُ الْوَسِيطُ ، ج١ ، ص٢٩٩ .

(٢) الْأَيَّاتُ بَدْوَنُ نَسْبَةٍ فِي الْبَيَانِ وَالْتَّبَيِّنِ ، وَنَسْبَهَا الْمِيرَدُ لِإِسْحَاقَ الْمُوصَلِيِّ فِي كِتَابِهِ الْكَاملُ فِي الْلُّغَةِ وَالْأَدَبِ ، تَحْقِيقُ مُحَمَّدِ أَبْوِ الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمَ ، ج٣ ، ص٤٠ ، ط٣ ، عَام١٩٩٧م ، لَدَارِ الْفَكْرِ الْعَرَبِيِّ بَيْرُوتُ ، وَكَذَلِكَ نَسْبَهَا إِلَيْهِ أَبْوِ مُنْصُورِ الْشَّعَالِيِّ ، فِي كِتَابِهِ خَاصِّ الْخَاصِّ ، شَرْحٌ وَتَعْلِيْقٌ مَأْمُونٌ بْنُ مُحَمَّدِ الدِّينِ الْجَنَانِ ، لَدَارِ الْكِتَابِ الْعَلْمِيِّ بَيْرُوتُ ، ص١١٣ ، ط١ ، عَام١٩٩٤م ، وَكَذَلِكَ نَسْبَهُمَا لِإِسْحَاقَ الْمُوصَلِيِّ أَبْوِ الْمَعَالِيِّ الْبَغْدَادِيِّ ، فِي كِتَابِهِ التَّذَكْرَةِ الْحَمْدُونِيَّةِ ، ط١ ، عَام١٤١٧هـ ، لَدَارِ صَادِرِ بَيْرُوتُ ، ج٦ ، ص٣٦٦ .

(٣) يَوْجُدُ رَوَايَةً أُخْرَى لِلشَّطَرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَيْتِ فِيهَا حُكْمُتُكُمْ بَدْلًا مِنْ حُلُومِكُمْ لِيَكُونَ الشَّطَرُ :

كَانَتْ أُمُورُ فَجَابَتْ عَنْ حُكْمُتِكُمْ

وَهِيَ أَجْوَدُ مِنْ هَذِهِ الرَّوَايَةِ ، لَأَنَّهَا تَأْخُذُ بِعَنْقِ مَطْلَعِ الْقَصِيدَةِ :

لَا يَعْرِفُ النَّصْفَ بَلْ قَدْ جَاءَرَ النَّصَافَا

أَبْلَغُ قُرَادًا لَقَدْ حَكَمْتُمْ رَجَالًا

فَحُكْمُتُكُمْ فِي الْبَيْتِ الشَّاهِدِ نَتْيَاجَةً عَنِ التَّحْكِيمِ الْوَارِدِ فِي مَطْلَعِ الْقَصِيدَةِ وَالَّذِي عَلَيْهِ تَدُورُ الْأَيَّاتُ ، وَلَأَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ الرَّوَايَةُ أَجْوَدُ وَأَلْيَقُ بِالْمَعْنَى مِنْ رَوَايَةِ الْجَاحِظِ ، وَهِيَ مَثَبَّتَةٌ فِي الدَّرِّ الْفَرِيدِ وَبَيْتِ الْقَصِيدَةِ ، لَمَحْمَدِ بْنِ أَيْدِمِرِ الْمُسْتَعْصِمِيِّ ، تَحْقِيقُ كَامِلِ سَلْمَانِ الْجَبُورِيِّ ، ط١ ، عَام٢٠١٥م ، لَدَارِ الْكِتَابِ الْعَلْمِيِّ بَيْرُوتُ ، ج٩ ، ص٣٤٤ .

(٤) نَسْبِ الْجَاحِظِ الْأَيَّاتُ الَّتِي مِنْهَا هَذِينِ الْبَيْتَيْنِ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَبْسٍ لَمْ يَفْصُحْ عَنْ اسْمِهِ ، يَنْظُرُ : الْحَيَاةُ لِلْجَاحِظِ ، ج٣ ، ص٨٨ ، وَنَسْبَهَا الْمُسْتَعْصِمِيِّ ، إِلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ قَيْسٍ لَمْ يَفْصُحْ عَنْ اسْمِهِ أَيْضًا ، يَنْظُرُ الدَّرِّ الْفَرِيدِ وَبَيْتِ الْقَصِيدَةِ ، لَمَحْمَدِ بْنِ أَيْدِمِرِ الْمُسْتَعْصِمِيِّ ج٩ ، ص٣٤٤ ، وَلَمْ أَجِدْ فِي غَيْرِهِمَا نَسْبَةً لِشَاعِرٍ بَعِينِهِ فِي حَدُودِ بَحْثِيِّ وَاطْلَاعِيِّ .

(٥) أَبُو عَبَادَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبِيدِ بْنِ يَحْيَى التَّنْوِخِيِّ الطَّائِيِّ ، أَحَدُ أَشْهَرِ الشَّعَارَاءِ الْعَرَبِ فِي الْعَصَرِ الْعَبَاسِيِّ ، وَلَدَ فِي مَنْجِ إِلَى الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ مِنْ حَلَبَ فِي سُورِيَا . عَام٦٢٠هـ ، قَالَ لِشَعْرِهِ سَلاسلَ الْذَّهَبِ ، وَهُوَ أَحَدُ الْمُتَلِّثِةِ الَّذِينَ كَانُوا أَشْعَرُ أَبْنَاءِ عَصَرِهِمْ ، الْمَتَنِيُّ وَأَبُو تَمَامِ الْبَحْتَرِيِّ ، قِيلَ لِأَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ : أَيِّ الْمُتَلِّثَةِ أَشْعَرُ؟ فَقَالَ : الْمَتَنِيُّ وَأَبُو تَمَامِ حَكِيمَانِ وَإِنَّمَا الشَّاعِرَ الْبَحْتَرِيَّ ، وَقَدْ اجْتَمَعَ بِأَبِي تَمَامِ الطَّائِيِّ ، وَأَرَاهُ شَعْرَهُ ، فَأَعْجَبَ بِهِ ، وَقَالَ : أَنْتَ أَمِيرُ الشِّعْرِ بَعْدِيِّ ، تَوْفَى عَام٤٨٤هـ ، يَنْظُرُ لِتَرْجِمَتِهِ فِي سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ لِلْذَّهَبِيِّ ، ج١٣ ، ص٤٨٦ .

صَافِي الْأَدِيمْ كَانَ عُرَّةً وَجْهَهُ

يَجْرِي إِذَا جَرَتِ الْجِيَادُ عَلَى الْوَنِ

فَأَقْرَبُ الصَّبَاحِ الْجَابَ عَنْهُ دُجَاهٌ

فَيُبَدِّلُ أَوْلَى جَرْبَهَا أُخْرَاهُ^(١)

وال Shawāhid في استخدام الجواب بمعنى التكشـف والنقاشـاع كثـيرـة ، وغاـية الأمر أن الاستدلال بالنص عند مـحـمـود شـاـكـر يـمـثل شـقاـكـيراـ من أدـلـتهـ التي اـحـتـجـ بها لـاستـنبـاطـاتهـ ، مـعـتمـداـ فيـ كـثـيرـ منـ استـنبـاطـاتهـ عـلـىـ فـصـيـحـ الـكـلامـ الذيـ يـجـتـحـ بهـ ، فـاستـدـعـيـ لـذـلـكـ شـيـئـاـ منـ كـتـابـ اللهـ وـمـنـ سـنـةـ نـبـيـهـ ﷺـ وـآـثـارـ الصـحـابـةـ وـالـشـعـرـ الفـصـيـحـ ، وـيـلـاحـظـ عـلـىـ الأـسـتـاذـ شـاـكـرـ وـهـوـ يـسـتـدـعـيـ هـذـهـ الأـدـلـةـ مـحاـولـاتـ حـثـيـثـةـ لـتـوجـيهـ الـاستـدـلـالـ بـهـ إـنـ لـمـ تـنـصـ نـصـاـ مـبـاـشـراـ عـلـىـ اـسـتـنبـاطـهـ ، فـيـجـعـلـ تـذـوقـهـ لـهـ وـفـهـمـهـ الـخـاصـ بـهـ مـوـجـهـاـ لـهـ لـأـنـ تـكـوـنـ دـلـيـلاـ يـسـتـأـنـسـ بـهـ وـيـرـدـ اـسـتـنبـاطـهـ إـلـيـهـ ، وـهـوـ عـنـدـمـاـ يـقـومـ بـذـلـكـ تـحـديـداـ فـإـنـهـ يـقـومـ بـعـمـلـيـةـ فـكـرـيـةـ تـضـمـنـ وـضـعـ الـحـقـائـقـ الـأـدـيـةـ أوـ الـلـغـوـيـةـ أوـ الـمـعـلـومـاتـ بـشـكـلـ عـامـ بـطـرـيـقـةـ مـنـظـمـةـ ، يـغـلـفـهـاـ بـأـسـلـوبـ أـخـاذـ وـقـلـمـ سـيـالـ وـتـمـكـنـ مـنـ الـكـلـمـةـ ، بـحـيـثـ يـصـلـ فيـ خـاتـمـ الـمـطـافـ إـلـىـ اـسـتـنـتـاجـ وـاسـتـنبـاطـ يـسـتـلـبـ إـقـرـارـ الـمـتـلـقـيـ وـإـيمـانـهـ بـصـحتـهـ .

(١) ديوان البحتري ، شرح وتحقيق : حسن بن كامل الصيرفي ، ج٤ ، ص ٢٤٣٢ ، ط٣ ، عام بدون ، لدار المعارف المصرية.

الأدلة العقلية :

للعقل منزلة كبيرة في المجالات الاستدلالية ؛ فهو قادر على أن يجعل الطريقة التي يفكر بها دليلاً بحد ذاتها على صحة بعض الاستنباطات ، والعادة أن يجنب المستبط في العلوم الأدبية والنقدية إلى الدليل العقلي عند عدم وجود أدلة نقلية تدعم الاستنباط الذي هو بصدده ، وفي هذه الحالة يكون الدليل النقلية أقوى من الدليل العقلي ؛ لأنَّه الخطوة الثانية والبديلة التي يجنب إليها المستبط بعد الدليل النقلية ؛ ولأنَّ العلوم العربية التي تختص بال المجالات الشرعية والعقائدية واللغوية إنما تبني وتقوم على أساس من تلك الأدلة النقلية التي تجعل الاستنباط منطلقاً لها ، فالفقير مثلاً يحتاج إلى أدلة نقلية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يستبط منه الحكم الشرعي ، والعالم اللغوي والنحواني يحتاجان إلى منطلق لأحكامهما اللغوية والنحوية وقواعدهما التي تضبط اللغة عن طريق الأدلة النقلية من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والفصيح من كلام العرب .

وقد تكون الأدلة العقلية عند البعض قادرة على تقويض بعض الأدلة النقلية ، وفي ظل ذلك نشأ البحث البلاغي والنقدي عند بعض علماء التراث العربي الذين اعتمدوا على الجانب العقلي اعتماداً كبيراً ؛ حتى كان موجهاً ليس في دعم رؤاهم وآرائهم بل حتى في توجيه الأدلة النقلية وطريقة قراءتها بما يتواافق مع المنطلقات والمرتكزات العقلية .

وقد تكون الأدلة العقلية عاضة ومؤيدة للأدلة النقلية في قضية ما ، ليس لضعف في وجه الاستدلال بذلك الدليل النقلبي ، وإنما للتأكيد بدلاته والرغبة من تقوية جانب الاستنباط والاستدلال حتى يصبح الأمر المستبط في حكم الثابت الذي لا يقبل النقض ولا يتسرّب إليه شيء من المعارضة والاحتجاج .

وقد استخدم الأستاذ محمود شاكر الاستدلال العقلي في استنباطاته استخداماً لافتاً ، وخاصة في تلك الاستدراكات التي استدركها على العلماء بشكل عام ، وناهض بها وبشكل خاص استنباطاتهم التي تقوم على أساس عقلي أيضاً ، ومن ذلك قضية قدم الشعر الجاهلي وعمره وطول قصائده قبل الأشعار التي وصلت إلينا منه ، وهذه القضية قضية قدية نقشتها العديد من علماء التراث العربي ، وبهمنا منها هنا تلك الآراء التي استخدم محمود شاكر لمناقشتها الاستدلال العقلي ، فقد تطرق الأستاذ لهذه القضية واستبط رأيه فيها بعد معارضته لرأي ابن سالم الجمحي والجاحظ تحديداً ، حيث يرى ابن سالم الجمحي بأنه لم :

"... يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات ، يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر

على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وثُعُّ^(١).

وقد عقب الأستاذ شاكر على كلام ابن سلام السابق بقوله : " هكذا يرى ابن سلام وغيره من المتقدمين ، وهو عندي باطل ، فالشعر أقدم مما يزعم ، وطويله أتعق مما يتوهם ، وليته قال هنا ما قاله منذ قليل في سبب ذهاب شعر عيبد وظرفة ، أن قدَّهما كان السبب في قلة ما روي عنهما ، فإذا صح ذلك فمن كان قبلهما أجدر أن يذهب من كلامه أكثر مما ذهب من كلامهما ، وهذا بحث طويل ليس هذا مكان الاحتجاج فيه.^(٢)

إذن فشاكر يستنبط قدم الشعر العربي وأنه عتيق بقصائده الطوال وعمره أكبر مما يتوهمه ابن سلام الجمحي وغيره من المتقدمين ، ويستدل لذلك بدليل عقلي ليس من بنات أفكاره ، وإنما جاء به من كلام ابن سلام الجمحي في موضع سابق عن هذا الموضوع ، ويتلخص استدلال شاكر العقلي في أن (ماذهب وضع من الشعر القديم تسبب في قلة ماوصلنا منه وهو السبب في الشك في عمره وحداثة نشأته) ، ولكنه رأى أن يسند ذلك الاستدلال لابن سلام ليبطل رأيه هنا برأي آخر في موضع سابق ، وبذلك يتحقق له أمران : أولهما : دفع رأي ابن سلام الجمحي عن طريق استحداث ما يشبه التناقض والصدام في كلام ابن سلام نفسه ، فإن ابن سلام تناول قبل استنباطه السابق قضية ذهاب الشعر وعدم حفظه مما تسبب في قلة أشعار شعراً لا تناسب شهرتهم الأدبية مع قلة نتاجهم الواصل إلينا مثل طرفة بن العبد^(٣) ، وعيبد بن الأبرص^(٤) ، مستدلاً

(١) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٦.

(٢) السابق ، حاشية رقم ٤ ، ج ١ ، ص ٢٦ .

(٣) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد ، أبو عمرو ، البكري الوائي ، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ، كان هجاءً غير فاحش القول ، تفيس الحكمة على لسانه في أكثر شعره ، ولد في بادية البحرين وتنقل في بقاع نجد ، اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندامائه ، ثم أرسله بكتاب إلى المكعب عامله على البحرين وعمان يأمره فيه بقتله ، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها ، فقتلها المكعب شاباً ، ينظر لترجمته في موسوعة شعاء العصر الجاهلي ، لعبد عون الروضان ص ١٧٥ .

(٤) عيبد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأستدي ، أبو زياد ، من مصر ، شاعر من دهاء الجاهلية وحكمائها ، وهو أحد أصحاب المجمعات المعودة طبقة ثانية عن المعلقات ، عاصر امرؤ القيس وله معه مناظرات ومناقضات ، وعمر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر وقد وفده عليه في يوم بؤسه ، ينظر السابق : ص ١٩٢ .

بذلك أنه قد ذهب الكثير من قصائدهم التي تسببت لهم بهذه المكانة الأدبية ، يقول ابن سلام :

" وَمِمَّا يَدْلِي بِذَهَابِ الشِّعْرِ وَسُقُوطِهِ قَلَّةٌ مَا بَقِيَ بِأَيْدِي الرَّوَاةِ الْمُصْحِّحِينَ لِطَرْفَةِ وَعَبِيدِ الدَّالِّينَ صَحَّ لَهُمَا قَصَائِدَ بِقَدْرِ عَشَرَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا غَيْرَهُنَّ فَلَيْسَ مَوْضِعُهُمَا حَيْثُ وَضَعَا مِنَ الشُّهُرَةِ وَالتَّقْدِيمَةِ، وَإِنْ كَانَ مَا يُرْوَى مِنَ الْغَثَاءِ لَهُمَا فَلَيْسَ يَسْتَحْقَانَ مَكَانَهُمَا عَلَى أَفْوَاهِ الرَّوَاةِ ، وَنَرِى أَنَّ غَيْرَهُمَا قَدْ سَقَطَ مِنْ كَلَامِهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي نَاهَمَا مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ كَانَا أَقْدَمَ الْفَحْولَ فَلَعْلَهُ ذَلِكَ لِذَاكَ ... " ^(١)

فكما أن ضياع شعر طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص تسبب في قلة قصائدهم ، وتسبب في تنافرٍ بين شهرتهم وناتاجهم الذي بين أيدينا الآن ، فإن الشعر العربي ضاع منه ما يوهمنا بأنه حديث النشأة ، وأن قصائده الطوال إنما طولت وهلهلت على يد من وصلنا منهم القصائد الطوال ، وهذا هو الاستدلال العقلي عند محمود شاكر في هذه القضية وفي هذا الموضع بالذات .

ثانيةهما : أنه استنتاج لنفسه دليلاً عقلياً يدعم استنباطه ويقوي رأيه في أن الشعر العربي قديم النشأة عتيق العهد.

ولم يقف شاكر في هذه القضية عند حد القصائد الطوال وقدمها المرتبطة بقدم الشعر العربي وحداثة نشأته ، بل تجاوزها إلى قضية عمر الشعر الجاهلي نفسه ، فقد كانت واحدة من القضايا التي رحل البحث فيها من تحقيقه لكتاب الطبقات إلى كتابه القيم (قضية الشعر الجاهلي عند ابن سلام) ، ولأهمية هذه القضية عند شاكر فقد خصها بجزء قيم في كتابه هذا وابتداه بها ، ورأى أن النقاد الذين تناولوا هذه القضية قبله يؤولون إلى رأي الجاحظ ؛ لشقتهم في عقله وطريقة تفكيره ونظرته الأدبية ، حيث يرى الجاحظ أن الشعر العربي :

" حديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نجح سبيله ، وسهل الطريق إليه : أمرؤ القيس بن حجر ، ومهلل ابن ربيعة . وكتب أرسطاطاليس ، وعلمه أفلاطون ، ثم بطليموس ، وديمقراطس ، وفلان وفلان ، قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور ، والأحقاب قبل الأحقاب ، ويدل على حداثة الشعر ، قول أمرئ القيس بن حجر :

إِنَّ بْنِي عَوْفَ ابْتَنَوْا حَسَنَتَا
ضَيَّعَهُ الدُّخَلُلُونَ^(٢) إِذْ غَدَرُوا
وَلَمْ يَضُعْ بِالْمَغِيْبِ مَنْ نَصَرُوا

(١) طبقات فحول الشعاء لابن سلام الجمحي ، ص ٢٦.

(٢) الدخللون : "فَلَانُ دُخُلُلُ فَلَانٌ وَدُخُلُلُهُ إِذَا كَانَ بِطَانَهُ وَصَاحِبَ سِرَّهُ" لسان العرب لابن منظور ، ج ١١ ، ص ٢٤٠.

لَا حِمْرَىٰ وَفَىٰ وَلَا عُدَّسٌ

لَكْنْ عُوِيْرٌ وَفَىٰ بِدِفْتَهِ

فانظر، كم كان عمر زارة! وكم كان بين موت زارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام؟ فإذا استظهرنا الشعر،

وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغایة الاستظهار فمائتي عام^(١)

إذن فالجاحظ هنا يرى أن عمر الشعر العربي مائتي عام بحد أعلى ، واستدل بدليل نقله ليس فيه ما ينص على

عمر الشعر الذي حدده ، بل جاء بالأبيات السابقة لأمرئ القيس ليستدل بما فيها على وجه التأول العقلي ؛

فاستدل بالحساب الزمني لعمر زارة الذي مات قبيل ولادة النبي ﷺ ، وبحكم أن امرئ القيس ذكر زارة هذا

في شعره فإن هذا دليل على حداثة الشعر ؛ لأن الجاحظ يرى في بداية استظهاره أن أول من هلهل الشعر

وسهل الطريق إليه امرؤ القيس وخاله مهلهل بن ربيعة ، وبذلك يكون الشعر حديث العهد وصغير السن عند

الجاحظ ، وقبل أن يلج الأستاذ شاكر إلى استنباطه الخاص بقدم الشعر وحداثته ، فقد أضاف على النحو

السابق في فهم كلام الجاحظ هذا ، ومحاولة تحديد وجه استدلاله وطريقة حسابه ؛ كي يتسعى له بناء استنباطه

واستدلاله على أساس من الفهم العميق لوجهة نظر الطرف الآخر ، وهذا مما يحسب للأستاذ محمود شاكر

رحمه الله ، وبالنظر إلى استنباط الجاحظ واستدلاله بالجانب العقلي وتوظيف الحساب الزمني وربطه ببعض

ألفاظ النص النقلي الذي استدل به ، فإن الأستاذ شاكر حينما بدأ في مناهضة رأي الجاحظ بدأ من حيث

انتهى الجاحظ بدلائه العقلي الذي استند عليه في هذه القضية ، وناهضه بدليل عقلي آخر استطاع به أن

يقوض كثيراً من قوة الجانب الاستدلالي عند الجاحظ في هذه القضية ، فاستدل شاكر على بطلان استدلال

الجاحظ وبطلان استنباطه الخاص بحداثة الشعر العربي بأدلة اعتمد فيها كثيراً على الجانب العقلي الذي اعتمد

الجاحظ عليه ، ومن ذلك :

أولاً : يرى شاكر أن استدلال الجاحظ على حداثة الشعر استدلال حسابي ، والحساب وحده لا يكفي في

تحديد حداثة الشعر وقدمه .

ثانياً : يرى شاكر أن الجاحظ غفل عن شعر امرئ القيس وخاله ، فمما لا يقبله العقل أن يكون شعرهما

(١) ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٥ ، عام بدون ، دار المعرف بمصر ، ص : ١٣٢ .

(٢) الحيوان للجاحظ : ج ١ ، ص ٧٤ .

الموزون المقوى المهلل قاما باستحداثه بنفسها ، فكيف يتمنى لهما أن يستحدثا هذا القدر من البحور المختلفة الأوزان ومن القوافي ؟

ثالثاً : كيف يتمنى لامرئ القيس وحاله أن يصل بشعرها لهذه الدرجة من النضج والإبداع دون مثال سابق؟ ولم يكتف شاكر بسرد هذه الأدلة العقلية التي تبطل القول بحداثة الشعر العربي ، بل زاد على ذلك بتوجيهه الدليل النقلي الذي جاء به الجاحظ إلى وجهته التي ينبغي أن تكون إليه ، فقد استطاع شاكر أن يتخد من أبيات امرئ القيس التي استدعها الجاحظ دليلاً لا يقبل الشك على أمرین :

أو لهما : أن امراً القيس وحاله مهمل بن ربيعة من أقدم شعراء العصر الجاهلي الذين وصل إلينا شعرهم.

ثانيهما : أن أكثر ما انتهى إلينا من القصائد الطوال في الشعر الجاهلي لا يكاد يتجاوز عمره المائتي عام ، ولا يدخل في هذا التحديد الزمني المقطعات أو الأبيات ذات العدد ؛ لأنها تمثل درجة الترقى التدرج والنظام المنطقي العقلي الذي ترقى به الشعر حتى وصل إلى ما وصل إليه نتاج امرئ القيس وحاله مهمل^(١).

وقد انتقد شاكر الطريقة الحسابية والاستدلال العقلي الذي اعتمد عليه الجاحظ في تحديد عمر الشعر الجاهلي؛ لأنه يرى أن هذه الدعوى تحتاج إلى دليل مقنع غير مجرد الادعاء الذي لا يوجد برهان عليه ولا يعوضه دليل ، وبناء على ذلك حكم ببطلان رأي الجاحظ ، وحكم بعدم وجود أصل أصيل يمكن أن تستند عليه مقالة الجاحظ في ذلك ، ولكي يقطع الأستاذ كل أمل في قبول رأي حداثة الشعر الذي قال به الجاحظ ، تراءى له أن يتبع الأصل واللبننة الأولى لهذه القضية ، فأصل قول الجاحظ بحداثة الشعر الجاهلي هو يقينه التام بأن أول من شق طريق الشعر ونجز سبيله وهلهله امرئ القيس وحاله مهمل ، وهذا اليقين في نظر شاكر مبني على الخبر الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رض في كتاب الكني وضعيته أخوه أحمد شاكر^(٢) : "صاحب لواء الشعراء إلى النار امرؤ القيس ؛ لأنه أول من أحكم الشعر" ، ويرى الأستاذ شاكر أن قول الجاحظ (هو أول من نجز سبييل الشعر وسهل الطريق إليه) قريب جداً من الخبر الذي رواه البخاري ، وهذا الخبر في سنته "رواية مجاهيل كذبة مغريين في الكذب"^(٣) ، وبناء عليه فإن الأساس والأصل الأصيل الذي بنى عليه الجاحظ رأيه في حداثة

(١) ينظر لقضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام لمحمد شاكر، ط بدون ، تاريخ بدون ، مطبعة المدى بالقاهرة ، ص ١٢ وما بعدها.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : أحمد شاكر ، ط ١ ، عام ١٩٩٥ م ، دار الحديث بالقاهرة ، ج ٦ ، ص ٥٢٩ .

(٣) السابق : ص : ١٦ .

الشعر أصل متهالك ، وحين يتبع الأسلوب الذي أبدى به الجاحظ رأيه في القصائد المطولة وأولية الشعر ؛ يلاحظ أنه أسلوب قد يصل إلى القطع والجزم الموصلين إلى درجة اليقين الذي لا يقبل الشك ، وأنه نتيجة استظهار أدبي محفوظ في أفقه الثقافي أو نقل وصل لديه إلى حد التواتر، إلا أنه لم يكشف عن شيء من ذلك؛ وهذا ما دعا بعض النقاد إلى الاعتراض على المنهج الذي سلكه الجاحظ في هذه القضية ، فالجاحظ اكتفى بالتقدير الحسابي ولم يظن نفسه بجمع المادة التي قالها سابقوه من العلماء والنقاد على وجه من الاستيعاب المتسير " فكان الخل في أول مقوم من مقومات ما قبل المنهج في صنيع أبي عثمان فأداه إلى مala يسلم له "^(١)، كما أنه لم يقم بفحص المادة التي بين يديه وهذا الخلل المنهجي الثاني في هذه القضية ، وذلك أنه لم ينظر في شعر أمرئ القيس وخاله مهمل كيف وصلا إلى هذا المستوى الأدبي الرفيع ^(٢)؟ ولكن من المحتمل لو فحص تلك المادة فحصاً دقيقاً أن يكون حكمه يتواافق مع طبيعة الإبداع الأدبي الذي يستحيل أن يولد كله دفعة واحدة على يد شخص واحد أو شخصين فقط . وهذا الأمر بذاته هو الذي جعل الأستاذ شاكر يرد هذا القول ويؤكد بجزم بل وبجزم بأن الشعر أقدم مما حكم به الجاحظ ، وأن القصائد المطولة منه أشد قدماً من اعتقاد الجمحي وتوهمه ، وكذلك فصرامة اعتراض الشيخ شاكر توحى بوجود أدلة نقليه بين يديه ولكنه لم يقدمها —لعدم وجودها— ، والذي يسوغ اعتراضه الغير مستدل له بدليل نقلني أنه مبني على حكم لا يستند هو أيضاً على دليل نقلني ، ولكن الاستدلال العقلي الذي استدل به لا يخفى على من دقق النظر أنه غالب به دليل الجاحظ وحجته ، ورأى شاكر هنا يتواافق مع العديد من آراء النقاد المحدثين في هذه القضية ، ومن الجيد هنا ثبت ما اختصره الدكتور شوقي ضيف عن هذه القضية مختزلًا فيه رأي الكثير من النقاد والعلماء ، فقال فيه قوله يحسن نقله : " لاريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة ، فليس بين يدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين يدينا هذه الصورة التامة بتقاليدتها الفنية المعقدة ... وهي تقاليد تلقي ستاراً صفيقاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ، ونشأته الأولى فلا نكاد نعرف عن ذلك شيئاً..."^(٣) .

(١) موقف أبي فهر محمود شاكر من قضية عمر الشعر الجاهلي ، مقالة علمية في مجلة الأدب الإسلامي ، لمحمد توفيق سعد ، المجموعة الرابعة ، العدد : ١٦ ، شهر ٦-٥ ، للعام ١٤١٨ هـ ، ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) السابق ص : ٤٤ .

(٣) تاريخ الأدب العربي : العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ١٨٣ .

وهو الحكم الحق في هذا الباب ، وما تطمئن إليه النفس .

بقي قبل الانتهاء من الاستدلال العقلي عند شاكر في قضية أولية الشعر ، أن تتم الإشارة إلى أن شاكر حينما يعارض رأيه رأي شخص آخر أيًّا كان ذلك الشخص ، فإنه يثبت لذلك الشخص صفات تدعم اعتراضه أو استدراكه أو حتى موافقته حتى وإن ناقض الأستاذ شاكر رحمة الله نفسه في إثبات تلك الصفات ، ما يثبت أن الأستاذ يقرأ الشخصيات قراءات مختلفة بحسب موقفه النقدي هو منها ، فقد سبقت الإشارة إلى أن الشاعر جوته قد نال نصيباً وافراً من هذه النظرة المزدوجة ^(١) .

والجاحظ هنا واحد من الشخصيات البارزة التي نالها هذا الأمر ، فقد تناول الأستاذ شخصية الجاحظ تناولاً يوحى بالتناقض والتضاد بأثر من الموقف النقدي وحده ، وبيان ذلك أن الأستاذ حينما أراد في كتابه نمط صعب ونمط مخيف إثبات أن الجاحظ عالم ذو اطلاع واسع لا تفوت ثقافته وسعة اطلاعه شيئاً من كتب العلماء السابقين عليه ، وذلك حينما استبعد أن يكون الجاحظ اطلع على مقوله في كتاب تفيد أن خلف الأحمر ^(٢) أقسم بالله أنه هو الذي قال قصيدة (إن بالشعب الذي دون سلع) وأن تأبত شرًّا لم يقلها ، ويتسائل الأستاذ بناء على ذلك : كيف يتعدد الجاحظ في نسبة هذه القصيدة إلى خلف الأحمر مع كبير اطلاعه وتحقيقه ؟ وغاية شاكر هنا أن نفي أن تكون القصيدة لخلف مع اطلاع الجاحظ المؤكدة على اليمين المنسوبة لخلف ولكنه لم يأبه بالكتاب الذي ورد فيه هذا القسم ولم ينسب هذه القصيدة لخلف ، وكل ذلك يستلزم أن يكون الجاحظ موسوعياً مطلعاً على هذا الكتاب وغيره ، وما

(١) ينظر لصفحة : ٧٥ من هذا البحث وما بعدها .

(٢) خلف بن حيان بن محرز ويكنى أبو محرز ، اختلاف العلماء في تحديد تاريخ ولادته ، وكان خلف راوية نفسه عالمة يسلك الأصمعي طريقه وبختني حذوه حتى قيل هو معلم الأصمعي ، وهو والأصمعي فتقا المعاني وأوضحا المذاهب وبينما المعلم ، قال أبو عبيدة معمر بن المنفي : خلف الأحمر معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة ، وقال الأخفش : لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمعي ، وقال ابن سلام : أجمع أصحابنا أن الأحمر كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدق لساناً ، وكنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً أن لا نسمعه من صاحبه ، وقال شمر : خلف الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه وكان ضيقاً بأدبها ، ولم يكن فيه ما يعاب . إلا أنه كان يعمل القصيدة ، يسلك فيها ألفاظ العرب القدماء ، وينحلها أعيان الشعراء ، ومات خلف بعد وفاة الرشيد ، والرشيد مات سنة ١٩٣ هـ ، وروى بعضهم أنه مات سنة ١٧٥ هـ " ينظر لترجمته في معجم الأدباء ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، عام ١٩٩٣ م ، لدار الغرب الإسلامي بيروت ، ج٣ ، ص ١٢٥٥ .

يهمنا من ذلك كله أن الموقف النقدي هنا هو الذي ألزم شاكر أن يصف الجاحظ بأنه ذو اطلاع ودرأة و Tactics ، وأن هذه الصفات سبب إغفاله لقسم خلف الأحمر الذي ورد في كتاب لا يكاد يشل الأستاذ في عدم اطلاع الجاحظ عليه ، ولذلك قال :

"بعيد جداً ألا يكون الجاحظ قد وقف على كتاب دعبدل سنة ٢٣٠ هـ حين ألف كتاب الحيوان ، وقد مضى على تأليفه أكثر من عشرين سنة ، والجاحظ هو الجاحظ في التتبع والرواية والتقصي "^(١) وحينما تعلق الأمر بشخصية الجاحظ نفسها التي قالت بحداثة الشعر العربي وتحديد عمره بما لا يزيد عن مائتي سنة من ولادة الرسول ﷺ ؛ فإن الجاحظ عند شاكر لم يعتمد في هذا الاستنباط على التقصي والتتبع والدرأة، بل اعتمد على العجب والثقة بالنفس ويقيمه بحسن نظره ، وهذه الصفات هي التي منعته أن يزداد سبقاً في الاستخراج والاستنباط ، وفي ذلك يقول الأستاذ يصف شخصية الجاحظ ومذهبه في قضية حداثة الشعر : " واستحوذ على أبي عثمان عجبه بنفسه ، وثقته بحسن رأيه ونظره ، أن يزداد سبقاً في الاستخراج والاستنباط ، فراغ زيفة منكرة ، مفرطة الغرابة ، فأعاد صياغة القضية صياغة جديدة ، يلقىها مسلمة لا تحتاج إلى برهان "^(٢) ويقول أيضاً في موضع آخر عن الجاحظ في قضية حداثة الشعر :

" وقد ظن أبو عثمان ما ظن في لطف ما سبق إليه ، وفي براعة ما ابتدعه ، واحتملته خيلاؤه التي لا تفارقها فقيده في أول كتاب الحيوان "^(٣)

ومن النماذج التي بربز جانب الاستدلال العقلي فيها عند محمود شاكر ، أمثلة تساءله عن التاريخ الذي ألف فيه ابن سلام الجمحي كتبه وهي على ترتيب الأستاذ : كتاب الطبقات ، ثم كتاب شعراء الفرسان ، ثم كتاب سادات العرب وأشرافها وما قالوه من شعر ، ثم كتاب أيام العرب .

وقد ابتدأ الأستاذ شاكر الحديث عن ذلك بجزمه القاطع ويقيمه الذي لا يخالطه شك بأن ابن سلام لم يؤلف شيئاً من تلك الكتب في صدر حياته ولا في أوسطها بل في آخرها ، واستدعي لتبرير يقيمه دليلاً نقلياً مزروجاً بجانب من الاستدلال العقلي ، وقد أحوجه لذلك المزج أن الدليل النقلي الذي استدعاه لم يكن واضحاً بما

(١) نمط صعب ونمط محيف لمحمود شاكر : ص ٦٧-٦٨.

(٢) قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام لمحمود شاكر ، ص : ١٩ .

(٣) السابق ، ص : ٢٠ .

يكفي لإثبات أن ابن سلام الجمحي ألف كتبه كلها في أواخر حياته ، فقد استدل لذلك بخبر رواه أبو الطيب اللغوي في كتابه مراتب النحوين ، ونصه :

" أخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي ^(١) ، - وكان ابن أخت أبي عبد الله محمد بن سلام - قال : كان الرياشي ^(٢) يختلف إلى أبي عبد الله يستعير منه كتابه في الطبقات ، فكنت أُخرج إليه منه جزءاً جزءاً ، فقيل للرياشي في ذلك فقال : لو عاش يومين لسمعه منه ^(٣) .

وكما هو ملاحظ فليس ثمة دليل من هذا الخبر يقطع بأن ابن سلام ألف كتبه كلها في أواخر حياته ولم يؤلفها في صدرها ولا واسطتها ، مما جعل الأستاذ شاكر رحمه الله يتأنى بعقله ويستدل باستنتاجه من المحيط الخارجي لهذا الخبر ، فتوصل به إلى أمرتين كلاهما بتأويل عقلي وحسابي محض ^(٤) :

التأويل الأول : لو أن ابن سلام ألف كتبه وهو بالبصرة لعرف ذلك الرياشي ولم يؤجل طلب كتب ابن سلام بما فيها الطبقات إلى أن يصير ابن سلام ببغداد ؛ لأن الرياشي بصري ، وابن سلام بصري مثله ، وقد رحل ابن سلام من البصرة到بغداد في العام الثاني والعشرين بعد المائتين من الهجرة النبوية المشرفة وفي بغداد كانت وفاته ،

(١) عمرو بن محمد بن شعيب الجمحي، البصري ، الأعمى ، ولد في سنة ٢٠٦ هـ ، وعني بالعلم وهو مراهق، فسمع للعلماء في سنة ٢٢٠ هـ ولقي الأعلام ، وكتب علما جما ، وكان ثقة، صادقا، مأمونا، أديبا، فصيحا، مفوها، رحل إليه من الآفاق، وعاش مائة عام سوى أشهر ، ينظر لترجمته في سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ، ج : ١٤ ، ص ٧ .

(٢) أبو الفضل الرياشي عباس بن الفرج البصري التحوي ، ولد بعد ١٠٨ هـ ، وسمع من طائفه كثيرة من كبار أهل العلم ، كان حافظا للغة ، والشعر كثير الرواية عن الأصماعي ، قدم الرياشي ببغداد ، وحدث بها وكان ثقة وكان من الأدب ، وعلم النحو ب محل عال ، لما كان من دخول الزنج البصرة ما كان ، وقتلهم بها من قتلوا وذلك في شوال سنة سبع بلغنا أنهم دخلوا على الرياشي المسجد بأسيافهم والرياشي قائم يصلي الضحى فضربوه بأسيافهم ، وقالوا: هات المال فجعل يقول: أي مال أي مال؟! حتى مات فلما خرجت الزنج عن البصرة دخلناها فمررنا ببني مازن الطحانين ، وهناك كان ينزل الرياشي فدخلنا مسجده فإذا به ملقى ، وهو مستقبل القبلة كاما ، وجه إليها وإذا بشملة تحركها الريح ، وقد تفرقت وإذا جميع خلقه صحيح سوى لم ينشق له بطن ، ولم يتغير له حال إلا أن جلده قد لصق بعظمه وييس ، وذلك بعد مقتله بستين رحمة الله ، ينظر لترجمته في سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ، ج : ١٢ ، ص ٣٧٣ .

(٣) مراتب النحوين لعبد الواحد بن علي أبي الطيب اللغوي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط بدون ، عام ٢٠٠٩ م ، لشركة أبناء شريف الأنباري للطباعة والنشر ، ص ٧٩ .

(٤) ينظر لرأي الأستاذ في ذلك لقضية الشعر الجاهلي عند ابن سلام لحمد شاكر ، ص : ٤٧ وما بعدها .

فلو أن ابن سلام ألف كتبه بما فيها الطبقات في بداية حياته لكان قد ألفها وهو في البصرة ، مما سيتمكن الرياشي من الاطلاع عليها وهو في البصرة أيضاً قبل ارتحال ابن سلام الجمحى منها .

التأويل الثاني : أن ابن سلام الجمحى كان قد انتهى قبيل وفاته من تأليف كتبه ، ولو لا أن باغتته المنية لكان عزمه أن يخرج هذه الكتب إلى الناس ليسمعواها منه ، ولكن فاتهم موته سمعاها منه .

هذه تأويلات الأستاذ العقلية من هذا الخبر الذي لم يصرح بشيء من ذلك ، وكل ما هو مفهوم من ظاهر الخبر أن الرياشي كان يتربدد إلى ابن سلام الجمحى يستعيير منه طبقات فحول الشعراء ، وكان ابن اخت ابن سلام راوي الخبر الفضل بن الحباب الجمحى يخرج للرياشي من هذا الكتاب جزءاً جزءاً ، وانتهى الخبر بأن الرياشي قال : لو عاش ابن سلام الجمحى يومين لسمع من ابن سلام كتاب الطبقات الذي كان يتربدد من أجله إليه ، وبالنظر إلى الاستدلال العقلي والتأويلين المبنية على الفهم التي ابتناها الأستاذ شاكر من هذا الخبر يلاحظ مايلي :

أولاً : لا ذكر في الخبر إلا لكتاب الطبقات وأما غيره من الكتب فمبني على استدلال عقلي محض للأستاذ لم ينص عليه هذا الخبر ، ولا أعلم ما هو الوجه العقلي الذي سوغ للأستاذ ضم كتب ابن سلام الجمحى غير الطبقات لهذا الخبر ؟ لاسيما وأن الخبر صريح بذكر الطبقات دون غيره .

ثانياً : استظهار الأستاذ المتضمن بأن ابن سلام ألف كتبه في أواخر حياته وأنه كان عازماً على إخراجها للناس لو لا أن وافته المنية ، هو استظهار عقلي محض لا يسوغه شيء من هذا الخبر ؛ لعدم ورود ما يشير إلى كتب ابن سلام كلها ماعدا الطبقات ، أما ما يختص بكتاب الطبقات وحده وتربدد الرياشي على ابن سلام الجمحى ليستعييره منه فقد يكون الأمر متعلقاً برغبة من الرياشي نفسه وحرص وإلحاح على طلب العلم وأخذنه من العلماء ، وهو ما يعرف عن مثله من العلماء في حرصهم على طلب العلم ولقاء العلماء ، ولا يعني القول بذلك أن ابن سلام الجمحى ضئيل بعلمه على طلبة العلم ، ولكن ما بين يدينا من هذا الخبر لا يشير إلى عزم ابن سلام نفسه على إقراء الناس كتبه ، بل يصرح فقط بأن الرياشي هو من أراد ذلك من ابن سلام .

ثالثاً : قول الرياشي : (لو عاش يومين لسمعه منه) قد يفهم منه أن مراد الرياشي ليس الاطلاع على كتاب طبقات فحول الشعراء وقراءته لكونه حديث التأليف ، فقد يكون المراد من تربدد الرياشي إلى ابن سلام قراءة الكتاب عليه وأخذ العلم منه مشافهة حتى وإن كان تأليف الكتاب قد ياماً ، على النحو الذي كان يقوم به

العلماء ، وربما تكون هذه الطريقة في السماع والمشافهة خطوة ثانية أرادها الرياشي بعد اطلاعه وقراءته الشخصية لهذا الكتاب في وقت سابق .

ومادامت الأخبار النقلية لم تقطع بالزمن الذي ألف فيه ابن سلام كتبه فالاستدلال العقلي والاستعانة بالحيط الاجتماعي والثقافي هو السبيل الوحيد لاستنتاج ذلك ، وهو الذي سوغ للأستاذ أن يسلك هذا السبيل ليستبسط هذا الاستنباط المدعوم بمحاجة كبيرة بين الدليل النقلاني والعقلي ؛ لإنشاء دليل كان إلى العقل أقرب من القل رغم انطلاقه من النقل ، وكان هذا الدليل قوياً في عقل الأستاذ وفكرة ؛ بدليل قطعه على وجه الجزم والتيقن بأن ابن سلام ألف كتبه في أواخر حياته استناداً على هذا الدليل ، وقد جره تيقنه بذلك واطمئنان نفسه إليه تأويل عقلي آخر ، استدل به هو الآخر لدعم استنباطه في ذات القضية ، ومصدر هذا الاستدلال خبر أورده الأستاذ من كتاب تاريخ بغداد ، ونصه :

" حَدَّثَنَا الحُسْنَى بْنُ فَهْمٍ ^(١) ، قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامَ سَنَةَ اثْنَتِينَ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنَ فَاعْتَلَ عَلَةً شَدِيدَةً، فَمَا تَخَلَّفَ عَنْهُ أَحَدٌ، وَأَهْدَى إِلَيْهِ الْأَجْلَاءَ أَطْبَاءَهُمْ، وَكَانَ ابْنَ مَاسُوِّيَّهَ ^(٢) مِنْ أَهْدِي إِلَيْهِ، فَلَمَّا جَسَّهُ وَنَظَرَ إِلَيْهِ، قَالَ لَهُ: مَا أَرَى مِنْ الْعَلَةِ كَمَا أَرَى مِنَ الْجَزْعِ! فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا ذَاكَ لِحَرْصِهِ عَلَى الدُّنْيَا مَعَ اثْنَتِينَ وَثَمَانِينَ سَنَةً،

(١) هو: الحافظ، العالمة، النسابة، الأخباري، أبو علي الحسين بن محمد بن سلام سنة اثنتين وعشرين ومائتين فاعتل علة شديدة، فما مولده في سنة إحدى عشرة ومائتين ، روى عن: محمد بن سلام الجمحي، وجمع من العلماء ، وكان له جلسات من أهل العلم يذاكرونهم، لكنه عسر في الرواية ، وقد قال الدارقطني: ليس بالقوى ، توفي في رجب سنة تسع وثمانين ومائتين ، ينظر لترجمته في سير أعلام النبلاء ، للإمام الذهبي ، ج ١٣ ، ص ٤٢٧ .

(٢) يوحنا بن ماسويه، أبو زكريا ، من علماء الأطباء. سرياني الأصل ، عربي المنشأ. كان أبوه صيدلانيا في جنديسابور (بختورستان) ثم من أطباء العين، في بغداد. وتقديم، وخدم الرشيد ، وببغداد نشأ ابنه يوحنا (صاحب الترجمة) وبنغ حتى كان أحد الذين عهد إليهم هارون الرشيد بترجمة ما وجد من كتب الطب القديمة، في أنقرة وعموريا وغيرهما من بلاد الروم، وجعله أمينا على الترجمة، ورتب له كتاباً حاذقين بين يديه ، ولم يقتصر عمله على خدمة العلم بل خدم الرشيد والمأمون ومن بعدهما إلى أيام المتوكل، بمعالجتهم وتطبيب مرضاهما، حتى كانوا لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضوره، وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشات المقوية والهاضمة ، وأصحاب شهرة واسعة وثروة طائلة. وكان مجلسه ببغداد أعمى مجلس، يجمع الطبيب والمتفلسف والأديب والظريف ، له نحو أربعين كتاباً معظمها رسائل، منها "البرهان" ، ينظر لترجمته في عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ، لأبي العباس ابن أبي أصيبيعة ، تحقيق نزار رضا ، ط بدون، عام بدون ، مكتبة الحياة بيروت ، ص ٢٤٦ ، وينظر للأعلام للزركي ، ج ٨، ص ٢١١ .

ولكن الإنسان في غفلة حتى يوقظ بعلة ، ولو وقفت بعرفات وقفه ، وزرت قبر رسول الله ﷺ زورة، وقضيت أشياء في نفسي ، لرأيت ما اشتد على من هذا قد سهل ، فقال له ابن ماسويه: فلا تجزع، فقد رأيت في عرقك من الحرارة الغrinية وقوتها ما إن سلمك الله من العوارض بلغك عشر سنين أخرى ، قال الحسين بن فهم: فوافق كلامه قدرًا فعاش محمد عشر سنين بعد ذلك، ومات سنة اثنين وثلاثين ومائتين ^(١).

وكما هو ملاحظ أيضًا وليس ثمة في هذا الدليل التقلي ما يشير إلى أن ابن سلام ألف شيئاً من كتبه في أواخر حياته ، ولكن الاستدلال العقلي المبني على الظن وحده هو ما سوغ للأستاذ أن يقول فيه :

"قول ابن سلام ... (ولكن الإنسان في غفلة حتى يوقظ) يدل على أن هذه العلة الشديدة قد أهبته من غفلة عن أشياء كانت في نفسه ، ويتمنى أن يكتب الله له لو أن يقف حيث يستجاب الدعاء ، فيسأل ربه أن يسر له قضاءها والفراغ منها ، وتقر عينه فلا يأخذه من أمر هذه الدنيا جزع ، وأكبر ظني أن هذه الأشياء التي كان يتمنى قضاءها هي تأليف كتب جامعة ، كان يجب أن يتوجه في كتابتها ، بعد أن قضى اثنتين وثمانين سنة لم يؤلف كتاباً ، ولا يبقى من علمه عند الناس إلا الشيء من الأحاديث التي أثرت

عنه... ^(٢)

ويلاحظ من كلام الأستاذ هنا أن هذا الخبر لم يجعله يقطع بجزم ويقين سابقه في القول بتأخر تأليف ابن سلام لكتبه ، بل بني ذلك على ظن منه بأن من الأشياء التي أراد ابن سلام دعاء الله أن يمهله حتى يقضيها كتابة علمه ونظمه في مؤلفات ؛ حتى لا يبقى علمه أحاديث وروايات يتلقفها العلماء سماعاً دون قيدها بكتابه ، وقد أحسن الأستاذ رحمة الله حينما احتذر بقوله (وظني) ؛ لأنه ظن وحسب ليس بمقدورهما أن يقطعان بالقول في ذلك والجزم به ، وعلى كل حال فالبحث في هذه القضية تحديداً قد لا يلقي بكثير من الفائدة على قيمة مؤلفات ابن سلام ومكانته في التراث العربي ، فسواء ألف كتبه في بدء حياته أو واسطتها أو حتى نهاية فستظل القيمة العلمية لنتاجه المعرفي هي هي نفسها دون تأثر بمعرفة ذلك من عدم معرفته ، وستظل القيمة الحقيقية في نوعية النتاج العلمي الذي تفرد به ابن سلام وأعني منه تحديداً الطبقات الذي تميز

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، لشمس الدين الذهبي ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط١، عام ٢٠٠٣ م ،

لدار الغرب الإسلامي في تونس ، ج٥ ، ص ٩١٧.

(٢) قضية الشعر الجاهلي عند ابن سلام لمحمود شاكر ، ص : ٤٩.

عن نظرائه من الكتب التراثية ، كالاصمعيات والمفضليات ، فقد ميزه ابن سلام بروحه النقدية وفكرة الأدبي الفاحص المدقق ، فلم يجعل طبقاته مثل نظرائه التي يغلب عليها أن تكون مدونات شعرية لها الفضل بعد الله في حفظ ما اشتغلت عليه من الشعر العربي ، أما الطبقات فلا يخفى ومنذ تقدمة ابن سلام له في بدايته أنه سيسلط على ما يتناوله من الشعر كناقد وعارف بأحوال الشعر ومميز له كتميز الصياف للنقد الصحيح والزائف ، ولم يذكر ذلك فقط ذكرًا فقط في مقدمته ، بل مارس النقد ممارسة لا تخفي على من يقرأ كتاب الطبقات ، وقد كانت تعليقاته العديدة على الشعر والشعراء ولازالت تشكل مرجعًا نديًا يحتاج به ، وما لابد من أخذها بعين الروية وحفظ الحقوق اعتبار الجمحي أول من حاول أن يجعل للنقد الأدبي منهجاً قائماً بذاته في التراث العربي ، فهو يناقش كثيرةً من الشعر بعقله وذوقه حتى وضع يده على ما سماه بالشعر المصنوع والشعر المنحول ، وخالف اختلافاً لا تخطئه العين عن السائد من جهود علماء عصره في التفضيلات الشعرية الغير معللة والنقد غير الموضوعي ، فابن سلام كثيراً ما كان يعلل بعض بل كثير من أحكامه النقدية حتى تتسم باسمة الأحكام الموضوعية وإن كان هذا لا ينطبق على كل أحكامه وأرائه ، حتى استحق وبجدارة أن ينال شرف المحاولة الأولى التي أسست لما بعدها من الجهود النقدية في القرن الرابع الهجري والتي بدت فيها ملامح النقد العربي أشد وضوحاً .

ولم يستطع أن يجحد جهود الجمحي في محاولة الشروع المبكرة في منهجية النقد العربي حتى من أراد إنكارها، ولعل القول ينصرف هنا لمحمد مندور الذي جعل القرن الرابع القرن المؤسس للنقد المنهجي عند العرب ، محاولاً إقصاء جهود ابن سلام في تشكيل ملامح النقد العربي في أواخر القرن الثالث الهجري في كتابه الطبقات تحديداً ، ولكنه وفي أثناء محاولته إقصاء ابن سلام فقد أقر بالجهود الأولية لابن سلام الجمحي في تكوين ملامح النقد العربي القديم ، تلك الجهود التي تؤهله لأن يكون حامل لواء رسم الوجهة النقدية في التراث العربي، يقول محمد مندور في ذلك :

"إذن فابن سلام لم يتقدم بالنقد الفني إلى الأمام شيئاً كبيراً ، وإن كان قد صدر في تحقيقه للنصوص عن مذهب صحيح ، وحاول أن يدخل في تاريخ الأدب العربي اتجاهًا نحو التفسير ومحاولة للتبويب تقوم على أحكام فنية ؛ ولهذا نستطيع أن نظل عند ملاحظتين السابقتين من عدم صدور النقد — كفنٍ لدراسة النصوص

وتميز الأسلوب – عن منهج مستقيم وروح علمية في تعليل الأحكام ، وذلك حتى أواخر القرن الثالث ، وإنما أصبح النقد نقداً منهجياً في القرن الرابع فقط عند الآمدي وعبد العزيز الجرجاني " ^(١)

فابن سلام في نظر محمد مندور وإن لم يتقدم بالنقד الفني إلى الأمام إلا أنه قد اتخذ منهجاً صحيحاً في تحقيق النصوص ، وقد حاول أن يسلك في الأدب العربي اتجاهًا نحو التفسير ومحاولة للتبريب المنهجي تقوم على أحكام فنية ، وعند التدقيق وإنعام النظر فإن هاتين الصفتين كافية تماماً لأن تكونا البداية الحقيقة لمنهجية النقد العربي هي ابن سلام الجمحى رحمه الله .

ومن الأدلة العقلية الخالصة عند محمود شاكر استدلال أقر فيه بضرورة وجود دليل نceği يقطع بصحة ما ذهب إليه ، ولكنه وبالرغم من إقراره فقد اكتفى باستدلاله العقلي الذي جعله يقطع بأن سواد بن عمرو ^(٢) الوارد اسمه في قصيدة ابن أخت تأبطن شرًا هو حال الشاعر دون وجود خبر أو رواية تقطع بصحة ذلك ، ولكنه استنباط بحسب تأويله العقلي للبيت الذي ورد فيه اسم سواد بن عمرو هذا ، والبيت هو قول الشاعر :

سَقِّينِهَا يَا سَوَادْ بْنُ عَمْرٍ
إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ حَالِي لَحَلُّ

يقول محمود شاكر :

"ثم شيء آخر ، أني أرجح أن سواد بن عمرو هذا هو (سواد بن عمرو بن جابر بن سفيان) ابن أخي تأبطن شرًا المقتول ، وابن حال هذا الشاعر ؛ وذلك لأنني أحسست في قوله : (سَقِّينِهَا يَا سَوَادْ بْنُ عَمْرٍ) وذكر اسمه ونسبة طرفاً من العطف ، ومن التحبب ، ثم قوله : (إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ حَالِي لَحَلُّ) كأن في قوله بعد حالٍ تلميحاً إلى الرحم التي تجمعهما ؛ فلذلك رجحت أمر هذه القرابة بينهما ، وإن كنت في الحقيقة أقطع لنفسي بأن هذا هو الصحيح ، وإن لم يأت به خبر أو رواية " ^(٣)

إذن فمحمود شاكر يرى أن سواد بن عمر هو ابن أخي تأبطن شرًا المقتول وابن حال خفاف بن نضلة الذي نسب له في بداية كتابه نمط صعب ونمط مخيف هذه القصيدة ، وقد بني ذلك على استدلال عقلي مبعده

(١) النقد المنهجي عند العرب منهج البحث في الأدب واللغة ، محمد مندور ، ط بدون ، عام ١٩٩٦ م ، لدار النهضة بمصر

. ٢٢ .

(٢) لم أجده له ترجمة في حدود ما وقع بين يدي من مراجع .

(٣) نمط صعب ونمط مخيف لمحمد شاكر ، ص : ٢٦٧ .

إحساسه بأن سبق ذكر سواد بن عمرو على قوله (إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ حَالِي لَخَلُّ) يلمح إلى صلة الرحم التي تجمعهما ، ويرجح لنفسه ذلك بل ويقطع بصحته بناء على ذلك .

والحق أن القطع بذلك والقول به قد لا يرضيه البحث العلمي الذي يحتاج إلى دليل قاطع في مثل هذه الاستنباطات ، ولا يقصد بالدليل القاطع هنا فقط الخبر النصلي أو الرواية التي تنص على ذلك ، بل قد يتضمن على دليل قاطع من النص ذاته أو أشد وضوحاً من هذا الذي ذكره الأستاذ في هذا البيت ، ولا يعني القول بذلك تعريضة رأي محمود شاكر هنا وتخطئته ، ولكن قد يكون من الصواب اعتبار ما قاله الأستاذ فرض علمي يحتاج إلى إثبات أو نفي بأدلة مقنعة ، وقد توقفت كثيراً عند سواد بن عمرو وعدت إلى ما وقع بين يدي من المراجع العلمية التراثية التي تناولت هذه القصيدة فلم أجده فيها - في حدود بحثي واطلاعي - ولو من طرف خفي ما يشير إلى قربة بين سواد بن عمرو وقائل هذا النص ، وللمرزوقى كلام في أن سواد مرمخ عن سوادة ولم يذكر فيه شيئاً عن هذه القرابة التي قالها الأستاذ شاكر ، يقول المرزوقى :

" وقوله يا سواد بن عمرو جعل سواد - وقد رحّمه عن سوادة - بمنزلة ما جاء تماماً ولم يحذف منه شيء فجعل سواد وابن منزلة شيء واحد، وبناه على الفتح. "(١)"

وغایة الأمر أن الاستدلال العقلي عند محمود شاكر يشغل حيزاً من جوانب استنباطاته واستدلالياته المهمة ، وهذا الجانب لم يأخذ نمطاً واحداً بل تعددت أنماطه وطرائقه ، فقد استخدمه الأستاذ -وفقاً لما تم طرحه من نماذج - مستقلاً برأسه دليلاً متفرداً لا يسانده إلا أسلوبه الجميل ، وقد يستخدمه أحياناً أخرى في ثنياً دليلاً نصلي آخر ؛ لضعف في وجه الاستدلال بالنقل فيكون الاستدلال العقلي داعماً ، أو لزيادة دعم الاستنباط من الدليل النصلي وقويته وإقراراه ومحاولة جعله من مسلمات ذهن المتلقى .

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ، ص : ٥٩٤ .

الأدلة العكسية :

الاستدلال بالعكس من أقسام الاستدلال المباشر عند علماء المنطق ، ويقصد به أن يشتق صاحب الاستدلال " من القضايا الحاضرة في الذهن عكوسا لها ، ويستفيد منها أحکاما جديدة ، وعملية في ذلك عملية عقلية بحثة "(١) .

والمقصود بالاستدلال بالعكس عند محمود شاكر ذلك الافتراض الذي يفترضه لنقيض استنباطه ، ثم يقوم بإبطال الافتراض النقيض ، فيصبح الاستنباط بإبطال ذلك الفرض النقيض ، بل ويزيد في ذات الوقت من حظوظ قبول الاستنباط ورسوخه وتقويته .

ويلاحظ على هذا النوع من الاستدلال عند محمود شاكر أن غالب وروده في ثنايا قراءاته النقدية للنصوص الأدبية ، وتحديداً حينما يتناول الأستاذ تأويلاً لنص يراه أنه التأويل الوحيد المناسب لقراءة هذا النص والملائم لمدلول ومراد مبدعه أو سياقه أو حتى محیطه ، فيعمد حينها إلى افتراض تأويل آخر محتمل، أو اقتراح ألفاظ أخرى غير الألفاظ التي جاء بها النص مما لا يقوم بها استنباطه ، فيقوم بإبطال ذلك كله ونفي الصحة عنه ، ويتولى في آخر الأمر فرض استنباطه على أنه الخيار الوحيد الممكن قبوله في هذه المسألة أو هذه القضية .

ومن نماذج الاستدلال بالعكس عند محمود شاكر اقتراح بترتيب بعض أبيات قصيدة (إن في الشعب الذي دون سلع) على النحو الذي رتبه الشاعر الألماني جوته ، جاء هذه الاقتراح بعد شهادة منحها الأستاذ شاكر لإحساس جوته المتوقد ، "وتوره المستجيب لنبضات الفن "(٢) .

جاء ذلك بعد أن لاحظ شاكر تصريح جوته بإحساسه وجود صلة بين القسم الرابع والقسم الأول من هذه القصيدة ، وأن القسم المتأخر منها يرجع بالقارئ إلى القهقري ، والقسمان الأول الذي أراده شاكر وبحسب تقسيمه هو للقصيدة هو قول الشاعر :

لَقَنِيْلًا ، دَمْهُ مَا يُطَلِّ
أَنَا بِالْعِبْءِ لَهُ مُسْتَقِلٌ

إِنَّ بِالشَّعْبِ الَّذِي دُونَ سَلْعٍ
فَدَفَ الْعِبْءَ عَلَيَّ وَوَلَى

(١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة صياغة للمنطق وأصول البحث متماشية مع الفكر الإسلامي، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ص : ١٧٧ .

(٢) نمط صعب ونمط مخيف لمحمود شاكر ، ص ٢٥٠ .

وراءَ التَّارِيْخِ ابْنُ أَخْتٍ

مُطْرُقٌ يَرْشُحُ مَوْتًا ، كَمَا أَطْ

أَمَ الْقَسْمِ الرَّابِعِ فَهُوَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

فَلَئِنْ فَلَّتْ هُدَيْلٌ شَبَّاً

وَبِمَا أَبْرَكَهَا فِي مُنَاخٍ

وَبِمَا صَبَّحَهَا فِي دُرَاهَماً

مَصْعُعُ ، عُقْدَتُهُ مَا تُحَكِّلُ

رَقَّ أَفْعَى ، يَنْفُثُ السُّمَّ صِلُّ

لِبِمَا كَانَ هُدَيْلًا يَفْعُلُ

جَعْجَعٌ ، يَنْقَبُ فِيهِ الْأَظْلَاءِ

مِنْهُ ، بَعْدَ الْقَتْلِ نَهْبٌ وَشَلُّ

يقول شاكر معلقاً على إحساس جوته وفيه الشاهد الذي ننشده هنا :

"وهذا حسبي من الفضل والبراعة ، ولكنك لو طاوت جوته وفصلت البيت الثامن عشر عن البيتين التاسع

عشر والعشرين لكان شيئاً مضحكاً جداً ، ولو وضعنا ما اقترحه حيث اقترحه لكن هكذا :

(مُطْرُقٌ يَرْشُحُ مَوْتًا ، كَمَا أَطْ

وَبِمَا أَبْرَكَهَا فِي مُنَاخٍ) وهذا كلام فارغ جداً ، ومضحكاً جداً أيضاً ، وإنما اقترح ذلك جوته لسوء ترجمة

فريتاج للقصيدة ثم هبوط ترجمته هو للقصيدة وفسادها فاقترح هذا الترتيب ، اعتماداً على ما فهمه من

هذا الخلط والفساد والهبوط ، في الترجمة اللاتينية والترجمة الألمانية لا اعتماداً على القصيدة العربية نفسها ، كما

كان ينبغي أن يفعل وفي فعله هذا من غطرسةبني جلدته ما كنت أحب أن أُتَّهِه عنه ، لفضله وبراعته

وإحسانه (٢)

فالاستدلال هنا بالعكس يتمثل في افتراض مطاوعة المتكلمي لترتيب جوته لأبيات القصيدة على النحو الذي

ذكره لجوته ، وبعد ان افترض تلك المطاوعة قام بإبطالها إبطالاً بأسلوب فيه من التهكم والسخرية على جوته

(١) جيورج فيلهلم فريتاخ هو مستشرق ألماني ، ولد في لونيرغ تتلمذ على اللغات الشرقية على يد دو ساسي ، يجيد العربية والفارسية والتركية ، عمل كأستاذ للغات الشرقية في جامعة بون ، له قاموس عربي لاتيني ، اعتمد فيه على قاموس ياكوب يولموس ووسعه وحسنها ، وله كتاب لتعليم اللغة العربية للمتحددين بالألمانية ، . نشر من التراث العربي أجزاء من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ، وديوان أبي تمام في الحماسة، وعمل مع تلميذه فستنفلد على نشر معجم البلدان لياقوت الحموي ، ينظر للأعلام للزركلي ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٢) نمط صعب ونمط مخيف لمحمود شاكر ، ص : ٢٥٢-٢٥٣ .

الشيء الكثير ، والعجيب أن هذا التهكم وهذه السخرية مسبوقة ومتبوعة بثناء على جوته نفسه ، ذلك الثناء الذي حينما يطالع للوهلة الأولى يعتقد بأنه لن يكون في ثناياه إلا مزيداً من امتداح العالم الشاعر الألماني جوته وتجيد لمناقبها النقدية، ولكنها شخصية الأستاذ محمود شاكر النقدية رحمه الله التي لا تكاد تنفك عما يشبه ذلك .

إذن فالاستدلال الذي استدعاه محمود شاكر هنا هو استدلال بعكس مارآه وذهب هو إليه من ترتيب الأبيات، ولا شك أن الترتيب الذي اقترحه جوته لا يستقيم مع السياق الكلي للنص ، ولا يتسلسل تسلسلاً تقتضيه بالضرورة ترتيب المعاني والأفكار ، فقوله : (مُطْرَقٌ يَرْشُحُ مَوْتًا) يشبه فيه إطرافه وسكنونه متظراً لفرصة ينتهزها في إدراك ثأره ، باللحية التي تسكن عند ترتصها بأحد ، وشبه إمساكه من يطلب منهم الثأر بعد سكونه وإطرافه ونيله منهم باسم الحياة التي تقتل لدغتها ما تمسك أنيابها وتتأتي عليه .

أما البيت الثاني الذي اقترحه جوته بعد هذا البيت فهو قول الشاعر : (وَمَا أَبْرَكَهَا فِي مُنَاخٍ) وهو يتحدث فيه عن هذيل " وبما كان ينال خاله منهم ويحملهم فيه على المراكب الصعبة، وينزلهم له بالمنازل الحزنة، التي تؤثر في أنفسهم وأموالهم ..." (١) ، إذ كان يذلهم ويضطرهم إلىأسوء ما يكون من الأمر فلا يكون لهم خيار حيث يضطربون ، كالبعير الذي ينبحه صاحبه أينما أراد إنناخته ومهما كانت طبيعة الأرض التي يستباح عليها سواء كان ذلك البعير راغباً أم كارهاً ، وعليه فإن الترتيب المنطقي للقصيدة يقتضي إدراج هذا البيت بعد معنى يرتبط به إن وجد ، فوضع قول الشاعر : (وَمَا أَبْرَكَهَا فِي مُنَاخٍ) بعد قوله :

فَلَئِنْ فَلَّتْ هُذَيْلٌ شَبَّاهُ
لِمَا كَانَ هُذَيْلًا يَفْلُ

هو في حقيقة الأمر وضع منطقي وترتيب يقتضيه السياق ويطلبه المعنى ، ليكون معنى البيتين معاً معنى يليق بمعنى الشعر وفكر الشاعر ، فالشاعر يريد أن يقول :

إن كانت هذيل التي قتلت تأبط شرًا قد نالت منه وفلت حده ، فهي لم تفعل ذلك إلا بسبب من فعله في هذيل قبل نيلهم منه ، فقد كان يشنن فيهم القتل ويفل حدودهم ويفتك بقوتهم ، وبما كانوا يلاقونه منه في

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ص : ٥٩٣ .

إذلاهم واضطراهم إلى أسوأ ما يكون من الأمر مثلهم في ذلك مثل البعير الذي ينيخه صاحبه كارهاً كان أو راغباً فوق أي أرض وتحت أي سماء ، وبهذا المعنى المتناسق يعلم أن ترتيب الأستاذ شاكر رحمه الله أولى بالصواب وأقرب إلى الصحة ؛ لأن قوله (وَبِمَا أَبْرَكَهَا فِي مُنَاخٍ) مكمل لقوله : (فَلَئِنْ فَلَتْ هُدَيْلٌ شَبَّاهٌ) ومتمن لمعناه ومبناه ، وبالإمكان أن يعنون البيتان بسؤال : ماسبب قتل هذيل لنأبط شراً ؟ وتحتاج البيتان لتشكلان إجابة وافية شافية قصد إليها الشاعر قصداً ، أما جوته الذي كان ترتبيه على هذا النحو :

مُطْرَقٌ يَرْشُحُ مَوْتًا ، كَمَا أَطْ
سَرَقَ أَفْعَى ، يَنْفُثُ السُّمُّ صِلْ
جَعْجَعٌ ، يَنْقَبُ فِيهِ الْأَظْلَى
وَبِمَا أَبْرَكَهَا فِي مُنَاخٍ

فإنه ترتيب لا يقتضيه ترابط الأبيات وتمام المعنى ولا يسانده السياق الكلي للنص ، ففيه ما فيه من انفصام الانتقال من حديقه عن نفسه بما لا يتناسب ، مع تعليل معطوف على تعليق قبله لايتنان بصلة لحديقه عن نفسه ، ومن هنا كانت ثورة محمود شاكر النقدية الفظة الغليظة على ترتيب جوته الذي يفضي إلى فوضى غير مبررة في النص ، ذلك الترتيب الذي شغل به محمود شاكر كثيراً وخصوصاً في كتابه نمط صعب ونمط محيف ، حيث حشد لتبرئة الشعر الجاهلي من الخلل في ترتيب القصيدة كل قواه الأسلوبية وأداته العقلية والنقلية ما أمكنه ذلك ، بل ويجعل لعلماء التراث العربي مزيداً من الورع وكمال العقل والعلم ؛ " لا جتناهم أمر الفصل في هذه القضية إذا عرضت لهم مع سعة علمهم ومع تمكّنهم من لسان العرب ، وإحاطتهم بأكثر تصارييف العرب وشعائرها في كلامها " ^(١) ، وأشار إلى أن أكثر من اجتازاً على هذه التهمة جماعة من المستشرقين ومنتبعهم من العرب ، وقد اعتذر لهم بضعفهم في اللغة العربية وقلة بضاعتهم من لسان العرب وجهلهم بتتصارييف الكلام ^(٢) ، واعتبر ما جاء في الشعر الجاهلي من اختلال في ترتيب الأبيات فناً من الفنون التي يقصد إليها الشعراء ؛ " لَأَنْهُمْ لَمْ يَقْصِدُوهُ إِلَى " الإبانة المسؤولة عن المعاني ، بل ركبوا إلى أغراضهم أغمض ما في البيان .. من المذاهب ، فربما شعروا ما كان حقه أن يكون مجتمعاً ؛ لَأَنْهُمْ لَا يَلْعُونَ حَقَ الشِّعْرِ إِلَّا بِهَذَا التَّشْعِيثِ " ^(٣)

(١) نمط صعب ونمط محيف لمحود شاكر ، ص ١٣١.

(٢) السابق : ص ١٢٩.

(٣) السابق : ص ١٢٩.

وحتى ما وجد من الشعر الجاهلي مختل الترتيب وهو عند شاكر موجود لا شك فيه ؛ فإن سببه ليس قصد الشعراء أنفسهم إلى التشعيث فقط ، بل سببه الرواة الذين رروا الشعر بروايات مختلفة تسببت في تدخل علماء التراث العربي لا لتصحيح ترتيبها ، بل فقط لروايتها ثم بذكر اختلاف الرواة القدماء فيها ، وبالنص على تقديم بيت أو أبيات في القصيدة في روایة عن روایة ولا يزيد عن أكثر من ذلك^(١)، وقد اقترح محمود شاكر ترتيباً منطقياً لقصيدة (إن في الشعب الذي دون سلع) ، فقط على مستوى تسلسل الأبيات ، فبعد أن كد نفسه في ترتيبها بحسب قراءته الفاحصة لها ورؤيته النقدية ، قام بتقسيمها إلى أقسام من الأول وحتى السابع ، وحاول إيجاد مناسبات تربط تلك الأقسام بعضها البعض كما فعل في الأنموذج الأنف الذكر ، حيث أعجب لإحساس جوته بوجود علاقة بين القسم الرابع والقسم الأول من القصيدة كما تم ذكره ، وكل هذه الجهد تدرج تحت محاولات شاكر الحيثية لربط القصيدة الجاهلية ببعضها البعض ، تلك المحاولات التي سخر لها شاكر كل ما يمتلكه من الذوق والحس والأدبي والقدرات الاستنباطية والاستدلالية ونمطه العالي من البيان ، حيث شكلت هذه القضية همّاً نقدياً وغاية تحليلية ، وفق في كثير من آرائه فيها كما رأينا في الأنموذج السابق ، وإصراره على إنشاء هذه العلاقة العضوية في النص الجاهلي أفضى به إلى محاولات للتوفيق بين بعض أحکامه النقدية مستخدماً في ذلك تقنية الاستدلال بالعكس ، فحين يتعلق الأمر بتحديد الغرض الذي من أجله قيلت قصيدة ابن أخت تأبط شراً يصر الأستاذ رحمه الله أن القصيدة خالية من الرثاء ومن التفجع ، وقد صرخ بذلك في قوله: "والقصيدة كما ترى خالية من الرثاء والتفجع ، وبريئة من التحرير على طلب التأثر ، فليس يحسن إذن أن توصف بأنّها قصيدة ثائرة مفعمة بروح الانتقام ، أو أنها تعبر ليس كمثله تعبر عن روح الشاعر ، جياشة ثائرة غاضبة ، لا يكاد يستطيع كبحها على أن تثار للقتل ل ساعتها"^(٢)، ولم ينس إصراره هذا حين تعلق الأمر بمحاولاتي الحيثية في ربط أقسام القصيدة الذي اقترحه ، فتجده يثبت أن الغناء كلّه خرج من خراج الرثاء لا مخرج الذكرى لو ربط القسمان الرابع والثاني بدون فصل القسم الثالث بينهما ، وفي ذلك يقول :

"فمولد هذا القسم الرابع من الإحساس بتراجع القسم الثاني ، وطموحه وحنينه إلى (يَرْكِبُ الْهُوَلَ وَحِيداً..)"^(٣)

(١) نمط صعب ونمط مخفف لمحمود شاكر ، ص : ١٤٢ .

(٢) هذا جزء من بيت في نفس القصيدة والبيت كاملاً هو : يَرْكِبُ الْهُوَلَ وَحِيداً وَلَا يَصْدُ حبّة إلّا اليماني الأفلُ.

يجعله أشد التصاقاً والتحاماً بهذا الموضع من الغناء منه بالقسم الأول ... ولو وقع مثل هذا لشاعر لم يتوغل في أسرار النغم توغل شاعرنا هذا ... لاحق هذا القسم الرابع بالقسم الثاني دون أن يفصل بينهما بشيء ولكن حدق زمن النفس الكامن في أعماقه السحرية نقض يده من هذا الخاطر ، ولا شك أنه قد خطر له ؛ لأنه لو فعل ما أوحى به لكان مضطراً أن يرفد هذا القسم الرابع بفاتحة أشد التصاقاً والتحاماً بإحساس البيت الأول منه بالقسم الثاني (خَبَرْ مَا نَائِبَنَا مُصْمِئُ^(٢)) وبذلك يكون قد أخرج الغناء كله مخرج الرثاء لا مخرج الذكرى ، ولكن هذا يقتضيه أن ينقض بناء القصيدة كله ، وأن يكسب ألفاظها وأنغامها سمتاً آخر غير هذا

(١) السابق : ص : ٢٤٩ .

(٢) القسم الثاني من القصيدة يتكون من تسعه أبيات وهو الأطول بحسب تقسيم الأستاذ محمود شاكر ، وهي :

خَبَرْ مَا نَائِبَنَا مُصْمِئُ	حَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الْأَجْلُ
بَرَبِّيْ الدَّهْرُ وَكَانَ عَشُومَةً	يَأْبَيْ جَاهِرَةً مَا يُذَلُّ
شَامِسٌ فِي الْفَرِّ حَتَّى إِذَا مَا	ذَكَرِ الشِّعْرِيْ فَبَرْدُ وَظِلُّ
يَابِسُ الْجَنْبَيْنِ مِنْ غَيْرِ بُسْؤِسٍ	وَنَدِيْ الْكَفَيْنِ ، شَهْمُ ، مُدْلُ
ظَاعِنُ بِالْحَزْمِ ، حَتَّى إِذَا مَا	حَلَّ حَلَّ الْحَرَمُ حَيْثُ يَحْلُلُ
عَيْثُ مُزِنٌ عَامِرٌ حَيْثُ يُجْدِي	وَإِذَا يَسْنُ طُوْ فَلَيْسُ أَبَلُ
مُسْبِلٌ فِي الْحَيِّ أَحْجَوِيْ رِفْلُ	وَإِذَا يَعْزُرُو فَسِمْعُ أَزْلُ
وَلَهُ طَعْمَانِ : أَرْيِي وَشَرِيْ	وَكَلَا الطَّعْمَيْنِ قَدْ دَافَ كُلُّ
يَرْكَبُ الْهُولَ وَحِيدًا وَلَا يَصْ	حُبْهُ إِلَّا الْيَمَائِيْ الْأَفَلُ

والقسم الرابع هو قول الشاعر :

فَلَيْنِ فَلَيْتُ هُدَيْلَ شَبَّاً	لِمَا كَانَ هُدَيْلًا يُمْلِئُ
وَعِمَا أَبْرَكَهَا فِي مُنَاخٍ	جَعْجَعٍ يَنْقَبُ فِيهِ الْأَظْلُ
وَعِمَا صَبَّحَهَا فِي دُرَاهَمًا	مِنْهُ بَعْدَ الْفَتْلِ نَهْبَتْ وَشَلَ

السمت ، ولأنزل بالقصيدة كلها أذية مؤلمة ، ولنزلت عندئذ من ذروتها الشاهقة التي بلغتها ، فمن أجل هذا ومخالفته أقدم زمن النفس على التشعيث ، فقطع أواصر القسم الرابع التي تربطه بالقسم الثاني وخاتمه ، وأنزل بينهما القسم الثالث ^(١).

إذن فشاكر يرى أن تقسيم القصيدة إلى أقسام عادلة أولى به إلى الصحة أن يكون القسم الثالث فاصلاً بين القسمين الرابع والثاني ؛ لأن الشاعر قصد إلى تقديم زمن النفس عن تشعيث شعره وتفريقه ، وزمن النفس مصطلح جاء به الأستاذ محمود شاكر رحمه الله وألحقه في كتابه نمط صعب ونمط مخيف بفهرس المصطلحات الأدبية والنقدية ، وقد فسره الأستاذ بأنه زمن القصيدة الذي يشبه تخلق الجنين حتى يتم خلقه ؛ وعليه فإن زمن النفس هذا يبدأ من البدايات الأولى للقصيدة وينتهي بنهاية آخر حرف فيها ، وهو " الذي يؤثر في تغير الألفاظ والتراكيب والدلالات فينظمها النغم الواحد أو الأنغام المختلفة التي يتكون منها لحن واحد متكملاً ، وهو الذي نسميه القصيدة ^(٢) ، وبناء على هذا التعريف فإن سلطة زمن النفس هي السلطة الأعلى في القصيدة ، وهي سلطة متطاولة لا تنقضي إلا بانقضاض كل القصيدة ، وهي التي تتحكم في الدلالات والمقتضيات الشعرية بما فيها التشعيث الذي يرى الأستاذ أن الشاعر الجاهلي كان يتعمد وجوده في قصيده ، ولكن شاعر هذا النص آخر التشعيث وجعله أهمية تالية بعد زمن النفس ، فزمن النفس ألزم الشاعر بالفصل بين القسمين الرابع والثاني بحسب ترتيبه ، ولجا الأستاذ لتفويية استنباطه لاستدلال المعكوس الذي رتبه على أساس فرض أن قدم الشاعر التشعيث على زمن النفس ، ووصل بين القسمين الرابع والثاني بدون فاصل بينهما ، لتكون نهاية القسم الثاني متصلة بشكل مباشر بأول القسم الرابع على هذا النحو :

يَرْكِبُ الْهَوَّلَ وَحِيداً وَلَا يَصْدِرُ
حُبَّةً إِلَّا أَيْمَارِيُّ الْأَفَلَّ

فَلَيْكُنْ قَلْتُ هَدَيْلَنْ شَبَّاءَ
لِيمَا كَانَ هُدَيْلَأَ يَفْعَلُ

إذن هذا نقىض استنباط الأستاذ الذي رتبه بناء على ما يقتضيه زمن النفس ، ورأى الأستاذ رحمه الله لو أن

(١) نمط صعب ونمط مخيف لمحود شاكر ، ص : ٢٤٩ .

(٢) السابق ، ص : ٢٤٢ .

الشاعر وصل القسمين الثاني والرابع بدون فاصل بينهما لكان الشاعر مضطراً " أن يردد هذا القسم الرابع بفاتحة تجعله أشد التصاقاً والتحاماً بإحساس البيت الأول منه بالقسم الثاني ، (حَبَرْ مَا نَابَنَا مُصْمِلٌ) وينغم البيت الذي يليه : (بَنَى الدَّهْرُ وَكَانَ غَشُوماً).... ثم يأتي عندهن بعد الفاتحة بقوله : (فَأَئِنْ قَلَّتْ هُدَيَّاً شَبَّاءً) " ^(١).

وفي استدلال الأستاذ السابق لابد من الإشارة إلى ثلاثة أمور :

أولها : في هذا الاستنباط والاستدلال له بالعكس تضارب وتصادم بين وجود التشعيث في القصيدة الجاهلية بحسب تفسير الأستاذ له من عدم وجوده ، فهو يرى بأن التشعيث فن ومذهب يسلكه الشاعر الجاهلي ، واعتبر ما جاء في الشعر الجاهلي من اختلال في ترتيب الأبيات من قبيل التشعيث الذي يقصده الشعراء ؛ لأنهم " لم يقصدوا إلى الإبانة المغسولة عن المعاني ، بل ركبوا إلى أغراضهم أغمض ما في البيان .. من المذاهب ، فربما شعثروا ما كان حقه أن يكون مجتمعاً ؛ لأنهم لا يبلغون حق الشعر إلا بهذا التشعيث " ^(٢) وهذا جميل وحسن استظهار منه رحمه الله ، ثم يرى في هذا الاستنباط أن الشاعر قد فصل بين القسمين الرابع والثاني لأنه قدم زمن النفس لأهميته وأخر عنه التشعيث ففصل بينهما بالقسم الثالث ؛ لأن زمن النفس هو المسيطر على الشاعر والمتحكم فيه حينها ، ثم استدل بالعكس لدعم استنباطه بأن الشاعر لو وصل بين القسمين الرابع والثاني لاضطر لإيجاد فاتحة يتبدئ بها القسم الرابع .

وهذا الاضطرار يتعارض مع ما قوله الأستاذ سابقاً من أن الشعراء يتخذون من التشعيث مذهباً وفناً فيفرقون ما حقه الاجتماع من الكلام ، فإلزام الشاعر بفاتحة يوطئ بها أبيات القصيدة يتضاد في حقيقة الأمر لاستظهار الأستاذ بجنوح الشعراء الجاهليين للتشعيث ، كاحتجاج لما احتل ترتيبه من أبيات قصائدهم .

ثانيها: التطبيق العملي لتقسيم الأستاذ لأبيات القصيدة يتطلب أن يفصل بين بيتين مرتبطين كل الارتباط وهما:

(١) نمط صعب ونمط مخيف لمحمود شاكر ، ص : ٢٤٩ .

(٢) السابق ، ص : ١٢٩ .

بعضهما البعض ، وهما قول الشاعر :

بِرَبَّ الْهُوَلِ وَحِيداً وَلَا يَضْعُ
جُهْهُ إِلَّا الْيَمَانِيُّ الْأَفْلَ
لِمَّا كَانَ هُذِيلًا يَفْلُ
فَلَئِنْ فَلَّتْ هُذِيلٌ شَبَاءٌ

فالبيت الأول من هذين البيتين هو آخر القسم الثاني بحسب ترتيب الأستاذ ، والبيت الثاني هو أول القسم الرابع ، وعند النظر للبيتين وللوهلة الأولى يلاحظ بأن فلول السيف هو القاسم المشترك بينهما ، ففلول السيف أتى في البيت الأول كنা�ية عن شجاعة المقتول (حال الشاعر) ، فهو شجاع لا يخشى الأهوال لاعتباره عليها ولا يكون بمعيته عند ركوكها إلا السيف اليماني المتلثم من كثرة الضرب به ، هذا هو المعنى العام لهذا البيت ومن الملائم جداً أن يكون قوله (فَلَئِنْ فَلَّتْ هُذِيلٌ شَبَاءُ ...) بعده مباشرة بدون فاصل ؛ لأنه الحديث فيه مستكملاً لأهم صفة في حال الشاعر المقتول التي جعلت هذيل تقتله وتفل شbah ، وهي صفة الشجاعة التي استدعاها الشاعر بأسلوب كنائي بديع في البيتين معاً ، فكنا عن الشجاعة في البيت الأول بفلول السيف لكثره الضرب به ، ثم كنا به في البيت الثاني عن نيل هذيل من خاله وقتلهم إياه بشجاعة ليس مثلها شجاعة بقوله (فَلَئِنْ فَلَّتْ ...) ، ومعنى إن كانت هذيل التي قتلت تأبط شراً قد نالت منه وفلت حده ، فهي لم تفعل ذلك إلا بسبب من فعله في هذيل قبل نيلهم منه ، فقد كان يشخن فيهم القتل ويمزقهم في كل غارة يغیرها عليهم ، وكنا بفلول سيف خاله عن مقتله ليبين أن هذيلاً لم تقتل إلا بعد أن فلت سيفه بعد مواجهة مباشرة لم يهرب منهم فيها ؛ بل قام بمعاقعتهم وضربهم بسيفه حتى نالت منه وقتلته ، ثم اختتم استدعاء فلول السيف في آخر البيت الثاني بقوله " لِمَّا كَانَ هُذِيلًا يَفْلُ " فهذيل لم تفل حده وقتلته إلا بكترة ضربه لهم ومطاعنتهم وفله حدود سيوفهم .

وكل هذه التداعيات بفلول السيف تصب في معنى واحد كان هم الشاعر أن يبرره ويستكمله في صورة فلول السيف بصور مختلفة في هذين البيتين ، وعليه فإن ترتيب هذين البيتين ووضعهما متعاقبين هو السبيل الوحيد لاستكمال الصور المختلفة لفلول السيف ، ويزيد من قوة ترابط هذين البيتين أنها في وصف شخصية واحدة وهي حال الشاعر ، ويزيد ثم يزيد من قوة ترابطها أنها صارخة في وصف حال الشاعر بالشجاعة وحدتها من بين صفاتيه التي ذكرها عنه في هذه القصيدة .

فلذلك ومن أجله يكون تعاقب البيتين بهذا الترتيب أقرب للصواب من فصلهما بأجنبٍ يشكل وجوده بينهما فجوة كبيرة في استكمال المعنى وتمامه ، فإن قيل على ترتيب الأستاذ رحمه الله :

يَرْكِبُ الْهَوَلَ وَحِيدًا وَلَا يَصِ—
وَفُتُّوْ هَجَرُوا ثُمَّ أَسْرَوا لَيْلَهُم
كُلُّ مَاضٍ قَدْ تَرَدَّى بِمَاضٍ
فَاحْتَسَوْا أَنْفَاسَ نَوْمٍ فَلَمَّا
لَمِّا كَانَ هُدَيْلًا يُفْكِلُ
ثَمَّ لَوْا رُعْتُهُمْ فَأَشْعَلُوا
حَتَّىٰ إِذَا اجْبَابَ حَلُوا
خُبْءُهُ إِلَّا الْيَمَانِيُّ الْأَفَلَ—

فقد تم الفصل بين هذين البيتين المرتبطين بأبيات قد لا تكون من قوة الارتباط بمنزلة تعاقبهما ، وفيها عسر انتقال وتحلص من حديث الشاعر عن حاله ووصفه بالشجاعة (يَرْكِبُ الْهَوَلَ ..) ، ثم انتقاله بشكل مفاجئ للحديث عن الفتية الذي ذخرها أنفسهم للأخذ بثأر المقتول ، (وَفُتُّوْ هَجَرُوا) واستكمال وصفه لهم بالسيوف الماضية التي تردت بسيوف ماضية تشبه سنا البرق ولعنته ، واستكماله أيضاً في قوله (فَاحْتَسَوْا أَنْفَاسَ....) وصف مسيرهم وغلبة النعاس عليهم ثم قيامه بترويعهم وتفزيعهم حتى جدوا في السير ، ثم العودة بعد ذلك كله إلى استكمال وصف حاله بالشجاعة بتقنية فلول السيوف في قوله (فَلَئِنْ فَلَّتْ هُدَيْلٌ ...) ، وفي هذا الترتيب ما فيه من قطيعة وتشتيت شمل معنى واحد متراطط ومتتابع في بيتهما أن يتبعا لتمامه بتعاقبهما.

ثالثاً : الذي دفع الأستاذ محمود شاكر للاستدلال بالعكس في هذا الموضع كما تمت الإشارة إليه هو استباطه القائم على أن القصيدة خالية من الرثاء والتفجع ، وبرهانه من التحرير على طلب الثأر ، حيث يرى "أن القصيدة معقدة على تذكر شيء مضى حدث به الشاعر نفسه فتفغى وترنم ، إلا الأبيات الخمسة في أوله فإن لها شأنآ آخر " ^(١) ، ويرى أن الأبيات الخمسة الأول من هذه القصيدة حديث نفس مطوية على كمد وغيظ ، وأن الشاعر انصرف حتى في هذه الأبيات عن الرثاء ؛ وعلل انصراف الشاعر عن الرثاء بأن قوم تأبطن شرأ

(١) نمط صعب ونمط مخفف لمحمود شاكر ، ص : ١٤٢ .

المقتول حينما جاءهم نبأ مقتله "أكثروا اللغط في دمه ، وببدأ منهم التردد والإحجام عن إدراك ثأره ، وآثروا السلامة ، فقد هلك تأبط شرًا ... وهلك قبل مهلكه الفتاك من إخوته وهلك أشدّاؤ أصحابه بالغارات ، تفانوا جميعاً وهم حماة (فهم) وألو الألأس فيها ، وإنما هلك تأبط شرًا وهو غازٍ في الطلب بتأرهم فكان القوم أحجموا لذلك عن الخروج في نقض هذه الأوّلار^(١) وبني بناء على ذلك خشية الشاعر من ذهاب دم حاله هدراً فاستقل هو والفتية الذين ذكرهم في القصيدة بطلب الثأر .

وإذا كان الأستاذ رحمه الله قد أخرج القصيدة من الرثاء وأدخلها في باب الذكرى ؛ فلست أرى الذكرى التي قصدها إلا تلك الذكرى التي تشتمل عليها كثيرون من قصائد الرثاء ، فمن أشهر المرثيات في الأدب العربي على الإطلاق مرثيات النساء التي لا تكاد تخلو قصيدة منها على الذكرى ؛ التي جعلها الأستاذ محمود شاكر مستقلة في هذه القصيدة عن الرثاء ، ومع اشتتمال بعض قصائدها على هذه الذكرى تصريحاً وتلميحاً فليس بمقدور أحد أن يستقل بها عن الرثاء مطلقاً ، لا سيما وأن الذكرى التي تشتمل عليها قصائد الرثاء ليست في حقيقتها إلا رثاء لا يتجزأ عنه ولا يستقل ، ومنه قول الحنساء :

تذَكِرُتْ صَحْرَاً إِذْ تَعَنَّتْ حَمَامَةُ
هَتَوْفٌ عَلَى عُصْنٍ مِّنَ الْأَيْكِ تَسْجُعُ

فَظَلَّتْ لَهَا أَبْكَيِ بَدْمَعِ حَزِينَةٍ
وَقَلْبِي مَمَّا ذَكَرْتِنِي مُوجَجٌ

تُذَكِّرُنِي صَحْرَاً وَقَدْ حَالَ دُونَهُ
صَفِيفُخُ وَأَحْجَارُ وَيَدِاءُ بَلْقَعُ

وقوها :

لَا تَخْلُنِي أَيّْ نَسِيْثُ وَلَا بَلَّ
فُؤَادِيْ وَلَوْ شَرِبْتُ الْقَرَاحَا

ذِكْرَ صَحْرٍ إِذَا ذَكَرْتُ نَدَاهُ
عِيْلَ صَبَرِي بِرْزَئِه شَمْ بَاحَا

(١) نُطِ صعب ونُطِ مخيف لـمُحَمَّد شَاكِر ، ص: ١٤٧ .

(٢) ديوان الحنساء ، ص : ٨٠ .

(٣) ديوان الحنساء ، ص : ٢٨ .

فهذه الأبيات من مراثي النساء وهي صريحة بالذكرى التي هي عين الرثاء ووجهه الآخر ، ولا يستطيع بحال إخراجها من باب الرثاء إلى باب الذكرى حتى ولو تم استحداث باب في أغراض الشعر اسمه الذكرى مستقل عن غيره من الأغراض ، ثم إن الأستاذ شاكر رحمه الله اعتبر قصيدة المتنبي في رثاء جدته من باب الرثاء لا من باب الذكرى على أن فيها من الذكرى التي لم يصرح المتنبي بلفظها ما يزيد عن الذكرى التي في قصيدة (إن بالشعب الذي دون سلع) ، ومنها قول المتنبي :

فَمَا تَثْتَ سُرُورًا بِي فَمُتْ هَا غَمَّا	أَتَاهَا كِتَابِي بَعْدَ يَأسٍ وَتَرْحَةٍ
تَرَى بِحُرُوفِ السَّطْرِ أَغْرِبَةً عُصْمَاً	تَعَجَّبُ مِنْ لَفْظِي وَحَطَّيْ كَائِنًا
لِرَأْسِكِ الْصَّدْرِ الَّذِي مُلِئَا حَزْمًا	فَوَا أَسْفًا أَلَا أُكِبَ مُقَبِّلًا
كَانَ ذَكَرِي الْمِسْنَاكِ كَانَ لَهُ جِسْمًا ^(١)	وَأَلَا أُلَاقِي رَوْحَكِ الطَّيِّبِ الَّذِي

على أن نفي الأستاذ محمود شاكر أن يكون في القصيدة رثاء وتفجع وتحريض على الثأر قد لا ينطبق على هذه القصيدة كلها ، ففي بعضها عاطفة صريحة بالرثاء وإظهار التفجع على المقتول ، فقوله :

جَلَ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الْأَجْحَلُ	خَبَرٌ مَا نَابَنَا مُصْمَئِلٌ
بِإِبْيَيْ جَاهِرٌ مَا يُدَلِّلُ	بِرَبِّيِ الدَّهْرِ وَكَانَ عَشُومًا

فهذا البيان تدلان أيما دلالة على التفجع على المقتول والتحسر على فراقه وتقتل عظم خبر مقتله وجلالته ، وتفصح عن أن الشاعر ابلي بلاء عظيما بقتل خاله وفرقه ، ولا أظن رثاء وتفجعاً أشد وضوحاً من ذلك ، شأنه في ذلك شأن قصائد الرثاء التي يظهر فيها الشاعر فاجعته وصدمته من هول نبأ موت من يرثيه ، أما التحريض على طلب الثأر والانتقام فهي لا تكاد تخفي ومن مطلع القصيدة بحسب ترتيب الأستاذ لها :

لَقْتِيَلًا دَمْهُ مَا يُطَلِّ	إِنَّ بِالشَّعِ الَّذِي دُونَ سَلْعٍ
--------------------------------	--------------------------------------

(١) ديوان المتنبي ، ص : ١٧٤ ، ١٧٥ .

قَذَفَ الْعِبْءَةَ عَلَيَّ ، وَوَلَىٰ
 أَنَا بِالْعَبْءِ لَهُ مُسْتَقْلٌ
 وَوَرَاءَ الشَّأْرِ مَيِّ ابْنُ أَخْتٍ
 مَصِعْ عُقْدَتُهُ مَا تَحْلُّ
 مُطْرُقٌ يَرْشُحُ مَوْتًا ، كَمَا أَطْ
 سَرَقَ أَفْغَى ، يَنْفَثُ السُّمَّ صَلَّ

فهذه الأبيات تسسيطر عليها روح الانتقام ويهيمن عليها التحرير على طلب الثأر لقتلة خال الشاعر ، فقائل النص ومن البيت الأول قال إن دم القتيل لا يطل ، وإنه سيثار له ولن يجعل دمه يذهب هدراً ، وهذا صريح في التهديد والوعيد بما لا يحتاج إلى مزيد من الإبانة ، وقوله (قذف العباء) صريح هو الآخر في البيان عن التحرير على الثأر من قتلة خال الشاعر ، فالقتيل قذف بعبء على ابن اخته الذي قال النص وقد استقل به دون غيره ، وهذا العباء يتمثل في نيله من قتلة خاله والثأر له من قتله ولا يحتمل أن يكون العباء شيء آخر غير هذا ، وهذا أوضح من أن يقال عنه إنه تحريض صريح على طلب الثأر ، ومثله قوله (ووراء الثأر مني)
 فقد اشتمل على "ضرب من الوعيد، بأنه يجري مجرى قول القائل: الله من ورائك"^(١) ، ومجيء هذا البيت في مطلع القصيدة وفي معرض الحديث عن قتل خاله وما عقب القتل مباشرة من استقلاله بالثأر له ، وقبيل الحديث عن الثأر نفسه وعن الثأرة أنفسهم ، ما يشي بأن الشاعر يحرض نفسه على الثأر لخاله ويعللها بالنيل من هذيل التي قامت بهذه الفعلة الشنيعة ، أما قوله (مُطْرُقٌ يَرْشُحُ مَوْتًا ..) فإن الشاعر يشبه فيه إطراقه وسكونه متظراً لفرصة ينتهزها في إدراك ثأره ، بالحياة التي تسكن عند ترخيصها بأحد، وشبه إمساكه لمن يطلب منهم الثأر بعد سكونه وإطراقه ونيله منهم باسم الحياة التي تقتل لدغتها ما تمسك أنيابها وتأتي عليه ، وفي هذا ما لا يخفى من روح الانتقام المفعمة التي يتنفسها الشاعر ، وفيها ما فيها من التهديد والوعيد والتحريض على طلب والثأر ولا غير الثأر ، إذن فبعض أبيات القصيدة صريحة كل الصراحة في التهديد والوعيد والتحريض على طلب الثأر والنيل من هذيل .

أما قوله :

فَاخْتَسِواْ أَنفَاسَ نَوْمٍ فَأَمَّا
 هَوَمُواْ رُعْتُهُمْ فَاسْمَعُلُوا

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ، ص ٥٨٧ .

فهو شديد الإبانة عن تحريض الشاعر لمن خض معه في طلاب ثأر خاله ، فهؤلاء الثأرة ساروا كل يومهم ، ثم نزلوا وهو موموا ، وناموا نومةً خفيفةً فلما أمهلهم حتى انتهوا من هذه النومة قام باليقاظهم وتروعهم وبعثهم للارتحال ومتابعة السير في طلب الثأر ، ولا أرى هذا التروع والتنبيه إلا من باب التحريض على القتل ، بل وتجاوز فيه الشاعر مرحلة التحريض اللغطي إلى التحريض العملي ، ويكتفي أن يقال في ذلك أن القوم قد خفوا بعد أن نبههم وقام بتروعهم أو قل تحريضهم .

أما الرثاء وهذه القصيدة تستوفي ما في قصائد الرثاء من عناصر بطرقها شعراء الرثاء وتشتملها المراثي ، وأهمها حديث الشاعر الرثائي عن حتمية الموت ، والشاعر في هذه القصيدة رأى أن قتل خاله وإن كان فاجعة وخبرًا مصملاً ، فإنه كان متتحققًا بما كان يفعله في هذيل من الأفاعيل ، فقد كان يقتلهم ويؤذينهم ويهينهم ويوردهم موارد الهاك ، وهم منه واجفون حتى تحقق لهم النيل منه :

لِمَا كَانَ هُدَيْلًا يُفْلِ

فَكِنْ فَلَّتْ هُدَيْلٌ شَبَّاً

جَعْجَعٍ، يَنْقَبُ فِيهِ الْأَظْلَ

وَمَا أَبْرَكَهَا فِي مُنَاخٍ

مِنْهُ، بَعْدَ الْفَتْلِ نَهْبٌ وَشَلٌ

وَمَا صَبَحَهَا فِي دُرَاهَمٍ

ومنها أيضاً التفجع وإظهار اللوعة والأسى على فراق المرثي ، وقد تم بيانه سابقاً وأنه متمثل في قوله :

جَلَّ حَقَّ دَقَّ فِيهِ الْأَجَلُ

حَبَّرٌ مَا نَابَنَا مُصْمِئُلٌ

بِأَيِّ جَارٍ مَا يُذَلٌ

بِرَبِّ الْدُّهْرِ وَكَانَ عَشُومًا

أما عنصر التأبين فمما لا يخفى أنه العنصر الأهم والمكون الرئيس لقصائد الرثاء ، والشاعر هنا قد أبن مرثيه ووصفه بصفات كريمة رفيعة ، وكأنه في ذكرها وتعدادها يعلل سبب فجيئته عليه واستقلاله بشأره ، ف فهي مناقب زالت بزوال شخص عظيم دمه لا يُطل ، ويستحق إدراك ثأره مواصلة المسير ليلاً ونهاراً ، ويستحق العناء والمخاطرة وضرب الرقاب ، فالمقتول :

دَكَّتِ الشِّعْرِيَ فَبَرْدُ وَظِلٌ

شَامِسٌ فِي الْقُرْ حَتَّى إِذَا مَا

يَابِسُ الْجَنْبَيْنِ مِنْ عَيْرٍ بُؤْسٍ

طَاعِنٌ بِالْحَزْمِ ، حَتَّىٰ إِذَا مَا

عَيْتُ مُنْ عَامِرٌ حَيْثُ يُجْدِي

مُسْبِلٌ فِي الْحَيِّ أَحْوَى رِفَاعٌ

وَلَهُ طَعْمَانٌ : أَرْيٌ وَشَرْيٌ

وَنَدِيُّ الْكَفَّيْنِ ، شَهْمٌ ، مُدِلٌّ

حَلَّ حَلَّ الْحَرَمُ حَيْثُ يَحْلُّ

وَإِذَا يَسْطُو فَلَيْتُ أَبَلٌ

وَإِذَا يَغْرُزُو فَسِمْعَ أَزْلُ

وَكِلَا الطَّغَمَيْنِ قَدْ دَاقَ كُلٌّ

فهذ الأبيات صريحة في تأبين المرثي بصفات كريمة رأى الشاعر أنها كافية دون ما سواها لطلب الثأر له والنيل من قتلته ، وهذا التأبين هو من العناصر التي لا تكاد تخلي منه المرثي في الشعر العربي ، ووجوده مع إخوته في هذه القصيدة دليل على أن مأم هذه القصيدة الرثاء .

الأدلة الاستقرائية :

يُعرّف علماء المنطق الاستقراء بأنه " تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جيلاً^(١) ، والاستقراء من أهم الأدلة التي اعتمد عليها علماء التراث الإسلامي ، فضبطوا به الأحكام الفقهية والشرعية باستقراء ظواهرها ، وضبطوا به لغة العرب نحوها وصرفها ومعاني مفرداتها بعد أن استقرأوا ظواهرها من لسان العرب ، وكونوا منها قواعد عامة وأحكاما صارت مرجعاً للغة العرب حتى يومنا هذا ، " وكان للاستقراء دور مهم في استخراج علم العروض الذي وضعه الخليل ، وفي ضبط زحافاته وعلله ، إذ تتبع الشعر العربي ، وأحصى وضبط ما شاهد فيه "^(٢) .

وحينما يتعلق الأمر بالأدب والنقد العربيين المدونتين الكبيرتين في مسيرة محمود شاكر العلمية ، فإن كثيراً من أحكامه النقدية والأدبية اعتمدت وبشكل كبير على الاستقراء ، ذلك الاستقراء الذي يخضعه لتدوقة الخاص ، فيجعل منه مزيجاً علمياً لا يكاد يكون إلا عنده كما هو عند كبار العلماء ، وأكاد أجزم أن الاستقراء عند محمود شاكر مزوجاً بتدوقة الخاص هو التفسير الطبيعي لأغلب اعتراضاته اللغوية واستدراكاته على معاجم اللغة ، ولكنه مختلف عن استقراء علماء اللغة القدامى ، وذلك أن استقراء شاكر سبيله الوحيد هو بطون الكتب العربية التي غصت بها مكتبه وامتلأت بها ثقافته وانصقت بها دريته ، أما الاستقراء عند العلماء القدامى فهو استقراء للغة عن طريق تتبع ظواهرها من كلام العرب الأصحاح أنفسهم ، أو من كلامهم المتواتر المنقول للعلماء سمعاً أو مشافهة أو كان منسوخاً في الأطارات ، ثم استنتاج أحكام عامة منها هي ما نعرفه اليوم بالتحو والصرف والمعاجم اللغوية على سبيل المثال ، وحينما اختط شاكر لنفسه منهج التدوق كمنهج خاص يطبقه على كل كلام ، ألم نفسه بهذا النوع من الاستقراء الذي جعله ركناً بل حجر الزاوية التي يقوم عليها المنهج العلمي السليم ، بل جعله شرطاً أساساً لما قبل المنهج ، " أي الأساس الذي لا يقوم المنهج إلا عليه ، فهذا الذي أسميتها منهجاً ينقسم إلى شطرين : شطر في تناول المادة ، وشطر في معالجة التطبيق ، فشطر المادة يتطلب قبل كل شيء جمعها من مظاها على وجه الاستيعاب المتيسر ، ثم تصنيف هذا المجموع ، ثم

(١) ضوابط المعرفة لعبد الرحمن حبنكة ، ص : ١٨٨ .

(٢) السابق ، ص : ١٨٩ .

تحيص مفرداته تحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزائها بدقة متناهية أما شطر التطبيق فيقتضي إعادة تركيب المادة بعد نفي زيفها ، وتحيص جيدها ، باستيعاب أيضاً لكل احتمال للخطأ أو الهوى أو التسرع ، إذن فالاستقراء من أهم الدعائم الأساسية التي لا يقوم المنهج إلا بها عند محمود شاكر ، وقد ظهر جلياً اعتماده عليه في أمرين :

الأمر الأول : اعتمد محمود شاكر على الاستقراء دليلاً في معاركه الأدبية التي خاضها مع علماء زمانه ، ولم يكن يستخدم فيها الاستقراء فقط دليلاً يدعم به استبطاناته وأحكامه النقدية والأدبية ، بل كان يلاحظ على خصومه عدم استقرارهم الشامل وجمعهم المواد العلمية من مظانها على وجه الاستيعاب ، وليس أدل على ذلك من صنيعه مع لويس عوض ومحمد مندور وصراعه معهما حول أبي العلاء المعري في أباطيل وأسمار ، وسئلته على بعض من النماذج التي اعتمد فيها محمود على الاستقراء في صراعه الأدبي مع لويس عوض ومحمد مندور .

الأمر الثاني : اعتمد محمود شاكر على الاستقراء دليلاً استباطياً لكثير من استدراكاته اللغوية واقتراحاته وإضافاته على معاجم اللغة ، فكان كثيراً ما يستقرئ الظواهر اللغوية من كلام العرب الفصيح بمساندة ذاتقته الخاصة ، ثم يقوم بعد ذلك بالاستقراء والتنوّق بإطلاق أحكامة اللغوية التي شكلت ظاهرة علمية في مسيرته رحمة الله .

ومن ذلك أن انتقد شاكر وبشدة وبلغة حادة وعنيفة مؤلمة لويس عوض في كتابه أباطيل وأسمار على خلفية بعض الأحكام النقدية والأدبية التي انتهى إليها لويس عوض ، ولعل هذا الأمر ملاحظ منذ الصفحات الأولى لهذا الكتاب والتي لها أشد العلاقة وأقواها بالاستقراء ، وبيان ذلك أن لويس عوض أطلق في كتابه على هامش الغرمان مجموعة من الأحكام تتعلق بالجانب الاجتماعي عند أبي العلاء المعري ، وتتلخص في أن أبو العلاء المعري درس في اللاذقية وأنطاكية ، مستندًا لويس على ما ذكره القفطي والذهبي في أن أبو العلاء نزل بدير فيها والتقي أبو العلاء براهب درسه الفلسفة وعلوم الأوائل ، حيث إن علوم اليونان هي ما كان يقرأ في الأديرة في الفترة التي كان فيها الحكم للروم ، ويرى لويس عوض أنه لا يعرف شيئاً عن تعليم أبي العلاء المعري حتى سن العشرين وهي فترة التكوين ، إلا تعليمه في حلب ، ثم أنطاكية ، ثم اللاذقية ، ثم تعليمه في طرابلس ، ورأى لويس عوض أن هذا الغموض الذي أحاط بتكوينه العلمي حتى أن بلغ العشرين ، يكاد يتسرّب إلى حياته

كلها فيما بين العشرين والخامسة والثلاثين ،^(١) ورُصد حياة أبي العلاء المعري من هذه الزاوية لم يرق لمحود شاكر ؛ لأنَّه يفضي إلى القول بعدم أصالة ثقافة أبي العلاء المعري ، وأبو العلاء هو من هو عند محمود شاكر رحمه الله ، فلم تكدر تخلو مؤلفاته في بداية صفحاتها أو ما بين أقسامها من أبيات لأبي العلاء يلمس فيها من طرف خفي على من يعارضه ويخاصمه على المستوى القدِّي والأدبي ، ومن هنا ثارت ثائرة محمود شاكر على خلفية إطلاق لويس عوض لحكم تشرب أبي العلاء المعري للثقافة اليونانية عن طريق رصده لمسيرته العلمية حتى سن العشرين ، واتهم على إثر ذلك لويس عوض بعدم اطلاعه على الكتب التي ترجمت لأبي العلاء المعري ، بل واتهمه بأنه لم يطلع إلا على كتاب طه حسين الذي ألفه في أبي العلاء المعري^(٢) ، والحق أنَّ لويس عوض لم يزد على ما قاله طه حسين عن أبي العلاء المعري في هذه المرحلة من عمره ، بل ولم يذكر لويس عوض من تراجم العلماء التي اعتمد عليها سوى القفظي والإمام الذهبي ؛ وهما أكثر علميين اعتمد عليهما طه حسين في مقالته الأولى التي عنيت بزمان أبي العلاء المعري ومكانه ، ومحیطه الاجتماعي والسياسي ، والحياتين الاقتصادية والدينية ، وبناء عليه فقد اقترح محمود على لويس عوض أن يستقرئ كل ما يتعلق بحياة أبي العلاء المعري عن طريق الترجم التي غصن بها كتب العلماء ، كما علق مراجعتها له واستقصاء كل ما فيها بتناولها بحسب تسلسلها التاريخي ، ورأى شاكر أن استقراء حياة أبي العلاء المعري على هذا النحو كفيل برصد جانبه الثقافي وحياته الدينية وهو أهم جانبي من حياة أبي العلاء المعري ، وعدد بناء على ذلك ثمانية وعشرين كتاباً وردت فيها كلها ترجم لأبي العلاء المعري ، وقام محمود بسرد مؤلفي هذه الكتب مرتبين بحسب زمانهم ، ومقسمين بحسب معاصرهم لأبي العلاء المعري وتأخرهم عنه ، وبعد أن قام بتعداد مؤلفي هذه الكتب وترتيبها قال :

" فأيُّ أستاذ جامعي ... يستطيع أن يغفل الاطلاع على هذا كله ، ويقتصر على نقلٍ من كتاب محدث ألفَ منذ أكثر من خمسين سنة ، ويتجاهل كل ما كتبه المحدثون بعد هذا الكتاب ، إلا أن يكون في دراسته ملتفقاً ،

(١) على هامش الغفران ، ص ٩٦ - ٩٩.

(٢) الكتاب هو تجديد ذكرى أبي العلاء ، لطه حسين ، ط٦، عام ١٩٦٣ م ، لدار المعارف بمصر ، ويقصد محمود شاكر منه قسمه الأول الذي سماه طه حسين المقالة الأولى والتي تناول فيها زمان أبي العلاء المعري ومكانه ، ومحیطه الاجتماعي والسياسي ، والحياتين الاقتصادية والدينية ، ينظر لصفحة ٢٩ - ١٠٠ من الكتاب السابق .

متراجلاً طيasha^(١).

والحق أن محمود شاكر قد حصر أغلب الكتب التي ترجمت لأبي العلاء المعري ، ورتبتها تاريخياً ، ثم نسب لكل من مؤلفيها ما قاله في قضية تعليم أبي العلاء المعري إن كان قد تناولها ، ويشير إلى عدم تناول المؤلف لهذا الجانب إن لم يكن ، وقد أثمر استقراء محمود شاكر في هذه القضية لثمانية وعشرين مؤلفاً بما يلي :

أولاًً : أن العلماء الذين عاصروا أبي العلاء المعري وترجموا له لم يذكروا قصة تعليمه مع أنهم أقرب العلماء عهداً به ، وهم أبو منصور الشعالي ، والخطيب البغدادي ، والباخرزي في دمية القصر .^(٢)

ثانياً : أن بعض العلماء أساءوا القالة في دين أبي العلاء المعري ، ومع ذلك لم يذكروا قصة تعليمه التي ذكرها

(١) أباطيل وأسمار محمود شاكر ، ص : ٢٧ .

(٢) لم تذكر كتب هؤلاء العلماء جانباً من تعليم أبي العلاء المعري ، وقد توقف بعضها عن الحديث في فساد دينه ، بل نقل أبو منصور الشعالي حديثاً لأبي العلاء عن صبره واحتسابه بما أصابه الله به من العمى ، يقول الشعالي : " قد جمعت بين أهل معرة النعمان التي أخرجت هؤلاء الفضلاء وهي غير مشهورة بخراسان وكان حدثني أبو الحسن الدلفي المصيصي الشاعر وهو من لقينه قديماً وحديثاً في مدة ثلاثة سنين قال لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب رأيت أعمى شاعراً طريفاً يلعب بالشطرين والنرد ويدخل في كل فن من الجد والم Hazel يمكن أن يكون أنا أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى الْعَمَى كَمَا يَحْمِدُهُ عَيْرِي عَلَى الْبَصَرِ فَقَدْ صَنَعَ لِي وَأَحْسَنَ لِي إِذْ كَفَانِي رُؤْيَا الثَّقَلَاءِ الْبَغَضَاءَ ... " ينظر ليتيمة الدهر في محسنات أهل العصر ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الشعالي ، تحقيق مفید محمد قمحة ، ط١ ، عام ١٩٨٣م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، وقد ورد في بعضها إثبات لفساد دينه ، وفساد الدين هذا الذي أشاروا إليه من المحتمل أن يكون بأثر من تعليميه الذي تلقاه في المرحلة الأولى من عمره ، ومن ذلك ما ذكره الباخرزي : " أبو العلاء أَحْمَدُ بْنُ سَلِيمَانَ الْمَعْرِيَ التَّنْوِخِيَ ضَرِيرٌ ، مَا لَهُ فِي أَنْوَاعِ الْأَدْبِ ضَرِيرٌ ، وَمَكْفُوفٌ فِي قَمِيصِ الْفَضْلِ مَلْفُوفٌ ، وَمَحْجُوبٌ خَصْمَهُ الْأَدَلُّ مَحْجُوبٌ ، قَدْ طَالَ فِي ظَلَالِ الْإِسْلَامِ أَنَاؤُهُ ، وَلَكِنَّ رِبَّاً رَشَحَ بِالْإِلْحَادِ إِنَاؤُهُ وَعَنَدَنَا خَبْرُ بَصَرِهِ ، وَاللهُ الْعَالَمُ بِبَصِيرَتِهِ ، وَالْمَطْلُعُ عَلَى سَرِيرَتِهِ ، وَإِنَّمَا تَحْدِثُ الْأَلْسُنَ بِإِسَاعَتِهِ لِكَتَابِهِ الَّذِي زَعَمُوا عَارِضَهُ بِالْقُرْآنِ ، وَعَنْوَنُهُ بِ«الْفَصْوَلُ وَالْغَایَاتُ» مُحاذاةً لِلسُورِ وَالآيَاتِ ، وَأَظَهَرَ مِنْ نَفْسِهِ تَلْكُ الْخِيَانَةِ ، وَجَدَّ تَلْكُ الْمَوْسَاتِ كَمَا تَجَدَّ العِيرُ الصَّلَائِنَةُ ... " ينظر لدمية القصر وعصرة أهل العصر ، علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي ، ط١ ، عام ١٤١٤هـ ،

لدار الجليل بيروت ، ج١ ، ص ١٥٨ .

القططي واعتمد عليها لويس عوض ، وهؤلاء العلماء هم السمعاني ، وابن الأنباري ، وابن الجوزي ، فالسمعاني مثلًا حين ترجم لأبي العلاء المعري قال :

" والشاعر المعروف البحر الذي لا ساحل له في اللغة ومعرفتها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري البصیر أعجوبة الزمان ، غير أنه تكلم في عقيدته أدركـت بمحض من كان يذكر وفاته بالمعرة وهو أبو المعالي عشاير بن ميمون بن مراد التنوخي، وتوفي أبو العلاء في شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربع مئة بالمعرة...."^(١)

وابن الأنباري هو الآخر لم يتحدث عن تعليم أبي العلاء المعري ، ولكنه لم يحکم بفساد دينه وإنما احتاط لنفسه أن بييء بإثـمـ الطعن في دين الإنسان ومذهبه ، واكتفى ابن الأنباري بقوله:

" ويحـكـيـ عنهـ كـلـمـاتـ وـأـشـعـارـ مـوـهـمـةـ،ـ تـوـجـبـ فـيـ حـقـهـ التـهـمـةـ؛ـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ"^(٢)

أما ابن الجوزي فلم يتحدث عن تعليم أبي العلاء المعري بشيء ، ولكنه أساء القول في فساد دينه ومعتقده ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال ابن الجوزي :

" وأما أبو العلاء المعري فأشعاره ظاهرة الإلحاد وكان يبالغ في عداوة الأنبياء ، ولم ينزل متخبطاً في تعشيره خائفاً من القتل إلى أن مات بخسارته، وما خلا زمان من خلف للفريقين إلا أن جمرة المنسطين قد خبت بحمد الله فليس إلا باطنـيـ مـسـتـرـ وـمـفـلـسـفـ مـتـكـاتـمـ هوـ أـعـثـرـ النـاسـ وـأـخـسـاـهـمـ قـدـراـًـ وـأـرـدـاهـمـ عـيـشـاـ وـقـدـ شـرـحـناـ أحـوـالـ جـمـاعـةـ مـنـ الفـرـيقـينـ فـلـمـ نـرـ التـطـوـيلـ بـذـلـكـ وـالـلـهـ المـوـقـفـ ."^(٣)

(١) الأنساب لأبي سعد السمعاني ، تقديم وتعليق ، عمر البارودي ، ط١ ، عام ١٩٨٨ م ، لدار الجنان بدمشق ، ج ٥ ، ص ٣٤٢.

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، كمال الدين الأنباري ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، ط ٣ ، ١٩٨٥ م ، مكتبة الزرقاء بالأردن ، ص ٢٥٩.

(٣) تلبيس إبليس ، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، ط ١ ، عام ٢٠٠١ م ، لدار الفكر للطباعة والنشر بيروت ، ص ١٠٠ .

وشاكِر يرى أن هؤلاء العلماء الذين سبقو القفطِي لم يقولوا مطلقاً بقصة تعليمه ولم يثبتوها قبله ، وإنما تفرد بها القفطِي عن سبقه من العلماء ، وهذا أول وجه من وجوه بطلان هذه القصة عند الأستاذ .

ثالثاً : تعرضت قصة القفطِي في تعليم أبي العلاء المعري التي اعتمد عليها لويس عوض لنقد فاحض من الأستاذ رحمه الله بغية إبطالها من داخلها على طريقة علماء مصطلح الحديث ، ولابد من إثبات نص هذه القصة على طوله وهي :

"لما كبر أبو العلاء، ووصل إلى سن الطلب، أخذ العربية عن قوم من بلده، كبني كوثر، أو من يجري مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته، وقيد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك، فرحل إلى طرابلس الشام، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذوو اليسار من أهلها، فاجتاز باللاذقية، ونزل دير الفاروس ، وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الأوائل، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل أقوال الفلسفه، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحال، وضاق عطنه عن كتمان ما تحمله من ذلك، حتى فاه به في أول عمره، وأودعه أشعاراً له، ثم ارتعى ورجع، واستغفر واعتذر، ووجه الأقوال وجوهاً احتملها التأويل".^(١)

وبعد أن مهد الأستاذ محمود شاكِر رحمه الله لفساد هذه القصة وكذبها عن طريق تفرد القفطِي بروايتها عن سبقه ، ذكر عدة أوجه أبطل في كل واحد منها هذه القصة وهي :

١ - أن القفطِي مصرى وبين وفاة أبي العلاء المعري وموالده مائة وعشرون سنة ، ولم يعتمد في هذا الخبر على أحد من معاصري شيخ المعرفة ولا من سبقه من العلماء المתחالبين على أبي العلاء المعري ، والذين وصفوه بالإلحاد ، ولو أن هذه القصة ثابتة لأثبتوها تحاماً على أبي العلاء قبل أن يثبتها القفطِي .

٢ - أن من عاصر القفطِي ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان وإرشاد الأريب وكان أشد تحريراً ودقة

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ، لعلي بن يوسف القفطِي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط١ ، عام ١٩٨٢ م ، لدار الفكر العربي بالقاهرة ، ج ١ ، ص ٨٤.

من القبطي ، وهو شامي قريب من ديار شيخ المرة وخبر بأخبار وشئون أهل الشام ، ولم يذكر شيئاً عن هذه القصة مع أنه عقد ترجمة مطولة لأبي العلاء المعري في كتابه إرشاد الأريب بلغت نيفاً وخمسين صفحة ،^(١) ولو ثبتت هذه القصة لديه لما تردد في إثباتها في ترجمة أبي العلاء المعري .

رابعاً : يرى الأستاذ أن الزمان تمادى مع ذكر أبي العلاء فيرميه بعض العلماء المشغلين بالتاريخ بالزندقة ، كابن الأثير^(٢) ، وسبط ابن الجوزي^(٣) ، وابن خلkan^(٤) ، وأبي الفداء إسماعيل بن علي^(٥) ، ثم لا يذكرون مع اتهامه شيئاً من هذه القصة ، ومن الواضح أن محمود شاكر حينما يربط أولوية ذكر هذه القصة بذكر زندقة أبي العلاء

(١) حينما ذكر ياقوت الحموي معرفة النعمان ، نسب إليها أبو العلاء المعري فقط في معجم البلدان ، أما في كتابه إرشاد الأريب فقد تحدث عنه باستفاضة كما ذكره الأستاذ شاكر رحمه الله ، ينظر لمعجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي ، ط٢ ، عام ١٩٩٥م ، للدار صادر بيروت ، ج٥ ، ص ١٥٦ ، وينظر لمعجم الأدباء ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، لياقوت بن عبد الله الحموي ، ج١ ، ص ٢٩٥ .

(٢) ذكر ابن الأثيرالجزري أبي العلاء المعري في كتابيه الكامل واللباب في تهذيب الأنساب ولم يشر فعلاً إلى قصة القبطي هذه ، ينظر للكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، ج٨ ، ص ١٥٠ ، ط١ ، عام ١٩٩٧م ، للدار الكتاب العربي بيروت ، وينظر للباب في تهذيب الأنساب ، لعز الدين بن الأثير ، ط بدون ، عام بدون ، للدار صادر بيروت ، ج١ ، ص ٢٢٥ .

(٣) لم يذكر سبط ابن الجوزي هذه القصة أيضاً مع أنه أطال الحديث عن أبي العلاء المعري ، ينظر لمرآة الزمان في تواریخ الأعیان ، يوسف بن قیاؤغلي بن عبد الله ، تحقيق محمد برکات ، کامل محمد الخراط ، عمار ریحاوی ، محمد رضوان عرقسوسي ، أنور طالب ، فادي المغربي ، رضوان مامو ، محمد معتز کریم الدین ، زاهر إسحاق ، محمد أنس الخن ، إبراهیم الزیق ، ط١ ، عام ٢٠١٣م ، للدار الرسالة العلمية بدمشق ، ج٩ ، ص ٢٣ .

(٤) لم يذكر ابن خلkan هذه القصة وإنما ذكر في تعليم أبي العلاء مانصه : "قرأ النحو واللغة على أبيه بالمرة، وعلى محمد بن عبد الله بن سعد النحوي بحلب، وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المؤثرة ... " وفيات الأعیان ، لابن خلkan ، ج١ ، ص ١١٣ .

(٥) نفى أبو الفداء أن يكون أبو العلاء قد تلمذ لأحد وفي ذلك يقول : ودخل بغداد سنة تسعة وتسعين وثلاثمائة وأقام بها سنة وسبعين أشهر، واستفاد من علمائها، ولم يتلمذ أبو العلاء لأحد أصلا .." ينظر المختصر في أخبار البشر ، إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه ، ط١ ، عام بدون ، للمطبعة الحسينية بمصر ، ج٢ ، ص ١٧٦ .

وإلحاده ، فكأن القول عنده بنشأة أبي العلاء على الثقافة اليونانية يعادل من القبح والرذيلة القول بفساد دينه ومعتقده ، فإذا ذكر فساده في الدين والمعتقد فلا بد أن يذكر معه ما يكافئه أو يقل عنه بقليل وهو فساد النشأة العلمية على يد الثقافة اليونانية التي قد تكون هيأت ووطأت لهذه الزنندة التي يرمونه بها ، وهذا ما يفسر الانفعال الشديد للأستاذ رحمه الله على مقوله لويس عوض هذه تحديداً .

خامساً : يرى الأستاذ شاكر أن ترجمة الإمام الذهبي لأبي العلاء المعري في كتابه تاريخ الإسلام ، والتي ذكرت هذه القصة حيث كانت مستندأ ثانياً أحال إليه لويس عوض ، يراها مجرد نقل حرفي نقله الذهبي من القبطي ، وقد استند على ذلك بالمقاييس والموازنات بين لفظي الخبرين المنقول منه والمنقول ، وقد تعمد الأستاذ رحمه الله إثبات نص هذه القصة كما قاله الذهبي بلفظه حتى يتمكن من إثبات أنه خبر لا يعدو إلا أن يكون منقولاً من خبر القبطي ، ونص الخبر :

"أخذ الأدب عن أهل بلده كبني كوثر، وأصحاب ابن خالويه ، ثم رحل إلى طرابلس وكانت بها خزائن كتب موقوفة ، فاجتاز باللاذقية ونزل ديراً بها كان به راهب له علم بأقاويل الفلاسفة ، فسمع أبو العلاء كلامه فحصل له به شكوك ، ولم يكن عنده ما يدفع به ذلك ، فحصل له بعض الخلال ، وأودع ذلك بعض شعره ومنهم من يقول : ارعوى وتاب واستغفر" ^(١) .

وبذلك يكون لقصة الذهبي ما لقصة القبطي نفسها من النقد والرد عند شاكر ، بل ويزيد عليه أنه نقلها وأساء النقل فيها .

ولم يكتفى الأستاذ شاكر رحمه الله - بعد أن وزن بين ألفاظ الخبرين - عند القول بأن الذهبي نقل كلام القبطي واختصره وغير بعض ألفاظه ، بل اتهمه بالإساءة في النقل التي كانت سبباً في رفع شأن الراهب الذي

(١) ينظر لتاريخ الإسلام وؤفيات المشاهير والأعلام ، لشمس الدين الذهبي ، ج ٩، ص ٧٢١، وقد أورد الذهبي هذا الخبر أيضاً في كتابه سير أعلام النبلاء ، بلفظ قريب من لفظ خبر تاريخ الإسلام ، ونصه : وأخذ الأدب عن، بني كوثر، وأصحاب ابن خالويه وكان يتقد ذكاء ، ... وكان إليه المتنبه في حفظ اللغات ، ارتحل في حدود الأربع مائة إلى طرابلس وبها كتب كثيرة، واجتاز باللاذقية، فنزل ديراً به راهب متفلسف، فدخل كلامه في مسامع أبي العلاء، وحصلت له شكوك لم يكن له نور يدفعها، فحصل له نوع الخلال دل عليه ما ينظمه ويلهجه به ، ويقال: تاب من ذلك وارعوى ... " ، سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ، ج ١٨، ص ٢٦.

درس عليه أبو العلاء كما في القصة ، فالقفطي حينما وصف الراهب في قصته قال عنه : " وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل أقوال الفلسفه " فاستنبط شاكر من أسلوب القفطي أن هذا الراهب " مبتدئ قليل البضاعة ، قد تخطف كلمات من أوائل (أي من مبادئ) أقوال الفلسفه "(١) ، ثم جاء الذهبي فقال عن الراهب : (كان به راهب له علم بأقاویل الفلسفه) ، " ففع باختصاره شأن هذا الراهب المبتدئ الشادي ، بما يوهم بأن له علماً بأقاویل الفلسفه ، وهذا عمل غير مرضيٍ وإساءة من الذهبي "(٢) .

وقد يبدو أن الذهبي لم يزد على تلك الصفة التي وصف بها القفطي الراهب ، فـ(يشدو شيئاً من علوم الأوائل) بينة الدلالة في أن الراهب عنده بعض علم من علوم الأوائل وأن هذا الراهب لا يصح أن يوصف بأنه عالم بمعناه الواسع ، وكذلك فعل الذهبي حين قال (له علم بأقاویل الفلسفه) ، فاستخدم علم بلفظ النكرة للدلالة على تهويء شأن علمه والتقليل منه ، وعليه فإن الخبرين قد يكونان متفقين على الحط من شأن علم الراهب والتقليل منه .

سادساً : قال شاكر أيضاً بأن الصفدي في كتابه (نَكْتُ الْمِيَانِ وَنُكْتُ الْعُمَيَانِ) اختصر قول الذهبي في هذه القصة بدون أدري ريب منه في ذلك ، ولفظ الصفدي الذي قصده هو قوله :

" وكان قد رحل أولاً إلى طرابلس ، وكانت بها خزائن كتب موقوفة فأخذ منها ما أخذ من العلم ، واجتاز باللاذقية ونزل ديراً كان به راهب له علم بأقاویل الفلسفه سمع كلامه ؛ فحصل له بذلك شكوك ." (٣) وبذلك يكون خبر الصفدي أيضاً ما لخبر القفطي والذهبي من الرد عند الأستاذ محمود رحمة الله .

سابعاً : أما إسماعيل بن كثير فجاء بلفظ مخالف لهذه القصة (٤) ، ولم يكن فيه شبه بلفظ القصة التي توارد على لفظها من رواها من العلماء قبله ، ذلك التشابه الذي رده محمود شاكر إلى روایة القفطي التي قام بردتها ، بيد

(١) أباطيل وأسمار ، محمود شاكر ، ص : ٢٩ .

(٢) السابق : نفس الصفحة .

(٣) نَكْتُ الْمِيَانِ في نُكْتُ الْعُمَيَانِ ، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، علق عليه ووضع حواشيه مصطفى عبد القادر عطا ، ط١ ، عام ٢٠٠٧م ، دار الكتب العلمية بيروت ، ص ٨٠ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ، ج: ١٥ ، ص : ٧٤٧ .

أن هذا الاختلاف اللغظي في رواية ابن كثير لم يكن كفياً بإقناع شاكر أن تكون روايته بمنأى عن رواية القفطي التي تفرد بها عمن سبقه وحدث محدث من لغط في ترجمة أبي العلاء ، وقد عاب شاكر على ابن كثير في رواية هذه القصة رغم اختلافها أنه رواها بصيغة التمريض والارتياب ، حيث افتتح ابن كثير خبره بصيغة (يقال) ، ونص خبر ابن كثير هو قوله :

" ويقال: إن راهباً اجتمع به في بعض الصوامع ، في مجئه من بعض السواحل ؛ أواه الليل عنده ، فشككه في دينه "(١) .

فلفظ ابن كثير لم تكن فيه أي إشارة لعلم الراهب بأفaoبيل الفلسفه ، واستقل عمن سبقه بأنه حدد لقاء أبي العلاء بالراهب ليلة واحدة ، ولم يذكره بسند ولم يعزه إلى أحد ، بل افتحه بقوله (يقال) التي فيها ما فيها من تمريض شأن مقولها ، وبذلك تكون رواية ابن كثير هي الأخرى مردودة على الرغم من استقلاليته الأسلوبية فيها، وقد أحسن الأستاذ رحمه الله حين رد رواية ابن كثير ، لأنها مستهلة بصيغة تهيء المتلقي ابتداء لعدم قبولها والأخذ بها ، بل ويدل استهلال رواية ابن كثير بقوله (يقال) على عدم اقتناعه الشخصي بالمقول بعدها ، فلو انتهى إلى علمه حدوث ذلك على سبيل القطع واليقين لاستبعد (يقال) من خبره ولم يجعلها فاتحة له .

سابعاً : جعل الأستاذ محمود شاكر رحمه الله نقل كلام العلماء لاحقهم سمة بارزة في قصة أبي العلاء والراهب ، وهو نقلٌ إما أن يكون مرد كلام القفطي أول من جاء بهذه القصة ، وإما أن يكون مرد إلى عالم بعد القفطي ترجم لأبي العلاء المعري وذكر هذه القصة بألفاظ غير ألفاظ القفطي ، ومن ذلك لفظ ابن كثير السابق الذي يرى الأستاذ رحمه الله أن بدر الدين العيني صاحب (عقد الجمان في تاريخ أهل الرمان) قد نقله بلفظه ، ثم يأتي السيوطي وعبد الرحيم العباسي وينقلانه عن الصفدي وبذلك تكون كافة الأخبار التي أثبتت قصة تعليم أبي العلاء على يد الراهب مردودة لأنها تعتمد على النقل من أصل غير صحيح .

و قبل أن نختاز هذا لابد من التنويه على أن رواية بدر الدين العيني لهذه القصة لم تكن تعتمد على ابن كثير كما قاله الأستاذ رحمه الله ، بل لم يتناول العيني أبا العلاء المعري مستقلاً في ترجمة خاصة به ، بل ذكره في معرض ترجمته عملاً باللغات يسمى الحسن بن محمد بن نجا الصوفي ، وحين وصل في ترجمته إلى أنه كان تاركاً للصلة وكان ذكياً مفرطاً وله شعر رائع وكان ضريراً ، استدعي بعد ذلك أبا العلاء المعري في قوله :

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، ج : ١٥ ، ص : ٧٤٧ .

الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا الصوفي...اشتغل بعلوم كثيرة من علوم الأوائل، وكان يشغل أهل الذمة وغيرهم، ونسب إلى الانحلال وقلة الدين وترك الصلوات، وكان ذكياً مفروطاً، وله شعر رائق، وكان ضريراً، وهذا الضرير شبيه بأبي العلاء المعري الضرير في أمره^(١).

وكتاب عقد الجمان هو الوحيد من بين ثلاثة كتب لبدر الدين العيني الذي ترجم لأبي العلاء المعري ، ولم أجده ترجمة لأبي العلاء في كتابيه الآخرين (السيف المهندي في سيرة الملك المؤيد) و (الروض الراهن في سيرة الملك الظاهر) ، أما الصفدي الذي نقل عنه جلال الدين السيوطي فإن روایته نفس روایة القسطنطيني ، ونصها : "كان قد رحل أولاً إلى طرابلس وكانت بها خزائن كتب موقوفة فأخذ منها ما أخذ من العلم واجتاز باللادقية ونزل ديراً كان به راهب له علم بأقوال الفلسفه سمع كلامه فحصل له بذلك شكوك والناس مختلفون في أمره والأكثررون على إكفاره وإلحاده"^(٢) .

ثم جاء جلال الدين السيوطي ونقل عبارة الصفدي هذه ونسبها إلى الصفدي نفسه^(٣) ، أما عبد الرحيم العباسى فقد أثبت الخبر كالصفدي إلا أنه لم يشر إلى الصفدي ولم يعز الخبر له^(٤)، ولتكون خلاصة هذا

(١) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، لبدر الدين العيني ، حققه ووضع حواشيه: محمد محمد أمين ، ط١ ، عام ١٩٨٧ م ، للهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج١ ، ص ٣٣٨ .

(٢) الواقي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، ط١ ، عام ٢٠٠٠ م ، لدار إحياء التراث بيروت ، ج٧ ، ص ٦٥ .

(٣) نص روایة جلال الدين السيوطي : " وقال الصفدي: كان قد رحل إلى طرابلس، وكان بها خزانة كتب موقوفة، فأخذ منها ما أخذ من العلم، واجتاز باللادقية، ونزل ديراً كان به راهب له علم بأقوال الفلسفه، فسمع كلامه، فحصل له بذلك شكوك ، وشعره في هذا المعنى المتضمن للإلحاد كثير " ، ينظر لبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، ١٩٦٤ م ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ج١ ، ص ٣١٦ .

(٤) نص روایة العباسى : " وكان قد رحل أولاً إلى طرابلس وكان بها خزائن كتب موقوفة فأخذ منها ما أخذ من العلم واجتاز باللادقية ونزل ديراً كان به راهب له علم بأقوال الفلسفه فسمع كلامه فحصل له شكوك وكان إطلاعه على اللغة وشهادتها أمراً باهراً ، والناس مختلفون في أمره والأكثررون على إلحاده .." ، ينظر لمعاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد ، أبو الفتح العباسى ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط بدون ، عام ١٩٤٧ م ، لعالم الكتب بيروت ، ج١ ، ص ١٣٨ .

الاستقراء عند الأستاذ ومجز فائق الدقة بين منهجه التزوقي الخاص والمنهج التاريخي ، من أداته الاستنباطية التي تخوض عن حكمه بنفي صحة القصة التي جاء بها القفطي في تلمذة أبي العلاء على يد راهب له علم باللغات ، والحق أن استقراء الأستاذ رحمه الله كان دقيقاً وغاية في الاستيعاب المتسير ، وقد ناقش روایة القفطي ومن أتى بعده مناقشة نقدية وعلمية ، مكنته منها اطلاعه الواسع وفحصه الدقيق للأخبار والروايات بأثر من منهج أهل مصطلح الحديث ، فكما إن عند أهل الحديث رواة لا ينقولون ففيهم ويردون عليهم روایاتهم ويضعفون أحاديثهم ، فإن روایات القفطي كثيراً ما تتعرض لشيء من ذلك عند محمود شاكر ، ويبدو أن شاكر قد توجس خيفة وحذراً من روایات القفطي بسبب من صنيعه السابق مع أبي العلاء ؛ بدليل أن شاكر حينما رد كلاماً للقفطي في مواضع أخرى وفي كتاب آخر استدعاي بعد ذلك صنيع القفطي في خبر تعليم أبي العلاء ، وبيان ذلك أن قصة القفطي هذه ليست الوحيدة التي تعرضت لرد شاكر وعدم قبوله بها وتسليمه لها ، فقد رد شاكر أيضاً روایة للقفطي في محل خلف الأحرم قضيدة لابن أخت تأبطة شرًّا ، ردًا ممزوجًا بتهمكم وازدراء واتهام مباشر له بنقل كلام غيره من العلماء وتلقيقه ، يقول شاكر :

"أما القفطي وما أدرك ما القفطي ، فإنه ترجم خلف ... فقال : كان يبلغ من حذقه..على الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء ، حتى يشبه بذلك على جلة الرواة ولا يفرقون بينه وبين الشعر القديم (ياسلام!!) من ذلك قضيته التي نخلها ابن أخت تأبطة شرًّا ، التي أنها : إن بالشعب ... جازت على جميع الرواة ، فما فطن لها إلا بعد دهر طوبل بقوله : خبر ما نابنا مصمتل فقال بعضهم : جل حتى دق فيه الأجل ، من كلام المؤلدين فحيثند أقر بها خلف ، (وياسلام مرة أخرى) وهذا القفطي على كثرة حشده في جرابه صاحب تحف ؛ فهو الذي اتحفني بالخبر الذي أضحكني طويلا وأضحك الناس معه وهو الخبر الباطل عن راهب دير الفاروس الذي زعم القفطي أن أبا العلاء نزل بديره " ^(١) .

وقد أطلق شاكر على القفطي (صاحب التحف والنواذر) ^(٢) بسبب من نقله روایات لا تتفق وبعض الأحكام والحقائق العلمية التي استبطها الأستاذ رحمه الله .

وشبيه باستقراء الأستاذ رحمه الله لقصة أبي العلاء وتبعه الدقيق الحكم لها في بطون أمهات الكتب ، استقراءه

(١) نحط صعب ونمط مخيف لمحمد شاكر ، ص : ٦٠ - ٦١ .

(٢) السابق ، ص : ٨١ .

الدقيق والمحكم لنسبة قصيدة (إن في الشعب الذي دون سلع) ، وهو تتبع مبني على وجه الاستيعاب ومركوز فيه التندوق الذي يفحص به كل رواية قيلت في ذلك فحصاً دقيقاً لا يطيقه إلا كبار العلماء ، فذكر خمسة عشر رجلاً من بينهم شعراء أثبتو هذه القصيدة في مؤلفاتهم ورتبهم بحسب المنهج التاريخي ترتيباً يسهل على القارئ العودة إلى نسبة هؤلاء الرجال لهذه القصيدة وتعليقاتهم عليها إن وجدت ، ثم قام بتقسيم هؤلاء العلماء بحسب نسبتهم لهذه القصيدة إلى خمسة أقسام :

القسم الأول :

- ١ - من جرد نسبة القصيدة إلى تأبطن شرآ : أبو تمام والجوهري .
- ٢ - من ردّ في نسبتها لتأبطن شرآ على وجه الإبهام : الجاحظ .
- ٣ - من ردّ في نسبتها لتأبطن شرآ أو إلى غيره مصرياً باسمه : ابن دريد ، والبكري الأندلسي .

القسم الثاني :

- ١ - من نسبها إلى ابن أخت تأبطن شرآ وزعم أنه الهجال بن امرئ القيس الباهلي : ابن هشام .
- ٢ - من نسبها إلى ابن أخت تأبطن شرآ وزعم أنه خفاف بن نضلة : البكري الأندلسي .
- ٣ - من نسبها إلى ابن أخت تأبطن شرآ وزعم أنه الشنفرى : ابن دريد ، وابن بري ، والبغدادي .

القسم الثالث :

- ١ - من جرد نسبتها إلى الشنفرى : أبو الفرج الأصفهاني .
- ٢ - من ردّ في نسبتها إلى الشنفرى أو إلى غيره : ابن دريد ، والبكري الأندلسي .

القسم الرابع :

من نسبها إلى العدواني : ابن دريد .

القسم الخامس :

- ١ - من نسبها إلى خلف الأحمر وزعم أنه نخلها ابن أخت تأبطن شرآ : ابن قتيبة ، وابن عبد ربه ، والقططي ، والمرزوقي ، والتبريزى .
- ٢ - من ردّ في نسبتها إلى خلف الأحمر : ابن دريد ، وابن عبد ربه ، والبكري الأندلسي .

ثم قام محمود شاكر بمناقشة آراء هؤلاء في نسبة هذه القصيدة ، مناقشة تدل على أنه قد تحدد له قائلها وقد توصل هو لنسبتها معتمداً في ذا وذاك على تدوقه الخاص ، وعلى منهجه في فحص الروايات ذاتها وفحص رجالاتها وفحص مناهجهم وغاياتهم العلمية ، ومن ذلك رده لنسبة ابن هشام القصيدة إلى الهجال بن امرئ القيس الباهلي ابن أخت تأبطة شرّاً ، وقد استند شاكر في ذلك على عدة أمور :

أولها : أن كتاب التيجان التي وردت فيه هذه النسبة فيه خلط عظيم وآفات كبيرة لا يطمئن إليها أهل العلم ، وما فيه من الشعر خليط فاسد جداً وإن وجد فيه بعض الصحة في نسبته وروايته ، إلا أن أكثره غير صحيح بالنسبة ، وعليه فإن النفس لا تطمئن إلى نسبته هذه .

ثانياً : أن ابن هشام غير مختص بالشعر وقليل العلم فيه ، حتى وإن صحت نسبة هذا الكتاب إليه ، وعليه فإن أحكامه النقدية والأدبية لا يعتمد كثيراً بها .

ثالثاً : كان تأبطة شرّاً من بني فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مصر ، وبأهلة التي نسب إليها الهجال هم بنو مالك بن أعمص بن سعد بن قيس عيلان بن مصر ، ومع التقاء نسبتهم في قيس عيلان إلا أن شاكرأً يستبعد أن يكون الهجال ابن أخت تأبطة شرّاً ؛ لأن ديار باهلة كانت في شرقى نجد ، وديار بني فهم كانت بالحجاز ويابعد ما بينهما .

رابعاً : لم يوجد شاكر في مراجعه شيئاً عن الهجال هذا ، وقد قال عنه ابن هشام إنه كان فارساً ورئيساً وشاعراً ، ولو كان كذلك لما في خفي أمره في كتب التراجم ، ولذكره الأصمسي عبد الملك بن قريب الباهلي ؛ لأنه من بني قومه .

وكل هذه الأمور تجتمع مع بعضها وتعاضد للقبح في نسبة ابن هشام هذه ، ثم استقصى شاكر وبنفس تدقيقه وتحقيقه هذا كل الروايات التي حصرها في أقسامه وردها ، ثم ارتضى من نسب هذه القصيدة أن تكون لمجهول وهو رأي ابن عبدربه ولابد أن يكون هذا المجهول ابن أخت تأبطة شرّاً سواء كان معلوماً أو غير معلوم ، وقد كان الأستاذ يميل إلى أن الشاعر المجهول خفاف بن نضلة وهو شاعر رواية البكري الأندلسي ، واستدل لذلك بأن أن كلاً الأمرتين يطابق ما تضمنته القصيدة في دلالتها على أنها لشاعر يرثي حالاً له ؟ كان شديد

(١) التيجان في ملوك حمير ، عبد الملك بن هشام ، تحقيق : مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ط١ ، عام ١٣٤٧ـ، ٥١.

مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، بصنعاء ، ص ٢٥٦ .

النكاية في هذيل التي ثالت منه وقتلته بسبب من ذلك ، واستدل أيضاً على صحة رأيهما بتردد ذكر تأبٍ شرّاً في أيام الهنديين وأشعارهم وأخبارهم ، أما ميله لنسبتها إلى خفاف بن نضلة فيدل عليه ثقته في البكري الأندلسي الذي قال بذلك على تأخر زمانه ، وقد وصفه الأستاذ في معرض نسبته هذه بأنه " كان جيد التحري شديد الاستقصاء" ^(١).

إن هذين الأنموذجين وأقصد بهما (قصة تعليم أبي العلاء على يد الراهب) (نسبة قصيدة إن في الشعب ..) ، مشرقان جداً في بيان استقصاء محمود شاكر وتبعه واستقرائه على الوجه المتيسر له ودقته في النقل ، وهما مشرقان أيضاً في الكشف عن قدرته الفريدة في فحص الروايات عن طريق التذوق الذي قاله بأنه منهجه الخاص الخالص ، ومشرقان أيضاً في الكشف عن أن منهج التذوق هذا مزيج من المناهج وخلط من القدرات العلمية الكبيرة التي تشكلت وتكونت على يد ثقافته ودربيته الكبيرتين .

وقد قلت على الوجه المتيسر لأنَّه الحد العلمي الذي ارتضاه الأستاذ محمود شاكر رحمه الله في منهجه ^(١) ، وهو احتياط من الأستاذ فيه بعد نظر ومزيد رؤية ، فالاستقراء التام قد يكون ممكناً لاستنتاج الظواهر واستخلاص الأحكام إذا كان محدداً في نطاق من الممكن الإحاطة به ، كاستخلاص الأحكام اللغوية وال نحوية من معلقة أمرئ القيس برواية الأصممي مثلاً ، فهي مادة محددة تستطيع القبض على ظواهرها واستنتاج أحكامها المبتغاة ، أما الاستقراء التام لقصة تعليم أبي العلاء المعري قضية نسبة قصيدة ابن أخت تأبٍ شرّاً فهو أمر من الصعوبة الإحاطة بكل من تحدث فيه من بين بطون العديد من كتب التراث العربي .

ومن الممكن القول بأنَّ الأستاذ شاكر قد اطلع على كل ما بين يديه وكل ما يمكنه الإطلاع عليه في هاتين القضيتين تحديداً ، ولكن القول بأنه رصد كل ما في كتب التراث العربي عنهما قول من الصعب إطلاقه على عمومه ، ولو أخذت آخر القضيتين مثلاً يوضح ذلك لتبين أنَّ الأستاذ رحمه الله قد غفل عن رصد بعض من العلماء الذين نسبوا هذه القصيدة في بداية كتابه كغيرهم من العلماء الذين رصدهم ، وربما يتمخض رصده ونقده وفحصه لبعض من هذه الكتب عن إطلاق حكم نceği يقطع القول بنسبة القصيدة ، ومع إغفال الأستاذ رحمه الله هؤلاء العلماء وعدم حصرهم كغيرهم في مقدمة كتابه ، فهم لم يخرجوا عن النسب التي قال بها

(١) نُطِّ صعب ونُطِّ خيف لمحود شاكر ، ص ٥٨ ، وللعودة لمشكلة نسبة القصيدة في الكتاب يمكن قراءة ما بين

العلماء الذين حصرهم بتسلسلهم التاريخي في بداية كتابه غطٌ صعبٌ ، ومن هؤلاء العلماء الذين أغفلهم :

- (١) عبد الله بن جعفر بن محمد بن دُرستويه ابن المربان ، نسبها لمجهول .^(١)
- (٢) إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي ، نسبها لتأبطة شراً.^(٢)
- (٣) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي ، نسبها للشنفري .^(٣)
- (٤) محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي ، نسبها لخلف الأحمر .^(٤)
- (٥) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، نسبها لتأبطة شرا.^(٥)
- (٦) أبو القاسم جار الله بن محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري ، نسبها لتأبطة شرا .^(٦)
- (٧) محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون البغدادي ، نسبها لتأبطة شرا .^(٧)
- (٨) ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، في كتابه معجم البلدان نفى أن يكون قاتلها تأبطة شراً فقال : " فقد ذكر بعض العلماء أنهم استدلوا على أن هذا البيت : إن بالشعب ، الذي دون سلعي ليس من شعر تأبطة شراً، لأن سلعاً ليس دونه شعب "^(٨)

(١) في كتابه تصحيح الفصيح ، تحقيق ، محمد بدوي المختون ، ط١ ، عام ١٩٩٨ م ، للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ، ص ٩٩.

(٢) في كتابه معجم ديوان الأدب ، تحقيق أحمد مختار عمر ، مراجعة إبراهيم أنيس ، ط١ ، عام ٢٠٠٣ م ، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ج١ ، ص ١١٧.

(٣) في كتابه غريب الحديث ، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ ، ط بدون ، عام ١٩٨٢ م ، لدار الفكر بدمشق ، وفي كتابه أيضاً : إصلاح غلط المحدثين ، تحقيق حاتم الضامن ، ط٢ ، عام ١٩٨٥ م ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ص ٥٨.

(٤) في كتابه حلية الحاضرة في صناعة الشعر ، ج٢ ، ص ٣٧-٣٨ .

(٥) في كتابه الصاحح تاج اللغة وصحاح العربية ، ج٣ ، ص ١٢٣١.

(٦) في كتابه الجبال والأمكنة والمياه ، تحقيق أحمد عبد التواب عوض ، ط١ ، عام ١٩٩٩ م ، لدار الفضيلة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، ص ١٧٨.

(٧) في كتابه منتهى الطلب من أشعار العرب ، تحقيق : محمد نبيل طريفى ، ط١ ، عام ١٩٩٩ م ، لدار صادر بيروت ، ج٢ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٨) معجم البلدان ، لياقوت الحموي : ج١ ، ص ٩ .

أما في كتابه معجم الأدباء ، فقد نسبها لخلف الأحمر ، وقال بأنه نحلها لتأبط شرًا .^(١)

(٩) محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى، الزبيدي ، نسبها لخلف الأحمر .^(٢)

ومع ذلك فإن الأستاذ محمود شاكر رحمه الله يمتلك قدرة فريدة وفائقة الدقة في تتبع الطواهر الأدبية واستقرائها، واستخلاص أحكام نقدية هي أشبه ما تكون بالقوانين الرياضية التي يصعب إبطالها وإيجاد حلول أخرى لها ، ولعل كتابه هذا (نمط صعب ونمط مخيف) وإن كان وصفاً لهذه القصيدة التي دار عليها هذا الكتاب ، فإن الكتاب بنفسه نمط صعب ونمط مخيف لا يستطيعه إلا علماء أجلاء مثل محمود شاكر رحمه الله ، فهذا النمط من النقد الحكم والقراءة الآنية الفاحصة لم يأت إلا بعد انقطاعه للعلم وللمعرفة والثقافة الواسعة ، بالإضافة إلى ما استودعه الله فيه من الذوق الذي يتजسس مواطن الصلات بين الأبيات كما يجس الطبيب علة المريض ، ولا يخفى بأن " دراسة علاقات المعاني بين الأبيات، وصلات الخصائص البلاغية بعضها بعض في الشعر لا بد أن يكون مسبوقاً بجهد واع وكبير ، وقد رأينا نموذجاً لهذا العمل في دراسة ... محمود شاكر لقصيدة، إن بالشعب الذي دون سلع، وهو في تقديرنا نموذج يحتذى في هذا الباب ".^(٣)

(١) معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ج ٣ ، ص : ١٢٥٥ .

(٢) في كتابه تاج العروس ، ج ٢١ ، ص ٢١١ .

(٣) خصائص التراكيب ، لحمد أبو موسى ، ص : ٢٦١ .

الفصل الرابع : الموقف الاستنباطي

لقد تشعبت المسالك النقدية في العصر العلمي الراهن الذي عاش فيه محمود شاكر رحمه الله ، وذلك نتاج طبيعي لتعدد المعطيات التي أديرت بما الحركة النقدية والأدبية في ذلك العصر ، ما بين افتتاح على الموروث الغربي وإعجاب بنظرياته وآرائه وتطبيقاته ، وما بين تمسك أصيل بموروث الأمة الإسلامية والعربية بتعصب يقود إلى رفض كل ما هو دخيل على الثقافة العربية ، واعتباره كفراً أدبياً وثقافياً يجب على معتنقه الإياب للتراث العربي والاندماج مع موروث علماء التراث .

وما من شك أن حضور التراث العربي في ثقافة الناقد مطلب لا مناص منه ، فهو يساعد على تنشئة العقل وتدريب الملكة وتحصين الفكر ، وهو السبيل الوحيد لمعرفة الطريقة العلمية التي كان يفكر بها علماء الأمة الأجلاء ، ومن ثم محاولة إيجاد طريقة تفكير للتجديد والابتكار يكون منطلقها طريقة تفكير العلماء ، ومنتهاها الإبداع والتجديد ، وغايتها خدمة العلم والمعرفة .

والحق أن محمود شاكر رحمه الله قد عني عنابة فائقة بالتراث العربي في كافة مجالاته ، فثقافته قامت على أساس من كتب التراث العربي في كافة المجالات والتخصصات بحثاً عن منهج علمي قويم ؛ أراد منه مقارعة تلك المنهاج التي ظهرت في عصره وتعددت سماتها وسمسياتها ، وكان له ذلك بفضل الله عليه وتوفيقه له ، ولم تقتصر علاقة محمود شاكر بالتراث العربي في التشقق به والتدريب عليه والاعتياد على طرائقه ومناهجه ، بل تجاوز ذلك إلى جهوده العلمية الحثيثة والمضنية في إخراج المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها بتعليقات وشروح كانت ولا زالت موطن اهتمام الدراسين وطلبة العلم ومجالاً علمياً حصرياً .

ومع علاقة شاكر الوطيدة بالتراث العربي وحبه له ومعاملته له معاملة الابن البار لوالديه ، فإنه لم يُسلم نفسه وعقله لآراء علماء التراث واستنباطاتهم وأحكامهم ، فلم يكن حب الموروث العربي وخدمته له شافعاً عنده من مناقشة آراء علماء التراث وفحصها ، فأقام بينه وبين هؤلاء العلماء شيئاً أشبه ما يكون بالحوار العلمي بين المختصين في القاعات العلمية والثقافية ، حوار لم يلتزم فيه محمود شاكر بلغة واحدة وشخصية واحدة ، فتجده أحياناً يعارض الآراء ويوجهها ويستدرك على بعض العلماء ، وتجده في نسق آخر لا يكتفي بالمعارضة ورد الرأي بالرأي ، بل يجده إلى نقض حجة الآخر وإبطال أداته وإزهاق صحة رأيه ، وتجده أحياناً أخرى يشير إشارة عابرة إلى بعض مواطن زلل العلماء وعثراتهم لا يفصل القول فيها ولا ينقضها ، وتجده في

أحايين كثيرة ابنا باراً للتراث العربي ولعلمائه الأجلاء ، يوافق آراءهم ويحتاج لها دلائل تقويها وتدعيمها مع ثناء عاطر ودعاء موصول ، بأسلوب وشخصية كأنها الوجه الآخر لشخصية الأستاذ رحمه الله الحادة الجادة التي يحدثنا عنها طلابه ومربيده ، ولم يكن تباين شخصية الأستاذ هذه حِكْراً على علماء التراث العربي ، بل تسرب أثرها لعلماء عصره الذين حاكم آراء بعضهم وعارض آراء البعض الآخر ، ونقض أدلة واستنباطات بعضهم ، وأيد بعضهم واحتج لهم وقوى جانبهم .

ولابد من الإيمان بأن الموقف الاستباطي عند محمود شاكر ينطلق من الشك وينتهي بالاستباط والاستنتاج ، وأقصد بالشك المنهجي الذي لا يقوم على أساس الكفر بأولية المعرفة والتنكر لها ، وإنما يقوم على أساس التشكيك من مصداقيتها والتأكد من صحتها ، وسيتولى هذا الفصل بعد توفيق الله ومشيئته الموقف الاستباطية المتباينة لمحمود شاكر تجاه آراء العلماء باختلاف زمانهم ، وقد قمت بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، تشكل الخطوط العريضة للمواقف الاستباطية لمحمود شاكر وهي :

١- القبول .

٢- الاعتراض .

٣- النقض .

وسنورد لكل واحد من هذه المواقف جملة من الأمثلة ، تتمثل في الممارسات التطبيقية لمحمود شاكر تجاه آراء العلماء واستنباطاتهم باختلاف زمانهم ، وينبغي قبل البدء في ذلك التنويه على عدة أمور :
أولاً : جاء الموقف الاستباطي لمحمود شاكر متبايناً مع علماء التراث لأسباب كثيرة ، أهمها جانب الرواية والدقة والاستقصاء في نقل الأخبار ، والطائق النقدية لقراءة النصوص الشعرية على مستوى اللغة وعلى مستوى الدلالة والجمالية .

ثانياً : جاء الموقف الاستباطي لمحمود شاكر متبايناً مع علماء عصره نتيجة تقديسهم أو جفوthem للثقافة العربية والتراث العربي وأخص منه النبدي والأدبي .

ثالثاً : جاء الموقف الاستباطي لمحمود شاكر متبايناً مع علماء اللغة نتيجة منهجه التزوقي الخالص الذي رأى فيه أن جهود علماء اللغة قد لا تكون كافية لفهم النص الشعري ، بل وفي بعض الموارد تكون هذه جهود أشبه بالتوابييت التي يدفن فيها جمال الشعر .

المبحث الأول : القبول

ناقش محمود شاكر رحمة الله العدید من القضايا الأدبية والنقدية ، واعتراضه خلال نقاشه لتلك القضايا آراء بعض العلماء المتقدمين منهم والمتاخرین ، وكان يقف من بعض أراء أولئك العلماء موقف القبول ، ونقصد بالقبول هنا قبوله لآراء العلماء والأخذ بها والاعتماد عليها ، وربما يعمد إلى الزيادة عليها والاستدلال لها وتقوية جانبها ، إيماناً منه بصحة هذه الآراء التي قبلها وآمن بصحتها ، ومن ذلك موافقتان له في قضية واحدة: أولاهما موافقة مجزوءة ، والأخرى موافقة تامة لا اجتزاء فيها ، أما موافقته المجزوءة فقد جاءت لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني على خلفية رأي له في كتاب مفقود لأبي عثمان الجاحظ ، حيث رأى الباقلاني أن كتاب الجاحظ (الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبداع تركيه)^(١) ، لم يكن فيه من الإضافة العلمية إلا تردید لأقوایل المتكلمين من قبله ، وأن هذا الكتاب لم يستطع الكشف عن اللبس الحاصل في إعجاز القرآن الكريم ، يقول أبو بكر الباقلاني :

" وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يتبس في أكثر هذا المعنى "^(٢)

وقد وافق محمود شاكر الباقلاني موافقة مجذأة شطرها الأول أن كتاب الجاحظ هذا قد سلك مسالك المتكلمين، وذلك بعد أن قام شاكر بنقل كلام للجاحظ نفسه لا غيره يصف فيه كتابه هذا في نظم القرآن ، وبين فيه عن منهجه وعن الموضوعات التي قام بمناقشتها فيه ، وهو كلام يتوافق مع إدعاء الباقلاني السابق ، وذلك قول الجاحظ عن كتابه هذا في كتابه الحيوان :

" ولی كتاب جمعت فيه آيات من القرآن ؛ لتعرف بما فصل ما بين الإيجاز والحدف، وبين الروايد والفضول ، والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعنى الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفضول ، فمنها قوله حين وصف حمر أهل الجنّة: ﴿لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْتَفُونَ﴾^(٣)

(١) هذه التسمية التي أطلقها الجاحظ بنفسه على كتابه المفقود هذا ، ينظر لكتابه الحيوان ج ١ ، ص ٩ ، وقد اشتهر بين أهل العلم بنظم القرآن اختصاراً .

(٢) إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط ٣ ، عام بدون ، لدار المعارف بمصر ، ص ٦ .

(٣) سورة الواقعة ، الآية الكريمة رقم : ١٩ .

وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عزّ وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال :

﴿لَا مُفْطُوعَةٍ وَلَا مُنْوَعَةٍ﴾^(١)

جمع بحاتين الكلمتين جميع تلك المعاني ، وهذا كثير قد دلتلك عليه، فإن أردته فموضعه مشهور^(٢)

قال شاكر بعد اقتصاصه كلام الجاحظ السابق معلقاً على حكم الباقياني :

"إذن ، فغير منكر أن يكون الجاحظ قد سلك في أبواب من هذا الكتاب مسالك المتكلمين كما قال

القاضي الباقياني فإن الجاحظ نفسه قد دلنا على ذلك فيما نقلته آنفاً من كلامه " .^(٣)

ولكن كلام الجاحظ السابق لم يكن كافياً عند محمود شاكر لإنهاء القضية ، وإعطاء موافقة كلية على حكم

الباقياني في منهج كتاب الجاحظ المفقود ، فما قاله الباقياني من وجهة نظر شاكر لا ينطبق على كل كتاب

الجاحظ ، بل ينطبق على أبواب فيه دون أبواب ، وأقسام فيه دون أقسام ، ومعنى ذلك أن حكم الباقياني

على الكتاب ليس على إطلاقه بل هو جزئي لا يصل إلى الشمولية والعموم ، وقد قال الأستاذ محمود شاكر

مكملاً حكمه السابق الموافق للباقياني :

" ولكنه أيضاً قد سلك غير مسالك المتكلمين في أبواب أخرى منه كالتي أشار إليها في هذا النص ،

القريب السالف ، وتكلم في وجوه ليس للمتكلمين فيها منفذ ؛ لأنها من عمل الكتاب والبلاغة ، والذين

يتذوقون البيان تذوقاً ، أرهبته الخبرة والإلف والشغف ... بالبيان^(٤)

إذن فمحمود شاكر لم يقبل رأي القاضي الباقياني على علته ، ولم يسلم له بصحته لذاته ، بل استدل له من

كلام الجاحظ نفسه على كتابه ، ورأى أن ما ذكره الجاحظ عن كتابه في هذا الموضوع يؤيد حكم القاضي

الباقياني الذي أطلقه عن كتاب الجاحظ (الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيه) ، ومعنى أنه لم

يسلم للباقياني فإن شاكر وعلى عادته العلمية لا بد وأن يتحرى ويستقصي قبل موقفه الاستنباطي ، وحينما

وجد دليلاً على صحة استنباط الباقياني وسلامة حكمه وافقه على ذلك .

(١) سورة الواقعة ، الآية الكريمة رقم (٣٣) .

(٢) الحيوان للجاحظ ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

(٣) مدخل إعجاز القرآن لـ محمود شاكر ، ص : ٧٢ .

(٤) السابق : ص ٧٢ .

على أن المقدمة التي قدم بها شاكر لـ*كلام الباقياني* هذا وقبل موافقته له توحى بأنه سيعرض عليه ويرد رأيه، فقد وجد في *كلام الباقياني* هذا نوعين من الغبن :

أولهما الغبن الأصغر : وهو مستفاد من سياق الكلام كله وتمثل في أن كتاب الجاحظ لم يزد فيه عن *كلام المتكلمين* ، وهو غبن إنكار الجهود النقدية والبلاغية التي تضمنها الكتاب.

ثانيهما الغبن الأعظم : وهو إيهام الباقياني أن المتكلمين قد سبقو إلى مثل ما سبق إليه الجاحظ في هذا الكتاب ، وهو غبن جحدان أسبقية الجاحظ وتقديمه على جماعة المتكلمين.

واثن شاكر الباقياني بأنه متحامل على الجاحظ لا غير ، وأن حكمه النافي لهذا منطلقه هذا التحامل ، وقصده الغض والتقليل من شأن أبي عثمان الجاحظ وكتابه هذا في نظم القرآن .

وكلا الغبني السابقين وبعدهما التقليل والغض من شأن الجاحظ مردود عند شاكر ومدفعه بكلام العلماء وشهاداتهم للجاحظ نفسه غير شهادة الباقياني هذه ، وفي هذا يقول الأستاذ محمود شاكر رحمه الله في ذلك وهو ما يمثل أنموذج الموقفة التامة والقبول المطلق برأي العلماء في هذه القضية :

" وهذا الكتاب اليوم مفقود مع شهرته المستفيضة التي كانت عند أهل القرنين الرابع والخامس من الهجرة ، وليس في إيدينا منه نصوص تذكر ، فحكمنا عليه غير ممكن ، وإنما نقتصر فيه على قول أبي عثمان نفسه وعلى بعض أقوال من رأى الكتاب ، وكان أقربهم إلى أبي عثمان زمناً هو ابن الخطاط المعتزلي أبو الحسن عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المتوفى أوائل القرن الرابع الهجري فهو يقول في كتابه الانتصار والرد على ابن الروandi الملحed^(١) :

" لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتاج للنبوة بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجب تأليفه ، وأنه حجة محمد ﷺ على نبوته غير كتاب الجاحظ " .^(٢)

وهذه موقفة تامة غير مجروءة للأستاذ محمود شاكر على *كلام ابن الخطاط المعتزلي* في كتاب الجاحظ المفقود في

(١) هنا نهاية كتاب الأستاذ محمود شاكر رحمه الله في مداخل إعجاز القرآن ، ص : ٧٠ .

(٢) كتاب الانتصار والرد على ابن الروandi الملحed ، مقصده به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم ، لأبي الحسين عبد الرحيم بن عثمان الخطاط المعتزلي ، مقدمة وتحقيق نيرج ، ط٢ ، عام ١٩٩٦ م ، مكتبة الدار العربية للكتاب بالقاهرة ، ص ١٥٤-١٥٥ .

نظم القرآن ، وهي موافقة مقابلة تماماً لموافقته المجزوءة على كلام الباقياني في كتاب الجاحظ هذا ، فقد أخذ شاكر من كلام ابن الخطاط علو كعب الجاحظ نفسه وتميز كتابه المفقود في نظم القرآن الكريم ، وذلك بعد أن أقر الأستاذ رحمة الله بصعوبة إطلاق أحكام نقدية على كتاب مفقود ، وعلق إطلاق الأحكام النقدية على كتاب الجاحظ المفقود بثلاث اعتبارات :

الاعتبار الأول : كلام الجاحظ نفسه عن كتابه هذا .

الاعتبار الثاني : كلام العلماء الذين رأوا كتاب الجاحظ هذا .

الاعتبار الثالث : قرب زمان ذلك العالم الذي رأى كتاب الجاحظ هذا من زمان أبي عثمان الجاحظ نفسه.

وكل هذه الاعتبارات يرى شاكر أنها تدعم رأيه في أن كتاب الجاحظ هذا كتاب نفيس مستفيض الشهرة بين علماء القرنين الرابع والخامس الهجري ، وأن الجاحظ لم يسلك في كامل هذا الكتاب مسالك المتكلمين ، أما الاعتبار الأول فقد اقتصر الأستاذ رحمة الله من كلام الجاحظ ما يؤيد رأيه ، أما كلام العلماء الذين فراؤ كتاب الجاحظ هذا فهو مقيد بالاعتبار الثالث وهو الاعتبار الزماني ، فقرب ابن الخطاط المعتزلي من زمان الجاحظ يعطي رأيه أولوية في القبول والأخذ به والاعتماد عليه ، وقيده هذا لم يأت به إلا لإخراج كلام الباقياني منه ، فالباقياني وإن كان من علماء القرن الخامس الذين رأوا كتاب الجاحظ ، إلا أن بعد زمانه عن زمان الجاحظ يعطى ابن الخطاط المعتزلي الأولوية في قبول رأيه لقرب زمانه عن زمان الباقياني .

والحق أن الحكم على كتاب مفقود والاعتماد على آراء المطلعين عليه لا يتمخض عنه أحكام دقيقة ، فالجاحظ كغيره من العلماء له مريدون وله مبغضون ، فالمريدون له قد يطلقون أحكاماً نابعة من الموقف الشخصي أو حتى المذهبي تجعل من كتابه المفقود هذا كتاباً لا يشق له غبار في الكشف عن إعجاز القرآن الكريم ، بل و يجعلون كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني مستنسحاً من هذا الكتاب أو أنه هو نفسه ، وغير المريدين للجاحظ قد يطلقون أحكاماً عن كتابه هذا تتضمن تكراراً لما سبقه من جهود العلماء قبله ، وأنه ليس فيه من الفائدة المرجوة ما ينصح بالاعتماد عليه والركون إليه ، والأحكام الحقيقة على الكتب والمؤلفات لا يمكن أن تكون إلا بعد قراءتها والاطلاع عليها ومعرفة ما فيها .

أما قول شاكر إن الباقياني متحامل على الجاحظ وبسبب من ذلك يجب أن تؤخذ أقوال الباقياني عن الجاحظ بعد تحخيص كبير ، يخرج بها من أثر الموقف الشخصي وال النفسي إلى النقد الموضوعي العلمي المعلم ، فإن كلام شاكر في هذا التحامل ناتج عن اطلاع و دراية ، فالباقياني كان شديد التحامل على مؤلفات الجاحظ وعلى منهجه في تأليفها ، ويرى أن الجاحظ يعمد فيها إلى تطريز عباراته القليلة باليوت السائرة ، والأمثال النادرة ، والحكم المنقول ، والقصص العجيبة المأثورة ، ليس يسيطر على لب القارئ ، ويخلط كلامه بما حتى يكاد يكون منها وما هو منها في شيء ، بل وتجاوز ذلك كله إلى الدعوة لمطالعة بعض كتب الجاحظ الحالية صفحاتها تماماً من نظمه البديع ، وكلامه المليح ، وعندما يقوم الباقياني بمقارنة الجاحظ بغيره من الأدباء يرى أن الجاحظ أقل شأنًا في الأدب وفن الكتابة من بعض طلابه وتلامذته ، فابن العميد مقدم على الجاحظ في رأي الباقياني لأنه يستوفي كلامه ومعانيه على حدود مذهبه ومنهجه ، ويصل بتأليفه إلى الكمال في حدود صنعته ، ولا يقتصر على نقل كلام غيره وخلطه بكلامه كالماحظ ، ذلك الجاحظ الذي يتبع سطراً واحداً من تأليفه أوراقاً من كلام الناس ، ويتبع صفحاته التي من تأليفه كتاباً من كلام الناس ، ولا بد من اقتصاص كلام الباقياني على طوله في ذلك ليُستبان تحامله الشديد على منهج الجاحظ ومؤلفاته على نحو يزعزع الثقة في عدم كلامه نقداً موضوعياً معللاً يمكن الاعتماد عليه ، يقول الباقياني في ذلك :

" كذلك قد يرغم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذي لا يؤخذ فيه، والباب الذي لا يذهب عنه، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً، ومنهاجه معيناً، ونطق قوله ضيقاً، حتى يستعين بكلام غيره، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه ، من بيت سائر ، ومثل نادر، وحكمة ممهدة منقوله ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة ، وألفاظ يسيرة ، فإذا ألحوج إلى تطويل الكلام خالياً عن شيء يستعين به - فيخلط بقوله من قول غيره - كان كلاماً ككلام غيره ، فإن أردت أن تتحقق هذا، فانظر في كتبه في "نظم القرآن" وفي "الرد على النصارى" وفي "خبر الواحد" وغير ذلك مما يجري هذا المجرى، هل تجد في ذلك كله ورقة واحدة تشتمل على نظم بديع أو كلام مليح؟ على أن متاخر الكتاب قد نازعوه في طريقته، وجاذبوه على منهجه، فمنهم من ساواه حين ساماها ، ومنهم من أبر عليه إذ باراه ، هذا أبو الفضل ابن العميد قد سلك مسلكه ، وأخذ طريقه، فلم يقصر عنه، ولعله قد باشر تقدمه عليه ، لأنه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه، ويكملاها على شروط صنعته، ولا يقتصر على أن يأتي بالأسطر من نحو

كلامه، كما ترى "الجاحظ" يفعله في كتبه، متى ذكر من كلامه سطراً أتبعه من كلام الناس أوراقاً، وإذا ذكر منه صفحة بني عليه من قول غيره كتاباً ..^(١)

هذه المقطوعة على طولها تثبت أن الباقلاي شديد التحامل على منهج الجاحظ ومؤلفاته إن لم يكن التحامل على الجاحظ نفسه شخصياً ، وليس الشأن هنا أن يتم نقض كلام الباقلاي بإثبات المنزلة البينية التي كان يحتلها الجاحظ ، وليس الشأن هنا أن يتم نقضها بإثبات لجهود الجاحظ العلمية والأدبية وخدمته الجليلة للأدب العربي ، فمنزلة الجاحظ الأدبية والنقدية في التراث العربي أشد وضوحاً من أن توضح ، وجهوده الأدبية والنقدية كانت وبحق اللبنات الرئيسية والدعائم الأولى التي أسست لمنهج النقد وعلمية الأدب العربي ، وقد يكون من السهل إثبات تناقض كلام الباقلاي هذا من بنائه الداخلية ، فبعض كلامه في هذه المقطوعة يناقض بعضه الآخر ، فالباقلاي أراد الانتقاد من شأن أدب الجاحظ والغض من رصانة أسلوبه والتقليل من قدرته على التأليف والتحبير ، فقوله (على أن متأخري الكتاب قد نازعوه في طريقته) دليل نطقته به حروف الباقلاي وبشكل صريح على تقدمه الجاحظ وعلو منزلته التأليفية ومقدراته البينية ورقمه الأسلوبية ، إذ لو لم يكن كذلك لما نازعه على طريقته هذه من جاء بعده من الكتاب والأدباء ، فيكتفي الجاحظ أن يكون أنموذجاً يحاول كتابة كتاب كابن العميد تطبيقه ومثلاً أعلى يقتدى به ، " على أن تفضيل الباقلاي لابن العميد في بعض ما هو من شأنه على الجاحظ ، مفخرة للجاحظ نفسه ، واعترافاً بفضلة ، وتقديراً لبلغته ؛ لأن ابن العميد يعد من تلاميذ الجاحظ الذين تخرجوا بكتبه وترسموا خطاه في بيانه وقوته عارضته وبلغ أسلوبه "^(٢).

ومن نماذج قبول محمود شاكر لاستنباطات العلماء ونقداتهم وزيادته عليها ، قوله لرأي أستاذ الرافعي قام فيه بنقد عباس العقاد ، وذلك في قول العقاد يصف ويصور خليج ستانلي أو حمام البحر في مدينة الإسكندرية بمصر :

بَيْنَ الْأَنَاقِيَّةِ وَالثَّرْفِ

يَا وَيْحَ قَلْبِكَ مِنْ هَدَفْ

(١) إعجاز القرآن للباقلاي ، ص : ٢٤٧-٢٤٨.

(٢) أدب الجاحظ ، لحسن السندي ، ط١ ، عام ١٩٣١ م ، للمطبعة الرحمنية بالقاهرة ، ص ٥٥-٥٦ .

بَلْ بَيْنَ الْوَانِ الرَّيْبِ

أَلَقَى لَهُنَّ بِقُوَسِيهِ

فَلِيسْنَ مِنْ أَسْلَابِهِ

وَخَلَعْنَ مِنْ أَلْوَانِهِ

عِيدُ الشَّبَابِ فَلَا كَلَا

وقد خصص أبو فهر لموافقته نقد أستاذه الرافعي للعقد في هذا الموضع جزءاً كبيراً من مقالة كاملة جعلها قسماً ثالثاً من سلسة مقالات أسمها (بين الرافعي والعقد)^(٢)، حدد فيها موطن نقد أستاذه الرافعي ووجهه ، ونقد سيد قطب لنقد أستاذه ووجهه ، وموافقته لبعض نقد أستاذه وزبادته على تلك الموافقة ، وإبطال بعض من رأي سيد قطب ورد بعض من حجته عليه في هذا الموضع ، وبيان ذلك أنَّ الرافعي خطأ العقاد لغويًا حينما فصل (قوس عن فرح) في قوله:

أَلَقَى لَهُنَّ بِقُوَسِيهِ فُزُّحُ وَأَدْبَرَ وَانْصَرَفْ

وقد استدل الرافعي على ذلك بقول ابن منظور في اللسان : " وقوس فرح: طائق متقوسة تبدو في السماء أيام الربيع، زاد الأزهري: غب المطر بحمرة وصفرة وخضرة، وهو غير مصروف، ولا يفصل فرح من قوس ؛ لا يقال: تأمل فرح بما أبين قوسه"^(٤) ، ويرى الرافعي أنه إذا كان لا يجوز أن يفصل القوس عن الفرح ؛ فكيف للعقد أن يمتح لفرح المفصولة إدباراً وانصرافاً .

(١) فسر العقاد المطرف : جمع مطرف وهو الرداء ، والطرف : ما يستملح ويستظرف ، ديوان وحي الأربعين لعباس العقاد ، ص : ٤٦ .

(٢) السابق ، ص : ٤٦ .

(٣) جمدة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان ، ٢١ - ٢٧ .

(٤) لسان العرب لابن منظور ، ج ٢ ، ص ٥٦٣ .

أما سيد قطب فلم يعجبه نقد الرافعي هذا ، ووصفه بأنه تلاعب بألفاظ اللغة العربية - وهو ما أثار حفيظة الأستاذ شاكر -، يقول سيد قطب معلقاً على نقد الرافعي :

" فمن ذا الذي يغفل عن طرافة هذا (الخيال) الذي يتصور (قرحاً) ملقياً بقوسه لهؤلاء الحسان، وهن يتناهين هذه الأسلامب، بينما هو مدبر منصرف ، مغلوب على أمره ، لا يستطيع النصفة من غالب جمالهن جماله! ألا تستحق مثل هذه الطرافة، ومثل تلك الحيوية من الناقد إلا أن يذهب إلى القاموس أو اللسان ، ينظر هنالك هل يفصل قوس عن قرح أولاً يفصل؟ ثم يكمل الكلام بتهكم بارد لا يرد على الفطرة المستقيمة في معرض هذا الجمال!"^(١)

ونقد سيد قطب لهذا للرافعي ووصفه له بأنه تلاعب بألفاظ اللغة ، هو في حقيقة الأمر ما دفع الأستاذ محمود شاكر للدفاع عن نقد أستاده ، وموافقة رأيه وقبول حجته والاستدلال لها وتقوية جانبها ، ومن ثم النهوض للرد على سيد قطب ونقض رأيه وإبطال حجته واستدلاله ، حيث رأى الأستاذ شاكر أن من أعجب العجب أن يُرى رأي الرافعي تلابعاً بألفاظ اللغة ، ومن العجب أيضاً ألا يُرى أن بيت العقاد هذا هو عين التلاعب باللغة من غير طائل إلا لترميم قافية البيت^(٢)، ويُرى الأستاذ أن الرافعي قد ذهب في نقه إلى "رأي أصحاب اللغة في امتناع الفصل بينهما ، وأن الحرفين كالكلمة الواحدة على تبعهما ، وعلى ذلك لا يقال "ألقى قرح قوسه، وأولى إذن ألا يقال إن قرح أدبر وانصرف ؛ لأنه ليس بذاته يدل على معنى ، أو يقع اسمًا لشيء بعينه ، فهو إذن لا يجوز عليه الإسناد ؛ إسناد الخبر أو الفعل كالإلقاء والإدبار والانصراف ، فأين التلاعب في هذا الرأي باللفظ اللغوي؟ ولو قد كان وقع في بعض كلام الرافعي فصل أحدهما عن الآخر لأمكن أن يقال إنه يتلاعب باللفظ ، ولكن ذلك لم يكن ...".^(٣).

إذن فهذا قبول صريح من محمود شاكر لرأي عالم كبير وأستاذ جليل وهو مصطفى الرافعي ، وهو قبول مرتبط

(١) مقالة من برجنا العاجي : لسيد قطب ، مجلة رسالة ، العدد ٢٥٢ ، بتاريخ : ٠٥/١٩٣٨ هـ .

(٢) جمهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان ، ص : ٢٢ .

(٣) السابق ، ص : ٢٣ .

برأي أصحاب اللغة ، المانعين فصل كلمتي قوس قزح عن بعضهما البعض على اعتبار أنها كلمة واحدة ، مبرراً رأي أستاذه باعتماده على رأي ابن منظور المذكور آنفًا والمتضمن عدم جواز الفصل بين قوس وفرح ، ويرى شاكر كأستاذه الرافعي أن الانصراف والإدبار من الأولوية بمكان لا يسندان إلى قزح مادام الفصل بينه وبين قوس من نوع في اللغة من أصله ، ثم برأ أستاذه الرافعي من تهمة التلاعب بألفاظ اللغة التي اتهمها بها سيد قطب ، وأقر بثبوت هذه التهمة على أستاذه فيما لو قام الرافعي نفسه باستخدام قوس مفصولة عن فرح ، وخالف تنظيره النطوي من الوجهة اللغوية استعماله اللغوي في الإبداع الأدبي ، وفي هذا تعريض بالعقد الذي خالق تنظيره تطبيقه في هذه القضية تحديداً ، فقد عاب العقاد في كتابه رواية قمبيز في الميزان ، وهو كتاب قام فيه العقاد بنقد مسرحية قمبيز الشعرية التي قام بتأليفها أمير الشعراء أحمد شوقي ، حيث كان من ضمن نقدات العقاد لهذه المسرحية بأن فيها مخالفة لبعض استعمالات اللغة العربية ، ومن ذلك نقهه لقول شوقي على لسان أحد المجنان :

الْحُمْرُ تَنْفِي التَّرَحَا

الْفَدَحَا الْفَدَحَا

وَشَجَرًا أَمْ فُرَحَا^(١)

فَصْرًا رَأَى أَمْ فَلَكَا

حيث قال العقاد في ذلك :

" ويقول فرح ، ولا تذكر فرح إلا مع قوس "^(٢)

وقد اتخذ شاكر من نقدة العقاد هذه سبيلاً لاتهامه بعدم عربية عبارته ، فأهل اللغة ويمثلهم ابن منظور لم ينصوا في منعهم إلا على الفصل دون الذكر ، بمعنى أن الممنوع عند أهل اللغة أن يفصل قوس عن قزح مثل : ألقى قزح بقوسه ، أما ذكر أحدهما دون الآخر فلم ينص عليه المنع ولم يشر إليه ، وهذا أول مأخذ على العقاد في نقهته هذه ، أما المأخذ الثاني فإن شاكراً يرى بأن العقاد نفسه قد خالق تنظيره تطبيقه حينما استخدم الكلمتين مفصولة عن بعضهما قبل مضي ستة أشهر من نقهته هذه وذلك في قوله السابق :

(١) قمبيز لأحمد شوقي ، ط بدون ، عام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بمصر ، ص ٤٠ .

(٢) رواية قمبيز في الميزان ، لعباس العقاد ، ط ١ ، عام ١٩٧٠ م ، لدار الكتاب العربي ، ص ١٥ .

وبناء عليه وبحسب ما يريده الأستاذ شاكر : فإن العقاد هو الأولى والأجرد بتهمة التلاعب باللغة من الرافعي.

الحق أن قبول الأستاذ محمود شاكر رحمة الله لرأي أستاذه هذا مبني على أساس العلاقة الوطيدة التي كانت تربطه بأستاذ الرافعى ، والتي يرى أن لزامها عليه أن يذب عن أستاذه ويدافع عنه ويتأول له ويقوى جانبه ، ودليل ذلك أن محمود شاكر لم يعمد إلى تخطئة العقاد بشكل مباشر كما فعل أستاذه ، بل قام بتقصي استخدام العرب لهاتين الكلمتين وانتهى إلى أن لفزح ثلاثة أوجه من الرأى عند أهل العربية :

أولها : أن قرحة اسم شيطان أو ملك موكل به ، وهذا المعنى مستخلص من حديث رفعه بعض العلماء إلى النبي

بعضهم أوقفه على بعض أصحابه رضوان الله عليهم ، وهو قوله :

"لَا تَقُولُوا: قَوْسٌ فَرَحٌ إِنَّ فَرَحَ شَيْطَانٌ وَلَكِنْ قُوْلُوا: قَوْسُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ أَمَانٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ" (١)

(١) هذا الحديث مرفوع إلى النبي ﷺ في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأحمد بن عبد الله بن إسحاق الأصبهاني ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ ، ط ١ ، عام ١٩٧٤ م ، لدار السعادة بمصر ، وورد موقفاً لعلي بن طالب رض في الجامع في الحديث لابن وهب ، لـ محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي ، تحقيق : مصطفى حسن حسين محمد أبو الخير ، ص ١٠٥ ، ط ١ ، عام ١٩٩٥ م ، لدار ابن الجوزي بالرياض ، وأوقفه ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي على علي بن طالب رض أيضاً برواية " لا تُقْلِنْ قَوْسُ فُرَحٍ فَإِنْ فُرَحَ الشَّيْطَانُ وَلَكِنَّهُ الْقَوْسُ وَهِيَ أَمَانَةٌ مِّنَ الْعَرْقِ " في كتابه ، المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما ، دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ط ٣ ، عام ٢٠٠٠ م ، لدار خضر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ورفعه عن ابن عباس محمد بن عبد الله بن بحدار الزركشي ، برواية : " لا تقولوا قوس قزح هو الشيطان ولكن قولوا قوس الله عز وجل وهوأمان لأهل الأرض" ، في كتابه : الآلي المنشورة في الأحاديث المشهورة ، المعروف بالذكرة في الأحاديث المشهورة ، دراسة وتحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، ج ١ ، ص ١١٥ ، ط ١ ، عام ١٩٨٦ م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، أما البخاري فقد أوقفه على ابن عباس بدون نهي عن تسمية قوس قزح بهذا الاسم ، وبرواية " عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْمَحْرَرُ: بَابٌ مِّنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، وَأَمَّا قَوْسُ فُرَحٍ: فَأَمَانٌ مِّنَ الْعَرْقِ بَعْدَ قَوْمٍ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ " في كتابه الأدب المفرد ، تحقيق علي عبد الباطن مزيد - وعلى عبد المقصود رضوان ، ص ٣٥٢ ، ط ١ ، عام ٢٠٠٣ م ، لمكتبة الحانجي بمصر ، وفي حدود بحثي واطلاعي وفيما بين يدي من كتب الحديث لم أجده الحديث منسوباً لابن عباس كما قاله الأستاذ شاكر بهذه الرواية أو رواية أخرى تتضمن النهي ، ومن المحتمل أن يكون الأستاذ اعتمد في ذلك على كتب اللغة التي أوقفت الحديث على ابن عباس رض ومنها : تحذيب اللغة ،

ثانيها : أن الفرج هي الطرائق والألوان التي في القوس ، والواحدة منها تسمى فرحة ، وهذا المعنى مما نصت عليه معاجم اللغة ^(١) ، وهو المعنى الدارج والمتداول لهاتين الكلمتين مجتمعتين بين العامة والخاصة .

وثالثها : أن يكون من فرح بمعنى علا وارتفاع وهو مما نصت عليه معاجم اللغة أيضاً ، ^(٢) ، وقد رأى شاكر بناء على هذه الوجوه الثلاثة أن الوجه الأول لا يضر فيه انتصار قوس عن فرج ؛ لأنهما قد أضيفا لبعضهما بالنسبة كما أضيف كتاب محمد في قوله : (كتاب محمد) ، وبناء عليه فقد أجاز بعضهم أن يستبدل تسمية العرب الأوائل له فقالوا قوس الغمام وقوس السحاب ، ويقصد الأستاذ شاكر من ذلك ما ورد في شعر بعض الشعراء من تسمية قوس فرج بقوس السماء وقوس الغمام وقوس السحاب ، مثل قول ابن الرومي ^(٣) :

= وكذلك في كتاب الحكم والمحيط الأعظم ، لعلي بن إسماعيل بن سيده ، ج ٢، ص ٤٥٨ ، وكذلك أوفقه ابن سيده على ابن عباس في كتابه المخصص ، ج ٢، ص ٤٢٥ ، وكذلك في لسان العرب لابن منظور : ج ٢، ص ٥٦٣ ، وكذلك أوفقه على ابن عباس صاحب : تصحيح التصحيح وتحرير التحريف ، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه: السيد الشرقاوي، ط١، عام ١٩٨٧ م ، مكتبة الخانجي بمصر ، ص ٤١٧ ، وكذلك في تاج العروس لمرتضى الربيدي ، ج ٧، ص ٥٧ .

(١) قال الخليل بن أحمد الفراهيدي : " وَقُوْسُ فُرْجٍ: طرِيقَةٌ مُتَقْوِسَةٌ تَبَدُّلُ فِي السَّمَاءِ" ، ينظر للعين ، ج ٣ ، ص ٣٨ ، وقال أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي : " الْفُرْجُ: الْطَّرَايْقُ، فِي الَّتِي يَقَالُ لَهَا: قُوْسُ فُرْجٍ، الْوَاحِدَةُ فُرْجٌ" ، ينظر لكتابه مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ج ٥، ص ٨٥ ، ط١، عام ١٩٧٩ م ، دار الفكر العربي ، وقال ابن سيده: " وَقُوْسُ فُرْجٍ: طرائق مُتَقْوِسَةٌ تَبَدُّلُ فِي السَّمَاءِ أَيَّامَ الرَّبِيعِ بِحُمْرَةٍ وَصُفْرَةٍ وَخُضْرَةٍ" ، ينظر لكتابه الحكم والمحيط الأعظم ، ج ٢، ص ٥٦٤ ، وكذلك أورده في كتابه المخصص ، ج ٢، ص ٤٢٥ ، وجاء في كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: لنشوان بن سعيد الحميري اليمني" قوس فرج: التي تبدو أيام المطر بحمرة وخضراء وصفرة" ، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري ، مطهر بن علي الإرياني ، يوسف محمد عبد الله ، ط١، عام ١٩٩٩ م ، دار الفكر المعاصر بيروت ، ج ٨، ص ٥٤٧٤ .

(٢) قال ابن منظور : " فَرَحَ الشَّيْءُ إِذَا ارْتَعَّ" ، لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٥٦٣ ، وقال الفيروزآبادي " فَرَحٌ: ارْتَعَّ" ، ومنه: سِعْرٌ قازِحٌ: غَالٍ .. " القاموس المحيط ، ص ٢٣٦ ، وقال مرتضى الزبيدي : " فَرَحٌ الشَّيْءُ، إِذَا ارْتَعَّ، وَمِنْهُ: سِعْرٌ قازِحٌ، أَيْ: غَالٍ .." ج ٧، ص ٥٨ .

(٣) علي بن العباس بن جورجس الرومي ، ولد في ٢٢١ هـ ، قال عنه المزباني : " أشعر أهل زمانه بعد البحترى وأكثراهم شعراً وأحسنهم أوصافاً وأبلغهم هجاءً وأوسعهم افتناناً فيسائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيها وهو في الهجاء مقدم لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره غزارة قول وخبث منطق ولا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس ومرؤوس إلا وعاد عليه فهجاه من أحسن إليه أم قصر في ثوابه فلذلك قلت فائدته من قول الشعر وتحمامه الرؤساء وكان سبباً لوفاته " ، توفي ٢٨٣ هـ، ينظر معجم الشعراء للمرزباني : ص ٢٨٩ .

عَلَى الْجُوَّ دُكْنَاً وَهِيَ حُضْرٌ عَلَى الْأَرْضِ

عَلَى أَخْضَرٍ فِي أَصْفَرٍ وَسُطْرَ مُبِيَضٍ^(١)

وَالشَّمْسُ مُسْفِرٌ وَالْبَرْقُ حَلَّاسٌ

رَشْقُ السَّهَامِ وَعَيْنُ الشَّمْسِ بُرْجَاسٌ^(٢)

عَلَى هَدَفِ الْمَاءِ قَوْسُ الْعَمَامِ

رُؤُوسُ نِصَالٍ لِتَلْكَ السَّهَامِ^(٣)

وَقَدْ نَشَرْتُ أَيْدِيَ السَّحَابِ مَطَارِقًا

يُطَرِّزُهَا قَوْسُ الْعَمَامِ بِحُمْرَةٍ

وقول أبي الْوَوَاء الدَّمْشَقِي^(٤) :

سَقِيًّا لِيَوْمٍ بَدَا قَوْسُ الْعَمَامِ بِهِ

كَائِنَةُ قَوْسُ رَامٍ وَالْبَرْوُقُ لَهُ

وقول مُحَمَّدْ بْنُ عَبْدِ الْمَنْعَمِ الْخَيْمِي^(٥) :

إِذَا مَا رَمَى بِسَهَامِ الْقَطَّارِ

رَأَيْتَ الْفَوْاقِعَ فِي سَطْحِهِ

وَمِنْهُ قَوْلُ الْبَارُودِي^(٦) :

(١) ديوان ابن الرومي، ج ٢ ، ص : ٢٩٧ .

(٢) أبو الفرج مُحَمَّدْ بْنُ أَحْمَدَ العَنَانِي الغَسَانِي الدَّمْشَقِي الْمُنْقَبُ بِالْوَوَاءِ ، لَقْبُ بِهِ "الْوَوَاءُ لِأَنَّهُ كَانَ مِنَادِيًّا فِي دَارِ الْبَطِيخِ بِدَمْشَقِ يَنَادِي عَلَى الْفَوَاكِهِ ، كَانَ يَخْلُو مِنْذُ صَغْرِهِ لِلْمَطَاعَةِ وَالْسَّمَاعِ ، وَأَكَبَ عَلَى قِرَاءَةِ دُوَوَائِنِ الشِّعْرِ ، وَحَفْظِ دِيَوَانِ أَبِيهِ نَوَاسَ ، وَابْنِ الْمُعْتَزِ ، وَأَبِيهِ تَمَامَ ، وَالْمُتَنَبِّيَ ، وَكَانَ شَدِيدُ الْإِعْجَابِ بِشِعْرِ الْمُتَنَبِّيِّ ، اخْتَلَفَ فِي تَارِيَخِ وَفَاتِهِ ، وَرَجَحَ مُحَقِّقُ دِيَوَانِهِ أَنَّهُ تَوَفَّى سَنَةً : ٣٧٠ هـ ، يَنْظَرُ لِتَرْجِمَتِهِ فِي مَقْدِمَةِ دِيَوَانِهِ تَحْقِيقُ سَامِيِّ الدَّهَانِ ، ط٢ ، عَامٌ : ١٩٩٣ م ، لَدَارُ صَادِرٍ بِبَرْبُورٍ .

(٣) ديوان الْوَوَاء الدَّمْشَقِيِّ ، ص : ١٣١ .

(٤) "شَهَابُ الدِّينِ ابْنِ الْخَيْمِيِّ" مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَنْعَمِ بْنُ مُحَمَّدٍ شَهَابُ الدِّينِ ابْنِ الْخَيْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ الْيَمِنِيِّ الْأَصْلُ الْمَصْرِيُّ الدَّارُ الشَّاعِرُ ... عَلِتْ سَنَهُ وَحَدَثَ بِكَثِيرٍ مِنْ مَرْوِيَاتِهِ ، ... كَانَ هُوَ الْمَقْدُومُ عَلَى شِعَارِهِ عَصْرَهُ مَعَ الْمُشَارِكَةِ فِي كَثِيرٍ مِنِ الْعِلُومِ ، وَبَاشَرَ وَقَفَ مَدْرَسَةَ الشَّافِعِيِّ وَمَشْهَدَ الْحَسَنِ وَفِيهِ أَمَانَةٌ وَمَعْرِفَةٌ وَكَانَ مَعْرُوفًا بِالْأَجْوَاهِ الْمُسْكَنَةِ لَمَّا يَعْرُفَ مِنْهُ غُضْبٌ ، عَاشَ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينِ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ وَتَوَفَّى ٦٨٥ هـ الْوَافِي بِالْوَفَى : لِصَالَاحِ الدِّينِ الصَّفْدِيِّ ، ج ٤ ، ص : ٣٩ .

(٥) لم أجِدْ لِحَمْدِ بْنِ عَبْدِ الْمَنْعَمِ دِيَوَانًا ، وَهَذِهِ الْأَبِيَاتُ مُنْسُوبَةٌ لَهُ فِي سُرُورِ النَّفْسِ بِمَدَارِكِ الْحَوَاسِ الْخَمْسِ ، لِأَبِي الْعَبَاسِ أَحْمَدِ بْنِ يَوسُفِ التَّيفَاشِيِّ ، تَحْذِيبُ جَمَالِ الدِّينِ ابْنِ مَنْظُورٍ ، تَحْقِيقُ إِحْسَانِ عَبَاسٍ ، ط١ ، عَامٌ : ١٩٨٠ م ، الْمَؤْسِسَةُ الْعَرَبِيَّةُ لِلْدِرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ ، بَيْرُوت ، ص : ٢٨٧ .

(٦) محمود سامي بن حسن حسين بن عبد الله البارودي المصري ، شاعر مصرى ولد عام ١٢٥٥ هـ ، نشأ طموحاً يتبوأ مناصب مهمة بعد ان التحق بالسلك العسكري، وقد ثقى نفسه بالاطلاع على التراث العربي .. فقرأ دواوين الشعراء وحفظ شعرهم في صغره ، وهو رائد مدرسة البعث والإحياء في الشعر العربيالحاديـثـ، وهو أحد زعماء ، تولى وزارة الحرية ثم رئاسة الوزراء باختيار الثوار له. لقب بــرب السيف والقلم ، ينظر لترجمته في مقدمة ديوانه ، تحقيق : علي الجارم ، ومحمد شفيق ، ط بدون، عام ١٩٩٨ م ، لدار العودة بيروت .

مَعْفُوَّةٌ فَوْقَ طَامِي الْمَاءِ سَيَّاٰلٌ
بَدَائِعًا ذَاتَ الْوَانِ وَأَشْكَالٍ^(١)

كَانَ قَوْسَ الْعَمَامِ الْعَرْ قَنْطَرَةٌ
إِذَا الشَّعَاعُ تَرَاءَى حَلْفَهَا نَشَرَتْ

ومن أمثلة تسميته بقوس السحاب قول ابن معتوق في المدح^(٢):

تَسْرِي الْأَيَادِيْنِ وَفِيهَا يَنْزِلُ الْأَمْلَ
قَوْسُ السَّحَابِ الْعَوَادِيْنِ حِينَ يَنْهَمِلُ^(٣)

يُدْ إِلَى كُلِّ مِصْرٍ مِنْ أَنَامِلِهَا
كَانَ حَاتَّهُ يَوْمَ التَّوَالِ إِلَيْهَا

وقول معروف الرصافي^(٤):

فَكَانَمَا هِيَ لُؤْلُؤٌ مَنْثُورٌ
قَوْسَ السَّحَابِ لَهَا يَكِّنَ تَصْوِيرٌ^(٥)

تَنَاثَرُ الْقَطَرَاتُ فِي أَطْرَافِهَا
يَنْخَلُ فِيهَا النُّورُ حَتَّى قَدْ تَرَى

(١) ديوان البارودي : ص ٤٥٠ - ٤٥١.

(٢) شهاب الدين بن معتوق الموسوي الحوزي ، " شاعر العراق في عصره ، ولد سنة ٢٥١٠ هـ ، ونشأ بالبصرة ، وكما تعلم الأدب ، وقال الشعر وأجاد ، واتصل بالسيد خان أحد أمراء البصرة من قبل الدولة الإيرانية ، وكان وقتذا يملك العراق والبحرين ، ومدحه ... وأكثر شعره مقصور عليه وعلى أهل بيته ، فغمره بالإحسان ، وهو من كبار شعراء الشيعة ، فقد مدح عليا عليها السلام ، وأهل البيت بما يخرج عن حد الشرع والعقل ، ويعتز شعره بالرقابة وكثرة المجازات حتى تقاد الحقيقة تحمل فيه بالجملة توقي سنة ١١١١ هـ " ينظر لترجمته في نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار ، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم ، ينظر في ترجمته لنزهة الأبصار في محسن الأشعار ، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم نسخة إلكترونية ولم أجده الكتاب الأصل ، ص : ١٦٤ .

(٣) ديوان طراز البلغاء وخاتمة الفصحاء لشهاب الدين الموسوي المعروف بابن معتوق ، ضبط سعيد الشرتوبي ، ط بدون ، عام : ١٨٨٥ م ، المطبعة الأدبية بيروت ، ص : ١٢٧ .

(٤) معروف بن عبد الغني بن محمود الجباري ، ولد عام ١٢٩٢ هـ ، ولد ونشأ في بغداد ، من أب كردي النسب وأم تركمانية ، وعين الرصافي معلماً في مدرسة الراشدية التي أنشأها الشيخ عبد الوهاب النائب ، شمال الأعظمية ، ثم نقل مدرساً للأدب العربي في الأعدادية ببغداد ، أيام الوالي نامق باشا الصغير ، ثم سافر إلى إسطنبول فلم يلحظ برعاية ، ثم عين مدرساً لمادة اللغة العربية في الكلية الشاهانية ومحرراً لجريدة سبيل الرشاد ، وأصدر جريدة الأمل ، وأنصب عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق ، وبعد ذلك عين مفتشاً في مديرية المعارف ببغداد ، ثم عين أستاذًا في اللغة العربية بدار المعلمين العالية ، توقي الرصافي بداره في محلة السفينية في الأعظمية ليلة الجمعة في ربيع الآخر من عام ١٣٦٤ هـ ، وشيع بهوكب مهيب سار فيه الأدباء والأعيان ورجال الصحافة ، ينظر لترجمته في البغداديون أخبارهم ومجالسهم ، ط ٣ : بدون ، عام : ١٩٧٢ م ، مطبعة الرابطة ببغداد ، ص : ١٠٣ - ١٠٥ .

(٥) ديوان معروف الرصافي ، مراجعة مصطفى الغلايبي ، ط: بدون ، عام : ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بالقاهرة ، ص ٣٣٦ .

ويرى شاكر أن الوجهين الثاني والثالث لا يجوز فيهما فصل قوس عن فتح البة ، وذلك عند إرادة الطرائق المتقوسة التي تبدو في السماء ؛ لأن الكلمتين حينهما تنزلان منزلة الكلمة الواحدة .

ويبدو جلياً أن شاكرأ ضنين كل الضن بالحكم للعقد على أستاذه الرافعي ؟ وبعد أن انتهى من هذا الاستقراء والإيجاز ذكر ما نصه :

"ونحن نرى أن العقاد قد ذهب — وإن لم يرد ذلك — إلى الوجه الأول ، وأن شعره يحمل على رأي جائز في العربية"^(١).

ومن هنا يستطيع القول بأن موافقة محمود شاكر لرأي أستاذه الرافعي في هذه المسألة موافقة غريبة جداً ، فقد تبين له بعد أن استقرأ معاني قوس فتح وربطها بأحكامها اللغوية في الفصل وعدم جواز الفصل ، أن العقاد قد حمل شعره على وجه جائز في العربية ، وبناء عليه فإن الوجه الذي بني عليه الرافعي نقهء فاسد ومروود بتصويب شاكر للعقد ، ولكن ود الرافعي وحبه حال دون ذلك ودون تخطئة شاكر له والانتصار للعقد عليه ، وفي قوله في العبارة السابقة (إن لم يرد ذلك) ما فيه من عدم رغبته في تصويب العقاد وتخطئته أستاذه ، فالعقد حين يصيب بشعره وجها من وجوه اللغة فإنه لم يرد ذلك بل جاء محض الصدفة والتوفيق ، أما الرافعي فحين يخطئ العقاد في وجه تجيئه له العربية فهو إنما وافق رأي أصحاب اللغة فحسب ، وهو وإن خطأً وجهاً جائزاً في لغة العرب فإنه لا تثريب عليه .

هذا والشاهد من فصيح الكلام صريحة بجواز الفصل بين قوس وفتح ، ومنه قول نابغة بن شيبان ^(٢) :

سِيَقَ رُكَامَ فَالْعَيْمُ مُنْسَرِخٌ **أَشَحَّدَ إِذْ هَبَّتِ الشَّمَالُ لَهُ**

(١) جهرة مقالات محمود شاكر لعادل سليمان ، ص : ٢٣ .

(٢) " اسمه عبد الله بن المخارق وقيل اسمه جميل بن سعد بن معقل والأول أثبت وهو إسلامي كثير الشعر ، شاعر بدوي من شعراء الطبقة الأولى وكان .. منقطعاً إلى عبد الملك بن مروان ، مدحأً له ، وكان ينشد الشعر فيكثـر ، حتى إذا فرغ قبض على لسانه فقال: لأـسلطـنـ عـلـيـكـ ماـ يـسـؤـوكـ: سـبـحـانـ اللهـ وـالـحـمـدـ اللهـ وـلـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللهـ وـالـلـهـ أـكـبـرـ " لم أجـدـ لهـ فيـ كـتـبـ التـرـاجـمـ الـتـيـ بـيـنـ يـدـيـ تـارـيـخـ وـفـاةـ ،ـ يـنـظـرـ لـتـرـجـمـتـهـ فيـ تـارـيـخـ دـمـشـقـ لـابـنـ عـساـكـرـ ،ـ جـ ٣٣ـ ،ـ صـ :ـ ٢٦ـ ،ـ وـيـنـظـرـ كـذـلـكـ الـوـاـفيـ بـالـوـفـيـاتـ لـلـصـفـديـ ،ـ جـ ١٧ـ ،ـ صـ :ـ ٢٢٦ـ .ـ

(٣) أـشـحـدـ :ـ سـاقـ وـطـرـدـ ،ـ "ـ شـحـدـتـهـ أـيـ سـقـنـةـ سـوـقـاـ شـدـيـداـ"ـ ،ـ يـنـظـرـ لـلـسـانـ الـعـرـبـ لـجـمـالـ الدـيـنـ اـبـنـ مـنـظـورـ :ـ جـ ٣ـ ،ـ صـ :ـ ٤٩٤ـ .ـ

تَلُوْخُ فِيهِ لَمَّا قَضَى وَطَرَا

قَوْسٌ حَنَاهَا فِي مُرْزِنِهِ قُرَزُ^(١)

فقرح كما يلاحظ جاءت مفصولة عن قوس ، وعلى ذلك استخدم الشعراء في بعض أشعارهم هاتين الكلمتين مفصولتين لأغراض بيانية تشبه إلى حد كبير في غرضها الجمالي استخدام العقاد لها .

فالعقد إنما فصل قوس عن قرح ليتصور أن حسنوات شاطئ إستانلي قد ألقى عليهم قرح أقواسه ، وهن يرتدبن هذه الأقواس التي ألقاها والتي تحولت إلى غنائم وأسلاب يأخذها المنتصر غنيمة وعنوة من المهزوم ، وما جاءت الغنائم والأسلاب إلا بعد أن نشبت معركة بين جمال ما ألقاه قرح من أقواس ، وجمال الحسنوات التي ألقيت عليهم تلك الأقواس ، وقد انتصر جمال الفتيات على الأقواس فاستلبن تلك الأقواس فارتديتها فردن بجاء وجمالاً ، أما قرح فقد أدبر وانصرف وقد أُسقط في يده بعد أن خسر تلك المعركة خسارة لا يستطيع بعدها الانتصار من الحق به هذه الهزيمة .

هذا وقد جرت الشعراة أيضاً على فصل قوس عن قوس اقتداء بفصيح الكلام ، ومن ذلك قول بديع الزمان الهمذاني^(٢) :

وَمُنْعِلِقاً أُؤْمِنْلَهُ
يُمْكِنِي الشَّيْخُ يَنْفَسِّخُ

فَيَعْلَمُ أَنَّ وَادِينَـا
هَـا أَوْ لَهُ يَنْفَسِّخُ

وَيُرْبِزُ سِرَّهُ أَمَـلِـي
وَيُطْلِـعُ قَوْسَهُ قُرَـحُ^(٣)

(١) ديوان نابعة بن شيبان، ط١، عام ١٩٣٢ م ، لدار الكتب المصرية بالقاهرة ، ص ١٠٣ .

(٢) " أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني، الحافظ المعروف بدبيع الزمان؛ ولد عام ٣٥٨ هـ وهو صاحب الرسائل الرائقية ، والمقامات الفائقة وهو أحد الفضلاء الفصحاء، روى عن أبي الحسين أحمد بن فارس صاحب "الجمل" في اللغة وعن غيره، وسكن هرة من بلاد خراسان ، وتوفي رحمة الله تعالى بهرة يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة؛ قال الحكم المذكور: وسمعت الثقات يحكون أنه مات من السكتة وعجل دفنه، فأفاق في قبره وسع صوته بالليل، وأنه نيش عنه فوجدوه قد قبض على لحيته ومات من هول القبر " ، ينظر لوفيات الأعيان لابن خلkan ، ج ١: ١٢٩ .

(٣) ديوان بديع الزمان الهمذاني ، تحقيق : يسري عبد الغني ، ط٣:٣، عام ٢٠٠٣ م ، لدار الكتب العلمية لبنان بيروت ، ص ٥٧ .

ومنه أيضاً قول ابن حمديس^(١):

فُرْخٌ بِعِطْفَةٍ قَوْسِهِ يَنْنَكِبُ
وَاجْلُوْ أَقْبَلَ فِي تَرَاكِبِ مُزْنِي
عَهْدِيْ بِهِ مِنْ نَفْتِهِنْ يُفَطِّبُ
صَابَتْ فَأَضْحَكَتِ النَّادِيْمِ بِأَكْؤُسِ
ومنه أيضاً قول لسان الدين الخطيب^(٢):

تَعْتَالُ فِيهِ حَوَانِحًا وَقُلُوبًا
وَحَفَّتْ بِهِ عُوْجُ الْقَسِّيِّ ضُلُوعَهَا
أَيْدِيْ الْعَمَامِ وَأَمْطَرَتْ شُؤُوبَهَا^(٣)
فَكَائِنًا فُرْخٌ حَنَتْ أَقْوَاسَهُ

(١) أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر ابن محمد بن حمديس الأزدي الصقلبي، وحمديس بفتح الحاء المهملة وسكون الميم وكسر الدال المهملة ولد في سرقوسة بصفلية أثناء حكم المسلمين لها عام ٤٤٧ هـ ، وتعلم فيها، وشارك في بعض معارك المسلمين ، مدح المعتمد بن عباد وكان من شعراء بلاطه ، وتردد على المعتمد في محبسه في أغمات وفاء له ، ومدح أبي طاهر يحيى بن تميم الصنهاجي ، ثم ابنه علياً ، فابنه الحسن ، قال ابن بسام في حقه: " هو شاعر ماهر يقرطس أغراض المعاني البدعة ، وبغير عنها بالألفاظ النفيضة الرفيعة ، ويتصرف في التشبيه المصيب ، وبغوص في بحر الكلم على در المعنى الغريب " ، وتوفي عام ٥٢٧ هـ بجزيرة ميورقة ودفن إلى جنب قبر ابن اللبانة الشاعر المشهور ، ينظر لترجمته في محسنون أهل الجزيرة ، لعلي بن بسام الشنتريني ، تحقيق إحسان عباس ، القسم الرابع : الجزء الأول : ، ص ٣٢٠ ، ط بدون ، عام ١٩٩٧ م ، لدار الثقافة بيروت ، وينظر أيضاً في وفيات الأعيان لابن خلkan ، وينظر لمقدمة ديوانه ، تقديم وتصحيح إحسان عباس ، ط بدون ، عام بدون ، لدار صادر بيروت ج ٣ ، ص ٢١٢ .

(٢) لم أجده هذين البيتين في ديوان ابن حمديس الذي صاحبه وقدم له إحسان عباس ، وقد نسبها ابن بسام له في كتابه الذخيرة في محسنون أهل الجزيرة ، ج ٧ ، ص ٣٤٢ .

(٣) محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن علي بن أحمد السلماني، قرطي الأصل ، ولد سنة ٧١٣ هـ ، نشأ لسان الدين بغرناطة، وتأدب على شيوخها، وهم كثرة، فأخذ عنهم القرآن، والفقه، والتفسير، واللغة، والرواية، والطب، وصناعة التعديل ، التزم خدمة عدد من السلاطين كأبي الحاج والسريري محمد الخامس المعروف بالغنى بالله وترعرع على علماء المغرب وأصحاب مناصبها كابن خلدون وغيره وبدأ فيها يكتب بعض آثاره المنظومة والمنتورة ، وله تأليفات كثيرة تربو على الستين مؤلفاً، ما بين كتاب ورسالة، منها: آداب الوزارة، الإحاطة في أخبار غرناطة، أوصاف الناس في التاريخ والصلة، جيش التوشيح، رقم الحلل في نظم الدول، روضة التعريف بالحب الشريف، ريحانة الكتاب وغيرها ، توفي عام ٧٧٦ هـ ، ينظر لترجمته وافية في مقدمة ديوانه ، صنعة وتحقيق وتقديم : محمد مفتاح ، ط ١ ، عام ١٩٨٩ م ، لدار الثقافة بالدار البيضاء .

(٤) البيتان في ديوانه ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

أما علماء النحو فقد تطرقوا كثيراً لقوس قرح عند حديثهم عن باب الخبر ، إذ إنهم يقولون بامتناع الإخبار عن الاسم الذي ليس تحته معنى ، كقولك محمد بن أبي محمد ، فقولك ابن أبي محمد يمتنع أن يكون خبراً إذا كان محمد نفسه غير موجود ويقال عليه كل أمر غير موجود ولا معروف نحو قوله: ابن قترة، وحمار قبان، وسام أبرص، وأبو براقيش، وبنات أوبير، وأبو الحصين، وأم حنين، وبنات نعش، فكل واحد من هذه الأسماء المضاف إليها لا يقصد به شيء معروف ، وما يدخل في منع النحاة هذا منهم الإخبار عن قوس بقرح ، إذا كان المقصود بهما الطرائق التي في السماء ذات الألوان التي قصد إليها العقاد ، فهي تعامل حينئذ معاملة محمد المعدوم في التركيب السابق ، وكأن القوس لا يمكن أن يأتي إلا متبوعاً بقرح لأنه هو الذي يولده وينتجه كما ينتج أبو محمد محمدأً ، وحينما يتعرض بعضهم بيت من فصيح الكلام يخبر فيه قوس عن قرح ؛ فإنهم يجعلون قرح من أسماء الشياطين التي وضعها الجاهليون ، وهذا هو ما يقصده شاكر في الوجه الأول من الوجوه الثلاثة التي ذكرت آنفأً، وهو الوجه الذي لا يضر فيه انفصال قوس عن قرح ؛ لأنهما قد أضيفاً بعضهما بالنسبة كما أضيف كتاب محمد في قوله : (كتاب محمد) ، وبناء عليه فقد أجاز بعضهم أن يستبدل تسمية العرب الأوائل له فقالوا قوس الغمام وقوس السحاب ، يقول ابن عصفور في ذلك : " وأما امتناع الإخبار عن الاسم الذي ليس تحته معنى كبكر بن أبي بكر، فلأن ذلك كذباً، إذ ليس بكر موجوداً فتخير عنه ، من النحوين من أجاز الإخبار عن الاسم الذي ليس تحته معنى، واستدل على ذلك بقول الشاعر:

فَكَانَمَا نَظَرُوا إِلَى قَمَرٍ

أَوْ حَيْثُ عَلَّقَ قَوْسَهُ قُرَحُ^(١)

فأخبر عن قرح من قوله: قوس قرح، وقد قيل إن قرح اسم الشيطان، وكأن العرب قد وضعوا قوساً للشيطان، ويكون هذا من أكاذيبها ، وفرح طريق في السماء ذو ألوان، فعلى هذا ليس من أجاز الإخبار عن الاسم الذي ليس تحته معنى دليل في قوله: (أَوْ حَيْثُ عَلَّقَ قَوْسَهُ قُرَحُ) ؛ لأن قرح قد قيل إنه اسم الشيطان فلم يك قط في هذا البيت إخبار عما ليس تحته معنى^(٢).

(١) البيت منسوب لابن عبد الأسد في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ، ص : ١٢٥١ ، ومنسوب لشقيق بن سليمي الأسد في المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية ، لبدر الدين العيني ، تحقيق: علي محمد فاخر ، أحمد محمد توفيق السوداني ، عبد العزيز محمد فاخر ، ط ١ ، عام ٢٠١٠ م ، لدار السلام بمصر ، ج ٤ : ، ص : ١٩٨١.

(٢) شرح جمل الزجاجي ، لأبي الحسن علي بن عصفور الإشبيلي ، تقديم وفهرسة: فواز الشعار ، إشراف: إميل بديع يعقوب ، ط ١ ، عام : ١٩٩٨ م ، لدار الكتب العلمية بيروت ج ٣ ، ص ٩٢-٩٣.

وبناء على كل ما ذكر فإن بيتي العقاد اللذين ذكر فيهما قوس قرح مجاز بحسب آراء بعض العلماء فيه ، ومتافق مع فصيح الكلام من شعر العرب ، وجار مجرب شعر الشعراء الذين يقتدى بخيالهم وفكيرهم وتصوירهم ، فقد قام العقاد بتوظيف قوس قرح بطريقته الخاصة ، كما قام بعض الشعراء من تم الاستشهاد آنفًا بشعرهم في فصل قرح عن قوسه ، والعقاد محسن في تصرفه بقوس قرح وتوظيفه توظيفاً جمالياً وإحسانه ، لا يزيد عن إحسان شعراء العربية السابقين عليه واللاحقين به ، والذين يحسب لهم لا عليهم توظيف ما يمكن توظيفه في جمالية الشعر .

وسيكون نقد الرافعي أشد دقة وأكثر قبولاً لو أنسد رأيه على رأي بعض أهل اللغة ، فصرامة عبارة الرافعي وتحكمه الشديد بيتي العقاد توحيان بأن العقاد قد ارتكب خطأً شنيعاً في اللغة أجمع أهل اللغة على عده خطأً ، وكل ما في الأمر أن بعض أهل اللغة وليس كلهم رأى عدم فصل قوس عن قرح ، ويضاف من العلماء إلى ابن منظور ابن سيده ومرتضى الزبيدي الذين منعوا فصل قوس عن قرح ، حيث استند الرافعي إلى كلام ابن منظور وبني حكمه عليه وهو مسبوق بكلام ابن سيده في كتابيه (المخصص) و(المحيط الحكم) ، حيث منع في كل منهما فصل قوس عن قرح دون أن يعلل ذلك ، قال ابن سيده في كتابه المخصص :

"قال صاحب العين قوس قرح طائق متقوسة تبدو في السماء أيام الرياح بصفة بحمرة وحضره ولا يفصل قوس من قرح "(١).

وقال في المحيط الحكم :

" وقوس قرح: طائق متقوسة تبدو في السماء أيام الرياح بحمرة وصفة وحضره ، ولا يفصل قرح من قوس ، لا يقال : تأمّلْ قُرْحَ فَمَا أَبَيَّنَ قَوْسَه " (٢) .

ثم تبعه ابن منظور في لسانه (٣) ، ثم جاء مرتضى الزبيدي في تاج العروس فاستنسخ كلام ابن سيده فقال :

"وَلَا يُفْصِلْ قُرْحَ مِنْ قَوْسٍ، لَا يُقَال: تأمّلْ قُرْحَ فَمَا أَبَيَّنَ قَوْسَه" (٤)

(١) المخصص لعلي بن سيده ، ج ٢ ، ص : ٤٢٥.

(٢) المحكم والمحيط الأعظم لعلي بن سيده ، ج ٢ ، ص : ٥٦٤.

(٣) لسان العرب : ج ٢ ، ص : ٥٦٣.

(٤) تاج العروس لمرتضى الزبيدي ، ج ٧ ، ص : ٥٧.

وليس الأمر في تبرئة الرافعي من الخطأ في إصدار الحكم النافي كما بره شاكر ، فشاكر يرى أن الرافعي منع فصل قوس عن قرح في بيتي العقاد على رأي بعض أهل اللغة ، وأنه لم يتلاعب بناء على ذلك بالفاظ اللغة ، والحق أن الرافعي منع فصل قوس عن قرح في كل كلام وعده عيباً لغوياً ، ويبدو جلياً من طريقة نقه وحكمه بالعقد أنه العقاد قد أخطأ في اللغة خطأ فاحشاً لا يغفر له ، والسؤال الذي لابد منه هنا :

هل يجوز لنا أن نحاكم النص الشعري على أساس حكم لغوي اختص به عدد نز من العلماء ؟

إن محاكمة النصوص الشعرية على أساس من ذلك سوف تجعل من النص تابوتاً يتم في داخله وأد جمال اللغة وتوسيعها ، وإن كان ذلك واقع لا محالة فما أجمل أن يقع بعد استقراء للظواهر اللغوية ، وربط دلالات الكلمات ومعانيها بقواعد اللغة العامة وضوابطها الرئيسية ، وما أجمل ذلك الاستقراء النحوي اللغوي الذي استقرأه الأستاذ محمود شاكر رحمه الله في هذه القضية ، حيث منج فيه آراء كبار العلماء بفهمه الخاص ومدلول تركيب (قوس قرح) مستقرئاً في ثانياً ذلك فصيح كلام العرب ، فخرج بناء على ذلك بثلاثة وجوه في حسن عرض وإيجاز ، برأ منها العقاد من الخطأ اللغوي على مضض وباضطرار اضطرر إليه الأمانة العلمية .

بقي أن يضاف إلى ما ذكره الأستاذ في أن الوجه الأول من وجوه معاني قوس قرح أن قرح اسم شيطان أو ملك موكل به ، وأن هذا المعنى مستخلص من الحديث أو الأثر " لا تقولوا قوس قرح " ، وأن بعض أهل اللغة يقولون إن قرح جبل بمزدلفة ، وأن القوس مضاد إلى هذا الجبل يعنيه في قولنا قوس قرح ؛ لأن هذا القوس إنما شاهدته العرب من فوق جبل قرح فأضيف إليه بناء على ذلك ، وفي ذلك يقول صاحب التكملة والذيل على درة الغواص :

"وقيل: قُرْحَ اسْمَ جَبَلٍ بِالْمَزْدَلِفَةِ رُؤُيٌ عَلَيْهِ فَنَسَبَ إِلَيْهِ ، قَالَ "السَّكْرِي": كَانَ يَظْهَرُ مِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ فَيَرِي نَصْفَه كأنه قوس ، فسموه قوس قرح^(١)"

(١) التكملة والذيل على درة الغواص ، لموهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجوالبي ، المحقق: عبد الحفيظ فرغلي ، ط١، عام ١٩٩٦ م ، لدار الجليل بيروت ، ص: ٩٠٥.

المبحث الثاني الاعتراض

لا يخفى على من يطالع نتاج الأستاذ محمود شاكر كثرة الاعتراضات العلمية التي اعتبر بها على عديد من أحكام وآراء العلماء القدامى والمحديثين ، وتشكل هذه الاعتراضات ظاهرة علمية تستحق إفرادها بدراسات خاصة في شتى تخصصات علوم اللغة العربية ؛ لأنها متنوعة ما بين اللغة والأدب والنقد والبلاغة العربية ، والمقصود بالاعتراض هنا عند الأستاذ ذلك النوع من الاستدراكات الذي يرتكز على قضايا عامة أقرب ما تكون إلى الرأي الانطباعي والاستنباط الشخصي والتي لا تعتمد كثيراً على أدلة مادية ، وهذه الاعتراضات مثبتة في كتب محمود شاكر المؤلفة والحقيقة .

وقد يكون من الطبيعي أن تكتنف الكتب المؤلفة لعالم كبير مثل محمود شاكر بنفائس علمية كثيرة ؛ لأن التأليف آنية البوح العلمي والرسائل إلى تفصيل الآراء وإحكام الاستنباط وتنويع الأدلة وتدوين النتائج ، أما تحقيق التراث فقليلة هي الكتب التي قام محققوها بإجهاد حواشيه بتعليقات وآراء وأحكام واعتراضات واستدراكات وزيدات .

ومن هذا القليل تلك الكتب التي قام بتحقيقها محمود شاكر رحمه الله ، مثل : طبقات فحول الشعراء ، وتفسير جامع البيان ، وجمهرة نسب قريش والوحشيات ، فقد تكون الغاية العلمية لطالب العلم حين يريد قراءة هذه الكتب التي حققها شاكر أن تتصل ثقافته بمتون كبار العلماء ، وأن تسلح معرفته بآرائهم وأحكامهم ومناهجهم البحثية وأساليبهم وتصنيفاتهم ، وحتى محاولة الوصول إلى الطريقة التي كان يفكر بها هؤلاء العلماء ، هذه الغايات التي قد ينشدها طالب العلم قبل تناوله واحداً من الكتب التي قام شاكر بتحقيقها ، ولكنه سيفاجأ بتلك التعليقات النفيسة في الحواشي للأستاذ محمود شاكر في هذه الكتب المثال على وجه خاص ، والتي أتت على شكل ملاحظات واعتراضات واستدراكات وزيدات وتصويبات ، والتي هي في حقيقة الأمر نفائس معرفية وعلمية قد تذهب طالب العلم عن المتن الذي هو مبتغاه وغايته ، وقد تجذبه إليها جذباً ينزع الجذب والتأثير الذي يحدثه متن هذه الكتب في ذهن ونفس طالب العلم ؛ لأن جلها في حقيقة الأمر يبلغ من الأهمية مبلغاً جدّ خطير ، كيف لا وبعضها تكسر قوالب وقواعد وتواجه فكر قامات علمية ومعرفية كان لها الفضل بعد الله في إثراء المعرفة العربية ، وجل هذه الاعتراضات تخرج بمدار الدرس الأدبي التقليدي إلى أفق جديد ، لا يعرف إلا مواجهة النص بحسارة ، ولا يحتمكم إلا إلى دلالاته ، ولا يعزله عن سياقه الكلي والتاريخي

ووجهته النفسية ، الأمر الذي يسهل تسرب أثر ما أودعه شاكر في تلك التعليقات على العلم وعلى طلبة العلم ، ولابد من التأكيد هنا على أن المتأمل في تلك الاعتراضات وطريقته في معالجتها ، يصل إلى أن الشك المنهجي هو الذي أثر عليه كثيراً في قراءته وتعليقه على كتب تحقيق التراث بشكل خاص .

فليس من الهين أن يُسلِّم الأستاذ شاكر عقله وذهنه لكل ما يقوله مؤلفو تلك الكتب ولا حتى فيما نسبوه ورووه ، وحين يجد ما يصطدم مع أفقه الثقافي والعرفي يعارض ويحاج ، ويسوق الأدلة بأسلوب علمي وبأدلة تذوقية ذات نمط فريد .

وعند إنعام النظر في تلك الاعتراضات التي تضمنتها كتب تحقيق التراث هذه فإنه لا يتورم بأن الأستاذ حاج وعارض من أجل الاعتراض وخالف من أجل أن يعرف ، بل حاج وحاور تمكناً ودراءة وخدمة للعلم ، ومن أجل أن يكون الصواب والفهم وترقي الناقد مع إحساس الشاعر هي كلمة الفصل العليا ، التي يحتمل إليها أرباب الأدب وطالبي البغية الشعرية والمقصدية النصية .

ومن الأحكام الأدبية التي عارض فيها الأستاذ محمود شاكر ابن سلام الجمحى تعليقه على حكم أطلقه ابن سلام على سبب تقدمة امرئ القيس على غيره من شعراء عصره ، حيث قال ابن سلام :

" فاحتَجَ لامرئ القيس من يقدمه قال : ما قال مالم يقولوا ، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب ، واتَّبعَتْهُ فيها الشعرا : استيقاف صحبه ، والتباكي في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبَيْض ، وشبه الخيل بالعَقَبَان والعصبي ، وقيد الأوَابِد ، وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى..."^(١)

واعتراض عليه الأستاذ شاكر بقوله :

" يريد ما يتميز به شعر الملك الضليل من إخلاصه القول في النسيب ، لا يخلطه بصفة ناقته أو فرسه أو صيده أو مآثره ، فإذا فرغ من النسيب الحالص أخذ في أي معنى من هذه المعاني ، وهذا بين جدا في شعره ، هذا على أي أرى أكثر هذه الفضائل ، وإن كانت بينة في شعر امرئ القيس ، لا ينفع إثبات سبقه إليها ، لما ضاع من قديم شعر العرب ، ولأنها ليست من الخفاء بالموضع الذي يدل عليه هذا الوصف المفرط بابتدعاه لها ، واتباع الشعرا له فيها ، ولشعر الملك الضليل براعة أخرى هي أحق بأن تكون النسيب في تفضيله ، وتقديمه على كثير

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ج ١ ص ٥٥ .

من شعراء الناس لا العرب وحدهم "(١)".

إذن فحكم ابن سلام هذا وإن كان قد أورده على لسان غيره ، فإنه ينص على أن الفضل في تقدمة امرئ القيس ليس لأنّه قال مالم يقله الشعراء ، بل لأنّه سبق شعراء العرب قاطبة على سنن ابتداعها في الشعر واتبعها من بعده ، وذكر منها استيقاف الصحب واختتمها بالفصل بين النسيب وبين الأغراض الأخرى ، أو الغرض الذي جاءت من أجله القصيدة.

وبينجي قبل تناول كلام الأستاذ شاكر هذا بيان أن اعتراضه ليس على تقدمة امرئ القيس على غيره من الشعراء ، فإنّ ابن سلام وإن تعصب لامرئ القيس وقال بتقدمة امرئ القيس على شعراء العربية في عصره ، فإنّ شاكراً يرى أن امرئ القيس ولبراعة أخرى لم يذكرها ابن سلام يستحق أن يكون مقدماً على شعراء الناس كلهم العربي وغير العربي ، وهذا من صريح كلامه في اعتراضه السابق حيث قال : " ولشعر الملك الضليل براءة أخرى هي أحق بأن تكون السبب في تفضيله ، وتقدمه على كثير من شعراء الناس لا العرب وحدهم " ، ووجه اعتراض الأستاذ محمود شاكر على ابن سلام في هذا ، فقد يلاحظ أن الاعتراض يرتكز على ضرورة الاستدلال للاستنباط ، فلكي يستطيع ابن سلام وغيره إقناعنا فلا بد من إيراد أدلة تدمج القول في أن هذه الأمور مجتمعة كانت السبب في تقدمة امرئ القيس عن غيره من الشعراء ، ولكن ذلك متعدّر على كل من يريد إثباته ، وذلك لارتباطه بقضية قدم وحداثة الشعر المتعلقة بما ضاع من شعر العرب وما بقي منه ، فلا يعلم بناء على ذلك هل امرئ القيس سابق أم مسبوق ؟ ولا يعلم هل هو متبع أو مبتدع ؟ ولا سبيل لتحديد ذلك إلا بالقبض على جميع موروث الشعر العربي منذ تكوينه الأول ، وقد صدق الأستاذ رحمة الله ، فتحديد السابقين على امرئ القيس من الشعراء وجمع نتاجهم أمر متعدّر لا يمكن أن يثبت مع تعذر سبق امرئ القيس وغيره على فن من الفنون وغرض من الأغراض أو حتى سمة فنية من السمات الفنية في الشعر ، وقد يكون من الصواب الإيمان بما قاله النقاد ويقولونه حتى اليوم في أن نمط القصيدة الجاهلية لا يمكن أن يكون ولد دفعة واحدة من لسان شاعر واحد ، فلا بد له من مراحل سابقة لم تصل إليها تدرج فيها الشعر حتى وصل إلى ما وصل إليه عند امرئ القيس وغيره من شعراء الجاهلية .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي حاشية رقم (٥) ، ج ١ ص ٥٥

ولابد من الإشارة هنا إلى تسرب أثر حكم ابن سلام هذا على النقاد من بعده ، وهذا التسرب لا يعني أنه حكم صحيح يقوم على أدلة مقنعة ، ومن هؤلاء العلماء أبو بكر الباقياني الذي قال :

" وأنت لا تشک في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ، ولا تتوقف في فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أموراً أتبع فيها ، من ذكر الديار والوقوف عليها ، إلى ما يصل بذلك من البديع الذي أبدعه ، والتشبيه الذي أحدثه ، والمليح الذي تجد في شعره ، والتصرف الكبير الذي تصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه ؛ من صناعة ، وطبع ، وسلامة ، وغفو ، ومتانة ، ورقة ، وأسباب حمد ، وأمور تؤثر وعُذْح... " ^(١)

وكرر ابن قتيبة قول ابن سلام هذا وذكره بنصه في قوله :
" وقد سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها، واستحسنها العرب، واتبعته عليها الشعراء، من استيقافه صحبه في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ." ^(٢) .

ومن هذا الأثر ما قاله قدامة بن جعفر في نقد الشعر في تعليق له على بيت لامرئ القيس :
إِنْجَرِدَ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكِلٌ **وَقَدْ أَعْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكْنَاتِهَا**
قال قدامة :

" فإنما أراد أن يصف هذا الفرس بالسرعة وأنه جواد، فلم يتكلم باللفظ بعينه، ولكن بأدفه ولواحقه التابعة له، وذلك أن سرعة إحضار الفرس يتبعها أن تكون الأوابد - وهي الوحوش - كالمقيدة له إذا نحا في طلبها ، والناس يستجيدون لامرئ القيس هذه اللفظة، فيقولون: هو أول من قيد الأوابد، وإنما غزا بها الدلاله على جودة الفرس وسرعة حضره، فلو قال ذلك بلفظه لم يكن الناس من الاستجادة لقوله مثلهم عند إتيانه بالردد له "^(٤) وغيرها هؤلاء العلماء كثير ، ولكنه حكم انطباعي لا يعتمد على دليل ولا يقوى جانبه مادة شعرية سابقة .

(١) إعجاز القرآن للباقياني ، ص : ١٥٨ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص : ١١٠ .

(٣) ديوان امرئ القيس ، ص :: ١١٨ .

(٤) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، ط : بدون ، عام بدون لدار الكتب العلمية بيروت ، ص : ١٥٨ .

ومن الاعتراضات التي يكثر ورودها عند الأستاذ محمود شاكر رحمة الله اعتراضاته على نسبة الأبيات الشعرية إلى غير من نسبت إليه ، ويكثر ورود هذه الاعتراضات في كتب التراث التي قام بتحقيقها ولا سيما طبقات فحول الشعراء وجمهرة نسب قريش وجامع البيان ، وقد يكتفي محمود شاكر عند قيامه بتصويب هذه النسبة دون تعليقات أخرى غير ثبت المراجع وتوجيهه رأيه ، أما إذ تعلق الأمر بصنع الشعر الجاهلي ونخله ووضعه فإنه لا يكتفي بتصويب هذه النسبة بل تجده يستطرد لشخصية العالم الذي تجرا على القول بوضع الشعر الجاهلي وصنعه ونخله ، على أن محمود شاكر لا ينكر أن من الشعر الجاهلي ما هو مصنوع ومنحول ، ولكنه لا يصل عنده إلى حد الكثرة التي يفسد بها الشعر الجاهلي ، ولحساسيته هذا الأمر عنده قد تجده حتى مع إقراره بوضع الشاعر الجاهلي ونخله وصنعه بعضه لا يصف من قام بذلك بما يتلاءم مع أوصافهم اللغوية من النحل والصنعة والوضع ، فلا يسميهم مثلاً بالوضاعين نسبة إلى الوضع الذي تعارف عليه علماء العربية ، بل يرميهم بالكذب ويسميهم بالكاذبين^(١) ؛ ولذلك تكون ألفاظه النقدية جافة وكأقسى ما يكون حين يتعلق الأمر بصنعه الشعر الجاهلي ووضعه ، جفاء قد يصل به ليطال شخصية من قال بذلك الوضع ، ومن بين أولئك العلماء محمد ابن محمود الشنقيطي^(٢) رحمة الله جميماً ، فقد علق الشنقيطي على بيت شعري استشهد به ابن سيده ولم ينسبه

(١) ينظر للحاشية رقم (١) من طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص : ٤ .

(٢) " محمد محمود بن أحمد بن محمد التركى الشنقيطي : عالمة عصره في اللغة والأدب ، شاعر ، أموى النسب اشتهر والده بالتلاميد (تصحيف التلاميد) فعرف بابن التلاميد ، ولد في شنقيط (موريطانية) وانتقل إلى المشرق ، فأقام بمصر ، ورحل إلى مكة فاتصل بأميرها الشريف عبد الله فأكرمه وأحبه لعلمه ، قال صاحب الوسيط : وانتدبه حكومة الأستانة (أيام السلطان عبد الحميد الثاني) للسفر إلى إسبانيا والاطلاع على ما فيها من المخطوطات العربية ، وإعلامها بما ليس منه في مكتباتها بالاستانة ، فقام بذلك ، ويقال : إنه بعد عودته طلب المكافأة على عمله ، قبل تقديم الأوراق ، فأهل أمره ، وبقيت مذكراته عنده ، وسافر إلى المدينة ، فلم يكن على وفاق مع علمائها ، فطلبوا إخراجه ، فرحل إلى مصر ، ونزل عند نقيب أشرافها (محمد توفيق البكري) فبلغ في إكرامه ، واستعان به على تأليف كتابه (أراجيز العرب) ثم طبع الكتاب منسوباً إلى البكري وحده ، فغضض الشنقيطي ، وفارقته ، ووصل الخلاف إلى القضاء ، واتصل بالشيخ محمد عبده فسعى له بمرتب من الأوقاف ، فاستقر بالقاهرة إلى أن توفي ، من كتبه (الحماسة السننية في الرحلة العلمية) ضمنها شيئاً من أخباره وقصائده ، و(عدب المنهل - خ) أرجوزة ، و(إحقاق الحق) حاشية على شرح لامية العرب لعاكس اليمني ، بين فيها أغلاطه ، وصحح بعض الأوهام الواقعة في الطبعة البولاقية من الأغاني ، توفي بالقاهرة عام : ١٣٢٢ هـ " ، ينظر لترجمته في الأعلام للزركلي : ج ٧ ، ص ٨٩ .

لأحد في كتابه المخصص على أنه مصنوع ، قام بصنعه من يرغب في إيجاد دليل على دعوه المجردة ، وهذا البيت هو قول الشاعر :

أَلَا قَضَبَ الرَّحْمُنُ رَبِّيْ يَمِينَهَا

أَلَا ضَرَبَتْ تِلْكَ الْفَتَّاةُ هَجِينَهَا

يقول الشنقيطي ولا بد من نقل كلامه على طوله حتى يعلم الأمر :

"قلت قول علي بن سиде ، وأنشدوا لبعض شعراء الجاهلية : ألا ضربت قول من لم يعرف حقيقة بيته المستشهد به ، وحقيقة أنه صنعه بعض الرجال الذين يحبون إيجاد الشواهد المعدومة لدعويهم المجردة فلفقه من بيت الشنفرى المشهور^(١) ، والوضع والصنعة ظاهران فيه كظهور شمس الضحى ، وركاكته تنادي جهاراً بصحة وضعه وصنته ، والصواب وهو الحق المجمع عليه أن الشاعر الجاهلي المشار إليه بالبعض هو الشنفرى ... وهذا البيت ليس في شعره المروي عنه الملقق منه هذا البيت المصنوع ، وقصته مع الجارية السلامية عند أهل العلم وشعره مروي بروايتين فاصفح لهما تعلم الحق :

إِمَّا ضَرَبَتْ كَفُّ الْفَتَّاةُ هَجِينَهَا^(٢)

أَلَا لَيَتْ شِعْرِيْ، وَالْتَّلَهُفُ ضَلَّةُ

.....

.....

وثانية الروايتين قوله :

إِمَّا لَطَمَتْ كَفُّ الْفَتَّاةُ هَجِينَهَا^(٣)

أَلَا هَلَّ أَتَى فِتْيَانَ قَوْمِيْ جَمَائِةً

.....^(٤)

.....

وقد استشهد بهذا البيت ابن جرير الطبرى في جامع البيان ، وحين علق عليه محمود شاكر استدعاى تعليق الشنقيطي الذى لم يرق له مطلقاً ، فقال :

" لم أجده قائل البيت ، واستشهد به ابن سиде فى المخصص وعلق على البيت محمد الشنقيطي ،

(١) سيأتي في كلام الشنقيطي بيت الشنفرى المشهور هذا .

(٢) هذه رواية أبي الفرج الأصفهانى في كتابه الأغانى ، ط١ ، عام ١٤١٥ هـ ، لدار إحياء التراث العربي بيروت ، ج: ٢١ ، ص: ٨٨ ، ٨٧ .

(٣) هذه رواية ديوان الشنفرى : ص ٧٧ .

(٤) هنا نهاية تعليق الشنقيطي ونقله ، ينظر إلى : المخصص لابن سиде ، تحقيق وتعليق : محمد محمود الشنقيطي ، ط : بدون ، عام بدون ، لدار الطباعة الأميرية ، ج: ١٧ ، ص: ١٥٢_١٥٣ .

وادعى أن البيت مصنوع ، والشنقيطي رحمه الله كان كثير الاستطالة ، سريعاً إلى المباهاة بعلمه وروايته ، والذي قاله من ادعاء الصنعة لا يقوم ، وكفى بالبيت الذي يليه دليلاً على فساد زعمه أن الدافع

لصنعته: إيجاد الشواهد المعدومة، لدعاؤى مجرد ، وليس في البيت ركاكة ولا صنعة^(١)

هذا اعتراض شاكر على الشنقيطي في هذا البيت ، ومن تمام بيان الأمر أن تتم الإبانة عن وجه استشهاد الطبرى وابن سيده بهذا البيت ، حيث تلتف المفسرون بعد ابن جرير هذا البيت للاستدلال به على أن العرب كانت تعرف (الرحمن) ، وقد تهجم ابن جرير على من وصفهم بالأغبياء الذين ينكرون معرفة العرب بالرحمن ، وأن هذه اللفظة لم تكن ضمن مفرداتهم اللغوية التي جاءت عليها لغتهم الفصيحة ؛ ومن أجل ذلك عند هؤلاء الأغبياء جاء قوله تعالى :

﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجَدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾^(٢)

"إنكاراً منهم لهذا الاسم ، كأنه كان محلاً عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته"^(٣) ، ومن هنا استشهد ابن جرير بهذا البيت على ورود الرحمن في شعر العرب الفصيح الذي يثبت استخدامهم لكلمة الرحمن ، ثم تواردت بعض كتب المفسرين على هذا البيت بعد ابن جرير تستدل به على ذلك ، ولا تنسب فيه إلا لجهول ، ولا تشفعه بيته بعده آخر ، ومن هذه التفاسير : (التفسير البسيط)^(٤) ، و (تفسير القرآن العظيم)^(٥) . أما ابن سيده فقد جاء البيت عنده في معرض نقله تساؤل البعض عن سبب تقدمة الرحمن على الرحيم مع أن الرحمن أبلغ ، " وإنما يبدأ في نحو هذا بالأقل ثم يتبع الأكثر ، كقولهم : (فلان جواد يعطي العشرات والمئين

(١) جامع البيان لابن جرير الطبرى ، الحاشية رقم (٢) ، ج ١ ، ص : ١٣١ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية الكريمة رقم : ٦٠ .

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبرى ، ج ١ ، ص : ١٣١ .

(٤) لعلي بن أحمد بن محمد بن علي الوحدى ، أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود ، ثم قامت لجنة علمية من عمادة البحث العلمي بتنسيقها ، ط ١ ، عام : ١٤٣٠ هـ ، مطباع الجامعة ، ج ١ ، ص :

. ٤٥٦

(٥) لإسماعيل بن كثير الدمشقى ، تقديم : يوسف المرعشلى ، ط ٦ ، عام ١٩٩٣ م ، دار المعرفة بيروت ، ج ١ ، ص : ٢٣ .

والآلوف " ^(١) ، وقد استدل بالبيت على أن الرحمن صفة لله كانت العرب تعرفها في لغتهم قبل مجيء الإسلام، وقد ناقش العلماء قبل ابن سيده هذه القضية من وجهة نظر نحوية لغوية ، مثل الزجاجي الذي قال : " وكان بعض النحويين يذهب إلى أن الرحمن معرب وليس بعربي محض، وذكر أبو بكر بن الأنباري أن أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلباً كان يذهب إلى ذلك، ولم ينعته بهذا المذهب الناظر ، لأن الرحمن معروف الاستنقاق والتصريف في كلام العرب ، والأعمامي لا معنى له في كلام العرب ولا تصريف ، وأنشد أهل اللغة هذا البيت وزعموا أنه جاهلي : أَلَا ضَرَبْتُ تِلْكَ الْفَتَّاهُ هَجِينَهَا " ^(٢) .

إذن فرأي الشنقيطي ينص على أن البيت مصنوع من الذين يحبون إيجاد الشواهد المعدومة لدعائهم المجردة فلفقوه من بيت الشنفري الذي ذكره برواياته ، وأن الصنعة فيه ظاهرة ظهور الشمس في الضحى ، أما شاكر فلا يرى في هذا البيت صنعة وقدم له دليلاً بالبيت الذي يليه ، وقد أعياني البحث في حدود ما بين يدي من المراجع العلمية لإيجاد بيت يلي هذا البيت ، فلم أجده من ذكره إلا وترألا شافع له ، ثم وقعت على إيضاح من محمود عبد الرحمن الرضواني ^(٣) ملخصه أن الأستاذ قصد البيت التالي لهذا البيت من الآيات التي استدل بها ابن جرير الطبرى على أن الرحمن كان في كلام العرب ولغتهم، وهو قول الشاعر :

عَجِلْتُمْ عَيْنَاهُ عَجَلْتَنَا عَيْنَكُمْ
وَمَا يَشَاءُ الرَّحْمَنُ يَعْقِدُ وَيُطْلِقُ ^(٤)

وهو إيضاح أقرب ما يكون للصواب ، حيث إنه الدليل الأول لمحود شاكر على أن الرحمن جاءت في لغة

(١) المخصص لابن سيده ، ج : ١٧ ، ص : ١٥٢ .

(٢) اشتنقاق أسماء الله ، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي ، تحقيق : عبد الحسن المبارك ، ط ٢ ، عام ١٩٨٦ م ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ص : ٤٢ .

(٣) ينظر لشيخ العربية وحامل لواءها أبو فهر محمود محمد شاكر ، لمحود الرضواني ، ص : ٤٢٧ .

(٤) نسب ابن جرير هذا البيت لسلامة بن جندل السعدي ، وهو في ديوانه ، صنعة : محمد الأحوال ، تحقيق فخرالدين قباوة ، ص ١٨٢ ، ط ٢٥ ، ١٩٨٧ م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، وسلامة شاعر جاهلي اسمه : سلامة بن جندل بن عبد الرحمن بن عبد عمرو بن الحارث ، أبو مالك ، من أشهر فرسان العرب ، وأحد وصف الخيل المشهورين ، وأخوه أحمد شاعر فارس مشهور ، وقد عد ابن سلام الجمحي سلامة من شعراء الطبقة السابعة ، كان يخشى الهرم ، وينعي الشباب ويرثيه ، وهو يشعر بدبيب الموت لكنه كان يسلى نفسه بالغزو ومصاحبة السلاح ... " ينظر لترجمته في موسوعة شعراء العصر الجاهلي ، عبد عون الروضان ، ص : ١٤٧ .

العرب وأن فصيح العربية قد اشتمل عليها ، وعليه فإن (الرحمن) وإن كانت لفظة إسلامية فإنها واردة في شعر العرب وورودها بنفس دلالتها الإسلامية يبطل ادعاء الشنقيطي بأن البيت مصنوع لاشتمالها عليه . وبالإضافة إلى حساسية صنعة ونخل وضع الشعر الجاهلي عند محمود شاكر ، فيبدو أن ما أثاره على الشنقيطي ودفع به إلى الاعتراض أن القول بصنعة هذا البيت ووضعه ؛ أنه يسقط وجه استدلال ابن جرير الطبرى به على أن العرب كانت تعرف الرحمن وكان في لغتهم ، محمود مت指控 جداً لرأي الإمام الطبرى في ذلك ، بل واعتبره ردًا مفحماً على من يقول بذلك من كتاب عصره ومن يسوق له في المحاضرات والمؤلفات ، يقول شاكر بعد أن قال ابن جرير بباء من ينكر معرفة العرب للرحمن ويحتج وروده في لغتهم :

"لا يزال أهل الغباء في عصرنا يكتبونه ، ويتبحرون بذكره في محاضراتهم وكتبهم، نقلًا عن الذين يتبعون ما سقط من الأقوال، وهم الأعاجم الذين يؤلفون فيما لا يحسنون باسم الاستشراق ، ورد الطبرى مفحى من كان له عن الجهل والخطأ رده تنهى عن المكابرة"^(١).

أما الدليل الثاني لمحمد شاكر على أن الرحمن كانت مما يستخدمه العرب في لغتهم ؛ فقد تفرد به مستندًا على رواية لابن سلام الجمحى في كتابه الطبقات ، والعجيب أن هذه الرواية لا تنطق بأى شيء يخص هذه المسألة بعينها لا من قريب ولا من بعيد ، ومضمونها أن ابن سلام الجمحى في طبقاته حين ترجم لسلامة بن جندل قائل البيت موطن الاعتراض قال في نسبه : (سلامة بن جندل بن عبد الرحمن)^(٢)

ثم قال الأستاذ محمد شاكر رحمه الله:

"..... فإن صحت رواية ابن سلام ، فهي دليل آخر قوي على فساد دعوى الشنقيطي " .^(٣)

ووجه استشهاد شاكر ورود الرحمن في تسمية جد سلامة بن جندل ، وعلى هذا فإن صحت رواية ابن سلام في نسب سلامة هذا فإن الرحمن ليست فقط مستخدمة في كلام العرب ، بل وكانت مما يسمى به الأعلام والأشخاص ، وهذا مما يقوى القول بأن الرحمن دارجة في لغة العرب ومعروفة لديها ، على أن شاكر احتاط في استدلاله هذا لنفسه وربط صحة استدلاله بصحة رواية ابن سلام ، واعترف بأن غير ابن سلام الجمحى ينسبه

(١) جامع البيان لابن جرير الطبرى ، ج : ١ ، ص : ١٣١ ، الحاشية رقم (١) .

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، ج : ١ ، ص : ١٥٥ .

(٣) السابق ، نفس الجزء والصفحة الحاشية رقم (٤) .

إلى ابن عبد بدون إضافة الرحمن إليها ، ولعله كان يقصد في ذلك بعضاً من المراجع التي جاء فيها نسب الشاعر على أنه (سلامة بن جندل بن عبد عمرو) ومنها :

- جُمل من أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَادِي .^(١)
- المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم ، للحسن بن بشر الآمدي.^(٢)
- جمهرة أنساب العرب ، لعلي بن أحمد بن سعيد بن الظاهري .^(٣)
- منتهي الطلب في أشعار العرب ، لمحمد بن المبارك بن محمد بن ميمون البغدادي .^(٤)
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر بن عمر البغدادي .^(٥)

وعليه فإن الاستدلال برواية ابن سلام الجمحى وحدها بورود عبد الرحمن في نسب الشاعر قد لا يكون قوياً كقوة الاستدلال بورود الرحمن في فصيح الكلام ؛ لأنه معلق من شاكر نفسه بصححة رواية ابن سلام الجمحى . وقد يكون من الجيد في هذه المسألة استدعاء القصة المشهورة في صلح الحديبية ، حينما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عليهم السلام بكتابة شروط الصلح بين المسلمين والشراكين ، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قد استبشر خيراً بجيء سهيل بن عمرو^(٦) ، فقال النبي ﷺ :

"لَقَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ" ... فجاء سهيل بن عمرو فقال : هاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا ، فدعا النبي ﷺ

(١) تحقيق ، سهيل زكار ، رياض الزركلي ، ط١ ، عام ١٩٩٦ م ، لدار الفكر بيروت ، ج ١٢ ، ص ٣٤٨ .

(٢) ص ٤٣ .

(٣) تحقيق عبد السلام هارون ، ج ١ ، ص ٢١٧ ، ط ٥ ، عام بدون ، لدار المعارف بالقاهرة .

(٤) ج ١ ، ص ١٤٢ .

(٥) ج ٤ ، ص ٢٧ .

(٦) " سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود ... ، وأمه حبي بنت قيس بن ضبيس من خزاعة وخرج سهيل ابن عمرو من مكة إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه فأسلم بالجعرانة وأعطاه رسول الله ﷺ يومئذ من غنائم حنين مائة من الإبل وقد روى سهيل عن النبي ﷺ أحاديث ، قال أبو سعد بن أبي فضالة الأنباري ، اصطحبت أنا وسهيل بن عمرو إلى الشام ليالي أغزانا أبو بكر الصديق فسمعت سهيلا يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مقام أحدكم في سبيل الله ساعة خير من عمله عمره في أهلة» قال سهيل : فأنا أرابط حتى أموت ولا أرجع إلى مكة أبدا فمات في طاعون عمواس بالشام سنة ثمانين عشرة ويكتفى سهيل أبا يزيد " ، ينظر للطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٥ ، ص ٤٥٣ وما بعدها .

الكاتب ، فقال النبي ﷺ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، قال سهيل: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ ، فقال المسلمون: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فقال النبي ﷺ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، ثم قال: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، فقال سهيل: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدً بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، فقال النبي ﷺ: وَاللَّهِ إِلَيْيَ رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ كَذَّبُوكُمْ بِي، اكْتُبْ مُحَمَّدً بْنَ عَبْدِ اللَّهِ " (١) .

وغاية الأمر أن البيت الذي استدل به ابن جرير ونسبة لمجهول (موطن اعتراض شاكر) وبيت سلامة ابن جندل، هما في حقيقة الأمر دليلان ينهضان برأي ابن جرير وإقرار محمود شاكر رحمهم الله جميعاً ، ولو لم يكن بين يدينا إلا هذا الحديث لكان كافياً في الاستدلال على عدم معرفة العرب بالرحمن وعدم استخدامهم له في لغتهم في حال تم التغاضي عن بعض ما فيه من الإشارات والإيحاءات ، وبيان ذلك أن سهيل بن عمرو جحد أن يكون له معرفة بالرحمن ، وظاهر الأمر أن سهيل بن عمرو يخصل لفظة الرحمن فقط ، إذ لو لم يقتض ظاهر الأمر ذلك لقال : أَمَّا الرَّحْمَنُ وَالرَّحِيمُ ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُمَا ، ولكنه حين طلب استبدال بسمة الرسول ﷺ استبدلها بقوله : بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، فلو كان الأمر مختصاً بالرحمن دون غيرها لقال : بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ الرحمن بمحذف لفظة الرحمن فقط لو كانت وحدها موضع جهله وإنكاره ؛ وعليه فإن استبداله للبسملة بسمك اللهم ليس مأمه لفظة الرحمن ، وليس سببه عدم استخدام العرب لها في كلامهم ، بل هو محمول على ماعرف به المشركون من إنكارهم وعدم رغبتهم في الاعتراف والإقرار بما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ حتى ولو كان الأمر متعلقاً بصياغة كتاب للصلح ، فلم يكن من سهيل بن عمرو إلا مراعاة أدق ما يمكن مراعاته لإبرام بنود الصلح بين قريش وبين رسول الله ﷺ ، ورفضه لأن يكتب (مُحَمَّدٌ رسول الله) دليلاً على تلك الأهمية التي كان سهيل يوليه اللغة بنود الصلح ومراعاته لأدق تفاصيلها ، فقبول سهيل بكتابه باسم الله الرحمن والرحيم وكتابه مُحَمَّدٌ رسول الله ﷺ في رقاع الصلح يجسم أمر إقرارهم بما بعث به النبي ﷺ ، ولو كان من قريش إقرار بذلك لما عقد صلح الحديبية من أصله ، وبهذا يكون حكم ابن جرير وإقرار شاكر غير مدفوعين بنص هذا الحديث .

أما ادعاء الشنقيطي الصنعة في البيت فإن إدعاء تلفيقه من بيته الشنفري لورود كلمة الرحمن فيه إدعاء لا يقوم عليه دليل ، ولو كان الأمر كذلك لوجب التسليم لادعاءات مرجليوث وبعده طه حسين ومشاركتهم الشك

(١) صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص : ٩٧٤ .

في الشعر الجاهلي ، كونه جاهلي الاسم اسلامي الألفاظ ، ودفع هذا الأمر وبيانه قد أسهب فيه العلماء وشغل فيه الأساتذة ، ولا سيما الأستاذ محمود شاكر رحمة الله ، وهذا الأمر تحديداً هو مما أثار محمود شاكر على الشنقيطي ، وما دفعه للتهجم عليه .

ومن النماذج التي كثرت فيها اعترافات محمود شاكر الأدبية اعترافاته على نسبة بيت لقائل معين ، وقد كان أغلب ورود هذا النوع من الاعتراض عنده في كتبه التي قام بتحقيقها ، فقد اعتبر الأستاذ على ابن سلام الجمحي في نسبته لعدد من الأبيات في طبقات فحول الشعراء ، ومنها هذا البيت :

أَكْثَرُ أَهْلِي مِنْ عِيَالٍ سِواهُمْ
وَأَطْوِي عَلَى الْمَاءِ الْفَرَاجِ الْمُبَرَّدِ

فقد نسبه ابن سلام الجمحي ^(١) إلى قيس بن الخطيم ^(٢) ، وهذه النسبة لم يرضها محمود شاكر فاعتراض عليها بقوله :

"هذا البيت لم يرو في ديوانه ، وهو ثابت في شعر حسان ... يتمدح ببره بالفقر والجار في زمن الجدب والشتاء فهو يشتركهم مع عياله في زادهم ويجوع هو ، فلا يطوي بطنه إلا على الماء الخالص مع شدة برده زمن الشتاء" ^(٣).

وعليه فإن الذي دفع شاكراً للاعتراض على نسبة هذا البيت لقيس بن الخطيم عدم وروده في ديوانه من ناحية ،

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) قيس بن الخطيم واسمه ثابت بن عيدي بن عمرو بن سواد بن ظفر وهو كعب بن الخزرج بن عمرو ... وقيس يكنى أبا يزيد ، والخطيم فيما ذكر ابن الكلبي في الألقاب قال: إِنَّا سُنَّيْ عَبَادَ بن عبد العزيز بن محسن بن عقيدة بن وهب بن الحارث بن جشم بن لؤي بن غالب الخطيم: لأنَّه ضرب على أنفه يوم الجمل ، وكان مقرون الحاجبين ، أدعج العينين ، أحمر الشفتين ، براق الثناء ، حسن الصورة، شاعر مجيد فحل ومن الناس من يفضله على حسان شرعاً وقال حسان: إننا إذا نافرتنا العرب فأردنا أن نخرج الحجرات من شعرنا أتينا بشعر قيس بن الخطيم، وقدم قيس على النبي ﷺ بمكة فعرض عليه الإسلام فقال: إني لأعدم أن الذي تأمرني به خير مما تأمرني به نفسي وفيها بقية من ذاك فأذهب فأستمتع من النساء والخمر وتقدم بلدنا فأتبعك ، فقتل قبل أن يتبعه ﷺ ، ينظر لترجمته في معجم الشعراء للمرزباني ، ص : ٣٢١ ، وينظر للمبهج في تفسير أسماء شعاء ديوان الحماسة ، لعثمان بن جني الموصلي ، قراءة وتعليق : مروان العطية ، شيخ الزايد ، ط ١ ، عام ١٩٨٨ م ،

لدار الهجرة للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق ، ص : ٩٣ .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ، ج ١ ، ص : ٢٣٠ ، الحاشية رقم : ٢ .

وتبثه في ديوان حسان بن ثابت رض ، والحق أن بعضًا من كتب التراث قد تواترت على نسبة البيت لحسان بن ثابت رض ، ومن بين هذه الكتب :

- جمارة أشعار العرب ، محمد بن أبي الخطاب القرشي .^(١)
- الأنساب ، لسلامة بن مسلم العوتبي الصحاري .^(٢)
- الكامل في التاريخ ، لعز الدين بن الأثير .^(٣)

ولم أجد غير ابن سلام الجمحى نسبة لقيس بن الخطيم في حدود بحثي واطلاعى وفيما وقع بين يدي من مراجع .

أما على مستوى الدواوين الشعرية فالبيت مثبت في ديوان كل من الشاعرين ، فديوان قيس بن الخطيم ورد فيه هذا البيت من قصيدة مطلعها :

تَرَوْحٌ مِنَ الْحُسْنَاءِ أَمْ أَنْتَ مُعْنَدِي
وَكَيْفَ انْطَلَاقُ عَاشِقٍ لَمْ يُرَوَّدُ^(٤)

أما ديوان حسان بن ثابت رض فقد ورد فيه البيت في ثنايا خبر يزيد من حظوظ نسبة البيت لحسان بن ثابت رض ، وملخص الخبر أن رجلاً من بني الحرت بن الخزرج لقي رجلاً من الأوس خارجاً من عند ظهر له ، وكان مع الخزرجي قوس رمى به الأوسى فقتله .

فلما بلغ قوم الأوسى نبأ مقتل صاحبهم ييتوا من قتل صاحبهم فقتلوه بداره ، وكان من عادة العرب ألا يقتل الرجل في داره ، فلما علمت الخزرج مقتل صاحبهم في داره اتهموا الأوس بقتله فهباوا إليهم ، فالتقى الفريقان فدارت بينهم معركة استمرت أربعة أيام ، حتى نالت كل قبيلة من أختها ، فقال قيس بن الخطيم هذه القصيدة التي أولاها :

تَرَوْحٌ مِنَ الْحُسْنَاءِ أَمْ أَنْتَ مُعْنَدِي
وَكَيْفَ انْطَلَاقُ عَاشِقٍ لَمْ يُرَوَّدُ

ولم يرد البيت في هذه القصيدة ، فرد عليه حسان بن ثابت رض بقصيدة منها هذا البيت وهي قوله :

(١) تحقيق : علي محمد البجاوي ، ط بدون ، عام بدون ، لدار خضرة مصر للطباعة والنشر ، ص : ٤٩٣ .

(٢) تحقيق ، إحسان النص ، ط ٤ ، عام : ٢٠٠٦ م ، لدار عُمان للطباعة والنشر ، ج ٢ ، ص : ٥٦٦ .

(٣) ج ١ ، ص : ٥٨٩ .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق : إبراهيم السامرائي ، أحمد مطلوب ، ط ١ ، عام : ١٩٦٢ م ، مطبعة العاني ببغداد ، ص : ٤٦ .

لَعْمُرٌ أَبِيكَ الْخَيْرٌ يَا شَعْثُ مَا نَبَأْ
 لِسَانِي وَسَيْفِي صَارِمَانِ كَلَاهُما
 وَإِنْ أَكَّ ذَا مَالٍ قَلْيلٍ أَجْدُ بِهِ
 فَلَا الْمَالُ يُنْسِينِي حَيَائِي وَلَا
 أَكْثَرُ أَهْلِي مِنْ عِيَالٍ سِوَاهُمْ
 عَلَيَّ لِسَانٍ في الْحُطُوبِ وَلَا يَدِي
 وَيَبْلُغُ، مَا لَا يَبْلُغُ السَّيْفُ، مِذْوَدِي
 وَإِنْ يُهْتَصِرْ عُودِي عَلَى الْبُهْمِدِ يُحَمَّدِ
 وَاقْعَاثُ الدَّهْرِ يَقْلُلُنَّ مِبْرَدِي
 وَأَطْوِي عَلَى الْمَاءِ الْقَرَاحِ الْمُبَرَّدِ^(١)

فالبيت هنا واقع بعد إخوانه وفي موضعه الذي يزيد من الإيمان برأي شاكر وقبله علماء التراث في نسبته لحسان بن ثابت رضي الله عنه ، ويضاف تناصقه إلى نسبة أهل العلم البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه ، أما موضع البيت في قصيدة قيس ابن الخطيم ، فهو مسبوق بقوله :

تَحْمَلْتُ مَا كَانَتْ مُرْبِنَةً تَشْتَكِي
 أَرَى كَثْرَةَ الْمَعْرُوفِ يُورِثُ أَهْلَهُ
 مِنَ الظُّلْمِ فِي الْأَخْلَافِ حِمْلَ التَّعْمُدِ
 إِذَا الْمُرْءُ مُمْيَضٌ وَمَمْيَضٌ نَجَدَهُ
 وَسُوَادَ عَصْرُ السُّوءِ عَيْرَ الْمُسَوَّدِ
 وَإِلَيْهِ لَأَغْنَى النَّاسَ عَنْ مُتَكَلِّفِ
 مَعَ الْقَوْمِ قَلْيَقْعَدْ بِصُرْ وَيَبْعَدِ
 يَرَى النَّاسَ ضُلَّالًا وَلَيْسَ بِمُهْتَدِي
 وَأَطْوِي عَلَى الْمَاءِ الْقَرَاحِ الْمُبَرَّدِ
 أَكْثَرُ أَهْلِي مِنْ عِيَالٍ سِوَاهُمْ

وقد لا يلاحظ تناصبه مع ما سبقه من الأبيات كتناصبه مع ما سبقه من أبيات حسان بن ثابت رضي الله عنه ، على أن القصيدتين فيهما أبيات مشتركة غير هذا البيت ما بين القصيدتين ، الأمر الذي يزيد من صعوبة القطع بنسبة البيت على وجه الجزم لأي من الشاعرين .

ومن اعترضات محمود شاكر رحمه الله في نسبة الأبيات اعتراضه أيضاً على ابن سلام الجمحى في طبقات فحول الشعرا ، وذلك أن ابن سلام الجمحى نسب هذا البيت للفرزدق :

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ
 وَإِلَّا فَإِلَيْيَ لَا أَخَالُكَ نَاجِيَاً

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ص : ٧٨ – ٨٣

أما محمود شاكر فيقول بعد نسبة ابن سلام هذه :

"لا أعرف هذا البيت للفرزدق وليس في ديوانه ، وإنما هو للأسود بن سريع التميمي ^(١) ، صحابي وكان شاعراً محسناً ، وذكره ابن قتيبة في المعرف وقال سرقه الفرزدق ^(٢) .

وذكره الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه العين ولم ينسبة لأحد ^(٣) ، ونسبة صاحب الطبقات الكبرى لسعس بن سلامة ^(٤) ، حيث كان عسوس " جالسا عند قبر ف قال: إني قائل بيت شعر ، فقيل له : يا أبي صفرة أتقول الشعر عند القبر؟ وقال: إني لقائله:
فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِيْ عَظِيمٍ ^(٥) .

وذكره الجاحظ في كتابه البيان والتبيين في باب (القصاص الأئباء) ، ونسبة للأسود بن سريع التميمي ^(٦) .

(١) الأسود بن سريع بن حميري بن عبادة بن نزال بن مرة ، منبني مرة بن عبد الله ، السعدي ، التميمي ، ويكنى أبو عبد الله ، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع غزوات ، وكان شاعرا وفاصلا ، قتلت أيام الجمل سنة ٢٤ هـ ، ينظر لترجمته في التاريخ الكبير ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، طبع تحت مراقبة : محمد عبد المعيد خان ، لدائرة المعارف العثمانية ، بحيدر آباد ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .

(٢) طبقات فحول الشعرا لابن سلام الجمحى ، ج ١ ، ص ١٨٢ ، الحاشية رقم (٣) .

(٣) العين للخليل بن أحمد ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

(٤) " عسوس بن سلامة البصري التميمي ، صحابي جليل ، روى عن النبي ﷺ ، وروى عنه الحسن البصري ، والأزرق بن قيس الحارثي . يقولون حدثه مرسل ، وإنه لم يسمع النبي صلى الله عليه وسلم ، وكتبه أبو صفرة ويقال أبو صفيرة . مِنْ حَدِيثِه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَوَاهُ شُعْبُهُ عَنِ الْأَزْرَقِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَسُوسَ بْنَ سَلَامَةَ يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَأَوَهُ شُعْبُهُ عَنِ الْأَزْرَقِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَعْتَزِلَ فَأَتَعْبُدَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَفْعَلُهُ أَوْ لَا يَفْعَلُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ - ثَلَاثَ مَرَاتٍ - فَلَصِيرْ أَحَدَكُمْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَأَتَعْبُدَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَفْعَلُهُ أَوْ لَا يَفْعَلُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ - ثَلَاثَ مَرَاتٍ - فَلَصِيرْ أَحَدَكُمْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَأَتَعْبُدَ . بعض مواطن الإسلام خير من عبادته خاليا أربعين عاما" ، ينظر لترجمته في الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ليوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ، تحقيق : علي محمد البحاوي ، ج ٣ ، ص ١٢٣٩ ، ط ١ ، عام ١٩٩٢ م ، لدار الجليل بيروت ، وينظر أيضاً لكتاب الثقات ، محمد بن حبان ، طبع تحت مراقبة : محمد عبد المعيد خان ، ط ١ ، عام ١٩٧٣ م ، لدائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٧ ، ص ١٥٣ .

(٦) البيان والتبيين للجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .

ونسبه أيضاً عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري للأسود بن سريع التميمي^(١) واتهم الفرزدق بسرقة من الأسود، وذكره السرقسطي في الدلائل في غريب الحديث في خبر فيه موعظة وإرشاد يقترب من رواية ابن صاحب الطبقات ، ونسبه لعسوس بن سلامة ، وملخص خبر السرقسطي أن عسوس بن سلامة كان عند أصحابه فقال لهم :

" سأحذركم بيت من الشعر ، فجعلوا ينظرون ، ويقولون : ما نصنع بالشعر؟ فقال :

" فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ "

قال (الراوي) : قال : مما رأيتم بكموا من موعظة بكاءهم منه^(٢)

وقد نسبه لذى الرمة إبراهيم بن محمد البهقى صاحب المحسن والمساوئ^(٣) ، وذكره أحمد بن فارس بدون نسبة^(٤) ، ونسبه أبي هلال العسكري للأسود بن سريع في كتابه الأولي^(٥) ، وفي كتابه جمهرة الأمثال قال أن أصل هذا البيت مثل لأمرأة اسمها الهيجمانة بنت عبسم وهو قولها : " ثكلتك إن لم أكن رأيت مقرعاً (فانج ولا إخالك ناجياً) فأرسلتها مثلاً"^(٦) ، وقد نسبه للفرزدق أبو منصور الشعالي في كتابه التمثيل والمحاضرة^(٧) ، وذكره ابن سيده بدون نسبة في كتابه المحكم^(٨) ، ولم ينسبه الزمخشري في أساس البلاغة لأحد^(٩) ،

(١) المعارف ، لابن قتيبة الدينوري ، تحقيق : ثروث عكاشه ، ط٢ ، عام : ١٩٩٢ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ، ص : ٥٥٧.

(٢) الدلائل في غريب الحديث ، قاسم بن ثابت بن حزم العوفي السرقسطي ، تحقيق: محمد بن عبد الله القناص ، ط١ ، عام : ٢٠٠١ م ، مكتبة العبيكان بالرياض ، ج٢ ، ص : ٤٤٤ .

(٣) المحسن والمساوئ لإبراهيم بن محمد البهقى ، بدون ، عام بدون ، دار صادر بيروت ، ص ٣٥٤ .

(٤) مقاييس اللغة ، لأحمد بن فارس ج:٤ ، ص : ٣٥٥ .

(٥) الأولي ، لأبي هلال العسكري ، ط١ ، عام : ١٤٠٨ هـ ، دار البشير بطنطا ، ص : ٣٧٠ .

(٦) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، ج١ ، ص : ٢٧٦ .

(٧) التمثيل والمحاضرة ، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الشعالي ، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ، ط٢ ، عام ١٩٨١ م ، للدر العربية للكتاب ، ص : ٦٩ .

(٨) المحكم والمحيط الأعظم ، لابن سيده ، ج٢ ، ص : ٧٠ .

(٩) أساس البلاغة ، لجبار الله الزمخشري ، ج١ ، ص : ٦٦٥ .

أما في كتابه المستقصى في أمثال العرب فقد نسبه لسعس بن سلامة^(١) ، وفي كتابه ربيع الأبرار أورد هذا البيت في باب الموت وما يتصل به ، وجاء به في خبر قال فيه :

".....دفنا صالحًا لنا فمددنا على القبر ثوبا، فجاء صلة بن أشيم العدوى^(٢) فرفع الثوب ونادى: يا فلان :

إِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمٍ^(٣)

فلا يعلم من صياغة هذا الخبر أن صلة هذا هو الذي قال البيت ، أو أنه استشهد به واستحضره على نحو ما يفعله الوعاظ من سرد الأبيات دون نسبة ، ولم أجده لصلة بن أشيم في حدود بحثي واطلاعى وفيما وقع بين يدي من المراجع شرأً يروى عنه ، فلعل البيت الذي أورده الزمخشري في هذا الخبر جاء على لسان صلة كشاهد استدعاه .

وقد نسب أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي هذا البيت في معجم الأدباء إلى الفرزدق^(٤) ، وتبع

(١) المستقصى في أمثال العرب ، لجبار الله الزمخشري ، ج ١، ص : ٣٨٥.

(٢) صلة بن أشيم العدوى ، مختلف فيه هل هو صحابي أم تابعي ، وله حديث رواه عن النبي ﷺ عن صلة بن أشيم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من صلى صلاة لا يذكر فيها شيئاً من أمر الدنيا، لم يسأل الله شيئاً من أمر إلا أعطاها " وبعضهم يقول بأن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر صلة فقال، فيما روى يزيد بن جابر، قال: بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " يكون في أمتي رجل، يقال له: صلة، يدخل الجنة بشفاعته كذا وكذا ، ويكتفى أبو الصهباء من عباد أهل البصرة وزهادهم روى عنه أهليها قتل سنة خمس وسبعين بكمال في أول ولاية الحاجاج بن يوسف وقد قيل إن أبو الصهباء قتل في ولاية يزيد بن معاوية ، قال عنه ابن سعد في الطبقات : " صلة بن أشيم العدوى من بني عدي بن عبد مناة بن أذ بن طابجة بن إلياس بن مضر، ويكتفى أبو الصهباء، وكان ثقة، له فضل وورع " ، وقال عنه الذهي : " ما علمته روى سوى حديث واحد عن ابن عباس ، ينظر في ترجمته للطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٧، ص: ١٣٤ ، وينظر لأسد الغابة في معرفة الصحابة ، لعز الدين بن الأثير ، تحقيق : علي محمد مغوض ، عادل أحمد عبد الموجود ، ط ١، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ج ٣، ص : ٣٥ ، وينظر للمقتني في سرد الكني ، لشمس الدين الذهي ، تحقيق ، محمد صالح عبد العزيز المراد ، ط ١، عام : ١٤٠٨ هـ ، للمجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ، ج ١، ص : ٣٢١ ، وينظر لسير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ج ٤ ، ص : ٤٧٨ .

(٣) ربيع الأبرار لجبار الله الزمخشري ، ج ٥، ص : ١٣٣ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي ، ج ٦، ص : ٢٧٨٧ .

ياقوت ابن سلام في نسبته البيت للفرزدق ، بل ولم يثبته إلا على لسان ابن سلام الجمحى .
ونقل سبط الجوزي خبر الزمخشري في ربيع الأبرار وجاء بالبيت في خبر صلة بن أشيم العدوى ^(١) ، ونسبه المستعصمي للفرزدق ^(٢) ، ولم ينسبة ابن منظور لأحد ^(٣) ، ونسبه للفرزدق صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب ^(٤) ، ونسبه لسعس بن سلامة صاحب الإصابة في تمييز الصحابة ^(٥) ، ولم ينسبة مرتضى الزبيدي في تاج العروس لأحد متابعاً في ذلك ابن منظور ^(٦) .

وبذلك يعلم أن من نسب هذا البيت للفرزدق غير ابن سلام الجمحى ، ابن قتيبة (يقول سرقة الفرزدق) ، وأبو منصور الشعالي ، وياقوت الحموي ، والمستعصمى .

أما من قال إنه للأسود بن سريع التميمي قبل محمود شاكر فأولهم الجاحظ ، وابن قتيبة ، وأبو هلال العسكري.

أما من نسبه لسعس بن سلامة فأولهم ابن سعد ، وبعده السرقسطي ، ثم جار الله الزمخشري ، وابن حجر العسقلاني .

أما من جاء بخبر صلة بن أشيم فجار الله الزمخشري ، ثم سبط الجوزي .
ولم ينسبة لمني الرمة إلا إبراهيم بن محمد البهيفي .

أما من نسبه لمجهول فأولهم الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وبعده ابن منظور ، ثم مرتضى الزبيدي .

أما على مستوى الدواوين الشعرية فمن الطبيعي جداً وبحسب الخلاف المذكور بعضه آنفًا في نسبة هذا البيت أن تتم نسبة في ديوان من نسب إليه ، فالبيت مثبت في ديوان ذي الرمة ^(٧) ، ولكنني لم أجده في ديوان

(١) مرآة الرمان في في تواریخ الأعیان ، لیوسف بن قڑاوغلو المعروف بسبط الجوزي ، ج ٩ ، ص : ١٧٩ .

(٢) الدر الفريد وبيت القصيد ، لحمد بن أیدمر المستعصمى ، ج ٧ ، ص: ٣٨٧ .

(٣) لسان العرب لابن منظور ، ج ٤ ، ص : ٣٠٠٥ .

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويiri ، تحقيق: مفید قمھیة، ط ١ ، عام ٤٢٠٠ م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ج ٣ ، ص: ٧٠ .

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، ج ٧ ، ص : ١٦٩ .

(٦) تاج العروس ، ج ١٧ ، ص : ٤٨٨ .

(٧) ديوان ذي الرمة ، ص : ٢٩٢ .

الفرزدق كما قاله الأستاذ محمود شاكر ، أما الأسود بن سريع التميمي فلم أجده له ديواناً وإنما كانت نسبته إليه عند شاكر بحسب من قال بذلك من العلماء الآنف ذكرهم .

وحتى ديوان ذي الرمة الذي وجد فيه هذا البيت فقد وجد فرداً لا شافع له ، الأمر الذي يصعب القطع بنسبة البيت لأحد من نسبة العلماء إليه ، ويبدو أن شاكراً قد ذهب إلى نسبة الجاحظ وابن قبيطة ثقة منه في تقصيهما ودقتهما ، وليس له دليل إلا هذه الثقة منه هما ، ولو وجد بين يديه دليلاً غير ذلك لم يتعدد مطلقاً في الإبانة عنه ، شأنه في ذلك شأن اعترافاته وتعليقاته التي غالباً ما تشكل ضعيفي المتن في الصفحة الواحدة من كتاب طبقات فحول الشعراء .

وقد لا يكون الاعتراض عند محمود شاكر مبنياً على وجه القطع والجزم ، فهناك اعترافات عنده مبنية على الظن لم يقطع برأيه الصريح فيها كغيرها ، ولا يعني بناء تلك الاعترافات على الشك والظن أنها عبئية ليس لها أساس تطلق منه ، فشك شاكر مثلاً في نسبة هذا البيت لغير أبي سفيان بن الحارث^(١) :

أَبُوكَ أَبُوكَ سَوْءٌ وَخَالُوكَ مِثْلُه
وَهُلْ تُشْتَهِنْ إِلَّا أَبَاكَ وَخَالَكَ

كان مبعثه كلام ابن سلام في نسبة هذا البيت ، مقرونة بترجمة لشاعر اطلع عليها في معجم الشعراء لياقوت الحموي ، وبيان ذلك أن ابن سلام الجمحى في طبقات فحول الشعراء قال في البيت السابق وبعده قوله :

وَإِنَّ أَحَقَ النَّاسِ أَنْ لَا تَلُومَه
عَلَى اللُّؤْمِ مِنْ أَلْفِي أَبَاهُ كَذِلِكَ

"ويروى الناس لأبي سفيان بن الحارث يقول لحسان : وَإِنَّ أَحَقَ النَّاسِ فأخبرني أهل العلم من أهل المدينة أن قدامة بن موسى بن قدامة بن مطعون الجمحى قالها وخلها أبو سفيان ، وقريش ترويه في أشعارها ثم يرد بذلك الأنصار والرَّد على حسان"^(٢).

أما محمود شاكر رحمه الله فلم يطمئن لنسبة الناس الذين ذكرهم ابن سلام الجمحى البيت لأبي سفيان ابن

(١) اسمه "المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم أبو سفيان، وقيل: أبو عبد الملك، أسلم عام الفتح ، ثبت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، شهد هو وابنه حنينا ، توفي سنة عشرين ، أمه: غزية بنت قيس بن طريف بن عبد العزيز بن عامر بن عميرة بن وديعة بن الحارث بن فهر، لقي رسول الله ﷺ في الطريق في مخرجته إلى الفتح، فأسلم ومدحه " ، ينظر معرفة الصحابة ، لأحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني ، تحقيق: عادل بن يوسف العزاوي ، ط ١، عام ١٩٩٨ م ، لدار الوطن للنشر بالرياض ج ٥، ص ٢٥٨٥.

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، ج ١ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

الحارث ، ولم يرق له أيضاً تصويب ياقوت الحموي لهذه النسبة بناء على عدم اطمئنانه لهذه النسبة ، فقال معيقاً على ذلك :

"في معجم الشعراء ... في ترجمة فرات بن حيان (١) البيت الأول ومعه بيت منسوبان لفرات ، وصحح نسبتهما إلى أبي سفيان بن الحارث ، والبيت الثاني هو :

وَكَيْفَ يَكُونُ التَّوْكُّ إِلَّا كَذِلِكَ
يُصِيبُ وَمَا يَدْرِي وَيُخْطِي وَمَا دَرَى
وأظن أن هذا البيت لغير أبي سفيان ، وانظر زيادات ديوان حسان نقلًا عن ديوان المعاني منسوبين إلى حسان " (٢) .

وبالعودة إلى رأي ابن سلام يلاحظ بأنه لا يميل إلى نسبة الأبيات لأبي سفيان بن الحارث ، وإن لم يصرح بذلك صراحة ، وهناك أدلة من كلامه تدل على هذا الأمر :

أولها : أنه نسب هذه النسبة للناس ، وكلمة الناس تدل على عموم غير موثق به في المفهوم المعرفي ، ففي هؤلاء الناس الذين ذكرهم ابن سلام بهذه النسبة أناس غير مختصين بأمور الشعر وغير معنيين بنقده كعنابة علماء الشعر به ، وهذا الجنس من الناس لا يهتم بنسبة البيت لصاحبها بقدر ما يهتم بالاستشهاد ، وعليه فإن دوران نسبة هذا البيت لأبي سفيان على أستتهم لا يعتد به كثيراً ، كما يعتد برأي العلماء الذين ذكرهم في استنباطه الثاني والمتضمن نخل هذه الأبيات على لسان أبي سفيان .

(١) فرات بن حيان العجلي وهو فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبد العزى بن حبيب بن حية بن ربيعة بن سعد ابن عجل ، حليف بني سهم ، كان دليلاً هادياً للطرق ، بعث رسول الله ﷺ سريعة لزيد بن حaritha في مائة راكب ليعرضوا لغير قريش ، وكان دليلاً لهم فرات بن حيان ، فأصابوا العير ، وأسرعوا فراتاً ، فأتي به رسول الله ﷺ أسيراً ، فقال : أسلمت لرب العالمين ، فأطلقه ولم يقتله ، فلم يزل يغزو مع رسول الله ﷺ إلى أن قبض فتح حول ، فنزل الكوفة وابتلى بما داراً في بني عجل ، وعقبه بما ، وقد كان حليفاً لبني سهم ، وكان عيناً لأبي سفيان بن حرب ، فأمر النبي ﷺ بصلاته عليه وسلم بقتله ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وقال فيه النبي ﷺ صلوات الله عليه وسلم : (إن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانكم منهم فرات ابن حيان ، ينظر لترجمته في معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ، ج ٤ ، ص : ٢٢٩٣ ، وينظر لترجمته أيضاً في تحذيب الكمال في أسماء الرجال ، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف الكلبي ، تحقيق : بشار عواد معروف ، ط ١ ، عام : ١٩٨٠ م ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ج ٢٣ ، ص : ٤٧) .

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، ج ١ ، ص : ٢٥٠ ، الحاشية رقم : (١) .

ثانياً : يزيد من حظوظ القول ميل ابن سلام لتبئنة أبي سفيان من هذه النسبة ، وصفه لمن قال بأنها منحولة عليه بـ (أهل العلم من أهل المدينة) ، فهم علماء أهل اختصاص ودرية ليسوا كالناس الذي نسبوا البيت لأبي سفيان ، فهم الأحق بأخذ رأيهم بحكم اختصاصهم ومنزلتهم العلمية ، ويزيد من حظوظهم لديه أنهم من أهل المدينة المنورة وهو الموطن الذي قيلت فيه الأبيات وموطن حسان بن ثابت عليه السلام المهجو بهذه الأبيات ، وموطن الشخص الذي قام بتحلها حسان وهو بحسب رأي ابن سلام (قدامة بن موسى بن عمر بن قدامة بن مظعون الجمحي) ^(١).

ويبدو أن هذا الأثر الخفي من عدم ميل ابن سلام الجمحي لهذه النسبة تسرّيت إلى نفس محمود شاكر ، فاستدعي كلاماً ليقوت الحموي في معجم الشعراء قال فيه شاكر بأن ياقوت الحموي صاحب نسبة البيت الأول ومعه بيت آخر لأبي سفيان بن الحارث وذلك في ترجمة ياقوت الحموي لقدامة بن موسى الجمحي ، واعتراض محمود شاكر بطريق الظن الرابع على تصحيح ياقوت نسبة لأبي سفيان بن الحارث ، ولم ينسبها شاكر لأحد ولم يقل بتحلها على أحد ، ولكنه أحال إلى ديوان حسان بن ثابت نقاً عن ديوان المعاني ^(٢) الذي نسب البيتين لحسان بن ثابت عليه السلام ، واكتفى بهذه الإحالة دون إبانة عن تأييد منه أو اعتراض على نسبةتها لحسان بن ثابت عليه السلام ، ولكن عدم اعتراضه عليها دليل على الأقل بقبوله الأدنى لها ، ولا بد من التنويه على أن كلام شاكر وظنه منحصر في البيت الأول المشهور : **أَبُوكَ أَبُوكَ سَوْءٍ** ، حيث قام بوضع إشارة مرجعية في نهاية هذا البيت ، ثم كان ما كان منه الاعتراض المبني على الظن .

أما كلام ياقوت الحموي الذي دفعه الظن للاعتراض عليه ، فقد جاء في معجم الشعراء أثناء ترجمة ياقوت لفرات بن حيان العجلي ، ونص كلام ياقوت في ذلك :

" فرات بن حيان. كان دليلاً قريشاً في الجاهلية وهو من هجا رسول الله صلوات الله عليه وسلم ثم مدحه فقبل مدحه. قوله يقول حسان بن ثابت :

(١) قدامة بن موسى بن عمر بن قدامة بن مظعون الجمحي ، وأمه نفيعة بنت عبد الله بن عقيل بن أبي طالب راوية للحديث ، من الثقات ، من أهل مكة ، كان إمام المسجد النبوي ، روى عن ابن عمر وروى عنه عبد العزيز بن محمد ووكيع وعثمان بن عمر ، ينظر لترجمته في الجرح والتعديل ، لابن أبي حاتم الرازي ، ط١، عام ١٩٥٢م ، لدار إحياء التراث العربي بيروت ، ج٧، ص ١٢٨.

(٢) ديوان المعاني ، لأبي هلال العسكري ، ج١، ص ١٨٢.

فَرَاتَ بْنَ حَيَّانَ يَكُنْ وَهُنَّ هَالِكٌ
 فَإِنْ تَلْقَ فِي تَطْوِيفِنَا وَالْتِمَاسِنَا
 فَأَجَابَهُ فَرَاتُ وَيَقَالُ هِيَ لَأَبِي سَفِيَانَ بْنَ الْحَارِثِ:
 وَهُنْ تُشْبِهُنَ إِلَّا أَبَاكَ وَخَالَكَ
 أَبُوكَ أَبُوكَ سَوْءٍ وَخَالُكَ مِثْلُهُ
 وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْكُ إِلَّا كَذِيلَكَ^(١)
 يُصِيبُ وَمَا يَدْرِي وَيُخْطِي وَمَا دَرَى

وكما هو ملاحظ فليس في كلام ياقوت الحموي تصحيح نسبة البيتين لأبي سفيان بن الحارث كما فهمه الأستاذ محمود شاكر رحمه الله ، فياقوت الحموي نسب البيتين لفرات بن حيان بشكل صريح ، ثم جاء بلغة تمريض حين قال بنسبيتها لأبي سفيان بن الحارث ، فقال : (ويقال هي لأبي سفيان بن الحارث) ، وهي ذاتها لغة التمريض والارتياح التي عاها شاكر على ابن كثير في روايته المتضمنة بأن راهباً اجتمع بأبي العلاء في بعض الصوامع وأواه عنده في الليل وشككه في دينه ، والتي تمت الإشارة إليها سابقاً في هذا البحث في قصة تعليم أبي العلاء المعربي .^(٢)

وعليه فإن اعتراض شاكر المبني على الظن قائم على وهم منه في تصحيح ياقوت الحموي نسبة هذه الأبيات لأبي سفيان بن الحارث ، ومنطلقه الرئيس تبرئة أبي سفيان بن الحارث من نسبة هذه الأبيات له .
 أما ظن شاكر الذي دفع به إلى هذا الاعتراض فقد يبدو أنه من قبل الظن الراجح الذي هو دون مرتبة اليقين ، والذي يعده علماء المنطق إحدى الطرق التي تقود إلى المعرفة وتساعد الإنسان للوصول إليها^(٣) ، وهو ظن يقارب اليقين حتى لا يكاد تخطر على البال نسبة هذا البيت لأبي سفيان بن الحارث .

أما العلماء بعد ابن سلام رحمه الله فلم يتتفقوا على نسبة هذين البيتين لأحد ، فالبلاذري في جمله ينسبها لأبي سفيان بن الحارث^(٤) ، وياقوت الحموي كما سبق ذكره آنفاً ينسبها لفرات بن حيان ، والحادمي يكتفي بنقل كلام ابن سلام وبكتفي بنسبيته لها^(٥) ، وأبو هلال العسكري ينسبها لحسان بن ثابت رض في كتابيه جمهرة

(١) معجم الشعراء ، لياقوت الحموي ، ص : ٣١٧ .

(٢) ينظر لصفحة : ٢٨١ من هذا البحث وما بعدها .

(٣) ضوابط المعرفة لعبد الرحمن بن حبنكة الميداني ، ص : ١٢٥ .

(٤) جمل من أنساب الأشراف ، لأحمد البلاذري ، ج:٤، ص : ٢٩٦ .

(٥) حلية الحاضرة للحاتمي ، ج ٢ ، ص: ٣٨ .

الأمثال^(١) وديوان المعاني^(٢) ، وينسبها لحسان بن ثابت رض أيضاً شهاب الدين التوييري^(٣) .

ولابد من الإشارة إلى أن هذا البيت موطن اعتراض محمود شاكر رحمة الله مثبت في ديوان الشاعر عامر ابن الطفيلي^(٤) ، الذي رواه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري^(٥) ، عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب^(٦) ، وقد ورد البيت ثالثاً لبيتين قال أبو بكر الأنباري أنه قالها في هجاء رجل لم يذكره الطفيلي ، والأبيات بحسب رواية ابن الأنباري ساكنة القافية ، وهي قوله :

وَأَنْتَ لِسَوْدَاءِ الْمَعَاصِمِ جَعْدَةٌ
وَأَقْعُسَ مِنْ نَسْلِ الْإِمَاءِ الْعَوَارِكُ

(١) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، ج ٢، ص : ٢٤٤ .

(٢) ديوان المعاني ، لأبي هلال العسكري ، ج ١، ص : ١٨٢ .

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ، لشهاب الدين التوييري ، ج ٣، ص : ٢٧٨ .

(٤) هو عامر بن الطفيلي بن مالك بن جعفر بن قيس عيلان بن مصر بن نزار بن معن بن عدنان ، شاعر جاهلي وفارس فتاك وسيد من سادات بني جعفر بن كلاب من بني عامر بن صعصعة من قبيلة هوازن ، قاد عامر بن الطفيلي قومه في عدد من المعارك ، منها يوم فيف الريح ، والرُّفْمُ ، وذو نجْب ، اشتهر بفروسيته ، أدرك الإسلام شيخاً فوفد على رسول الله وهو في المدينة بعد فتح مكة، يريد الغدر به، فلم يجرؤ عليه، فدعاه إلى الإسلام فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة وأن يجعله ولـي الأمر من بعده، فرده، فعاد حانقاً ، ينظر في ترجمته في موسوعة شعراء العصر الجاهلي ، ص : ١٨٣ وما بعدها .

(٥) أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري، المقرئ النحوي ، ولد سنة ٢٧٢ هـ ، كان صادقاً حافظاً ذا دين ، قال أبو علي القالي: كان شيخنا أبو بكر يحفظ فيما قبل: ثلاث مائة ألف بيت شاهد في القرآن ، وقال عنه أبو علي التنوخي: كان ابن الأنباري على من حفظه، ما أملى من دفتر فقط ، كان من أعلم الناس وأفضلهم في نحو الكوفيين، وأكثرهم حفظاً للغة ، له كتب : (الوقف والابتداء) ، وكتاب (المشكل) ، و (غريب الغريب النبوى) ، و (شرح المفضليات) ، و (شرح وغيرها) ، مات ٣٢٨ هـ ببعداد عن سبع وخمسين سنة ، ينظر لترجمته في سير أعلام النبلاء ، ج ١٥ ، ص : ٢٧٤ .

(٦) أحمد بن يحيى النحوي بن يزيد، مولى بني شيبان، المعروف بثعلب. فاق من تقدم من الكوفيين وأهل عصره منهم، وكان قد ناظر أصحاب الفراء وساواهم ، ولد عام ٢٩١ هـ ، نظر أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في النحو وله ثمان عشرة سنة، وصنف الكتب وله ثلاث وعشرون سنة، وكان ثقةً صدوقاً حافظاً للغة عالماً بالمعاني ، وكان يدرس كتب الفراء وكتب الكسائي درساً، ولم يكن يعلم مذهب البصريين، ولا مستخراجاً للقياس ولا مطالباً له. وكان يقول: قال الفراء، وقال الكسائي، فإذا سئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يغرق في النظر ، توفي عام ٢٩١ هـ ، ينظر لترجمته في طبقات النحويين واللغويين ، محمد بن الحسن الإشبيلي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢ ، عام بدون ، لدار المعرف بمصر ، ص : ١٤١ .

تَبِعٌ لِّقَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ صَمِيمِهِمْ
أَبُوكَ أَبُوكَ سَوْءٍ وَحَالُكَ مِثْلُهُ

وَلَكِنَّهُ مِنْ نَسْلِ آخَرَ هَالِكُ
وَهُلْ نُشِئُنَ إِلَّا أَبَاكَ وَحَالَكُ^(١)

والحق أن رواية ابن الأنباري هذه وقبلها رأي ابن سلام الجمحي الأنف الذِّكر في نخل الأبيات ، يصل بظن محمود شاكر إلى ما يشبه اليقين في عدم نسبة هذه الأبيات لأبي سفيان بن الحارث ، فابن سلام الجمحي وابن الأنباري هما من هما في التقصي والتدقيق والعلم باللغة والشعر ، ونسبة ابن الأنباري هذه أكد في ترجيح ظن الأستاذ شاكر رحمه الله ؛ لأنَّه عني بشرح ديوان عامر بن الطفيلي ، ولو انتهى إليه نسبة هذه الأبيات لغير عامر ابن الطفيلي لم يتعدد مطلقاً في الإبانة عن ذلك ، فهو ثقة وصاحب حفظ ودرية باللغة والشعر .

(١) ديوان عامر بن الطفيلي، ط بدون ، عام ١٩٧٩ م ، دار صادر بيروت ، ص : ٨٧ وما بعدها.

المبحث الثالث : النقض :

النقض هو واحد من أهم المواقف الاستنباطية عند الأستاذ محمود شاكر رحمه الله ، وهو يختلف عن الاعتراض من حيث التناول والمعالجة ، فالاعتراض عند الأستاذ كما سبق يرتكز على قضايا عامة أقرب ما تكون إلى الرأي الانطباعي والاستباط الشخصي لا تعتمد على أدلة ، ولذلك لا يكون في الاعتراض عند شاكر نقض للأدلة لعدم وجودها ، وإنما يكون منه اعتراض يقابل به الرأي الآخر مبني على أساس تذوقي ، وقوامه ثقافة واسعة ودرية مثقفة .

أما النقض عند شاكر فهو ذلك الموقف الاستنباطي الذي يعمد إلى حجة الرأي الآخر وأدلتها ، فيقوم بنقضها وإفساد أدلتها وطمس ملامح وجوه الاستشهاد بها ، وإثبات تناقضها من باطنها ، وربما هدمها عن طريق إثبات تعارض وصدام بينها وبين آراء أخرى لنفس الشخص ، معتمداً في ذلك كله على قدرة فائقة واطلاع واسع وتقض دقique لحيط القضية التي يريد نقض رأي عالم فيها ، ولا يشترك النقض مع الاعتراض إلا في عدم التسليم للرأي الآخر ، والاعتماد على الذوق والدرية والثقافة الواسعة .

ومن النماذج التي نقض فيها الأستاذ شاكر آراء العلماء نقضه للعديد من آراء القاضي التنوخي ^(١) في نسب المتنبي ، حيث قام الأستاذ بتفعيل منهجه التذوقي وباستدعاء أفقه الثقافي في النظر في تلك الروايات ومعالجتها بحسب الافتراضات العلمية التي افترضها في قراءته للمتنبي ، وقد نقل ابن العديم في كتابه (بغية الطلب في تاريخ حلب) هذه الروايات التي نقض فيها الأستاذ محمود شاكر رحمه الله آراء القاضي التنوخي في نسب المتنبي ، ورأى الأستاذ شاكر أن التنوخي جاهل في آرائه هذه " بأساليب الوضع المتقنة التي جرى عليها شيوخ الوضاعين وأحكموا أمرها حتى خفيت على الحفي البصير من العلماء والأدباء " ^(٢) .

ولا بد من نقل روایات القاضي التنوخي في هذا الموضوع ، قبل تناول محمود شاكر لها وقيامه بنقضها ، وهي

(١) القاضي : أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن داود بن الفهم التنوخي ، ولد عام ٣٢٧هـ أو ٣٢٩هـ ، على خلاف في ذلك ، وأبوه هو القاضي علي بن محمد التنوخي ، من أبرز أدباء ووجهاء عصره ، نزل ببغداد وأقام بها ، وحدث إلى حين وفاته وكان سماعيه صحيحًا ، وكان أدبياً شاعراً أخبارياً ، ولـي لقضاء بعدة نواحٍ ، وحـكى عن نفسه أنه في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة كان متولـي القضاء بواسطـة ، قال عنهـ الشـاعـيـ : " هـلـلـ ذـلـكـ القـمـرـ ، وـغـصـنـ هـاتـيـكـ الشـجـرـ ، وـالـشـاهـدـ العـدـلـ بـمـجـدـ أـبـيهـ وـفـضـلـهـ ، وـالـفـرعـ المسـنـدـ لـأـصـلـهـ ، وـالـتـائـبـ عـنـهـ فيـ حـيـاتـهـ ، وـالـقـائـمـ مقـامـهـ ، بـعـدـ وـفـاتـهـ " ، تـوـفـيـ عـامـ ٣٨٤هـ .

(٢) المتنبي لـمـحـمـودـ شـاـكـرـ ، صـ ١٤٧ـ .

بحسب ترتيبها في كتاب ابن العديم :

الرواية الأولى : عن القاضي التنوخي ، عن أبي الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوي^(١) ، قال : " كان المتني وهو صبي ينزل في جواري بالكوفة ، وكان يعرف أبوه بعيدان السقاء ، يستقي لنا ولأهل المحلة "^(٢)
الرواية الثانية : قال التنوخي عن أبي الحسن العلوي: كان عيدان والد المتني يذكر أنه جعفي ، وكانت جدة المتني هداية صحيحة النسب لا أشك فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات "^(٣).

الرواية الثالثة : " قال التنوخي: قال أبي: فاتفق مجئ المتني بعد سنين إلى الأهواز منصراً من فارس..... وسألت المتني عن نسبه ، فما اعترف لي به ، وقال: أنا رجل أخطب القبائل وأطوي البوادي وحدي ، ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي انتسب إليها ، وما دمت غير منتبث إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لساي "^(٤)

الرواية الرابعة : " قال التنوخي عن أبيه : واجتمعت بعد موت المتني بسنين مع القاضي أبي الحسن بن أم شيبان الهاشمي الكوفي ^(٥) وجرى ذكر المتني فقال: كنت أعرف أباه بالكوفة شيخاً يسمى عيدان، يسقي على بغير له، وكان جعفياً صحيحاً للنسب "^(٦).

(١) لم أجده له ترجمة غير ماذكره عنه الأستاذ محمود شاكر رحمه الله من اسمه وخبر له في كتابه المتني : ص : ١٣٨ ، الحاشية رقم (٣) .

(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب ، لكمال الدين بن العديم ، تحقيق : سهيل زكار ، ج ٣ ، ص : ٦٤٢ ، ط بدون ، عام بدون ، لدار الفكر .

(٣) السابق ، ص: ٦٤٣

(٤) السابق ، نفسه .

(٥) " محمد بن صالح بن علي بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أبو الحارث الهاشمي يُعرف بابن أم شيبان وهو أخو القاضي أبي الحسن محمد بن صالح، وكان الأصغر درس فقهه مالك خرج عن بغداد إلى خراسان، فحدث بها ورد نيسابور، وأقام بها مدة يتكلّم على مذهب مالك ، ثم دخل بخارى فقلد قضاء نسا سنة ٣٥٥ھ ، وتوفي ببخارى سنة ٣٦٠ھ ، ينظر لترجمته في تاريخ بغداد ، ج ٣ ، ص : ٣٣٧ .

(٦) بغية الطلب في تاريخ حلب ، لابن العديم : ج ١٣ ، ص : ٦٤٣

افتتح شاكر بهذه الروايات مجتمعة القسم الذي عقده في كتابه المتنبي تحت عنوان (المتنبي أخبار نسبه ونقدها)^(١)، وانطلق في نقد هذه الروايات من افتراض أن المتنبي قد ابتلـي في حياته وبعد موته بكم هائل من عداوة الشعراء والنقاد وبغضائهم لم يكن لها مثيل لغيره من الشعراء ، الأمر الذي جعل الألسن تزل والأقلام تخطئ في رصد تاريخ الشاعر المتنبي ؛ إذ إن هذه البليـة أـسـهـمـت وبشكل فاعـلـ في تدوين اـدـعـاءـاتـ وـتـزـيـيفـ حـقـائـقـ وـلـاـ سـيـماـ فيـ نـسـبـ المـتـنـبـيـ ،ـ كـانـتـ تـهـدـفـ إـلـىـ الغـضـ منـ مـنـزـلـتـهـ وـالـتـقـلـيلـ منـ شـأنـهـ وـالـحـطـ منـ مـكـانـتـهـ .

جعل شاكر هذا الأمر بين عينيه قبل أن يباشر نقض روايات التنوخي التي تتصادم مع افتراضه ، الأمر الذي أـلـرـمـهـ بـنـقـضـ كـلـ روـاـيـةـ مـنـهـاـ عـلـىـ حـدـةـ ،ـ مـتـحـذـداـ مـنـ الشـكـ المـنـهـجـيـ مـبـرـراـ عـلـمـياـ وـمـنـهـجـياـ لـإـعـادـةـ النـظـرـ فيـ هـذـهـ الرـوـاـيـاتـ ،ـ فـانـطـلـقـ مـنـ اـفـتـرـاضـهـ وـشـكـهـ المـنـهـجـيـ إـلـىـ هـذـهـ الرـوـاـيـاتـ فـنـقـضـهـاـ وـاحـدـاـ تـلـوـ الـآـخـرـ ،ـ وـلـعـلـ أـكـثـرـ ماـ يـجـعـلـ بـيـنـ هـذـهـ الرـوـاـيـاتـ تـرـابـطـاـ أـنـاـ مـرـوـيـةـ عـنـ شـخـصـ وـاحـدـ ،ـ وـهـوـ القـاضـيـ المـحـسـنـ بـنـ عـلـيـ التـنـوـخـيـ ؛ـ وـلـذـلـكـ رـأـىـ شـاـكـرـ قـبـلـ نـقـضـ هـذـهـ الرـوـاـيـاتـ مـنـ دـاخـلـهـ أـنـ يـدـاـ بـهـذـاـ الرـابـطـ المـنـظـمـ هـذـهـ الرـوـاـيـاتـ بـنـاءـ عـلـىـ اـفـتـرـاضـهـ العـامـ الـأـوـلـيـ وـالـمـتـضـمـنـ كـثـرـةـ العـدـاـوـاتـ الـتـيـ وـاجـهـتـ المـتـنـبـيـ ،ـ فـبـدـأـ بـتـرـجمـةـ لـلـقـاضـيـ التـنـوـخـيـ ذـكـرـ فـيـهـ بـأـنـهـ تـقـلـدـ القـضـاءـ عـامـ تـسـعـةـ وـأـرـبعـينـ وـثـلـاثـ مـائـةـ وـأـلـفـ لـلـهـجـةـ النـبـوـيـةـ الـمـشـرـفـةـ ،ـ وـكـانـ مـنـ أـصـحـابـ الـوزـيرـ أـبـيـ مـحـمـدـ الـمـهـلـيـ^(٢) ،ـ وـكـانـ المـتـنـبـيـ حـيـنـ دـخـلـ بـغـدـادـ فـيـ طـرـيقـهـ إـلـىـ عـضـ الدـوـلـةـ بـشـيـرـازـ قـدـ ثـأـىـ بـنـفـسـهـ عـنـ مـدـحـ الـوـزـيرـ الـمـهـلـيـ ،ـ فـأـغـرـىـ بـهـ

(١) يـنـظـرـ لـقـضـيـةـ نـسـبـ المـتـنـبـيـ عـنـدـ مـحـمـودـ شـاـكـرـ فـيـ كـتـابـهـ المـتـنـبـيـ ،ـ صـ :ـ ١٤٣ـ -ـ ١٦٥ـ .

(٢) وـهـوـ أـبـوـ مـحـمـدـ الـحـسـنـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ وـزـيـرـ مـعـزـ الدـوـلـةـ اـبـنـ بـوـيـهـ ،ـ تـولـىـ وزـارـتـهـ لـثـلـاثـ بـقـيـنـ مـنـ جـمـادـيـ الـأـوـلـيـ سـنـةـ تـسـعـةـ وـثـلـاثـيـنـ وـثـلـاثـيـأـةـ ،ـ وـكـانـ غـاـيـةـ فـيـ الـأـدـبـ وـالـحـبـةـ لـأـهـلـهـ ،ـ كـانـ لـهـ مـعـ اـرـفـاعـ الـقـدـرـ ،ـ وـاتـسـاعـ الصـدـرـ وـعـلـوـ الـهـمـةـ وـقـضـ الـكـفـ مـاـ هـوـ مـشـهـورـ عـنـهـ ،ـ وـكـانـ قـبـلـ اـتـصـالـهـ بـعـزـ الدـوـلـةـ فـيـ شـدـةـ عـظـيمـةـ مـنـ الفـاقـةـ حـتـىـ أـنـهـ سـافـرـ مـرـةـ مـجـرـداـ مـعـ رـفـيقـ لـهـ وـاشـتـهـيـ الـلـحـمـ فـلـمـ يـقـنـعـ عـلـيـهـ فـقـالـ لـهـ يـذـكـرـ فـيـهـ سـوـءـ حـالـهـ وـفـاقـتـهـ ،ـ فـلـمـ سـمعـ رـفـيقـهـ الـأـيـبـاتـ رـاحـ فـبـاعـ أـحـدـ قـمـيـصـيـهـ وـاشـتـرـىـ بـدـرـهـ لـحـمـ وـطـبـخـهـ وـأـحـضـرـهـ إـلـيـهـ فـأـكـلـ وـشـكـرـهـ ،ـ ثـمـ تـنـقـلـتـ بـالـمـهـلـيـ الـأـحـوـالـ وـالـأـيـامـ حـتـىـ وـلـيـ الـوـزـارـةـ مـعـ الدـوـلـةـ بـبـغـدـادـ وـضـاقـ الـحـالـ بـرـفـيقـهـ الـذـيـ اـشـتـرـىـ لـهـ الـلـحـمـ وـسـمعـ بـهـ فـقـصـدـهـ وـدـخـلـ عـلـيـهـ وـهـوـ جـالـسـ فـيـ دـسـتـ الـوـزـارـةـ فـأـنـشـدـ عـلـيـهـ إـلـيـ أـبـيـاتـ يـذـكـرـهـ فـيـهـ وـبـالـأـيـبـاتـ الـتـيـ قـالـهـاـ فـيـهـ ،ـ فـأـمـرـ لـهـ فـيـ الـحـالـ بـسـبـعـمـائـةـ دـرـهـمـ وـوـقـعـ فـيـ رـقـعـهـ :ـ ﴿مَئُلُّ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَلَ حَبَّةً أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبْنَلَةٍ مِائَةً حَبَّةً وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾ ،ـ تـوـفـيـ سـنـةـ ٣٥٠ـ هـ تـقـرـيـباـ ،ـ يـنـظـرـ لـتـرـجـيـتـهـ فـيـ وـفـيـاتـ الـأـعـيـانـ لـابـنـ خـلـكـانـ ،ـ وـيـنـظـرـ إـنـبـاءـ الـأـمـرـاءـ بـأـنـبـاءـ الـوـزـرـاءـ ،ـ لـمـحـدـ بـنـ عـلـيـ بـنـ خـمـارـوـيـهـ ،ـ تـحـقـيقـ :ـ مـهـنـاـ حـمـدـ الـمـهـنـاـ ،ـ صـ :ـ ٥٥ـ ،ـ طـ ١ـ ،ـ عـامـ ١٩٩٨ـ مـ ،ـ لـدارـ الـبـشـائرـ الـإـسـلامـيـةـ بـبـيـرـوـتـ ،ـ جـ ٢ـ ،ـ صـ :ـ ١٢٤ـ .

الشعراء وغير الشعراء ، ورأى شاكر أن هذه الصحبة التي كانت بين الوزير المهلي المتندذ في أمور الدولة وبين القاضي التنوخي كفيلة لأن تتسبب في أن يناسب القاضي المتني العداء ، وهذا الاستنباط يصلح لأن يكون حكماً عاماً على بطلان هذه الروايات ؛ كونها إدعاءات مبنية على محابة القاضي لوزير الدولة ، وأنها روايات مفبركة كاذبة تقصد النيل من المتني ، الذي لم يكن منه إلا الترفع عن مدح الوزير المهلي ، والذي كان القاضي التنوخي أحد أصدقائه المقربين وندمائه المخصوصين ، ولذلك لم يتعدد الأستاذ مطلقاً في وصف روايات التنوخي بالكذب والتلفيق .

ثم عمد شاكر بعد هذا الحكم العام إلى الروايات نفسها محاولاً نقضها من بنائها الداخلي لإثبات كذبها وتلفيقها على نسب المتني ، محاولاً استدعاء كل ما يمكنه استدعاؤه لنقض الرواية من داخلها ، فابتدأ بأدبيات النسيج الاجتماعي الذي تتصرف به الشخصية العربية والإسلامية ، فهي شخصية مبنية على توقير واحترام الصغير للكبير والتلطف عند الحديث إليه ، ومن بين ذلك عدم الجرأة على طرح أسئلة لا يراعى فيها فارق السن مما يوجبه احترام الكبير وتوقيره ، فذكر شاكر أن التنوخي -حين سُأله المتني عن نسبة مما اعترف له به -كان شاباً في السابعة والعشرين من عمره ، وكان المتني قد تَيَّفَ على الخمسين سنة ؛ لأنه لقيه بالأهواز منصراً من فارس من عند عضد الدولة قبيل وفاته عام أربعة وخمسين وثلاثمائة للهجرة ، فكيف يُظْنَ أن التنوخي يسأل المتني عن قضية نسبة وبينهما من السن أكثر من خمسة وعشرين عاماً ؟ ثم كيف له أن يسأله عن ذلك والمتني معروف بتعاليه وترفعه حتى عن الوزراء والخلفاء ؟

ثم انتقل شاكر إلى إجابة المتني عن سؤال التنوخي عن نسبة لنقضه أيضاً من خلال مقارنة هذه الإجابة بما عرف عن شخصية المتني ، وأولها أن المتني لم يكن يطوي البلاد وحده أي منفرداً ، ولعل نقض الأستاذ هنا لهذه المقوله تحديداً غير كاف في إمكانية نقضها ، فمسير ركب مع المتني حين يطوي البلاد لا يعني عنه شيء في مواجهة قبيلة تزيد النيل منه ، فبماذا يواجه الركب القبيلة ؟ فلربما كان ما جاء في هذا الخبر على لسان المتني أنه يطوي البلاد وحده ، مبنياً على أساس تهوين وتحقيق العدد الذي كان يرافقه في سفره بإزاء القبيلة التي تزيد النيل منه حتى كأنه وحيداً ليس معه أحد ، والدليل على عدم معنى الفردية المطلقة من قوله وحيداً موجود في بغية الطلب في تاريخ حلب نفسه ، الذي نقل سؤال التنوخي للمتني ونقل تعليل المتني لعدم إظهار نسبة كونه يقطع البلاد وحيداً ، فقد ذكر ابن العديم أن المتني حين فرّ من مصر وصار إلى الكوفة ، قصد ابن

العميد^(١) فمدحه ونال وصله ، وطلب منه ابن العميد أن يمضي إلى عضد الدولة^(٢) فمضى إليه فمدحه ووصله ، وفارقه على أن يأتي بعاليه ويحييء بهم إليه ، وسار المتنبي حتى وصل إلى العثمانية فوجد أثراً لخيل يترصد له فرسانها ، فصادفته فطعنوه طعنة ثم احتزوا رأسه ، وأخذوا ما كان معه من المال ، ثم يقول ابن العديم: "كان مذهبه أن يحمل ماله معه أين توجه ، وقتل ابنه معه وغلام من جملة خمسة غلامة كانوا معه"^(٣).
 فهذا الرواية صريحة في عدم قطع المتنبي للبلاد وحيداً بدون رفقة أحد ، ولو تم تجاهل ذلك والتغاضي عنه ، فكيف يؤمن المتنبي على نفسه أن يكون وحيداً ومعه أمواله التي يحملها دائمًا معه ؟

(١) أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد ، والعميد لقب والده ، لقبه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم ، وكان فيه فضل وأدب وله تردد ، وتولى وزارة عقيب موت وزيره أبي علي ابن القمي ، وذلك في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وكان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم ، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه ، وكان يسمى الجاحظ الثاني ، وكان كامل الرياسة جليل المقدار ، من بعض أتباعه الصاحب ابن عباد - المقدم ذكره - ولأجل صحبته قيل له الصاحب ، وكان له في الرسائل اليد البيضاء ، قال الشاعري في كتاب "اليتيمة": كان يقال: بدئت الكتابة بعد الحميد ، وختمت بابن العميد ، توفي عام ٣٥٩ هـ ، وفي وفاته خلاف بين أصحاب الترجم ، ينظر لترجمته في وفيات الأعيان لابن خلkan ، ج ٥ ، ص : ١٠٣ ، وينظر أيضاً لتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام لشمس الدين الذهبي ، ج ٨ ، ص : ١٣٩ .

(٢) عضد الدولة لقبه السلطاني ، واسمها " فنا خسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه " ، كان ملكاً على بلاد شيراز وما حولها من الأطراف ولد بأصفهان ، ففتح قرمان وعمان ، هزم الترك في واسط ، وظفر بالعراق بعد استيلائه على بغداد ، غزا جرجان وطبرستان ، عرف برعايته للعلماء واحسانه على الفقراء ، وفدى عليه كثير من الشعراء منهم ابن بابك و أبو الطيب المتنبي . كان عضد الدولة ملكاً فطناً وذا تدبير . من تدابيره في جمع الخلافة و الملك أنه أمر بأن يقع بينه وبين أبو بكر عبد الكريم الطائع بالله الخليفة العباسية وصلة بابنته الكبرى ، فعقد العقد بحضور الطائع الله ويشهد من أعيان الدولة والقضاة على صداق مائة ألف دينار وبنى الأمر فيه على أن يرزق ولداً ذكرًا منها فيولى العهد وتصير الخلافة في بيت بنى بويه ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة الدليمية ، قال عنه سبط ابن العجمي : "أول من خطب بالشاهنشاه في الإسلام" ، توفي سنة ٣٧٢ هـ ، ينظر لترجمته في وفيات الأعيان لابن خلkan ، ج ٤ ، ص : ٥٠ ، وينظر أيضاً لكتوز الذهب في تاريخ حلب ، لأحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل ، موفق الدين ، أبو ذر سبط ابن العجمي ، ط بدون ، عام بدون ، لدار القلم بحلب . ، ج ٢ ، ص ٧١ .

(٣) بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ، ج ٢ ، ص : ٦٨١ .

ولكن شاكراً أجهز على هذه الرواية بنقضه الثاني فيها ، وذلك بعد أن استدعي ما عُرف عن شخصية المتني وسيرته ، فقد ذكر أن المتني لم يتزدد في خروجه وحيداً غير محروس يوم قتل مع أنه موعود بالقتل ، وقد أرصد له قاتلوه بل وتحقق هو بنفسه من ذلك ، فكيف يصح أن ينسب إلى المتني مع شجاعته هذه مقوله " أنا رجل أخبط القبائل وأطوي البوادي وحدي ، ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي أنتسب إليها ، وما دمت غير منتب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويختلفون لساني " .

ومع إصرار شاكر على نقض كلام روایات التنوخي ابتداء بالشك فيه أولاً كشخص كونه نديم الوزير المهلبي عدو المتني ، ونقضه الرواية من بنائها الداخلي ثانياً ، فقد جأ إلى مقابله كل روایات التنوخي ببعضها البعض ليثبت تعارضًا بين ما أدلت به كل روایة من شهادة ، وكأن كل روایة من روایات التنوخي كفيلة بأن تنقض نفسها أختها دون حاجة لنقضها من داخلها ، ولاشك بأن إثبات التعارض بين روایتين لشخص واحد لموضوع واحد كفيل بنقض الروایتين معاً ، ثم إن تمكين ذلك وتقريره في ذهن المتلقى يلقي بظلاله على باقي الروایات الأخرى ، فلا يجد عندها المتلقى بدأ من الشك في كافة الروایات المتصلة بذات الموضوع ، بل وربما يتسرّب الشك إلى مواطن أخرى منفصلة عنه ، ولذلك عمد شاكر إلى مقابله الروایتين الثالثة والرابعة ببعضهما البعض ، فوجد أن الخبر الرابع من أخبار التنوخي مشتمل على قوله عن المتني (كنت أعرف أباه بالكوفة شيخاً يسمى عidan يسقي على بغير له) ، وقابل هذا بقوله في الروایة الثالثة (متى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي أنتسب إليها ، وما دمت غير منتب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويختلفون لساني) ، واستنبط من هذه المقابله ما يثبت تعارضًا فادحًا بين الروایتين ، أدت إلى نقض كل واحدة منها الأخرى ، وذلك أن المتني ولد عidan السقاء الذي سقطت عليه ساقطة المهن (السقاية) ، من ذا الذي يريد عنده ثاراً وينشد منه طائلة؟ وقد صدق الأستاذ شاكر رحمه الله ، فالسقاء وما شاكله من أرباب المهن ليس مطمعاً في ثارات العرب وأيامهم ، وليس بعيد أن العرب في ثاراتهم كانت تفاخر بقتل السادة ومن في حكمهم من كبار القوم ، ولا يفخرون غالباً بأخذ طائلتهم من يقوم على خدمة أكابرهم وسادتهم كالسقاء ، ومن ذلك قول ابن الزبير في قتل قريش سادة المسلمين وكبارهم في يوم أحد :

(١) وَعَدْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدْلُ

فَقَتَلْنَا التَّصْفَ مِنْ سَادَاتِهِمْ

(١) ديوان شعر عبد الله بن الزبيري ، ص ٤٢ .

ثم يدلل شاكر بعد ذلك إلى شخصية المتنبي نفسها ، تلك الشخصية المتعالية المترفة عن الوزارة والأمراء ، والتي هي مثبتة في شعره وفي الأخبار التي رويت عنه ، فيتساءل محمود شاكر :

" وهلاً أدرك هذا المترفع المتعالي على الملوك والأمراء - عن يت المتنبي - بنسبه رجلا آخر غير هذا السقاء - الذي هو - أبوه فوق علي بنسبته ، ما كان يضير هذا الرجل لو أنه كان قد سئل عن نسبه كما يوهم التنوخي أن يرتفع بنسبه شيئاً إلى رجل من الناس غير منكور ولا محقر ؟ "^(١)

والحق أن محمود شاكر أعمل في نقض روايات التنوخي عقله وحاج به حجاجاً منطقياً ، ومن ذلك هذه المقطوعة الآنفة الذكر والتي يريد منها الإجهاز التام على الادعاء القائل أن أبا المتنبي كان سقاء ، وإثبات أن هذا الادعاء داخل تحت نطاق بخтан العداوات وأراجيف الحсад والبغضين ، وعند تدقيق النظر فيما قاله شاكر هنا يلاحظ بأن المتنبي في روايات التنوخي هذه - وبحسب فهم الأستاذ - قد رضي لنفسه أن ينسب إلى من وصفه بالمحقر ولا شك أنه يقصد من ذلك السقاء ؛ لأن هذه المهنة اختيرت بعناية للغرض من شأنه وتحقيره والحط من منزلته المتعالية ، الأمر الذي دفع شاكر ليفسأله : لماذا لم يرتفع المتنبي بنسبه إلى رجل غير منكور وغير محقر بما يتناسب مع شخصيته المتعالية المترفة حتى عن الوزارة والأمراء ؟

والذي أثبته شاكر من روايات التنوخي الأربع الآنفة الذكر ليس فيها إلا أن المتنبي لم يعترف للتنوخي بنسبه ، فلم يقر المتنبي بنسبه لما هو أدنى من السقاء وما هو أعلى منه ، بل لم يعترف له بنسبه لتحقيق غايته وهدفه من عدم الانتساب لأحد حتى لا يؤخذ بطائلة غيره ، وعليه فليس من المتنبي إقرار أصلاً بنسبه في هذه الروايات لالسقاء ولا لغيره حتى يستساغ أن يتساءل الأستاذ محمود شاكر : (ما كان يضير هذا الرجل لو أنه كان قد سئل عن نسبه كما يوهم التنوخي أن يرتفع بنسبه شيئاً إلى رجل من الناس غير منكور ولا محقر ؟).

ثم يطالب شاكر التنوخي رحهما الله تعالى أن يقيم الدليل القاطع بأن المتنبي جعفي النسب ، والدليل الذي طلبه شاكر لإثبات أن المتنبي جعفي النسب ، ذلك النسب المتصل المعروف غير المنكر ، واعتبر الأستاذ أن إثبات ذلك أمر لابد من حتى يتم التسليم بأن المتنبي جعفياً ، واعتبر شاكر أن إقامة دليل على ذلك باستحداث نسبة للمتنبي مما يتذرع ؛ لأن الرواة قد اختلفوا في جد المتنبي الأدنى والذي بعده ، فكيف - مع وجود هذا الاختلاف - يتم الاتفاق على نسب متصل للمتنبي معروف غير منكر ؟ .

(١) المتنبي لـ محمود شاكر ، ص : ١٤٨ .

على الرغم من أن قدرًا لا بأس به من كتب التراجم والطبقات ، تقول في نسب المتنبي بعيدان السقاء وجعلفية النسب تأثراً بروايات التنوخي في ذلك على أغلب الظن ، ومنها ما هو سابق عن ابن العديم ومنها ما هو متأخر عنه ، الأمر الذي يزيد من عبه نقض ما اشتملت عليه هذه الكتب مما لا يراه شاكر في السقاية وجعفية النسب ، لا سيما وأن الغالب منها لم تعتمد في نسبة المتنبي على رواية التنوخي تحديداً ، إذ لو اعتمدت عليه لأحالت إليه ، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر :

١- تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي ، نسب المتنبي عنده : " أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفي "^(١).

٢- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب ، علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا ، نسب المتنبي عنده : " أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي الشاعر ، كان أبوه يعرف بعيدان السقاء " ^(٢) .

٣- الأنساب ، لعبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي ، نسب المتنبي عنده " أبو الطيب أحمد بن الحسين ابن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الشاعر ، المعروف بالمتنبي " ^(٣) .

٤- تاريخ دمشق ، لابن عساكر ، ونسب المتنبي عنده : " أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفي الشاعر المعروف بالمتنبي " ^(٤) .

٥- نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، لكمال الدين الأنباري ، نسب المتنبي عنده : " أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي " ^(٥) .

وما جاء في هذه الكتب سابق لابن العديم الذي أثبت روايات التنوخي والذي حدد شاكر قبل تحريره في روايات التنوخي ، أما ما جاء بعده من كتب فهي أيضاً على سبيل التمثيل لا الحصر :

(١) تحقيق : بشار عواد معروف ، ط١ ، عام ٢٠٠٢ م ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ج٥ ، ص : ١٦٤ .

(٢) ج٦ ، ص : ٩٩ ، ط١ ، عام ١٩٩٠ م ، دار الكتب العلمية بيروت .

(٣) تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ، الناشر : دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد ، الفارق الحديثة للطباعة والنشر ، ج١٢ ، ص : ٧٧ .

(٤) ج٧١ ، ص : ٧٦ .

(٥) ص : ٢١٩ .

- (١) وفيات الأعيان لابن خلكان ، نسب المتنبي عنده : "أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور، وقيل: هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار ^(١)".
- (٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، لجمال الدين بن منظور ، نسب المتنبي عنده : "أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفي" ^(٢)
- (٣) مجمع الآداب في معجم الألقاب ، لابن الفوطي الشيباني ، ونسب المتنبي عنده : "المتنبي أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد بن عبدالكندي الكوفي" ^(٣)
- (٤) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، لشمس الدين الذهبي ، ونسب المتنبي عنده: "أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المتنبي" ^(٤)
- (٥) سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين الذهبي ، نسب المتنبي عنده في هذا الكتاب : "أحمد بن حسين بن حسن الجعفي الكوفي" ^(٥)
- (٦) الوافي بالوفيات ، لصلاح الدين الصفدي ، نسب المتنبي عنده : "أحمد بن الحسين بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفي الكوفي" ^(٦)
- (٧) لسان الميزان ، أحمد بن حجر العسقلاني ، نسب المتنبي عنده : "أحمد" بن الحسين بن الحسن الجعفي الكوفي" ^(٧)
- (٨) نزهة الألباب في الألقاب ، لابن حجر العسقلاني ، ونسب المتنبي عنده في هذا الكتاب : "أحمد بن الحسين الجعفي" ^(٨)

- (١) ج ١، ص : ١٢٠ .
- (٢) تحقيق : روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، ط ١، عام ١٩٨٤ م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق ، ج ٣، ص : ٤٨ .
- (٣) تحقيق : محمد الكاظم، ط ١، عام ١٤١٦ هـ ، مؤسسة الطباعة بوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي بإيران ، ج ٤، ص : ٣٤٥ .
- (٤) ج ٨، ص : ١٤ .
- (٥) ج ١٢، ص : ٢٥٥ .
- (٦) ج ٦، ص : ٢٠٨ .
- (٧) تحقيق : دائرة المعارف النظامية بالهند، ط ٢، عام ١٩٧١ م ، مؤسسة الأعلامي للطباعة والنشر بيروت ، ج ١، ص : ١٥٩ .
- (٨) تحقيق : عبد العزيز السديري، ط ١، عام ١٩٨٩ م ، مكتبة الرشد بالرياض، ج ٢، ص : ١٥٢ .

وغيرها العديد من الكتب التي يبدو فيها جلياً تسرب أثر روايات التنوخي ، فنقض الأستاذ شاكر رحمه الله لروايات التنوخي في حقيقة الأمر لاختص بهذه الرواية فقط وبكتاب ابن العديم ، بل لابد وأن يتسرّب أثره لهذه الكتب وغيرها التي قضت في نسب المتنبي بما قضى به القاضي التنوخي .

و قبل أن يختتم شاكر حجاجه العقلي في نسب المتنبي بعدة تساؤلات ، تحمل وراء علامات استفهامها كما هائلأً من إنكار روايات التنوخي في نسب المتنبي فيتساءل الأستاذ رحمه الله :

ألم يكن بين العرب جميعاً من يعرف أن الرجل جعفي القبيلة غير التنوخي ومن نقل عنه التنوخي ؟
أكان من التنوخي حرص على ألا يذيع نسب المتنبي ؟ وإذا كان فلماذا ؟

واختتم شاكر نقضه لروايات التنوخي باستدلال من شعر المتنبي نفسه ، على ما جرت به عادته في هذا الكتاب النفيس الذي أعاد فيه قراءة المتنبي من شعره ، فقد تقرر لشاكر رحمه الله الطعن في رواية التنوخي لنسق تاريخي تم خض عنه شعر للمتنبي في التنوخيين أنفسهم ، وذلك أن المتنبي في أول أمره بأنطاكية واللاذقية ، وقد كان التنوخيون يتزلون بهما ، وكان بينهم وبين المتنبي مودة كان لها عظيم الأثر في مدح المتنبي لهم ورثاء أمراهم والدفاع عنهم ، وبعد أن أقام طويلاً بينهم نشبت بين أبناء العمومة من التنوخيين أنفسهم عداوة ، بعد أن جرى الخبر بأنكم يشمون بموت بعضهم البعض ، فلجأ الشامتون إلى المتنبي يريدون منه شرعاً ينفي عنهم الشماتة المنسوبة إليهم فعل المتنبي ، وقال :

أَبْنَاءُ عَمٍ كُلُّ ذَنِيبٍ لِإِمْرِئٍ
طَارَ الْوُشَاءُ عَلَى صَفَاءِ وَدَادِهِم
وَكَذَا الدُّبَابُ عَلَى الطَّعَامِ يَطِيرُ^(١)

يقول شاكر بعد سرده لهذه الواقعه :

" وهذه العداوة التي كانت بين التنوخيين مما يحجزنا عن الثقة بأقوال أحد من تنوخ : كأبي علي التنوخي من يذكر من أمر أبي الطيب شيئاً ، وعيينا أن لا نطمئن إلى قوله حتى تقطعننا الحجة بأنه كانوا لا يميلون إلى هوى ، ولا يصغون أ福德كم إلى بغضه ، فما ظنك بأبي علي التنوخي وهو قد اجتمعت الدلائل كما رأيت على وهن روایته واحتلاط حديثه وبيان هواه ؟ "^(٢)

(١) ديوان المتنبي ، ص : ٧٤ .

(٢) المتنبي ل Hammond Shaker ، ص : ١٤٩ - ١٥٠ .

أما الرواية التي تقول بأن والد المتنبي (عيدان السقاء) فقد نالها من شوك شاكر ورده لها ما نال غيرها ، ولكنه تنبه إلى أن أمر عيدان السقاء لم يكن حكراً على أبي علي التنوخي ، فقد كان أهم محور من محاور هجاء شعراء العراق للمنتبي محور (السقاء) الذي لم ينل والده فحسب بل ناله هو شخصياً ، ورد ذلك كله بأنه واقع في نطاق الحسد والاتهامات الباطلة التي كان يتهم بها المتنبي ، فقد كان شعراء العراق يخافون أن ينال أبو الطيب من الحظوة ما ناله في باقي الأمصار التي رحل إليها ، فيستولى وحده دونهم على ما يكون للشعراء من المدح ، فيذهب بأرزاقهم ويكسد بمدائحه بضائعهم ، ويسحب بساط مجالس الملوك والأمراء والوزراء من تحت أرجلهم ، فأجعلوه هجاء ، واتهموه ووالده بالسقاية نكاية ، للحط من منزلته والغض من شأنه ، كقول ابن لنكك البصري^(١) :

ضَلُّوا عَنِ الرُّشْدِ مِنْ جَهْلٍ بِّحْمٍ وَعُمُّوا فَرَوَّجُوهُ بِرَغْبَةٍ أُمَّهَا تُكْمُ نِعَاهُمْ فِي قَفَا السَّنَاءِ تَرَدِّحُمْ ^(٢)	قُولُوا لِأهْلِ زَمَانٍ لَا حَلَاقَ هُمْ أَعْطَيْتُمُ الْمُتَنَبِّيَ فَوْقَ مُنْتَبِّهٍ لَكِنَّ بَعْدَادَ جَادَ الْعَيْثَ سَاكِنَهَا
--	--

وتوصل شاكر بعد ذلك إلى أن "ذكر المتنبي بالسوء وزعمهم أن أباه كان سقاء من مصنوعات العراق وتجارته التي كان المهلي وزيراً لها"^(٣).

وتساءل لينقض رأي كل من قال أنه أو أباه سقائين :

(١) محمد بن محمد بن جعفر، أبو الحسين بن لنكك البصري النحوي الشاعر ، من أهل البصرة كان من النحاة الفضلاء والأدباء البلاء ، وصفه الشاعري بفرد البصرة وصدر أدبائها ، وقال: أكثر شعره ملح وطرف ، جلها في شكوى الزمان وأهله وهجاء شعراء عصره ، وكان معااصراً للمتنبي وهجاه ، توقي نحو ٣٦٠ هـ ينظر لترجمته في تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام لشمس الدين الذهيبي ، ج ٧ ، ص : ٩١٥ ، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، جلال الدين السيوطي ، ج ١ ، ص : ٢١٩ ، والأعلام للزرکلی ، ج ٧ ، ص : ٢٠ .

(٢) لم أجد ديوان ابن لنكك ، وووجدت هذه الأبيات منسوبة له في كتاب (أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه) لأبي منصور الشعالي ، تحقيق: محمد محبي الدين عبد الحميد ، ص ٤١ ، ط بدون ، عام بدون ، مكتبة الحسين التجارية ، وكذلك كتابه يتيمة الدهر ، (الصبح المنبي عن حبيبة المتنبي) ليوسف البديعي ، ط ١ ، عام ١٣٠٨ هـ ، للمطبعة العاشرة الشرفية ، ج ١ ، ص : ١٧٨ .

(٣) المتنبي ، محمود شاكر ص : ١٥٩ .

كيف يصح أن يتهم والده بالسقاية مع تعاليه وخليائه؟ وشواهد شعره تنطق بأنه كان لا يرى نفسه إلا متعالياً عن غيره؟

والحق أن نسب المتنبي قضية تحدث عنها الكثير من أهل العلم في قديم الزمان وحديثه، و لازالت حتى الآن تمثل مادة للبحث العلمي الذي يطالعنا كل مرة بجديد ، فقد مضى آنفأ رصد لبعض آراء العلماء القدامى في نسب أبي الطيب ، وغالب الظن أن ما قاله العلماء القدامى لم يكن بمعزز عن روایات أبي علي التنوخي ؛ لأنها لم تخرج في غالب الأمر على مضمون تلك الروایات مجتمعة أو فرادى .

وقضية نسب المتنبي يكتنفها غموض ليس مثلها في قضايا المتنبي غموض مثله ، غموض في مادة المتنبي الشعرية التي لم تقطع القول بذلك وتكتف عنه كل قلم تناول نسبة من عصره حتى عصرنا ، وغموض حتى في روایات العلماء أنفسهم حتى لا تكاد مع آرائهم تصل إلى حكم تطمئن إليه النفس ، وإذا كان بعد الزمان بين المتنبي وبين من جاء بعده من النقاد والمؤرخين والنسابين ذريعة لأن يقال : بأنهم متبعون في نسبة لأثر العلماء المعاصرين والأقرب زماناً له ، فلا يطمأن إلى ما قالوه في نسب المتنبي باعتباره نقل لا أكثر ، فإن قرب الزمان للعلماء بل ومعاصرة بعضهم للمتنبي لم تكن هي الأخرى كفيلة بالقطع في هذا الأمر وحسمه ، على أن هذا الأمر تحديداً كان محل نظر من محمود شاكر في مطاراتاته النقدية ، فالأستاذ رحمه الله كان تطمئن نفسه إلى ترجمة الأقرب زماناً والمعاصر للمترجم له ، وكانت نفسه أشد اطمئناناً في ذلك من ترجمات كل من ابتعد زمانه عن زمان المترجم له ، ولذلك عاب على لويس عوض هذا الأمر تحديداً وبعد أن قام بسرد مؤلفي الكتب التي ترجمت لأبي العلاء المعري مرتبين بحسب زمامهم ، ومقسمين بحسب معاصرتهم لأبي العلاء المعري وتأخرهم عنه، قال الأستاذ بعد أن اتهم لويس بأنه لم يطلع إلا على كتاب طه حسين في أبي العلاء :

" فأي أستاذ جامعي ... يستطيع أن يغفل الاطلاع على هذا كله ، ويقتصر على نقلٍ من كتاب محدث ألفَ منذ أكثر من خمسين سنة ، ويتجاهل كل ما كتبه الحدثون بعد هذا الكتاب ، إلا أن يكون في دراسته ملفقاً متعجلاً طياشاً " (١) .

وبناء على ذلك قام الأستاذ بسرد العلماء الذين ترجموا لأبي العلاء بحسب زمامهم عنه ، وتوصل إلى أن العلماء الذين عاصروا أبي العلاء المعري وترجموا له لم يذكروا قصة تعليمه مع أفهم أقرب العلماء عهداً به ، وهم أبو

(١) أباطيل وأسمار محمود شاكر : ص ٢٧.

منصور الشعالي ، والخطيب البغدادي ، والبخارزي في دمية القصر^(١) ، ولكنه تذوق محمود شاكر وشخصيته النقدية التي لا تعرف الاستقرار على قاعدة تفرز نتائج لا تطمئن إليها نفسه ، فلو ألزم الأستاذ نفسه بما ألزم به لويس عوض في ترجمة أبي العلاء المعري ، واعتمد على رواية المعاصرين للنبي كاعتماده على معاصرى أبي العلاء ، للزمه أن يقول بكل ما قاله أبو علي التنوخي عن نسب النبي ، ولكنه لم يفعل إجراء لمنهجه التذوقي الذي يجريه على كلام .

لقد كانت قضية نسب النبي شاغلة الدرس الأدبي والنقدى ولا زالت ، ولقد أثار غموضها ملء يتناولها تناولها من وجهة نقدية بروية خاصة ، قد يعتمد فيها على مفهوم نصوص النبي ويكون تأويلها دليلاً على نتاج ذلك التناول ، وقد يعتمد فيها على كلام العلماء في نسبة و تكون الموزانة بينها دليلاً على نتاج ذلك التناول ، وقد يخرج بين الأمرين ليكون المزج دليلاً على ذلك التناول ، وهذا تحديداً ما فعله محمود شاكر عند تناوله نسب النبي ، ومثال ذلك - مما نحن بصدده الحديث عنه هنا وأقصد روایات التنوخي - ما قام به الأستاذ رحمة الله بعد نقض رواية عيدان السقاء ، باستدعاء نص للنبي أفرزت قراءته الخاصة له ومنزجه بروايات التنوخي دليلاً آخر مادياً على نقض رواية عيدان السقاء ، وذلك بعد أن استدعى قول النبي :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِنْ ضَمَّ مجْلِسُنَا
يَا نَبِيَّ حَيْرُ مَنْ تَسْتَعِي بِهِ قَدْمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدِي
وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمْمُ^(٢)

واستنبط من هذه الآيات تلك الأنفة والتعالى اللتين كانتا تسيطران على نفسه وشخصيته ، فكيف مع هذه الأنفة و مع هذا الشعور العظيم بالتعالى أن يكون النبي سقاءً أو ابن سقاء ؟

وتساءل شاكر حينها لماذا لم ينجز أبو فراس الحمداني (عدو النبي) - وكان حاضراً حينما أنسد النبي قصيده هذه- النبي بأنه سقاء أو أن أباه سقاء حتى يخرج به من طور التعاظام والتعالى ؟ ولماذا اكتفى أبو فراس من شدة غيظه من هذه القصيدة بقوله للنبي : (ومن أنت يادعي كندة ؟)^(٣) ؟

(١) ينظر لصفحة ٢٧٦ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) ديوان النبي ، ص : ٣٣٢ .

(٣) هذا جزء من اعتراضات - إن صحت - اعترض بها أبو فراس الحمداني الشاعر على النبي أثناء إنشاده لهذه القصيدة في حضرة سيف الدولة ، تسببت في أن شج سيف الدولة رئيس النبي ، ينظر للصبح المنبي في حبشه النبي ، يوسف البديعي ، ج ١ ، ص : ٦٧-٧١ .

هذا والقطع في قضية نسب المتنبي مما يصعب القول به للغموض الذي اكتنفها ، ولكثره الحاسدين والناقمين لأبي الطيب سواء كانوا نقاداً أو شعراء أو رواة أو مؤرخين ، وعدم وجود دليل قاطع من شعر المتنبي نفسه يستطيع به الباحث في نسب المتنبي أن يجسم الأمر ، ولطه حسين في ذلك كلام جميل في كتابه (مع المتنبي) يحسن نقله في هذا الموضع ، يقول فيه :

"..تعود الناس أن يؤمنوا بأن المتنبي رجل عربي خالص النسب ، ينتهي من قبل أبيه إلى جعفي ومن قبل أمه إلى همدان ، وهما حيان من أحياط اليمن وجائز جداً أن يكون المتنبي عربياً ، وجائز أن يكون من عرب الجنوب ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو أن ديوانه لا يثبت هذا ولا يؤكدده ، بل لا يسجله ولا يذكره.... أكان المتنبي يعرف أباً ؟ قال المؤرخون نعم ، ولم يقل المتنبي شيئاً ، فأنت تقرأ ديوانه فلا تجد فيه ذكراً لهذا الرجل لم يمدحه المتنبي ، ولم يفخر به ، ولم يرثه المتنبي ، ولم يظهر الحزن عليه حين مات ^(١). وليس شاكر وحده من اشتغل حين قرأ المتنبي بقضية نسبه ، فهو مسبوق بكتاب أستاذه طه حسين (مع المتنبي) ، وهذا الكتاب هو الذي قضى على ما تبقى من ود بين شاكر وأستاذه طه حسين، حيث يدعى شاكر أن كتاب أستاذته ليس إلا سطواً ملفعاً على كتابه الذي صدر بعد كتاب شاكر بسنة تقريباً أو أقل ^(٢)، ورأى طه حسين في نسب المتنبي أن مولد المتنبي "كان شاداً وبأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ ، وتأثر به في سيرته كلها، ولم يستطع أن يلائم بين نفسه الشادة وبين البيئة الكوفية التي كان يراد له أن يعيش فيها" ^(٣). ومع أن آراء شاكر في كتابه المتنبي الذي جاء بعد كتاب أستاذته قد نال رضا واستحسان كثير من أهل العلم والأدباء والنقاد في زمانه وحتى زماننا هذا ، وحاز به على جائزة الملك فيصل العالمية ، فإن قراءته للمنتبي لم تكف أقلام الباحثين عن الخوض في نسب المتنبي حتى زماننا هذا .

هذا والحق أن يشغله الدارسون بما خلفه المتنبي من عظيم أرثه الأدبي الذي لا يزال ساماً عن غيره ، ولا أجد فائدة كبيرة تلقي بظلالها على الدرس الأدبي من تناول نسبة والخوض فيه ، فربما يقود هذا الأمر إلى فحش من القول ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) مع المتنبي ، لطه حسين ، ط بدون ، عام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بمصر ، ص : ١٢ .

(٢) ينظر لكتاب المتنبي ، لحمود شاكر ، ص : ٩٩ وما بعدها .

(٣) مع المتنبي لطه حسين ، ص : ٢٢ .

ومن نماذج نقض الآراء عند محمود شاكر رحمة الله نقضه لرأي زكي مبارك في كتابه *النشر الفني* ، حيث طرح زكي مبارك رأياً نقدياً عجيباً استدل عليه بإجماع أهل العلم الذين أزحوا للإسلام وأزحوا للغة العربية ، ويتلخص هذا الرأي في أن العرب لم يكن لهم وجود أدبي وسياسي قبل عصر النبوة المطهرة ، مستدلاً على ذلك بإجماع مؤرخي الإسلام ومؤرخي اللغة ، وأن الدين الإسلامي هو من بعثهم من مرقدمهم الثقافي والسياسي ، يقول زكي مبارك في ذلك :

" هل كان للعرب نثر فني في عصر الجاهلية؟ وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بغير الشعر والخطب والأمثال؟ لقد انفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرخو الإسلام على أن العرب لم يكن لهم وجود أدبي ولا سياسي قبل عصر النبوة ، وأن الإسلام هو الذي أحياهم بعد موته ، وتباهيهم بعد خموله ، وهذا الاتفاق يرجع إلى أصلين: فهو عند مؤرخي الإسلام من المسلمين تأييد لنزعه دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذي خلق العرب خلقاً ...؛ فنقلهم من الظلمات إلى النور ، ومن العدم إلى الوجود، وهو عند مؤرخي اللغة العربية وآدابها يرجع إلى الشك في كثير من النصوص الأدبية التي أثيرت عن العرب قبل الإسلام من خطب وأسجاع وأمثال" ^(١).

والحق أن نقل إجماع العلماء في قضية ما يُعدّ من أقوى الأدلة على صحة الاستنباط ، ومحاولة نقض الجمجم عليه قد تكون محاولة يائسة لا يكتب لها نجاح ولا فلاح ، فهو يضيف إلى الحكم المستنبط قوة ومنعة ، ويجعله في عداد المسلمات التي لا تقبل الشك ولا يحتملها الخطأ والريب ، ويضيف إلى المستنبط مرجعية علمية يتكم على عليها طلبة العلم حين ينقلون الإجماع عنه ، والإجماع عند العلماء هو اتفاقهم على رأي بحسب اختصاصهم ، فقد يكون الإجماع من علماء الشريعة ، وقد يكون من علماء العقيدة ، وقد يكون من علماء التاريخ ، وقد يكون من علماء التفسير ، وقد يكون من علماء اللغة ، وغير ذلك من العلوم التي لها ضوابط علمية ومادة يصح بها أن يكون الإجماع . ومعنى الإجماع كما هو معلوم أن جميع العلماء قد يديرون وحديثهم قد اجتمعوا في حكم واحد على قضية واحدة ، فإن خالفهم عالم واحد فلا يسمى إجماعاً كما هو معلوم عند كبار علماء أصول الفقه ، ولا بد أن يكون المخالف عالماً من العلماء المعتبرين حتى يكون رأيه مبدداً للإجماع ، يقول

(١) *النشر الفني في القرن الرابع* ، لزكي مبارك ط بدون ، عام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بمصر ، ص :

صاحب أصول الشاشي :

" والمعتبر في هذا الباب إجماع أهل الرأي والاجتهاد فلا يعتبر بقول العوام والمتكلم والمحدث الذي لا بصيرة له "(١).

وعليه فإن زكي مبارك في حكمه هذا قد نقل إجماع مؤرخي الإسلام ومؤرخي اللغة العربية منذ أن خط أول قلم في تاريخ الإسلام واللغة حتى زمانه ، وهو أمر جد خطير لا بد أن يحيط فيه ناقل الإجماع بكتب كثيرة وأقوال قد يقولها العلماء في كتبهم ، وقد ينقلها عنهم آخرون في تضاعيف كتب أخرى ، ولذلك رأى أحمد ابن حنبل (٢) عليه السلام على جلالة قدره في العلم أن يحتاط الرجل لنفسه عند نقل الإجماع ، فيبتعد عن قوله (أجمع أهل العلم) إلى ما يقاربه من عبارات لا تحمل معناها كلياً ، كقولهم (لم ينته إلي) ، و (لا أعلم أحداً قال بغير ذلك) قال الإمام ابن حنبل رحمه الله :

" من ادعى الإجماع فهو كذب ، لعل الناس قد اختلفوا ولكن يقول: لا يعلم الناس يختلفون ، أو لم يبلغه ذلك ، ولم ينته إليه ..." (٣).

هذا أول ما تقع عليه عين من يقرأ كلام زكي مبارك الذي نقل فيه هذا الإجماع الخطير ، أما عين محمود شاكر فقد وقعت على هذا الكلام كله ، ونقله كما هو في مقالته التي أسمتها باسم كتاب زكي مبارك كما هو ، وقد

(١) أصول الشاشي ، نظام الدين أبو علي أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي ، ط بدون ، عام بدون ، لدار الكتاب العربي بيروت ، ص ٢٩١.

(٢) الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، المروزي الأصل ، ولد عام ١٦٤ هـ ، كان إمام الحديثين ، صنف كتابه المسند ، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره ، وقيل: إنه كان يحفظ ألف ألف حديث ، وكان من أصحاب الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنهما - وخصوصه ، ولم يزل مصاحبه (١) إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر ، وقال في حقه: خرجت من بغداد وما خلقت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل ، ودعي إلى القول بخلق القرآن فضرب وحبس على امتناعه ، أخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل ، منهم محمد بن اسماعيل البخاري ، ومسلم بن الحجاج التيسابوري ، ولم يكن في آخر عصره مثله في العلم والورع ، توفي عام ٢٤١ هـ . ، ينظر في ترجمته وفيات الأعيان لابن خلkan ، ج ١ ، ص : ٦٤ ، وينظر لسير أعلام النبلاء ، ج ٩ ، ص : ١٤٢ .

(٣) الجامع لعلوم الإمام أحمد ، خالد الرباط ، سيد عزت ، ط ١ ، عام : ٢٠٠٩ م ، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث ، الفيوم - جمهورية مصر العربية ، ج ٥ ، ص : ١٠٠ .

استهل نقد هذا الكتاب معتذرًا للقارئ على عدم اتساع عمود مقال لنقد كتاب كامل ، ولكنه ذكر أنه سيختار من كتاب زكي مبارك مواضع يضمنها نقه في هذه المقالة ، وكان أول هذه المواضع التي وعد بنقدها أول خمسة أسطر من الفصل الأول من الكتاب ، ويبدو أن شاكراً تعمد أن يختار من صدر كتاب زكي مبارك كلامه الأنف الذكر فينقضه ، ولعل ما دفعه لذلك أن نقض أول قضية في الكتاب تغري باهتزاز ثقة القارئ بما فيه ؛ لأنه الأساس القوم الذي تبني عليه باقي الآراء ، وأنثر ذلك الاهتزاز سيكون صادماً لنفس وعقل المتلقى ؛ لأنه أول ما يطالعه في هذا الكتاب .

وأول ما بدأ به شاكراً في نقه مطالبة زكي مبارك بأن يحدد مفهوم النشر الفني الذي سمى به كتابه هذا ، فليس في كتاب زكي مبارك ما يحدّ هذا المفهوم وما يستوفي الدلالة عليه ، وقد ذكر شاكراً بأنه أعياناً نفسه وهو يحاول الاعتذار لزكي مبارك في إيجاد مفهوم للنشر الفني إلا أن ذلك لم يكتب له النجاح ، وادعاء شاكراً لهذا الإعفاء بإغفال منه في تعمية دلالة النشر الفني الذي سمى به زكي مبارك كتابه ، ومبالغة منه مأمها وبغيتها إنكار وجود هذا التركيب (النشر الفني) ، ويبدو جلياً أن شاكراً يقصد من ذلك استهجان وصف النشر بالفن ، وكأنه يقول بأن كلمة النشر وحدها كافية في الدلالة على النشر قسيم الأدب في الشعر العربي ، فلا حاجة عنده لوصفه بالفن .

وغير بعيد أن يكون زكي مبارك أراد بالنشر الفني ما يريد الأدباء والقاد في العصر الحديث ، فقد تواضع بعض نقاد العصر الحديث وأدبائه على وصف النشر بالفن بـ " النشر الذي تتجاوز به لغة التخاطب العادية إلى حيث يتتوفر فيه شرطان أساسيان هما: التفكير من جهة، والجمال من جهة ثانية وهذا النوع الأخير يعتبر أدباً ، ولا يشك أحد في أنه جزء منه " ^(١) .

وبذلك يكون النشر الفني مقابلاً للنشر غير الفني ، فالنشر الفني قوامه التعبير الأدبي الجمالي الذي لا يكون شرعاً إلا لأنه غير موزون ولا مقفى ، أما النشر غير الفني فلا تصح مقابنته بالنشر الفني إلا إذا قصد منه ذلك النوع من النشر الذي يستخدمه فناني الناس في تخاطبهم اليومي ، بلغة تخلو من الأدبانية والجمال ، ولكن فحسب نثر تواصلي وانفعال تعابيري ، وحينما يصف النقاد النشر بالفن فهم يريدون إقصاء لغة التخاطب العادية من هذا

(١) المدخل في فن التحرير الصحفي ، لعبد اللطيف محمود حمزة ط٥ ، عام بدون ، للهيئة العامة المصرية للكتاب ، ص:

النشر ، فهي خارجة عن حدود الدراسة الأدبية التي تدرس النشر على أنه قسيم للشعر ، والحق أن وصف النشر بالفني لم يكن إلا نتيجة استقراء للنشر العربي على مر العصور ، ذلك النشر الذي استطاع أن يظل خالداً مع وجود الشعر الشاغل الأول لكل من يولي وجهه شطر الأدب العربي ، فلم يصمد من النشر إلا ما تحقق فيه الجمال والأدبية كالخطب والرسائل والأمثال ونحوها ، أما النشر غير الفني الخالي من الأدبية والجمالية فلم يكتب له بقاء ولا خلود ، ولشوفي ضيف كلام في هذا يحسن نقله في هذا الموضوع وهو قوله :

"النشر هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقواف ، وهو على ضربين: أما الضرب الأول فهو النثر العادي يقال في لغة التخاطب ، وليس لهذا الضرب قيمة أدبية وأما الضرب الثاني، فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاهة ، وهذا الضرب هو الذي يعني النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه، وبيان ما مر به من أحداث وأطوار ، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص ، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين ، هما الخطابة والكتابة الفنية -ويسمىها بعض الباحثين باسم النثر الفني- وهي تشمل القصص المكتوب، كما تشمل الرسائل الأدبية الخبرية ، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة"^(١).

وعليه فإن وصف زكي مبارك للنشر بالفني وصف مبرر ، له اعتبار وله دوافع وله دلالة يقوم بها وينهض عليها ، والحق أنها في حاجة ملحة اليوم لأن نصف النشر بالفني ؛ لأن كثيراً من النشر الذي نجده اليوم وخصوصاً مما هو في وسائل إعلامنا المقرؤة والمسموعة لا يرقى لأن يكون أدبياً ، بل هو إلى لغة التخاطب العادي أقرب وألصق.

ثم ينتقل شاكر من مفهوم النثر الفني إلى أول سؤال طرحته زكي مبارك في مقطوعته السابقة (موطن نقض شاكر) ، وهو قوله (هل كان للعرب نثر فني ؟).

و قبل أن يُناقِش نقض شاكر لإجابة هذا التساؤل ، لابد من معرفة إجابة زكي مبارك نفسها موطن نقض شاكر وتحفظه ، فزكي مبارك يرى أن للعرب نثراً فانياً قبل الإسلام يتناسب مع صفاء أذهانهم وسلامة طبائعهم ، ولكن لا وجود لهذا النوع من النثر بين يدينا لأنَّه ضاءُ ، لأمية العرب ، ولقلة تدوينها ، وابتعاد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام ودوّنها القرآن الكريم .

(١) الفن ومذاهب في النثر العربي ، لشوفي ضيف ، ط١٣ ، دار المعارف بمصر ، ص : ١٥ .

ويرى زكي مبارك أن ما نقله الرواة من النصوص التثوية ليس بكاف لتحديد أساليب الشر الجاهلي ، وبالتالي فهو غير قادر على تحديد مدرسة ثورية وغير قادر أيضاً على تحديد مذهب اجتماعي ، وبمقدوره أن يكون معيناً على تحديد بعض أذواقهم الوضعية ، ومذاهبهم السياسية ، واتجاهاتهم الدينية ، هذه باختصار إجابة زكي مبارك لسؤاله (هل كان للعرب ثر فني ؟) ، ذلك التساؤل الذي طرحته في صدر كتابه (الثر الفني) الذي كان رسالته للحصول على درجة الدكتوراة في الأدب من جامعة السريون .

يد أن إجابات زكي مبارك لم تكن مقنعة غایة الإقناع محمود شاكر ، فخالفه في رأي ووافقه في آخر ، وبدأ بما خالفه فيه ، حيث يرى شاكر أن العرب أميون لا يقرأون ولا يكتبون إلا قليلاً من أهل المدن كمكة ، والمدينة المنورة ، وأطراف اليمن ، ومشارف الشام ، ونواحي الحيرة ، ويり شاكر أن من كان يعرف الكتابة من العرب الجاهليين فإن تأثيره العلمي سيظل محدوداً ؛ لأن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم عهد بالقراءة ولا بالكتابة ، ولو افترض أن الكتاب القلة كان لهم جهد كبير في التأليف والكتابة ، فإن ذلك الجهد أيضاً لن يكون مؤثراً تأثيراً كبيراً ؛ لأنهم " يؤلفون من لا يقرأ ولا يكتب " ^(١) ، ولكن لا يعني القول بذلك إنكار أن يكون للعرب نشر يجري على ألسنتهم كلاماً كالكلام المرسل الذي يجري على ألسنة غيرهم ، وله قليل من المكتبات المهمة والتي كان لها من الشهرة والذيع ما جعل الشعراء أنفسهم يروونها في أشعارهم ، كالعهود ، والرسائل العظيمة الخطر ، وقد استدل شاكر على ذلك بما كتبه لقسطنطين بن يعمر الإيادي ^(٢) ، الذي كتب إلى قومه رسالة بالحيرة يحذرهم كسرى ، الذي أجمع على غزو قبيلته إيمان ، فأرسل إليهم لقسطنطين بن يعمر – وكان كاتباً بديوان كسرى قصيده المشهورة : يا ذار عمّرة مِنْ مُخْتَلِّها الجرعا ، والتي منها قول لقسطنطين :

(١) جمهة مقالات محمود شاكر ، لعادل سليمان ، ج ٢ ، ص ٦٨٣ .

(٢) لقسطنطين بن يعمر بن خارجة الإيادي ، شاعر جاهلي فحل ، من أهل الحيرة. كان يحسن الفارسية. واتصل بكسرى " سابور " ذي الأكتاف ، فكان من كتابه والمطلعين على أسرار دولته ، ومن مقدمي مترجميه ، وهو صاحب القصيدة التي مطلعها :

يَا ذَارَ عَمْرَةَ مِنْ مُخْتَلِّها الجرعا

هَاجَتِ لِي الْهَمَّ وَالْأَخْزَانَ وَالْوَجْعَا

وهي من غير الشعر، بعث بها إلى قومه " بني إيمان " ينذرهم بأن كسرى وجه جيشاً لغزوهم ، وسقطت القصيدة في يد أوصلتها إلى كسرى، فسخط عليه، وقطع لسانه، ثم قتلها ، ينظر لترجمته الأعلام للزركلي ، ج ٥، ص : ٢٤٤ ، وينظر لموسوعة شعراء العصر الجاهلي ، عبد عون الروضان ، ص : ٢٨١ .

هَذَا كِتَابِيْ إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ

لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَمَنْ سَعَى^(١)

وقد قصد شاكر إلى هذا البيت تحديداً لورود كلمة (كتابي) فيه لتكون دليلاً واضحاً للحججة على أن للعرب الجاهليين كتاباً ومكاتبات تشمل على رسائل عظيمة الخطر كرسالة لقيط بن يعمر هذه . واستدل شاكر أيضاً على أن تلك الرسائل لم تكون فعلاً يمارس فحسب ، بل وصلت من الأهمية والذيع ما جعل الشعراً يذكرونها في أشعارهم ، كقول الحارث بن حلزة اليشكري^(٢) :

وَادْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قُدِّمَ
حَدَّرَ الْجُورِ وَالتَّعَدِي وَهَلْ يَنْفَضُ
مَ فِيهِ الْعَهْوُدُ وَالْكُفَّالَاءُ
فُضُّلَ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءِ^(٣)

وعليه فإن شاكرًا يرى أنه ليس بإمكاننا مطلقاً أن ننكر أن العرب كانت تتراسل وتتكلّم في بعض أحابينهم ، وكل ما يستطيع نكرانه أنهم كانوا يصنفون الكتب ويؤلفون الرسائل في الأغراض الكبيرة ، هذه الأدلة النقلية التي نقض بها شاكر إجابة زكي مبارك .

و قبل أن يختتم شاكر نقضه واستبطنه واستدلاله في هذه القضية برأي يرى فيه : أن ليس من المعقول أن يسأل زكي مبارك سؤاله (هل كان للعرب نشر فني ؟) ، لأنه لا يعقل أيضاً أن يكون في الجزيرة العربية كتاب تفرغوا للكتابة حتى يُسأل هذا السؤال ، وسبب ذلك عند شاكر أن كلام العرب في محاورتهم ومحالسهم وخطبهم كان هو الكلام المتخذ في الرسائل والعقود وغير ذلك ، إذ إن هذه اللغة العربية ، التي بين أيدينا والتي نزل بها القرآن والتي كان يتكلّم بها الرسول ﷺ وصحابته ؑ ، كانت إلى القرن الثاني والثالث من الهجرة تؤخذ من العرب البداية^(٤) .

ونوه الأستاذ محمود شاكر رحمه الله إلى أمر رآه مهماً في هذا الصدد ، حيث أشار إلى أن النبي ﷺ نفسه كان

(١) القصيدة في ديوان لقيط بن يعمر ، تحقيق عبد المعيد خان ، ط بدون ، عام ١٩٧١ م ، دار الأمانة بيروت ، ص

.٣٦

(٢) الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائي: شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق ، وهو أحد أصحاب المعلقات. كان أبواق فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك، بالحيرة، ومطلعها: (آذتنا بينها أسماء) جمع بها كثيراً من أخبار العرب وواقعهم. وفي الأمثال (أفخر من الحارث بن حلزة) إشارة إلى إكثاره من الفخر في معلقته هذه ، ينظر في ترجمته للأعلام للزركلي ، ج ٢ ، ص : ١٥٤ ، وينظر لمجموعة شعراً العصر الجاهلي ، بعد عن الروضان ، ص : ٧٩ .

(٣) ديوان الحارث بن حلزة، تحقيق أميل يعقوب ، ط ١، عام ١٩٩١ م ، لدار الكتاب العربي بيروت، ص : ٣٦ .

(٤) جهرة مقالات محمود شاكر ، لعادل سليمان ، ج ٢ ، ص : ٦٨٤ .

أمياً لا يقرأ ولا يكتب ومع أميته فكان ﷺ أفصح العرب ، وكان من بين أصحابه من يجيد الكتابة كعمر وعثمان وعلى عهده أجمعين ، ويرى الأستاذ أن من يتذرع ذلك بجد أن النشر لم يكن مما تعنتي له العرب بالكتابة والتدوين ، ولو كانت كذلك لدون الصحابة الكتاب ﷺ بعضاً من نثر النبي ﷺ ، ولكنهم عاملوه بما يعامل به الكلام المرسل الذي يجري على السجية والطبع ، بخلاف الشعر الذي ميزه وعيشه عن النثر قافيته وزنه .

أما الإجماع الذي نقله زكي مبارك والذي نقل فيه اتفاق مؤرخي الإسلام واللغة على أن العرب لم يكن لهم وجود سياسي وأدبي ، فقد نقضه شاكر نقضاً مباشراً ورده ردًّا كلياً وأتى عليه من فهم زكي مبارك له ، ورأى شاكر أن أحداً من العلماء لم يقل بذلك مطلقاً ، وإنما كانوا يعنون بالجهل ما يتصل بأمر التوحيد والعقيدة ، حيث نقلهم التوحيد واستخرجتهم رسالة النبي ﷺ وبعثته من الظلمات إلى النور ، أما على مستوى العلم والمعرفة وخصوصاً ما يتعلق باللسان واللغة ، فإن العرب الجاهليين أنفسهم قد استشهد بشعرهم ونثرهم في تفسير القرآن الكريم ، أما الوجود السياسي فإن العلماء كانوا يقصدون عند حديثهم عن العرب الجاهليين أنهم لم يكونوا أمة متآزرة تحت حكم واحد ورابة واحدة وسيادة متصلة ، حتى جاء الإسلام فجمعهم تحت لوائه .

والحق أن هذه القضية لم تكن حديقة النشأة عند زكي مبارك ، وليس نقض شاكر لها بحديث النشأة أيضاً، فهذه القضية قديمة قدم الجاحظ أبي عثمان ، الذي دائمًا ما كان يرى أن العرب أمة أمية قليلة التدوين تعتمد على البديهة والارتجال ، يقول الجاحظ :

" وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة ، وفي الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم ، وإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومساعدة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخريهم . وكل شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكافحة ، ولا إجالة فكر ولا استعانته ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام "(١)." .

وهذه القضية تزداد تعقيداً كلما تم ربطها بحالة العرب القدامى العلمية والمعرفية ، فمما يدور على ألسنة بعض العلماء أن العرب القدامى لم يكونوا أهل معارف وعلوم ولا حتى تفكير ، وإنما كان ما يميل حتى من حياتهم إلى العلمية فإنه ذو طابع فطري لا يساعد كثيراً إلى إنشاء نثر فني بمعناه المخصوص ، وذات هذا الأمر هو ما

(١) البيان والتبيين للجاحظ ، ج ٣ ، ص: ٢٨ .

قصده زكي مبارك حينما ذكر في كلامه السابق الآنف الذكر أن للعرب نثراً فنياً قبل الإسلام يتنااسب مع صفاء أذهانهم وسلامة طبائعهم .

وينصرف الذهن عند قراءة كلام زكي مبارك إلى محاولة تجھیل العرب وتعريتهم حتى من أقل طرق التفكير والمعرفة ، ذلك التجھیل الذي تنبه له وباقتنان ناصر الدين الأسد في كتابه النفيس مصادر الشعر الجاهلي ، وهو تجھیل لم يكتف بعرب ما قبل ظھور الإسلام ، بل تسرب أثره ليتمتد إلى الصحابة أنفسهم رضوان الله عليهم ، فابن قتيبة الدينوري يرى إمعاناً منه في ذلك تعھیم الأممية المعرفية عن الصحابة رضوان الله عليهم ، ويرى أنه لم يكن يكتب منهم إلا الواحد والاثنان ، وذلك بعد أن ذكر ابن قتيبة حديثين عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتابة ، أولهما ينهى عن كتابة سنته وأن من كتبها فلا بد أن يمحوها ، وثانيةها حث النبي صلى الله عليه وسلم على قيد العلم بالكتابة ، فعقب ابن قتيبة على سماح النبي ﷺ الكتابة بقوله :

"أن يكون خص بهذا عبد الله بن عمرو، لأنه كان قارئاً للكتب المتقدمة، ويكتب بالسريانية والعربية وكان غيره من الصحابة أميين، لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يتقن، ولم يصب التهجي، فلما خشي عليهم الغلط فيما يكتبون نحاشم، ولما أمن على عبد الله بن عمرو بذلك، أذن له^(١)"

وقد تناول ناصر الدين الأسد كل ما يتعلق بمحاولة تجھیل العرب القدامى في جوانبهم العلمية والمعرفية والتفكيرية ، بما لا يدع حاجة لتكراره في هذا البحث^(٢)، ويکفي أن يقال في ذلك أن العرب ما قبل البعثة النبوية المطھرة لم تكن خالية من الكتاب وبعض من عندهم علم ومعرفة فحسب ، بل كان العرب يقدرون أهل العلم بالكتاب وينزلون لهم حق منزلتهم ، وتقدير أهل الكتابة وخاصته هو المرحلة الثانية التي لا تكون إلا بعد وجود الكتابة نفسها ، وبيان ذلك أن العرب القدامى كانت تطلق اسم (الكامل) على الشاعر الذي يجيد الكتابة إلى جانب إجادته الشعر ، وأظنهم لم يصفوه بالكمال إلا لتكامل مهاراته العقلية والارتجالية الشعرية ، بمهارة التدوين والكتابة العملية ، فينتفع عنهمما معاً ما يصفونه بالكمال ، يقول صاحب أخبار المدينة :

"كان يقال لرافع بن مالك (الكامل) لأن أهل الجahليّة كانوا يقولون ملن كان كاتباً وشاعراً (الكامل)^(٣)."

(١) تأویل مختلف الحديث ، لابن قتيبة الدينوري ، ط٢ ، عام ١٩٩٩ م ، مؤسسة الإشراق ، ص : ٤١٢ .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ، لناصر الدين الأسد ، ط٧ ، عام ١٩٨٨ م ، لدار المعارف بمصر ، ص ٢٣ وما بعدها.

(٣) أخبار المدينة ، لحمد بن الحسن بن زبالة ، تحقيق ، صلاح سلام ، ط١ ، عام ٢٠٠٣ م ، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، ص ١٧٩:

وعند مناقشة آراء زكي مبارك بإزاء نقض محمود شاكر يتبين أن الإجماع الذي ذكره زكي مبارك إجماع غير دقيق، فليس في كتب التاريخ التي نقل زكي إجماعها ما يطمس الهوية العربية الأدبية والسياسية ، فالكتاب مثلاً كواحد من ملامح الوجود الأدبي الذي نسقه زكي مبارك كلياً بإجماع غير دقيق ، ذكر بعض المؤرخين أنها كانت منتشرة بين العرب ، وأن بعضاً من العرب كانوا كتاباً ، يقول صاحب فتوح البلدان :

" كان الكتاب بالعربية في الأوس والخرج قليلاً ، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان تعلمهم الصبيان بالمدينة في الزمن الأول فجاء الإسلام وفي الأوس والخرج عدة يكتبون وهم سعد بن عبادة بن دليم والمنذر بن عمرو وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ، فكان يكتب العربية والعبرانية ورافع بن مالك وأسيد بن حضير ومن بن عدي البلوي حليف الأنصار وبشير بن سعد وسعد بن الربيع وأوس بن خولي وعبد الله بن أبي المنافق "^(١)

وإن ذكرت بعضها شيئاً قد يتوجه أحد أن فيه إنكار للوجود الأدبي عند العرب ، فإن واقع الحياة الاجتماعية للعرب القدامى خير من يقدح في ذلك أسوة بباقي العالم الاجتماعية البدائية ، فمن الصواب والاحتياط في ذلك التوازن بين الغلو والإنكار ، فلا ينكر أن للعرب معرفة بالكتابة ، ولا يقال بأنها منتشرة بينهم كانتشارها بين الأمم التي عاصرهم ، ومن الجيد في هذا الباب استدعاء قول ابن فارس :

" فأما من حُكِي عنه من الأعراب، الَّذِينَ لَمْ يعْرُفُوا الْهَمْزَ وَالْجَرَّ وَالْكَافَ وَالدَّالِ، فَإِنَّا لَمْ نَرَعْمَ أَنَّ الْعَرَبَ كُلُّهَا مَدْرَأً وَوَبِرًا قَدْ عَرَفُوا الْكِتَابَ كُلُّهَا وَالْمَحْرُوفَ أَجْمَعُهَا، وَمَا الْعَرَبُ فِي قَدِيمِ الرِّمَانِ إِلَّا كَنْحَنُ الْيَوْمَ: فَمَا كُلُّهُ يَعْرُفُ الْكِتَابَ وَالْخُطُّ وَالْقِرَاءَةَ، وَأَبُو حَيَّةَ كَانَ أَمْسٌ؛ وَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ بِالزَّمْنِ الْأَطْوَلِ مِنْ يَعْرُفُ الْكِتَابَ وَيَخْطُّ وَيَقْرَأُ، وَكَانَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ سَلَامٍ- كَاتِبُونَ مِنْهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيُّ صَلَواتُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ وَزَيْدٌ وَغَيْرُهُمْ."^(٢)

أما الوجود السياسي فقد أحسن الأستاذ شاكر رحمه الله حينما أتى على زكي مبارك من فهمه ، فلا يعني أن تنافر وتناحر العرب فيما بينهم قبل الإسلام أن تطمس هويتهم السياسية ، فالعرب كان فيهم ملوك وملالك ،

(١) فتوح البلدان ، أحمد بن يحيى البلاذري ، ط بدون ، عام ١٩٨٨ م ، لدار ومكتبة الملال بيروت ، ص : ٤٥٥ .

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، لأحمد بن فارس ، ط ١ ، عام ١٩٩٧ م ، مؤسسة

محمد علي بيضون للطباعة والنشر ، ص ١٦ .

" ولقد كان لهؤلاء العرب ملوك فخام ودول عظام، اشتهر من دولهم ثلاث: دولة التباعة ودولة المنادرة ودولة الغساسنة ، والدولة الأولى أسست في الألف الثاني قبل الميلاد ، فإن المؤرخين يذكرون منها ملوكاً كثيرين قبل بلقيس التي كانت في زمن سليمان عليه السلام بن داود عليه السلام ، وهي مؤسسة على أنقاض دولة قحطان التي كانت قبل الميلاد بنحو ألفي سنة ، فهي أقدمهن عهداً وأكثرهن حضارة وأبقاهن أثراً وأوسعهن ملكاً^(١)"

فالغساسنة ملوك الشام، " وهم بنو عمرو بن مازن بن الأزد^(٢) ، والمنادرة ملوك الحيرة وهم بنو عدي بن نصر بن ربيعة من ولد خم بن عدي بن عمرو بن سبأ^(٣) ، ولا يعني القول بذلك إثبات أن العرب كانت تعيش رقىً سياسياً ووحدة اجتماعية وقبلية ، فالعرب قبل الإسلام كانت تشنن من التنافر والانقسام لا شك في ذلك ولا ريب ، وكان الحكم القبلي يسيطر على العديد من أجزائها ، ولكن وجود ذلك لا ينفي مطلقاً أن للعرب في باقي الأجزاء وجود سياسي ومالي وملوك .

أما قول زكي مبارك بوجود نثر فني للعرب قبل الإسلام يتناسب مع صفاء أذهانهم وسلامة طبائعهم ، ولكن لا وجود لهذا النوع من النثر بين يدينا ؛ لأنه ضاع لأمية العرب ولقلة تدوينها ، وابتعاد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام دونها القرآن الكريم ، فقد أحسن الأستاذ شاكر أيضاً رحمة الله حين أثبت أن للعرب كتاباً يهتمون بالتدوين والكتابة في مجالات لا تصل إلى حد التأليف والتصنيف ، وأن النثر الذي وصفه زكي مبارك بالفني لم يكن مخلاً لاهتمامهم وعنايتهم تدويناً وحفظاً ، لأنه يجري في يومهم وليلتهم مجرى الحديث المرسل والكلام التواصلي الذي يدور على ألسنة الناس بدهاء ، ومع ذلك فقد وصل إلينا العديد من النماذج المشرقة للنشر في العصر الجاهلي ، كالخطب والأمثال والقصص والأسجاع وغيرها ، واشتهر من الأدباء التشرين في العصر الجاهلي رجال عرفوا بالنشر ، كقس بن ساعدة الإيادي ، وأكثم بن صيفي ، وعامر بن الظرب

(١) تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، لمبارك بن محمد الميلي الجزائري ، تقديم: محمد الميلي ، ط بدون ، عام ١٩٨٦ م ، للمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٢) المختصر في أخبار البشر ، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه ، ط ١ ، عام بدون ، للمطبعة الحسينية المصرية ، ج ١ ، ص ١٠١ .

(٣) السابق ، ج ١ ، ص ٧٠ .

وغيرهم ، بل إن بعض من نسمتهم بالجاهليين قد تجاوز في محيط التدوين النثر الفني إلى الثقافة المعرفية والحكم والأمثال القديمة ، ومن ذلك ما رواه أبو بكر البهقي في كتابه دلائل النبوة أن سويد بن الصامت^(١) قدم على النبي ﷺ " حاجًا أو مُعتمرًا ، وكان سُويْدٌ يُسَمِّيهُ قَوْمُهُ الْكَامِلُ؛ لِسِنِّهِ وَجَلَدِهِ وَشِعْرِهِ قَالَ: فَتَصَدَّى لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَعَاهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ سُويْدٌ: فَلَعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلُ الَّذِي مَعِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟» فَقَالَ مَحْمَدٌ لُّقْمَانَ، يَعْنِي حِكْمَةً لُّقْمَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْرِضْهَا عَلَيَّ» ، فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: " إِنَّ هَذَا الْكَلَامُ حَسَنٌ، وَالَّذِي مَعِي أَفْضَلُ مِنْهُ: قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ هُوَ هُدًى وَنُورٌ "، فَتَلَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ، وَدَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَقَوْلُ حَسَنٌ... " ^(٢)

فقد يصح الاستدلال بهذا الخبر على أن العرب كانت تستخدم الكتابة لما هو أبعد من عهودهم السياسية والقبلية ومراسلامهم ، فوجود مثل هذه المجلة بين يدي سويد بن الصامت دليل على أن العرب كانت تتجاوز محيط التدوين إلى الثقافة الدينية والحكم والأمثال القديمة المتوارثة ، بل ويتجاوز ذلك كله تلك المدارس التي كان يُعَلَّم فيها ما قبل الإسلام " معيلون يعلمون القراءة والكتابة وضروباً من العلم ، منها : أخبار الأولين وقصص التاريخ ؛ وقامت في البيمات الجاهلية المتحضرة مثل: مكة والمدينة والطائف والخيبر والأنبار وغيرها مدارس يتعلم فيها الصبيان الكتابة العربية "^(٣) ، ومن ذلك ما رواه الإمام الطبرى عن ابن عباس رض في تفسير قوله تعالى :

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ^(٤)

(١) سويد بن الصامت الأوسى ، لقى النبي ﷺ بسوق ذي الحجاز من مكة في حجة حجها سويد على ما كانوا يبحجون عليه في الجاهلية، وذلك في أول مبعث النبي ﷺ ودعاه إلى الله عز وجل، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فلم يرد عليه سويد شيئاً، ويزعم قومه أنه مات مسلماً وهو شيخ كبير، قتلته الخزرج في وقعة كانت بين الأوس والخزرج، وكان شاعراً محسناً كثيراً الحكم في شعره، وكان قومه يدعونه الكامل لحكمة شعره وشرفه فيهم، وقد شُكَّ في إسلامه ، ينظر في ترجمته للاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ليوسف بن عاصم النمري ، ج ٢ ، ص ٦٧٧ ،

(٢) دلائل النبوة ، لأبي بكر البهقي ، تحقيق عبد المعطي قلعيجي ، ط ١ ، عام ١٩٨٨ م ، لدار الكتب العلمية بيروت ، ج ٢ ، ص ٤١٩ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ، لناصر الدين الأسد ، ص ٥٢ .

(٤) سورة القلم ، الآية الكريمة رقم (١٥).

" كان النضر بن الحارث بن كلدة بن علقة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي من شياطين قريش ، وكان يؤذى رسول الله ﷺ ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، تعلم بها أحاديث ملوك فارس ، وأحاديث رستم وأسفنديار، فكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً ذكر بالله ، وحدث قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم يقول: أنا والله يا معاشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلّمّوا ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار، ثم يقول: ما مُحَمَّد أحسن حديثاً مني قال: فأنزل الله تبارك وتعالى في النضر ثانية آيات من القرآن قوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(١)

وليس الاستشهاد بمثل هذه الأخبار لإثبات أن العرب ما قبل الإسلام كانت تدون نثرها الفنية تدويناً كبيراً ، فلو كان الأمر كذلك لانتهت القضية بوجود نثر فني جاهلي يستطيع العودة إليه كمادة علمية صالحة لاستنباط خصائص النثر الجاهلي وأنمطه ، ولكن الاستشهاد بمثل هذه الأخبار لبيان أن العرب كانت تعرف الكتابة والتدوين في خارج محيط المكابib والمراسلات السياسية ومكابib العهود والمواثيق ، أما النثر الفني فلا يستطيع الاحتکام إلا لما وصل بين يدينا منه من الخطب والأسجاع والحكم والأمثال والأقوال التالية المؤثرة عن عرب ما قبل الإسلام مما هو مثبت بين تضاعيف كتب أهل العلم .

(١) جامع البيان ، للإمام الطبرى ، ج ١٩ ، ص : ٢٣٨ .

الخاتمة

وبعد أن حاول هذا البحث مقاربة مفاهيم الاستنباط بين الأصوليين والبلغيين ، وسبر إجراءات المنهج الاستنباطي الحديث وضوابطه ، ورصد مصادر المعرفة عند محمود شاكر ، وتعداد أهم طرائقه وأنمائه وموافقه الاستنباطية ، ومناقشة ذلك كله وفق نماذج منتقاة خضعت لميزان النقد والتحليل ، تشكلت إثر ذلك كله بعض من النتائج التي أوجزها فيما يلي :

١ - اشتراك الأصوليين والبلغيين حين يطبقون المنهج الاستنباطي التراخي في الاعتماد على مدونة بحث واحدة وهي القرآن الكريم ، باعتباره مصدراً تشريعياً عند الأصوليين ، ومدونة للكشف عن أسرار الإعجاز والنمط العالي من البيان عند البلغيين ، الأمر الذي وحد الهدف المعرفي عند الفريقين في البحث القرآني ، والمتمثل في استخلاص الأحكام ، وقد تسبب عمق البحث الأصولي في نيل ثقة اللغويين عند تناولهم القرآن الكريم ، بحيث شكل الرأي الأصولي مرجعاً لأهل اللغة .

٢ - لم تكن علوم العربية سبيلاً للبلغيين وحدهم وأداتهم الرئيسة في الاستنباط ، فقد كانت علوم اللغة العربية بجميع فروعها هي القنطرة التي سار عليها الأصوليون في تأصيل القواعد الفقهية واستنباط الأحكام الشرعية ، وقد جاءت تبعاً لذلك بعض مسميات مباحث علم الأصول مطابقة لبعض المصطلحات ومباحث علوم اللغة العربية الصرف بفروعها ، ولم يقف الأصوليون على مسافة واحدة عند بعض المسائل اللغوية الهامة ، بل اختلفوا فيما بينهم إذ لم يرتضوا أن يسلموا أنفسهم لتقليد علمائهم المؤسسين لعلم الأصول ، أو حتى تقليد أهل الاختصاص باللغة ، فقد كانت بعضهم آراء لغوية خاصة تعتمد على الفهم والقراءة والدرية اللغوية والاستنباطية.

٣ - مما يقارب مفاهيم الاستنباط بين الأصوليين والبلغيين اعتماد الفريقين على المنهج الاستنباطي بمفهومه القديم المرتبط بالاستخراج والفهم والإدراك والاستنتاج ، واعتمادهم على الاستقراء التام والناقص كخطوة أولى من خطوات البحث الأصولي والبحث البلاغي ، واعتماد الفريقين على الجانب الاستدلالي ، وتأثير هذا الجانب يبدو جلياً واضحاً في الأسلوب الحجاجي عند بعض العلماء .

- ٤- ارتباط المنهج الاستباطي الحديث بالfilosof الفرنسي ديكارت ، مع وجود أصول لهذا المنهج في التراث العربي ابتداء من الجاحظ وانتهاء بحامد الغزالي .
- ٥- حصر المنهج الاستباطي في الشك إجراء مخالف لعتبات المنهج الاستباطي ، فالشك هو القاعدة الأولى من عتبات المنهج الاستباطي ، وهو الأمر الذي سوّغ للبعض تسمية منهج ديكارت بمنهج الشك وهو وسم خاطئ ، لا يتفق مع إجراءات المنهج وضوابطه .
- ٦- تشابه منهج ديكارت الاستباطي ومنهج محمود شاكر التذوقى في الإجراءات والضوابط والمعالجة للقضايا العلمية ، واستدعاء المنهجين لمناهج علمية مستقلة كأدوات يعالج بها الاستباط والتذوق ، كالمنهج التاريجي والنفسي يزيد من التقارب والتشابه بين المنهجين .
- ٧- تطبيق محمود شاكر لمفاصل المنهج الاستباطي تحت مسمى المنهج التذوقى في كتابيه (المتنبي) و(نمط صعب ونمط مخيف) .
- ٨- صقل الدرية عند محمود شاكر مرحلة ثانية بعد فطرة الذوق ، وقد استطاع تنمية الدرية لديه وصقلها بوضعها تحت ضوابط أخلاقية ودينية ومنهجية وعرقية .
- ٩- من أهم المؤثرات على ثقافة محمود شاكر وقدرته الاستباطية إجادته منذ طفولته ونشأته الأولى لبعض من اللغات الأجنبية كاللغة الإنجليزية والألمانية ، وولعه الشديد منذ طفولته بعلم الرياضيات ؛ مما أسهم في تكوين منهجه التذوقى ، والذي غالباً ما يصل به إلى نتائج ثابتة وصحيبة كنتائج مسائل الرياضيات .
- ١٠- طه حسين هو الدافع الرئيس لثقافة محمود شاكر ودربيته ، وهو السبب الأبرز في تكوين منهجه النبدي .
- ١١- الانطباع الشخصي عن الناقد الواحد يختلف عند محمود شاكر نتيجة لتغير الموقف النقدية ، ولا يستجيب غالباً إلا لعنصري الموافقة والمخالفة .

- ١٢ - الأسلوب الاستباطي عند محمود شاكر يتسم بالرصانة والنمط العالي من الإبانة والإقناع ، ويأخذ طابع الحدة والتوتر والهجوم العنيف عندما يتعلق الأمر بالسطو على المجهود العلمية ، أو محاولة تغريب الثقافة والإبداع العربين .
- ١٣ - النزعة العرقية والاعتزاز المتتصاعد بالهوية العربية يقف وراء كثير من الأحكام التي أطلقها شاكر على كثير من المستشرقين ومن تابعهم من علماء العرب المعاصرين .
- ١٤ - استطاع محمود شاكر أن يستفيد من علم مصطلح الحديث في مجالات الدرس الأدبي والنقد ، وأن يجعله واحداً من أدواته الرئيسية في معالجة رواية الأدب ورواته على حد سواء .
- ١٥ - تطبيق محمود شاكر للمنهج التنويقى أفضى به إلى مخالفة بعض قواعد وأصول منهج تحقيق المخطوطات العلمية ، ومنها جرأته على النص ، وقد تسبب ذلك في استبداله مصطلح التحقيق بالقراءة والتعليق مصدراً بها بعض تحقيقاته للمخطوطات .
- ١٦ - التنشئة الاجتماعية والاستعداد الذاتي أسهما في تمكن محمود شاكر من الجانب اللغوي ، وترقي إحساسه بالنغم والجرس .
- ١٧ - عدم ثقة محمود شاكر في شرح اللغويين لبعض من دواوين الشعر أفضى به إلى بعض من الأحكام النقدية غير الدقيقة ، والتي كان منطلقها فهمه الخاص للغة واستخداماتها في سياقها الشعري .
- ١٨ - استخدم محمود شاكر القياس والاجتهد في تفسير بعض معاني المفردات ، مستقلاً بذلك عمما نصت عليه معاجم اللغة ، ومقترحًا إضافة نتائج قياسه واجتهاده لتلك المعاجم .
- ١٩ - عدم ثقة محمود شاكر المطلقة في معاجم اللغة تسبب في عدم تقسيمه لها ، وكان وراء كثير من الأحكام اللغوية غير الدقيقة التي أطلقها وعارض بها علماء ومعاجم اللغة .
- ٢٠ - التأويل الملائم للدلائل السياق الإعرابية أضاف مزيد فضل وبراعة في مواجهة محمود شاكر للنصوص .

- ٢١ - كان لوعي محمود شاكر بالمهارات النصية والمقاربات التطبيقية للجانب الإيقاعي في النص ، الفضل بعد الله في حسن تأويله وصحة استنباطاته ونبوغ استدلالاته .
- ٢٢ - تمایز الطائق الاستنباطية عند محمود شاكر ما بين المنطوق وأدله الظاهرة ، والمفهوم وتأويله ، ويأتي هذا التمايز استجابة طبيعية لاختلاف المواضيع والقضايا التي عالجها .
- ٢٣ - جاء الاستنباط بالمنطوق عند محمود شاكر معتمداً على التذوق ، والمصطلحات النقدية والبلاغية ، والجانب اللغوي .
- ٤ - طريق الاستنباط بتأويل المفاهيم الاصطلاحية هيأً لمحود شاكر استحداث مصطلحات نقدية وبلاعية وبحثية ، سواء كانت جديدة مبتكرة ، أو مستجلبة من علوم أخرى للنقد والأدب .
- ٢٥ - طريق الاستنباط بالتأويل يرتبط كثيراً عند محمود شاكر بالسياق الخارجي للنص ، ويرتبط كذلك بتعدد الروايات واختلاف الرواة .
- ٢٦ - أخضع محمود شاكر بعض النصوص الشعرية لمؤثرات تاريخية واجتماعية ، مما تسبب في تعديله لبعض المرويات الشعرية وفق إملاءات هذه المؤثرات .
- ٢٧ - تنوعت المواقف الاستنباطية عند محمود شاكر بين القبول والنقض والاعتراض ؛ نتيجة لتطبيقه المنهج التذوقي ، واستجابة طبيعية لموقفه وشخصيته النقدية وتجربته العميقه .
- ٢٨ - جاء قبول محمود شاكر لبعض آراء وأحكام علماء التراث متبيناً بين القبول الجرد ، أو الزيادة ، أو تقوية الرأي والحكم النقي بالاستدلال المباشر أو غير المباشر ، أو استخدام تقنية الحاجاج المنطقي ، موائماً في ذلك بين قوة الرأي وضعفه ، وبين شخصيته النقدية ، ومنهجه التذوقي ، وطبيعة القضايا والأحكام والأراء النقدية والأدبية .
- ٢٩ - جاء قبول محمود شاكر لبعض استنباطات العلماء مبنياً على انطباع وعلاقات شخصية ، مما أسهم في تردد شاكر عن الإفصاح فيها بصرامة عن الخطأ والصواب في تلك الاستنباطات .

٣٠- استدراكات محمود شاكر على علماء التراث مبنية على أساس علمي ، ولم تكن مبنية على أساس الاستدراك المجرد غير المعلم ، سواء حالفه التوفيق في هذه الاستدراكات أم لم يحالقه .

٣١- خلو بعض اعترضات محمود شاكر على علماء التراث من الأدلة ؟ سببه عدم وجود أدلة أصلًا على تلك الآراء التي اعترض عليها .

٣٢- تميز موقف النقض من بين الموقف الاستنباطية عند محمود شاكر بالشمولية والاستقصاء ومراعاة التسلسل الزمني والمؤثرات التاريخية والاجتماعية .

هذا وإنني أُحمد الله على تمام هذه الدراسة ، فقد تكشف لي وأنا في معرضها بأن تناول قامة علمية وشخصية فذة كمحمود شاكر رحمة الله ، يحتاج إلى فريق عمل وسنوات عمل غير قليلة لاستيعاب كل جهوده النقدية والأدبية والبلاغية واللغوية والنحوية ؛ لكونه عالماً جليلاً أطراف علمه متراوحة ، وأفقه الفكري والثقافي غاية في الامتداد والعمق ، حتى وجدتني جراء ذلك أقترح على طلبة العلم تناول هذه الشخصية الفذة في مسارات محددة ، تجتمع كلها مع ما سبقها لتشكل مادة علمية قد تسهم في رصد جهوده من ناحية ، وتحاول من ناحية أخرى معرفة الطريقة التي كان يفكر بها ، وحسب طلبة العلم فضلاً معرفة هذه الطريقة ؛ لأنها السبيل الأمثل للإبداع والتبوغ ، ومن أهم الدراسات التي أقترحها : دراسة لغوية يقوم بها زملاؤنا المختصون من أهل اللغة ، قوامها حصر استدراكات محمود شاكر على معاجم اللغة واقتراحاته لها ، ووضعها في موضع النقد والمساءلة ، وغايتها معرفة قيمة هذه الاستدراكات في ضوء البحث اللغوي والمعجمي ، ومن ثم تقديم نتائج هذه الدراسة لتكون نواة لدراسة لاحقة لها يقوم بها زملاؤنا المختصون في المجال النبدي والأدبي ، قوامها رصد ملامح تأثير هذه الآراء على توجيه قراءة النص عند محمود شاكر ، وغايتها الكشف عن القيمة العلمية لهذه الاستدراكات في ضوء البحث النبدي والأدبي ، مبتela إلى الله جل في علاه أن يجعل التوفيق حليفنا ، والسداد والرشاد طريقنا ، والله وحده حسيبي ونعم الوكيل ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع :

- (١) أباطيل وأسمار محمود شاكر ، ط١ ، عام ١٣٩١ ، مكتبة الحانجى بالقاهرة.
- (٢) ابن خالويه وجهوده في اللغة مع تحقيق كتابه شرح مقصورة ابن دريد ، دراسة وتحقيق : محمود جاسم محمد ، ط١ ، عام ١٤٠٧ هـ مؤسسة الرسالة بيروت.
- (٣) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، عام ١٣٩٤ هـ ، للهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٤) الأحكام السلطانية لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي ، تحقيق : أحمد مبارك البغدادي ، ط١ ، عام ١٤٠٩ هـ ، مكتبة دار ابن قتيبة بالكويت .
- (٥) أخبار المدينة ، محمد بن الحسن بن زبالة ، تحقيق ، صلاح سلامة ، ط١ ، عام ٢٠٠٣ م ، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة.
- (٦) أدب الجاحظ ، لحسن السندي ، ط١ ، عام ١٩٣١ م ، للمطبعة الرحمانية بالقاهرة .
- (٧) الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قدماً وحديثاً ، لعفيف عبد الرحمن ، ط١ ، عام ١٩٨٥ م ، لدار الفكر بالأردن
- (٨) الأدب العربي المعاصر في مصر شوقي ضيف ط١٣ ، عام : بدون ، لدار المعارف المصرية .
- (٩) الأدب المفرد للبخاري ، تحقيق علي عبد الباسط مزيد - وعلي عبد المقصود رضوان ، ط١ ، عام : ٢٠٠٣ م ، مكتبة الحانجى بمصر .
- (١٠) آراء محمود شاكر وجهوده اللغوية لحسن بنت أحمد قربان ، رسالة علمية تمت مناقشتها في جامعة أم القرى بمكة المكرمة الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي ١٤٢٩-١٤٣٠ هـ تحت إشراف الدكتور عليان بن محمد الحازمي.

- (١١) أساس البلاغة ، لجار الله الزمخشري ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، ط١ ، عام ١٤١٩ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (١٢) الاستدلال البلاغي لشكري مبخوت ط١ ، عام ٢٠٠٦ م ، لدار الكتاب الجديدة المتحدة بينغازي .
- (١٣) الاستدلال عند الأصوليين للدكتور : أسعد الكفراوي ، ط١ ، عام ١٤٢٣ هـ ، لدار السلام بالقاهرة .
- (١٤) الاستدلال في منهج البلاغة وسراج الأدباء ، للباحثة : خديجة كلائحة ، جامعة محمد خضر بالجزائر .
- (١٥) الاستشراف في الأدبيات العربية لعلي النملة ، ط١ ، عام ١٤١٤ هـ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض .
- (١٦) الاستقراء وأثره في القواعد الأصولية والفقهية دراسة نظرية تطبيقية للطيب السنوسى أحمد ، ط٣ ، عام ١٤٣٠ هـ ، لدار التدمرية بالرياض .
- (١٧) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ليوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطي ، تحقيق : علي محمد البحاوي ، ط١ ، عام ١٩٩٢ م ، لدار الجيل بيروت .
- (١٨) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لعز الدين بن الأثير ، تحقيق : علي محمد معوض ، عادل أحمد عبد الموجود ، ط١ ، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (١٩) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، قراءة وتعليق محمود شاكر ط٣ ، عام ١٤١٣ هـ ، لدار المدنى .
- (٢٠) الإسلام والاستشراف لمحمود حمدي زفروق ، ط١ ، عام ١٤٠٤ هـ مكتبة وهبة بالقاهرة .

- (٢١) أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها ، للحسن بن أحمد بن محمد الأعرابي الملقب بالأسود العندجاني ، تحقيق محمد علي سلطاني ، ط ١ ، عام ١٩٨١ م ، مؤسسة الرسالة بيروت .
- (٢٢) أسماء خيل العرب وفرسانها ، لأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي ، تحقيق حاتم صالح الضامن ، ط ١ ، عام ٢٠٠٩ م ، لدار البشائر بدمشق .
- (٢٣) الأشباء والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمحضرمين ، للخالديين : أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي ، وأبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي ، تحقيق محمد علي دقة ، ط ١ ، عام ١٩٩٥ م ، وزارة الثقافة السورية .
- (٢٤) اشتقاد أسماء الله ، لعبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي ، تحقيق : عبد المحسن المبارك ، ط ٢ ، عام : ١٩٨٦ م ، مؤسسة الرسالة بيروت .
- (٢٥) الإصابة في تمييز الصحابة ، لأحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معرض ، ط ١ ، عام ١٤١٥ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (٢٦) إصلاح غلط المحدثين ، لحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي تحقيق حاتم الصامن ط ٢ ، عام ١٩٨٥ م ، مؤسسة الرسالة بيروت .
- (٢٧) أصول السرخسي ، لحمد بن أحمد السرخسي ، حقق أصوله : أبو الوفا الأفغاني ، ط ١ ، عام ١٤١٤ هـ ، للجنة إحياء المعارف النعمانية .
- (٢٨) أصول الشاشي ، نظام الدين أبو علي أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي ، ط بدون ، عام بدون ، لدار الكتاب العربي بيروت .
- (٢٩) أصول الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الرحيلي ، ط ١ ، عام ١٤٠٦ هـ ، لدار الفكر بدمشق .
- (٣٠) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لحمد المختار الشنقيطي ، ط ١ ، عام ١٩٩٥ م ، لدار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .

- (٣١) إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط٣، عام بدون، لدار المعارف بمصر.
- (٣٢) إعراب القرآن وبيانه ، لخبي الدين بن أحمد ، ط٤، عام ١٤١٥ هـ ، لدار اليمامة بدمشق .
- (٣٣) الأعلام لخير الدين الزركلي ط١٥، عام ٢٠٠٢م، لدار العلم للملاتين.
- (٣٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، لابن قيم الجوزية تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم ، ط: ١ ، عام ١٤١١ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (٣٥) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ط١، عام ١٩٣٥ م لدار الكتب المصرية بالقاهرة .
- (٣٦) الفصول في الأصول ، لأحمد بن علي الجصاص ، تحقيق الدكتور : عجيل الشامي ، ط٢، عام ١٤١٤ هـ ، لوزارة الأوقاف الكويتية.
- (٣٧) اقتضاء الصراط المستقيم لخالفه أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور ناصر العقل ط٧ ، عام ١٤١٩ هـ ، لدار عالم الكتب بيروت.
- (٣٨) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - ﷺ - والثلاثة الخلفاء ، لسلیمان الكلاعي ، تحقيق كمال الدين عز الدين علي، ط٤ ، عام ٢٠٠١ م ، لعالم الكتب بيروت .
- (٣٩) أمالی المرتضی ، للشیریف المرتضی علی بن الحسین ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهیم ، ط١ ، عام ١٩٥٤ م، لدار الحلی
- (٤٠) إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع ، لتقی الدین احمد بن علی المقریزی ، حققه وشرحه محمود شاکر ، ط٢، عام بدون ، للشؤون الدينية بقطر.
- (٤١) الأمثال المولدة لأبي بكر الخوارزمي ، تحقيق وتقديم محمد الأعرجي ، ط٢، عام ٢٠٠١ م، للمجمع الثقافي بأبوظبی بالإمارات العربية المتحدة.

- (٤٢) الإنصال في التنبية على الأسباب التي أوجبت الاختلاف، لعبد الله بن السيد البطليوسى ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، ط ٢ ، عام ٤٠٣ هـ ، لدار الفكر بيروت.
- (٤٣) أنوار الربيع في أنواع البديع ، تأليف ابن معصوم المدى ، تحقيق ، شاكر هادي شكر ، ط ١ ، ١٩٦٩ م ، مطبعة النعمان بالعراق .
- (٤٤) الأنساب لأبي سعد السمعانى ، تقديم وتعليق ، عمر البارودي ، ط ١ ، عام ١٩٨٨ م ، لدار الجنان بدمشق .
- (٤٥) إنباء الرواة على أنباء النحاة ، لعلي بن يوسف القفطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، عام ١٩٨٢ م ، لدار الفكر العربي بالقاهرة .
- (٤٦) إنباء الأمراء بأنباء الوزراء ، لحمد بن علي بن خمارويه ، تحقيق : مهنا حمد المها ، ط ١ ، عام ١٩٩٨ م ، لدار البشائر الإسلامية بيروت .
- (٤٧) الأنساب ، لسلمة بن مسلم العوتبي الصحاري ، تحقيق ، إحسان النص ، ط ٤ ، عام: ٢٠٠٦ م ، لدار عُمان للطباعة والنشر .
- (٤٨) الأنساب ، لعبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمى ، ط بدون ، عام بدون ، الفارق الحديثة للطباعة والنشر .
- (٤٩) الأوائل ، لأبي هلال العسكري، ط ١ ، عام : ١٤٠٨ هـ ، لدار البشير بطنطا .
- (٥٠) البارع في علم العروض ، لأبي القاسم القطاع ، تحقيق محمد عبد الدائم ، ط ٢ ، عام ١٤٠٥ هـ ، مكتبة الفيصلية بمكة المكرمة .
- (٥١) البحث الأدبي ، طبيعته ، مناهجه، أصوله ، مصادره ، لشوقى ضيف ط ٧ ، عام ١٩٧٢ م ، لدار المعارف المصرية.
- (٥٢) البحث العلمي ، لإبراهيم محمد تركى ، ط ١ ، عام : ٢٠١٠ م ، لطبع شتات بمصر .

(٥٣) البحر المحيط في أصول الفقه ، لبدر الدين الزركشي ، تحرير : د. عبد الستار أبو غدة ، ط ٢ ، عام ١٤١٣ هـ ، لدار الصفوة للطباعة والنشر بالغردقة بمصر.

(٥٤) البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي ، تحقيق عادل أحمد ، علي معرض ، شارك في التحقيق ، زكريا النوي ، أحمد الجمل ، ط ١ ، عام ١٩٩٣ م ، لدار الكتب العلمية بيروت .

(٥٥) البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق صدقى جميل ، ط بدون، عام ١٤٢٠ هـ، لدار الكتب العلمية بيروت .

(٥٦) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندى ، تحقيق محمود مطرجي ، ط ٢ ، عام ١٤٢٥ هـ ، لدار الفكر بيروت .

(٥٧) البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق عبد الله التركي ، ط بدون ، عام ١٤٢٤ هـ لدار هجر للطباعة.

(٥٨) البديع في نقد الشعر ، تحقيق أحمد أحمد بدوي، و حامد عبد المجيد ، مراجعة إبراهيم مصطفى ، ط ١ ، تاريخ بدون ، الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة .

(٥٩) البغداديون أخبارهم ومجالسهم ، لإبراهيم عبد الغني الدروي البغدادي ، ط ٣ : بدون ، عام ١٩٧٢ م ، مطبعة الرابطة بغداد .

(٦٠) البرصان والعرجان والعميان والحوالان ، لأبي عثمان الجاحظ ، تحقيق الشيخ عبدالسلام هارون ط ١ ، عام ١٤١٠ هـ ، لدار الجبل بيروت.

(٦١) بغية الطلب في تاريخ حلب ، لكمال الدين بن العديم ، تحقيق : سهيل زكار، ط بدون، عام بدون ، لدار الفكر .

(٦٢) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١، ١٩٦٤ م ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٦٣) **بلاغات النساء لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور ، صححه وشرحه: أحمد الألفي ،** ط١ ، عام ١٩٠٨ م ، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول بالقاهرة .

(٦٤) **بهجة المحايل وبغية الأمثال في تلخيص العجزات والسير والشمائل ليحيى بن أبي بكر الحرضي ،** عني به : أنور بن أبي بكر الشيشي ، ط١ ، عام ٢٠٠٩ م ، لدار المنهاج للنشر والتوزيع بجدة .

(٦٥) **التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت ،** ترجمة عثمان أمين ، ط١ ، عام ١٩٨٠ م ، لدار الأنجلو المصرية.

(٦٦) **تأويل مختلف الحديث ،** لابن قتيبة الدينوري ، ط٢ ، عام ١٩٩٩ م ، مؤسسة الإشراق.

(٦٧) **تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري ،** شرح ونشر السيد أحمد صقر ، ط٢ ، عام ١٣٩٣ هـ ، لدار التراث العربي .

(٦٨) **تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي ،** مجموعة من المحققين ، ط١ ، عام ١٨٨٩ م ، لدار الهدایة .

(٦٩) **تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ،** لشوقي ضيف ، ط ١١ ، عام بدون ، لدار المعارف المصرية.

(٧٠) **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ،** لشمس الدين الذهبي ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط١ ، عام ٢٠٠٣ م ، لدار الغرب الإسلامي في تونس .

(٧١) **تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي ،** تحقيق : بشار عواد معروف ، ط١ ، عام ٢٠٠٢ م ، لدار الغرب الإسلامي بيروت .

(٧٢) **تاريخ الجزائر في القديم والحديث ،** لمبارك بن محمد الميلي الجزائري ، تقديم: محمد الميلي ، ط بدون ، عام ١٩٨٦ م ، للمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر .

- (٧٣) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، المؤلف: حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري ، ط بدون ، تاريخ بدون ، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت .
- (٧٤) تاريخ دمشق أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر ، تحقيق ، عمرو ابن غرامة العمروي ، ط٤، عام ١٩٩٥ م ، لدار الفكر للبطاعة والنشر والتوزيع بعمان .
- (٧٥) تاريخ الفلسفة الحديث ، يوسف بطرس كرم ، ط١، عام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بالقاهرة.
- (٧٦) التاريخ الكبير ، محمد بن إسماعيل بن المغيرة البخاري ، طبع تحت مراقبة : محمد عبد المعيد خان ، ط بدون ، تاريخ بدون ، لدائرة المعارف العثمانية ، بحیدر آباد .
- (٧٧) تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس، ط٤، عام ١٩٨٢ م ، لدار الثقافة بيروت .
- (٧٨) تجديد ذكرى أبي العلاء ، لطه حسين ، ط٦، عام ١٩٦٣ م ، لدار المعارف بمصر .
- (٧٩) تحت راية القرآن ، لمصطفى صادق الرافعي ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ ، للمكتبة العصرية بيروت .
- (٨٠) تحقيق النصوص ونشرها لعبد السلام هارون ، ط٧، عام ١٩٩٨ م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- (٨١) التذكرة الحمدونية لأبي المعالي البغدادي ، ط١، عام ١٤١٧ هـ ، لدار صادر بيروت .
- (٨٢) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ، لصلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه: السيد الشرقاوي ، ط١، عام ١٩٨٧ م ، مكتبة الخانجي بمصر .
- (٨٣) تصحيح الفصيح ، لابن دُرُستَوْيَه ابن المرزبان ، تحقيق ، محمد بدوي المخton ، ط١، عام ١٩٩٨ م ، للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة .
- (٨٤) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان ، ط٧، عام ٢٠٠٩ م ، مكتبة وهبة بالقاهرة .

- (٨٥) تطور الأساليب التثوية في الأدب العربي ، لأنيس المقدسي ، ط٢ ، عام ١٩٦٠ م ، لدار العلم للملائين بيروت .
- (٨٦) التفسير البسيط لعلي بن محمد بن علي الواهدي ، أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من عمادة البحث العلمي بتنسيقه ، ط١ ، عام : ١٤٣٠ هـ لمطبع الجامعة .
- (٨٧) تفسير القرآن العظيم ، لإسماعيل بن كثير الدمشقي ، تقديم : يوسف المرعشلي ، ط٦ ، عام ١٩٩٣ م ، لدار المعرفة بيروت .
- (٨٨) تفسير مقاتل بن سليمان ، مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي ، تحقيق عبد الله محمود شحاته ، ط١ ، عام ١٤٢٣ هـ ، لدار إحياء التراث العربي بيروت.
- (٨٩) التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري ، لحمادي صمود ، ط١ ، عام ١٩٨١ م ، للمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية .
- (٩٠) تعقيبات على الاستشراق إدوارد سعيد ، ترجمة وتحرير صبحي حديدي ط١ ، عام ١٩٩٦ م ، للمؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت .
- (٩١) التكميلة والذيل على درة الغواص ، ملحوظ بن محمد بن الخضر الجوالقى ، تحقيق: عبد الحفيظ فرغلى ، ط١ ، عام ١٩٩٦ م ، لدار الجيل بيروت .
- (٩٢) التكميلة والذيل لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية ، لحسن الصغاني ، ط٢ ، عام ١٩٧١ م ، مطبعة دار الكتب بالقاهرة .
- (٩٣) تلبيس إبليس ، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، ط١ ، عام ٢٠٠١ م ، لدار الفكر للطباعة والنشر بيروت .
- (٩٤) التمثيل والمحاضرة ، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الشعالي ، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ، ط٢ ، عام ١٩٨١ م ، للدر العربية للكتاب .

- (٩٥) تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد ، محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي المصري، المعروف بناظر الجيش، تحقيق : علي محمد فاخر ، جابر محمد البراجة ، إبراهيم جمعة العجمي ، جابر السيد مبارك ، علي السنوسي محمد ، محمد راغب نزال ، ط١ ، عام ١٤٢٨ هـ ، لدار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة .
- (٩٦) تحذيب الكمال في أسماء الرجال ، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف الكلبي ، تحقيق : بشار عواد معروف ، ط١ ، عام ١٩٨٠ م ، مؤسسة الرسالة بيروت .
- (٩٧) تحذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهرمي ، تحقيق : محمد عوض مرعوب، ط١ ، عام ٢٠٠١ م ، لدار إحياء التراث العربي بيروت .
- (٩٨) التيجان في ملوك حمير ، عبد الملك بن هشام ، تحقيق : مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، ط١ ، عام ١٣٤٧ هـ ، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، بصنعاء .
- (٩٩) الثقات ، محمد بن حبان، طبع تحت مراقبة : محمد عبد المعيد خان ط١ ، عام ١٩٧٣ م، دائرة المعارف العثمانية بجیدر آباد .
- (١٠٠) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق وتعليق محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام ط٣ ، عام ١٩٧٦ م لدار المعارف بمصر .
- (١٠١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبرى ، تحقيق أحمد شاكر و محمود شاكر ، ط١ ، عام ١٤٢٢ هـ مؤسسة الرسالة.
- (١٠٢) الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري) ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، ط٣ ، عام ١٩٨٧ م ، لدار ابن كثير ، اليمامة بيروت .
- (١٠٣) الجامع في الحديث لابن وهب ، ل محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي ، تحقيق : مصطفى حسن حسين محمد أبو الخير ، ط١ ، عام ١٩٩٥ م ، لدار ابن الجوزي بالرياض .

- (١٠٤) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، محمد بن أحمد القرطبي ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، وشارك في تحقيق الجزء الأول محمد رضوان عرقسوسي ، ط١، عام ٢٠٠٦ م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر بيروت .
- (١٠٥) الجامع لعلوم الإمام أحمد ، خالد الرباط ، سيد عزت ، ط١ ، عام : ٢٠٠٩ م ، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث ، الفيوم - جمهورية مصر العربية .
- (١٠٦) الجبال والأمكنة والمياه ، لجأ الله بن محمود بن عمرو بن أحمد الزخشري تحقيق أحمد عبد التواب عوض ، ط١ ، عام ١٩٩٩ م ، لدار الفضيلة للنشر والتوزيع بالقاهرة .
- (١٠٧) الجرح والتعديل ، لابن أبي حاتم الرازي ، ط١ ، عام : ١٩٥٢ م ، لدار إحياء التراث العربي بيروت .
- (١٠٨) جريدة البلاغ عدد نوفمبر للعام ١٩٢٣ م .
- (١٠٩) جمهرة أشعار العرب ، محمد بن أبي الخطاب القرشي ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ط بدون ، عام بدون ، لدار نهضة مصر للطباعة والنشر .
- (١١٠) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، عبد المجيد قطامش ، ط٢ ، عام ١٩٨٨ م ، لدار الجيل بيروت .
- (١١١) جمهرة أنساب العرب ، علي بن أحمد بن سعيد بن الظاهري ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٥ ، عام بدون ، لدار المعارف بالقاهرة .
- (١١٢) جمهرة اللغة محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، ط١ ، عام ١٩٨٧ م ، لدار العلم للملايين بيروت .
- (١١٣) جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر ، لعادل سليمان جمال ط بدون ، عام : بدون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- (١١٤) جمل من أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري ، تحقيق ، سهيل زكار ، رياض الزركلي ، ط١ ، عام : ١٩٩٦ م ، لدار الفكر بيروت .

- (١١٥) جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار، حققه وشرحه محمود شاكر ، ط١، عام ١٣١٨هـ ، لدار المدنى .
- (١١٦) جوامع السيرة النبوية لابن حزم الأندلسى ، ضبط وتصحيح عبد الكريم الجندي ، ط١، عام ٢٠٠٢م ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (١١٧) الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير ، للباحثة نعيمة يعمران، جامعة مولود معمرى الجزائرية.
- (١١٨) حكم الجاهلية لأحمد محمد شاكر ط١، عام ١٩٢٢م، مكتبة السنة بالقاهرة .
- (١١٩) حكمة الصين: دراسة تحليلية لعالم الفكر الصيني منذ أقدم العصور ، لفؤاد محمد شبل ، ط١ ، عام ١٩٦٨م ، لدار المعارف المصرية .
- (١٢٠) حلية الحاضرة في صناعة الشعر ، لمحمد الحاتمي ، تحقيق جعفر الكتبي ، ط بدون، عام ١٩٧٩م، دار الرشيد بالعراق .
- (١٢١) الحماسة البصرية لصدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري تحقيق عادل سليمان، ط١، عام ١٩٩٩م ، مكتبة الحانجى بالقاهرة .
- (١٢٢) الحماسة البصرية ، لصدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري ، تحقيق مختار الدين أحمد ، ط بدون ، تاريخ بدون ، عالم الكتب العربية بيروت .
- (١٢٣) حياة الرافعى لحمد العريان ، ط٣، عام ١٩٥٥م ، للمكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة .
- (١٢٤) خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي، شرح وتعليق مأمون بن محى الدين الجنان ، ط١، عام ١٩٩٤م ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (١٢٥) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون، ط٤ ، عام ١٩٩٧م ، مكتبة الحانجى بالقاهرة .

(١٢٦) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ، ط ٤ ، عام ١٩٨٩ م ، للهيئة المصرية العامة للكتاب.

(١٢٧) خطوات وضوابط البحث العلمي للدكتور أمين متصر ، ط ١ ، عام ١٤٣١ هـ ، لدار الفكر العربي بمصر.

(١٢٨) دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي لعبد الرحمن بدوي باب ، ط ٢ ، عام ١٩٨٦ م ، لدار العلم للملايين.

(١٢٩) دَرْجُ الدُّرُرِ فِي تَفْسِيرِ الْآيِّ وَالسُّوْرَ ، لعبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، دراسة وتحقيق: (الفاتحة والبقرة) وليد بن أحمد بن صالح الحسين ، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي ، ط ١ ، عام ٢٠٠٨ م ، مجلة الحكمة البريطانية .

(١٣٠) دروس في الألسنية العامة لفريديناند دي سوسير ، تعريب صالح القرمادي ، ومحمد الشاوش ط ٣ ، عام ١٩٨٥ م للدار العربية للكتاب.

(١٣١) الدر الفريد وبيت القصيد ، محمد بن أيدمر المستعصمي ، تحقيق كامل سلمان المجبوري ، ط ١ ، عام ٢٠١٥ م ، لدار الكتب العلمية بيروت

(١٣٢) دقة المحدثين في نقل السنة وتدوينها ونشأة علمي مصطلح الحديث والجرح والتعديل لعمر محمد عبد الرحمن ، ط ١ ، عام ١٤١٩ هـ ، لدار المعرفة.

(١٣٣) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، قراءة وتعليق محمود شاكر ، ط ٣ ، عام ١٤١٣ هـ ، لدار المدنى .

(١٣٤) الدلائل في غريب الحديث ، قاسم بن ثابت بن حزم العوني السرقسطي ، تحقيق: محمد بن عبد الله القناص ، ط ١ ، عام : ٢٠٠١ م ، مكتبة العبيكان بالرياض .

(١٣٥) دلائل النبوة ، لأبي بكر البهقي ، تحقيق عبد المعطي قلعي ، ط ١ ، عام ١٩٨٨ م ، لدار الكتب العلمية بيروت .

(١٣٦) دمية القصر وعصرة أهل العصر ، علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي ، ط١ ، عام ١٤١٤ هـ ، لدار الجيل بيروت .

(١٣٧) ديكارت مبادئ الفلسفة ترجمة : عثمان أمين ط١ ، عام ١٩٧٥ م ، لدار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة .

(١٣٨) ديوان ابن حمديس ، تقديم وتصحيح إحسان عباس ، ط بدون ، عام بدون ، لدار صادر بيروت .

(١٣٩) ديوان ابن رشيق القيرواني ، جمعه وربه عبد الرحمن باغي ، ط بدون ، عام ١٩٨٩ م ، لدار الثقافة بيروت .

(١٤٠) ديوان أبي ذؤيب المذلي ، شرحه وقد له ووضع فهارسه سوهام المصري ط١ ، عام ١٤١٩ هـ ، للمكتبة الإسلامية بيروت ودمشق وعمّان .

(١٤١) ديوان أبي طالب عم النبي ﷺ ، شرح وجمع محمد التونجي ، ط١ ، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتاب العربي بيروت .

(١٤٢) ديوان أبي فراس الحمداني ، شرح خليل الدويهي ، ط٢ ، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتاب العربي بيروت .

(١٤٣) ديوان الأقىشر الأسدی ، صنعة : محمد علي دقة ، ط١ ، عام ١٩٩٧ م ، لدار صادر للطباعة والنشر بيروت .

(١٤٤) ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٥ ، عام بدون ، لدار المعارف بمصر .

(١٤٥) ديوان امرئ القيس ضبط مصطفى عبد الشافي ، ط٥ ، عام ١٤٢٥ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت .

(١٤٦) ديوان أوس بن حجر ، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم ، ط١، عام ١٩٨٠ م ، لدار بيروت للطباعة والنشر.

(١٤٧) ديوان البارودي ، تحقيق : علي الجارم ، و محمد شفيق ، ط بدون، عام ١٩٩٨ م ، لدار العودة بيروت .

(١٤٨) ديوان البحتري ، شرح وتحقيق : حسن بن كامل الصيرفي ، ط٣، عام بدون ، لدار المعارف المصرية.

(١٤٩) ديوان بشر بن أبي خازم الأستدي ، قدم له وشرحه مجید طراد ، ط١، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتاب العربي بيروت .

(١٥٠) ديوان جریر ، شرح حمدو طماس ، ط٢، عام ١٤٢٦ هـ ، لدار المعرفة بيروت.

(١٥١) ديوان الحارت بن حلزة ، تحقيق اميل يعقوب ، ط١، عام ١٩٩١ م ، لدار الكتاب العربي بيروت.

(١٥٢) ديوان حسان بن ثابت ، شرح وتقديم عبداً علي مهنا ، ط٢، عام ١٩٩٤ م ، دار الكتب العالمية بيروت .

(١٥٣) ديوان الخنساء ، شرح معانيه ومفرداته حمدو طماس ، ط٢، عام ٢٠٠٤ م ، لدار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

(١٥٤) ديوان ذي الرمة ، تقديم وشرح أحمد حسن بسج ، ط١، عام ١٩٩٥ م ، لدار الكتب العلمية بيروت .

(١٥٥) ديوان رؤبة بن العجاج ، اعنى بتصحيحه وترتيبه ولیم بن الورد، ط بدون ، عام بدون، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع بالكويت .

(١٥٦) ديوان سلامة بن جندل السعدي، صنعة : محمد الأحول ، تحقيق فخرالدين قباوة ، ط٢، ١٩٨٧ م لدار الكتب العلمية بيروت .

- (١٥٧) ديوان الشماخ بن ضرار الذهبياني ، تحقيق وشرح صلاح الدين الهادي ، ط ١ ، تاريخ ١٩٦٨ م ، لدار المعارف بمصر.
- (١٥٨) ديوان الشماخ بن ضرار الصحابي الغطفاني ، تحقيق محمد الأمين الشنقيطي ، ط بدون ، تاريخ ١٩٩٦ م ، مطبعة السعادة بمصر.
- (١٥٩) ديوان الشنفرى ، جمع وتحقيق إميل يعقوب ، ط ٢ ، عام ١٩٩٦ م ، لدار الكتاب العربي بيروت .
- (١٦٠) ديوان طراز البلغاء وخاتمة الفصحاء لشهاب الدين الموسوي المعروف بابن معنوق ، ضبط سعيد الشرتوبي ، ط بدون ، عام : ١٨٨٥ م ، المطبعة الأدبية بيروت .
- (١٦١) ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلم الشتمري ، وتلية طائفة من الشعر المنسوب إلى طرفة ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ، ط ٢ ، للمؤسسة العربية للنشر والتوزيع بيروت ، ودائرة الثقافة والفنون بالبحرين.
- (١٦٢) ديوان عامر بن الطفيلي ، وما بعدها ، ط بدون ، عام ١٩٧٩ م ، دار صادر بيروت.
- (١٦٣) ديوان عبد الله ابن المعتز ، ط ١ ، عام بدون ، لدار صادر بيروت .
- (١٦٤) ديوان الفرزدق شرح وضبط وتقديم علي فاعور ، ط ١ ، عام ١٩٨٧ ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (١٦٥) ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق : إبراهيم السامرائي ، أحمد مطلوب ، ط ١ ، عام : ١٩٦٢ م ، مطبعة العاني بغداد .
- (١٦٦) ديوان كثيير ، جمعه وشرحه إحسان عباس ، ط بدون ، عام ١٣٩١ م ، لدار الثقافة للنشر والتوزيع بلبنان .

- (١٦٧) ديوان كعب بن زهير ، تحقيق وشرح علي فاعور ، ط١ ، عام ١٩٩٧ م لدار الكتب العلمية بيروت.
- (١٦٨) ديوان كعب بن زهير صنعة أبي سعيد السكري شرح د مفید قمیحة ط ، عام ١٩٨٩ م لدار الشواف بالرياض.
- (١٦٩) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، تحقيق : سامي مكي ، ط١ ، عام ١٩٦٦ م ، طبع في مطبعة المعارف ببغداد .
- (١٧٠) ديوان لسان الدين الخطيب ، صنعة وتحقيق وتقديم : محمد مفتاح ، ط١ ، عام : ١٩٨٩ م ، لدار الثقافة بالدار البيضاء.
- (١٧١) ديوان لقيط بن يعمر ، تحقيق عبد المعيد خان ، ط بدون ، عام ١٩٧١ م ، دار الأمانة بيروت.
- (١٧٢) ديوان المتنبي ، ط بدون ، عام ١٩٨٣ م ، لدار بيروت للطباعة والنشر .
- (١٧٣) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، نشرته مكتبة القدسية عن نسخة الشيختين : محمد عبده ، و محمد محمود الشنقيطي ، ط١ ، عام ١٣٥٢ هـ ، مكتبة القدسية بالقاهرة.
- (١٧٤) ديوان معاوية بين أبي سفيان جمعه وحققه وشرحه : فاروق أسليم بن أحمد ، ط١ ، عام ١٩٩٦ م ، لدار صادر بيروت .
- (١٧٥) ديوان معروف الرصافي ، مراجعة مصطفى الغلايني ، ط: بدون ، عام : ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بالقاهرة .
- (١٧٦) ديوان النابغة الذبياني ، شرح حمدو طماس ، ص٦٧ ، ط٢، عام ١٤٢٦ هـ ، دار المعرفة بيروت.

- (١٧٧) ديوان النابغة الذبياني شرح وتقديم عباس عبد الساتر ، ط٢ ، عام ١٩٩٦ م لدار الكتب العلمية بيروت.
- (١٧٨) ديوان الوأواء الدمشقي تحقيق سامي الدهان ، ط٢ ، عام ١٩٩٣ م ، لدار صادر بيروت .
- (١٧٩) ديوان وحي الأربعين لعباس بن محمود العقاد ، ط١ ، عام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بمصر .
- (١٨٠) ديوان وضاح اليمن ، وبذيله كتاب مأساة الشاعر وضاح، تأليف محمد الأثري ، وأحمد الزيات، جمعه وقدم له وشرحه : محمد خير البقاعي ، ط١ ، عام ١٩٩٦ م ، لدار صادر للطباعة والنشر بيروت.
- (١٨١) الذخيرة في محسن أهل الجزيرة ، لعلي بن بسام الشنتريني ، تحقيق إحسان عباس ، ط بدون، عام ١٩٩٧ م، لدار الثقافة بيروت .
- (١٨٢) ربيع الأبرار ونوصوص الأخبار ، لعمود الزمخشري ، تحقيق عبد الأمير مهنا ، ط١ ، عام ١٩٩٢ م ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت .
- (١٨٣) الرحيم المختوم بحث في السيرة النبوية لصفي الرحمن المباركفوري ، ط١ ، عام ٢٠٠٧ م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر .
- (١٨٤) رسائل الجاحظ ، الرسائل الأدبية ، لأبي عثمان الجاحظ ، تقديم وتبسيب وشرح : علي أبو ملحم ، ط بدون ، عام : ٢٠٠٢ م ، لدار ومكتبة الملال بيروت.
- (١٨٥) رسائل الرافعي لعمود أبو رية ، ط١ ، عام ١٩٥٠ م ، لدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.
- (١٨٦) الرسالة للإمام المطلي محمد الشافعى تحقيق أحمد شاكر ، ط ١ ، عام ١٣٩٩ هـ ، مطبعة مصطفى الحلبي بمصر.
- (١٨٧) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، ومعها نص محقق من رسالة ابن القارج ، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن ، ط ٩ ، عام ١٩٧٧ م ، لدار المعارف المصرية .

(١٨٨) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لـ محمود شاكر ، ط١، عام ١٩٩٧ م ، للهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٨٩) رواية قمبیز في المیزان ، لعباس العقاد ، ط١ ، عام ١٩٧٠ م ، لدار الكتاب العربي .

(١٩٠) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، عبد الرحمن السهيلي ، تحقيق عمر السالمي ، ط١ ، عام ٢٠٠٠ م ، لدار إحياء التراث العربي بيروت .

(١٩١) زاد المسير في علم التفسير ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، ط٣ ، عام ٤٠٤ هـ ، للمكتبة الإسلامية بيروت .

(١٩٢) زهر الآداب وثمر الألباب ، لإبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، تفصيل وضبط وشرح زكي مبارك ، وحققه وزاد في تفصيله وضبطه وشرحه ، محمد حمـي الدين عبد الحميد ، ط٤ ، عام بدون ، لدار الجليل بيروت .

(١٩٣) السبع المعلقات مقاربة سيمائية/أنتروبولوجية ، عبد الملك مرتاض ، ط بدون ، تاريخ بدون ، لدار رسـلان للطباعة والنشر بسوريا .

(١٩٤) سبل استنباط المعانـي من القرآن والسنة ، ط١ ، عام ١٤٣٢ ، مكتبة وهبة بالقاهرة .

(١٩٥) سبل المدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، لـ محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود ، و علي محمد معوض ، ط١ ، عام ١٩٩٣ م ، لدار الكتب العـلـيمـة بيـرـوـت .

(١٩٦) سر الفصاحة لـ ابن سنان الخفاجي ، ط١ ، عام ١٩٨٢ م ، لدار الكتب العلمية بيـرـوـت .

(١٩٧) سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، لأبي العباس أحمد بن يوسف التيفاشي ، هذبـه: محمد بن جلال الدين المـكرم (ابن منظور) ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، عام ١٩٨٠ م ، للمؤسسة العربية للدراسات والنشر بيـرـوـت .

- (١٩٨) سط اللآلئ ، اللآلئ في شرح أمالى القالى ، لأبي عبيد البكري ، بمحاشطة عبد العزيز الميمنى له في أبحاثه ، ط١، عام ١٩٣٥ م ، لدار الكتب العلمية بيروت.
- (١٩٩) سير أعلام النبلاء : لشمس الدين الذهبي ، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، ط٣ ، عام ١٤٠٥ هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت.
- (٢٠٠) السيرة النبوية لابن هشام جمال الدين عبد الملك بن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، ط٢، عام ١٩٥٥ م ، لشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .
- (٢٠١) السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) ، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط١، عام ١٩٧٦ م ، لدار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .
- (٢٠٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدین ، لأحمد أحمد غلوش ، ط١، عام ٢٠٠٤ م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر بيروت.
- (٢٠٣) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، جمعه ورتبه ووقف على طبعه: بشير يموم ط١، عام ١٩٣٤ م ، للمكتبة الأهلية بيروت .
- (٢٠٤) شرح أبيات سيبويه ، لأبي سعيد السيرافي ، تحقيق محمد علي الريح هاشم ، راجعه طه عبد الرؤوف سعد ، ط١ ، عام ١٩٧٤ م ، لدار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة .
- (٢٠٥) شرح أسرار البلاغة للدكتور محمد إبراهيم شادي ، ط١، عام ٢٠١٢ م ، لدار اليقين بمصر.
- (٢٠٦) شرح جمل الزجاجي ، لأبي الحسن علي بن عصفور الإشبيلي ، تقدیم وفهرسة: فواز الشعار ، إشراف: إميل بدیع یعقوب ، ط١ ، عام ١٩٩٨ م ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (٢٠٧) شرح دیوان أبي تمام للخطیب التبریزی ، تقدیم وفهرسة: راجی الأسمر ، ط٢ ، عام ١٩٩٤ م ، لدار الكتاب العربي بيروت.

(٢٠٨) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام للمرزوقي تحقيق غريد الشيخ ، ط١، عام ١٤٢٤ هـ لدار الكتب العلمية بيروت.

(٢٠٩) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ليحيى بن علي بن محمد التبريزى ، كتب حواشيه غريد الشيخ ، ووضع فهارسه أحمد شمس الدين ، ط١، عام ١٤٢١ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت.

(٢١٠) شرح ديوان علقة الفحل ، بقلم السيد أحمد صقر ، تقديم زكي مبارك ، ط١ ، عام ١٩٣٥ م ، للمطبعة الحمودية بالقاهرة .

(٢١١) شرح ديوان عنترة ، للخطيب التبريزى ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه ، مجید طراد ، ط١ ، عام ١٩٩٢ م ، لدار الكتاب العربي بيروت .

(٢١٢) شرح ديوان كعب بن زهير صنعة لأبي سعيد بن الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري تحقيق : عباس عبد القادر ط٣، عام ٢٠٠٢ م لدار الكتب والوثائق القومية — مركز تحقيق التراث بالقاهرة.

(٢١٣) شرح كافية ابن الحاجب ، محمد بن الحسن الإسترابادي ، تحقيق إميل يعقوب ، ط١ ، عام ٢٠٠٦ م ، مؤسسة التاريخ العربي بيروت .

(٢١٤) شرح كتاب سيبويه لأبي سعيد السيرافي ، تحقيق : أحمد حسن مهدلي ، وعلي سيد علي ، ط١ ، عام ١٤٢٩ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت.

(٢١٥) شرح الكوكب المنير ، لابن النجاش ، تحقيق د . محمد الزحيلي ، د. وزيه حماد ، ط١ ، عام ١٤١٣ هـ ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

(٢١٦) شرح المعلقات التسع لأبي عمرو الشيباني ويليه معلقة الحارث اليشكري ، منسوب لأبي عمرو الشيباني ، تحقيق : عبد المجيد هو ، ط١ ، عام ٢٠٠١ م ، مؤسسة الأعلامي للمطبوعات بيروت .

(٢١٧) شرح المعلقات السبع لحسين بن أحمد الزوزني ، تحقيق لجنة التحقيق في الدار العلمية ، ط بدون ، عام ١٩٩٣ م ، للدار العلمية بيروت .

(٢١٨) شرح نهج البلاغة لعبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط١ ، عام ٢٠٠٧ م ، لدار الكتاب العربي ودار الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢١٩) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة الدينوري ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ط٢ ، عام ١٩٦٦ م ، دار المعارف بمصر .

(٢٢٠) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، لشوان بن سعيد الحميري اليمني ، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري ، مظہر بن علي الإرياني ، يوسف محمد عبد الله ، ط١ ، عام ١٩٩٩ م ، لدار الفكر المعاصر بيروت .

(٢٢١) الصاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، لأحمد بن فارس ، تحقيق : أحمد حسن بسج ، ط١ ، عام ١٤١٨ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت.

(٢٢٢) الصبح المنبي عن حياة النبي ليوسف البديعى ، ط١ ، عام ١٣٠٨ هـ ، للمطبعة العامرة الشرفية .

(٢٢٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد العغفور عطار ، ط٤ ، عام ٤٠٧ هـ ، لدار العلم للملاتين بيروت .

(٢٢٤) الصناعتين الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق علي البحاوي و محمد أبو الفضل ، ط (بدون) عام ١٤٣٤ هـ ، المكتبة العصرية بيروت .

(٢٢٥) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، قراءة وتعليق محمود شاكر ، ط١ ، عام بدون ، لدار المدنى بمقدمة .

(٢٢٦) ضرائر الشعر لابن عصفور ، تحقيق السيد إبراهيم محمد ، ط١ ، عام ١٩٨٠ م ، لدار الأندلس للطباعة والنشر .

(٢٢٧) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة صياغة للمنطق وأصول البحث متمشية مع الفكر الإسلامي ، لعبد الرحمن حسن حينكة الميداني ، ط٤ ، عام ١٤١٤هـ ، لدار القلم بدمشق .

(٢٢٨) ظل النديم ، لوجдан العلي ، ط١ ، عام ١٤٣٦هـ ، مركز تفكير للبحوث والدراسات.

(٢٢٩) الطبقات الكبرى لابن سعد ، تحقيق : إحسان عباس ، ط١ ، عام ١٩٦٨م ، لدار صادر بيروت

(٢٣٠) الطبقات الكبرى لابن سعد ، تحقيق علي محمد عمر ، ط١ ، ط١ ، عام ٢٠٠١م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(٢٣١) طبقات النحوين واللغويين ، محمد بن الحسن الإشبيلي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، عام بدون ، لدار المعارف بمصر .

(٢٣٢) الطراز الأول والكناز لما عليه من لغة العرب المعول ، لابن معصوم المديني ، تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ، ط١ ، عام ١٤٢٨هـ ، مؤسسة آل البيت بمشهد إيران .

(٢٣٣) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ليحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني ، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي ، ط١ ، عام ٢٠٠٢م ، للمكتبة العصرية بيروت .

(٢٣٤) طرق الاستدلال ومقدماها عند المناطقة والأصوليين للدكتور : يعقوب بن عبد الوهاب الباحسين ، ط٢ ، عام ٢٠٠١م ، مكتبة الرشد بالرياض .

(٢٣٥) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، لبدر الدين العيني ، حقه ووضع حواشيه: محمد محمد أمين ، ط١ ، عام ١٩٨٧م ، للهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢٣٦) علم الجرح والتعديل لعبد المنعم السيد نجم ، ط١ ، عام ١٤٠٠هـ ، للجامعة الإسلامية بالمدينة .

(٢٣٧) العمدة في محسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، ط٥ ، عام ١٩٨١م ، لدار الجليل المصرية للطباعة والنشر .

(٢٣٨) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر ، مراجعة نعيم زرزور ، ط٢، ٢٠٠٥ م ، لدار الكتب العلمية بيروت .

(٢٣٩) العين للخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق : عبد الحميد هنداوي ط ١ ، عام ١٤٢٣ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت.

(٢٤٠) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، لفتح الدين محمد اليعمري البعي ، تعليق إبراهيم رمضان ، ط ١ ، عام ١٩٩٣ م ، لدار القلم بيروت .

(٢٤١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، لأبي العباس ابن أبي أصيبيعة ، تحقيق نزار رضا ، ط بدون ، عام بدون ، مكتبة الحياة بيروت .

(٢٤٢) غريب الحديث ، لحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي ، ط بدون ، عام ١٩٨٢ م ، لدار الفكر بدمشق .

(٢٤٣) فتوح البلدان ، أحمد بن يحيى البلاذري ، ط بدون ، عام ١٩٨٨ م ، لدار ومكتبة الهلال بيروت .

(٢٤٤) فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق مروان العطية ومحسن خرابه ووفاء تقى الدين ، ط ١ ، عام ١٤١٥ هـ ، لدار ابن كثير بدمشق .

(٢٤٥) فن التحرير العربي ضوابطه وأنماته ، محمد صالح الشنطي ط ٥ ، عام ١٤٢٢ هـ ، لدار الأندلس للنشر والتوزيع بجائل .

(٢٤٦) فهرس الفهارس والأثبات ، ومعجم المعاجم والأشياخ والمسلسلات ، محمد عبدالحفي الكتاني ، اعنى به إحسان عباس ط ٢ ، عام ١٩٨٢ م ، لدار الغرب الإسلامي بيروت .

(٢٤٧) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، لشوقي ضيف ، ط ١٣ ، لدار المعارف بمصر .

(٢٤٨) في الأدب الجاهلي : طه حسين ، ط ٣ ، عام ١٣٥٢ هـ مطبعة فاروق بالقاهرة .

- (٢٤٩) في تاريخ الأدب الجاهلي لعلي الجندي ، ط١، عام ١٩٩١ م ، مكتبة دار التراث بمصر.
- (٢٥٠) في الشعر الجاهلي لطه حسين ، عام ١٩٢٧ م ، لدار المعارف للطباعة والنشر في سوسة بتونس.
- (٢٥١) القاموس المحيط للفيروز آبادي ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقُوسي ، ط٨، عام ١٤٢٦ هـ ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- (٢٥٢) قمبizer لأحمد شوقي ، ط بدون ، عام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بمصر.
- (٢٥٣) قواعد لتوجيه الفكر لرينيه ديكارت ، ترجمة وتقديم سفيان سعد الله ، ط١، عام ٢٠٠١ م، الناشر: مجموعة سراس بتونس.
- (٢٥٤) الكاشف عن الحصول في علم الأصول ، محمد بن محمود العجلبي ، تحقيق عادل عبد الججاد وعلى الموضع ، ط١ ، عام ١٤١٩ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت.
- (٢٥٥) الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ط١، عام ١٩٩٧ م، لدار الكتاب العربي بيروت .
- (٢٥٦) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣، عام ١٩٩٧ م ، لدار الفكر العربي بيروت .
- (٢٥٧) الكتاب : لسيويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط٣، عام ١٤٠٨ هـ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- (٢٥٨) كتاب الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد ، ماقصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم ، لأبي الحسين عبد الرحيم بن عثمان الخياط المعتزلي ، مقدمة وتحقيق نيرج ، ط٢، عام ١٩٩٦ م ، مكتبة الدار العربية للكتاب بالقاهرة .
- (٢٥٩) كتاب الهلال : على هامش الغفران ، للويس عوض ، العدد ١٨١ ، إبريل ، ١٩٦٦ م.

(٢٦٠) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري ، ط٣ ، عام ١٤٠٧ هـ ، لدار الكتاب العربي بيروت .

(٢٦١) كشف الأسرار شرح أصول البذوي عبد العزيز بن أحمد البخاري الحنفي الكتاب غير محقق وليس فيه تحديد لعام النشر الناشر : مطبعة الشركة الصحفية العثمانية ، وأعادت نشره : دار الكتاب العربي بيروت .

(٢٦٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، أحمد بن محمد بن إبراهيم الشعبي ، تحقيق ، محمد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي ، ط١ ، عام ٢٠٠٢ م ، لدار إحياء التراث العربي بيروت .

(٢٦٣) كنوز الذهب في تاريخ حلب ، لأحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل، موفق الدين، أبو ذر سبط ابن العجمي ، لدار القلم بحلب .

(٢٦٤) الكوميديا الإلهية الجحيم لدانتي ، ترجمة حسن عثمان، ط٣ ، عام بدون ، لدار المعارف المصرية .

(٢٦٥) اللباب في تحذيب الأنساب ، لعز الدين بن الأثير ، ط بدون ، عام بدون ، لدار صادر بيروت .

(٢٦٦) اللزوميات لأبي العلاء المعري ، تحقيق أمين الخانجي ، ط١ ، عام ١٩٢٤ م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٢٦٧) لسان العرب لابن منظور ، ط٨ ، عام ٢٠١٤ م ، لدار صادر بيروت.

(٢٦٨) لسان الميزان ، لأحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق : دائرة المعارف النظامية بالهند ، ط٢ ، عام ١٩٧١ م ، مؤسسة الأعلامي للطباعة والنشر بيروت .

(٢٦٩) اللغة والنقد الأدبي : لتمام حسان ، ط بدون ، عام : ١٩٨٣ م ، للهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢٧٠) اللآلی المنشورة في الأحاديث المشهورة ، محمد بن عبد الله بن بھادر الزركشي المعروف بالتلذكرة في الأحاديث المشهورة ، دراسة وتحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ط١ ، عام ١٩٨٦ م ، لدار الكتب العلمية بيروت .

(٢٧١) اللمع في العربية ، لأبي الفتح عثمان بن جنى ، تحقيق : سميح أبو مغلي ، ط بدون ، عام ١٩٨٨ م ، لدار مجلاداوي بعمان .

(٢٧٢) المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة ، لعثمان بن جنى الموصلي ، قراءة وتعليق: مروان العطية ، شيخ الرايد ، ط١ ، عام ١٩٨٨ م ، لدار الهجرة للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق.

(٢٧٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طيانة ، ط بدون ، عام بدون ، لدار نهضة مصر.

(٢٧٤) مجاز القرآن صنعة أبي عبيدة معمر بن المثنى ، تحقيق محمد فؤاد سرکين ، ط١ ، عام ١٩٨٨ م ، مكتبة الخانجي بمصر.

(٢٧٥) مجلة العرب ، السنة العاشرة ، ج : ٦-٥ ، عام ١٩٧٥ م .

(٢٧٦) مجلة المقتطف : المجلد ٨٤ ، عدد إبريل عام ١٩٣٤ م.

(٢٧٧) مجلة من المسرح العالمي الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت ، العدد ٣٥٨ ، مارس ، عام ٢٠١٢ م .

(٢٧٨) مجمع الآداب في معجم الألقاب ، لابن الفوطي الشيباني تحقيق : محمد الكاظم ، ط١ ، عام ١٤١٦ هـ، مؤسسة الطباعة بوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي بإيران .

(٢٧٩) المحسن والمساوئ لإبراهيم بن محمد البهقي ، ط بدون ، عام بدون ، لدار صادر بيروت .

(٢٨٠) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي الراغب الأصفهاني ، تقديم عمر الطبع ، ط١ ، عام ١٤٢٠ هـ ، لشركة دار الأرقام بن أبي الأرقام .

(٢٨١) المحكم والمحيط الأعظم ، لعلي بن إسماعيل بن سيده المرسي ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، ط١ ، عام ٢٠٠٠ م ، لدار الكتب العلمية بيروت .

(٢٨٢) محمود محمد شاكر دراسة في حياته وشعره ، لأمانى حاتم بسيسو ، ط١ ، عام ١٤٣٤ هـ ، وزارة الشؤون الإسلامية بدولة الكويت .

(٢٨٣) محمود محمد شاكر ، الرجل والمنهج ، لعمر حسن القيام ، ط١ ، عام ١٤١٧ هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت .

(٢٨٤) محمود محمد شاكر سيرته الأدبية ومنهجه النقدي ، لإبراهيم الكوفحي ، ط١ ، عام ١٩٩٨ م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(٢٨٥) محمود محمد شاكر قصة قلم لعايدة الشريف ، ط١ ، عام ١٩٩٧ م ، لدار الهلال المصرية.

(٢٨٦) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، تحقيق : روحية النحاس ، رياض عبد الحميد مراد ، محمد مطبيع ، ط١ ، عام ١٩٨٤ م ، لدار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق .

(٢٨٧) المختصر في أخبار البشر ، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه ط١ ، عام بدون ، للمطبعة الحسينية المصرية .

(٢٨٨) المخصص ، لابن سيده ، تحقيق : خليل إبراهيم جفال ، ط١ ، عام ١٤١٧ هـ ، لدار إحياء التراث العربي بيروت .

(٢٨٩) المخصص لابن سيده ، تحقيق: محمد محمود الشنقطي ، ط١ ، بدون ، عام بدون ، لدار الطباعة الأميرية .

(٢٩٠) مداخل إعجاز القرآن لمحود شاكر ، ط١ ، عام ٢٠٠٢ م ، لدار المدى .

(٢٩١) المدخل في فن التحرير الصحفي ، عبد اللطيف محمود حمزة ، ط٥ ، عام بدون ، للهيئة العامة المصرية للكتاب .

- (٢٩٢) مراتب النحوين عبد الواحد بن علي أبي الطيب اللغوي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط بدون ، عام ٢٠٠٩ ، لشركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر .
- (٢٩٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، يوسف بن قزوغلي بن عبد الله ، تحقيق محمد بركات، كامل محمد الخراط، عمار رجاوی، محمد رضوان عرقسوسي، أنور طالب، فادي المغربي، رضوان مامو، محمد معتر كريم الدين، زاهر إسحاق، محمد أنس الحن، إبراهيم الزبيق ، ط١، عام ٢٠١٣ م ، لدار الرسالة العلمية بدمشق .
- (٢٩٤) المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، لضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، ط٣، عام ٢٠٠٠ م ، لدار خضر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .
- (٢٩٥) المستقصى في أمثال العرب ، لأبي القاسم جار الله الزمخشري ، ط٢ ، عام ١٩٨٧ م ، لدار الكتب العلمية بيروت.
- (٢٩٦) مسنن الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : أحمد شاكر ، ط١، عام ١٩٩٥ م،لدار الحديث بالقاهرة.
- (٢٩٧) مصادر الدراسة الأدبية ليوسف أسعد داغر ، ط بدون ، منشورات جمعية أهل القلم في لبنان.
- (٢٩٨) مصادر الشعر الجاهلي ، لناصر الدين الأسد ، ط٧، عام ١٩٨٨ م ، لدار المعارف بمصر.
- (٢٩٩) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، لأحمد الحموي ، تحقيق، يوسف الشيخ محمد ، ط١، عام ١٩٨٧ ، مكتبة العصرية بيروت.
- (٣٠٠) مصطفى صادق الرافعي الناقد والمؤلف ، لإبراهيم الكوفي ، ط١، عام ١٤١٨ هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت.
- (٣٠١) مصطلح الحديث للشيخ محمد بن صالح العثيمين ، ط١، عام ١٤١٥ ، مكتبة العلم بالقاهرة.
- (٣٠٢) المعارف ، لابن قتيبة الدينوري ، تحقيق : ثروث عكاشة ، ط٢، عام : ١٩٩٢ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة .

(٣٠٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن ، للحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ، تحقيق: عبد الرزاق المهدى ، ط١، عام ١٤٢٠ هـ ، لدار إحياء التراث العربي بيروت .

(٣٠٤) المعاني الكبير في أبيات المعاني ، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، تحقيق سالم الكرنكوى، و عبد الرحمن بن علي اليماني ، ط١، عام ١٩٤٩ م ، لدائرة المعارف العثمانية ، ثم أعادت تصويرها ونشرها دار الكتب العلمية بيروت ط١، عام ١٩٨٤ م .

(٣٠٥) معاهد التصيص على شواهد التلخيص ، عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الفتح العباسى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط بدون ، عام ١٩٤٧ م ، لعلم الكتب بيروت .

(٣٠٦) معجم أعلام شعراء المدح النبوى محمد أحمد درنيقة تقديم: ياسين الأيوبي ، ط١ ، عام ٢٠٠٣ م ، دار ومكتبة اللال للطباعة والنشر بيروت .

(٣٠٧) معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي ، ط٢، عام ١٩٩٥ م ، لدار صادر بيروت.

(٣٠٨) معجم ديوان الأدب ، لإسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي تحقيق أحمد مختار عمر ، مراجعة إبراهيم أنيس ، ط١، عام ٢٠٠٣ م ، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ، القاهرة .

(٣٠٩) معجم الشعراء ، تصحيح وتعليق (كرنكو)، ط٢، عام ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م لدار الكتب العلمية بيروت .

(٣١٠) معجم لغة الفقهاء للدكتور : محمد رواس ، ط١، عام ١٤١٦ هـ ، لدار النفائس بيروت.

(٣١١) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع ، لأبي عبيد البكري ، تحقيق مصطفى السقا ، ط١، عام ١٩٤٥ م ، لعلم الكتب بيروت.

(٣١٢) مع المتنبي ، لطه حسين ، ط بدون، عام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بمصر.

(٣١٣) معجم محمود محمد شاكر إعداد مندور محمد أبو شعر ، ط٢، عام ١٤٢٨ هـ ، للمكتب الإسلامي بعمان .

(٣١٤) المعجم الوسيط للمؤلفين (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، ط١، عام (بدون) لدار الدعوة.

(٣١٥) معرفة الصحابة ، لأحمد بن عبد الله بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني ، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، ط١، عام : ١٩٩٨ م ، لدار الوطن للنشر بالرياض .

(٣١٦) المغازي لحمد بن عمر الواقدي ، تحقيق ، مارسدن جونس، ط٣ ، عام ١٩٨٩ م ، لدار الأعلمي بيروت .

(٣١٧) مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير ، لفخر الدين الرازي ، ط٣ ، عام ١٤٢٠ هـ ، لدار إحياء التراث العربي .

(٣١٨) مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكبي ، ضبط وتعليق نعيم زرزور ، ط١ ، عام ١٤٠٣ هـ ، لدار الكتب العلمية بيروت.

(٣١٩) المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية ، لبدر الدين العيني ، تحقيق: علي محمد فاخر، ، أحمد محمد توفيق السوداني، ، عبد العزيز محمد فاخر ، ط١، عام ٢٠١٠ م ، لدار السلام بمصر .

(٣٢٠) مقالة : الحجاج عند الجاحظ: بحث في المراجعات النصيات والآليات لهيثم سرحان ، مقالة علمية نشرت في المجلة العربية للعلوم الإنسانية بجامعة الكويت ، ص ٥٥، العدد ١١٥، العام ٢٠١١ م.

(٣٢١) مقالة : معالم هادئة على طريق سيرة عطرة للطاهر أحمد مكي ، مجلة الهلال العدد ٧٠، عدد فبراير ١٩٩٧ م.

(٣٢٢) مقالة من برجنا العاجي : لسيد قطب ، مجلة الرسالة ، العدد ٢٥٢ ، بتاريخ : ١٩٣٨/٠٥/٠٢ هـ.

(٣٢٣) مقال عن المنهج ، تأليف رينيه ديكارت ، وترجمة محمود الخضيري، ط٢، عام ١٩٦٨ م، لدار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

(٣٢٤) مقاييس اللغة لأحمد بن فارس ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ط١ ، عام : ١٩٧٩ م ، لدار الفكر العربي .

(٣٢٥) المقتني في سرد الكنى ، لشمس الدين الذهبي ، تحقيق ، محمد صالح عبد العزيز المراد ، ط١ ، عام : ١٤٠٨ هـ ، للمجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة .

(٣٢٦) المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكتاهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم ، للحسن بن بشر الآمدي ، تحقيق : كرنكو ، ط١ ، ١٤١١ هـ ، لدار الجيل بيروت .

(٣٢٧) مناهج البحث الأدبي للدكتور يوسف خليف ، ط١ ، عام ١٩٩٧ م ، لدار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(٣٢٨) مناهج البحث العلمي لعبد الرحمن بدوي ط٣ ، عام ١٩٧٧ م ، لوكالة المطبوعات الكويتية.

(٣٢٩) مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي ، للدكتور علي النشار ، عام ١٤٠٤ هـ ، لدار النهضة العربية بيروت.

(٣٣٠) مناهج البحث المعاصرة رؤية إسلامية ، محمد حسن بخيت ، ط١ ، عام ٢٠١٤ م ، لعالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع بالأردن.

(٣٣١) منتهى الطلب من أشعار العرب ، محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون البغدادي تحقيق : محمد نبيل طريفى ، ط١ ، عام ١٩٩٩ م ، لدار صادر بيروت .

(٣٣٢) المنطق الصوري لعلي النشار ، ط١ ، عام ٢٠٠٠ م ، لدار المعرفة الجامعية بمصر .

(٣٣٣) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الحسن الآمدي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط٤ ، عام ١٩٩٤ م ، لدار المعارف ومكتبة الحاخنجي .

(٣٣٤) المواقفات لإبراهيم الشاطبي ، تحقيق مشهور حسين آل سلمان ، ط١ ، عام ١٤١٧ هـ ، دار ابن عفان بالقاهرة.

(٣٣٥) موسوعة شعراء العصر الجاهلي ، إعداد عبد عون الروضان ، ط١، عام ٢٠٠١ م ، لدار
أسامة للنشر والتوزيع بالأردن.

(٣٣٦) الموسوعة العربية العالمية ط٢، عام ١٤١٩ هـ ، الناشر: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع
بالرياض .

(٣٣٧) موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس ، ط٢، عام ١٩٥٢ م ، لدار الأنجلو المصرية.

(٣٣٨) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء تحقيق محمد شمس الدين ، ط١، عام ١٩٩٥ م ، لدار
الكتب العلمية بيروت .

(٣٣٩) موقف أبي فهر محمود شاكر من قضية عمر الشعر الجاهلي ، مقالة علمية في مجلة الأدب
الإسلامي ، محمود توفيق سعد ، المجموعة الرابعة ، العدد : ١٦ ، شهر ٦-٥ ، للعام ١٤١٨ هـ .

(٣٤٠) المهدب فيما وقع من القرآن من المغرب لجلال الدين السيوطي ، تحقيق الدكتور التهامي
الراجي الهاشمي ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ ، مطبعة فضالة بالإمارات العربية المتحدة.

(٣٤١) ميزان العمل ، لأبي حامد الغزالي ، تحقيق : سليمان دنيا ، ط١، عام ١٩٦٤ م ، لدار
المعارف بمصر.

(٣٤٢) النثر الفني في القرن الرابع ، لزكي مبارك ، ط بدون ، عام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم
والثقافة بمصر.

(٣٤٣) نحو فلسفة علمية : زكي نجيب محمود ، ط٢، عام ١٩٨٠ م، لدار الأنجلو المصرية.

(٣٤٤) نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار ، لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم ، نسخة
إلكترونية ولم أجده الكتاب الأصل .

(٣٤٥) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، لكمال الدين الأنباري ، تحقيق إبراهيم السامرائي ط ٣ ،
١٩٨٥ م ، مكتبة الزرقاء بالأردن .

- (٣٤٦) نزهة الألباب في الألقاب ، لأحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق : عبد العزيز السديري ، ط١ ، عام ١٩٨٩ م ، مكتبة الرشد بالرياض .
- (٣٤٧) نشأة الفلسفة العلمية ، رشناخ هانز ، ترجمة فؤاد زكريا ، ط١ ، عام ١٩٦٨ م ، لدار الكتاب العربي بالقاهرة.
- (٣٤٨) النقد الأدبي للحديث: أصوله واتجاهاته ، لأحمد زكي ، ط١ ، عام ١٩٩٧ م ، للشركة المصرية العالمية للنشر ، ومكتبة لبنان .
- (٣٤٩) نقد الشعر ، لقديمة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، ط : بدون ، عام بدون لدار الكتب العلمية بيروت .
- (٣٥٠) النقد المنهجي عند العرب منهج البحث في الأدب واللغة ، محمد مندور ، ط بدون ، عام ١٩٩٦ م ، لدار النهضة بمصر .
- (٣٥١) نَكَتُ الْهِمْيَانِ فِي نَكَتِ الْعَمَيَانِ ، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، علق عليه ووضع حواشيه مصطفى عبد القادر عطا ، ط١ ، عام ٢٠٠٧ م ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (٣٥٢) النكٰتُ وَالْعَيْنُونُ ، تفسير الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، ط بدون ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (٣٥٣) نُطْ صَعْبٌ وَنُطْ مَخِيفٌ لِحَمْوَدَ شَاكِرَ ط١ ، عام ١٤١٦ هـ ، مطبعة المدين بجدة .
- (٣٥٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب التوييري ، تحقيق: مفید قمحیة ، ط١ ، عام ٢٠٠٤ م ، لدار الكتب العلمية بيروت .
- (٣٥٥) هوميروس الإلياذة ، ترجمة وتقديم سليمان البستاني ، ط١ ، لعام ٢٠١٢ م ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بمصر .
- (٣٥٦) الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، ط١ ، عام ٢٠٠٠ م ، لدار إحياء التراث بيروت .

(٣٥٧) الوحشيات وهو الحماسة الصغرى لأبي تمام ، تحقيق عبد العزيز الراجحكتي وزارد في حواشيه محمود شاكر ، ط٣، عام ١٣٨٨هـ ، لدار المعارف المصرية .

(٣٥٨) وحي القلم لمصطفى الرافعى ، راجعه واعتنى بحدرويش الجويدى ، ط بدون ، تاريخ بدون ، المكتبة العصرية بيروت .

(٣٥٩) الوساطة بين النبي وخصومه ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - علي محمد الجاجوى ط١ ، عام ١٩٦٦م ، لدار الحلى .

(٣٦٠) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، علي بن أحمد بن علي الواحدى ، النيسابورى ، الشافعى ، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معرض ، أحمد محمد صيرة ، أحمد عبد الغنى الجمل ، عبد الرحمن عويس ، قدمه وقرظه: عبد الحى الفرماوي ، ط١ ، عام ١٩٩٤م ، لدار الكتب العلمية بيروت .

(٣٦١) وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، لأحمد بن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، عام ١٩٧٨م ، لدار صادر بيروت .

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢
التمهيد :.....	١٠
مفاهيم الاستنباط بين الأصوليين والبلغيين.....	١٠
القواسم المنهجية المشتركة بين استنباط الأصوليين والبلغيين.....	١٢
أولاً : البحث في القرآن الكريم	١٢
ثانياً : الاعتماد على الجانب اللغوي بمختلف مستوياته.....	١٦
ثالثاً :المنهج العلمي	٢١
إجراءات المنهج الاستنباطي وضوابطه.....	٣٠
تعريف المنهج الاستنباطي.....	٣٠
نشأة المنهج الاستنباطي.....	٣٢
ضوابط المنهج الاستنباطي عند ديكارت.....	٣٦
مقارنة بين الاستنباط القديم والحديث.....	٤٠
نجاعة المنهج الاستنباطي في مجالات البحث الأدبي والنقدية.....	٤٢
الفصل الأول : مصادر المعرفة عند محمود شاكر	٤٦
المبحث الأول (الذوق والدرية).....	٤٩
مصادر المعرفة ومؤهلات الناقد (الذوق).....	٤٩
دوافع التذوق عند محمود شاكر	٥٠
أساس التذوق عند محمود شاكر	٥٣
مصادر المعرفة ومؤهلات الناقد (الدرية).....	٦٦
ضوابط الدرية عند محمود شاكر	٦٨

أولاً : الضابط الأخلاقي.....	٦٨
ثانياً : الضابط العرقي.....	٧١
ثالثاً : الضابط المنهجي.....	٨٢
المبحث الثاني: اللغة والاستعداد الذاتي.....	٨٧
تأويل الدلالة المعجمية عند محمود شاكر.....	٨٨
التأويل الملائم لدلالات السياق.....	٩٤
المقاربة التطبيقية للجانب الإيقاعي في النص.....	٩٧
المبحث الثالث : الثقافة والتجربة.....	١٠٥
مراحل الثقافة والتجربة عند محمود شاكر.....	١٠٧
مرحلة النشأة والتكونين.....	١٠٧
مرحلة الثورة ..	١١٢
مرحلة النضج والإنتاج العلمي.....	١١٧
الفصل الثاني : طائق الاستباط.....	١٢٢
المبحث الأول : المنطق وأداته الظاهرة.....	١٢٤
الاستباط من منطق النص بدلالة التذوق.....	١٢٥
الاستباط من منطق النص بدلالة اللغة.....	١٣٤
الاستباط من منطق النص بدلالة المصطلح العلمي.....	١٣٩
المبحث الثاني : المفهوم وتأويله.....	١٤٨
طائق التأويل لمفاهيم المصطلح العلمي.....	١٤٩
المصطلح البلاغي.....	١٥٠
المصطلح النceği.....	١٦١
المصطلح البحثي.....	١٦٤
الاستباط بالمفهوم بتأويل التذوق والسياق الخارجي للنص.....	١٧٢

الفصل الثالث : أنماط الاستنبطاط.....	١٨٤
المبحث الأول : الاستنبطاط بين الإفراد والتركيب.....	١٨٥
أولاً: الاستنبطاط باعتبار الإفراد.....	١٨٥
ثانياً: الاستنبطاط باعتبار التركيب.....	١٩٨
المبحث الثاني: الاستنبطاط بين الظهور والخلفاء.....	٢٠٨
أولاً : الاستنبطاط الظاهر.....	٢٠٨
ثانياً: الاستنبطاط الخفي.....	٢١٦
المبحث الثالث : أدلة الاستنبطاط.....	٢٢٨
الأدلة النقلية.....	٢٢٩
الأدلة العقلية.....	٢٤٩
الأدلة العكسية.....	٢٦٤
الأدلة الاستقرائية.....	٢٧٩
الفصل الرابع : الموقف الاستنباطي.....	٢٩٦
المبحث الأول : القبول	٢٩٨
المبحث الثاني: الاعتراض	٣١٧
المبحث الثالث : النقض	٣٤١
خاتمة الدراسة	٣٦٧
قائمة بأسماء المصادر والمراجع.....	٣٧٢
فهرس المحتويات.....	٤٠٧